المقتطف

الجزء الثاني من المجلد الرابع بعد المائة

١ فبراير سنة ١٩٤٤ ٦ صفر سنة ١٣٦٣

العلم والغذاء والمستقبل

الصحة العامة لا تتجزأ

العلم يضع أسس التحرر من العوز والجوع

شهد القرن الماضي وما انقضى من هذا القرن تحسناً عظيماً في الصحة العامة ، في كثير من أقطار العالم . وبعض هذا التحسن يرجع الى الأخذ بأساليب الوقاية الصحية ، والانتفاع بكشف أسباب الأمراض المعدية وباستنباط العقاقير الجديدة وبعضهُ يرجع الى التقدم الحثيث في علم التغذية . فمنذ قرن أخذ قواعد الصحة العامة في انكلترة . وفي النصف الثاني من القرن الماضي خطا الطب أعظم خطوة إذ اهتدى باستور الى اسباب الامراض المعدية . ومما تلا ذلك إقامة الدليل على ان العدوى قد تنتقل بالطعام والشراب كما في حالة التيفود والكوليرا وبالحشرات كالبعوض والبراغيث والقمل في حالات الملاريا والحمى الصفراء والطاعون والتيفوس ومع ان هذه الامراض ، دانت في كثير من البلاد لعلم العلماء والأطباء ، لا يزال الازدحام وسوء التغذية وسرعة الانتقال ، وهي مما يلازم الحروب ، تمهد لانتشار الأمراض المعدية . فوباء الانفلونزا في سنتي ١٩١٨ — ١٩١٩ تفشى تفشياً مروعاً فأصيب بهِ نحو ٧٠٠ مليون من البشر ومات به ما يزيد على ٢١ مليوناً . والتيفوس منتشر الآن في غير بلد واحد . ومن المرجح اذ تنتهي هذه الحرب ، ان يفضي تنقل الناس على سرعةٍ في عالم تكاد طائفة من شعوبهِ تتضوَّر جوعاً ، الى تفشي أعظم الأوبئة في التاريخ ، ان لم تتخذ التدابير اللازمة لحسمها على نطاق دولي

هذا الخطر العظيم ما فتئَ يشغل أعظم ثقات الطب وأقطاب الاجتماع ، وعلى وجهٍ خاص ، من يرمي منهم بنظره الى الفترة التي تلي الحرب . فجراثيم المرض جيش ، لا تصدّهُ الحدود الجغرافية ولا السياسية . فيجب أن يكون دفعه مهمة تضطلع بها الدول جميعاً ، وفقاً لخطة مرسومة. وقد أعرب الدكتور هيوسمث — رئيس قسم الصحة الدولية في معهد ركفلر بانكلترة — عن هذا المعنى بقولهِ : « إن التقدم العظيم في أسباب النقل وفي انشاء طرقٍ جديدة للسفر والمبادلة ، أخذ يحوّل العالم قاطبةً الى جماعة واحدة . ولما كان من المستحيل اقامة حاجز ما يمنع سَرَيان أمراضٍ معدية كثيرة ، الى بلد من البلاد ، وجب على كل أمةٍ ان تصرف همها الى الاهتمام بالاحوال الصحية في جميع الأمم الأخرى ». فيصحُّ إذن أن نقول ان الصحة العامة لا تتجزَّأ ، كما أن رجال السياسة والاقتصاد قالوا إن السلامة والرخاءَ لا يتجزَّآن

***

على انَّ مدار البحث في هذا الفصل ، هو الغذاء ، لا المرض . واذا أردنا ان يقوم عالم الغد على أسٍّ سليم فيجب أنْ يوفر الغذاء الكافي قدراً ونوعاً لجميع الناس ، أي يجب أن يحقق « التحرُّر من العوز » وكذلك « التحرُّر من الخوف » — خوف الجوع والمرض .

وقد ارتقت العلوم التي لها صلة بالتغذية ارتقاءً عظيماً خلال الخمسين سنة الاخيرة . على أثر الدليل الناصع الذي أقامهُ داروِن ، وهو انهُ يجوز أن يطبَّق على البشر ما يسفر عنهُ البحث التجريبيّ في الحيوان. ومعظم بحوث التغذية، أجري أولَ الأمر في الحيوان ، ولاسيما الجرذان . وهذه البحوث وضَّحت لرجال العلم أصناف الطعام التي يجب أن تتوافر في الغذاء الكامل، علاوةً على مقاديرها . وقد أثبت السر جون اور — الخبير البريطاني العظيم في مسائل التغذية — وغيره ان الغذاءَ الوافي أحد الأركان التي تقوم عليها الصحة السليمة ، وان هناك صلة وثيقة بين هبوط مستوى التغذية وهبوط مستوى الصحة العامة ، ثم بين هبوط مستوى التغذية ، وهبوط الكفايات العقلية بوجهٍ عام . وقد عني باحث انكليزي يدعى نول Noll ، بالفحص عن مدى انتشار الأمراض في الأمة البريطانية ، فوجد أن اربعة اخماس الأمة، تشكو ولا تدري ، علةً ما فهي تترجح من فقر دم بسيط الى نموّ خبيث . وهذا بحدّ نفسهِ يشير اشارة هيِّنة الى عظم المشكلة التي تواجهها الامم بعد الحرب ، في تحسين الصحة ، عن طريق الوقاية والعلاج ، وعن طريق توفير الغذاء الصحيح كذلك . فالمشكلة ليست علمية طبية فحسبُ ولكنها مشكلة اجتماعية أيضاً .

ان بحث الغذاء الصحيّ لا يزال في مهده حتى في أرقى الأمم . ويقول كتاب « العلم ونظام العالم » « ان هذه البلاد — يعني انكلترة — لم تكد تدرك ان الغذاء الصحيح هو احدى

مشكلات الصحة العامة لأن معظم ما نعرفهُ عن التغذية الصحيحة جديد »

هذا العلم — علم التغذية — يشمل ناحيتين ، أما الأولى ، فما يجب أن يأكلهُ الناس وأما الثانية فما يأكلونهُ فعلاً . وقد تقدَّم البحث العلمي ، في المواد الأساسية التي يحتاج اليها الجسم ليصيب الغذاء الصحيح الوافي ، تقدماً عظيماً خلال ربع القرن المنصرم ،وغدا الاتفاق عليها عامًّا بين العلماء . وبالرجوع اليها ندرك الآن ان الكثرة الغالبة من البشر كانت لا تصيب — حتى في ايام السلام — القدر الوافي من الطعام الصحي . وقد استخرج العلماء الادلة على انتشار سوء التغذية انتشاراً يبعث على القلق بأساليب شتى، منها الاحصاء الاقتصادي والصحي ، ومنها التجارب السريرية والمعملية

وكان رائدا البحوث الاقتصادية رجلين انكليزيين يدعيان تشارلز بوث وسيبوم رونتري . وقد نشر ثانيهما ، من عهد قريب ، نتيجة بحثه المتواصل ، في مدينة يورك . وأساس هذا البحث ، مَا ينفقه الناس من مختلف الطبقات على الطعام . ولكن مقياس المال ليس مقياساً صحيحاً اذا لم يقترن بمعرفة مواد الطعام التي تُشترى وتستهلك . فعني السر جون اور بهذه الناحية ، في بحوث مستفيضة أيدتها بحوث من قبيلها في بلاد أخرى. نخلص الى : ان طعام نصف السكان لا يكفي لاقامة الصحة لأنهم لا يستطيعون ان ينفقوا المال الكافي لشراء الطعام الصحي اللازم

وقد يظن ان قلة الأمراض التي توصف عادة بأنها امراض نقص الغذاء ،كالبريبري والاسقربوط، دليل ناهض على ان رجالاً من أمثال السر جون اور أدنى الى التشاؤم في تصوير حالة الغذاء الصحي في انكلترة ولكن رجال الطب والصحة العامة في بريطانية اخذوا يلاحظون ان كثيراً من الضعف العام والاعياء اللذين لا يصحبهما مرض معين ، يرجع الى نقص المواد الغذائية اللازمة في الطعام منذ الطفولة . وقد كشف علماء الطب اساليب شتى تمكنهم من « تشخيص » هذه الحالات ، وكذلك تدل التجارب في الولايات المتحدة وكندة وبريطانية ان في سكانها نقصاً كبيراً في التغذية الصحيحة

ويؤخذ من هذه الأبحاث ان نقص الحديد ونقص الكلسيوم منتشران، والى الأول يعزى فقر الدم والى الثاني تشوه العظام والاسنان . وقد فحص في نيويورك مائة وثلاثة وأربعون بالغاً ينتمون الى طبقة من السكان دخلها قليل ، فأسفر الفحص عن انهم جميعاً مصابون اصابات ظاهرة مرجعها الى نقص فيتامين A في طعامهم . وقيود الحرب ، وما يصحبها من نقص الفواكه واللبن والبيض الطازجة ، من شأنها ان تقلل العناصر الغذائية الاساسية المتاحة لجماهير الناس

وبحث فريق آخر من العلماء بحث مقارنة ، بين طبقات الشعب ، وفقاً لدخلها . فوجدوا ان طلبة المدارس الذين ينتمون الى أسر ذوات ثراء او اكتفاء ، أطول قامة على المعدل ، وأكبر وزناً ، وأقوى من طلبة المدارس الذين ينتمون الى أسر لا يكاد دخلها يكفي لاقامة أودها . وقد ظهر كذلك ان انتشار السل بين العمال غير المتقنين ، يفوق ثلاثة أضعاف انتشاره بين الذين دخلهم أكبر من دخل هؤلاء العمال . وبلغ معدل وفيات الأطفال بين العمال أربعة أضعاف معدل وفياتهم في الاسر الموسرة . نعم ان الغذاء عامل واحد من عوامل متعددة تفضي مجتمعة الى هذه النتيجة ، ولكنه عامل لا يختلف فيه اثنان

ونقول « لا يختلف فيه اثنان » لأن هذه النتيجة المستخرجة من الاحصاء القائم على مقارنة المعدلات والمتوسطات أيدتها تجارب محكمة . فقد أختيرت طائفة من الأطفال الذين لا ينالون الغذاء الصحي الوافي ، ثم أتيح لهم هذا الغذاء ، فزاد وزنهم وقوتهم وتحسنت صحتهم. ثم أجريت تجارب في الجرذان ، لمعرفة الأثر الذي يتركه فيها الغذاء الغالب في شعوب شتى . فظهر ان الغذاء الغالب في غرب اوربة ينجب جرذاناً ضعيفة وان الغذاء الغالب عند قبائل « السيخ » يجعل الجرذان صحيحة قوية . وأجريت تجارب اخرى في وادي رونده فأعطيت النساء الحوامل غذاءً صحيًا كاملاً فهبط معدل الوفيات بينهن الى ثلث ما كان عليه

ثم هنالك طائفة أخرى من التجارب ، تطوع لها من تطوع ، لبحث نقص الفيتامينات وأثره في الصحة . فأعطى فريق من التطوعين طعاماً يعوزه فيتامين C ، فما لبثوا ان أحسوا بالضعف والاعياء ، مدة طويلة قبل ان تظهر عليهم أعراض الاسقربوط . وأعطي غيرهم طعاماً يعوزه فيتامين B^1 ب ١ فأحسوا بانقباض وإعياء ودوار وألم في الظهر . وقد وصف احد الأطباء هؤلاء الذين لا ينالون الكفاية من فيتامين ب ١ بأنهم « كمن يحتاج الى عطلة يقضيها على شاطئ البحر ليستجم ويسترد عافيته » . وواضح ان نقص بعض انواع الفيتامين لا يحدث اعراضاً ظاهرة ما تدفع الى استشارة الطبيب وطلب العلاج ، ولكنها تكون كافية للشعور بالاعياء فتهبط القدرة على العمل ، وتزيد القابلية للاصابة بمرض معدٍ ، ويكل النشاط البدني والعقلي

وقد يفوز بلدٌ ما بالقضاء على الجوع في مظهره الأوسع قضاءً تامًا ، وعلى وجوه النقص البارزة في الطعام ، ولكنهُ يظلُّ مع ذلك في حاجة الى تدبُّر مسائل الغذاء الدقيقة الخفية . وقد قال الجنرال باران كبير جرّاحي الجيش الاميركي : « ان سوء التغذية كجبل الجمد عشره بادٍ وتسعة أعشاره خافية »

وليس ثمة ريب في أن ما تخسره الأمة ، من جراء سوء التغذية ، يبلغ مبلغاً عظيماً ،

إذا كان الانتاج والكسب أساس التقدير . ولكن ما لا يمكن قياسهُ بالمال هو ما ينشره من نكدٍ وانقباض وشعور بسوء الحال ، بين الذين ساءَت تغذيتهم

***

فاذا أراد القابضون على عنان المستقبل ، ان يحرّروا الناس من العوز ومن الخوف فعليهم ان يتدبّروا هذه الحقائق . فلا قيام للمجتمع الانسانيّ الأمثل إلاَّ اذا توافرت لهُ عناصر البيئة المادية ، التي تحسن فيها الصحة وينشط العقل وتستريح النفس ، والطعام الوافر الصحي في طليعتها

وقد يرتاب كثيرون في القدرة على إقامة هذا المجتمع الانساني الامثل . ولكنَّ العلماءَ لا يرتابون ، إن كانت العقبة الوحيدة دون اقامته هي عقبة توفير العناصر المادية اللازمة لهذه البيئة . فهم يعلمون أن العلم قادر على توفيرها ، وأنَّ ما تمَّ من هذا القبيل حتى الآن لا يكاد يكون — على عظمتهِ — شيئاً مذكوراً بالقياس الى ما يمكن أن يتم

فقد خطا علماءُ الأحياء والزراعة خطوات فساحاً في زيادة المحصولات التي تنتجها الارض بفضل الأساليب الجديدة التي ابتكرها العلم وزكّتها التجربة ، في فلاحة الأرض وبذر البذور ، وجني المحصول ، وتوليد أصناف جديدة ، وتربية الماشية ، ومكافحة الحشرات وما أشبه ذلك . وقد أصابوا نجاحاً في استنباط أساليب جديدة لحفظ الطعام بالتبريد المريع ، ولنقلهِ في أقل حجم بالتجفيف ونزع الماء منهُ . وقد يؤخذ محصول واحدٌ من البرقوق مثلاً ، فيشحن قسم منهُ غضًّا الى بلادٍ نائية ، ويجمَّد بعضهُ بالتبريد المريع ، ليستعمل حين الحاجة اليهِ فيكون كالغضّ تماماً ، ويجفف بعضهُ الآخر بنزع الماء منهُ ، فيشحن مسحوقاً توفيراً للمكان في سفن النقل ، ويحفظ بعضهُ في العلب

ومن عهد قريب قال وزير الزراعة الاميركي : ان كل طنٍّ من الماء يستخرج من اللبن الحليب واللحم والبيض والفواكه والخضر في منزلة طنٍّ من القنابل تلقى على أرض المحور . وكل طنٍّ من الماء نمتنع عن نزعهِ من هذه المواد الغذائية قد يعني جوعاً لفريق من رجالنا المسلحين أو أبناء حلفائنا . . . فالطعام الذي ننقله من بلد الى بلد يجب ان يحشد في أقل نطاقٍ وأضيق مجال . وليس في السفن مكان للماء ينقل بها بغير ضرورة في بحار الأرض السبعة

والى هذه الحقائق الحربية مردُّ صناعة التجفيف التي أتقنت واتسع نطاقها خلال هذه الحرب . ولا بدَّ أن يكون لها مقام لا ينكر بعد الحرب للنهوض بما تقتضيهِ أعمال الغوث والتعمير . فالحاجة الى الطعام في شتى أنحاء الارض ستكون عظيمة وملحّة ، والحاجة الى السفن كذلك . والطعام المجفّف يوفق بين الحاجتين ويتيح للشعوب التي استبدّت بها ضرورات

الحرب ومقادير وافرة من الطعام المغذي في أقل متسع من سفن النقل . فصناعة التجفيف من أمضى الأسلحة في تحرير الناس من الفاقة والجوع

ولكن العلماء لم يقنعوا بالوقوف عند هذا الحدّ ، بل عمدوا الى إكمال عمل التجفيف بفعل الضغط . فانك اذا أخذت عدداً من البيض يزن مائة رطل وجففته ، أصبت مسحوقاً يحتوي على جميع العناصر الأساسية في البيض وهو لا يزن اكثر من ٢٢ رطلاً . ومائة رطل من البيض تشغل اربع اقدام مكعبة ، ولكن ٢٢ رطلاً من المسحوق لا تشغل اكثر من قدم واحدة مكعبة . وفي هذا توفير عظيم . ولكن اذا أضفت الضغط الى التجفيف فانك تستطيع ان تحشد هذا القدر من المسحوق ، في مكعب لا يزيد طول ضلعه على نصف قدم . وقد عولج التفاح المجفف والبصل المجفف على هذا الغرار بنجاح

وكما كانت الحرب باعثاً على اتقان صناعة تجفيف الطعام وضغطه كذلك كانت باعثاً على التوسع في صنع الفيتامينات بالتركيب الكيميائي . ثم استعملت لتعزيز مواد الطعام السائرة لسد ما فيها من نقص غذائي . ويقول روي هندريكسون ، مدير ادارة توزيع الطعام بوزارة الزراعة الاميركية ، ان ٩٧ ٪ مما يصنع من المرجرين ، معزز بفيتامين A وقد سبق لنا ان وصفنا في المقتطف الخبز المعزز الذي صنع في بريطانيا والولايات المتحدة وهو يحتوي انواع الفيتامينات والمعادن التي يفقدها الدقيق حين إعداد القمح وطحنه

وقد حفزت الحرب العلماء الى البحث عن مواد غذائية « جديدة » . ولنعني بالجديدة : الاغذية العريقة في التاريخ ، ولكنها أُهملت الى أن كشف العلم الحديث قيمتها . ففول الصويا ، مثلاً ، حافل بالعناصر الغذائية ودقيقهُ مصدر رخيص للبروتينات ، فاذا كانت جراية اللحم قليلة ، اعتيض ببروتيناتهِ منها . ثم ان الخميرة التي كانت تنبذ ، في صناعة الجعة ، مصدر غني بالبروتين . وفي أنباء الولايات المتحدة ان طريقة جديدة قد ابتكرت لتحويلها الى مادة مغذية كاللحم ، ولها طعمهُ الطيب . وقد ثبت ان « الجوافا » أغنى مصدرٍ معروف بفيتامين C ويستطاع تجفيفها فاذا مسحوقها طيب النكهة ويصلح في صنع المربيّات وغيرها

فالآفاق التي يستشرفها العلم الحديث ، في توفير الطعام الصحيّ للناس ، لا تُحدُّ . ولكن المشكلة لا تحلُّ بالوقوف عند حدّ ما يستطيعهُ العلم ، بل تتعدّاهُ الى ما تستطيعهُ الحكومات ، من إحسان التوزيع ، ورفع مستوى العيش ، وما تستطيعهُ معاهد التربية والصحف ومحطات الاذاعة ، من نشر حقائق التغذية الصحيحة والحث على الأخذ بها . فالغذاء الصحي ، أحد اركان الصحة العامة ، والصحة العامة رأس مالٍ ، تصغر في جنبه ملايين الملايين

فؤاد صرّوف

تحية لبنان المجاهد

لخليل ثابت بك

زار مصر في الشهر الماضي وفد لبنان وعلى رأسه دولة رياض بك الصلح . أقبل عن أمة أبية ناضلت فظفرت . وقد نشط وادي النيل للوفد الكريم وأعظمه ومن المآدب الفاخرة الحافلة التي أدبت تحية له مأدبة المصريين المنحدرين من أصل لبناني ، في الثالث عشر من يناير (كانون الثاني) . وفيها ألقيت خطب وأنشدت قصائد . ويطيب المقتطف ان تنشر الخطبة الفاتحة . وهي للاستاذ خليل ثابت بك رئيس تحرير المقطم ومن أعضاء مجلس الشيوخ بمصر ، لانها تسجل يوماً خطيراً في تاريخ البلدان العربية الجارية الآن الى التآلف والتماسك ، ذلك إلى جنب أنها مشبعة الاداء ، بعيدة الغاية .

في الاثر المأثور يا سادتي ان لكل مقام مقال ، فأي مقال يصلح لهذا المقـــام وأي مقال يليق به

لقد والله تمنيت ان يكون خطيبكم الليلة ابو تمام الطائي او ابو الطيب المتنبي او السموأل ابن عادياء فيصف هذا او ذاك ببليغ الشعر وجزل اللفظ وحسن الديبـــاجة ما تجيش به الصدور من حمية وحماسة وما يخامر النفوس من غبطة وابتهاج وما يهز اوتار القلوب من أماني وآمال حقق الله آمال الشرق العربي وأمانيه

وقد وجدت مجال القول ذا سعة فان وجدت لساناً قائلا فقل

أما بعد فخير ما يستهل به المقال في هذا المقام ان نرفع باسم كل لبناني ولبنانية وكل سوري وسورية وكل منحدر من اصل لبناني أو اصل سوري أسمى آيات الاخلاص والولاء وأبلغ عبارات الحمد والثناء الى جلالة الجالس على عرش مصر الازلية الفاروق المعظم فقد طوق عنق لبنان بعطفه السامي وفضله الملكي وأسدى الى اللبنانيين في وطنهم ومهاجرهم أيادي ستبقى مذكورة مدى الدهر . وسيكون شعار لبنان في قلوب اللبنانيين بعد اليوم الارزة الخالدة يزينها الاسم الكريم اسم الفاروق العظيم الذي يهتف به الآن في كل مكان

لن ينسى لبنان يا مولاي وكيف ينسى وأنت القائل « واني مع لبنـــان الى النهاية » هذه العبارة التي نقشت في صفحات الصدور وعلى ألواح الاذهان

يا مليك القلوب وياحبيب العروبة ويانصير لبنان أطال الله عمرك وأيد ملكك ووطد

عرشك وعظم مجدك — دعاء يصــدر من صميم الافئدة ويصعد في طبقات السماء الى سدرة المنتهى

ونقدم أصدق فروض الشكر الجزيل ونعرب عن شعور الامتنان الكثير الى حكومة جلالته السنية برئاسة صاحب المقام الرفيع الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا فقد دافعت عن قضية لبنان اعظم دفاع وأثبتت للملأ ان الاتحاد العربي حقيقة واقعة سيكون لها في مصر والشرق كله شأن أيما شأن

وماذا نقول للامة المصرية الكريمة هذه الامة العزيزة التي نتشرف بالانتساب اليها والتي أصبحنا جزءاً منها والتي نحن مستعدون اذا جد الجد لأن نبذل دمنا وأولادنا وأموالنا في خدمتها والدفاع عن كرامتها وسلامتها

ماذا نقول لها وقد جعلت قضية لبنان قضيتها فهبت كرجل واحد وغضبت غضبة «مصرية» ونادت بصوت واحد تطالب بالعدل والانصاف وتناصر دعاة الاستقلال — هذه الامة التي أحرزت زعامة العالم العربي فبايعتها شعوبه راضية مختارة — هذه الامة التي يحق لها ان تقول :

قومي استولوا على الدهر فتىً ومشوا فوق رؤوس الحقب

ماذا نقول لها رداً على هذا العطف وهذا الحب وهذا الاخاء

حياك الله يا مصر وبياك وأنالك أقصى أمانيك وخير أمانينا لك واذا عجز اللسان عن بيان فضلك والتغني بمكارمك فالقلوب تخفق بحبك والدعاء يرتفع بضمونك ياكنانة الله في أرضه

لقد كان ماحدث في لبنان ياسادتي امتحانا. كان امتحانا دقيقاً عسيراً للديمقراطية والحرية وميثاق الاتلنتيكي واتحاد العروبة وروح لبنان وأهله فجاز الجميع الامتحان والحمد لله وانطلقت الألسنة والانباء تزف هذه البشرى الى كل نصير للحرية ومحب للاستقلال

وأنتم ايها السادة الكرام لقد جئتمونا بنفحة من طيب لبنان العزيز ذكرت غير واحد منا بمعاهد الصبا ومغاني الشباب ولكنكم جئتم بما هو أعظم من هذا شأنا فقد تمثلنا فيكم وفي اخوانكم مظاهر نهضة لبنان هذه النهضة الوطنية الشريفة التي كانت موضوع فخر الشرق واهتمام الغرب والتي أيدت الحقيقة التاريخية الازلية وهي ان الله خلق الناس احراراً وعززت الحقيقة الاخرى وهي ان كل شعب يقبل الضيم لايستحق ان يعيش

لقد عرفنا البنفسج ينبت في ربى لبنان تحت اطباق الثلج حتى اذا طاعت عليه شمس الربيع ذاب الثلج وأزهر البنفسج ينشر طيب شذاه في الآفاق

ذاب الثلج عن لبنان وأشرقت عليه شمس الحرية والاستقلال وفاح في الجو أريج هذه النهضة كما عبق عبير البنفسج من قبل الآن

لقد اعتقلتم وروعت بناتكم واطفالكم ودهمت دوركم في جنح الظلام ونقلتم الى باستيل القرن العشرين ذلك الباستيل الذي سيرمز به بعد اليوم الى فشل بطش القوة وانتصار الحق والعدل على البغي والعدوان

هنيئاً لكم وهنيئا للبنان بكم فلقد خططتم في تاريخ الشرق صفحة منيرة مزدانة بخير ما تزدان به صفحات الامم. فعلم الخاص والعام ان في سويداء لبنان رجالا وان في سويداء لبنان نساء. بارك الله في نساء لبنان أمهات الابطال وزوجات واخوات وبنات الشجعان فقد نافست نساؤكم رجالكم في الذود عن كرامة شعبكم واستقلال لبنانكم

حيا الله اولئك السيدات الكريمات فانهن لم يرهبن المدافع ولا بالين بالخطر . أنعم بهن وأنعم بكم

ولا أحاول هنا ان أفيض في وصف مآثر رياض الصلح واخوانه الوزراء والنواب العاملين معه وسائر اركان النهضة الكريمة فان هذه الاستقبالات الرائعة والهتافات العالية والحفاوة العظيمة التي يلقاها الرئيس وزميلاه من جميع مصر ملكها وحكومتها وشعبها والموجهة اليهم والى حكومة لبنان وشعبه لاتبلغ ما يمكن ان يقال في بيان فضله وفضلهم وتقدير جهاده وجهادهم

ستعودون الى وطنكم الأول وقد ازددتم ثقة بالمستقبل بما شهدتم في وادي النيل السعيد من ارتياح الى نجاح قضيتكم وأمل عظيم بمصير شعبكم ودعوات صالحة باطراد نجاحكم وعهود صادقة بشد أزركم

فاحملوا معكم غير مأمورين خير تحية وتقدير للبناني الاول فخامة الشيخ بشارة الخوري فقد أحسن تمثيل روح النهضة اللبنانية وفعل في الازمة الحاضرة ما يطابق أماني اللبنانيين في جميع أقطار الارض

لقد أخذتم انتم رجال الحكم في لبنان على عاتقكم عبئاً عظيماً واضطلعتم بتبعات خطيرة وقد يكون ما هو آت أشق مما مضى واكبر. وفي قديم الزمان قال المجربون « أرسل حكيما ولا توصه » وأنتم الحكماء والحمد لله فلا تحتاجون الى من يوصيكم . غير ان هنالك رسالة أرى فرضا علي ان ارسلها. ورسالتنا نحن الذين لم يتح لهم مشاركتكم في جهادكم بالفعل انتم حراس لبنان — هي اننا معكم مستعدون لتأييد كل ما يعزز قواعد استقلال لبنان ويرفع قدره ويعظم شأنه ويصون كرامته

ستلقى في طريقكم العثرات وتخلق لكم مشكلات وعقبات . وسبيلكم الى نزع الاولى وتذليل الثانية بعد عون الله اتحادكم وعقد خناصركم وتعزيز صرح قوميتكم باقامته على أسس العدل والانصاف ونزاهة الحكم والمساواة بين الجميع قولا وفعلا وأن يعمد اللبنانيون جميعا الى بناء كيانهم القومي لا على القاعدة الضيقة قاعدة الخلاف الديني والفروق المذهبية بل على القاعدة الكبيرة قاعدة مصلحة الوطن والاشتراك في اللغة والتقاليد والعادات والاتجاه وحسن صلات المودة والاخاء بجيرانكم اخوانكم الاعزاء

وفقكم الله الى ما فيه صلاحكم وخيركم وشمل لبنان وسائر أقطار الشرق العربي بعنايته ورعايته ، إن الله أكرم مسؤول

خليل ثابت

الصناعات المصرية[1]

أثرها في الرخاء القومي في زمن السلم والحرب

للدكتور حافظ عفيفي باشا

مصر بلاد زراعية

هكذا كانت منذ القدم . وهكذا ستظل آخر الدهر ما دام يجري فيها النيل العظيم بلا انقطاع ويحمل الى أرضها الماء العذب والخصوبة . وما دامت شمسها الساطعة المشرقة تبعث الحياة والنمو في كل ما تنبته أرضها من مختلف المزروعات

ولو كانت الارض المصرية المنزرعة والتي تستصلح للزراعة تكفي غلتهما معاً كل المصريين لما كان في هذا غناء عن التفكير في ايجاد مورد آخر غير الزراعة يعتمد عليه المصريون في حياتهم هذا الزمان . فما بالنا والأرض المنزرعة الآن — رغم جميع الجهود التي بذلت لزيادة الانتاج وتنويعه وتحسينه — لا تكفي مطالب كل سكان هذا البلد الذي انخفض فيه مستوى المعيشة الى الحد الذي نعرفه جميعاً ، وان ما يمكن استصلاحه من الاراضي غير المنزرعة لا يتكافأ مع الزيادة المطردة في عدد السكان حتى اذا رضينا بهذا المستوى المنخفض

وعدم التكافؤ بين نسبة مساحة الأرض المنزرعة والتي يمكن استصلاحها ، وبين عدد السكان في الحال والمستقبل يرسم لنا خطوط مشكلة اجتماعية معقدة تنذر بأخطار شديدة إذا لم يتدارك أولو الرأي في هذه البلاد مواجهتها من الآن بما يناسبها من علاج حاسم

***

نحن نشكو ونضج بالشكوى من انخفاض مستوى المعيشة في مصر

ونحن متفقون على ان أساس الاصلاح الاقتصادي والاجتماعي أو الصحي أو الثقافي أو أي اصلاح آخر مرتبط أشد الارتباط بما نستطيع عمله لتحسين حالة الفقر التي يعانيها كثرة المصريين

لذلك وجب على جميع المفكرين أن يبحثوا بامعان في الوسائل العملية التي تؤدي الى علاج

---

(١) محاضرة القاها حضرة صاحب السعادة الدكتور حافظ عفيفي باشا عن الصناعة المصرية في الثالث والعشرين من يناير ١٩٤٤ بصالة (المراد) : في قاعة المحاضرات بالجمعية الزراعية الملكية بالجزيرة

مشكلة الفقر في مصر علاجاً ناجعاً حتى يمكن رفع مستوى معيشة كثرة أهل هذه البلاد الى الحد الذي نرجره

ولا يكفي للوصول الى هذا الهدف أن تقرّر أية سلطة رفع الأجور أو المرتبات مثلاً ، فذلك طريق هيّن ولكنهُ لا يؤدي إلاّ الى علاج مهدىء ، فضلاً عما هناك من عوامل اقتصادية كثيرة تحد من سلطة الحكومات في هذا الشأن . وإلاّ تعرضت البلاد من وراء استمرار رفع الأجور بمثل هذه الوسائل الى أزمات اقتصادية تكون نتيجتها عكس ما نرجو فتزداد الحالة سوءًا وعسرا

انما علاج مشكلة الفقر علاجاً ناجعاً هو في زيادة انتاج الأيدي العاملة وفي استثمار جميع ينابيع الثروة في البلاد استثماراً مبنيًا على أساس من العلم والخبرة

وليس لنا أن نطمع كثيراً في تحسين مستوى المعيشة في مصر اذا ظلّ اعتمادنا مقتصراً على الانتاج الزراعي وحده . ذلك بأننا بعد جهود مضنية كدنا ننتج من أرضنا أقصى ما يمكن انتاجه دون أن يترتب على هذه الجهود ارتفاع كبير في مستوى المعيشة

وليس هذا بغريب، فالواقع ان البلاد التي تعيش من الزراعة وحدها بلاد فقيرة

لذلك يجب علينا أن نركز الكثير من جهودنا في زيادة الانتاج الصناعي أيضاً . فصناعتنا لا تزال ناشئة . وهي لا تشغل إلا حيزاً صغيراً من ميدانها الفسيح . ولا يزال أمامنا في هذا الميدان نواحٍ عديدة ومنابع غزيرة يجب استغلالها على أحدث الاساليب . كما يجب على حكوماتنا أن تشجع المفكرين والمبتكرين وأصحاب رءوس الأموال على الاقدام للدخول في هذا الميدان بدلاً من استثمار أموالهم وحصر جهودهم في الزراعة وحدها . فتشجيع الحكومات أمرٌ لا بد منهُ في أول النهضة الصناعية لأن الاستثمار الصناعي محفوف بأشد الاخطار ومعرّض لكثير من المفاجآت التي تثبّط الهمم

واذا كانت الزراعة تدر أرباحاً محدودة وكانت مفاجآتها تنحصر في نقص غلة محصول من المحاصيل في سنة من السنين فان رأس المال فيها مضمون الى حدٍّ كبير. على حين مفاجآت الصناعة أشد خطراً إذ قد يتضاءل فيها رأس المال نفسه بل قد يضيع كله أحياناً . وهذا هو رأس العلة في إحجام الممولين المصريين عن استثمار أموالهم في الصناعة — وهم الذين ألِفوا عدم المجازفة والمغامرة وفضلوا الحصول على ربح ضئيل مضمون على آخر جزيل محتمل

ولا يكفي لتبديل هذه الحال أن تقتصر الحكومة على النصح والارشاد بل لا بدّ من اتخاذ جميع التدابير التشريعية والعملية لاقناع هؤلاء الممولين بأن أموالهم ومصالحهم في بعض الأمن من مفاجآت الصناعة . وألاّ تنتهز الحكومة كل فرصة ملائمة لرواج الصناعة

فتُثقل كاهلَها بضرائب قد تكون محتملة في وقت هذا الرواج ، ولكنها تضيّع حتماً على رجال الصناعة أحسن المناسبات للاستفادة من هذا الانتعاش المؤقت لتوسيع مصانعهم وتحسين آلاتها واتقان منتَجاتها ووضعها على أساس مالي متين حتى تستطيع الصناعة أن تقاوم ما قد يصادفها من أزمات وما يعترضها من مختلف المتاعب في المستقبل .

هذا هو تشجيع الحكومة الحقيقي للصناعة

وهذا هو السبيل لإقناع المصريين لاستثمار أموالهم فيها

وبهذا فقط تتوافر الأموال اللازمة لها ويتسع النشاط الصناعي الذي تتطلبهُ حاجات البلاد

أما أن تبحث الحكومة كل ما يفرض على الصناعة من ضرائب في جميع البلاد الصناعية العريقة وأن تسعى الى فرض أمثالها على الصناعة المصرية الناشئة فهذا أمرٌ يدعو الى التفكير والامعان الشديد

فان الصناعة في مصر لا تزال — كما قدمتُ — في دور الطفولة والتجربة ، وهي أشد الأدوار الصناعية خطراً وأكثرها كلفة . وليس في استطاعتها أن تحتمل ارهاق أمثال الضرائب التي تفرض الآن في بلاد محاربة تنفق يومياً على الحرب عشرات الملايين من الجنيهات

***

واني حينما أدعو الى تشجيع الصناعة في مصر والى تحويل جزء كبير من أموال البلاد ومن مجهودات شبابها المثقف الى الناحية الصناعية فلست أدعو الى التعلق بالخيال أو التشبث بالمحال . فقد أثبتت الظروف أن نجاح الصناعة في مصر ممكن ، ميسور . وأن جميع أسباب نجاحها متوفرة . فالمادة الأولية موجودة عندنا . والوقود الطبيعي متوفر . وتوليد الحرارة بالطرق الصناعية مستطاع . وأهم من ذلك أن المصري صانع ذكي ماهر . وكانت بلاده مهداً لصناعات يدوية كثيرة . واشتهر اجداده قديماً بالمهارة والابتكار وحسن الذوق

وإن نظرة سطحية الى متاحف الآثار الفرعونية أو الاسلامية في جميع انحاء العالم والى ما تحويه من بدائع الصناعات اليدوية الدقيقة التي أخرجتها عقول مصرية وصاغتها أيدٍ مصرية لتكفي للدلالة على تقدم الصناعة المصرية في عهدها القديم

واعتقادي أن هذه الأجيال الطويلة التي ماتت فيها الصناعة أو كادت لم تضعف من مهارة الأيدي المصرية . فلا يزال العامل المصري مستعدٌّا لاتقان أية صناعة غريبة عنهُ اذا أُحسن تعليمه وإرشاده . وجميع الذين يتولون الاشراف على المصانع المصرية الآن يعلمون هذه الحقيقة ويعجبون بعمالهم المصريين وبسهولة ادراكهم لأسرار أكثر الآلات الصناعية دقة وتعقيداً

أذكر لكم بهذه المناسبة أنهُ لما صدقت النية على إنشاء مصانع الغزل والنسج في كفر الدوار اختير لهذه المصانع أحدث الآلات المستعملة في هذه الصناعة وهي آلات اوتوماتكيَّة أي تتحرك بنفسها وإنما تحتاج إلى اشراف عدد قليل من العمال المهرة . فرأى تجار هذه الآلات أن من واجبهم قبل اتمام الصفقة أن يوجهوا نظرنا الى ما سنلاقيه من المتاعب بسبب دقة هذه الآلات والى ضرورة اختيار عمال مهرة تمرنوا مدة طويلة على ادارتها وإلاَّ تعطلت عن العمل واحتاجت لاصلاحها الى الاستعانة بصناع من الاجانب . وفي هذا ما فيه من اضاعة للوقت والمال . فلم يأبه مؤسسو مصانع كفر الدوار لهذه النصيحة وصمموا على شراء أحدث ما أخرجته صناعة آلات الغزل والنسج

وقد أقيمت هذه المصانع من سنين كما تعلمون . ويدير آلاتها الآن مهندسون مصريون وعمال مصريون ويَندهش من يزور هذه المصانع الآن اذ يرى صبيًّا صغيراً لا يتجاوز السادسة عشرة ، امام أدق آلاتها صنعاً وهو يُحكم ما نيط به من عمل ويفهم معنى كل صوت تحدثه الآلة التي يشرف عليها ومغزى كل حركة من حركاتها

وكما أن أرض مصر تنبت الكثير ، وتحوي تربتها الكنوز من المواد الاولية ، التي تصلح لصناعات كثيرة فكذلك لا تنقص مصرَ رءوس الأموال اذا اتجه أصحاب الثروات فيها الى ناحية الصناعة وفكروا في استثمار جزء من اموالهم فيها بدل استثمارها كلها في الزراعة وفي شراء الأراضي بأثمان لا تناسب غلتها

على أننا — مع هذا — يجب ألاَّ نضع العراقيل أمام رءوس الأموال الاجنبية التي يريد أصحابها استغلالها في الصناعة المصرية ما دامت تخضع لقوانين البلاد

فان الصناعة تحتاج الى رءوس أموال ضخمة . كما أن استخدام مثل هذه الاموال في الصناعة لا يخلو من مجازفة لا يقدم عليها المصري بسهولة . فاذا صممنا على قصر رءوس الأموال الصناعية على الأموال المصرية وحدها فان التقدم الصناعي في مصر قد يتأخر زمناً طويلاً وليس هذا في مصلحة أحد

والواقع أن الصناعة في كل مكان لا تعرف جنسية الأموال المستثمرة فيها

فالأموال الاميركية تستعمل في الصناعات الانجليزية . والعكس بالعكس . والأموال الانجليزية والأميركية تستعمل الى حدٍّ كبير في الصناعة الايطالية والألمانية

وقد احتاجت اليابان وايطالية بصفة خاصة لإمكان ترقية صناعتهما في هذا الزمن الوجيز الى رءوس أموال كبيرة جاءتهما من البلاد الأجنبية

واذاً فجميع أسباب نجاح الصناعة في مصر متوفرة كما قدمت وبخاصة اذا بدأنا حياتنا

الصناعية بالحذر وبنينا أساسها على أحدث الأساليب العلمية والاقتصادية ولم نقصّر في البحث والاستقصاء قبل الاقدام على انشاء صناعة من الصناعات حتى نكون مجهزين بكامل العدد والوسائل .

***

وبعد ، فهل نحن في حاجة الى دليل لامكان قيام صناعات اهلية متعددة في مصر ، ولامكان استغلال جزء كبير من ثروتنا الأهلية ومن ثروتنا الفكرية في الميدان الصناعي بعد ان رأينا بأعيننا نجاح صناعات كثيرة تؤدي الآن للبلاد أكبر الخدمات

اني لا استطيع في الزمن الوجيز المحدد لي أن أجمل لحضراتكم اعمال الشركات الصناعية القائمة الآن أو مدى تقدمها وتعدد نواحي نشاطها ودرجة النجاح الكبير الذي أصابته في انتاجها من تحسين واتقان . فنظرة سريعة الى هذه المعروضات التي جمعت ونسقت في هذا المكان توضح لكم مدى التقدم الذي بلغته الصناعة المصرية في سنوات قلائل — هذا مع ان هذه المعروضات تمثل في الواقع جزءاً صغيراً من منتجاتنا الصناعية .

وانكم لتعلمون مع هذا ان الصناعة في مصر مولود حديث

فنحن قد بدأنا نفكر في الصناعة منذ الحرب العالمية الماضية حينما أحسسنا بكثير من النقص في حاجاتنا وبارتفاع أثمان ما كنا نجده منها ارتفاعاً كبيراً استحال معه على طبقات كثيرة من الأمة أن تحصل على مطالبها الضرورية

ولقد يذكر بعضكم انهُ لم يكن من السهل في فترة تلك الحرب الحصول على ثوب «البفتة» إلاّ بثمن باهظ بلغ وقتئذٍ نحو خمسة جنيهات وارتفع أحياناً الى ثمانية

هذا مع العلم بأن طرق المواصلات البحرية في الحرب الماضية لم تكن مقفلة باحكام كما هي في هذه الحرب القائمة ، اذ كان طريق البحر المتوسط مفتوحاً في الحرب الماضية الى نهايتها

على ان نشاطنا الصناعي الحقيقي لم يبدأ إلاّ بعد سنة ١٩٣٠ حينما تقررت التعريفة الجمركية الحالية التي روعي في وضعها وجوب حماية الصناعة في مصر وتخفيف أثر مزاحمة الصناعة الاجنبية لها

وقد انتهز هذه الفرصة السانحة فقيد البلاد المغفور له محمد طلعت حرب باشا فنهض واستنهض الهمم داعياً المصريين الى الاهتمام بالصناعة فنجحت دعوته . ولم يكتف بهذا بل عرض على بلاده مشروعات صناعية متعددة تمت دراستها بعناية ، وأشرف على تنفيذها وهي تقدم الآن للبلاد ، كما تعرفون ، أكبر الخدمات

فحياة الصناعة المصرية في الواقع دون العشرين سنة . وبالرغم من حداثة عهدها فانها

قد ترعرعت في هذه الفترة القصيرة ونمت نمواً كبيراً — في نطاق نشاطها — فاق ما كان يتوقعه أكثر المصريين تفاؤلاً واقتناعاً

فقد تأسس في هذه الفترة شركات مصرية كثيرة برءوس أموال كبيرة يتناول نشاطها الصناعي آفاقاً متعددة . وتنتج من المصنوعات أنواعاً وألواناً شتى

ويكفي لمعرفة قيمة الصناعة المصرية الآن—على انها عامل—في الثروة الأهلية أن نذكر أن نصيب الصناعة المصرية في هذه الثروة لايقل عن نصيب الزراعة بل قد يزيد عليه

فالبلاد تنتج الآن من المنتجات الصناعية ما يزيد ثمنه على ثمن محصول القطن المصري . كما يربو عدد العمال المصريين الذين يشتغلون في الصناعة ويرتزقون منها على مئات الآلاف يتناولون مرتبات سنوية تقدر ببضعة ملايين من الجنيهات.ويتناول العامل في المتوسط أجراً لا يقل عن ضعف ما يتناوله العامل الزراعي ، وقد يصل أحياناً الى خمسة أمثاله . كما فتحت لآلاف الشبان المتعلمين أبواب رزق واسعة كانوا لا يجدون مثلها من عشر سنوات الا بالتوظف في الحكومة

ولست أستطيع الآن أن أذكر لكم احصاءً وافياً عن رءوس الاموال المستثمرة في جميع الصناعات بمصر أو عدد الموظفين والعمال من المصريين الذين يعملون في الصناعة ويرتزقون منها ، ولكني أستطيع أن أذكر لكم بدقة بعض الأرقام عن بعض شركات مصر

رأس المال وعدد الموظفين والعمال ومرتباتهم السنوية والقطن المستهلك وكميات الانتاج في شركات النسيج

الشركة	رأس المال	عدد الموظفين	المرتبات السنوية	عدد العمال	الاجور السنوية	كميات الانتاج
	جنيه		جنيه		جنيه	
المحلة	١ر٠٠٠ر٠٠٠ * ١ر٠٠٠ر٠٠٠ سندات	٥٠٠	١٨٠٠٠٠	٢٥٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠	٧٠ر٠٠٠ر٠٠٠ ياردة أقمشة ١٨ر٠٠٠ طن غزل
كفر الدوار	٥٠٠ر٠٠٠	٣٥٠	٦٠٠٠٠	٥٠٠٠	١٩٠٠٠٠	٣١ر٠٠٠ر٠٠٠ ياردة أقمشة ٤ر٠٠٠ طن غزل
الحرير	١٢٥ر٠٠٠	١٥٥	٣٢٠٠٠	١٨٠٠	٨٠٠٠٠	٣ر٥٠٠ر٠٠٠ ياردة أقمشة
المجموع	٢ر٦٢٥ر٠٠٠	١٠٠٥	٢٧٢٠٠٠	٣١٨٠٠	١٢٧٠٠٠٠	١٠٤ر٥٠٠ر٠٠٠ ياردة ٢٢ر٠٠٠ طن

* استهلك جزء من هذه السندات

وبذلك يبلغ رأس مال هذه الشركات الثلاث (بما في ذلك قيمة السندات المصدرة)	٢٫٦٢٥٫٠٠٠	جنيه
ويبلغ عدد الموظفين والعمال	٣٢٫٨٠٥	أشخاص
وتبلغ مرتباتهم وأجورهم السنوية	١٫٢٧٠٫٠٠٠	جنيه
وتنتج من الأقمشة ما طوله	١٠٤٫٥٠٠٫٠٠٠	ياردة
ومن خيوط الغزل ما وزنه	٢٢٫٠٠٠	طن
وتستهلك من القطن ما وزنهُ نحو	٦٠٠٫٠٠٠	قنطار

هذا ما تؤديه الصناعة المصرية في زمن السلم من خدمات لأهل هذه البلاد وهو ظاهر لا يحتاج الى شرح طويل . فلقد رأينا انها فتحت أبواباً جديدة يرتزق منها جيش من الموظفين والعمال وهي تقدم للمستهلكين من المصريين بضاعة مصنوعة يقدر ثمنها بما يقرب من ثلاثين مليون جنيه سنويًّا ، كانت تأتي لهم من البلاد الأجنبية وبذلك يتسرَّب كل ثمنها الى الخارج

أما الآن ، وبعد أن قامت الصناعة المصرية في مصر ، فان ما يتسرَّب من هذه الأموال لا يزيد على ربع هذا المبلغ الضخم أو خمسه . وهو ثمن الآلات والمواد الأولية التي لا توجد في البلاد في الوقت الحاضر . وبذلك قد ساعدت الصناعة مساعدة كبيرة على تحسين الميزان التجاري في مصر بعد أن كان مائلاً لمصلحة أكثر البلاد الأجنبية قبل نهضة الصناعة الأهلية

ولتحسين الميزان التجاري أكبر الأثر في مركز البلاد المالي وفي اقتصادها القومي

ويضاف الى هذا أن قيام الصناعة في مصر كان له أكبر الأثر في زيادة موارد خزانة الدولة

ومع انهُ في غير الميسور معرفة قيمة الضرائب الصناعية البحتة بدقة فانهُ يمكن القول ، بناء على الاحصاءات الرسمية ، ان جملة الضرائب المختلفة على التجارة والصناعة التي حصلتها الخزانة في السنة المالية المنتهية في ٣٠ ابريل ١٩٤٣ قد زادت على ١١ مليون جنيه وستزيد حصيلتها حتماً على ١٥ مليون جنيه في السنة المالية الجارية

هـذا بخلاف المقدر لرسم الانتاج وهو نحو ٨ مليون جنيه . وهو ضريبة على الصناعة وحدها .

وعلى هذا فايراد الخزانة العامة من الضرائب المباشرة التي تحصل عليها من الصناعة والتجارة يربو على ٢٣ مليون جنيه دون احتساب ما يخصهما من الرسوم الجمركية . في حين أن نصيب الخزانة العامة من الضرائب العقارية على الأطيان والأملاك يقل عن الستة ملايين من الجنيهات

أما ما تؤديه الصناعة المصرية للبلاد من خدمات في زمن الحرب فهو أكبر أثراً وأكثر وضوحاً

وكما قلت لحضراتكم في أول هذه الكلمة ان الامم الزراعية أمم فقيرة وستبقى فقيرة ما اكتفت بالزراعة وحدها . كذلك أقول لكم أن الامم الزراعية أمم ضعيفة أمام الاعتداء الخارجي . وستبقى معرضة لكل غزو ما بقيت زراعية فحسب

وإذا كانت اليابان ، وسكانها لا يزيدون كثيراً على الخمسين مليوناً ، قد غزت الصين التي يبلغ عدد سكانها عشرة أضعاف سكان اليابان، فما هذا إلا لأن اليابان اكتفت الى ما قبل نحو خمسين سنة مضت بالزراعة وحدها . ثم عملت حكوماتها في هذه الفترة القصيرة على انشاء صناعات أهلية زاهرة . وأما الصين فقد رضيت بالزراعة مكتفية بها للآن ولم تأبه للصناعة. وأمامنا الآن ما تعملهُ روسية في هذه الحرب وما وصل اليهِ جيشها من القوة والاستعداد وما كان عليهِ هذا الجيش في الحرب الماضية

واعتقادي أن ما نراه من تفوق روسية الحربي الآن ما هو الا نتيجة طبيعية لمجهود تلك البلاد في الناحية الصناعية — ذلك المجهود الجبار الذي بدأ في الخمس عشرة سنة الاخيرة والذي بدت آثاره الآن ظاهرة للعيان . وليس من الممكن الآن او قبل الآن أن يعتمد بلد من البلاد في محاربة أي عدو له على استيراد أدواته الحربية من الخارج

فاذا كانت هذه النظرية صحيحة في الماضي فهي أصح في الحرب الحديثة التي تحولت فيها كل المعدات الحربيــة الى آلات ميكانية دقيقة وزاد استهلاك هذه الآلات الى حدٍّ كبير بعد استعمال الطائرات كآلات حربية أيضاً

ولأجل أن تتبينوا صدق ما أقول تصوروا أن مصر المستقلة دخلت في حرب مع أية دولة أوروبية — فماذا يمكنها أن تفعل ؟ ؟

يمكنها أن تشتري من المدافع والطائرات والقنابل ومن كل أدوات الحرب أكبر مقدار ممكن لتخزينه في وقت السلم . فهل هي تستطيع مهما ضحت بأموال أهلها أن تخزن من هذه المعدات ما يكفي لحـاجات حرب قد تدوم سنة أو سنتين أو ثلاثاً ؟ ؟ مع العلم بأن الطرق البحرية ستقفل في وجهها بمجرد اعلان هذه الحرب،ومع العلم أيضاً بأنهُ قد ثبت لنا مما رأيناه بأعيننا الآن أن آلات الحرب تتبدَّل وتتغير وتتحسن بين وقت وآخر وفي أثنـاء الحرب نفسها تبعاً للتجارب التي تحصل عليها إبَّـانَ المعارك

وقد رأينا في هذه الحرب ان الطائرات والمدافع والدبابات التي استعملت سنة ١٩٤٠ قد صارت الآن غير صالحة إلاَّ للعرض في المتاحف الحربية على أنها نموذج تاريخي قديم

أما ما كان يصنع منها بين سنة ١٩٣٥ وسنة ١٩٣٩ فقد أصبحت كلعب الأطفال إذا قورنت بما يصنع منها في سنة ١٩٤٤

أظنكم توافقون على انه ليس معقولاً ان تعتمد أمة في زمن الحرب على استيراد أدواتها الحربية من الخارج بل لا بدّ لها من الاعتماد على صناعتها الأهلية لامكان حصولها على أكثر ما يلزمها من ادوات الحرب

أريد أن أنتقل بكم بعد ذلك الى نقطة جوهرية أساسية، وهي أنهُ ليس من الميسور في بلد من البلاد تأسيس صناعة حربية تخصص فقط لانتاج أدوات الحرب بعينها إذا كانت جميع الصناعات الأخرى معدومة أو محدودة في هذا البلد — فان الصناعات الحربية البحتة تعتمد على صناعات حديدية اخرى لامكان الحصول على المواد اللازمة لها . فصناعة المدفع أو البندقية تستمد مواردها الاولية من مصانع الحديد والصلب . فلا يمكن إقامة هذه الصناعة بالاعتماد على الحصول على الصلب اللازم لها من الخارج والاّ اذا امتنع ورود هذا الصنف تتوقف هذه الصناعة على الأثر

كما أن صناعات حربية كثيرة اخرى كصناعة القذائف والقنابل تعتمد مادتها الاولية على الصناعات المعدنية والكيماوية فهي محتاجة الى منتجات معدنية وكيماوية كثيرة تقوم بها مصانع مختلفة . وهنا أيضاً لا يمكن الاعتماد على ورود هذه المواد من الخارج بل لا بدّ أن تصنع في الداخل لأغراض السلم ولتجد الصناعة ما يلزمها منها في كل وقت

وكما تحتاج صناعة الطائرات الى صناعة الحديد والصلب فهي تحتاج أيضاً الى صناعات النسيج والخشب واللفائف المعدنية والى صناعات كثيرة أخرى

وأستطيع أن أذكر لكم الكثير من الصناعات التي يستعمل انتاجها في زمن السلم وهي في الوقت نفسه لازمة كل اللزوم لاقامة صناعة حربية بحتة في البلاد

لذلك تعتبر بحق صناعات النسيج . وصناعات أدوات البناء . والصناعات الكيماوية . وبخاصة صناعة الأسمدة . والصناعات الحديدية والمعدنية . وصناعة تحضير وحفظ المواد الغذائية . وصناعات كثيرة أخرى ، صناعات حربية لا غنى عنها

ولهذه الأسباب أيضاً لا تجدون في البلاد الصناعية مصانع تقوم على صناعة أدوات الحرب وحدها

فمصانع (كروب) مثلاً لا تشتغل بإعداد المدافع والآلات الحربية وحدها، بل هي مصانع صلب وحديد أيضاً تنتج من المصنوعات اللازمة للسلم ما يعد بمئات الانواع . وتقوم بجانب هذا في زمن السلم بصناعة الآلات الحربية بمقادير محدودة . فاذا ما أعلنت الحرب تحوّلت هذه

المصانع في ساعات أو أيام الى مصانع لانتاج أدوات حربية متعددة . وإلاّ لو اشتغلت في زمن السلم بأدوات الحرب وحدها — وحاجات البلاد الى هذه الأدوات في زمن السلم محدودة — لتضاءل العمل في هذه المصانع ولاستغنت عن الكثير من عمالها ومهندسيها وأصبحت عبئاً ثقيلاً على أصحابها وعلى الدولة نفسها

ولقد سمعتم أن جميع مصانع السيارات ومصانع الحديد ومصانع الكيماويات قد تحولت في زمن قصير في ألمانية وفي انكلترة وأمريكة — عند اعلان هذه الحرب القائمة — الى مصانع حربية لا تشتغل بغير الانتاج الحربي

وقد يدهشكم أن أذكر لكم أن الصناعة المصرية — وهي حديثة النشأة كما تعلمون — تقدم لقوات حلفائنا في مصر كثيراً من أدوات ومصنوعات مختلفة ومنها مصنوعات حربية بحتة يقدر ثمنها بملايين الجنيهات ويقدر وزنها بمئات الآلاف من الأطنان . ومعنى هذا أنهُ لو لم تكن بمصر صناعة أهلية لاحتاجت حليفتنا الى مئات من البواخر لجلب المصنوعات التي تنتجها الصناعة المصرية الآن

على انهُ يجب ألاّ ننسى أن توفير حاجات سكان البلاد من جميع المصنوعات في وقت الحرب أمر ضروري لضمان استمرار مقاومة هذه البلاد . فان مقاومة أي بلد من البلاد تطول أو تقصر وتقوى أو تضعف تبعاً لامكان حصول أو عدم حصول أهل البلاد على حاجاتهم الضرورية

ولهذا أعتقد اعتقاداً راسخاً انه لا بدّ لنا — كما قدمت — من أن نركز الكثير من جهودنا لزيادة الانتاج الصناعي وترقيته وانتشاره اذا أردنا أن نستكمل معدات الدفاع عن بلادنا . وعند ذلك فقط يمكننا أن ننشىء صناعات حربية بحتة تقوم وقت الحرب بسد حاجات الدفاع عن البلاد . كما أعتقد اعتقاداً راسخاً أيضاً انه لا أمل لنا باقامة هذه الصناعات الحربية إلاّ اذا ساعدنا على تثبيت أقدام جميع صناعات السلم القائمة الآن والسعي بعد ذلك بجد وبسرعة لاتمام الحلقة الناقصة في سلسلة الصناعات المصرية الضرورية للسلم وللحرب في آن واحد

***

واستكمالاً لهذه الحلقة أرى أن نُعنى كل العناية بتشجيع انشاء صناعات حيوية جديدة . وبين أيدينا الآن فرصة سانحة تساعدنا على ذلك — هي فرصة كثرة الاموال المتداولة في السوق المصرية . ومن المناسب انتهاز هذه الفرصة لتشجيع أصحاب الأموال من المصريين على التفكير في المشروعات الصناعية التي يجب أن تقوم بها البلاد في المستقبل

سواء لما بدا من ضرورتها في هذه الحرب أو لوجود مادتها الأولية في مصر أو في البلاد القريبة منها

ويجب أولاً وقبل كل شيء اتخاذ العدة من الآن لانتهاز أول فرصة ممكنة لتنفيذ مشروع صناعي هام يترتب عليه انقلاب عظيم في حياة البلاد الاقتصادية وهو مشروع كهربة خزان أسوان. فلقد شغل هذا المشروع تفكير الحكومات وجميع الرجال المسؤولين في هذه البلاد منذ ثلاثين سنة. ودرست مشروعات عديدة لتنفيذه كما استخدم الكثيرون من الخبراء العالميين لدرس هذه المشروعات المختلفة وابداء رأيهم فيها. ومع ذلك لم نبدأ في تنفيذه للآن. مع انه يتوقف على تنفيذ هذا المشروع الحيوي الخطير إحياء صناعات لا غنى للبلاد عنها بل هو يخلق من أفقر مديريات القطر — وهي أسوان — منطقة صناعية مزدهرة. كما يمكنهُ ان يخلق من مناطق أخرى مراكز صناعية هامة بعد نقل التيار الكهربائي اليها

ولعلّ أهم الصناعات التي يمكن إنشاؤها، اذا تم تنفيذ هذا المشروع، صناعة الحديد والسماد. فالحديد الخام متوفر في أسوان. وهو من نوع جيد بشهادة الكثيرين من الاخصائيين الأجانب. وهو — كما لا يخفى — المادة الأولية لكثير من الصناعات المعدنية والميكانية. أما الأسمدة الآزوتية فضرورتها واضحة لبلاد زراعية كمصر. وقد أثبتت الحرب الحالية هذه الحقيقة بشكل لا يحتاج الى بيان. إذ لو كانت هذه الصناعة موجودة الآن داخل البلاد وأنتجت من الأسمدة الآزوتية حاجة زراعتها دون أن تضطر الى الالتجاء للخارج لاستيراد كميات غير كافية منها وبأثمان باهظة لزادت غلة أرضنا من الحبوب ومن القطن زيادة كبيرة

على انه يشتق أيضاً من صناعة الأسمدة صناعات أخرى عديدة لانتاج كثير من المواد الحربية الضرورية كصناعة المفرقعات مثلاً

***

وهناك صناعات كثيرة ينتظر لها النجاح في مصر نذكر منها : —

١ — صناعة السليلوز Cellulose

ومشتقاته كالحرير الصناعي الذي تقدمت صناعته الآن بشكل واضح والذي تصنع أحسن أنواعه الآن من بقايا القطن، وصناعة الحرير والسليلوز هي في الواقع سلسلة صناعات كيماوية يتحول أكثرها في زمن الحرب الى صناعات حربية

٢ — صناعة استخراج المعادن

كذلك من واجبنا ان نهتم بصناعة استخراج المعادن الكثيرة المدفونة في اقليم البحر الأحمر . فانه يوجد في باطن هذا الاقليم أنواع متعددة من المعادن القيمة اللازمة للسلم والحرب وقد ثبت — فضلاً عن وجود البترول بكميات وافرة — وجود المعادن الآتية بكميات تجارية . وأكثرها قابل للاستغلال وهي : — الفوسفاة — المنجنيز ـ الولفرام Wolfram النيكل ـ القصدير ـ الكبريت — الرصاص — الزنك حجر الطلق Talc — الكالين — الكروم

ونرى في هذا الصدد أنهُ من واجب الحكومة أن تسرع في إنشاء الطرق المعبدة التي تصل وادي النيل بشاطىء البحر الأحمر وأن تسعى لايجاد مياه الشرب اللازمة هناك . فهذا الاصلاح يساعد كثيراً على استخراج هذه الثروة المدفونة ويشجع أصحاب رؤوس الاموال على التفكير في مثل المشروعات

٣ — صناعة حفظ الفواكه والخضروات

كذلك يجب أن نفكر في نشر صناعات حفظ الفواكه والخضروات التي تعتبر صناعة أساسية في جميع البلاد الزراعية

اننا ننتج كميات كبيرة من الخضروات، ونستطيع مضاعفة هذا الانتاج لو ضمنا له سوقاً خارجية . ونظراً لصعوبة إيصالها الى اوربا طازجة لعدم وجود بواخر التبريد اللازمة لهذا الغرض، فانتظاراً لهذا الوقت — الذي نرجو أن يكون قريباً والذي تستطيع فيه شركة مصرية أن تنشىء بواخر التبريد اللازمة لنقل الفواكه والخضروات والزهور الى اوربا — يحسن أن نفكر من الآن في البدء بصناعة حفظ هذه المنتجات اما بتجفيفها ، واما بحفظها ، كما هي واما بعصرها كما يحصل في صناعة الطماطم . وكل هذه صناعات تقدمت تقدماً كبيراً في زمن الحرب . فقد راجت صناعة التجفيف رواجاً عظيماً وصار تجفيف البصل مثلاً صناعة رابحة كما صار في الامكان حفظ جميع الخضروات البقلية والطماطم والجزر وخضروات كثيرة أخرى بطريقة لا تفقدها أية ميزة من ميزاتها الغذائية بل لا تفقدها أحياناً لونها الطبيعي .

وقد قامت اخيراً صناعات كثيرة من هذا النوع في مصر وراجت رواجاً كبيراً ونرجو أن يزداد نشاطها في المستقبل ، وأن تستكمل جميع أسباب التحسن والتقدم . هذا ولا يزال في هذا المجال متسع لجماعات مالية جديدة تتأسس للقيام بهذه الصناعة على نطاق واسع

٤ — صناعة المطاط

وأخيراً يمكن أن تؤسس بنجاح صناعة ضرورية لا توجد مادتها الأساسية في مصر الآن . ولكن هذه المادة تمر من طريق مصر الى اوربة لتصنع فيها . وأقصد بذلك صناعة المطاط (الكاوتشوك) . فقد أثبتت هذه الحرب ضرورة هذه الصناعة أيضاً . وهي صناعة أوربية وأميركية . ولكن مادتها الأولية تأتيها من الملايا والهند الصينية . ولا مانع من نجاح هذه الصناعة في بلادنا لتموين مصر والبلاد الشرقية القريبة . وقد اطلعت قبل الحرب على تقرير فني ظهر لي منهُ امكان نجاح هذه الصناعة في مصر نجاحاً جليّ المظهر . ولو تبين لنا من أبحاث زراعية يجب ان نقوم بها إمكان زراعة المطاط في مصر لذاً لأصبح أمر نجاح هذه الصناعة موكداً

***

أيها السادة : لقد حاولت ان أوضح لحضراتكم في كلمات قليلة حالة الصناعة المصرية وآثرها في الاقتصاد القومي في السلم وفي الحرب

حاولت أن أوضح : أولاً — أن انتشار الصناعة في البلاد هو السبيل الوحيد لرفع مستوى معيشة الطبقات الفقيرة والطريق الوحيد لعلاج مشكلة الفقر والبطالة ولايجاد عمل في المستقبل للشباب المتعلم وغير المتعلم

ثانياً — أن انتشار الصناعة وازدهارها هو السبيل الوحيد لسد حاجات أهل البلاد من الضروريات بأثمان مقبولة وقت الحرب وإبان السلم

ثالثاً — أن انتشار الصناعة هو — كما بينت لحضراتكم — الأساس المتين الذي ترتكز عليه في المستقبل جميع الجهود لامكان الدفاع عن سلامة البلاد

وإني لا أشك في أن الصناعة تتمتع برعاية الحكومة وتأييدها . لذلك رأيت من واجبي ان اترجم لأولي الأمر ولجميع المفكرين في مصر عما يجيش في صدور رجال الصناعة من خواطر وآمال

وأسعد الأيام — ايها السادة — لهو يوم نرى فيه بلادنا وقد رسخت فيها أقدام الصناعة على أقوى الدعائم وأصبحت فيه بلاداً صناعية كما هي الآن بلاد زراعية بل هو اليوم الذي نطمئن فيه على زوال شبح الفقر والعوز الذي يطارد كثيراً من الطبقات ، في مصر . وهو اليوم الذي يخفق فيه علم السعادة والهناءة على بلادنا المحبوبة . جعلها الله دائماً موفورة الخير والبركة والسلام في ظل مليكنا المعظم « فاروق » حفظهُ الله لمصر وللصناعة المصرية راعياً ونصيرا .

ميخائيل نعيمة

صرفت حبيبتي عني

صرفت حبيبتي عني ، وناشدتها الله
ألاّ تعود اليَّ إلاّ من بعد أن تتقن الحب

لكنها ما عتمت أن عادت وأكبت بشفتيها على شفتي
كأنها الرضيع الجائع يكب على ثغر أمه
وعند ما انتشت وتنهدت تنهدة الشهوة الظافرة
سلختُ فمها عن فمي وهمست في أذنها :
اليكِ عني يا يمامتي
لقد أيقنت تغذية ملذاتك المائتة
أما الحب فما تعلمته بعد

وأطلت على الأرض أهلّة حول بكامله
واذا بحبيبتي تسترق خطاها الى مخدعي
كأنها الحلم عند الفجر
واذا بها تجثو عند قدميّ فتغسلهما بدمعها السخين
وتجففهما بأنفاس مهجتها التأججة
وعند ما ابتهلت عيناها الى عيني همّست في أذنها
انهضي ، انهضي ، يا يمامتي ، واليك عني
لقد تعلمتِ كيف تروين احزانك العطشى
أما الحب فما تعلمته بعد

وانقضى الحول والحولان من قبل ان عادت حبيبتي تقرع بابي
وفي يدها الواحدة مبخرة ، وفي الأخرى شمعة مشعلة
وما إن اجتازت العتبة حتى أخذت تسجد لي وتمجدني
بصوت كله حنين وايمان وورع
وعند ما فرغت من عبادتها همستُ في أذنها
اذهبي ، اذهبي بسلام يا يمامتي
لقد أتقنت تمجيد محاسنك الموهومة
أما الحب فما تعلمته بعد

ومرت دهور لم أرَ لحبيبتي في خلالها وجهاً
فأيقنت أن المنية أدركتها
من فرط قساوتي ووفرة حبها
ورحت أبحث عن مقرها الأخير
الى ان بلغت شاطىء اللاذاتيـة
واذا بي أبصر حبيبتي هناك
غارقة في لجة من الأحلام
فدنوت منها بخفة ، وبرقة فائقة سألتها
ما بالكِ وحدكِ على هذا الشاطىء المهجور ؟
فأجابتني برقة فائقة
أيكون وحده من أضاع ذاته في الحب ؟
اذ ذاك هتفتُ عالياً :
اليَّ ، اليَّ يا حمامتي
لقد آن وقت الطيران (١)

(١) ترجمة نثرية لقصيدة بالانكليزية للشاعر نفسه ، من ديوانه الجديد « همس الجفون » ترى تقدماً له بقلم الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني في باب المكتبة لهذا العدد

غزو روسيا

تفشل فيه ثلاث دول في ثلاثة عصور

— ٣ —

لادوار مرقص

من اعضاء المجمع العلمي

اغارة الالمان على روسيا

فرغنا من إيراد ما استحسنا ايراده من أخبار الغزوتين الماثلتين في القرنين السابقين على روسيا وكيف أخفقتا كل الاخفاق ورد كيد الغازين المقتحمين في نحورهم . وحان لنا الآن أن نشير الى الغزوة الثالثة الحاضرة التي لا يزال العالم يرى آثارها ويسمع أخبارها . وقد انقضى عليها حتى كتابة هذه السطور — أواخر ايلول (سبتمبر) ١٩٤٣ — سنتان وثلاثة أشهر وكان الزعيم الالماني الطاغية هتلر قد أعلن مطبلاً مزمراً ان ثلاثة أشهر كافية وحدها له ولجيوشه الضخمة ومعهم جيوش ست دول تحالفهم لسحق روسيا واستعبادها كما سحق واستعبد غيرها من الشعوب والأمم في أقل من سنة . فاذا الروس غير من عهدهم من الشعوب واذا مكايدهم الحربية واستعدادهم العسكري فوق ما قدّره وتصوره. ومع انهُ نال منهم ومن بلادهم منالاً عظيماً في السنة الاولى من الكفاح الى أواسط السنة الثانية أفهموه لأول وهلة بقوةٍ وأفهموا الخبراء العسكريين المحايدين الذين يراقبون احواله وأحوالهم ان ما كان يدّعيه لنفسه ويدّعيه له الناس من انَّ جيوشه لا تقاوم ولا تغلب إنما هو حديث خرافة ، وأن ما اصطلح على تسميته بالحرب الصاعقة أو الحرب الخاطفة لسرعة انتصاراته فيها بفضل تفوقه على عدوه أضعافاً مضاعفة في العدد والعتاد انما هو ظلٌّ زائلٌ انطوى بساطه واضمحلت غمامته فلا مندوحة له عن الصبر والمصابرة في مكافحة الروس وخسران الشيء الكثير من الوقت الذي يفيدهم ويتهدده . فيئس منذ الالتحامات الأولى من تلك الحرب الصاعقة التي أصلى نار جحيمها كل من اقتحمهم من بولونيين وفرنسيين وبلجيكيين وهولانديين ونروجيين وغيرهم . وهكذا تمكن الروس بتلك المطاولة التي أكرهوه عليها من أن يتمموا استعداداتهم ويلموا شعثهم ويسدوا كل ثلمة لحوها في جيشهم، ومن ثمَّ استردوا منهُ الى الآن (أوائل خريف سنة ١٩٤٣) ثلثي ما كان دوخه

من بلادهم أو ما يفوق الثلثين وهم جادون في استرجاع البقية ولا شيء يعادل توفيقهم وقوة عزيمتهم إلاّ تضعضع العدو وانهيار عزيمته وانفضاض حلفائه عنه واحداً بعد الآخر. ومن المنتظر أن يصلوا بالحرب الى بلاد العدو ويحاربوه في عقر داره ويحاسبوا الألمان حساباً دقيقاً على الفظائع والجرائم التي ارتكبوها في روسيا العظيمة المقدسة. وهذا المصير العادل قد يحين حينه في اوائل الشتاء القادم وان تأخر فالى أواخر الشتاء حسب تقدير أولي الخبرة من رجال الحرب. ولا بدَّ أن يشارك الروس في الرحلة النهائيـة القادمة جميع حلفائهم من انكليز واميركيين وفرنسيين وبولونيين وغيرهم. وهكذا تكون روسيا هي العامل الاكبر في سقوط المانيا الهتلرية والقضاء على مطامعها وانقاذ البشر من شرورها كما كانت العامل الاكبر في اخفاق الغازي العظيم كارلوس الثاني عشر الاسوجي وإذلاله ثم في قهر شاغل الدنيا وواعبها بفتوحاته نابليون الاول. وعن قريب ستنضم اليهما روح هتلر حاملة لهما التحيات والذكريات الفاجعة والعبر الرادعة فيتبادلون أحاديث خالدة في عالم البقاء

وأما الحقائق التي يتبينها العاقل المنصف من الحملة الالمانية النازية الحاضرة في روسيا فهي هذه:

أولاً — ان الجيش الروسي أضاف الى بسالته التاريخية نظاماً عسكريّـاً بديعاً وتدابير حربية عجيبة. ولم يكن له شيء من ذلك في عهده السابق

ثانياً — ان وطنية صحيحة لا تتزعزع راسخة في أعماق نفوس الروس حتى انهم في طرفة عين نسوا اضغانهم وانقساماتهم السياسية والدينيـة اذ رأوا خطر الغزو يتهددهم فتصالحوا ظاهراً وباطناً وتألبوا يداً واحدة على العدو المعتدي وفعلت نساؤهم وأحداثهم في مقاومته والنكاية بهِ ما يكاد يعجز عنهُ فحول الرجال

ثالثاً — ان لروسيا بفضل علمائها المبرزين نصيباً ممتازاً من العلم والفن والاختراعات الحربية الجمة، دلت عليه أحوالهم في الحرب الحاضرة وآخر ما سمعنا به من اختراعاتهم المدافع الضخمة المتحركة الجديدة التي لها مزايا تفوق مزايا المدافع الاعتيادية في مقاومة الدبابات وفضّ شوكتها

رابعاً — ان النظام الاشتراكي المتولي اليوم زمام الاحكام في روسيا ويعرف بالنظام السوفيـاتي أو البولشفي والذي أنال الروس التقدم العظيم الآنف وصفـه ليس فيه الشذوذ الذي سمعنا به عنهُ ولا هو على الفظاعة التي كانت تنسب اليه عمداً أو جهلاً أو مجاراةً لعوامل سياسية مقصودة. وهبه ألمّ بطرف مما أشيع عنهُ وذلك اضطراراً في أوائل نشأته لأجل ترسيخ أقدامه فلا شك انه اعتدل بعد ذلك أي اعتدال وصالح الكنيسة ورجال الدين وعطف عليهم في بعض أمورهم حين رآهم مع عشرات الملايين من تباعهم وهم

رعاياه لا يقلون اخلاصاً للوطن الروسي واندفاعاً في سبيل تعزيزه ووقايته عن سائر اخوانهم الروس الذين اتخذوا المبدأ البولشفي

خامساً : ان أعظم الأدلة وأوضحها على اعتدال البولشفيك ان زعيمهم العظيم ومارشالهم المظفر ستالين أصدر أمره في أثناء الحرب الحاضرة بالغاء المجلس البولشفي الدولي الأعلى في بلاده . وهو المجلس العظيم النفوذ الذي كان يشرف على نشر المبدإ البولشفي خارج روسيا ويدعم دعاته هناك بمسعفات مادية ومعنوية لا تكاد تنفد . فلما ألغى ستالين هذا المجلس ازال من صدور الناس ولا سيما صدور حلفائه من فرنسيين وانكليز وأميركيين وغيرهم آخر حزازة بقيت في صدورهم منهُ وآخر تهمة كانوا يوجهونها اليه ولو سرًّا . فتصافت القلوب والنيات . وقد قال احد مفكري الديمقراطية اولئك : « ان المبدأ البولشفي بعد اعتداله والمبدأ الديمقراطي يكادان يلتقيان في صعيد واحد » . قلنا والظاهر ان هذا التقارب الذي بين المبدأين كان أعظم سبب هوّن على ستالين الغاء المجلس البولشفي والدولي فخفف عن كاهل دولتهِ أوزاراً من المتاعب والمصاعب وعن خزينتها قناطير من المال في كل سنة

ومما يثلج الصدور ويدعو الى الامان والاطمئنان ويفتح امام البشرية باب الآمال المذهبة على مصراعيه ان روسيا — كما صرَّح غير مرة دهاقنة السياسة الانكليز والأميركيين — ستكون بعد ما تنتهي الحرب الحاضرة عضواً فعالاً عظيم الاثر في انشاء نظم سياسية واجتماعية واقتصادية — جديدة للعالم تكون خيراً من نظمه الحاضرة وأقوى منها على اتقاء الكوارث والويلات والمعضلات وأكفل لها لاغتنام الخيرات والبركات في ظل أحسن عالم وطيد الاركان. وفي مقدمة الوسائل المتخذة لهذا المشروع الانساني الأعظم ميثاق الاتلانتيك . ومداره تساوي الحقوق بين الامم ، كبيرها وصغيرها، قويها وضعيفها . فلكل امة كرامتها واستقلالها ومسعفات لها على رغد الحياة وصفاء العيش بتسهيل المواصلات بين اجزاء المعمور وازالة الشيء الكثير من الحواجز والعوائق الحالية وفي جملتها المكوس اي الرسوم الجمركية وإجراءات السفر والانتقال. وبديهي ان نجاح هذه المساعي العالمية يكون متعذراً اومتعسراً مشكوكاً فيه جدًّا اذا ظلت روسيا على تقاليدها القديمة في الابتعاد عن سبيلهِ مفضلة الانفراد والانفصال واتباع نظم معينة تختص بها أو اذا ظلت الدول تسعى الى ابعاد روسيا عن هذا السبيل حذراً منها او تحاملاً عليها، وروسيا جزء عظيم من العالم ولا سيما في نهضتها الحاضرة . فكل اصلاح يراد للعالم وليس لروسيا يدٌ فيه ولا رضى بهِ يظل اصلاحاً أشل أعرج معتلاً لا تكتب له حياة طويلة . أمَّا وقد صرحت اليوم الدولة الروسية بصدق نيتها في مشاركة حلفائها المساعي العمرانية والسياسية ورحب الحلفاء سلفاً بهذه المشاركة فقد ذللت عقبة كؤود في سبيل الخير العام الذي يتوخونهُ وتنتظره البشرية منهم .

٢ — الآثار الايوبية بدمشق

دار الحديث النورية

للدكتور اسعد طلس
عضو المجمع الفرنسي بدمشق

هي أول دار حديث أنشئت في الاسلام كما يقول السبكي [1] وقد خرجت جمهرة عظيمة من المحدثين والمؤرخين . وتقلب عليها طائفة من الشيوخ والمدرسين لم تحظ بهم مدرسة من المدارس بدمشق كما سترى ذلك فيما بعد

﴿ تاريخها ﴾ ليس على باب هذه الدار ولا في حيطانها كتابة تعرفنا بها او تكشف لنا عن تاريخها.ولكن امام بابها باب المدرسة العادلية الصغرى التي بنتها الاميرة الايوبية السيدة زهرة خاتون ابنة الملك العادل[٢] . والمؤرخون الذين يحدثوننا عن العادلية الصغرى يقولون إنها امام دار الحديث النورية ، كما يقولون انها تقع بين دار الحديث الاشرفية — وهي ما تزال عامرة موجودة مشهورة — وبين المدرسة العصرونية التي درست وبني علي انقاضها مخازن ودور ولم يبق الآ [٣] جزء من صحنها في بركة وايوان للصلاة وما عدا ذلك درس[٣]

واسمها يدل على ان بانيها هو السلطان العادل نور الدين محمود بن زنكي بن اقسنقر التركي السلجوقي مؤسس الدولة النورية العظيم (— ٥٦٩ هـ — ١١٧٤ م) وقيل بل التي بنتها هي السيدة عصمة الدين خاتون زوج صلاح الدين وهو خلاف المعروف ولم أر من ذكره سوى بدران

---

(١) نقله الشيخ عبد القادر بدران في «منادمة الاطلال» (ص٧٨) من مخطوطة دائرة اوقاف دمشق ولا يذكر السبكي في الطبقات الكبرى (٤ / ٢٧٧) سوى قوله « وكان الملك العادل محمود بن زنكي نور الدين قد بنى له — اي لابن عساكر — دار الحديث النورية فدرس بها الى حين وفاته »

(٢) العادلية الصغرى هي غير العادلية الكبرى — مقر المجمع العلمي العربي بدمشق — وسنصف هذه فيما بعد — وأما العادلية الصغرى فهي في سوق العصرونية في جانبه الشمالي ، وسنصفها بعد أيضا

(٣) هي في محلة حجر الذهب المعروضة الآن بباب البريد في دخلته العصرونية بناها عبد الله بن هبة الله ابن أبي عصرون الموصلي (٤٩٢ — ٥٨٥هـ) كان عالماً سرياً ولاه نور الدين وصلاح الدين القضاء بالشام وكان نور الدين يعتقده فبنى له عدة مدارس بسورية وبنى هو مدرسته هذه

في «منادمة الاطلال» ولعلها بنت فيها شيئاً او وقفت لها وقفاً فظن بعضهم انها هي التي بنتها

ولا يجزم الدكتور سوفاچه بشيء في مبدأ امرها بل يقول انها بنيت بين سنة (٥٤٩ هـ — ١١٦٤م) وهي السنة التي امتلك نور الدين فيها دمشق وبين سنة (٥٦٩ هـ — ١١٧٤ م) وهي السنة التي مات فيها[1]. ولم استطع انا على كثرة تنقيبي الاهتداء الى نص يقطع بذلك ويعتمد على حوادث تاريخية

من المعروف المتفق عليه ان نور الدين بناها لمحدّث دمشق العظيم ومؤرخها الحافظ بن عساكر ويظهر ان المؤرخ الدمشقي بعد ان طوف في العالم الاسلامي من اقصاه الي اقصاه يطلب العلم والحديث استقرت بهِ النوى في مسقط رأسه فأخذ يدرس ويؤلف ولم يكن بالشام ايامئذ دور علم كالتي رآها في بغداد او فارس والمشرق

ويظهر انه كاشف نور الدين بذلك او ان نور الدين نفسه قد أحسَّ بذلك فبنى له هذه الدار وظل يدرس بها ويستقبل العلماء والطلاب الى أن وافاه أجلهُ فخلف من بعده نفر من اسرته يقتفون أثره، وسترى تفصيل ذلك فيما بعد

وقد ظلت هذه الدار عامرة يؤمها الطلاب والعلماء من أقصى الارض ففي شهر ربيع الآخر من سنة ثمانين وخمسمائة للهجرة زار دمشق الرحالة الأندلسي ابو الحسين محمد بن احمد المعروف بابن جبير الكناني فنزل بها وهذا نص كلامه « . . وصلنا دمشق في الضحى الأعلى من يوم الخميس الرابع والعشرين لربيع الاول والخامس ليوليه، واستهل هلال ربيع الآخر يوم الاربعاء بموافقة الحادي عشر ليوليه ونحن بدمشق نازلين منها بدار الحديث غربي جامعها المكرم[2] » ومن المؤسف جداً ان ابن جبير على الرغم من اقامته في هذه الدار نحواً من شهرين لم يحدثنا بشيء عنها ولا عمن فيها من الطلاب والشيوخ ولا عما يقرأ فيها من العلم وكتبه على كثرة ما كتب عن دمشق ومعاهدها وأخبارها . وكل من يحدثنا عن هذه الدار بعد ابن جبير لا يحدثنا بشيء من تاريخها فلا نعرف ما أصابها ولا الأدوار التي مرّت بها ولا ما وقف في سبيل مصالحها . وكل ما نعرفه عنها هو ما يحدثنا به النعيمي في كتابه « تنبيه الطالب وارشاد الدارس » نقلاً عن المؤرخ الاسدي في كتابه « الكواكب الدرية في السيرة النورية » من أن وقف هذه المدرسة كان قليلاً . وقد نقل هذا النص بدران في منادمة الاطلال ولم يزد عليه[3]. ويقول المؤرخ الدمشقي ابن كثير في

(١) J. Sauvaget, Les Monuments Historiques de Damas, 53

(٢) «رحلة ابن جبير» ص ٢٣٩ طبع مطبعة السعادة بمصر

(٣) المنادمة — مخطوطة الاوقاف — ص ٧٨

«البداية والنهاية» « ان في سنة احدى عشرة وستمائة وسع الخندق مما يلي القيمازية [١] فأخربت دور كثيرة وحمام قيماز وفرن كان هناك وقفاً على دار الحديث النورية » [٢] . وقد نقل هذا الكلام عبد القادر بدران وقال بعده : « ولما بنى الملك الاشرف دار الحديث الاشرفية غربيها — سنة ثلاثين وستمائة — شرط أن يؤخذ من وقفها الفا درهم تضاف الى وقف دار الحديث النورية فانصلح حالها » [٣]

***

وفي سنة تسع وتسعين وسبعمائة حين دخل التتار دمشق احترق قسم كبير من المدينة وكانت هذه الدار وغيرها من معاهد العلم طعمة للنار . قال الذهبي في مختصر تاريخ الاسلام «وفي سنة تسع وتسعين وسبعمائة دخل التتار دمشق وشرعوا في المصادرة والفسق ونهبوا الصالحية وسبوا أهلها ووقع الحريق من صاحب سيس والكفرة وعملوا المنجنيق والنقوب فأحرق أهل القلعة دار السعادة — مقر النائب — ودار الحديث الاشرفية ، والنورية ، والعادلية ، وخربت تلك المحلة ، وبقيت محلة باب البريد اصطبلاً فيه الزبل نحو ذراع.[٤]

ويظهر ان هذه الدار قد أعيد بناؤها أو بناء بعض مرافقها بعد تلك النكبة حتى جاء العصر التركي فأخذت تضمحل حتى كادت تدرس . ويحدثنا الشيخ بدران عنها في هذا العصر فيقول « تقلبت بها الايام والدهور فأصابها ضريب مما أصاب دار الحديث الاشرفية فصارت للسكنى وطمس محراب مسجدها وطمرت بركة مائها لتغير رسومها فأرشد الله تعالى لاستخلاصها العالم الفاضل الفقيه الشيخ أبا الفرج ابن العالم الفاضل الصالح الشيخ عبد القادر الخطيب الدمشقي فأنقذها من يد مختلسها وجلس يقرىء فيها الدروس

ولقد شاهدتها وتأملتها أثناء كتابتي لهذه السطور فاذا هي الآن تشتمل على دهليز لطيف الخ »[٥]. هذا ما يقوله بدران

أما في أيامنا هذه فقد تهدمت ولم يبق من آثارها شيء إلاّ بابها وصحنها وفيها غرفة تكاد ان تنقض والقبلية متهدمة أيضاً والمحراب النفيس عرضة للاندثار وهي اليوم مقر لبعض الفقراء

---

(١) هي مدرسة صارم الدين قيماز النجمي وكان متولي أسباب صلاح الدين في مخيمه وبيوته . وقد درست وكانت داخل بابي النصر والفرج ويقول بدران ص ٢٦٣ يؤخذ من كلام ابن كثير والعماد الكاتب انها كانت بالقرب من دار الحديث الاشرفية — بالعصرونية — (٢) البداية والنهاية ج ٦٨/١٣
(٣) المنادمة ص ٧٨ (٤) النظرة في المنادمة لبدران ص ١٧٥ أثناء كلامه على المدرسة العادلية الصغرى
(٥) النظرة في المنادمة لبدران ص ٧٧

﴿ مدرسوها ﴾ : أول من درس فيها حافظ دمشق علي بن الحسن بن هبة الله ثقة الدين المعروف بابن عساكر الدمشقي الشافعي صاحب تاريخ دمشق الكبير (٤٩٩هـ—١١٠٥م—٥٧١— ١١٧٦) [١] وقد ظل يدرس فيها الى أن مات. ثم تولى امورها ابنه القاسم ابو محمد بهاء الدين الحافظ المسند كابيه (٥٢٧ هـ — ١١٣٣م —٦٠٠هـ —١٢٠٣م) [٢] والمؤرخون يذكرون ان القاسم هذا كان كثير التعفف عن مالها وانهُ لم يتناول من مرتبه شيئاً بل جعلهُ لمن يرد عليها من الطلبة والعلماء. وقيل انه لم يشرب من مائها ولا توضأ مغالاة منه [٣].

وبعد ابي محمد هذا اخذ يتوالى عليها نفر من بني عساكر [٤] ثم اسندت الى الحافظ الدمشقي زيد الدين خالد بن يوسف بن سعد النابلسي [٥] ثم تاج الدين ابو محمد عبد الرحمن بن ابرهيم ابن سباع الفزاري المصري المعروف بابن الفركاح (٦٢٤ هـ—١٢٢٧م— ٦٩٠هـ— ١٢٩١م) [٦] ثم توالى عليها طائفة من المدرسين [٧] أشهرهم الحافظ المؤرخ العظيم ابو محمد القاسم بن محمد بن يوسف علم الدين البرزالي صاحب ذيل تاريخ ابي شامه والمعجم الكبير (٦٦٥ هـ = ١٢٦٧ م—٧٣٩هـ=١٣٣٩م) [٨]. ثم جماعة لم تصلنا اخبارهم

﴿ موقعها وتخطيطها ﴾ : لا تزال الدار موجودة في حي العصرونية كما تقدم ولم يبق من بنائها الاَّ جبهتها الحجرية وفيها الباب الحسن ومحرابها ، وبعض مرتفقاتها وعلى الرغم من عدوان الدهر عليها ، لا تزال معالمها موجودة وخطوطها الرئيسية معروفة

بنيت هذه الدار فوق مربع مساحته (١٦٫٣٠ متراً × ١٧٫٢٠ متراً) كما يذكر الدكتور

---

(١) انظر ترجمته في معجم الادباء لياقوت ٥/ ١٣٩ ، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٤/ ٢٧٣ وشذرات الذهب لابن العماد ٤/ ٢٣٩، وطبقات الحفاظ للذهبي ٤/ ١٢٢ . ومقدمة الجزء الاول من تهذيب تاريخ دمشق المطبوع بدمشق بعناية عبد القادر بدران وبروكلمان في : G. A. L. ١/ ٣٣١ وذيله ١/ ٥٦٦

(٢) انظر ترجمته في طبقات الشافعية للسبكي ٤/ ١٤٨ وطبقات الحفاظ للذهبي ٤/ ١٥٦ ، وكشف الظنون للحاج خليفة ٢/ ٥٧٥ وبروكلمان G. A. J. ١/ ٣٣١ والذيل ١/ ٣٦٩ (٣) انظر بدران ص ٧٩

(٤) نذكر منهم : زين الامناء الحسن بن محمد بن الحسن بن هبة الله ، وعبد الوهاب بن زين الامناء. انظر بدران ص ٧٩ (٥) لم نعثر فيما بين يدينا من المصادر على ترجمته

(٦) انظر ترجمته في فوات الوفيات للكتبي ١/ ٢٥ وطبقات الشافعية للسبكي ٥/ ٦٠ وشذرات الذهب لابن العماد ٥/ ٤١٣ وبروكلمان G. A. L. ١/ ٣٩٧ والذيل ١/ ٦٨٦

(٧) نذكر منهم الحافظ محمد بن علي بن محمد الصابوني ، ثم مجد الدين بن المهتار ، ثم فخر الدين بن الحنبلي ثم شرف الدين احمد بن نعمة النابلسي ثم علاء بن العطار ثم البرزالي

(٨) انظر ترجمته في طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٦/ ٢٤٦. وذيل طبقات الحفاظ للسيوطي ص ٣٥٣ وذيل طبقات الحفاظ للدمشقي ص ١٨ وبروكلمان G. A. L. ٢/ ٣٦ والذيل ٢/ ٣٥

سوڤاجه(١) يتوسط هذا المربع بركة جميلة للوضوء يكتنفها من الشرق والغرب غرف وفي الجنوب مصلى واسع

والى القارىء وصفها كما كانت قبل ثلاثين او اربعين سنة معتمدين على ما ذكره المؤرخ بدران : هي الآن تشتمل على دهليز لطيف فيه عن يمين الداخل حجرة وعن يساره باب مسدود ويظهر انهُ باب حجرة ايضاً ولكنها صارت حانوتاً للبضائع والتجارة ولها ساحة لطيفة وفي وسطها بركة ماء على نمط قديم وهندسة لطيفة وبهـا مسجد طوله احدى وعشرون خطوة وعرضه خمس خطوات وسقفه معقود بالحجارة والآجر المتين ومحرابه من الحجر المحفور المعجّـن . وبالجانب الشرقي من الساحـة حجرتان جديدتان وفوقهما غرفتـان مثلهما وهما من بناء أهل الخير بواسطة الشيخ عبد القادر بن أبي الفرج بن عبد القادر الخطيب وفوق دهليزها غرفة أيضاً » (٢)

هذا وصفها كما كانت أيام بدران أما وصفهـا كما تخيلهُ ، الدكتور سوڤاجه فكما يلي : يرى الداخل اليها أول ما يرى بعد أن يترك الباب قبة فخمة من تحتها بهو على النمط المعروف في أكثر المعاهد المبنية في هذا العصر والى جانبي البهو غرفتان شرقية وغربية ثم يدخل الى الصحن المربع وفي شرقيه غرفة مستطيلة والى امتدادها غرفة أخرى أصغر . ثم الى غربي الصحن غرفتان كهاتين . وفي جنوبي الصحن القبلية الواسعة المستطيلة (٣) . هذا هو موجز الوصف الذي يذكره سوڤاجة معتمداً قواعد عمرانية وملاحظات فنية دقيقة . أما وصفها في أيامنا هذه فكما يلي : يدخل من الباب الى صحن الدار مباشرة أما البهو والغرفتان الشرقية والغربية والقبة فلم يبق لهما من أثر وقد أرجع البـاب نحواً من ثلاث أمتار . وفي الصحن البركة المطمورة بالتراب والى جانبها غرفتان شرقية وغربية بناؤها حديث ومن فوق الغرفة الشرقية غرفة علوية يصعد اليها بسلم حجري من الصحن . أما القبلة فلم يبق منها إلاَّ حائطها الجنوبي وفيه المحراب الذي يكاد أن ينقض والحائطان الشرقي والغربي آخذان في الاندثار

﴿ بناؤها ونقوشها ﴾ من أروع ما يجتذب اطلال هذه الدار اطار بابها وحائط قبلتهـا الجنوبي ومحرابه ، فأما اطار الباب ورقعته (٤) وهو من الحجر الاصفر الجميل ، الحسن في تنسيقه . وأما حائط القبلة فن الحجارة المنحوتة الضخمة ويرى سوڤاجه انها كانت مأخوذة من معبد قديم كان بجوارها . وأما المحراب فهو من حجارة منحوتة أيضاً منقول من موضع

(١) Les Monuments Ayyaubides, 15

(٢) منادمة الاطلال ص ٧٧ (٣) Les Monuments Ayyaubides de Damas

(٤) نريد بالرقعة ما يسميه رجال الآثار من الفرنجة (Tabula ansata)

آخر قديم . وما عدا هذا فكل ما في الدار من عناصر البناء عادي أو دون العادي فالآجر المستعمل في بناء العقود والأقواس والكوى هو آجر رديء الجنس سهل التفتيت ، والخشب المستعمل في البناء والاسكفات هو من الخشب العادي أما نقوشها فقليلة جداً وهي نقوش المحراب والباب. فأما نقوش المحراب فهي نقوش قديمة منقولة من مكان قديم كما يرى سوفاجه [1] وهي نقوش تشكل نصف دائرة من الزخارف المعجنة تحيط بقنطرة المحراب وهي نوعان (الاول) نقوش زخرفية تشبه بعض الشبه النقوش العربية المعروفة بـ arabesque و (الثاني) نقوش تمثل بعض الفواكه الاقليمية من عنب وتفاح وورق جيد . وقد نقشت هذه النقوش بشكل بارز . وفي هذا دليل على ان هذه النقوش منقولة من معهد قديم وإلاَّ فكيف ترسم هذه الثمرات البارزة الجميلة بين يدي الواقف في حضرة الله . واما نقوش الباب فنقوش ساذجة بسيطة وهي عبارة عن خطوط ثلاثة غائرة في الحجر تحيط بالباب من جهاته الثلاث ومن فوقها رقعة مستطيلة على امتداد اسكفة الباب العليا وهي رقعة غائرة ايضاً يظهر انهم كانوا يريدون ان يكتبوا عليها بعض الكتابات فلم يفعلوا

﴿ مزاياها الفنية ﴾ : قلنا في صدر هذا البحث ان هذه الدار هي اول دار حديث بنيت في الاسلام كما يرى ذلك بعض المؤرخين واذا صح هذا كان من الطبيعي ان تتخذ انموذجاً لبناء دور الحديث التي بنيت بعدها كدار الحديث الاشرفية وغيرها من الدور

وان من المؤسف ان تكون معالمها غير واضحة وضوحاً يبين تقسيماتها ومرتفقاتها وغرفها ثم ان يد المختلسين التي اختلست قسماً كبيراً منها تضطرنا الى أن نقول ما نقوله بشيء من الحدس والتخمين

ويظهر من الاستنتاجات العمرانية التي انتهى اليها سوفاجه والتي أشرنا اليها حين بحثنا عن موقعها وتخطيطها أن نمط البناء العراقي واضح فيها كل الوضوح كما يتجلى ذلك في اسلوب بناء الاقواس والقناطر والآجر المستعمل في ذلك وقد بحثنا هذا في مقالنا المنشور عن قبة صفوة الملك في عدد مارس سنة ١٩٤٣

ويلاحظ ان هناك شبهاً شديداً بين نمط بناء الدار وبين بعض المدارس الدمشقية كالمدرسة الريحانية [2] والمدرسة العذرائية [3] وهذا الشبه يتجلى بوضوح في خبو هذه العناصر من طابع

(١) Les Monuments Ayyaubides 1!!

(٢) الريحانية هي مدرسة ريحان الطواشي خادم السلطان محمود بن زنكي وهي بجوار المدرسة النورية من الجانب الغربي وهي اليوم كتاب للاطفال . انظر بدران ص ٢٣

(٣) العذراوية هي مدرسة السيدة عذراء بنت صلاح الدين (٥٩٣) وهي جوار المدرسة القجماسية بزقاق المبلط غربي حمام النست عذراء وقد صارت الآن داراً ولم يبق منها سوى قبر الواقفة انظر بدران ص ١٧٥

لا تكاد تخلو منهُ مدرسة وهو الرواق . ومن هنا يمكننا أن نقول ان نظام الاروقة لم يكن معروفاً في المدارس الاولى التي بنيت بدمشق في اوائل العصر النوري والصلاحي

ويمكننا بالقياس الى ما عرف من نظام المدارس المتأخرة عن النورية ان القبلية كانت تستعمل للعبادة والدراسة معاً وان الغرفتين المستطيلتين الشرقية والغربية كانتا تستعملان للتدريس . أما الغرفتان الصغريان اللتان على امتداد هاتين فقد كانت إحداها تستعمل غرفة للشيخ وثانيتها مكتبة وأما الغرفتان اللتان تكتنفان المدخل فاحداها للخادم والاخرى للذخائر والمؤن

ويلاحظ الاستاذ سوفاجه أيضاً (٢) ان المدارس ودور الحديث التي ظهرت بكثرة في الدولتين النورية والصلاحية هي معاهد شديدة التأثر بالفن الاسلامي العراقي او المشرقي بوجه عام لان بناة هذه المعاهد أكثرهم من أقوام جاءوا بلاد الشام من تلك الاصقاع فأحيوا فيه نظاماً ما كان يعرفها . وطبيعي اذن أن يكون الأثر العراقي واضحاً في أسلوب البناء كما كان واضحاً في الانظمة المتبعة في هذه المدارس . ويغالي الاستاذ فيقول : ان هؤلاء الامراء الذين جاءوا الشام من العراق ، لما كانوا غرباء عن البلاد وغير مطمئنين الى اهلها في اداراتهم وسياستهم لم يكونوا كذلك — في أغلب الظن — مطمئنين اليهم في بنائهم وأنظمة تعليمهم فلذلك أحضروا بنائين ومهندسين من بلادهم الاولى — العراق وما اليه — ثم يعود الاستاذ فيشطط في هذه النظرية قائلاً : اننا لا يمكننا أن نطمئن كل الاطمئنان الى هذه النظرية لأن بناء هذه الدار غير جميل ولا مستوف لكثير من شروط البناء الفنية على الرغم من جودة التخطيط وحسن الهندسة . فما هو السر في ذلك ? هل هو في ان هؤلاء الامراء كانوا يجلبون من العراق مهندسين ومصممين حتى اذا ما جاء المهندس ونظم خريطته وتصميمه عهد بذلك الى عمال وبناة من أهل البلاد ليس لهم فن العراقيين ولا خبرتهم المعمارية القيمة فشوهوا البناء وأفسدوا الخطة بعض الافساد . وهذا هو ما يتجلى بوضوح لمن يدرس حالة الدار النورية دراسة فنية متمعنة . لعلَّ في هذا الكلام بعض الحق فان ما يلاحظهُ الانسان من سوء البناء في الدار النورية من جودة التقسيم والتخطيط يجعلنا نأخذ بقوة بهذه النظرية (٣)

وصفوة القول ان هذه الدار على ما أصابها من اضمحلال وفساد توحي الى المرء بتاريخ علمي مجيد فجدير بالقائمين على أمور الاوقاف والمعاهد أن ينقذوها من سوء الحالة التي صارت اليها فان في ذلك حفظاً لسمعة البلاد وتمجيداً لتاريخها العلمي

(١) انظر Rev. Arts Asiat. 1934. 37

(٢) انظر Les Monument Ayyaubides 23—24

(٣) انظر Les Monuments Ayyaubides 24—25

القوة المحركة

من البحر

مصادرها ووسائل استعمالها

لو نفدت جميع موارد الفحم والنفط ، لبقي البحر مورداً عظيماً من موارد الطاقـة ، يفيض على كل ما يحتاج اليه العالم منها ، مهما يبلغ ارتقاء الصناعة وانتشارها

والطاقة من البحر قد ترتدُّ الى أحد مصادر ثلاثة . فثمة أولاً الحركة الموجية التي لا تستقرُّ على حالٍ حتى في الايام التي يكون البحر فيها رهواً ساكناً ، وهي تتجلّى على السواحل، وقوة الامواج إذاً عظيمة حقًّا . وليس في الوسع أن نورد أرقاماً تدلُّ على هذه القوة ، لأنها تختلف باختلاف المكان والزمان . ولـكن — من رأى الضرر الذي يحلُّ بأرصفةٍ مصنوعة من الآبرق ، حين تهب العواصف وتثور الامواج ، يدرك القوة العظيمة التي تنطوي في حركة مقدار كبير من الماء ترفعهُ الريح ويعزّزه المدُّ والجزر أحياناً

وحركة الماء في البحر بفعل المد والجزر هي المصدر الثاني من مصـادر الطاقة في البحر . فجاذبيـة الشمس والقمر ، تظهر مرتين كلَّ يوم في رفع ماءِ البحر ، رفعاً يتفاوت بتفاوت المكان ، ولـكنهُ قد يبلغ أحياناً وفي أماكن معيَّنة اربعين قدماً . واذا تصوّرت الطـاقة اللازمة لرفع مقدار من الماء حجمهُ بضعة ملايين من الاقدام المكعّبة ، الى ارتفاع عشرين قدماً، تفـزْ بصورة صحيحة للطاقة المنطوية في حركة المدِّ والجزر . فاذا كان في الوسع استخدام جزء من مائة جزءٍ من هذه الطاقة ، كان الجزء كافياً لتوليد القوة المحركة في بلدٍ كبير

أما المصدر الثالث من مصادر الطاقة في البحر، فهو الاختلاف الذي بين حرارة الماء على السطح وحرارته قرب القاع . والفرق في الحرارة مصـدر من مصادر الطاقة، فاذا كان ذلك في نطاق واسع ، وأمكن استخدامهُ ، كفى لتوليد ملايين من وحدات الـكهربائية كل سنة

ان الحركة الموجية في البحر تبلغ من التفاوت مبلغاً كبير ، حتى لقـد أنكر فريق من المهندسين امكان استعمالها . ولـكنَّ هناك طرق كثيرة تصلح ، من الوجهة النظرية ، لاستخدام الحركة الموجية مصدراً للقوة المحركة . من هذه الطرق طريقة لمهندس كاليفورني تستوقف النظر، ولاسيما لأنهُ جرّبها وامتحنها على نطاق ضيق . وأما جهازه فمؤلف من اسطوانة تحتوي كبّاساً ، فالـكباس يحرك عجلة في أثنـاء صعوده بوساطة تروس ، وحين ينزل الـكبّاس

تنفكُّ التروس . هذه الاسطوانة توضع في مصطبة مصنوعة من الآبرق ، مشيّدة على الساحل بحيث يكون الماء دائماً قرب مستواها . وهي منحرفة ٤٥ درجة ، وطرفها مفتوح صوب البحر ، فاذا صدمت موجة طرف الاسطوانة المفتوح ، اندفعت فيها الى أن تصطدم بالكباس فتدفعهُ الى فوق ، حتى تنفد طاقة الموجة . فاذا تحرك الكباس الى فوق ، بفعل الموجة ، حرّك العجلة ، وعند نزولهِ تفكُّ التروس ، فيصطدم الكباس ثانيةً بالموجة التالية . أما وزن العجلة فيكون كبيراً بحيث يكون قصورها الذاتي كافياً لحفظها دائرة ، بين ارتفاع الكبّاس اليها مبدا وارتفاعهِ اليها تالياً

ولكن هناك صعوبة لابدَّ من مواجهتها ، وهي إن الموجة لا تصطدم بالكبّاس في موضع واحدٍ ساعةً بعد ساعة ، لأن المدّ يرفع مستوى الماء ، فيكون مستوى الاصطدام في ساعة ما مختلفاً عنهُ في ساعة سابقةٍ أو لاحقة . وللتغلُّب على هذه الصعوبة ، استنبط المهندس المذكور جهازاً يرفع الاسطوانة ويخفضها وفقاً لانبساط المدّ وانحسارهِ . ولهذه الوسيلة في استخدام الحركة الموجية تفصيلات أخرى لا يتسع لها المقام . ولكنها بوجهٍ عام احدى الوسائل العملية التي استنبطت لاستخدام حركة الامواج

على أن الفريق الاكبر من المهندسين وجّه عنايتهُ الى استخدام الطاقة التي في حركة المدّ والجزر . وهذه مسألة تبدو من الوجهة النظرية غاية في البساطة واليُسر . وقد استعملت مطاحن في انكلترا تعتمد على المدّ والجزر ، منذ أكثر من مائة عام . وكل ما يلزم هو تركيب يمكن الماء المرتفع من تحريك عجلة ، كما تتحرك العجلة في مطاحن تعتمد على الماء الجاري في الجداول والأنهار . أو قد يخزن الماء حين يرتفع ثم يجري فيحرك في أثناء هبوطه العجلة . وأكثر المطاحن القائمة في انكلترا وبعض سواحل الولايات المتحدة ، حيث يشتد المد والجزر ، يعتمد على خزانات تملأ وقت المد ، ثم اذا انحسر المد ، يُسمح للماء المخزون الجريان من خلال فرجة فيحرك العجلة في جريانه . وواضح ان هناك فترة غير قصيرة ، كل يوم ، لا تدور العجلة فيها ، وهي الفترة التي يكون الماء فيها ، داخل الخزان في مستوى ماء البحر . وطول هذه الفترة او قصرها مرتبطان بمقدار الماء الذي يخزن ، وارتفاعه ومعدل جريانهِ . ولذلك تجد طاحونة من هذا القبيل صالحة لطحن الذرة ، ولكنها لا تصلح لتوليد التيار الكهربي . فالتوقف في العمل الأول ممكن ، ولكن توليد الكهربائية يجب ان يكون متصلاً لكي يكون نافعاً . وخزن الطاقة الكهربائية لا يزال شاقاً ، كبير النفقة

وقد انشئت مشروعات كبيرة، للاستفادة بحركة المد والجزر، لتوليد الطاقة الكهربائية. منها مثلاً مشروع سد نهر سيفرن بانكلترة . وهذا المشروع يقتضي انشاء خزان ارتفاعه

٥٠٠ قدم فوق سطح البحر ، في وادي « واي » . فهذا الخزان يستطيع بما يخزن فيه من الماء على ارتفاع معين ان يولد طاقة تعدل قوة ٧٠٠ الف حصان او مليون طن من الفحم في السنة . ويلوح ان العقبة الكبيرة دون تنفيذه ، هي العقبة المالية ، على قول الاستاذ ارنولد جبسون ، أحد أساتذة جامعة منشستر . فنفقاته تقدر باربعين مليوناً من الجنيهات

وهناك مصدر ثالث لاستمداد الطاقة من البحر ، وهو استعمال الفرق بين حرارة المياه على السطح وحرارتها قرب القعر . ففي المناطق المعتدلة ، لا يعد هذا الفرق شيئاً مذكوراً ولا يكفي لتوليد الطاقة ، ولكن في المناطق الاستوائية قد يبلغ الفرق عشرين درجة مئوية بين حرارة المياه على السطح وحرارتها على عمق ٨٠٠ قدم

وقد عني الكيميائي الفرنسي كلود وزميلهُ بوشرو باختراع الاساليب اللازمة للافادة من هذا الفرق في الحرارة . ففي سنة ١٩١٣ أشار كبل الاميركي الى امكان الحصول على حرارة ميكانيكية او كهربائية من هذا الفرق بين حرارة مياه السطح وحرارة مياه الأعماق ثم انقضت عشر سنوات فتجددت العناية بما سبقت اشارة كبل اليه . ولكن لم يتصدّ لتحقيق هذه الفكرة الا كلود وبوشرو . فقد أثبتا بالامتحان ان تربيناً يتحرك ببخار يتفاوت ضغطه بين ٣ ارطال و٣٠٠ رطل على البوصة المربعة يمكن تحريكه ببخار مائي متولّد من طبقتين من الماء يبلغ الفرق بين حرارتهما من ٢٥ درجة مئوية الى ٧ درجات مئوية . ومبدأ هذه الطريقة يتلخّص في ان جانباً من مياه السطح الساخنة يتحوَّل بخاراً إذا ضعف الضغط الجوي عليه . وهذا البخار يستعمل في ادارة التربين مع ضعف ضغطه . ثم يؤخذ البخار ويبرَّد بماء مستمدّ من الطبقة الباردة ويقذف في البحر . فيولّد هذا التبريد الفراغ الجزئي المطلوب في الآناء الاول الذي يتحوَّل فيه الماء الساخن الى بخار . ويؤخذ من حسابهما ان قوة قدرها ٣٨٣٠٠٠ « قدم رطل » يمكن توليدها من متر مكعب من الماء اذا كان الفرق بين الماء الساخن والماء البارد نحو خمس درجات مئوية . وعندهما أن هذا الاسلوب أكفأ كثيراً في توليد الطاقة من الاساليب المعتمدة على المدّ والجزر . وقد أثبتا في اوائل العقد الرابع من هذا القرن ان فرقاً من الحرارة يبلغ ٣٨ درجة مئوية يمكن استعماله لتحريك مولّد كهربائي يولد طاقة قدرها ٥٩ كيلو وط

بقيت ناحيتان لا تمتان الى هذه المصادر الثلاثة بصلة . اما الأولى فاطلاق الطاقة الذرية التي في ماء البحر . وأما الأخرى فالطريقة التي اقترحت من اكثر من عشر سنوات — وقد اقترحها حسين سرّي باشا (بك حينئذٍ) لتوليد الطاقة الكهربائية من ماء البحر بجرّه في أقنية وأنفاق الى حافة منخفض القطارة ثم ينحدر على تربين فيحركهُ . ويجد قراء المقتطف تفصيل هذه الطريقة في صدر مقتطف ابريل لسنة ١٩٣١

اللغة البولندية
وتاريخها

لحسين المهدي غنام

لايجد الباحث في الادب البولندي شعراً اسطوريًّا للبولنديين في العصور المتقدمة جدًّا أي قبل سنة الف للميلاد ... وكما انك لا تجد أبطالاً من أبطال البولنديين الشعبيين في تلك العصور الغابرة مجّدوا في شعر من ذلك النوع ، كذلك لا تجد اثراً من آثار الترجمة لقصائد القرون الوسطى التي عالجت بطولات ومغامرات آرثر أو شارلمان، أو هكتور أو الكساندر ذائعة في تلك القرون . . . وغيرها من أدب الفروسية . ذلك مع انك تجد شيئاً من مثل ذلك في آداب بوهيمية ، وهي الملاصقة لبولندا غير ان ما وصل الى الباحثين عن تلك الفترة استخلص من أقوال بعض المؤرخين الذين ألفوا باللاتينية ، أمثال : جالس، كادلبك ، بجخفال ، دلوجوش

يقول أول هؤلاء انهُ يوم موت بولسلاس الشجاع ، كان هناك تفجع عام

ويحدثنا بيبسكي ، مؤرخ القرن السادس عشر — وقد كتب باللغة البولندية — انهُ لما عاد كازيمير الاول الى بولندا قابلهُ الشعب وحياه بأغنية مطلعها : مرحباً ، مرحباً بالسيد العزيز

وهنالك أغانٍ غير هذه الاغنية وجد بعضها في مكتبة فويلستسكي ، ولكن كان من الصعب تعيين تواريخها . على أن أقدم ترنيمة بولندية هي ترنيمة موجهة الى العذراء ، وقد اتخذت أيضاً كأغنية من أغاني الحرب

وأقدم مخطوط لهذه الاغنية تاريخه سنة ١٤٠٨ ، وكان محفوظاً الى عهد قريب في مدينة كراكوف التي كانت قديماً أعظم مدينة بولندية علماً ومدنية وحضارة . وكانت عامة الشعب تنسب هذه الأغنية الى القديس آدالبرت؟ ولكن يبدو انها مبنية على أغنية من بوهيمية

ولاشك ان كتابة الأدب البولندي بدأت باللغة اللاتينية ، على نحو ما بدأ الادب الانكليزي وغيره من آداب الامم الأخرى في عصورها الاولى . وهنا نرى ان الاكثرية من أدباء البولنديين وشعرائهم ومؤرخيهم من رجال الدين ماثلوا أدباء الانكليز وغيرهم من شعوب أوروبة

أما تاريخ بولندة الوطني فيبدأ مع تاريخ انكلترة الوطني تقريباً، أي في القرن السادس عشر وأقدم من كتب باللاتينية في أدب البولنديين هو مؤرخهم مارتن جالس الذي يقال إنهُ مات

سنة ١١١٣ وقد قال فيه بعض المؤرخين انهُ رجل فرنسي، وبذلك عرّفه الاستاذ بروكنر البرليني، وقد جاءت في أصل هذا الرجل تأويلات أخرى ، ولكن المحقق انهُ كان غريباً غير بولندي . والتأريخ الذي وضعهُ هذا الرجل مكتوب في أسلوب شعري خالص ، وقد كان عالي المنزلة . يدل على ذلك ما ذكره الكثيرون من قدماء المؤرخين الذين تلوه

وقد تبع جالس من المؤرخين ثلاثة آخرون حذوا حذوه ، هم ماتيو خولڤا ، ڤنسنت كادلبك ، بجخثال ، وكان الأولان مطرانيْ مدينة كراكوف ، والثالث قسيس مدينة يوزن

وظلّ ڤنسنت كادلبك مدة طويلة معدوداً في خير الكتّاب الشعبيين للتاريخ البولندي وكان مثلهُ في ذلك مثل ڤنزيلوس هاچك في بوهيميا ، فقد كانت له قوة عقلية خارقة وجاذبية في كتابته تحبب حتى الاساطير البعيدة والأقاصيص الخرافية الهائلة الى نفوس الشعب الذي ظلّ ينظر اليهِ زمناً طويلاً كسند معصوم من الأخطاء ، فأقبل على قصصه وأنبائهِ بشغف المنهوم . ولكن قصصه وأساطيره تلاشت قبل نشوء النقد الادبي الحديث فلم تعرف قيمتها ولا حددت مكانتها من أدب مواطنيه الآخرين أو آداب الامم الأخرى

أما كتاب التاريخ الذي وضعه باللاتينية فقد ترجم في نهاية القرن التاسع عشر الى اللغة البولندية بوساطة كاتبين بولنديين لم يعلنا عن أنفسهما ، وقد أضافا هذه الترجمة الى طبعة الكونت يسيشز چتسكي . وكان كادلبك في نشأته رئيساً لمدينة ساندومير ، ثم مطراناً لمدينة كراكوف . ومات راهباً سنة ١٢٢٣ . وبعد موته أنزله الشعب منزلة القديسين

وعلى اية حال فان مادة كتابه عظيمة القيمة كتاريخ لبلاده ، وان كانت اللغة اللاتينية التي استعملها لغة منكرة منفّرة جافة . ولا نجد بعد ذلك ، حتى القرن الرابع عشر ، نماذج محفوظة من اللغة البولندية ، إلاّ قليلاً من التعابير والشروح ، وبعض أسماء الأشخاص أو الأماكن ، وهذه اللمحات القليلة جمعها بعناية كبيرة الاستاذ (بودوان دي كورتناي) في كتابه (اللغة البولندية حتى القرن الرابع عشر). وفي ذلك القرن ظهر بعض المؤرخين الآخرين مثل مارتنوس بولونس ، وجون التشارنيكوفي . وهؤلاء استعملوا اللغة اللاتينية كذلك

ويبدو ان المزامير ترجمت كذلك الى البولندية في القرن الثالث عشر ، فقد جاء في بعض كتب التاريخ البولندي القديمة ان القديسة كوننجند ، من ساندتش القريبة من كراكوف والمتوفاة سنة ١٢٩٢ ، كانت ترتل عشرة مزامير باللغة القومية قبل أن تترك الكنيسة

وفي سنة ١٨٢٦ كشف القديس فلوريان في لتر بالنمسا أقدم نموذج للغة البولندية وأكبر ما عثر عليهِ حجماً من ذلك النوع في هذه اللغة . وهذا الاثر له اسم غريب ، وهو (كتاب مزامير الملكة مرجريت) . ويبدو ان هذا المخطوط يرجع الى منتصف القرن الرابع عشر ، وقد وقف على مراجعته باذلاً عنايته الكبيرة في ذلك ، الاستاذ نهرنج من برسلو ، ثم طبعه في

بوزن سنة ١٨٨٣. وكان المظنون انهسا نسخة من تأليف قديم . وتظن فئة ان تسمية ذلك الكتاب مأخوذة من اسم مرجريت الزوجة الاولى للملك لويس المتوفاة سنة ١٣٤٩ ، ولكن المؤرخ كارو يميل الى ان ذلك الكتاب يمت الى ابنة الملك ميري . والأثر الهام الثاني في اللغة البولندية هو انجيل الملكة صوفية الذي كان يسمى في الأصل انجيل شاروسياتاك ، وهو مكان في المجر كان يحفظ فيه ذلك الكتاب . وهذا الكتاب بحالته تلك ، غير كامل لانهُ يحتوي اسفار موسى ، يوشع ، راعوث ، وملاخي . وفيه فقرات من ثلاثة كتب اخرى ، وورقة وجدت منذ نصف قرن تقريباً في مكتبة جامعة برسلا وتضم جانباً عن النبي ارميا

ويقال ان هذا الانجيل كتب لاجل الملكة صوفية ، الزوجة الرابعة للملك لادسلوس ياجيللو ، حوالي سنة ١٤٥٥ ، وقد وقف على نشره مؤخراً الاستاذ (مالتسكي Malecki) مؤلف قواعد اللغة البولندية القدير . وبذل جهوداً عظيمة في طبع ذلك الكتاب

ومن المحن التي ألمت بدولة بولندة القديمة ، فقدانها كثيراً من المخطوطات العظيمة القيمة ، ولم يكن حظ بولندة الحديثة — وهي جمهورية بأحسن من حظها وهي مملكة ، فقد أحرقت مكتباتها ونهبت تحفها ودمرت مدنها وآثارها واندثر الكثير من معالم مدنيتها القديمة . ومن هذه الآثار القيمة ما حققهُ الاستاذ نهربج من علماء القرن التاسع عشر . فقد ذكر انهُ وجدت في القرن الثامن عشر في مكتبة تشنشتوخوفة طبعة جميلة لطيفة من الكتاب في سبعة مجلدات متتابعة باللغة البولندية Czestochow واستدل على ذلك ببعض رسائل ليانتشكي Janocki فقد وجدت دار للطبع في مدينة كراكوف الشهيرة وذلك سنة ١٤٧٤ تقريباً ، ولكن أول كتاب في اللغة البولندية طبع في سنة ١٥٢١ في مطبعة ايرونيمس وكان عنوان ذلك الكتاب « أحاديث الملك الحكيم سليمان » . وانتشرت بعد ذلك تآليف أخرى

وقد كشفت في اواخر القرن التاسع عشر آثار قديمة من اللغة البولندية ، وكلها ذات فائدة ولذة للباحث في منشأ هذه اللغة النبيلة والتي كادت تهمل وتنمحي في الأزمان الغابرة

ومن تلك الآثار سيرة القديس (يوفراكسي) — Zywot S. Eofraksy وقد تولى نشرها المسيو كراينسكي بوارسو ويرجع تاريخها الى سنة ١٥٢٤

واللغة البولندية من اللغات السلافية ، فالبولنديون من الفرع الغربي للجنس الصقلبي

ومع ان الكثيرين من المؤرخين وعلماء اللغات يعدونها من اللغات الجميلة ، فإن نطقها لا يخلو من صعوبة كبيرة للغرباء عنها ولاسيما نطق أعلامها وأسمائها ، ونعتقد ان هذه الصعوبة هي جماع الصعوبات في اللغات الروسية والألمانية والبوهيمية واللتوانية التي تأثرت بها تلك اللغة القديمة ، واللغة اللاتينية التي تركت فيها عديداً من الكلمات والاصطلاحات وما زالت

تستعمل فيها ... كما خالطتها كلمات المانية كثيرة . أضف الى ذلك غرابة نطقها نفسها ، فهم يستعملون مثلاً حرف a تحته نبرة فينطق عندهم كما عند الفرنسيين في كلمة Bon ، وحرفي cz معاً ينطقان تْشْ ، وحرف ž ي ، وحرف ó فوقه نبرة يستعمل واو الضم الثقيلة كما عندنا ، وحرفي RZ معاً كما عند الفرنسيين في كلمة Jour وحرفي SZ معاً ش ، وحرف W ف وحروف SZCZ مجتمعة معاً تنطق شتش ، وحرف E وتحته نبرة ينطق (إنْ) ، وغيرها وغيرها . ولعلّ شاعرهم كازيمير برودزينسكي عنى هذه الصعوبة في اللغة البولندية اذ يقول مفتخراً بهـا — « ليبتسم كل بولندي كبرياء إذ يسمع أحد سكان ضفاف نهر التيبر أو نهر السين ، يسمي اللغة البولندية لغة جافة ثقيلة . ويسمع وهو راضٍ مغتبط ، في وقار الحكم العدل ، أجنبيًّا وهو يحاول في مرارة ان ينطق الكلمات البولندية العسيرة — كما يحاول مرهف رخو الاعصاب خائرها ان يرفع درعاً رومانية قديمة — او وهو يجتهد في لغوٍ ان يقوّم لغة الرجال ولكن بلهجة الاطفال اللاثغة الضعيفة

« ولطالما كانت الشجاعة من مميزات جنسنا ولم نفقدها ، ولطالما بقيت اخلاقنا وآدابنا على كمالها فلنفخر بهذه الخشونة بل هذه الرجولة ، في لغتنا

« ان لها توافقها ، وانسجامها ، وسحرها ، وموسيقاها التي تشبه همهمة شجرة سنديان عتيقة عمرها ثلاثمائة سنة ، لا صفير انبوبة واهية ضعيفة تميل مع الريح في أي اتجاه)

على ان التجاء الأدباء البولنديين الى الكتابة باللغة اللاتينية في عصورهم الأولى لم تنشأ عن هذه الصعوبة ، فالاوربيون يعدون لغتنا العربية — مثلاً — لغة صعبة جدًّا بل عسيرة على افهامهم ، ولكننا لا نتركها لنكتب بغيرها من اللغات في عصرنا الحاضر ، فكل شعب يستسهل لغته مهما صعبت ، كأهل الصين مثلاً . ولكنها كانت عادة كل الكتّاب والشعراء في تلك العصور القديمة ، في أوربة عامة ، وهؤلاء هم كتّاب الانجليز وشعراؤهم في تلك الأجيال ، وغيرهم من الشعوب الأخرى لايكتبون الاّ باللغة اللاتينية ، وقد ظلّ الانجليز يستعملونها حتى العصور المتوسطة ، لأنها كانت اللغة الدولية تقريباً ، وكانت جميع شعوب اوربة تتعلمها لأنهـا أم لغاتهم جميعاً . . . وبخاصة في الكنائس والديورة ، وبين رجال الدين هنالك نشأت الطوائف الاولى من الكتّاب والشعراء والمؤرخين ...

ولم تنتعش اللغة البولندية القومية الاّ في نهاية القرن الخامس عشر ، فقد ظهرت في بولندة فئة من الكتاب والشعراء والمؤرخين استعملوا لغتهم البولندية القومية ، غير ان هذه النزعة لم تلبث ان ضعفت بظهور فئة أخرى من الأدباء والمؤرخين عادوا الى الكتابة

باللاتينية ، فكانت هذه النكسة من المساوىء الاجتماعية في اواخر القرن السادس عشر ، وان كان هذا لم ينتقص من الثروة الأدبية والفكرية التي عادت على الأدب البولندي منها . ولم يمنع هذا ظهور كتّاب مبرزين استعملوا البولندية في كتاباتهم بأسلوب رفيع ، حتى كان القرن السابع عشر ، ولعله كان أسوأ قرن مرّ على بولندة في العصور الوسطى ، فقد تحالفت عليها القوات الثلاث واقتسمتها ، بعد اضطرابات سياسية وأدبية واجتماعية اكتنفت الحياة البولندية كلها . وكان من نتائج تلك الاضطرابات تذبذب ادبائها وشعرائها آنئذٍ في تراوح الكتابة بين اللغتين البولندية واللاتينية، فقد كانت اللاتينية حتى ذلك الحين لغة العلية والنبلاء ، الذين جنوا على بولندة جناية كبيرة[1]، لا يهتمون بلغة الشعب، ولا بالأدب الذي يكتب بهذه اللغة اطلاقاً . . . وكان الكتّاب عامة ينحون في كتاباتهم — بأي اللغتين — مناحي البلاغة البيانيـة والزخرف والبديع . وكان من نتائجها أيضاً ، ومن نتائج نظام التعليم الذي أدخله (الجزويت) في بولندة ، أن انحطت لغتهم القومية مرة أخرى واختلطت باللغة اللاتينية وداخلتها كلمات كثيرة غريبة شوّهتها وما تزال تشوّهها الى الايام الحاضرة . فتأثر الأدب البولندي بل الحياة البولندية كلها بالطابع الفرنسي في القرن الثامن عشر لكثرة اختلاط البولنديين بالفرنسيين ، فأخذت اللاتينية تضمحل في بولندة قليلاً قليلاً ، كما اضمحلت في غيرها من الامم ، الى أن أمست لا تستعمل إلاّ في بعض المناقشات الخاصة بين الافراد ، كلغة غريبـة ، وأقبل الأدباء والشعراء على الكتابة بلغتهم القومية ، ولم يشذ إلاّ القليلون عن ذلك في كتابة قصيدة أو مقالة باللاتينية ، كما فعل شاعرهم الأكبر متسكيفتش ، في قصيدته التي وجهها الى نابليون ، ولكن غرضه كان أن يقرأها الامبراطور بلغـة يدركها ، لأن القصيدة كانت تملقاً وطلباً لانصاف بولندة المغلوبة ، ولم تكن من أعمـال الشاعر الجيدة

وهكذا عاد البولنديون الى استعمال لغتهم ، وان حاول الالمان جهدهم في أن يغيروا لغة القسم الذي كانوا يحتلونه منها في القرن الثامن عشر خاصـة ، فأفلحوا بعض الشيء من طريق العنف في صبغه بصبغتهم ، كما سنبين ذلك في فصل آخر . ولكن البولنديين عامة التزموا لغتهم القومية منذ ذلك الحين . وظهر كتّاب وشعراء عديدون يكتبون بالبولندية ، وان كان معظمهم مجهولاً حتى في أوربة نفسها ، ففيهم من يضارع أبناء عمومتهم الروس

ولعلنا نتناول بعض هؤلاء الادباء والشعراء في مقالات أخرى

(١) سنبين ذلك في مقال آخر

الدين والفلسفة

الخصومة بينهما في المشرق

لمحمد يوسف موسى

« تكلمنا في الكلمة الاولى على الدين والفلسفة : معناهما ، نشأتهما ، العلاقة الطبيعية بينهما ، والعوامل الذاتية التي جعلت كلا منهما في طرف ، كلاهما للآخر عدو . واليوم نتحدث عن مظاهر الخصومة بينهما في الشرق الاسلامي »

لما انسابت الفلسفة اليونانية بين المسلمين تلقاها جماعات منهم بعقول ظمأى للمعرفة وأوجس خيفة منها آخرون يظنون أنها تحمل الكثير من الشر والالحاد وتناهض الدين في بعض ما جاء به من مبادىء وعقائد ، ولهذا تلقاها هؤلاء — منذ اللحظة الأولى — بصدور مطوية على سوء الظن بها وبالقائمين عليها والمروّجين لها

هذا هو تاج الدين السبكي يذكر عن المأمون أنهُ انساق للقول بخلق القرآن وناهيك بذلك بدعة في الدين وثلمة في صرحه ، بسبب القليل الذي كان يعرف من علوم الاوائل (١) كما يذكر ياقوت عن علي بن عبيدة الريحاني أنهُ كان له اختصاص بالمأمون ويسلك في تأليفه طريق الحكمة ، كما كان يُرمى بالزندقة . (٢) ويظهر ان التهمة بالزندقة والالحاد كانت تسير جنباً الى جنب مع العناية بالفلسفة أو مجرد الاشتغال بها ، ومن ذلك نرى أن ياقوتاً نفسه يذكر في موضع آخر ان أبا زيد أحمد بن سهل البلخي ، المتوفى سنة ٣٢٢ هـ ، كان يتأثر فيما يؤلف طريقة الفلاسفة ، ولهذا رمي بالالحاد (٣)

وكان المتزمّتون — الذين لا يخلو منهم عصر — لا يعادون الطبيعيات والالهيات وحدها من العلوم الفلسفية ، بل نراهم أيضاً ينظرون النظر الشزر لعلم الحساب وعلم المنطق ، مع شديد الحاجة لهذين العلمين ، لا لشيء الاّ لانهما من علوم الأوائل ، حتى كان من أمثالهم : « من تمنطق فقد تزندق » ! وكان حزماً من حجة الاسلام الغزالي أن يلوم اللوم الشديد ، في تهافته وفي المنقذ من الضلال (٤) هؤلاءِ الجهلاء الذين يضرون الدين بموقفهم هذا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً ! إذ من عرف وثاقة براهين الفلاسفة ، في هذين العلمين وسائر العلوم الرياضية لم يشك في شيء منها ، لكن يعتقد ان الاسلام مبني على الجهل

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ١ : ٢١٨ (٢) معجم الادباء ١٤ : ٥١

(٣) معجم الأدباء ٣ : ٦٤ وما بعدها (٤) الاول ص ١٠ وما بعدها ، والثاني ص ٩٠ وما بعدها

وإنكار البرهان القاطع فيزداد للفلسفة حبًّا وللاسلام بغضاً » ! [١]

واذا تجاوزنا عصر الغزالي نجد أحد الخلفاء العباسيين ، وهو المستنجد بالله ، يأمر — كما يروي ابن الأثير — بكتب أحد القضاة فيحرق ما كان منها في علوم الفلاسفة ، فكان مما صار طعاماً للنار كتاب الشفاء لابن سينا ودائرة معارف إخوان الصفا [٢]. كما نجد ابن الجوزي المتوفى عام ٥٩٧ ﻫ يحكم على فلاسفة المسلمين ، الذين تأثروا فلاسفة الاغريق فيما ذهبوا اليهِ ، بأنهم خلعوا ربقة الاسلام ، وبأن اليهود صاروا أعذر منهم لتمسكهم بشرائع سماوية لها معجزاتها بينما هم لا مستند لما كفروا بهِ الاّ زعمهم أن فلاسفة اليونان حكماء [٣]

وبعد هذا نشير الى حادث عبد السلام البغدادي المعروف بالركن الذي كان كل ذنبه أن استعمل فضل ما رزقهُ الله من عقل فيما أمر بهِ من النظر في ملكوت السموات والأرض ، فاتهم بالتفلسف وصُدر الأمر باحراق كتبه ، فتمّ هذا الجرم الشنيع في حفل حافل وتولى كبره عبد الله التيمي البكري فجعل يتناول كتبه كتاباً كتاباً ويبالغ في ذمه وذم مؤلفه ثم يلقيه في النار، ولما وصل الى كتاب الهيئة للحسن بن الهيثم قال وهو يشير الى الدائرة التي مثـل بها الفلك: «وهذه الداهية والدهياء والنازلة الصماء والمصيبة العمياء» ثم خرقها وأطعمها النار! [٤] على أن «الركن» تغير حظه بعد هذا فأخلي سبيله وأعيد الى مناصبه واستمر كذلك حتى مات عام ٦١١ ﻫ

ثم كان بعد ذلك محنة سيف الدين أبي الحسن علي الآمدي ، أوحد الفضلاء وسيد العلماء وأكثرهم معرفة بالعلوم الحكيمة والمذاهب الشرعية كما يقول ابن أبي أصيبعة [٥]. لكن الحسد — وهو داء العلماء — كان له بالمرصاد ، فاتهم من الفقهاء بفساد العقيدة والذهاب مذاهب الفلاسفة ، وكتبوا بذلك محضراً استباحوا فيهِ دمه ، وعلم الآمدي ما يبيّتون لهُ ففرّ هارباً من مصر الى الشام حيث أقام بدمشق مدرساً فترة من الزمن ، ثم عُـزل لمثل ما قـرف بهِ في مصر وظلّ متعطلاً حتى توفى عام ٦٣١ ﻫ

واذا وصل الباحث الى القرن السابع الهجري لا يسعه أن يغفل في هذه الناحية فتوى الامام المحدّث والاصولي الفقيه أبي عمر تقي الدين الشهرزوري المعروف بابن الصلاح المتوفى عام ٦٤٣ ﻫ ، تلك الفتوى الخاصـة بتحريم المنطق والفلسفـة تعلّماً وتعليماً ووجوب أخذ المشتغلين بشيءٍ من هذا بشديد العقاب ليكونوا لسواهم عظة وعبرة ، والتي كان لها أثرٌ بالغ استمرّ حتى هذه الأيام !

سـُئل فيمن يشتغل بمؤلفات ابن سينـا فأجاب غفر الله لهُ : « من فعل ذلك فقد غدر بدينه وتعرّض للفتنة العظمى » ، لأن ابن سينا « لم يكن من العلماء بل كان شـيطاناً من

(١) المنقذ ص ٩٠ (٢) تاريخ ابن الاثير ج ١١ : ١٠٤ (٣) تلبيس ابليس ص ٤٩
(٤) أخبار الحكماء للقفطي ص ١٥٤ (٥) طبقات الاطباء ٢ : ١٧٤

شياطين الانس » (١) وسئل ما حكم الله فيمن يشتغل بالمنطق والفلسفة تعلّماً وتعليماً ، وهل يجوز استعمال المنطق في اثبات الاحكام الشرعية ، فكان من اجابته : « ان الفلسفة أس السفه والانحلال ، ومادة الحيرة والضلال ، ومثار الزيغ والزندقة ، ومن تفلسف عميت بصيرته عن محاسن الشريعة ، ومن تلبس بها تعليماً وتعلماً قارنه الحرمان والخذلان واستحوذ عليه الشيطان ! وأما المنطق فهو مدخل الفلسفة ، ومدخل الشر شر (٢) ، وليس الاشتغال بتعليمه وتعلمه مما أباحه الشارع » (٣)

وفي القرن الثامن نرى الذهبي يقرر أن الفلسفة الالهية ما ينظر فيها من يرجى فلاحه ، ولا يركن الى اعتقادها من يلوح نجاحه(؟)فان هذا العلم في شق وما جاءت به الرسل في شق ، وما دواء هذه العلوم وعلمائها والقائمين بها علماً وعملاً إلاّ التحريق والاعدام من الوجود ، إذ الدين كان كاملاً حتى عرّبت هذه الكتب ونظر فيها المسلمون فلو أعدمت لكان فتحاً مبيناً ! (٤)

ولقد كان من آثار فتوى ابن الصلاح ما ذكره جلال الدين السيوطي في مقدمة كتابه « طبقات المفسرين » ، إذ يقول في ترجمته لنفسه : « وقد كنت في مبادىء الطلب قرأت شيئاً في علم المنطق ، ثم ألقى الله كراهته في قلبي ، وسمعت ان ابن الصلاح أفتى بتحريمه فتركته لذلك ، فعوّضني الله عنه علم الحديث وهو أشرف العلوم » (٥)

هذا ، ونختم الحديث عن رأي رجال الدين والعلماء عن الفلسفة والفلاسفة في المشرق ببيان آراء ثلاثة من المؤرخين الاثبات ، وهم : ابن خلدون ، والمقريزي ، وطاش كبري زاده

أما ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ فيرى في مقدمته « أن الفلسفة مخالفة للشريعة ، فليكن الناظر فيها متحذراً من معاطبها » (٦) . وأما تقي الدين المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥ هـ فقد ذكر انهُ قد « انجرّ على الاسلام وأهلهِ من علوم الفلاسفة ما لا يوصف من البلاء والمحنة في الدين ، وعظم بالفلسفة ضلال أهل البدع وزادتهم كفراً الى كفرهم » (٧) ثم جاء بعد هذين طاش كبري زاده المتوفى سنة ٩٦٢ هـ لحذّر من أن نطلق اسم العلم على « الحكمة المموّهة التي اخترعها الفارابي وابن سينا . ووصف حكماء الاسلام بأنهم طائفة « عكفوا على دراسات ترهات أهل الضلال وسموها الحكمة ، وربما استجهلوا من عرى عنها ، وهم أعداء الله وأعداء أنبيائهِ ورسلهِ ، فالحذر الحذر منهم . والاشتغال بحكمتهم حرام في شريعتنا ، وهم أضر على عوام المسلمين من اليهود والنصارى لأنهم يتستّرون بزيّ أهل الاسلام» (٨) على انهُ بعد هـذا أباح النظر في علوم الفلاسفة لمن تثبّت من الشريعة ، وكانت غايته من النظر فيها الرد على مايخالف الدين منها ، وبشرط ألاّ يمزج كلام الفلاسفة بكلام علماء الاسلام.

(١) فتاوى ابن الصلاح ص ٣٤ (٢) يلاحظ انه استعمل المنطق في الاستدلال على تحريمه دون ان يدري ! (٣) الفتاوى ص ٣٥ (٤) الاسلام والحضارة العربية لمحمد كرد علي ٢ : ٤٣ ص ٤٣
(٥) التراث اليوناني ص١٦٥ (٦) المقدمة ص٤٣٢ (٧) الخطط ٤: ١٨٣—١٨٤ (٨) مفتاح السعادة ص٢٦

فصل من كتاب «سيرة مخيلة»

أحلام جول ڤرن (١)

تتحقق

ان كثيراً من الناس تسنموا ذروة الشهرة بما عملت أيديهم ، ولكن جول ڤرن حلّ في الأذهان محلاً سامياً من أثر ما تخيّل . وان قليلاً مما كتب صدر عن وحي الحواس : اللمس والبصر ولكن أحلامهُ التي تحققت كانت سدى حياتهِ ولحمتها . ولقد ظل طول حياته في حلم رسم كلماته على قرطاس ، وعاش عمره قابعاً في ناحية من وطنه — فرنسة — غير انهُ طاف على متن خياله من قطب الى قطب ، واندفع به الى قاع البحر ، وسما بهِ الى آفاق السموات العلى .

ولما ولد جون ڤرن كان العلم يتخبط في عهد السحر ، وحين أصبح كاتباً ناشئاً في باريس كان العلم لا يزال بين جدران المعمل لا يظفر الباحث فيه بشيء سوى التعرّض لسخرية رفاقه وجيرانه المرتابين . ولكن تآليفه أسدت الى العلم خدمة جليلة لانها قرّبت العلوم من أذهان الناس فغدا قراؤه — برغمهم — مكتشفين وكيميائيين وفلكيين وطيارين

وذات يوم — بعد عشر سنوات من موت جول ڤرن — جلس الجنرال لويس هيبرت ليوتي — وكان حينئذٍ مارشال فرنسة — ينشيء خططاً حربية للمستقبل ويعرضها على أحد رجال الحكم فحدّق الموظف في هذه الخطط ثم ابتسم وهو يقول « ان هذا ، يا سيدي الجنرال ، هو صدى صوت جول ڤرن » فأشار الجنرال موافقاً ثم قال « نعم ، انها تشبه حديث جول ڤرن ، ولكن الامم التي سلكت سبيل الرقي — في مدى عشرين سنة — لم تفعل شيئاً سوى أن تترسم خطاه » . واذا كان نشاط جول ڤرن الكتابي وانتاجه العقلي قد امتدا خمساً وأربعين سنة ، فلقد ظلت آثار خواطره تصلصل في الاذهان مدى قرن من الزمان ، تدفع العقول بسحرها الى الشهرة والسمو والاختراع

ولشدّ ما يندهش العقل ان هو تصفح الآن نبوءاته ، لأنهُ يعجب أشد العجب لعبقرية البعض ، ثم هو يبسم ساخراً لما في القليل منها من سذاجة ، ولا عجب أن يكون فكر ڤرن قد صدق وان أخطأ أحياناً في وصف طريقة العمل . فقد قال ان الناس سيرسمون

---

(١) نقلها : كامل محمود حبيب ، بتصرف عن مجلة «خلاصة العلم» .

طرقاً في السماء ولقد تحقق ذلك وقد كشف عن مصدر جديد للطاقة هو أورانيوم ٢٣٥ (١) هذا وفريق من العلماء يفكر تفكيراً جدياً في الانتقال بين السيارات والناس يحلقون في الأجواء العليا ويغوصون في أعماق البحار . ولقد كانت الأركان الخمسة التي اعتمد عليها ڤرن هي علوم الفيزيقيا والكيمياء والجغرافيا والفلك والجيولوجيا ، ومنها توقع أن يبزغ فجر التقدم فتستحيل كثير من المواد شيئاً هو « وسائل الترف الحديثة »

وحين كتب جول كتابه « عشرون الف فرسخ تحت البحر » لم يكن يجول بخاطره ان كلماته ستدفع رائداً الى أن يسلك طريقه في أعماق المحيط . فلقد طبع هذا الكتاب في سنة ١٨٧٠ ، ثم بعد هذا التاريخ بست سنوات كان على الشاطىء الآخر من المحيط الاطلسي ، في مدينة نيوجيرسي الاميركية ، صبي في العاشرة ينكب على قصة رحلة الكابتن نيمو يقرأها فيقرأها . وجذبت الفكرة الصبي فأذهلته فراح يتصيّد كل كتاب يتحدث عن الرحلات في قاع المحيط . وحين بلغ هذا الصبي الثانية والثلاثين ، اندفع سيمون لايك الى متاهات البحر يقطع فيافيه في غواصته « أرجونوت » وهي أول غواصة نجحت في خوض عباب اليم . وأدّى سيمون لايك ما عليهِ من دين حين كتب أول سطر في تاريخ حياته « لقد كان جول ڤرن — الى حد ما — قائدي الاعلى الذي رسم نهج حياتي »

وحين ترامى خبر رحلة الارجونوت الى فرنسة في سنة ١٨٩٨ أبرق جول ڤرن بالتهنئة ولكن لايك قال لقد طبعت القصة في فرنسا وأبرق جول ڤرن يهنئني على حين أن كتبه هي التي دفعتني الى الغوص في طبقات الماء ، وكنت دائماً أقول ان جون ڤرن عالم قبل أن يكون قصصياً يكتب القصة الخيالية ، لأن خياله نفّاذ يخترق الحجب ،وهذا النوع من الخيال لا غنى لمخترع عنهُ ، اذا اقترن بمعلومات دقيقة ممتازة

وكانت تجربة سيمون لايك فذّة في نوعها ، ولكن قراء القرن التاسع عشر كانوا يعجبون من الأخيلة التي ربطت بين الهليكوبتر ، والآلة الطائرة « البتروس » والمنطاد المتحرك في كتاب ڤرن « مركب السحاب » . وفي سنة ١٩٠٣ ، أي بعد انقضاء سبع عشرة سنة على هذه القصة استطاع اورفيل وولبر ريط ان يطيرا تسعاً وخمسين دقيقة فوق رمال كيتي هوك في كارولينة الشمالية بأميركة ، واجتازت المناطيد المحيط الأطلسي في العقد الرابع من هذا القرن . وفي سنة ١٩٤١ ضرب إيجور سيكورسكي رقماً قياسياً عالمياً اذ طار مدة ساعتين بالهليكوبتر الذي صنعه

والآن أصبحت الأنباء التي تثير الاعجاب في عالم الطيران هي أنباء صنع الطائرات —

(١) راجع مقتطف دسمبر سنة ١٩٣٩ صفحة ٥٠٠ ويوليو ١٩٤٠ صفحة ١٢٤

ناقلات الرسائل والجنود وطائرات التدريب والقاذفات — من بعض العجائن والخشب . على حين ان ڤرن أوصى ان تصنع طائرته « ألبتروس » من ورق مضغوط لا تستطيع أقسى الآلات الحادة ان تخدشه ، وذلك برغم قلة معارفه العلمية . على أنه من الخطأ ان يقال ان ڤرن ساهم بقسط في مخترعات الطيران ، لأنهُ لم يكن مخترعاً بل كاتباً أراد أن يبسط فكرة تحققت بعد زمان فهو لم يفعل

ولا ريب في أن هناك هوة عميقة بين « البتروس » ڤرن وطائرة لندبرج حين بلغت باريس . ولكن الفرنسيين يأبون ان يسلكوا اسم ڤرن في قصة تاريخ الطيران وهي طويلة متشعبة . ولم يكن ڤرن نفسه يزعم لنفسه فضلاً في تنبؤاته وهو كان يقول دائماً عن رحلاته اني لا أدعي العلم لجل همي موجه نحو الجغرافية » غير ان أخيلته أصبحت « برغمه » حقائق ملموسة ، ففي رحلة « من الأرض الى القمر » وصف ڤرن المنظار العظيم الذي انشأه ليتتبع القذيفة وهي تحمل الرجل عبر طبقات السماء ، وصفه في دقة وفي اسهاب فلقد كان منظاره عظيماً يحتوي على مرآة قطرها ١٦ قدماً تستطيع ان تكبر أصغر نقطة على السماء بمقدار ٤٨٫٠٠٠ مرة . ولقد أقام منظاره على قمة سامقة من الجبال الصخرية ليتفادى اضطراب طبقات الهواء السفلية

هكذا كتب ڤرن منذ ٨٠ سنة على أثر الحرب الأهلية الأميركية . واليوم يسير العمل في كلفورنية لانجاز منظار فلكي فيه كل ما قال ڤرن . فمرآته العاكسة قطرها ١٦ قدماً ، وهي أكبر مرآة في العالم ، ثم هو يبنى على قمة جبل بالومار لكي ينأى عن الاضطرابات الهوائية التي حاول ڤرن ان يجتنبها وحين يتم اعداده تكون قوة تكبيره هي نفس القوة التي في المنظار الذي تخيلهُ ڤرن . وكان أثر ڤرن — في كثير من الأحايين — غير مباشر ، فلقد كتب مركوني في رسالة نشرت في سنة ١٩٢٢ « لقد أثر جول ڤرن في الناس فجعلهم يرون الرؤى ، ثم غرس فيهم الرغبة في ان يفعلوا شيئاً ، ثم استمالهم ليفعلوا »

وأيقظت رؤى ڤرن أطماع الكثير ، فان أسماء بيرد وبيب وكاستريت كلها ترتبط بوشائج متينة برؤى ڤرن . فما يروى ان الأميرال ريتشارد بيرد قال حين طار صوب القطب: ان جول ڤرن هو الذي يرشدني . وحين هبط وليام بيب الى أعماق المحيط في كرته المعروفة « بكرة الأعماق » [١] كان جول ڤرن في كتابه « عشرون الف فرسخ تحت البحر » هو الذي حرك رغبته في رؤية الأسرار التي استقرت تحت أطباق الموج . وحين أخذ نوربرت كاستريت يكشف عن شبكة الأنهار الجارية تحت الأرض في اوربة كان يستحثه سطر من كتابه المفضل « رحلة الى مركز الأرض » الذي كتبه جول ڤرن

(١) باثيسفير راجع مقتطف يوليو ١٩٣١ صفحة ٣٣ « الغوص الى الاعماق »

وقد انقضى أكثر من ربع قرن وجرائد العالم تنشر قصصاً عن نتائج جديدة لأحلام ڤرن فالسيارات، ورحلة السير هيبرت ولكنز بالغواصة تحت جليد المناطق المتجمدة[1]، وشروع العالم الفرنسي كلود[2] عن استخراج طاقة حرارية من البحر، والتصوير الفوتوغرافي بالألوان، والشهاب المنطلق الى القمر، والتلفزة، والقطار السريع المندفع بضغط الهواء و... كل هذه أحلام تحققت

والآن تسيطر على أذهان العلماء الأبحاث الخاصة بالذرة، ولكن ڤرن في كتابه « مطاردة الشهاب » الذي طبع في سنة ١٩٠٨ بعد وفاة المؤلف أشار غير مرة الى طاقة الذرة وامكان تحويل العناصر بعضها الى بعض

ولقد كان جول ڤرن يبغض في حياته شيئين : الحرب والأمبراطورية الالمانية . وفي كثير من كتاباته تتراءى كراهيته الالمان . وفي كتابه « حظ بيجم » يبدو احتقاره لكل ما هو تيوتوني من خلال أسلوبه التهكمي ، وان نبوءتين في كتابه « حظ بيجم » تحققتا وهما : المدافع ذات المدى الطويل، والمدنية الحديثة. وحين كتب جول عن مدفعه الضخم كان يبدو كلامه وهماً . ولو ان عمره امتد ثلاث عشرة سنة لكان رأى بعينيه خياله وهو يتحقق في المدفع الالماني « برتا الكبير » الذي انطلقت قذائفه سنة ١٩١٨ مسافة ٧٦ ميلاً وسقطت على باريس

وان كثيراً من الناس ليقولون ان معلومات جول ڤرن في العلوم كانت ضحلة . وهذا صحيح الى حدٍّ ما . ولكنه كان طالب علم متحمساً في الطلب . وقد راجع قبل كتابة بعض رواياته خمسمائة كتاب ورسالة . وكانت خزانته تحوي مجموعة نفيسة من كتب الجغرافية والرحلات . ولقد جمعت مذكراته على مدى السنين فكانت حوالي ٢٥٠٠٠ ملفّ حسنة الترتيب دقيقة السارد

ولقد كان أرستيد بريان السياسي الفرنسي طالباً في الرابعة عشرة حين لقي جول ڤرن أول مرة . وحين أراد أن يملي تاريخ حياته وهو رئيس حكومة فرنسة ، أخذ يشرح ما كان بينه وبين جول ڤرن فقال انني أذكر تماماً داره وكان يغلب عليها جو ريفي عادي .. وهناك وضعت قصص الرحلات العجيبة والمخاطرات المجيدة .. وأذكر انهُ وضع على الجدران عدداً من السبورات كتب عليها رموزاً عديدة هي أعداد ومعادلات جبرية ، لا ريب في انها كانت الاسس التي بنى عليها أخيلته ، وفي الحق لقد كان يعمل على قواعد ثابتة من العلم والرياضة ، وكانت حساباته مضبوطة . تلك الأعداد والمعادلات التي كانت متناثرة على سبورات كثيرة أصبحت جميعاً — على الايام — حقيقة ملموسة

---

(١) مقتطف نوفبر ١٩٣٠ صفحة ٣٨٨ (٢) أنظر مقتطف هذا الشهر فصل الطاقة المحركة من البحر

فلاسفة الرواق

للدكتور عثمان أمين
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

كليانتس

١ — ﴿ حياته ﴾ : ولد كليانتس سنة ٣٣١ ق م في مدينة « اسوس » وكان قبل اشتغاله بالفلسفة مصارعاً . ويقال انهُ حينما قدم الى أثينا لم يكن يملك من المال إلاّ أربع دراخمات . ولكن شدة الفقر لم تكن لتصرف ذلك المصارع عن طلب المعرفة والانكباب على الفلسفة . كتب « أوجرو » عنه : « اتفقت جميع الروايات على ان « كليانتس » امتاز بصفات الهمة العالية والارادة التي لا تقهر والثبات والمثابرة التي لا تكل . فلم يحل بطء عقله ولا شدة فقره دون متابعته الدرس وتحصيله العلم [1] . ولما بدا « لكليانتس » ان يحضر دروس « زينون » لم يكن يملك من المال شيئاً ، فاضطر أن يقضي ساعات الليل في أشق الأعمال لكي يكسب مايدفع بهِ رسوم التعليم : يروى عنهُ انهُ كان يحمل الماء لسقاية بعض الحدائق وكان يعجن الخبز عند احدى الخبازات . وسواء أصحت تلك الرواية أم لم تصح فهي تدل على مقدار حبه للفلسفة . ولقد أعجب « زينون » بفضائل « كليانتس » وجده في العمل ، فعهد اليه عند وفاته بأن يخلفه في ادارة المدرسة الرواقية . وبقي « كليانتس » مشرفاً على شؤون المدرسة مدة طويلة تمتد من سنة ٢٦٤ حتى سنة ٢٣٢ قبل الميلاد .

لكن نفوذ الرواقية أخذ يضعف في عهده . واشتدت على المذهب هجمات الابيقوريين وأنصار الاكاديمية الجديدة . على ان « كليانتس » لم يكن له من اللباقة والمهارة في الجدل ما يمكنه من افحام الخصوم ، بل يظهر ان تفكيره كان بطيئاً وحجته غير بارعة مما جر عليه سخرية المتشككين . وكانوا يطلقون عليه اسم « الحمار » . ولكنه لم يكن يغضب لذلك

---

(١) Ogereau, Essai sur le système philosophique des Stoiciens, Paris, 1885, p. 18

المزاح الثقيل ، بل كان يرد قائلاً انه وحده أقدر على حمل برذعة « زينون » (١)

٢ — ﴿ تعليمه ومصنفاته ﴾ : تعوزنا المصادر لمعرفة نوع التعليم الذي كان يقوم به « كليانتس » . يقول « أوجرو » : « يميل الانسان الى الظن بأن كليانتس أنفق قصارى جهده في ربط أجزاء المذهب بعضها ببعض وفي ترتيبها وتنسيقها في وحدة لا تنفصم عراها » (٢)

ألف كليانتس نحو خمسين كتاباً : كتب شروحاً على طبيعيات « زينون » « هرقليطس » ومصنفات عديدة في المنطق والاخلاق . ومن مؤلفاته التي ذكرها « ديوجانس اللايرسي » ما يلي :

رسالة « في المعرفة » ورسالة « في الجدل » ورسالة « في المنطق » ورسالة « في الزمان » ورسالة « في الرد على ارستارخوس » ورسالة « في الآلهة » ورسالة « في الحرية » ورسالة « في الواجب » ورسالة « في الفضائل » ورسالة « في القوانين » ورسالة في « الغاية » ورسالة « في السلوك » (٣)

ولم يبق من مصنفات « كليانتس » إلاّ مقتطفات صغيرة . ومن أهمها قصيدة رائعة وهي « الانشودة الى زيوس » التي ألفها مناجياً الاله « زيوس » رب اليونان . ولم يبقَ من تلك القصيدة غير أربعين بيتاً جاء فيها :

« يا زيوس يا أجل الخالدين ويا من يذكره الناس بشتى الاسماء والصفات
« يا مدبر الوجود كله ويا حاكم الأشياء جميعاً وفقاً لناموسك وسنتك
« سلام عليك
« خليق ببني البشر الفانين أن يولوا وجوههم نحوك منادين
« فبين الخلائق التي تعيش وتسعى على الارض إياهم وحدهم وهبتَ صورة منك وجعلتهم على مثالك
« وهذا العالم الذي يتحرك حول الارض حركة دائرية انما يخضع لكلمتك ويُذعن، بارادته ، لسلطانك . وجميع صنع الطبيعة يحدث كوميض البرق
« وبهذه السرعة توجه أنت « العقل الكلي » الذي ينساب في ثنايا الكون ممتزجاً بصغير الاشياء وكبيرها

---

(١) Diogène Laerce, Vie des Philosophes, VII, 170

(٢) Ogereau, Essai...; p. 19 (٣) Diogène Laerce, VII, 174-175.

« من دونك لا شيء يحدث في الارض ولا في البحر ولا في السماء
« ماعدا أفعال الاشرار ، وسببها جهلهم وقلة ادراكهم
« أنت لا يعزب عن علمك شيء : تؤلف ما افترق وتنظم ما تناثر وتكيّف الخيرات على قدر الشرور ، وتعطي كل شيء بحساب
« وانما العالم عقل واحد شامل خالد . فما أشقى الاشرار إذ تراهم عنهُ معرضين مدبرين. انهم يرغبون في الخير دائماً . ولكنهم لا يعرفون سنة الله التي لو اتبعوها لأصابوا في الحياة حكمة وشرفاً »[1]

***

ولقد حمد الفيلسوف في أنشودته هذه الى تقاليد الشعر الوجداني على نحو ما كان معهوداً عند الفلاسفة السابقين لعصر سقراط . وفي هذه القصيدة لخص كليانتس أهم مبادىء الطبيعة والاخلاق في الفلسفة الرواقية . يقول « الفرد كروازيه » في وصف الأنشودة :

« قطعة جميلة ولكن جمالها أخلاقي وعلمي . وفي هذه الابيات لخص كليانتس — في دقة وقوة وبنغمة دينية نبيلة — الطبيعيات والاخلاقيات في المذهب الرواقي . وقارض هذا الشعر صانع ماهر ذو اقتناع بما يقول قبل أن يكون شاعراً كبيراً

(وفي هذه الانشودة) نجد فن الميثولوجيا التقليدية موضوعاً ، كعادة الرواقيين ، في خدمة النظريات الجديدة . وفيها امتزجت اصطلاحات المدرسة في مهارة ورشاقة بالأوصاف الهوميرية »[2]

ولعلّ جمال هذه الانشودة هو الذي دعا ذيوجانس اللايرسي الى أن يصف مؤلفات « كليانتس » بلفظ « كالِسْتا » للدلالة على حسنها وبهائها . ولعلّ هذا ما دعا شيشرون الى أن يسمي كليانتس باسم « الرواقي الأصيل » [3]

---

(١) Stobée Ecologae, I, 1, 12, Arnim, Stoic. verter. fragm, I 537
انظر الترجمة الفرنسية للانشودة في كتاب عنوانه :
Aristotle, Clèanthe, Proclus, Hymnes Philosophiques, tr. nouvelle avec avant-propos, prolegomènes et notes par Mario Meunier, 1935

(٢) Alfred Croiset, Histoire de la littérature grecque, t. V, p. 59

(٣) Cicéron, Academ. II, 41, 126

على ان أنشودة «كليانتس» هذه نموذج من النماذج الاولى لطريقة الرواقيين في تأويل الأقاصيص . وهي تشير الى أن الانسان يستطيع بالمناجاة والدعاء أن يتصل بالآلهة وأن يساهم معهم في العالم الالهي .

فالأنشودة، كما قال الأستاذ «ريفو» ربما كانت من بين مخلفات الادب اليوناني كله، أقرب الاشياء الى صلاة من الصلوات المسيحية . وتلك ظاهرة تفردت بها الفلسفة الرواقية — وليست بالأمر اليسير — وهي أن تلك الفلسفة التي طالما اعتبرها الكتاب مثلاً من أمثلة مذهب وحدة الوجود (البانثييزم) الطبيعي، استطاعت مع ذلك أن توطد بين الآلهة والناس ذلك الاتصال الشخصي الذي يبيح العبادة والصلاة والتقوى الواثقة (١)

لكن هذه النغمة التي تفيض حماسة وتديناً كان لها أحياناً — لسوء الحظ — عواقب وخيمة منافية لروح الفلسفة الصحيحة : فقد روي عن «كليانتس» ما يفيد كثيراً من التعصب للرأي وميلاً الى الترهات والأباطيل . ذلك ان « ارستارخوس » الساموسي — وهو فلكي يوناني وعبقري من أهل القرن الثالث قبل الميلاد — كان أول من تنبه الى أن الارض تدور حول محورها وحول الشمس ، فلما أعلن ذلك العالم تلك النظرية قام « كليانتس » متهماً اياه أمام الاثينيين باقلاق راحة الآلهة وبالمروق من الدين لمحاولته « ان يزحزح هستيا — موطن الكون — من مكانها ! » (٢)

***

ولسنا ندري الى أي حد نجح « كليانتس » في اثارة خواطر العامة على «ارستارخوس » ولكن النظرية « الهليوسنطرية » التي تجعل من الشمس (٣) مركز الكون قد تلقت ضربة وأدتها في مهدها ، نتيجة مثل ذلك التعصب الذميم الذي سنرى آثاره بعد ذلك بقرون في موقف الكنيسة من العالم الطلياني « غاليلي »

(١) A. Rivaud, Les grands courants de la penséeantique p. 174
ونظم «كليانتس» كذلك قصيدة صغيرة في الاذعان للقدر ، وبقيت لنا منها أبيات ذكرها «ابكتيتوس» الرواقي في دروسه (Epictète, Manuel, 53.) قال كليانتس فيها : « قدني يا زيوس وأنت أيها القدر أينما رسمتما لي الطريق ، فأنا متابعكما دون تخلف ، لانني لو قاومت كنت من الآثمين ، ولم أكن مع ذلك أقل متابعة لكما . ولقد ترجم « سنكا » أبيات كليانتس هذه الى اللغة اللاتينية Sénèque Lettres, 107, 10.

(٢) Plutarque, fac. lun., 6, 3 (cité par V. Arnold, Roman Stoicism, p. 179)

(٣) Benn, History of Ancient Philosophy, p. 120-121

أسئلة وأجوبتها عن

سر الكهربية

ما هي الكهربية ؟ كان الرأي قبل خمسين سنة ان الكهربية سائل ما او سائلان احدهما موجب والآخر سالبٌ. ولا تزال العامة في الولايات المتحدة تشير اليها بقولها « العصارة » ولكننا نعلم الآن أنهُ إذا كان المقصود بالكهربية : التيار الكهربي ، فالجواب عن هذا السؤال سهلٌ ، وهو ان التيار الكهربيّ مجموعة من الشحنات الكهربية المتحركة ، لا اكثر ولا اقلّ . وهذه الشحنات ، في حالة سلك او جسم آخر صلب ، هي كهيربات حرة . ولو لم تكن الذرّات الموجبة في الفلزات مثبتة في مكانها لمالت الى الحركة في اتجاهٍ مخالف لاتجاه حركة الكهيربات . وهذه الحركة الذرية تحصل فعلاً حين تمرُّ التيارات الكهربية في الغازات والسوائل . ففي الغازات والسوائل ، لا تكون الذرات والجزيئات المشحونة شحنة موجبة (وهي تصبح مشحونة شحنة موجبة بعد انفصال بعض كهيرباتها عنها وتدعى « ايونات » مثبتة في مكانها فتتحرك وتكون حركتها جزءاً من التيار الكهربي . وقد كان الرأي المألوف في اتجاه التيار الكهربي انهُ يكون من الموجب الى السالب ، اي الاتجاه الذي تتحرّك فيه الدقائق الموجبة الشحنة. وهذا الرأي أخذ به قبل ان كشف العلماء ان الكهربية السالبة هي التي تتحرك في معظم الاحيان ، ولكنا عند التدقيق نجد الكهربية تعين الشحنات الكهربية لا التيار الكهربي ، نفسها (الكهيربات والايونات) التي يتولد التيار الكهربيُّ من تحركها . فاذا اخذنا بهذا التعريف ، فليس في وسع احد حتى الآن ان يقول ما الكهربية . اننا نعلم ان الكهيرب هو شحنة كهربية . ولكن ما هي الشحنة الكهربية ؟ هي شيء يجذب اليه اشياء مشحونة شحنة مغايرة لشحنتهِ ، ويدفع أشياء مشحونة مماثلة لشحنته ، ولها مظاهر أخرى حين تتحرك

ولكننا مع ذلك لم نتمكن من تمثيل صورة ذهنية لشكل الكهيرب ولذلك ترى انهُ في قدرة العلماء ان يقولوا لنا ما يفعله الكهيرب وكيف يتصرف، مع عجزهم عن ان يقولوا أي شيء هو

وحين شرع العلماء في دراسة التيارات الكهربية دراسة كمّية ، احتاجوا الى ابتكار وحدة للقياس ، فاتخذوا « الامبير » وهو معرف تعريفاً متفقاً عليه بين جميع العلماء والمعاهد في انحاء العالم ، فالمصباح الكهربي من قوة مائة واط - حيث تكون قوة التيار ١١٠ ڤولطات - يحتاج الى مقدار « امبير » واحد تقريباً . والمكوى الكهربي يحتاج الى اربعة « امبيرات »

أو خمسة . وحين تريد ان تحرّك محرك سيارتك في صباح بارد يأخذ المحرك من البطرية بضع مئات من « الامبيرات » . فما معنى هذا كله ؟ اذا أريد فهمهُ على ان التيار الكربي ، هو كهيربات متحركة فالجواب هو ان السلك حين يسري فيه تيار كهربي ، انما يتحرك فيه عدد من الكهيربات فيجتاز كلّ ثانيةٍ نقطة معينة في الدائرة الكهربية

ولكن لا تتصوَّر ان هذه الكهيربات العديدة تنطلق بسرعة قطار سريع واذا فرضنا ان كهيرباً حرًّا واحداً يقابل كل ذرّة في فلزٍّ ما ، فسرعة الكهيربات في سلك مصباح كهربي يسري فيه تيار قوتهُ امبير واحد ، تبلغ قدماً واحدةً للكهيرب الواحد في الساعة. وقدتكون السرعة أعظم من ذلك حين يكون عدد الكهيربات قليلاً في سلك دقيق كسلك مصباح كهربي قوتهُ مائة واط . ولكن حتى في هذا السلك ، حيث تنطلق الكهيربات وهي تشقّ طريقها بين ذرَّات الفلز ، فتحرّكها وتثيرها حتى يحمى السلك ويتوهج ، حتى هنا لا تزيد سرعة الكهيربات على سرعة قدم واحدة في كل عشر ثوانٍ

ولو شئنا أن نبتاع الكهيربات الحرَّة في سوقٍ ما ، لبلغ ثمنها مبلغاً طائلاً . ولو كانت الكرة الأرضية مصنوعةً كلها من الماء ، لكانَ فيها من قطرات الماء ، ما تجدهُ من الكهيربات في أوقية واحدة من الماء . ومن محاسن الاتفاق ان الكهيربات على جانب عظيم من الكفاية في نقل الطاقة . ففي دورة كهربية تحمل تياراً قوتهُ ١١٠ ڤولطات تستطيع أوقية من الكهيربات ، في سلك مصباح قوتهُ مائة واط ، ان تمضي في عملها قرنين من الزمان !

ولما كانت الكهيربات تسير سيراً بطيئاً ، فلعلّك تسأل كيف تبدأ أعدادٌ كبيرةٌ منها في التحرُّك في وقتٍ واحد ، حالما تفتح مفتاح المصباح الكهربي في دارك ؟ وتفسير ذلك ان انسياب التيار واحدٌ في جميع النقط في دورة كهربية مقفلة . ولكن ما العامل الذي يعين مقدار التيار الذي يسري في دورة كهربية ما ؟

يبدأ التيّار في الانسياب في وقتٍ واحد ، لأن عند مصدر الطاقة يوجد قدر كبير محتشد من الكهيربات . وحيث ان الشحنات الكهربية التي من نوع واحد تتنافر ، فتنافرها يدفع بعض الكهيربات في السلك . أي ان التنافر بين الكهيربات — وهي جميعاً سالبة الشحنة — يحملها على أن يدفع بعضها بعضاً فتسري في طريق التيار . وتتحرَّك موجة التنافر والتدافع هذه على السلك بسرعة تقرب من سرعة الضوء ، أي ١٨٦ الف ميل في الثانية ، أي ان هذه السرعة تبلغ مبلغاً يبدو عندها أنَّ حركة الكهيربات بدأت في وقت واحد . فمن المتعذر مثلاً ان تبين الفرق بين ظهور أثر هذه الموجة في طرفي سلك طولهُ ميل ما زالت الموجة قد عبرتهُ من أوله الى آخره في جزء من ١٨٦ الف جزء من الثانية

ولكن اذا نقص القدر المحتشد من الكهيربات عند مصدر الطاقة بغير ان يكمل النقص ،

اي اذا فرغ الوعاء بغير أن يملأ ثانية ، اندفع التيار لمحة ما ثم ينقطع . وهو ما يحدث حين يلمع البرق . او هي تنطلق شراوة كهربية بين قطبي جرة ليدن . وعلى الضد من ذلك المولد الكهربي ، او البطرية الكهربية ، فان الطاقة الكهربية تتولد في كل منهما تولداً مستمراً فيجري التيار جرياناً متصلاً . ولعلك تبينت مما تقدّم ان مقاومة سلكٍ ما لجريان التيار الكهربي فيه ، تتفاوت بتفاوت حجم السلك وشكله ، وهو الحقيقة . فالسلك الطويل اشدّ مقاومة لسريان الكهيربات فيه من السلك القصير . والسلك الثخين يحتوي على عدد من الكهيربات الحرّة، أوفر من العدد الذي يحتويه السلك الدقيق . فالسلك الثخين اقلّ مقاومة لجريان التيار الكهربي من السلك الدقيق

على ان المقاومة ترتبط ، من ناحية اخرى، بطبيعة المادة التي صنع السلك منها . فالمقاومة تكون ضعيفة ، اذا كانت المادة تحوي عدداً وافراً من الكهيربات الحرّة التي تسهل حركتها . والواقع ان جميع المواد ، توصل الكهربية ، بعض الايصال ، ولكنها طبعاً تتفاوت في ذلك تفاوتاً عظيماً . وقد تعوّدنا أن نعد المطاط والزجاج والخزف والكبريت من المواد العازلة . ولكن حتى المواد العازلة تحوي كهيربات قليلة يمكن تحريكها اذا توافرت الشروط اللازمة ، واذن فهي الى حدٍّ ما موصلة للكهربية . على ان الفلزات هي خير المواد التي توصل الكهربية حتى ليصحّ أن يقال ، ان قدرتها على ايصال التيار الكهربي من الصفات الخاصة التي تميز الفلز . ومع ذلك فبين الفلزات تفاوت كبير في هذه القدرة . ومقاومة الفلز تزداد عادةً وفقاً لارتفاع الحرارة

ان النحاس خير موصل للكهربية ، بين الفلزات غير الثمينة ، وهو يستعمل استعمالاً عامًا لايصالها . والفضة والذهب موصلان جيدان . ولكنهما عزيزان . أما الالومنيوم فيفوق النحاس وزناً بوزن في قدرته على ايصال التيار الكهربي ، ولكنه أغلى منه وهذا يحول دون التوسع في استعماله الآن

وفي نقل الطاقة لا بدّ من استعمال خير المواد الموصلة للطاقة ، حتى لا يضيع الاّ أقل قدر منها خلال الانتقال في التغلب على مقاومة المادة الموصلة . واذا استعملت أحياناً المواد التي لا توصل التيار الكهربي إلاّ ايصالاً ضعيفاً ، فانما يفعل ذلك لأغراض أخرى . فالسلك في المصباح الكهربي مثلاً يصنع من فلز التنغستن عادة ، وقد اختير هذا الفلز لأنه يتصف بصفتين لا بدّ منهما في المصباح وهما ارتفاع درجة انصهاره ، وبطء تبخره

وقد استعملت أخلاط فلزية شتى للادوات الكهربية المختلفة مثل المكوى الكهربي والأفران وما أشبهها . وهذه الاخلاط تحتوي عادةً على فلز — أو أكثر — متصف بصفة خاصة ، مثل النيكل والكروم اللذين لا يصدآن حين يحميان بالتيار الكهربي في الهواء

حرف الجيم

— ٢ —

لعبد الله أمين

جاء في « سر الفصاحة » للأمير أبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي المتوفى سنة ٤٦٦ هـ المطبوع بمصر سنة ١٣٥٠ هـ و(سنة ١٩٣٢ م) ما يأتي :

« ويلحق هذه الحروف التي ذكرناها حروف بعضها يحسن استعماله في الفصيح من الكلام، وبعضها لا يحسن . فالتي تحسن ستة أحرف وهي : النون الخفيفة التي تخرج من الخيشوم والهمزة المخففة وألف الإمالة وألف التفخيم وهي التي بها ينحى نحو الواو وذلك كقولهم في « الزكاة » الزكوة والصاد التي كالزاي نحو قولهم في « مصدر » مزدر والشين التي كالجيم نحو قولهم في أشدق أجدق

والحروف التي لا تستحسن ثمانية وهي الكاف التي بين الجيم والكاف نحو كلهم عندك والجيم التي كالكاف نحو قولهم للرجل ركل والجيم التي كالشين نحو قولهم خرشت والطاء التي كالتاء كقولهم طلب والضاد الضعيفة كقولهم في أثرد أضرد والصاد التي كالسين في قولهم صدق والظاء التي كالثاء كقولهم ظلم والتاء التي كالباء كقولهم فرند » ص ٢١و٢٢

هامش من الطابع : رسم المؤلف فوق كل حرف ما يشبهه جيماً صغيرة فوق الكاف في كلهم وركل وخرشت وتاء صغيرة كذلك فوق الطاء من طلب وهكذا حتى آخر الأمثلة

وقال محمد رضيّ الدين بن الحسن الاستراباذي المتوفى سنة ٦٨٨ هـ في شرحه على الشافية في الصرف لأبي عمر عثمان المعروف بابن الحاجب ما يأتي :

« قوله : والشين كالجيم : ذكرها سيبويه في الحروف المستحسنة وذكر الجيم التي كالشين في المستهجنة وكلتاهما شيء واحد لكنه إنما استحسن الشين المشربة صوت الجيم لأنهُ إنما يفعل ذلك بها اذا كانت الشين ساكنة قبل الدال والدال مجهورة شديدة والشين مهموسة رخوة تنافي جوهر الدال ولا سيما اذا كانت ساكنة لأن الحركة تخرج الحرف عن جوهره فتشرب الشين صوت الجيم التي هي مجهورة شديدة كالدال لتناسب الصوت فلا جرم استُحسن إنما استهجِن الجيم التي كالشين لإنها إنما يفعل ذلك بها إذا سكنت وبعدها دال أو تاء نحو اجتمعوا واجدر وليس بين الجيم والدال ولا بينها وبين التاء تباين بل هما شديدتان لكن الطبع ربما يميل لاجتماع الشديدين الى السلامة واللين فيشرب الجيم ما يقاربه في المخرج وهو الشين

فالفرار من المتنافيين مستحسن والفرار من المثلين مستهجن فصار الواحد مستحسناً في موضع مستهجناً في موضع آخر بحسب موقعه » ج ٣ ص ٢٥٥ و ٢٥٦ مطبعة حجازي ، مصر

يريد الرضيّ بقوله « وكلتاها شيء واحد » أن النطق بالشين في نحو أشدق مشربة صوتَ الجيم نحو أجدق أي بين الشين والجيم كالنطق بالجيم في نحو أجدر مشربة صوت الشين نحو أشدر اي بين الجيم والشين في أن اجتماع كلٍّ من الشين والدال ومن الجيم والدال وَلَّدَ حرفاً ثالثاً لا هو شين خالصة ولا هو جيم خالصة بل هو مزيج منهما معاً في الموضعين

ويريد بقوله « فالفرار من المتنافيين مستحسن والفرار من المثلين مستهجن » أنك حين تعمد الى الجيم مع الدال في نحو أجدر وهما مثلان في الشدة متلائمان في الجوار وليس بينهما تباين فتشرب الجيم صوت الشين الرخوة وتخرجها بهذا الاشراب من شدتها الى رخاوة الشين اجابةً للطبع الذي ربما يميل لاجتماع الشديدين الى السلامة واللين وتباعد به بينهما تعمل عملاً مستهجناً ، وأنك حين تعمد الى الشين المهموسة الرخوة مع الدال المجهورة الشديدة في نحو أشدق فتشرب الشين صوت الجيم المجهورة الشديدة لتزيل ما بين السين والدال من التنافر فيتلاءما في الشدة والجهر تعمل عملاً مستحسناً

وقال قوله: والكاف والجيم : نحو جافر في كافر وكذا الجيم التي كالكاف يقولون في جمل كمل وفي رجل ركل وهي فاشية في أهل البحرين وهما جميعاً شيء واحد الاّ انّ اصل احدهما الجيم وأصل الآخر الكاف كما ذكرنا في الجيم كالشين والسين كالجيم الاّ ان الشين كالجيم مستحسنة وعكسه مستهجن والكاف كالجيم وعكسه مستهجنان فقوله : لا يتحقق: فيه نظر وكأنهُ ظن أن مرادهم بالجيم كالشين وحرف آخر غير الشين كالجيم وكذا اظن ان مرادهم بالجيم كالكاف غير مرادهم بالكاف كالجيم وهو وهم

يريد الرضيُّ بقوله « وهما جميعاً شيء واحد » أن النطق بالجيم في نحو جمل ورجل مشربةً صوت الكاف نحو جيم كمل وركل اي بين الجيم والكاف كالنطق بالكاف في نحو كافر مشربةً صوتَ الجيم نحو جافر اي بين الكاف والجيم في أن إشراب الجيم صوت الكاف كإشراب الكاف صوت الجيم يخلق حرفاً واحداً في الموضعين لا هو جيم خالصة ولا هو كاف خالصة ولولا هذه الارادة لما قال « وهما جميعاً شيء واحد »

ويريد بقوله عن ابن الحاجب « وكأنه ظنّ ان مرادهم بالجيم كالشين حرف آخر غير الشين كالجيم وكذا ظنّ أن مرادهم بالجيم كالكاف غير مرادهم بالكاف كالجيم وهو وهم » أنّ الحرف الذي يحدث بإشراب الجيم صوت الشين هو نفسه الحرف الذي يحدث بإشراب الشين صوت الجيم وكذا الحرف الذي يحدث باشراب الجيم صوت الكاف هو نفسه الحرف الذي

يحدث بإشراب الكاف صوت الجيم فقول ابن الحاجب « وأمّا الجيم كالكاف والجيم كالشين فلا يتحقق » كلام وهم حقًّا غير صحيح ما دام عكس كل منهما تحقق باعترافه وهو الكاف كالجيم ، والشين كالجيم لأن الحرف الناشيء من اجتماع شين ودال هو نفسه الناشيء عن اجتماع جيم ودال وكذا الحرف الناشيء من لفظ الجيم مشربة صوت الكاف هو نفسه الحرف الناشيء من لفظ الكاف مشربةً صوت الجيم

وقال العلامة المحقق ابو البقاء ابن يعيش على المفصل في النحو لإمام اللغة والأدب أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ما يأتي :

«فأمّا الكاف التي بين الجيم والكاف فقال ابن دريد هي لغة في اليمن يقولون في جَمَل كَمَل وفي رجُل ركُل وهي في عوامّ أهل بغداد فاشية شبيهة باللثغة . والجيم التي كالكاف كذلك وهما جميعاً شيء واحد إلا أن أصل إحداهما الجيم وأصل الأخرى الكاف ثم يقلبونهما الى هذا الحرف الذي بينهما »

(يريد بالحرف الذي بينهما الحرف الذي بين الجيم والكاف وبين الكاف والجيم وهو حرف واحد ثالث لاهو جيم خالصة ولا هو كاف خالصة بل هو مزيج منهما معاً في الموضعين لذلك يحسن ان يوضع فوق كاف كَمَل وركُل حرف جيم وفوق جيم جافر حرف كاف)

وقال : وأما الجيم التي كالشين فهي تكثر في الجيم الساكنة اذا كان بعدها دالٌ أو تاءٌ نحو قولهم في اجتمعوا والأجدر اشتمعوا والأشدر فتقرب الجيم من الشين لأنهما من مخرج واحد إلاّ أن الشين أبين وأفشى

فإن قيل فما الفرق بين الشين التي كالجيم حتى جعلت في الحروف المستحسنة وبين الجيم التي كالشين حتى جعلت في الحروف المستهجنة قيل ان الاول كره فيه الجمع بين الشين والدال لما بينهما من التباين الذي ذكرناه وأما اذا كانت الجيم مقدمة كالاجور واجتمعوا فليس بين الجيم والدال من التنافي والتباعد ما بين الشين والدال فلذلك حسن الأول وضعف الثاني» ص ١٤٦٣ ابن يعيش ، طبع اوربا

وفي شرح الدماميني على التسهيل في الحروف المستقبحة ما يأتي نقلاً عن نسخة خطية في مكتبة كلية اللغة العربية من كليات الأزهر الشريف بشارع البراموني بمصر :

« وفروع تستقبح وهي كاف كجيم) كقولهم في كل جُمل بحرف يشابه الجيم . قال ابن دريد وهي لغة في اليمن كثيرة في أهل بغداد (وبالعكس) وهي جيم ككاف مثل قولهم : في رجل ركل بحرف يشابه الكاف . وجعل سيبويه الكاف كالجيم والجيم كالكاف حرفاً واحداً وعدّهما ابن جنيّ وتبعه ابن عصفور والمصنف حرفين مراعاةً للاصل، (وجيم كشين)

نحو الأشدر في الأجدر فينطقون عوض الجيم بحرف شبيه بالشين وذكر الشارح السؤال المشهور وهو انهُ لم عدّت الشين كالجيم في الفروع المستحسنة والجيم كالشين في الفروع المستقبحة ؟ وجوابه ان الجيم حرف قوي والشين حرف ضعيف وتقريب الضعيف من القوي مستحسن بخلاف العكس

الدليل الناطق المتواتر القطعي

هذه هي نصوص الأئمة في النطق الصحيح الفصيح بحرف الجيم الذي يجب التزامه وهجر ما عداه وهي أمنع من عقاب الجو لا يتسامى اليها شك ولا طعن ولا تأويل . ومن هـذه النصوص ترى أن الائمة أجمعوا على استهجان وانكار الجيم التي كالـكاف والجيم التي كالشين . وبقي دليل آخر يؤيد هذه النصوص كل التأييد وهو مثلها لا يتسرّب اليهِ شكٌ بل هو قاطع في الدلالة ، قطعاً وهذا الدليل هو السماع والمشافهة

لا شكّ أن أسلافنا لم يكونوا يملكون في أيام الجاهلية ولا في صدر الاسلام ولا في بقية العصور الاسلامية السابقة لعصرنا الحاضر ما نملك نحن الآن من الأجهزة والأدوات الحديثة لالتقاط الاصوات وحفظها وإذاعتها كما هي فنستطيع أن نسمع من أراد صوت الجيم عن العرب الخُلـص الفصحاء

غير أننا عُـوِّضنا عنها ما أغنانا عنها وهو الرواية القائمة على الصدق والأمانة والفطنة والحذر الشديد، الرواية التي بلغت فيها الأمة العربية الاسلامية منذ انبثاق فجر الاسلام الى الآن ما لم تبلغهُ أمة من الامم لا في العصور القديمة ولا الحديثة، وقد بلغت الرواية الذروة في رواية الحديث الشريف . أما رواية القرآن الـكريم والحرص على رسمـهِ ولفظهِ وأدائه كما أُنزلَ فحدّث عن اتقانها وجودتها وسلامتها من الخطأ ما شئت أن تحدِّث

رواية القرآن الـكريم — وقريب منها رواية الحديث الشريف — أقامت الامة العربية الاسلامية وأقعدتهـا وتمخضت عن علوم القراءات والتجويد وفن رسم الحروف بل وهي التي أوحت لعلم النحو

وطريق هـذه الرواية هي أن يتلقّـى مريد القرآن الـكريم قراءته قراءة صحيحة متقنة بإخراج الحروف من مخارجها وبمراعاة صفاتها الذاتية والعرضية تمام المراعاة ويتدرّب عليهـا على مدرّب تلقى القرآن عن مدرّب آخر بهذه الطريقة وتلقّـاه المدرب الآخر على هذا النحو وهكذا حتى يتصل سند الرواية بالمعلم الاول وهو الرسول صلى الله عليه وسلم

وعندي أن خير الشعوب العربية الاسلامية روايةً وحفظاً وأداءً للقرآن الـكريم هو الشعب

المصري . وقد أصبحت رواية القرآن الكريم وحفظه على ذلك النحو أمانة في عنقهِ لانفراده وتقدمه في هذه الرواية وهذا الحفظ منذ قرون طويلة مضت

وفي الديار المصرية العامرة مشيخة للقراء يتدربون فيها على القراءة الجيدة المتقنة على شيوخ ذوي علم وخبرة بها وأقدام راسخة فيها وعلى رأسهم جميعاً إمام القراء في هذه الديار وهو من خير حُذّاقهم فيها.ولهم مقارىء في كثير من مساجد القاهرة يجتمعون كل يوم طوائف في عدة مساجد منها بين صلاتى العصر والمغرب ويتدارسون القرآن الكريم فيها في حضرة شيخ من ثقات شيوخهم وحذّاقهم

واذا حضرت أيها القارىء هـذه المقارىء مراتٍ وأطلت الجلوس وأرهفت السمع لا تسمع حرف الجيم فيها يلفظ إلاّ من مخرجه في أول الشَّجْر من ناحية فتحة الفم الخلفيـة بدون الاقتراب بهِ من مخرج الكاف وجعلهِ كالكاف المغلظة ، وبدون الاقتراب من مخرج الشين وبدون إشرابه صوتها (تعطيشه)[1]

ولقد حضرتُ هذه المقارىء غير مرّة وأطلت الجلوس من أوّل الوقت الى نهايته وأرهفت سمعي كل الارهاف بشغف وانتباه لصوت الجيم فلم أسمع إلاّ ما ذكرت ولم أكتف بذلك فالتقيت بإمام القراء السابق المرحوم الشيخ محمد خلف الحسيني رضي الله عنهُ ثم بإمامهم الحاضر أطال الله بقاءه حضرة صاحب الفضيلة الشيخ علي الضباع وسألت كلاً منهما — وهو شيخ للمقارىء — عن النطق الصحيح الفصيح الوارد في القرآن الكريم لحرف الجيم الذي يجب التزامه وهجر ما عداه فكان صلب جوابهما مع اختلاف زمنيهما واحـداً وهو « الابتعاد بحرف الجيم حين النطق بهِ عن مخرج حرف الشين وعـدم إشرابه شيئاً من صوته — عدم تعطيشه — كما ينطق به السوريون » وهذا هو الأمر الخطير الذي بعثني على كتابة هذا المقال

أما الجواب الاخير بشيء من الاطالة فهو : أن الجيم تلفظ في القرآن الكريم من مخرجها من أول الشَّجْر من ناحية فتحة الفم الخلفية كما ينطق بها بعض أهل القاهرة وخير مثال لهم قرَّاء المقارىء ، ولا تجعل كالكاف المغلّظة كنطق كثير من القاهريين الاصليين ولا تجعل قريبة من الشين بإشرابها صوتها (تعطيشها) كنطق السوريين والاسكندريين الاصليين

وإذ كان مثل هذا الكلام لا يمكن ادراكه على حقيقته إلاّ بالسماع فاني أرجو من كل من يعنيهم الأمر أن يحضروا المقـارىء المصرية فان لم يكن ذلك ممكناً فلينصتوا بانتباه الى القرآن يذاع من محطة الاذاعة بالقاهرة

---

(١) كلمة تعطيش لا أصل لها في كتب العربية ولا يعرفها القراء

عدد الحرب

عند العرب

لمحمد عبد الغني حسن

قال أبو فراس الحمداني

أنا اذا اشتدّ الزما ن وناب خطب وادلهم
ألفيت حول بيوتنا عدد الشجاعة والكرم

أما الفخر بالكرم فهو موضوع نرجىء الحديث فيه الى وقت آخر، وأما (عدد الشجاعة) فذلك موضوع نجد الكلام فيه اليوم ملائماً والحديث عنهُ الآن مستملحاً في وقت يفتخر فيهِ أبطال الحرب القائمة بمغامراتهم، ويعتز أبطال الجو بشجاعتهم، ويتيه أعضاء «الكوماندوز» فيه بمخاطراتهم ومجازفاتهم

وعدد الشجاعة تختلف تبعاً للزمان والمكان، فهي عند الرومان غيرها عند العرب القدماء وهي في العصور القديمة غيرها في العصور الحديثة، وهي في العصور المظلمة غيرها في عصور النور

ولا شك أن شاعرنا الحمداني يقصد بعدد الشجاعة في شعره الحماسي الافتخاري: الخيل والسيوف والرماح والقسيّ والنبال. والدروع والتروس وما اليها من أدوات القتال في العصور السابقة على الاسلام والتالية له بكثير

أما اليوم فاذا أذن المقام لشاعر اوربي أو أميركي أن يفتخر بعدد شجاعته — والفخر طبيعة في النفوس — فماذا يقصد بتلك العدد؟ لاشك ان العدد القديمة قد تولى زمانها ودالت دولتها. ولم يعد للرمح والسيف والقوس والنبل ما كان لها من المقام في العصور السوالف وتنازلت الخيل عن رفيع مكانها. والسيوف عن مشهور سلطانها، وتخلت الرماح عن عاليتها وسنانها الى المدفع القاصف والرصاص المدمدم، والقذائف المهدّمة والطوائر المخربة والنسافات المحطمة والدبابات التي تدب على الأرض لا تبالي سهلاً ولا حزناً، ولا مرتفعاً ولا منحدراً، ولا تمر ببقعة الاّ ذللتها، ولا نشزة من الارض إلاّ مهدتها تصيب الاهداف ولا تصاب، وتعيب المسالح ولا تعاب

ومن حظ التاريخ أن عُدد الشجاعة القديمة لم تضع بأوصافها وآثارها، وان ضاعت

باستعمالها وتداولها . فقد خلدها الكتاب وسجلها الشعراء . ولا تكاد تقرأ شعراً حماسيًّا لفارس كعنترة او شجاع كمالك بن نويرة أو جريء كعروة بن الورد أو متحمس كعمرو بن كلثوم الاّ وجدت فيه وصفاً شاملاً للخيل العاديات والسهام المسمومة والقسي المرنانة

* * *

وأول عدد الشجاعة عند العربي الخيل فقد آثروها على غيرها ، وفضلها بعضهم على الأولاد وفلذات الأكباد ، واستكرموها للزينة والطراد . وقد يطوي العربي وخيله شبعى ، ويظمأ وجياده راوية . والى هذا يشير شاعر من بني عامر بن صعصعة بقوله :

بني عامر ما لي أرى الخيل أصبحت خماصاً وبعض الضمر للخيل أفضل
بني عامر ان الخيول وقاية لانفسكم والموت وقت مؤجل
متى تكرموها يكرم المرء نفسه وكل امرىء من قومه حيث ينزل

ولامرىء القيس أبيات في وصف فرسه من معلقته نكتفي بالاشارة اليها ولا نذكرها لمكان شهرتها وانتشارها في كتب الأدب

وقد عني العرب باختيار الخيل واختبارها والفراسة فيها حتى أصبح ذلك فيهم علماً مبنيًّا على التجربة لطول ممارستهم لها وكثرة اعتمادهم عليها . والعربي ينظر الى الفرس في جميع حالاته وعلى كل هيئاته ، وذلك في سكونه وحركته وقيامه وربوضه ومشيه وعَنَقِه ، وخببه وتقريبه ، فقلّ أن تخطئه الفراسة أو تندّ عنه التجربة . والفرس الكريم هو الذي يقول جرير الشاعر في مثله :

وقد قرّبوا حين جد الرهان بسام الى البلد الأبعد
يقطّع بالجري أنفاسهم بثني العنان ولم يجهد

والى ايثار الخيل واعزازها تشير أبيات الأخطل التي قد تنسب الى عبدالله بن عباس وهي :

أحبوا الخيل واصطبروا عليها فان العز فيها والجمالا
اذا ما الخيل ضيعها أناس ضممناها فشاركت العيالا
نقاسمها المعيشة كل يوم ونلبسها البراقع والجلالا

وقد يتخذ العربي من فرسه معقلاً له وحصناً يأوي اليه كما قال لبيد : —

معاقلنا التي نأوي اليها بنات الأعوجية والسيوف

* * *

أما السيوف فلها في تاريخ العرب مقام يلي مقام الخيل ، والحق أن الفارس لا تتم له الفروسية الاّ بصهوة جواده وقائم سيفه . وما قيمة الفرس بغير سيف ؟ والعرب تقول في السيف أنه ظل الموت ولعاب المنية ، وهي كناية لطيفة ، ومن مأثور الكلام عندهم « السيف هو

الصاحب الولي، والصديق الوفي، والرسول الوحي — أي السريع الفصل في الأمور).
وقد فضل أبو تمام السيف على القلم في قوله :

السيف أصدق أنباءً من الكتب في حدّه الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهنّ جلاء الشك والريب

والموازنة هنا لطيفة بين السيف والقلم، وان كان الشاعر لم يثبت على رأي : فقد فضل القلم في قصيدة أخرى يقول فيها : —

لك القلم الأعلى الذي بشباته تصاب من الأمر الكلى والمفاصل
لعاب الأفاعي القاتلات لعابه وارْيُ الجنى اشتارته أيد عواسل

والغالب في الضرب بالسيف ان يكون طعناً كالرماح، وقد يكون ضرباً كالعمود أو قطعاً كالسكين أو إلهاباً كالسوط

وشرط السيف أن يكون ماضي الحد حسن الماء سريع المقطع، ولا يكفي ذلك كله ما لم يكن السيف في يد البطل، فما قيمة السيف البتار في يد لا تعرف الضرب؟ ويروون في ذلك أن عمر بن الخطاب سأل عن أمضى سيوف العرب فقيل له صمصامة عمرو بن معديكرب الزبيدي فبعث اليه عمر أن يبعث اليه بسيفه، فلما ضرب به الخليفة وجده دون ما كان يبلغه عنهُ، فكتب اليه في ذلك فردَّ ابن معديكرب قائلاً : "اني بعثت الى أمير المؤمنين بالسيف ولم أبعث اليه بالساعد الذي يضرب به . وهو السيف الذي يقول فيه الشاعر : —

وكأنَّ المنون نيطت اليه فهو من كل جانبيه منون

ولاشك ان كثرة الضرب بالسيوف تترك فيها أثراً وتدع فيها فلولاً . وذلك صفة مدح في صاحب السيف تدل على طول ممارسته للمقارعة والمصاولة . فقد مدح النابغة الذبياني ممدوحيه بقوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهنَّ فلول من قراع الكتائب

وهذا الكلام يشبه الذم ولكنهُ المدح كل المدح، ويسميه البلاغيون تأكيد المدح بما يشبه الذم . والفارس البطل يفخر أن يكون في مضرب سيفه آثار الضرب وفلول القراع كما قال بشر بن عوانة :

وفي يمناي ماضي الحد أبقى بمضربه قراع الموت أثرا

وكانت أحسن السيوف العربية وأوسعها شهرة تصنع في مشارف اليمن أو بلاد الهند فقيل للسيف مشرفي ويماني وهندواني ومهند . وكل معركة قاتلة تحتاج الى مقاتلة من طرفين

ومشاركة من جانبين إلاّ المنون فانها تقتلنا من غير قتال . والى هذا أشار المتنبي في مطلع لاميته المتعارفة

نعد المشرفيـة والعوالي وتقتلنا المنون بلا قتال

ولقد اهتمّ العرب بالسيف اهتمامهم بالفرس ، لأنه من عدد الشجاعة عندهم ، فوضعوا له الأوصاف التي تدل على معان فيه ، كما وضعوا له الاسماء الكثيرة ، فمن أسمائه التي تحمل معنى الصفات : الصقيل والمفصل والمخذم والجراز والباتر والعضب والقاضب . ومن توابع السيف حمائله التي يعلق بها ، ومفردها حمالة ، وهي النجاد أيضاً . والقراب ما يوضع فيه السيف وهو الغمد والجراب

ومن جماعة الشعراء الفوارس من افتخر بسيفه وحسن ادارته له وتقليبه في كفه وخاصة في العصر الجاهلي الذي اشتهر بكثرة الغارات والحروب ، كطرفة بن العبد صـاحب المعلقة التي يقول منها :

وآليت لا ينفك كشحي بطانة لعضب صقيل الشفرتين مهند
أخي ثقة لا ينثني عن ضريبة اذا قيل مهلاً قال حاجزه قد

ومن شعراء الاسلام من كانت حقيقة شجاعته دون وصفه ، وكانت فروسيته أقل بكثير من افتخاره ، كابن المعتز الذي أحسن وصف السيف وتشبيهه ولكنه لم يحسن استعماله فوثب عليه غلمان المقتدر وخلعوه ، وخنقه الخادم مؤنس ، ولم ينفعه سيفه الذي يقول فيه : —

ولي صارم فيه المنايا كوامن فـا ينثني إلاّ لسفك دماء
ترى فوق متنيه الفرند كأنهُ بقيـة غيم رقّ دون سماء

* * *

والرمح هو عدة الشجاعة الثالثة ، وله في أيام العرب حديث يطول ، فما خلا منهُ شعر ، ولا قامت بغيره معركة وقد أوصى النبي باستعماله فقال : « عليكم بالقنا والقسيّ فبها نصر نبيكم وفتح لكم في البلاد » . وكان له عليه السلام أربعة أرماح : رمح يسمى المثنى والثلاثة الباقيات أصابها في موقعة من سلاح بني قينقاع

وأفضل الرماح — كما ذكرت العرب — ما اذا هززته لم ينعطف ، واذا ضربت به لم يتقصف ، وشرها الذي اذا أكرهته انحطم واذا طعنت بهِ انقصم . ولقد قامت للرمح في بلاد العرب صناعة اشتهر بها المثقفون الذين يقوّمون الرماح ويجعلونها مستقيمة صعدة . والثقافة هي صناعة تثقيف الرماح أي تقويمها ، ومنهُ الكلمة الحديثة « الثقافة » التي تستعمل ترجمة لكلمة Culture الانكليزية لأن فيها معنى تثقيف العقول

ومن أبدع ما قيل في الرمح قول القاضي الشريف أبي القاسم الحسني الاندلسي :

وأصم ممطول الكعوب اذا اقتضى مهج الكماة قَدَيْنُهُ لا يُمطل
متوقد حتى أقول أذابلٌ بيديَّ منهُ أم ذبال مشعل
لولا التهاب النصل أينع عوده مما يعل من الدماء وينهل
فاعجب لهُ أن النجيع بطرفه رمد ولا يخفى عليه مقتل

***

والقميّ هي عدد الشجاعة الرابعة ، فهي من ألزم لوازم الفرسان بعد الفرس والسيف والسنان . وكان النبي عليه السلام يستعملها ويخطب عند الحرب وهو متكيء على قوسهِ . وكان له منهنّ أربع قسي ذكرت كتب السير أسماءها

والقوس نوعان قوس اليد وهي المستعملة في بلاد العرب ، وقوس الرجل وكانت تستعمل في بلاد الاندلس ، وقد أخذها عرب اسبانيا عن الفرنجة

وأحسن أنواع القسي ما اتخذ من النبع وهو عيدان شجر بري ، على ان كثيراً من القسى اتخذت من عيدان شجر النارنج والسفرجل والتفاح . وقد وضع العرب للقوس والنبال أسماء وسموا الرماة بحسب توفيقهم في الاصابة . واشترطوا في حديد السهام شروطاً وقسموه أنواعاً . فمنهُ الحديد لسهام الصيد ، والحديد للسهام التي تخترق الدروع والتروس ، والحديد للسهام التي تحرق السفن والابراج

***

أما الدروع والتروس وأشباهها فهي تتمة عدد الشجاعة في العصور القديمة ، وقد انتهى اليوم زمانها ، ولم يبق منها إلاَّ الخوذة أو البيضة التي توضع على الرأس ليتقي المحاربون بها شظايا القنابل ، والخوذة على الرأس أخف محملاً من الدرع على الجسد ، وهي لا تعوق المقاتل عن تأدية واجبه كما تصنع الدرع التي تعطل الحركات في حرب تحتاج الى السرعة والخفة في الغدوات والروحات

هذه خواطر سريعة في عدد الشجاعة القديمة ، جمعتها من مطالعات مختلفة واستأنست فيها بكتاب قيم اسمه «حلية الفرسان وشعار الشجعان» وهو بعينه القسم الثاني من كتاب « تحفة الأنفس وشعار سكان الاندلس » وهذا الكتاب مخطوط ولكنهُ طبع « بالزنكوغراف » — كما طبع كتاب الانساب للسمعاني في اوربا — بالخط المغربي وأشرف على تصحيحه واخراجه المستشرق الفرنسي لويس مرسييه قنصل فرنسا في بلاد المغرب في حينه، اما مؤلف الكتابين: الحلية والتحفة فهو علي بن عبد الرحمن بن هذيل من علماء الاندلس وأدبائها في القرن الثامن الهجري

عمر الخيام

كما أعرفه

لمحمود المنجوري

الفصل الاول

هل عمر الخيام خرافة ؟

قرأت في سنة ١٩٢٧ بحثاً في جريدة فتى العرب الصادرة عن دمشق ، مقالاً ترجمه الاستاذ احمد شاكر الكرمي عن جريدة «المورنج بوست» ، تناول موضوع جدل قام يومئذٍ بين عالمين جليلين من علماء الانجليز المستشرقين وهما الدكتور ملر ودِنِيسُن رُس إذ أنكر الأول الخيَّام ككائن لهُ وجود ، وقال بأنهُ خرافة موضوعة ، وأيد رأيه هذا بنصوص ، وعارضه السير دنسن رس ، وعمد الى نقض أقواله بنصوص أوردها

ولقد رأيت يومئذٍ ان الرد على انكار وجود الخيام بالوضع الذي ساقه السير رس يحتاج الى تدعيم من ناحية الوثائق التاريخية ، فعمدت الى درس هذا الموضوع وبعثت به الى « المورنج بوست» أدليت فيه بما وصل اليه درسي من وثائق الى هذا التاريخ ، تهدم زعم الدكتور ملر ، ويقيم الحجة على ان بعض العلماء المستشرقين على الرغم من طلاوة أبحاثهم لا يمكنهم أن يلموا إلمام الباحث الشرقي في أدب بلاده

كتب الدكتور ا . ه ملر قال : أُعلِنَ ان عدداً من محبي عمر الخيام سيقومون برحلة من انكلترا الى نيسابور ابتغاء تجديد الضريح الذي أخنت عليه الايام والذي يظن أنهُ يضم رفات عمر الخيام الذي ينسب اليه ذلك الشعر الذي استمد منه فِتْزْجِرَلْدْ ديوان الشعر المشهور والمسمى برباعيات عمر الخيام

وانهُ لجدير بنا أن نتساءل هل لعمر الخيام دفين نيسابور علاقة بالرباعيات التي كانت أصلاً لما ترجمه فتزجرلد ؟ انني منذ ثلاثين عاماً أبحث هذا الموضوع في عناية وأظن ان الوقت قد حان لكشف النقاب عن خرافة عمر الخيام :

ما هو معنى الرباعيات في اللغة الفارسية ؟ ان هذه الكلمة تعني مختارات من المقطوعات

الشعرية لا صلة بين بعضها وبعض ولا وحدة لها ؛ هي مجموعة في كتاب خلال سنوات عديدة ، ويشبهها بعض الشبه (السجل الادبي) الذي كانت تضعهُ السيدات في صالونات الادب في القرن الماضي ليدون فيه الشعراء الذين يزورونهنَّ شيئاً من نظمهم الارتجالي وقد زالت اليوم هذه العادة

فديوان الرباعيات هو مجموعة لا انسجام فيها ، ولكن فتزجرلد أخرج منه قصيدة متلاحمة ذات وحدة متماسكة بعد نفرة واضحة . إلاّ ان الذي يستعصى على الحل هو نسبة تلك المجموعة الفارسية التي لم يرَ فتزجرلد سواها الى عمر الخيام ، فقد فحصت بنفسي تلك المجموعة في مكتبة بودلين فلم أجد اسم عمر الخيام مذكوراً فيها على الاطلاق

فمن هو عمر الخيام هذا الذي جاء باسمه فتزجرلد الى عالم الادب الانجليزي سنة ١٨٥٩ وجعلهُ معروفاً مشهوراً ؟ لقد راجعت تواريخ بلاد الفرس وكتب الأدب الفارسية ، وسألت كثيراً من أدباء الفارسيين فوجدت التاريخ يشير اشارات غامضة الى عمر الخيام ، أما كتب الادب الفارسية (ولا أعني مؤلفات دربيلو أو فون هامر أو سواهما من الناقلين) فهي خالية من أية اشارة الى الخيام على انهُ شاعر

وأما ما روي عن حياة الخيام فقليل ، وهو على قلّته محوط بشبهات لا يقبلها المؤرخ العصري ولا يرتضيها ، وأقدم مصدر لأخبار الخيام هو «الوصية» المنسوبة الى نظام الملك صديق عمر الخيام وزميله في طلب العلم ، الذي كان وزيراً للسلطان الب ارسلان بن ارطغرل بك التتري مؤسس دولة بني سلجوق

***

قال نظام الملك في وصيته ان أباه أرسلهُ الى نيسابور ليتلقى العلم على العالم المشهور الامام الموفق النيسابوري ، وهناك لقي تلميذين في مثل سنّه أحدهما الحكيم عمر الخيام والثاني الحسن بن الصباح فنشأت بينهم صحبة وصداقة وقال في عمر إنهُ من أهل نيسابور ، أما الحسن فقد كان أبوه زنديقاً ، وقد صار الحسن فيما بعد زعيم طائفة الاسماعيلية ، التي يعتقد أفرادها بوجوب ذبح جميع من يخالفهم من غير تمييز ولا تفريق . وتقول (الوصية) المبهمة ان الرفاق الثلاثة اتفقوا على ان يجتمعوا في مستقبل الأيام فاذا كان أحدهم قد أصاب ثراءً أو جاهاً أو نعمة قاسمهُ الآخران حسن حظه . ولما تقلد نظام الملك الوزارة وعرف ذلك صاحباه ، ذهبا اليه يطالبانه انجازاً لوعده ، ولم يذكر نظام الملك في وصيتهِ ما أعطاه للحسن ، ولكنهُ ذكر أنهُ أجرى على عمر الخيام رزقاً قدره ١٢٠٠ مثقال من الذهب ، تعطى له من خزينة نيسابور ، ليستعين بها على متابعة درس الفلك . وفي ذلك الوقت خلف الملك شاه اباه الب ارسلان في الملك

سنة ١٠٧٢ م وكان مشتغلا باصلاح التقويم ، فانتدب عمر وسبعة من العلماء للقيام بتلك المهمة العظيمة فاضطر عمر الفلكي الى الانتقال الى مرو لهذه الغاية

والمؤرخ الذي ينظر بعين الفاحص الى هذه النصوص التاريخية لا يرى الا انها ملفقة موضوعة ، لقد أكد لنا ديربيلو ان عمر الخيام توفي في نيسابور سنة ٥١٧ ه أي سنة ١١٢٣ م ، ومن الواضح ان نظام الملك مات بعد وفاة الخيام بدليل انهُ ذكر في وصيته ان الخيام مدفون في نيسابور ، ووصية نظام الملك يجب ان تكون قد كتبت في أوائل سنة ١٠٩٢ م لأن الملك شاه عزله من الوزارة في تلك السنة ، وقد قتل بخنجر صديقه الحسن بن الصباح قبل نهاية السنة ، كما ان الملك شاه مات بعد شهور قليلة من طرد وزيره وفي هذا ما يناقض قصة عمر الخيام من أساسها ويذريها في الهواء

وقد يقول قائل ان مخطوط الرباعيات الموجود بين أيدينا فيه دليل على حقيقة عمر الخيام ، وليس الأمر كذلك ، فان ذلك المخطوط يقول فيه فيتزجرلد نفسه « ان ذلك المخطوط المشوه تشويهاً لا مثيل له بسبب النسخ ، هو نادر الوجود في الشرق فلا يمكن الحصول عليه وايصاله الى الغرب ، ولا يوجد من الكتاب نسخ في (انديا هاوس) ولا في المكتبة الأهلية بباريس، ولا نعرف بوجود نسخة في انجلترة سوى النسخة الموجودة في مكتبة بُدلين التي كتبت سنة ١٤٦٠ وهذه النسخة لا تحتوي الا على ١٥٨ رباعية ، وتوجد نسخة أخرى في مكتبة الجمعية الاسيوية في كلكتا تحتوي ، على الرغم من انها غير تامة ، على ٥١٦ رباعية فيها كثير من المكرر والمحرف

***

وقد أشار الاستاذ كول الى « نسخة نادرة جداً طبعت في كلكتا سنة ١٨٣٦ وهي تحتوي ٤٣٦ رباعية مع ذيل يضم ٥٤ رباعية ليس لها وجود في الأصل

ويكفي ان ينظر القارىء الى هذه الأقوال التي صرح بها مترجمو الرباعيات المنسوبة الى عمر الخيام ، ليعرف في وضوح ، انه لا توجد نسخة أصلية صحيحة للرباعيات كما كتبها عمر الخيام نفسه . وقد اعترف فتزجرلد بأن نسخة مكتبة بُدلين التي اعتمد عليها في ترجمته ، لا يرجع عهد كتابتها الى أبعد من سنة ١٤٦٠ م ، فهي على هذا قد كتبت بعد وفاة عمر بنحو ٣٧٠ سنة ، ويعتقد فتزجرلد ان تلك النسخة مدخول فيها ومحرفة

وأول طبعة من ترجمة الرباعيات لفتزجرلد احتوت ٧٥ رباعية وقد زادت الطبعة الثانية حتى بلغت ١١٠ رباعية أما الطبعتان الثالثة والرابعة فقد احتوتا مائة رباعية ورباعية ، ومما لاشك فيه ان فتزجرلد كان يزيد في كل طبعة كثيراً من الرباعيات التي لاوجود لها في الأصل

فما الذي يصنعهُ الباحث في قصيدة أو طائفة من المقطوعات الشعرية مات الشاعر الذي تنسب اليه في سنة ١٠٩٠ أو سنة ١١٢٦ ولم تعرف اشارة في الشرق حتى في مسقط رأسه فارس أو في الهند ، الاَّ في القرن الثامن عشر ، وقد اختلفت نسخ ديوانه ، فمنها ما حوى ٦٣٢ شطرة من الشعر ومنها ما حوى ٢٠٥٤ شطرة ، وأقدم نسخة من تلك النسخ دوّنت بعد أربعة قرون ، على وجه التقريب ، من وفاة المؤلف

ان علماء اللغة الفارسية يحكمون على نسخة مكتبة بدلين اذا اطلعوا عليها بأنها خليط من شعر حافظ وسعدي ومنطق فريد الدين العطار الذي كان يشتغل بالنسخ في شيراز ، وقد جمعت كلها وكتبت سنة ١٤٦٠ وأضيفت اليها الملح والمقتبسات والأمثلة التي لا يوجد مثلها في كتاب وليام جونس الذي سماه « النحو الفارسي » . وعليهِ فان عمر الخيام خرافة ، وان أشعاره انما هي أقوال جمعت ثم نسبت الى هذا الاسم الخيالي الجميل

هذا ما كتبه الدكتور ملر في «المورنج بوست» وهو في جملته مغالطات آخذ بعضها برقاب بعض ، وسآتي برد السير دنسن رس ، ثم بتعقيبي عليه الذي أرسلته الى المورنج بوست

قال السير دنسن رس : لا أريد أن أدخل في جدال مع أحد في موضوع عمر الخيام والسبب في ذلك عدم وجود موضوع للجدل ، ولكني أريد أن أدحض بعض « الحقائق الاساسية » التي زعمها الدكتور ملر والتي بنى عليها نظريته القائلة بأن عمر الخيام خرافة

ان حكاية الرفاق الثلاثة (عمر الخيام ونظام الملك والحسن بن الصباح) حكاية ملفقة ومتفق على وضعها في التاريخ الادبي لهذا الشاعر ، فهي رواية وليس لقصتها إلاَّ عمل لا طائل تحته

لقد كتب الدكتور ملر يقول : فما الذي يصنعهُ الانسان في قصيدة أو طائفة من المقطوعات الشعرية مات الشاعر الذي تنسب اليه . . . وأجيب عن هذا القول بما يأتي :

١ — لقد توفي عمر الخيام حوالي سنة ١١٢٣ ولدينا تفصيلات عنه كتبها رجل اجتمع بهِ فعلاً سنة ١١١٢ وزار قبره في نيسابور سنة ١١٣٥

٢ — لقد أشار اليه كشاعر مؤلفون ألفوا كتباً في السنوات الآتية ١١٧٦ م و ١١٩٠ م و ١١٩٨ م و ١٢٢٤ م و ١٢٤٠ م وقد نقل احدى رباعياته (الجويني) مؤرخ المغول المشهور — وذلك سنة ١٢٦٠ م وذكرت ثلاث عشرة رباعية لهُ مكتوبة في مجموعة أشعار فارسية كتبت سنة ١٣٤٠

٣ — أمر اختلاف المجموعات في عدد الرباعيات طبيعي ولما كان الخيام مرغوباً في شعره فلا غرابة اذا نسبت اليه مئات من الرباعيات التي نظمها سواه

٤ — أما ان النسخ القديمة من الرباعيات نادرة فهذا أمر طبيعي ليس فيه ما يستغرب أو يدل على شيء

٥ — ألف عمر الخيام عدة كتب علمية لم يبق منها على تمامها إلاّ اثنان ، رسالة في الجبر طبعت بالعربية والفرنسية في باريس سنة ١٨١٥ ورسالة في تعريفات اقليدس محفوظة في مكتبة ليدن. أما دعوى زيادة فتزجرلد على الرباعيات فقد آن وقت ردها ان فتزجرلد اتبع الأصل في ترجمته ولكنهُ لم يلتزم نقل الكلمات بل نقل المعاني وقد كان يترجم الرباعيتين أو أكثر في رباعية واحدة

وينبغي لي أن أختم ردي بكلمة في الرباعيات نفسها ، تطلق الرباعيـة عند الفرس على مقطوعة من الشعر ذات أربعة أسطر في موضوع واحد . وقد نظم هـذا النوع من الشعر كل شعراء الفرس ولـكن عمر الخيام امتاز عليهم بأسلوبه الفلسفي وتشاؤمه وقد جمعت هذه الرباعيات بعد وفاة الخيام ورتبت على حروف الهجاء ، ولـكن فتزجرلد لم يعبأ بهذا الترتيب بل عمد في ترتيب ما ترجمه ملاحظة الموضوع لا حروف الهجاء في القوافي

ويجب ألاّ يغرب عن البال ان العلامة كول عميد جامعة كمبردج وهو أكبر مستشرق أخرجتهُ انجلترة على الاطلاق هو أول من عرّف فتزجرلد بعمر الخيام ووّجهه الى رباعياته ، وحمله فوق ذلك على دراسة شعره . على ان فتزجرلد لم يكن يفهم الاصل الذي يترجمه فهماً حرفيًّا بل كان يترجم مستوحياً المعاني التي ألهمت الخيام ، ومع ذلك فليس في مكنة أي ناقد أو متصدِّ لترجمة فتزجرلد أن يجد نقصاً أو تقصيراً يغيِّر المعاني أو ينقص منها أو يشوّهها

على ان رد السير دنسن رس على ما فيه من قوة البحث العلمي لا يخلو من مآخذ ، فقـد أنكر هو الآخر حكاية الرفاق الثلاثة وذكرها على انهـا حكاية ملفقة وسلم بتلفيقها ولم يقدم دليلاً عليها على زعمه هذا مع ان هذه الحـكاية مذكورة في كتب استشهد بها السير دنسن نفسه في رده على الدكتور مللر

انها لجرأة على العلم وعلى التاريخ أن يقوم باحث فينكر شخصية علميـة تاريخية دون أن يناقش الوسائل والاسباب التاريخية التي ذكرت هـذه الشخصية ، وأن يترك الامر موضع شك مريب دون حجة أو برهان جديد ، فالدكتور مللر مبطل وليس له دليل ، وكان عليه أن ينقض الوثائق الآتية التي ذكرت عمر الخيام نقضاً علميًّا . من ناحية التاريخ الادبي ومن ناحية ثقة المتأدبين فيها ، واني لأسوق هذه الوثائق الى ما أشار اليه السير دنسن راجياً أن يكون في هذا توثيقاً لرد العلامة السير دنسن ، وهذه الوثائق انما هي المصـادر العلمية والتاريخية التي أمهد بها البحث في عمر الخيام بوصفهِ شاعراً وعالماً وفيلسوفاً وزعيماً من زعماء الباطنية في الاسلام.

علاقة رعاية الطفل

بحالة الأم من الناحية الاجتماعية[1]

للدكتور حسن كمال

أنشيء قسم رعاية الطفل والامومة في القطر المصري عام ١٩٢٧ لمعالجة الأمراض الوراثية وتحسين النسل والاهتمام بالأمومة واحاطة الأمهات بوسائل العناية والوقاية وتشجيعهن على القيام بوظائف الامومة خير قيام ورعاية الطفل والعناية بصحته حتى تقل نسبة الوفيات بين الأطفال.

ونستعرض الآن حالة سكان القطر ووفياتهم ثم نتتبع مدى تأثير رعاية الطفل والأمومة فيهم. وبديهي ان الاغراض السياسية التي أنشئت من أجلها مراكز رعاية الطفل هو زيادة تعداد السكان وزيادة مواليده والاقلال من وفياتهم. والجدول الآتي يبين عدد المواليد وعدد الوفيات في القطر المصري من سنة ١٩٣٦ الى سنة ١٩٤٠ :

السنة	عدد المواليد	عدد الوفيات	عدد الزيادة في السكان
١٩٣٦	٦٩٨١٨٦	٤٥٥٨٣٢	٢٤٢٣٥٤
١٩٣٧	٦٩٤٠٨٦	٤٣٤٢٠٨	٢٥٩٨٧٨
١٩٣٨	٧٠٤٣٧٦	٤٢٩٢٤٨	٢٧٥١٢٨
١٩٣٩	٦٩٦٧٤٦	٤٢٩٠٣٣	٢٦٧٧٦٣
١٩٤٠	٦٩٧٧٠٠	٤٤٤٤٤٨	٢٧٢٢٥٢

وللتسهيل مقارنة هذه الاعداد بالنسبة الى كل الف من السكان تكون النتيجة كالآتي :

السنة	نسبة المواليد الى كل الف من السكان	نسبة الوفيات الى كل الف من السكان	نسبة الزيادة الى كل الف من السكان
١٩٣٦	٤٤ر٢	٢٨ر٨	١٥ر٣
١٩٣٧	٤٣ر٥	٢٧ر٢	١٦ر٣
١٩٣٨	٤٣ر٣	٢٦ر٤	١٦ر٩
١٩٣٩	٤٢ر٢	٢٦ر٠	١٦ر٢
١٩٤٠	٤١ر٦	٢٦ر٥	١٥ر١

ومن ذلك يتضح أن هناك زيادة سنوية غير مطردة في السكان يجب المحافظة عليها. لأن زيادة السكان تعني زيادة الايدي العاملة وهذا معناه زيادة قوة الامة

ولاطراد زيادة السكان يحسن العمد الى الوسائل الاجتماعيـة والطبية. فالاجتماعيـة

(١) محاضرة للدكتور حسن كمال مدير قسم رعاية الامومة والطفولة في مصلحة الصحة الاجتماعية (القاهرة)

كالترغيب في الزواج بمختلف الطرق أو سن قوانين تقضي على الذين لا يتزوجون بدفع ضرائب للحكومة أكثر من المتزوجين ، أو تفضيل المتزوجات والمتزوجين على غير المتزوجين والمتزوجات عند الالتحاق بالوظائف العمومية. لكن هذه الطرق مقيدة للحرية الشخصية. أما الوسائل الطبية فتتلخص في علاج العقم عند المتزوجين والمتزوجات

بعد ذلك تأتي مقاومة زيادة الوفيات وهذه أهم وسيلة لزيادة سكان القطر . لأنهُ في كل ألف من المتوفين من جميع الاعمار يموت ٢١٦ طفلاً بين الولادة ، وبلغ السنة ١٥٥ طفلاً بين السنة والسنتين و١٣٢ طفلاً بين السنتين والخمس سنوات . فيكون المجموع ٥٤٨ طفلاً . ومعنى هذا ان نصف الذين يموتون في القطر المصري من جميع الاعمار هم أطفال يقل عمرهم عن الخمس سنوات وهي حقيقة تدل على شدة وطأة الموت على الاطفال المصريين كما تدل على ان سن الطفولة هو أنسب سن للاقلال من الوفيات عامة

نشأت فكرة رعاية الطفل والأم على أثر احصاء الوفيات وتوزيعها على الأعمار ، إذ اتضحت الحقائق السابقة فأصبح لزاماً على رجال الحكم وضع حدًّا لهذه الخسارة الهائلة في أرواح السكان . ففي سنة ١٩٢٧ أنشأت وزارة الصحة دوراً خاصة هي مراكز رعاية الطفل والإمومة ومن ذلك التاريخ أخذ تعداد هذه المراكز يكبر حتى بلغ الآن ٦٢ مركزاً تابعاً لوزارة الصحة،وهناك مراكز أخرى صغيرة عديدة في القرى تشرف عليها مصلحة الصحة القروية كما ان هناك مراكز أخرى تابعة لمجلس بلدي الاسكندرية . وكانت الامهات اول الأمر تعتقد انهن أقدر على ارضاع أطفالهن والعناية بهم وبأنفسهن من مراكز رعاية الطفل. لذلك أحجمن أولاً عن طلب المساعدة من تلك المراكز

لكننا الآن بعد أن شاهدنا اقبال الجمهور على هذه المراكز علمنا ان تلك الافكار والعقائد كان أساسها الجهل والكسل . ولا أدل على ذلك من ان عدد الولادات التي قامت بها مراكز رعاية الطفل عام ١٩٤٢ بلغت ٨٦٨٠٦ ولادة وان عدد الاطفال المترددين على مراكز رعاية الطفل في ذلك العام أيضاً ١٣٥٥٢٧٥ طفلاً . وعدد الحوامل القديمات ٣٥٣٢٩٢ وعدد الحوامل الجديدات ١٠٤٩٢٩ وعدد عينات الدم المأخوذة للفحص ٨٥١٤٦ عينة

ومع ذلك فاذا قارنا حالنا هذه بالحال في بريطانية لاتضح لنا الفرق الهائل ومدى ما يجب علينا عمله حتى نصل الى ما وصل اليه الانجليز . ففي بداية هذه الحرب ١٩٤٠ كان أكثر من ٣٠٠٠ مركزاً لرعاية الطفل كبيرة : ٢٥٠٠ مركزاً صغيراً لرعاية الطفل والامومة شبيهاً بالعيادة الخارجية. وأصبح الآن أكثر من ثلاثة أرباع الامهات ببلاد الانجليز يتمتعن بخدمات مراكز رعاية الطفل والأم

وهكذا أصبحت مراكز رعاية الطفل والامومة محل تزاحم الأمهات . والحقيقة ان العمل في هذه المراكز لهُ تأثير يخالف تأثير عيادات المستشفيات . ففي الاخيرة مرضى كثيرون وفيها أنظمة خاصة قد تأنف منها الأمهات السليمات ومعهن أطفالهن الأصحاء . أما الجو في مراكز رعاية الطفل فأشبه شيء بجو أسرةٍ من أول دخول المركز الى الخروج منهُ . فهناك تلقى المحاضرات وتدرس دروس عملية لطرق ارضاع الطفل وملبسه ونظافته والعناية بعينيه وصحته وغذائه ، وعلى هذا العناية بالأمهات وغير ذلك . كما ان المراكز تقوم بعلاج الحالات البسيطة وتصرف الشديدة منها الى المستشفيات القريبة . وهناك أيضاً يوزن الاطفال وتقاس حرارتهم وتدوّن فتتعلّم الامهات مدى نمو أطفالهن وصحتهم وطرق مراقبتهما . وهناك مراكز توزع فيها الأغذية ذات القيمة الخاصة من جهة الفيتامينات التي تساعد على نمو الطفل وتدرأ عنه الامراض وهناك حقن الوقاية ضد الدفتيريا والتطعيم ضد الجدري . كما ان هناك دروس تعطى لتفصيل ملابس الاطفال الى جنب مراكز تقوم بالالعاب الرياضية للطفل

وتبدأ العناية بالطفل من الشهر الثالث للحمل فتذهب أمه الى المركز ويبحث عما فيها من مرض سيؤثر على الطفل مدة حمله وعند وضعه وبعد ولادته . فيحلل بول الأم وتقاس أبعاد الحوض ويحدد وضع الجنين ويحلل دم الأم وغير ذلك وتنبه الى ما يحسن بها عمله مدة حملها . ثم يعاد فحصها باستمرار حتى الوضع وعندئذٍ يباشر مركز رعاية الطفل ولادتها ومقاسها ويتعهد طفلها حتى السنة الخامسة من العمر والحقيقة ان كثيراً من أمراض الأطفال واصاباتهم هي نتيجة عدم العناية بكل هذه الخطوات فعدم العناية بصحة الأم وجنينها وقت الحمل يسبب كثيراً من الأمراض ومخاطر الوضع . وعدم العناية وقت الوضع يسبب امراضاً كثيرة ووفيات عديدة للامهات والأطفال . أما الاهمال بعد الوضع فحدّث عن مضاعفاته ولا حرج فهناك النزلات المعوية والالتهابات الرئوية والرمد الصديدي وغير ذلك من الأمراض التي لا تحصى

هذه الرعاية من النواحي الاجتماعية الهامة وقد كان الشعب المصري يجهلها فهي تظهر قيمة الوقاية وطرق المحافظة على الصحة وتظهر ضرورة معالجة الوالدين من كل مرض يصيبهما ويعوق رعايتهما لأطفالها اذ ينتهي الى أطفالهم فيصابون به أيضاً. تظهر قيمة الصحة في المجتمع بعد دخول المدارس حيث يتمكن الطفل، بما أوتي من حسن رعاية وجودة غذاء وكمال نمو ووفرة صحة، من النبوغ والتقدم بخطوات سريعة لا تقاس بخطوات من سبقه من الاطفال . تظهر للمجتمع فائدة انتاج جيل صحيح سليم يكوّن جيشاً يدرأ عن الأمة الأعداء وعن القطر الكسل والجهل وعن الأهل المرض فتقل الأمراض بالنسبة الى قوة المقاومة كما تقل مصاريف المستشفيات

على حين تكثر رؤوس الأموال في المشروعات النافعة كالشركات والمصانع فتتوفر الثروة والصحة والنشاط والقوة والعزة ثم يتلاشى الفقر والمرض والكسل والضعف والمذلة

ذلك باختيار هو الغرض الأسمى لرعاية الطفل وأثره في المجتمع

على انه لا تتوفر رعاية الطفل في أمة الا بتوفر الشروط الآتية أو قل الوصايا الاثنتى عشرة — أو قانون رعاية الطفل —

١ — يجب ان يولد الطفل ولادة طبيعية وهو خالٍ من مرض وراثي

٢ — يجب ان يتوفر للطفل بيئة صالحة ووسط مرح وسرور

٣ — يجب ان يخصص للطفل جزء من ايراد والده ووالدته

٤ — يجب ان يعنى بالأم قبل الوضع وبعده من الوجهتين الطبية والاجتماعية

٥ — يجب ان تساعد الأم وتفضل على غيرها في العلاج بالمستشفيات

٦ — يجب ان تصرف الأم عنايتها الى طفلها لمدة ثلاث سنوات على الأقل

٧ — يشترط في غذاء الطفل ان يكون كافياً

٨ — يجب ان يوضع الطفل تحت ملاحظة طبية دورية

٩ — يجب ان تتوفر دور كفالة للاطفال الذين تضطر أمهاتهم الى ان تتركهم وحدهم بعض اليوم وهم دون الثلاث سنوات

١٠ — يجب ان تتوفر ملاجىء لايواء الأطفال الذين يزيد سنهم على الثلاث سنوات مدة مرض امهاتهم او فقد من يعولهم

١١ — يجب انشاء مدارس لتعليم الامهات العناية بالاطفال — أو على الاقل يجب تدريس ذلك بالمدارس الحالية

١٢ — يجب العناية بالمرضعات والتأكد من خلوهن من امراض معدية او امراض اخرى تؤثر في الطفل او في تربيته، وان يكون لبنها موافقاً للطفل الرضيع وغير ذلك حتى يكفل للطفل الغذاء والصحة والراحة، وان لا يسمح لمرضعة ان ترضع طفلاً الا بعد الاستئذان في ذلك

ومن هذا يتضح ان أهم العوامل في انشاء جيل جديد سليم هو العناية بالأسرة وبالمنزل فأساس سعادة الأمة هو سعادة العائلة واستتباب وسائل الراحة بالمنزل . وهذه الوصايا الاثنتا عشرة ليست كلها طبية بل بعضها اجتماعية . ومن هنا يستنتج ان الامم الراقية الآن تعنى بالناحية الاجتماعية أكثر مما تعنى بالناحية العلاجية نحو انشاء المستشفيات . والمستشفيات والعيادات الخارجية وكثرة الأدوية هي طريقة الترقيع والاسعاف لاطالة عمر مدته قصيرة كلها مرض او ضعف . ونحن الآن لا نريد ترقيعاً بل نريد انتاجاً سليماً من البداية . نريد صحة

تامة ولا نريد امراضاً تهد من كياننا وآلاماً تحرمنا لذة العمل والكد والحياة ونستعين على تحملها بالعقاقير والمستشفيات. فالمطلوب الآن جيل لا يملأ مستشفيات ولا تفترسه الامراض بل جيل يقاوم المرض ، جيل نشيط ، جيل كامل من كل وجهة

تلك هي الناحية الاجتماعية الهامة التي ترمي اليها رعاية الطفل

وتقصد هذه الرعاية ايضاً الى تدارك أخطار تقع :

١ — اخطار دور الحمل : كم من جنين توفى فأجهضت امه نتيجة جهلها بالمحافظة على صحتها فالآلاف المؤلفة من حالات الاجهاض تنجم غالباً عن الاصابة بالأمراض وعدم وقاية الأم مدة الحمل كما ان الاطفال الذين يتوفون وقت الوضع يكاد يزيد عددهم على الأجنة المتوفَّين وأغلب وفيات الوضع نتيجة عدم العناية بالجنين وقت الوضع او سوء استعمال الجفت او غير ذلك. وهناك عامل آخر هام لوفاة الجنين او الطفل الحديث الوضع ألا وهو مرض الزهري . هذا هو السبب في ان مراكز رعاية الطفل تفحص دم كل حامل جديد تطرق بابها . ويؤثر الزهري في الجنين وهو في رحم امه عادة وقد ثبت من نتائج فحص الدماء بمراكز الاطفال ان هناك نسبة كبيرة من المصابات بهذا المرض بين الحوامل الجديدات. أما الحوامل القديمات فانهنَّ يكنَّ قد برئنَ منهُ في مراكز رعاية الطفل في الحمل الاول ولذلك يقل حدوثهُ بينهنَّ . وللزهري خطر آخر على حياة الجنين فهو سر اسباب الاجهاض وهذا هو السبب في ان كل مركز رعاية طفل يشدد على الحوامل الجديدات في تعرف هل سبق اجهاض أو لا

وهناك أخطار أخرى نتيجة تسمم الحمل مثل الاكلامسيا والزلال البولي وغير ذلك مما يؤثر كثيراً في صحة الأم وحياة الطفل . وهذا هو سر فحص البول للزلال وقياس كميته وقياس الضغط الدموي في مراكز رعاية الطفل . والنزيف وقت الحمل سبب هام في قتل الجنين

وثلاثة ارباع هذه الاخطار يمكن تجنبها وعلاجها . ومن هنا وضح تشخيص الامراض عند الام وقت الحمل وتأثير علاجها الحسن على صحتها وصحة طفلها وصحة الجمهور تبعاً لذلك

٢ — اما اخطار الوضع فكثير منها سهل العلاج والاجتناب . فتغير وضع الجنين في كثير من حالات الحمل قبل الوضع يسهل الوضع ويقلل من مخاطره .كما ان قياس ابعاد الحوض كثيراً ما يرشد الى صعوبة الولادة قبل حدوثها وطريقة علاجها جراحيًّا . وهكذا يتضح لنا ان من أهم طرق منع وفيات الاطفال وقت الوضع ومدة الحمل هي : اولاً فحص الام مدة الحمل ، ثانياً علاجها علاجاً محكماً ، وذلك ما تهتم به مراكز رعاية الطفل والامومة

٣ — اما اسباب وفيات الاطفال بعد الوضع في هذا القطر فهو النزلات المعوية والمعدية والرئوية والامراض المعدية الاخرى وسوء التغذية وقلة التغذية . والنزلات المعدية وأهمها

الاسهال الأخضر، كثير الحصول صيفاً نتيجة قذارة طعام الطفل او قذارة فمه او سقوط الذباب على فمه . أما النزلات الرئوية فهي نتيجة تعرض الاطفال الى البرد فجأة وعدم العناية بتدفئتهم تدفئة كافية . وأما الامراض المعدية فأهمها الحصبة . لأن الجدري والدفتيرية أصبحا الآن مما يتفادى بالتطعيم وبالحقن

وسوء التغذية سبب عظيم في النزلات المعوية المعدية . لأن الطعام الثقيل والتالف يضران بالمعدة والامعاء ويهيجان أغشيتها المخاطية فيصاب الطفل بشتى العلل

ويتضح مما ذكر ان أهم عامل في رعاية الطفل هو الاستشارة الدورية الصحية . ولذلك فقد خصصت أيام الأسبوع لفئات خاصة : فيوم للحوامل الجديدات، ويوم للحوامل القديمات، ويوم للاطفال من وقت الولادة الى الشهر الثالث ، ويوم من الشهر الثالث الى السادس ، ويوم من الشهر السادس الى آخر العام الاول ، ويوم من اول العام الاول الى آخر العام الخامس . وهكذا يعمل المركز ستة أيام ويستريح في اليوم السابع

والمؤكد ان هذه الاستشارة الطبية الدورية في مراكز رعاية الطفل سيكون لها تأثير كبير في طوائف الامة الاخرى من آباء وأمهات وطاعنين في السن، فيعمد هؤلاء الى استشارة الطبيب دوريًا ، شأن اطفالهم وزوجاتهم

فالتردد على مركز رعاية الطفل انما هو لملاحظة الامراض المبتدئة ودرأ التعرض لبعض العلل من جهة الملبس أو المشرب أو المأكل أو المسكن أو مهنة الأمهات — وهناك يشير الطبيب على الأم باللازم حتى لا تصاب هي وطفلها بمرض من الامراض المذكورة

وتتلخص الاستشارة الطبية الدورية بمراكز رعاية الطفل في وزن الطفل وقياس درجة حرارته وفحص هيكله العظمي وغدده الليمفاوية وسلامة جلده ونظافة جسمه وحالة رئتيه وقلبه وغير ذلك . أما الام فيحلل بولها ويقاس ضغطها وتفحص رئتاها وقلبها وغير ذلك

ويلاحظ ان استمرار الوزن يرشد الى درجة النمو . وقد دلتنا التجربة ان لطول الجسم ووزنه وشكل صدره علاقة ببعض الامراض المعدية ، وان الطبيب الكشاف يمكنه أن يصف العلاج الذي يرام لأجل مقاومة الجسم لهذه الأمراض

***

وهناك مسألة العينين التي تجب العناية بهما لكثرة الرمد الحبيبي هنا وانتشار قصر البصر الطبيعي. وهذا هو سر اهتمام مراكز رعاية الطفل بهما . وقد شمل هذا الاهتمام أيضاً أسنان الاطفال وميعاد ظهورها وحالتها الصحية حيث اتضح انها ذات علاقة هامة بالتغذية والاصابة بالزهري وغير ذلك .

فلسفة « كأنَّ »(1)

في الهند وفي الغرب

نظرة القارن

— ٢ —

للسيد أبي النصر أحمد الحسيني الهندي

يقول شنكرا (٧٨٨ — ٨٥٠ ميلادية) الذي يعد عبقريته الاستاذ دائسن الالماني مثل عبقرية كانت Kant ، لأن شرحه لاوپانيشاد قضى على البوذية في الهند ، يقول إنهُ من الممكن أن تُتصوَّر — عقلاً — حالتان للعلم : حالة وِدْيا ، وحالة أوِدْيا . ففي الاولى لا وجود في خارج آتمان ، وفي الثانية من الممكن أن نفرض وجوداً خارجيًّا منفرداً عن المدرك العامل . ولكن هذا الوجود الخارجي من نوع خيالي . ويقول شنكرا في الختامَ ان العلم الحقيقي علم ينعدم فيه تثليث الادراك والمدرِك والمدرَك

ويقول رامنوج الذي عاش في القرن الحادي عشر الميلادي ان من حرف « ايوا » (أي كأنَّ بالعربية) يفهم ان استقلال معمولها أو بألفاظ أخرى استقلال الحقيقة الخارجية غير ممكن الادراك (1) ثم يقول انهُ حين ينال روح الفرد توفيقاً من بَرْماتما (أي الله) يقدر على أن يعرف جميع الاشياء حتى برماتما بنفسه

يقول مادهو الذي يحصر الموضوع في سياقه أي الحياة بعد الممات ، بامكان ادراك معمول كأنَّ الى حد تبعيته لها وتوقفه عليها وانهُ غير ممكن أن يعرف أحدٌ الله الذي هو وجود ذو شخصية والذي يعرف روح الفرد بواسطته جميع الأشياء

قد رأيتَ مما سبق من بيانات مفهوم « كأنَّ » ان شنكرا يرى انها تشمل نظرية المثال أي نظرية وجود غير حقيقي ، بينما يرى رامنوج انها تدل على ان استقلال الحقيقة الخارجية لا يمكن ان يدرك ، في حين يرى مادهو انها تشمل توقف الحقيقة الايجابي على وجودٍ ذي شخصية . والآن نتحدث اليك عن فلسفة « كأن » عند الفيلسوف الالماني هانز فاي هنجر

(1) وهو رأي يدل على ان رامنوج سبق فيه الفيلسوف الانجليزي الشهير بركلي Berkeley (١٦٨٥ — ١٧٥٣ م) الذي ناشد في فلسفته ان لا وجود لاهداف حواسنا مستقلا عنا ، وقد استنفد وسعه وطاقته في اثباته بخاصة في كتابه « المحاورات الثلاث بين هيلاس وفيلونوس » . وهو نفس ما نادى به رامنوج قبله بخمسة قرون : أن استقلال الحقيقة الخارجية غير ممكن الادراك

الفيلسوف هانز فاي هنجر وفلسفة كأنْ

أظن أنهُ لم يجل في فكر ياجنّا والكيا حين وضع فلسفته الكائنية ولا خطر ببال شارحيها انهُ سيرتفع في تأييدها وتوطيدها صوت من اوربا، بعد مرور خمسة وعشرين قرناً على وضعها. وهذا الصوت هو صوت الفيلسوف الالماني الحاد الذكاء هانز فاي هنجر

أشار فاي هنجر منذ سنين الى أن التعبيرات التالية أي التشبيهية تستعمل في أربع لغات أوربية هامة للدلالة على طابع الحقيقة الخيالي. ففي اللاطينية يرأس ذلك التعبير حرف quasi وفي الفرنسية comme si وفي اليونانية os ei وفي الألمانية als ob ومن الأخير سمي فلسفته Philosophie des Als Ob ولم يكن له نصيب من الاستشراق والا لعرف انحرف « ايوا » بالسنسكريتية و « كويا » بالاردية والفارسية و «صانكه» بالتركية و« كأن» بالعربية تستعمل في نفس المفهوم الذي يستعمل فيه als ob

يرى الاستاذ الانجليزي ولف ان فاي هنجر استلهم فلسفته من نواحٍ مختلفة، من وضعية كانت Kant التي تحصر العلم الانساني في التجربة ومنفعيته التي ترمي الى تقديم العقل العملي، ومن ارادية شوبنهاور وتشاؤمه، ومن نشوء داروين، واختبارية مل التي تحوّل الحقيقة الى امكانات الاحساس الدائمة (١)

لكن فاي هنجر يقول لنا غير ذلك وشهادة الرجل على نفسه أصدق من شهادة غيره عليه فقد أبان فاي هنجر في ترجمة حياته التي كتبها هو (٢) انهُ استلهم فلسفتهُ من كانت. فكانت نجمة عظيمة متلألأة استنار بها فاي هنجر في وضع فلسفته. وهو يمأ الى مصنفات كانت المختلفة منوهاً بان التعبير الحقيقي فيها تعبير كأنّي اي خيالي لذلك لا يقدر عنده التعبير المختص بالكمال التصوري، ولا العقلي، ولا التجريبي حتى لا الانتقادي الصحيح على ان يفسر فلسفة كانت تفسيراً حقيقياً بل يجب أن تفسر هي من جهة النظرة الخيالية ان عقيدة كانت في عالمين، عالمَ التصورات العقلية البحتة Noumena، وعالمَ التصورات المبنية على الحواس Phenomena عدّنا بأساس يجب أن نبحث فيه عن جرثومة الفلسفة الخيالية او الكأنية. فحين يقول لنا كانت يجب علينا ان نفرض كأن هنالك عقلاً خالقاً في العالم (٣) وحين يقول يجب ان نعتبر الارادة كأنها حرة، وان كنا لا نقدر على ان نقول شيئاً في شأنها من وجهة التصورات المبنية على الحواس (٤)، وحين يقول يجب ان يسلك كل رجل

(١) Outline of modern knowledge p. 578

(٢) راجع ترجمة حياته هذه في المجلد الثاني من كتاب : —
Die Philosophie der Gegenwart in Selbstdarstellung

(٣) Philosophie des Als Ob p. 360 (٤) Grundlegung zur Metaphysik der Sitten

سلوكاً كأنهُ عضو من مملكة الغايات التي تعرض فكرة كلية الغايات الكاملة المجتمعة في نظام[١] وحين يقول يجب أن نعد قانون الاخلاق مقدساً كأنهُ أمرٌ الهي[٢] واخيراً حين يقول في نقد الحكم انه يجب ان نفرض كأن هناك عقلاً مدركاً لا يطرأ عليهِ اي طارىء للتوفيق بين قوانين الطبيعة الخاصة والفهم[٣] . كل ذلك ينبئنا باتجاه خيالي بحت سائر في جميع انتقادات كانت . وهذا الاتجاه على ما يقول لنا الاستاذ فاي هنجر هو ملهم فلسفته الكأنية اي الخيالية

وهنا نرى كيف ان فلسفة « ايوا » (أي « كأن ») لياجنا والكيا تنطبق على تعبيرات كانت الكأنية تمام الانطباق . فمع انه لا يوجد هناك وجود خارجي حقيقي نحن نسمعهُ يقول إنه يجب علينا أن نفرض كأن هناك أحداً لأجل أعمال الادراك المختلفة. ثم يؤكد أن الحقيقة الوحيدة للآتمان وأما الأشياء الاخرى كلها لخيال

يتطرق الى البال سؤال وهو ما حقيقة هذا الخيال أي ما هو معمول كأن الذي نوَّه بهِ ياجنا والكيا واومأ اليه كانت وأنشده فاي هنجر ؟ وما هو طبعه ؟ فيقول لنا الاستاذ هاينريش اشمت : ان للغلبة على مشكلات الفكر ولإدراك هدفه يُفرض بعض الفروض تخالف الحقيقة او تشتمل هي نفسها على التناقض . فالتصورات الفنية الكاذبة المعلومة التي تكوّن تلك الفروض هي معمول كأن أو الخيال[٤] ويقول فاي هنجر ان معمول كأن أو الخيال هو الفرض غير الحقيقي مع الشعور به لاجل الاغراض العملية . والفرق بينهُ وبين الغرض العلمي ان الاخير يمكنهُ ان يحقق ويثبت ولكن الاول لا يمكن تحقيقه بتاتاً[٥] . وعليه فالاخير يمكنهُ ان يكون حقيقيّاً لانهُ قابل التحقيق ، ثم إن جميع الاكتشافات تتكوّن من الفروض العلمية ولكن معمول كأن او الخيال لا يساعدنا على ان نكتشف ان جميع العلوم الانسانية مفعمة بأمثلة هذا الخيال . فالعلوم الرياضية والطبيعية والاخلاقية والميتافزيقية واليونانية والمنطق ليست بخالية من أثره[٦] كل منها يختار بعض الفروض غير الحقيقية ثم يبني عليها بناءه ثم ان طبيعة العلوم في ذاتها مثل الفروض التي تفرضها خيالية . ففاي هنجر ينبهنا كيف يكون تصور النقطة في علوم الرياضة والجوهر الفرد في علوم الطبيعة خيالياً[٧] إذ لا توجد نقطة

(١) Watson : Selections from Kant p·248 (٢) Philosophie des Als Ob p. 292

(٣) Watson :Selections from Kant · p339

(٤) Philosophisches Wörterbuch p. 693

(٥) راجعه في ترجمة فاي هنجر في المجلد الثاني من كتاب : Die Philosophie der Gegenwart in Selbstdarstellung

(٦) Robinson :Anthology of Recent Philosophy p·588

(٧) كان من فلاسفة الاسلام ابن سينا المتوفى سنة ١٠٣٧ م والسهروردي المتوفى سنة ١١٩١ م سبقا فاي هنجر في ادراك هذه الحقيقة بخاصة في علوم الرياضة بعد ياجنا والكيا . فكان ابن سينا يعد موضوعات علوم الرياضة من الوهميات (راجع « النجاة » طبع مصر ص ٩٨) كذلك صرح السهروردي في كتابه « المطارحات » ان مباحثها تبنى على الامور الموهومة (راجع « شرح حكمة الاشراق » طبع طهران ص ٣٥)

حقيقية ولا جوهر فرد حقيقي ينطبق عليهما ما عند تلك العلوم من الحدود لها . ان التصورات والتصديقات ، والجزئيات والكليات كلها خيالية فالقياس المنطقي من باب الاولى خيالي ، والمادة والعقل خياليان . والجوهر الفرد الحي Monad الذي أثير حولهُ في الفلسفة نقاش كثير من نوع خيالي أيضاً . وحق الملوك الالهي خيالي وحرب الجميع ضد الجميع التي أطنب هابز فيها الكلام خيالية . «والمجرد» الذي يعتبر أعلى الافكار في الفلسفة من نوع خيالي والقيمة والغاية كذلك خياليتان . واللامتناهي والمتناهي في الصغر من نوع خيالي . وجميع النسب المتوسطة ، والأمثلة والرموز خيالية . جميع المقولات ، والتصورات مثل الواجب والالوهية كذلك خيالية . هكذا يشرح لنا فاي هنجر ان جميع العلوم الانسانية متأثرة بمعمول كأن أي الخيال . وهو يقول ان تلك الآثار أو بلفظ آخر تلك الفروض أخطاء ارتكبت عمداً للاغراض العملية . وهنا نرى ان فاي هنجر وافق المذهب العملي النفعي (براجماتزم) . ولكنهُ لا يلبث أن يشذ عنهُ حين يقدّم في فلسفته فكرة جديدة (١) هي فكرة الحقيقة المزدوجة التي سنخوض فيها بعد

مما لا يحتاج الى بيان انهُ لو عاش ياجنا والكيا في العصر الحاضر لقدّم لنا هو أيضاً مجموعة الأزهار المتنوعة التي تفتحت على دوحة العلم الانساني في خمسة وعشرين قرناً لاستشهاد فلسفته الكأنية كما قدم فاي هنجر . على اننا نجده حصر مجهوده في قشع الغمام عن العلاقة بين النفس والعين في العمليات النفسية المختلفة بمقتضى الزمان والمكان . فهو يفيض في فلسفته ان الحقيقي الوحيد هو الوجود النفسي ، وأما الوجود العيني فمن نوع خيالي . وهنا نجد فرقاً ذا شأن بين فلسفة ياجنا والكيا الكأنية وفلسفة فاي هنجر الكأنية. فان فلسفة الاخير ارتجافية أو حسّية على حين فلسفة الاول آتمانية

ثم إن فلسفة فاي هنجر التي وضعت في سنة ١٨٧٦ ميلادية ونشرت أول مرة سنة ١٩١١ ميلادية ، ان أتيح لها ما حاولت وتيسر لها مرادها في أندية العلم والفلسفة بخاصة في المانيا ، لم تخلُ من سبل المؤاخذة ولا نجت من مطاعن النقد . فقد عجموا عودها وقلبوها بطناً لظهر وسألوا صاحبها : انهُ اذا أصبحت جميع الأمور الواقعية خيالية فماذا بقي (٢) ؟ فرد عليهم فاي هنجر : ان هناك وجودين يمكن ان يقال فيهما اننا نتأكد حقيقتهما وهما : فيضان الاحساس وقانون المماثلة والمخالفة

وهذا الرد وان قدم فكرةً جديدةً — فكرة الحقيقة المزدوجة — لايخلو من مراجعة

---

(١) Robinson: Anthology of Recent Philosophy p. 595

(٢) راجع نقد الاستاذ شلر الانكليزي في مجلة :
Mind (New Series) vol. XXI. p. 96-100

نظر . فان علم النفس يقرر ان الاحساس المجرد خيال محض [1] فاذا قال لنا فاي هنجر ان فيضان الاحساس هو الحقيقة القصوى فإذا يمنعنا لو قلنا لهُ ان «الفيضان» و« الاحساس» كلاهما خيال

كذلك كان تطبيقه لفلسفته على علم المنطق موضع نظر عند العلماء . فقد صرّح الفيلسوف الالماني والبطل العالمي في لعب الشطرنج الدكتور امانويل لاسكر في كتابه « الثقافة في خطر » انه تجاوز في تطبيقه هذا حده فان التصور يمكن أن يستخدم لمعمول كأن أو الخيال ولكن علمه ووجوده ليسا من معمول كأن أو الخيال . فالدائرة البيضاوية في ذاتها ليست معمول كأن . أما الدائرة البيضاوية التي تدور عليها الارض حول الشمس معمول كأن [2]

حين ننعم النظر نجد ان لفكرة الحقيقة المزدوجة شأناً كبيراً في الفلسفة الكأنية . فالحقيقة المزدوجة عند فاي هنجر كما ذكرها بشيء من التناقض في ترجمة حياته ، هي عالم الاحساس وعالم المادة وهي فكرة لم يرتح لها اصحاب المذهب العملي النفعي (براجماتزم) فناقشوه فيها أشد النقاش لانهم يعتقدون ان جميع الحقائق صنف من الاغلاط وجميع الاغلاط صنف من الحقائق . لان الحقيقة عندهم هي الغلطة الناجحة والغلطة هي الحقيقة الفاشلة .لذلك لا وجود عندهم لثنائية الحقيقة

كذلك كانت فانهُ اعتقد في حقيقة عالمين : عالم التصورات العقلية البحتة Noumena وعالم التصورات المبنية على الحواس Phenomena ونشر بذور الفلسفة الكأنية في مصنفاته وفلسفته التقطها فاي هنجر

اما ياجنا والكيا فقسم الحقيقة قسمين : قسم أعلى وقسم ادنى . فالأعلى هو عالم التجارب الآتمانية الذي سماه شنكرا « وديا » والادنى هو عالم التجارب الانسانية الذي سماه شنكرا « اوديا » . وعليه ففكرة كانت اقرب من فكرة ياجنا والكيا . غير ان ياجنا والكيا اعلن ان حقيقة عالم « أوديا » حقيقة كأنية اي خيالية . واما حقيقة عالم « وديا » فحقيقية ، لان الآتمان عليم خالد مصدر جميع الكائنات وأصل جميع التجارب

قد رأيت مما سبق ان اساس فلسفة « كأن » لفاي هنجر ارجافي أو حسي فهي واهية الاسباب ضعيفة القواعد على حين أساس فلسفة « كأن » لياجنا والكيا صخرة الآتمان الخالد فهي ثابتة الدعائم مشيدة الأواخي . كلاهما فلسفة « كأن » لذلك يتشابهان ، بيد أن الفرق الأساسي بينهما ذو شأن خطير

W. James : Text-Book of Psychology p. 13 (١)

Die Kultur : Ingefahr Non Dr. E. Laskar p. 14 (٢)

التعريف والتنقيب

نستحدث هذا الباب ونتبسط فيه إرادة أن نتدبر ما يتصل بقضايا الفكر وما يدخل في شؤون الذوق ، فنجريه إلى غايتين : احداهما مراجعة بعض ما يخرج في العلم والأدب والفن كتابةً أو أداء ، والأخرى نشر ما انطوى من الضنائن المخطوطة أو المهملة . ومقصدنا ن يصبح هذا الباب مرجعاً للمستطلع السائل ومعرضاً للمستبصر الراكن . هذا ويشترك في إنشاء الباب نفر من أهل النظر وأعداء الهوى

بشر فارس

﴿ ثلاثة رجال وامرأة ﴾ بقلم ابرهيم عبد القادر المازني

١٣½×٢٠ ، ١٦١ ص ، مكتبة مصر ومطبعتها ، القاهرة ١٩٤٣ (١)

تفرّد الأستاذ المازني في معالجة القصص بطابع متميز . ومن ظواهر هذا الطابع طواعية البيان . فأنت إذ تمضي في القراءة تشعر بأن الكاتب غير مجهد نفسه في تضيد لفظ أو تركيب عبارة . وانما هو فيض يجري عذوبة وسلاسة . وكذلك تلمح في السياق أشتاتاً من الكلمات يحسن الكاتب استعمالها في مواقع جديدة تملأك روعة وتشهد بذوق رائق . وفي تضاعيف الاسلوب روح من الدعابة الحلوة تنطوي على لون من التهكم المهذّب والسخرية اللّبقة . وهذه الروح تذهب في نقد الحياة وتكشف الستار عن مآسيها ، دون أن تشقّ الجروح أو أو تستذرف الدموع

وقصص المازني ، على وجه عام ، زاخرة بالشخصيات الفذّة . وهو يصورها حيّة نابضة بريشة فنّان ماهر ، ويخرجها محببة يأنس الى عشرتها القارىء فيحسّ انهُ يخالطها ويطارحها الحديث بلا كلفة ولا وحشة . ولا يُغفل كاتبنا حين يرسم شخصياته أن يسترسل في عرض الخواطر التي تثير الفكر

وقد اجتمعت هذه المزايا مكتملة في كتاب الاستاذ المازني الجديد الذي أخرجتهُ « لجنة النشر للجامعيين » وأعني بهِ « ثلاثة رجال وامرأة » . وهو قصة قائمة على التحليل الدقيق لجملة من الشخصيات الطريفة التي لها بالحياة الانسانية والنفس البشرية — دون التصاق بلونٍ محليّ ساطع — أوثق الوشائج والصلات

ومن الجمع بين هذه الشخصيات يتوضح موضوع القصة وما يقصد اليه مؤلفها . فالبادي للقارىء أن هذه القصة ليست ظاهرة الحبكة الروائية التي ألفها في مقروءاته من القصص الناهجة منهج الاتّباعيين . ولكن الاستاذ المازني يضع قصته تلك على أسلوب مستحدث من القصص الفنيّ لاحتْ بواكيره في الأدب الغربيّ منذ عهد قريب ، ولم يغزُ بعد أدبنا العربي كل الغزو على نحو غيره من مذاهب القصص . فللأستاذ المازني بهذه القصة مزية تقريب ذلك النمط الجديد الذي يقوم على عرض الشخصيات وتحليلها أبعد تحليل ، وبث الخوالج النفسية ، والتعبير عن شتى النزعات الانسانية ، ولا يعنيه الموضوع المحبوك في قالبه الروائي

(١) رتبت أسامي الكتب على حروف الهجاء

الأصيل أكثر مما يعنيه تصوير الشخصيات وبسط الخواطر والآراء الجديرة بالنظر والتفهم . فالمازني في كتابه الجديد من الروّاد المقدّمين ، يطرق مذهباً من مذاهب القصص لم ينتهجهُ إلاّ الأقلون من أدبائنا المحدَّثين

محمود تيمور

« الصدّيقة بنت الصدّيق » بقلم عباس محمود العقاد

١٤×١٩ ، ١٤٩ ص ، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ، ١٩٤٣

إن المؤلف يمهر في تنـاول الجزء . فهو مفصّـل بصير ، وكـذلك كان يوم كتب في « عبقرية محمد » . واني لأردد هنا ما قلته في ذلك الكتاب [1] . والقول انه كان في الحسبان ان يعدل المؤلف عن التحليل الى التركيب ، فيسوق سيرة الصديقة بحيث تشع من جنباتها أنوار الفضل ، كما يصنع الكتاب الافرنج ، اذ يعرضون لسير العظماء ، فعلى هذا النحو ألـف E. Ludwig و S. Zweig و A. Maurois وأضرابهم . ومما ينعطف اليه المفصل المجزىء أن يضع حقيقة من حقائق النفس البشرية ثم يُجري اليها أعمال البطل أو البطلة (الأنوثة ، والغيرة ، مثلاً : ص ٣٣ ، ٤١) على حين انه في طريقة التركيب يشرق مثل تلك الحقيقة من خلال العزمات والانفعالات والحركات ، ولا رسمَ لجريان السرد

***

كنتُ كتبتُ في « عبقرية محمد » : « أن المؤلف ولج الموضوع من باب مستجَـدّ ، وهو باب نفسيّـة النبي العربي ، فأراد بما كتب ان ينفذ الى روح النبي فيستشف لطائفها على اختلاف ألوانها » . وها هو ذا يطرق الباب عينه في الـكتاب الذي بين يديّ وموضوعه سيرة السيدة عائشة . ومن محاسن هذه الطريقة ان المترجَـم مهما يعظم ويخطر ينزِّلْ منزلة الانسان . فالسيدة عائشة ، على فضلها ، أنثى تامة الأنوثة : تغار وتفرط في الغيرة حتى إنها لتدبّ بين احدى ضرائرها والرسول ابتغاء الاستئثار به (ص ٣٣) ، ومن ذلك أنها ذات حدّة طبيعةً (١٣١) ، وانها ظلت تحمل الحقد لمن نصح للرسول أن يطلقها (١٣٢) ، وأنها مالت الى ذوي قرباها في أمر الخلافة (١٣٣)

تلك مزية في الانشاء الذي يتناول موضوعات قد تحرف المنشىء الى التمجيد والتفخيم إطلاقاً ، بدلاً من اختبار كنه النفس الفياضة بالاحساسات البشرية الصادقة الصافية

---

(١) المقتطف ، يونيه ١٩٤٢

غير ان هذا الضرب من الانشاء ربما كان مساقةً الى حديث يغلب عليه منطق الدفاع ، وذلك ما انجذب اليه المؤلف لما عرض لقصة الافك ، فاجتهد في الجدَل — وهو لصناعته حاذق — فأيد مذهبه بشواهد العقول ونصوص المنقول . وربما لجّ في استخراج هذه ، وأبعد في استنباط تلك ، حتى انه يمسي في مدارج المجاذبة والمدافعة مِدرهاً لا باحثاً :

من ذلك انهُ أوّل شكوى امرأة صفوان بن المعطل — وهو بطل حديث الافك عند المرجفين — تأويلاً متزيّداً فيه ، ثم استند لأجل دعمه الى خبر لا ندري ما يكون . وتفصيل ذلك ان المؤلف نقل أن امرأة صفوان « شكيته الى النبي لأنه ينام ولا يصلي الصبح قبل طلوع الشمس » ثم زاد « وقد يحسن هنا أن نوجه شكوى امرأة صفوان الى بعض معانيها . كأنْ أرادت بثقل النوم كناية عن امر آخر لا تفصح عنه . إذ قيل عن صفوان هذا انه كان حصوراً لا يأتي النساء ... » (ص ٩٦)

والذي عندي أنْ ليس وراء شكوى امرأة صفوان تعريض ، وليست حروف الشكوى بفارّةٍ نحو الكناية ، ولو كانت فارّة لكان النبي الزكن فطن للامر فما قال لصفوان على جهة التصريح : « اذا استيقظت فصلِّ » إذ عقّب صفوان على شكوى زوجه يعتذر قال : « اني امرؤ ثقيل النوم لا أستيقظ حتى تطلع الشمس » [١] . وأما قصة « الحصر » فليست بالحجة القاطعة . فالذي في سيرة ابن هشام [٢] انَّ عائشة انما كانت تقول لقد سئل عن ابن المعطل فوجدوه رجلاً حصوراً ما يأتي النساء » . وفي « السيرة الحلبية » [٣] انهُ ذكر ذلك من غير إسناد . وأما صاحب « أسد الغابة »[٤] وهو جمّاع وثيق فلم يروِ شيئاً من هذا . ثم ان « الحصور » لا يأتي النساء إما لعفّةٍ فيهِ حابسةٍ وإما لعُنّة ، والعلة الاولى هي الظاهرة في معنى « الحصور » الذي ورد في القرآن (سورة آل عمران) [٥] . ثم أضف الى هذا الاستدلال الخبري واللغوي أن الذي ذُكر عن صفوان لو كان أمراً مقطوعاً بهِ مسلّماً ما انبث حديث الافك

ومن هذا الباب ان المؤلف يدفع قصة الافك بقوله: «على الذي يقبل وشاية كتلك الوشاية الواهية أن يروض عقله على تصديق أمور كثيرة لا موجب لتصديقها . . . عليه أن يصدق

(١) « السيرة الحلبية» ط القاهرة ١٢٨٠ ج ٣ ص ٤١ (٢) ط القاهرة ١٣٤٦ ج ٢ ص ٢٠٩
(٣) ج ٣ ص ٥١ (٤) ط القاهرة ١٢٨٠ ج ٣ ص ٢٦ ي(= مايليها)
(٥) « مفردات الراغب » مصر ١٣٢٤ ، ص ١١٩ — ظ أيضاً « تفسير البيضاوي » القاهرة ١٣٤٤ ص ٩٧ تحت

أن صفوان بن المعطل كان رجلاً لا يؤمن بالنبي ولا بأحكام الاسلام ، وأن يصدق ان السيدة عائشة كانت — وهي زوج النبي — لا تؤمن بهِ ولا تعمل بدينه » (ص ١٠٢) . والذي أراه ان هـذا الاستدلال مجتلَب بل محضٌ ذاتي ، وذلك لأننا نعلم من طريق المشاهدة والملاحظة أن البشر يتفق لهم أن يزلّوا وان كانوا من أهل التصديق والايمان ، ولولا هذا ما احتاجوا الى ربٍّ « توّاب » . وان أنت جاريت المؤلف في منطقه قلتَ : « كيف تؤمن عائشة بالنبي وتنزل عند أحكام الاسلام ثم تساهم في صوغ قصة المغافير (ص ٣٣) لتستدرج الرسول الى قطع احدى زوجاته ؟ ليستفسر القارىء النساءَ عن كل ذلك ، فانهنَّ على علم كثير

وكيفما كانت الحال فان قصة الافك لا تحتاج الى مثل ذلك الاجتهاد . وحسب الباحث المحدَث أن يقول ماقاله المؤلف بحقّ في أول كلامه على تلك القصة : « تلك شبهة لا تكفي للشك في امرأة من عامة المسلمين . . . إذ لو كانت كل امرأة تتأخر في الطريق تؤخـذ بالتهمة في دينها وعِرضها لكانت التهم في الأعراض أهون شيء يخطر على بال » . وللمؤلف أن يردف هذا بما يسميه علماء التاريخ « النقد الداخلي » critique interne ومداره تحري الصحيح من المرويّ رغبةً في تبيين أخلاق عائشـة وصفوان . فسيرة الصدّيقة في أيام النبي وبعده تبدو فوق الشبهة [1] . وأما سيرة صفوان فنزيهـة بشهادة الرسول نفسه إذ قال : « وقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلاّ خيراً وما كان يدخل على أهلي إلاّ معي » [2]

على أن المؤلف لم يُبعد هذا الابعاد إلا في الندرة [3] . ولهُ فصل حسن في « السياسة العامة » التي انتهجتها الصـديقة، ولعلهُ خير ما في الـكتاب ، ولعلّ السبب في ذلك ممارسة المؤلف لفن السياسة في حرفة الصحافة . والفصل يدورَ على واقعات صحيحة عُللت وبيّـنت في دقة ويُسر

ثم انني لا أشك في أن المؤلف ما أراد أن يولج كتابه في جانب العـلم الصّـرف لذلك ليس لنا أن نطالبه بذكر المصادر . غير أن القارىء المستطلع كان يود لو أثبت المؤلف طائفة من المراجع، إذ هناك أخبار وأحاديث قد يحلو للقـارىء أن يذهب الى مظانّـها مستفيداً أو مستثبتاً ، ولا سيما انه بدا للمؤلف أحياناً أن يكثر النقل (ص ٤٠ ، ٦٣ ، ٩٥

---

(١) بذلك استمسك المستشرق Muir ص ٩٢ (٢) البخاري، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء . . وفي « أسد الغابة » ج ٣ ص ٢٧ : « منه » بدلا من « عليه » (٣) أبعد أيضاً في ص ٢٥، فالذي جرى هناك امر طبيعي : الاب العربي يؤدب ابنته اكراماً لزوجها وارضاء، فيواسيها الزوج مكتفياً . هذا وفي أعمال النبي منفسح للامثلة الجلية على رأفته بأهله

مثلاً) . من ذلك ان المؤلف قال في بطل قصة الافك : « انهُ ما كشف عن كتف (بالتاء) امرأةٍ قط » ص ٩٦ . والذي في « السيرة الحلبية » [1] عن البخاري « انه ما كشف كنيف امرأة قط أي سترها لأن الكنيف الساتر » . والذي قرأته في صحيح البخاري نفسه[2] عن عائشة أيضاً : « والله ان الرجل الذي قيل له ما قيل (تعني صفوان) ليقول : سبحان الله فوالذي نفسي بيده ما كشفت من كنف انثى قط » . وفي « نهاية » ابن الاثير[3] : « (وفي حديث الافك) ما كشفت من كنف أنثى »

هذا وربما ساق المؤلفُ الخبر الواحد او الحديث الواحد في لفظين مختلفين (ص ٢٥ ، ٣٣ — ٥٣ ، ٧١ — ٦٧ ، ١٠٠) . فلِمَ لا يراسله القارىء في تنقله ؟ بل ينبغي للقارىء ان يراسله في مثل تحقيق سنّ عائشة ، ولا سيما ان المتواتر والذي عليه الجمهور أن عائشة تزوجها النبي وهي بنت ست سنين وأُدخلت عليه وهي بنت تسع [4] . فانك لترى المؤلف يرجح أن عائشة ولدت في السنة الحادية عشرة او الثانية عشرة قبل الهجرة ، « فتكون قد بلغت الرابعة عشرة من عمرها او قاربتها يوم بنى بهـا الرسول » (ص ٤٥) ثم تراه يروي حديثاً لها مستشهداً بلفظه على اسلوبها المرسل السهل ، وحروف هذا الحديث : «تزوجني رسول الله وأنا ابنة ست سنين...فأسلمتني اليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين » (ص ٥٧ ي) ثم تراه يسوق شهادة جاريتها بَريرة وهي تصفها في«السنوات الأولى من زواجها » فتقول : « كانت جارية صغيرة اعجن العجين وآمرها ان تحفظـه فتنام عنه فتأتي الشـاة فتأكله » (ص ٦٧) . يسوق المؤلف هذه الشهادة ليدل على عبث عائشة البريء ثم يوردها ثانية (ص ١٠٠) ، ليستظهر بها على القائلين بالافك الذي جرى حديثه في غزوة بني المصطلق وتاريخها يترجح بين السنة الرابعة والسادسة من الهجرة

فاذا جمعنا كل ذلك بعضه الى بعض خرج الينا هذا :

١ — يستشهد المؤلف بلفظ حديث لعائشة ويسقط مدلوله في آنٍ

٢ — تنام عائشة عن العجين ، فتأكله الشاة ، وهي ابنة ست عشرة سنة او اكثر (١٢ قبل الهجرة وهي سنة ولادتها بحسب المؤلف + ٤ بعد الهجرة وهي سنة الغزوة على ادنى تقدير — أو : ١٤ أي سنها يوم زواجها بحسب المؤلف +« السنوات الاولى من زواجها»

(١) ج ٣ ص ٥١ (٢) كتاب المغازي ، باب حديث الافك (٣) مادة ك ن ف (٤) عن البخاري ومسلم وابي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارمي وابن حنبل وابن سعد وغيرهم . واطلب المظان في « مفتاح كنوز السنة » وضعه المستشرق فنسنك وترجمه محمد فؤاد عبد الباقي ، القاهرة ١٩٣٤ ص ٣٢٠

على حدّ تعبيره . كيف يكون ذلك ؟ بل كيف تكون عائشة « جارية صغيرة » ، على نحو ما وصفتها بريرة ، وهي ابنة ست عشرة او فوق ذلك ، والفتيات العربيات كنَّ مبكرات النضج ولا يزلنَ كذلك ؟

ومن المسلَّم به ان تباعد الروايات في كتب السلف مجلبة للحيرة . ولكن المؤلف يختار ويرجح كما قد رأيتَ . فيحسن به الثبات على رأي يراه ، فلا يكتب في ص ١٠٨ « عاشت السيدة عائشة بعد النبي ستًّا وأربعين » ثم يكتب بعد صفحتين اثنتين « فعاشت في صحبته زهاء عشر سنين وعاشت في ذكراه زهاء خمسين سنة » ، فهاهنا انفلات من ذلك الجزم . ومن هذا الضرب قوله في ص ٧٨ « فعائشة البكر قد ماتَ عنها عليه السلام وهي دون العشرين » [1] ثم كأنما ريب طارئٌ داخله فيقول في ص ١١٠ « كانت عائشة في اوائل العقد الثالث على اكبر تقدير عند وفاته » . فالظاهر أن المؤلف يُجري الخبر أو الحديث الواحد على حسب انعطاف الغاية التي يقصد اليها في هذا الفصل أو ذاك ، والنية سليمة

***

بقي أن المؤلف حَسُن له ان يعمل للكتاب مقدمة وخاتمة . فالمقدمة في المرأة العربية قبل الاسلام ، والخاتمة في حقوق المرأة . وفيهما من غزارة المادّة ما يفتق أبواباً للنقاش والاستدراك . فهل أدعو المؤلف الى مراجعة أمر الوأد في الجاهلية ؟ إذ له أوجه غير التي ذكرها ، يصيبها في كتاب « العرض عند عرب الجاهلية » (باريس ١٩٣٢ ص ١٢٤ ي) [2] .

وفي هذا الكتاب أيضاً ما يدل على أن العرب ما كانت تجري في شؤونها على « الارتجال » — على ما يذهب اليه المؤلف في المقدمة — بل كانت لها أحكام وسنن منتظمة ، غير مسطَّرة ، لها قوة الفرض ومن خلفها جزاء معنوي . ولتجدنّ جملة ذلك في مادة ع رض من ذيل

---

(١) على هذا الحساب الجديد تكون عائشة قد أدخلت على النبي وهي دون العشرة — أضف هذا الى ما ورد في متن الصفحة السابقة عند الكلام على تحقيق سن عائشة

(٢) قال المؤلف « وربما ظن بعضهم ان الوأد كله من مخافة العار . . . فالعرب وجد فيهم من يئد البنات اشفاقاً من النفقة » ص ٧ . فان ظن أحد هذا (!) فانما الاقدمون من مفسرين وأخباريين يذكرون ما ينبهنا المؤلف اليه ، ولا حاجة بي الى سرد المراجع ، فالامر مشهور . حتى المستشرقون وعلماء الاجتماع ذكروا ذلك ، مثلاً :

Robertson Smith, Kinship and Marriage in early Arabia, 2d edition, London 1903, p. 291 . ثم Westermarck, L'origine et le Développement des Idées Morales, trad. fr., Paris 1928-9, I, 414

دائرة المعارف الاسلامية الخارجة في لَيدِن بثلاث لغات اوربية

واما الخاتمة فقد ذكّرتنا بخطبة كان القاها شبلي شميل ونشرتها المقتطف سنة ١٨٨٦[1]. ففيها ايضاً ان الفرق بين الرجل والمرأة من اصل الفطرة والطبيعة ، وفيها (ص ٩٧) « أن الرجل والمرأة إن تجاريا فالسابق هو ، وهل يبلغ الظالع شأو الضليع » او كما ورد في خاتمة كتاب العقاد (ص ١٤١) « ولكن المرأة لا تبلغ شأو الرجل في هذه الصناعات اذا وقعت المزاحمة بينهما في إحداها ». حتى مَثَل تبريز الرجل على المرأة في « الطبخ » او « الطهي » نُصيبه في الكتابين جميعاً (شبلي ، ص١٠٣ ، العقاد ، ص ١٤١)

على انّ هذا الرأي الذي رآه فريق مشهورون من فلاسفة الغرب ، مِثل شوپنهاور ونيتشه ، ان صدق سنة ١٨٨٦ فهو محل مراجعة اليوم وقد أفلتت المرأة من الوثاق الذي شددناها به دهراً ودهرا . ولقد كُتِب في القضية النسوية الشيء الكثير ودار ما دار. غير أني احبّ ان اذكّر المؤلف ان النساء شاركنَ الرجال في فن الغناء بالشام وبالعراق وبالاندلس ، وبهرْنَهم احيانا ، وكثيراً ما طارحنهم وخرَّجنهم ، وحسبهنَّ ان الإمام اسحاق بن ابراهيم الموصلي « مكث سبع سنين يختلف الى عاتكة بنت شهدة في كل يوم فتضاربه ضرباً أو ضربين »[2] و « كانت أحذق الناس بالغنــاء »[3] . ثم اني أحب أن أذكره — فوق هذا — أن Isadora Duncan الاميركية ابتدعت في المائة التي نحن فيها ما لم يخطر ببـال رقـاص . وعلى هذا قِس ما جاءت بهِ في هذا العهـد K. Mansfield و V. Woolf في القصص الانجليزي ثم M. Laurencin و S. Valadon في التصوير الفرنسي

ذلك طَرف من باب الفن الخالص ، وأما باب الصناعة فجُلّ الطنافس الايرانية والتركية والأرمنية — وما أحلاها ! — من نسج المرأة الصنّاع . وأما التمريض مثلاً فما إخال الرجل يجرؤ على أن يطاول المرأة فيــه ، الى غير ذلك من الأدلة التي يلمسها اللُّحّـاظ observer في الغرب على وجه التخصيص . لذلك لا يحسن اطلاق الحكم وجزمه في موضوع دقتــه كهذه . فالمستحسن بل المرغوب فيه أن يتحرز المؤلف هنا فيستنطق التحريات والاحصاءات ، ويوازن بعضها ببعض ، على اختلاف حركات الحس والارادة والذهن ، وإن كان اكثر الحق بين يديهِ

(١) انظر ايضاً الجزء الثاني من « مجموعة شبلي شميل » مصر ١٩٠٨ ، واليه تَرجع الصفحات هنا

(٢) الاغاني طـ بولاق ج ٦ ص ٥٧ . (٣) عن ابن خرداذبه : الاغاني ج ٢١ ص ٢٢٦

في النهاية . ذلك نمط علماء النفس الذين يتناولون مسألة الفرق بين الرجل والمرأة [1]

وللمؤلف أحكام أخرى قاطعة شاملة قائمة على آراء نسميها في صناعة الفلسفة « قبلية » a priori[2]. فعلم الاجتماع الحديث يخبرنا — ونحن في ص ١٤٠ — بأن هناك أمماً تظفر فيها المرأة بما لا يدور في أذهان بعضهم . ولك أن تراجع لأجل ذلك حتى المرحوم شبلي شميل (المجموعة المذكورة) وأن تراجع خاصة Westermarck المذكور في حاشية سابقة ونظراءه من علماء الاجتماع [3]

***

وأما أسلوب الكتاب فعلى انسياق بل اندفاق ، في حسن تصرف ، ولطف بيان قد انسحبت في ثناياه برفقٍ مسحة من البلاغة التي في كتب السلف المنقول عنها ، كل ذلك مع هدأة الثابت الذي لا يشغله الطفر. والأداء لا قلق فيه ، والعبارة سليمة ، وان وقفتني أشياء طفيفة معدودة مما يجري ، فيما أعلم ، على أقلام المولدين (وكلنا على تلك الحال) . ودونك بعضها :

ص ٢٦ — « آداب العرب النسائية » . فقد نبّه سيبويه على أن النسبة الى نساء « نسوي » (« الكتاب » ط بولاق ١٣١٦ ج ٢ ص ٨٩)

ص ٣٥ ، ٨٢ — « حرمها من كذا ، حرمانها من كذا » . والمدوّن : « حرمت زيداً كذا أحرمه من باب ضرب ، يتعدى الى مفعولين » عن « المصباح المنير » مادة ح ر م ، ثم وازن غيره به

ص ٦٩ — « النسوة الاحدى عشر اللواتي » ولعل فرار هاء « عشر » من فلتات الطبع

ص ٨٨ — « اذا هي (الاسرار) تعلقت بعظماء الرجال وعظماء النساء » . فلولا « عظماء » الثانية لسلم النطق واستأنست العبارة بالآية « ... وكانت من القانتين »

---

(١) مثلا : Campbell, Differences in the nervous organisation of man and woman, London 1891

وفي هذا الكتاب ان البلاهة في الرجال اكثر منها في النساء . وانك لتصيب جلة ذلك في :
Heymans, La Psychologie des Femmes, Paris 1925

(٢) اطلب في « مباحث عربية » القاهرة ١٩٣٩ ص ١١٠ معنى « الرأي القبلي »

(٣) حتى في بلد اسلامي ، في مملكة محمد خالد أوزبك بالقوقاز (عن رحلة ابن بطوطة ، ط التقدم ، مصر ١٣٢٢ ج ١ ص ٢١١ ، ٢١٢) « ان النساء أعلى شأناً من الرجال ... وربما كان مع المرأة زوجها فيظنه من يراه بعض خدامها »

ص ٩٣ — « الاختلاف يتراوح بين السنة الرابعة والسنة السادسة » . فالتراوح خلاف هذا ، كما بيّن من قبل الامام اليازجي ، واليوم الكرملي في مجلة المجمع العلمي العربي ، والعوامري في مجلة مجمع اللغة العربية الملكي . وانما غرض المؤلف « يترجح » كما سطّرتُ فوق ، أو يتذبذب ، أو نحو ذلك

ص ١١٧ — « تنكر عائشة التزيد من الثراء على الصحابة » . والمذكور في دواوين اللغة « التزيد في الشيء » أي تكلف الزيادة فيه

وبعدُ فلعلّ بين يدي الاستاذ العقاد ما لا يمتدّ اليه اطلاعي

بشر فارس

﴿ قنابل ﴾ مسلاة مصرية في ثلاثة فصول ، بقلم محمود تيمور .
١٢ × ١٦½ ، ١٨٩ ص ، لجنة النشر للجامعيين ، القاهرة ١٩٤٣

منذ عامين تقريباً نشر الاستاذ محمود تيمور مسرحيته « المخبأ رقم ١٣ » وقد عالج فيها النفس الانسانية وكيف يقوى فيها الشعور الديني عند وقوع الخطر واشتداد الكرب فتتمسك بأهداب الفضيلة حتى اذا ما بدأت ظلمة الكروب تنقشع بدأ الشعور الديني والتظاهر الخلقي في التواري شيئاً فشيئاً

واليوم ينشر مسرحية جديدة هي « قنابل » تمتّ الى مسرحيته السابقة بصلات منها المعين الذي استقى منهُ المؤلف مادة المسرحيتين ، وهو الحرب وويلاتها وما مرّ بهذا البلد فيها من فترة كانت أشد الفترات قتاماً وحيرةً وتشاؤماً وفزعا ، الى جانب صلة الوحدة في فنّ تيمور القصصي من اطلاع على الروح المصرية في حالة الفرح أو الحزن والاضطراب أو الاستقرار ، ومن اهتمام بالأشياء الشاذة في المحيط الذي ينقل منهُ مسرحيته ، ومن ادراك للأحاسيس التي تجول عادة في نفوس الناس وقد تتفق أو تختلف في نفس واحدة تبعاً لظروفها وملابساتها ، ثم صلة أخيرة هي الروح الفكه الذي أضفاه المؤلف عليهما

ولكنّ هناك وجوهاً من الاختلاف بين المسرحيتين في الفكرة والجوّ وفي لغة المسرحية . فهو يطلعنا في المسرحية الجديدة على حيرة النفس الانسانية بين غريزتها في حب الحياة وما فرضته عليها عقيدتها وايمانها بالقدر فرضيت أن تتظاهر وراء العقيدة عما تفزع منهُ الغريزة ، ولكن هذه غلاّبة ، فتلجأ الى دعاوي أخرى تستر بها فزعها . فنرى أبطال المسرحية يفرّون من المدينة ، عند اشتداد الغارات الى الريف ، بدعوى الحرص على اصلاح

الريف والاشراف على الضياع حتى اذا وجدوا الموت الذي فروا منهُ كامناً لهم في الريف ، في حوادثه واضطراب الأمن فيه ، وفيما يتفشى من أوبئة ، عادوا الى المدينة بدعوى غير الاولى هي دعوى مشاركة الشعب فيما يقاسيه من آلام .

هذه هي فكرة المسرحية الجديدة التي عالج بها الاستاذ تيمور حالة من حالات النفس الانسانية في حيرتها بين الايمان والخوف ، وهي حيرة يتخللهـا الفتور بسبب تلك الفكرة ، ومدارها مفازع النفس مما ليس يبعث في الموضوع الحركة وفي الوجدان الوثبـة الجائشة . وأما جوّها فهو أرحب من جو مسرحيته الاولى الذي جعل حوادثها كلها تجري في مخبأ . وأما لغة المسرحية الجديدة فهي الفصحى وكانت في الاولى العامية. وقد صُـدّرت مسرحية « قنابل » بمقدمة تحليلية غزيرة كتبها الفنان الاستاذ زكي طليمات

حسن كامل الصيرفي

﴿ معجم الالفاظ الزراعية بالفرنسية والعربية ﴾ بقلم مصطفى الشهابي

١٧ × ٢٤ ، ٧٧٤ ص ، مطبعة الجمهورية السورية ، دمشق ١٩٤٣

﴿ ميزات الكتاب ﴾ ما من أحد من قراء العربية يجهل اسم الأمير الأستاذ مصطفى الشهابي فشهرته معروفة مما وشّى به المقتطف ومما بثّـهُ على صفحات مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق ، وكان جمهور أبناء مُـضَـر يتمنون أن يروا بين أيديهم هذا المعجم النفيس الذي كان يذكره كثيراً في مقالاتهِ المحبَّـرة . وقد امتاز هذا المعجم بأشياء كثيرة لا ترى في طائفة من هذه المصنَّـفات ، ونحن نسرد للقارىء بعض هذه الميزات :

احداها : انه تُـرَى جماعات جماعات من الألفاظ المعربة تعريباً لا أمت فيه ولا عوج ويردفها بما يبينها لمن لا يهتدي الى معناها . فيقول مثلاً :

Abélie (آبـلـية بالمد وكسر الباء) (سميت باسم أحـد الأطباء . جنس جنبات للتزيين ، من فصيلة الخمـانيّـات ، أصلها من الشرق الأقصى وتزرع بعض أنواعها لجمال زهرها)

Abronia رشيقة (الاسم العلمي من اليونانية بمعنى الرشاقة ، لرشاقة أزهارها . جنس زهر من فصيلة الهبّـيّـات)

(Abrus (Abre نحيلة ، أبروس (الأولى ترجمة الاسم العلمي والثانية معربة . جنس نباتات من فصيلة القطانيات ، فيه أنواع للتزيين)

A. Precatorius عصبة السوس . بِسِلّى أميركة (مترجمنان . وسماه الدكتور احمد عيسى « حب العروس ، وشثم ، وفلفل » ، على حين ان كلاً منها نبات غير هذا النبات . وسمّاه عيون الديك . قلت : لعلهُ عيون الديكة المذكور في المفردات . وهو جُنيبيَّة تستعمل جذورها كعرق السوس ، ولها بزور حمر لامعات ، على كل منها نقطة سوداء يصنعون منها عقوداً وأساور للاولاد)

فالقارىء يرى من هذا الكلام الوجز ان المؤلف كتب : بسلى كقيرلّى وهي الكتابة الفصيحة ، وكثيرون يكتبونها «بسلة» بهاء في الآخر وهو غير صحيح . وانك لتجد في هذا السفر الجليل طائفة لا تعد من مثل هذه الاسماء الحديثة الوضع ، لكن على أساس متين لا يتزعزع ، وذلك الى آخر ما دوّنهُ فيه من هذا القبيل

والمزية الثانية انهُ يحكم الوضع بما يقابل الكلمة الفرنسية احكاماً دقيقاً . فقد قال مثلاً في : Acacia Glaucophylla سنط أحوى (داحية في اليمن ، وقلت : احوى ؛ بتصرف) وقال في A. Cyanophylla سنط مزرقّ الورق (ورقه الى زرقة ، وهو صالح للتزيين وللارض اليابسة)

فانظر الى دقة الوضع في التسميتين ولم يكتف في الاول باللفظ اليماني ولم يقل في الثاني سنط أزرق لأن الازرقاق غير الزرقة ، وما أكثر من لا يميز الشيء الواحد عن الشيء الآخر

والمزية الثالثة أن المؤلف لا يدون في تأليفه إلا ما تحقق وجوده في كلام الفصحاء ، فان شك أظهر شكه بلا توقف . راجع مثلاً ما وضعهُ بازاء Acer تَرَهُ يقول : « قَيْقَب . جرْمَشَق (القيقب في اللسان والتاج : الآزاد دِرَخت بالفارسية . وهذه الكلمة تطلق على ما نعلم على Melia azedarach ، لكن القيقب أصبحت تدل اليوم على هذا الشجر ، أي على جنس Acer أما الجرمشق فلم أجدها إلا في معجم دوزي نقلاً عن كتاب ألفه لاين[1] في المصريين . قال فيه : أظن ان الجرمشق هو Erable جنس أشجار وجنبات حرجية وتزيينية من فصيلة القيقبيات) — فانظر الى هذا التحقيق ، الدقيق ، ومن الأسف أراني اليوم بعيداً عن خزانتي البغدادية . وأظن ان أول من ذكر الجرمشق هو فريتغ الألماني في معجمه العربي اللاتيني ، وأظن أيضاً ان صاحب محيط المحيط نقلها في ديوانه من دون ان يشير الى المصدر الذي اخذ عنه ، وقد أَهِمَ

(١) نطق الاسم : رلين Lane ، وكتابه : Man. and Cust. of the Mod. Egypt. (ب.ف)

ومما استحسناه كل الاستحسان في هذا الديوان الجليل كتابة « اسيتاة ، وخلاّة ، وسلفاة ، وكبريتاة » ونحو هذه الحروف بالهاء في الآخر ، وهو أول من اتبعنا في هذا الرسم وهو اللازم . وأما كتابتها بالتاء المبسوطة فغلط واضح ، لأنها اذ كتبت بالتاء ، دلت على الجمع السالم لاستية ، وخلة ، وسلفة ، وكبريت وكبريتة ، الى نظائرها . وأما المعترض على ان خلاّة مثلاً يوقف عليها بالهاء فنقول له : ان هذه الألفاظ يسكت عليها بالتاء لا بالهاء وذلك واضح من عجمة صيغتها ، وعجمة تركيبها . فقد جاء في اللسان في مادة (م ن ي) ما نصه : « وفي التنزيل العزيز : ومناة الثالثة الأخرى . والهاء للتأنيث ويسكت عليها بالتاء وهو لغة ، والنسبة اليها منوي » اه . (ومناة ، الصنم العربي الانثى لفظ يوناني لأنه كان يرمز اليها بصورة قمر ، ومعنى مناة : القمر ، بلغة الهلنيين)

***

﴿ ١٠ ما نظنه وهماً في نظرنا ﴾ أن المؤلف العلامة ذكر في معجمه اسماء كثيرة من الحيوان والطير ، والحشرات والهوام وربما استعجل في نقل بعض الاسماء من غير مراجعة بعض تآليف أرباب الفن او الاختصاصيين . فقد ذكر Putois d'Afrique ووضع بين يديه : ابن عِرس (ج : بنات عرس للذكور والاناث . وتطلق أيضاً على الحيوان المسمى Belette وهما من جنس واحد . حيوان من فصيلة السموريّات) . والمشهور عند العلماء ومذكور في أغلب المصنفات في هذا الموضوع ان ما سماه المؤلف ابن عرس هو الظَّرِبان . وهو مشهور في مَثل عربي يذكره أرباب المعاجم العربية . أما المؤلف فجعل الظربان مقابلاً لما يسميه الفرنسيون Ictomyx ووضع بإزاء Mouette ظربان اميركي . فهذا الوضع صحيح دون الذي قبله

ووقع له مثل هذه الكلم المتشابهة بالعربية وبازآئها اسماء فرنسية غير متشابهة للكلمات الآتية : Chouette, Duc, Effraie, Hibou, Moyen duc, Petit duc, Grand duc وهذه لم تذكر في محل خاص بها ، بل في مادة Duc . وفي العربية ألفاظ خاصة بكل من هذه البوم الكثير لا أتمكن من ذكرها هنا ، لأني بعيد عن كتبي ، التي هي في بغداد . ولعلي أعود الى هذا البحث ، حينما أعود الى وطني بعد حين

***

١١ ﴿ ما نتمنى ان يكون في هذا المعجم ﴾ نتمنى أولاً ان يعاد الى العربية ما كان أصله في هذه اللغة الشريفة . من ذلك : Addax . فقد وضع لها المؤلف الكلمة مهاة . وهي على الحقيقة (عَدّاء) من العدو . وهي غير موجودة في بلاد العرب بل في ديار الاندلس — على

ما أتذكر — والعداء من وضع عرب الاندلس وقيل لي انهُ موجود في جزيرة العرب

وكذلك Chamois فقدوضع لها المؤلف شَمْـواة وهي (قَموص) في العربية وقد ذكر لغويو الفرنسيين ان كلمتهم من الالمانية القديمة Qamuz (قاموتس) مع انها من العربية اذ ليس في الالمانية ما يوجه وضع اللفظ المذكور، بخلاف العربية فانها مشتقة من القماص كسحاب وغراب، وهو الوثب الذي هو من خاصية هذا الحيوان الرشيق، والكلمة من وضع عرب الاندلس أيضاً

ومن هذا القبيل ما ذكره حضرته عن المسمى Cavia Cobaya, Cochon d'Inde, Cobaye (اللفظة اللاتينية كوبايا من لغة اميركية غير معلومة . حيوان لبون من القواضم). والذي عندي ان هذا اللفظ من أصل عربي هو القبع، لانه كثير القبوع وقبوعه تحيره وهو صوته وان لم يكن شديداً كقبوع الخنزير. قال في «لسان العرب»: قبع يقبع قبعاً وقبوعاً: نخر. وقبع الخنزير ويقبع قبعاً وقباعاً كذلك» اه

ويجري هذا المجرى ما جاء في Boa: بُـوَاء (معربة. ثعبان عظيم من فصيلة الاصَلّيّـات) والذي عندي أن الكلمة من العربية من «باع يبوع: اذا جرى جرياً ليناً وتثنى وتلوى» (عن اللسان) وهذه الصفات من خاصية هذا الثعبان العظيم، كما هو معروف عنهُ، ومدوَّن في جميع التصانيف

وجاء في ترجمة Alcool «كحول . غَـوْل (لم يجز بعض اللغويين الكلمة الثانية يسمَّى سبيرتو بعامية الشاميين — اه.) وكذلك في عامية العراقيين والمصريين . والغول خطأ وان قال بهِ كثيرون اذ لم يرد في كلامهم . واما كُحُـول فصوابها كُحْـل كقفل، كما يقر بذلك لغويو الغربيين . وقد وردت بهذا المعنى عينه في قصيدة قديمة في علم الكيمياء في نسخة خطته لأحد الأقدمين، والمخطوط مخزون في الدير الكرملي في بغداد، وليس الآن في يديَّ. والجامع بين الكحل السائل والكحل المذرور هو لطافة الجوهر، سائلاً كان أم جامدا. وامثال ذلك كثيرة في العربية

ونتمنى ثانياً ان يختم كتابة الاسماء المؤنثة بالهاء لا بالألف، أزهاراً كانت الألفاظ أو مُدناً أو منسوبات الى رجال مشهورين . وسبب هذا الرسم ان الأقدمين، من علمائنا من العرب الافحاح، لما فتحوا المدن الاندلسية، أو زاروا ديار الغرب، ما كانوا يكتبون تلك الاعلام إلاَّ بهاء في الآخر . فهذا الادريسي لما زار مدن ايطالية لم يختم كتابتها إلا بالهاء . وهي كثيرة . والكتاب الخاص بتلك الاصقاع مطبوع ومنقول الى لغة اجنبية .

وقد وردت (رومة) مكتوبة بالهاء اغلب الاحايين ، ومرتين او ثلاثا بألف ، وأظن ان هذا الرسم الآخير من الناشر أو الطابع لا غير ، وإلا فانها كتبت دائماً بالهاء

والعرب الذين فتحوا ربوع الاندلس لم يكتبوا أسماء تلك المدن إلا بالهاء . وقد وضع العلامة حسن حسني عبد الوهاب باشا رسماً (خريطة) تمثل تلك الديار ، ولم يرسمها كلها إلا بالهاء ولم يسجل واحدة بألف في الطرف بل رسمها كلها بهاء في الآخر ، لأنه توخى الامانة في ما خطّط ورسم

وأما الذين يكتبون أسماء الاناث — من مدن ، ونساء ، وأزهار ، وحشرات — بالألف في الآخر ، فانهم لم يكونوا من العرب ، ولم تكن لغتهم المضريّة ، بل كانوا من أهل سورية أو من الاجانب المتعرّبين ، ممن يرسم أواخر تلك الاعلام في تلك اللغات بالف في الطرف . ابحث في معاجم العرب من لغوية وبلدانية ، تَرهم يكتبون سورية بالهاء ، وكذلك أنطاكية وقسطنطينية وانبابة واشباهها ، بخلاف ما يفعلهُ اليوم بعضهم

والأمير الأستاذ صاحب المعجم لم يَسِر في هذه الطريق على وجه واحد — ويا للاسف ! — بل جرى مرة على أسلوب السريانيين ، ومرة على طريقة العرب وربما جمع بين الاثنتين ، فانك تجده يرسم Dalbergia دلبرجية ، ودفنة Daphne وداتورة Datura Stramonium الخ متبعاً في هذا الرسم منهج السلف الفصيح

وكتب غداسيا ، وغردونيا ، وغردينيا ، وغريفيليا .. سعياً وراء السريانيين والمستعربين . وخطّ درْوينيا أو دروينيّة ، هكذا بالوجهين للفرنسية Darwinia وقال : « منسوبة الى دروين العالم المواليديّ Naturaliste الانكليزي المشهور . جنس جنبات للتزيين من فصيلة الآسيان » . قلنا : فان كانت هذه الجنبة منسوبة الى دَرْوِن (وكتابتها بدون ياء قبل النون هي أفضل من كتابتها بالياء ، كما كان يفعل المرحوم الدكتور يعقوب صروف ، هي أقرب الى لفظها الانكليزي) . فمن العبث أن تكتب بالألف ، كما ان من العبث أن تكتب سورية ، وانطاكية وقسطنطينية الخ بألف في الآخر . وورود ألفاظ مكتوبة بوجهين قليلة جدّاً

ونتمنى ثالثاً أن يهجر بتاتاً طريقة من يجيز كتابة الصفة المجموعة بصورة مفردة ، وأريد أن أشير الى من يجيز قول من يذهب الى استعمال : نساء سمراء ورجال سمراء . . فهذا لم ينطق بهِ عربي . فقد قال المؤلف مثلاً في Chouette بومة صمماء (أنواع من البوم لا تنازع لها ولذا نعتت بأنها صمماء) . والصواب الذي لا ريب بهِ ، ولا شك ولا توقف :

بأنها « صُمْع » . ومثل هذا الاستعمال قليل جدًّا ، لأن طبيعة الأمير عربية محضة ، وسليقته تنبذ هذه الهنيهات من غير أن يتوخى دفعها بطريقة نحوية أو صرفية

وأن يهجر أيضاً اللغة الجارية ، كما هو دأبه ، ومع ذلك نراه يقول في مادة Dravière خليط الكلإ (خليط من القطاني والنجيليات تزرع بزورها سوية . . . » وسوية لم ترد بمعنى « معاً » الا في كلام العوام من الديار العربية اللسان . ومثل هذه الهفوات قليلة جدًّا بل أقول بكل فخر للأستاذ المؤلف انها نادرة لا يلتفت اليها ، ولا يؤبه لها

ونتمنى رابعاً ان يتدبر الكلم حين يصوغ العبارة العربية ولا يلتفت الى أرباب الصحف والكتب السقيمة الانشاء . فقد جاء مثلاً في مادة حامض (ص ٢١ Acide) ما هذه اعادة عبارته بنصها : « حامض جسم مركب يحمر صباغ الطرنشول الازرق . والحوامض ثلاثة أشكال وهي اولاً ... ثانياً ... ثالثاً ... » وصحيح التعبير ان يقال : ثلاثة أشكال وهي : الاولى ... والثانية ... والثالثة ...

ونتمنى خامساً ان يعدل عن التعبير الكيمياوي القديم الى تعبير عربي يرضي العامة والخاصة ، والعلماء الاجانب وأثبات اللغة . فقد جاء مثلاً قوله في Sulfurex « حامض سلفورو حامض كبريتو » اه . ومن المعلوم في لغتنا العدنانية انها لا تقبل الفاظاً تنتهي بواو ساكنة ولهذا قال علماء الجامعة الاميركية منذ نحو سبعين سنة : حامض كبريتوس وهذا أصح . لكني اتفقت مع المرحوم الشيخ احمد السكندري أن يقال في حامض الكبريتيك : الحامض الكبريتي . وفي الحامض الكبريتوس : الحوَيمض (بالتصغير) الكبريتي ، لأن المطلوب من هذا الوضع قلة الحامض لا غير

***

﴿ عجبنا من سعة اطلاع المؤلف ﴾ نحكم من مطالعة هذا المعجم النفيس على سعة اطلاع الأمير في الموضوع الذي عالجهُ فانهُ اطلع ما كتبه الدكتور داود الجلبي وما كتبه مرشد خاطر الدكتور العالم العامل . راجع ما وضعه المؤلف في : استمصال ، وما كتبه الفريق الدكتور أمين المعلوف ، رحمه الله ، وما كتبتهُ أنا . راجع ما جاء في : مَصرَي (لا مِصري بالكسر لا بالفتح) وما وضعهُ المؤلف بنفسه ، راجع ما جاء في : سلفرة . ولعلَّ هناك غير من نوهنا باسمه ، أو قد غاب عنا حين كتابتنا هذه العجالة

وفي الختام اننا نشكر العلامة الجليل على ما أتحف العربية ، بهذه الهدية الثمينة . ولا جرم ان كل عالم واسع المعرفة ، وكل مضريّ لا يخامره الحسد ، يشكره معنا لأنه أهل

لكل تقدير ، إذ صرف في وضع هذا التصنيف أحسن أيام حياته ، وأثمن ساعاته ، كافأه الله أحسن مكافأة على عمله هذا العظيم

الأب أنستاس ماري الكرملي
من أعضاء مجمع فؤاد الاول للغة العربية

« همس الجفون » بقلم ميخائيل نعيمة

١٥ ½ × ١٩ ½ ١٣٠ ص ، مكتبة صادر ، بيروت ١٩٤٣

اسم ديوان شعر أصدره الاستاذ ميخائيل نعيمة ثالث الثلاثة الكبار ، أو الأشهرين ، من أدباء لبنان في المهاجر ، والآخران هما المرحومان أمين الريحاني ، وجبران خليل جبران . والثلاثة طبقة واحدة وان كانوا يتفاوتون ويختلفون في المنازع وأساليب التناول والأداء ، وبعضهم أسبق الى الميدان من بعض ، وأشهرُ — في مصر على الأقل

نشأ الاستاذ نعيمة في لبنان ، ودرس في روسية وأقام في فرنسة وهاجر الى أمريكا ثم ارتد الى وطنه الذي أنجبه ، فهو ثمرة ناضجة لأربع ثقافات مختلفة — العربية والروسية واللاتينية والسكسونية بالمعنى الأعم الأشمل . ولعلَّ تنوع هذه الثقافات هو الذي حماه أن تضيع شخصيته فيما توفر عليه وأن يفقد ذاته فيما دخل فيه منها ، واستبحر . فان تعددها ، أو تباين وجوهها خليق أن يمنع طغيان احداها على محصلها وغلبة روحها عليه . على انهُ لاشك ، مع ذلك ، في أن الفضل الاكبر في احتفاظه بطابع خاص ، راجع الى قوة نفسه ووثاقتها

يقابل هذا ان طول اقامة أدباء لبنان في المهاجر ، وتوفرهم على تحصيل لغات أخرى ، واضطرارهم الى اتخاذ لغة المهجر لغة لهم ، جعل معظمهم يتقنون اللغات الأجنبية فوق اتقانهم لغتهم الأصلية ، وسهل ذلك ، وأعان عليه أن درس الآداب الأخرى أيسر وأقرب منالاً من درس الأدب العربي ولاسيما القديم منهُ . وعذرهم في هذا بيِّن ، فما كان ثمَّ مفر منه ، فهو أمر تقل فيه الحيلة ، فلا يكون سواه ، وليس معنى هذا ان لغتهم سقيمة ، وانما معناه انهُ أدركها بعض الضعف ولم يكن عنهُ معدى ، وانهم اضطروا أن يكونوا أكثر احتفالاً بالمعنى منهم بلفظه الذي يؤديه ، فليس يسعنا نحن الشرقيين الذين قعدوا ولم يهاجروا إلاّ أن نشعر ونحن نقرأ لزملائنا المهاجرين ان لفظهم دون معناهم حلاوةً أو قوةً أو جمالاً أو روعة

والمزية ، أو معظمها ، والقوة أو الجمال أو الروعة ، في المعنى على الأكثر لا فيما صُبَّ فيهِ وصيغ من لفظ ، ولا ضير من هذا ولا هو يغض من القيمة الأدبية لآثار اخواننا أدباء المهجر كما نسميهم لتميزهم ، وان كان الكبار منهم قد عادوا الى وطنهم . فان العبرة في الأدب بأثرهِ ، والأثر يحصل في نفوس القراء بالمعنى كما يحصل بأسلوب الأداء ، والمعاني هي الأصل على كل حال ، وليست الألفاظ إلاّ أداة لنقلهِ من ذهن الى ذهن ، ومن نفس الى نفس . وما دام الكاتب أو الشاعر يبلغ حيث يريد من نفس القارىء ، فذلك حسبه

على ان الاستاذ ميخائيل نعيمة من أسلم اخوانه عبارة وأصحهم لفظاً وأقومهم أداء . ولغته خير من لغة زميليه الراحلين ، ولكن الاستاذ ايليا ابو ماضي أبلغ شعراً ، ولا أقول نثرا

وللأستاذ نعيمة جانبان يبرزان في نثره وشعره ، وهما متباينان أشد التباين ، أو لعلّ الأصح أن نقول انهما متميزان جدًّا لا يختلطان . فهو في نثره — ولاسيما حين ينقد — مفكر سديد النهج مستقيم النظر ، وحجة ثبت ، وعالم وثيق ، ولكنهُ في شعره وفيما يكتبه نثراً بوحيٍ من عاطفته ، تغلب عليه الروحانية . وهذه الروحانية ليست عابسة ، فانها تفيض رحمةً وحناناً ، وان كانت لا تخلو أحياناً من ابتسامة الرجل الواقعي الساخر

وهذه النزعة الروحانية شائعة في أدب لبنان ، يستوي في ذلك المقيمون والمهاجرون ، وكأني بهم لطول ما يواقعون الحياة من جانبها العملي ، أو المعاشي ، أو المادي ، أو ما شئت فسمه ، يحدث لهم رد الفعل الطبيعي فتلجّ بهم الرغبة في أن يخلوا بنفوسهم ويناجوها ويديروا فيها عيونهم عسى أن ينفذوا الى السرائر ويطلعوا على ذلك الجانب المزويّ عن العيون

وفي هذا الديوان « همس الجفون » طائفة من الشعر نظمها الأستاذ بالعربية ، وأخرى هي ترجمة نثرية لقصائد له بالانجليزية ، ويرى القراء في غير هذا المكان قصيدة اخترناها له على سبيل التمثيل لأسلوبه ونزعته ، وهو أسلوب سلس يجري مجرى البساطة والوضوح ، ويبرأ من التكلف والحوشية ، ولا يخلو من قلق هين . والروحانية في هذه القصيدة تمتزج بالادراك الصحيح للواقع ، والفطنة الدقيقة للحقائق التي تحجبها الظواهر ، والسخر الذي يؤدي اليهِ التفطن الى التمويه . واشباهها في الديوان كثيرات ، وانما اخترناها لأنها أجمع لهذه المعاني وأنطق بها

والديوان مطبوع على ورق نفيس كدنا ننسى أن مثلهُ يوجد في دنيانا اليوم ، وفيه رسوم رمزية بريشة الناظم ، ورسم واحد للمرحوم جبران خليل جبران . وقد خلا من الخطأ المطبعي أتم خلو ، وتلك آية أخرى

ابرهيم عبد القادر المازني

باب الأخبار العلمية

الغذاء سر من أسرار التعمير والشباب

أجرى بيرد هايستنغز أحد أساتذة الكيمياء الحيوية بجامعة هارفرد تجارب قصد بها الى معرفة الصلة بين الغذاء والشيخوخة ، أو بين الغذاء والتعمير

وقد تبيّن هذا العالم ان نظاماً معيّناً من الغذاء يطيل معدّل عمر الجرذان التي أجرى التجربة فيها ، ويمكنها من الاحتفاظ بسمات الشباب وبخواصّه في أنسجها حتى بعد أن تبلغ الشيخوخة بحسب السنين

وليس ثمة ما يكفل الآن صدق هذه الحقيقة على البشر ، ولكنّ رجال العلم يجرون التجارب على الجرذان ، لينفذوا منها إلى تطبيقها على البشر

وقد اشترك هايستنغز مع طائفة من الباحثين في جامعة كورنل ، فبحثوا التركيب الكيميائيّ لأنساج أجسام الجرذان في مراحل مختلفة من العمر ، أي في الطفولة والحداثة والمراهقة والكهولة والشيخوخة . وكانت المواد التي شملها البحث ، الماء والفصفور والپوتاسيوم والكلوريدات ، لمعرفة توزيعها في النسيج العضلي في الساقين والقلب . وقد اختلف عمر الجرذان من ٣٠ يوماً الى ٢٦١١ يوماً . وعشرة أيام في عمر الجرذ تقابل سنة في عمر البشر . وكذلك نجد ٣٠ و ٦٠ و ٦٠٠ و ٧٥٠ و ٢٦١١ يوماً في عمر الجرذ تقابل ٣ و ٦ و ٦٠ و ٧٥ و ٢٦١ سنة في عمر البشر

وقد اشتهر الاستاذ ماكاي باطالة عمر الجرذان باعطائها غذاءً خاصًّا من شأنه أن يبطىء أفعال الجسم الحيوية ، لقلة وحدات الحرارة فيه ، ولكنهُ يحتوي على مقادير وافية من الفيتامينات والمعادن وغيرها

والجرذان التي تتغذى بهذا الطعام تكون أصغر حجماً وأخفّ وزناً وأطول عمراً من لداتها التي تتغذّى بطعام تكثر فيه وحدات الحرارة . وكذلك تمكن ماكاي أن يولّد جرذاناً تعمر الى سن يتفاوت بين ٧٥٢ يوماً و ٢٦١١ وهي تقابل في عمر البشر سنًّا يتفاوت بين ٧٥ سنة و ٢٦١ سنة

ثم جاء هايستنغز وأعوانهُ فوجدوا ان التركيب الكيميائي لأنساج الجرذان التي عمّرت باعتمادها على هذا الغذاء ، شبيهة بتركيبها في الجرذان الصغار . ففي جرذان بلغت من العمر ٢٦١١ يوماً كان تركيب الانساج مقابلاً لتركيبها في جرذان بلغت من العمر ٦١٠ أيام . فكأن كيمياء النسيج العضلي في شيخ أوفى على ٢٦١ سنة تشبه كيمياء النسيج العضلي في رجل في الستين

البنيسيلين في علاج الزهري

تروي المجلات العلميــة الاميركية انهُ أعلن في الاجتماع الذي عقدتهُ جمعية الصحة العـامة الاميركية ان عقار البنيسيلين قد يكون أداة فعـالة في التغلب على الزهري والسيلان كليهما

فقد أعدّ ثلاثة من أطباء المستشفى البحري التابع لمصلحة الصحة العامة الأميركية تقريراً وصفوا فيه علاج الزهري في بواكيره ، في أربع حالات ، بالبنيسيلين . وهناك حالات أخرى تعالج بهِ الآن . وقد مضى على بعض هذه الحالات مدة كافية ، تمكن الاطباء من الاستيثاق من ان العلاج كان ناجحاً

وطريقة العـلاج حقن البنيسيلين في عضلات المصاب مرة كل أربع ساعات ليل نهار مدة تسعة أيام . فبعد انقضاء الساعات السبع الاولى على الحقن بهِ تختفي لولبيات الزهري من القروح

وفي اليوم الخامس عشر يكون فحص الدم سالباً وبعد انقضاء مائة يوم على وقف العـلاج يتعـذّر العثور على أي أثر للداء في دم المصاب ولو استعملت أدق الـكواشف المعروفة

والعلاج بالبنيسيلين مأمون العاقبة . ولم يتبيّـن الأطباء حتى الآن أثراً لتسمم ما نتيجة للعلاج بهذه المادة المستخرجة من أحد أصناف العفن . وقد روى أحد هؤلاء الأطباء ان بعض المرضى أصيب بحرارة خفيفة في اليوم الأول ، ولـكنّ هذا في رأيه مرجعهُ الى الفتك بطوائف كبيرة من اللولبيّـات ، لا الى البنيسيلين نفسهِ

الفيتامين في فول الصويا

أثبت الدكتور پول بركهولدر الاستاذ بجامعة يايل : ان في فول الصويا فيتامينات متعددة . فقد حاول الاستاذ بركهولدر أن يقرر بالتحليل الدقيق نسبة سبعة فيتامينات في ستةٍ من أصناف هذا الفول ، فلم يجد فروقاً كبيرة بينهـا ، ولـكنـه تبيّـن ان تركيز الفيتامين يتفاوت بتفاوت نضج حبة الفول . فالثيامين أوفر في حبة الفول الناضجة منهُ في حبة الفول الغضرة . على حين أن الريبوفلافين أوفر في الحبوب الغضرة منهُ في الناضجة . وهـذه المعرفة لازمة في الغذاء لأن حبوب الفول تؤكل ناضجة وغضرة على السواء

ثم قابل الاستاذ بركهولدر تركيز الثيامين في فول الصويا ، بتركيزه في لحم العجل الاحمر ، ولحم الخنزير الاحمر ، وفي حبوب القمح . فوجد ان كفة الفول في جميع الفيتامينات — ما عدا النياسين — ترجح كفة القمح ، وانها تعادل كفة اللحمين

وقد نشرت تفصيلات هـذا البحث في مجلة « سيلس » من عهد قريب

فيتامين C يفعل فعل الانسولين

أضاف علماء الهند اضافة جديدة الى علوم الكيمياء الحيوية والطب . فقد كشف الاستاذ بانرجي أحد علماء مدرسة الطب الاستوائي بكلكتة ان فيتامين C يفعل فعل الانسولين في حالة البول السكري . وقد أجرى تجاربه في خنازير الهند فأخذ طائفتين منها وغذّى إحداها بطعام ينقصهُ فيتامين C وغذّى الأخرى بالطعام عينه ولكن بعد اضافة مقدار وافٍ من هذا الفيتامين اليهِ . فأسفرت التجربة ان الطائفة الثانية ظلّت سوية سليمة من كل ناحية ، وأما الطائفة الأولى فأصيبت بأعراض« البول السكري ». فلما أعطيت جرعاً من فيتامين C زالت هذه الاعراض

بركان في البحار الجنوبية

رابول - التي لهجت بذكرها الأخبار - هي عاصمة « بريطانية الجديدة » ، وهي جزيرة صغيرة قرب غينية الجديدة . ولرابول مرفأ جيد كان فيما مضى فوهة بركان طغى عليه البحر فملأه اليوم بمياهه . وتطل على رابول ثلاثة جبال شاهقة بركانية . والواقع ان هذه الجهة بأسرها عرضة للتقلبات العنيفة البركانية . وقد ظهرت منذ أمد غير بعيد على ساحل « بريطانية الجديدة » جزيرتان صغيرتان هما « ماتوبي » و « فولكان » . وفي سنة ١٩٣٧ فتكت الزلازل بغتة بجزيرة فولكان فأودت بحياة المئات من الأهالي ، وأمطرت رابول وابلاً من المقذوفات والحمم البركانية ، ولما هدأت ثورة البركان وعاد الاهالي الى ديارهم وجدوا « فولكان » أصبحت جبلاً داخلاً في البحر يصله بالشاطىء شقة من الارض، فصارت غير جزيرة

هل تعلم

* ان نساء الولايات المتحدة قدمنَ ٤٩ مليون زوج من جوارب الحرير والنيلون ، تبلغ زنتها ٢٥٠٠٠٠٠ رطل تستعمل في الجهد الحربي ؟

* إن الصناعة الأميركية تصنع الآن للقوات المسلحة ورقاً خاصًّا للخارطات الحربية لا يبتلّ ولو غمس بالماء العذب أو الملح ؟

* أن لورق السجاير استعمالاً جديداً ؟ فهو يوضع على الجروح بعد رش مسحوق السلفانيلاميد عليها ، وانهُ يفوق الشاش المعقم من هذه الناحية ؟

* ان مجلة خلاصة العلم الاميركية روت ان ميلاً مكعباً من ماء البحر يحتوي على تسعة بلايين رطل من عنصر المغنسيوم ؟

فهرس الجزء الثاني من المجلد الرابع بعد المائة

باب التعريف والتنقيب (نقد كتب)

المقتطف

الجزء الثاني من المجلد الرابع بعد المائة

١ فبراير سنة ١٩٤٤ — ٦ صفر سنة ١٣٦٣

العلم والغذاء والمستقبل

الصحة العامة لا تتجزأ

العلم يضع أسس التحرر من العوز والجوع

شهد القرن الماضي وما انقضى من هذا القرن تحسناً عظيماً في الصحة العامة ، في كثير من أقطار العالم . وبعض هذا التحسن يرجع الى الأخذ بأساليب الوقاية الصحية ، والانتفاع بكشف أسباب الأمراض المعدية واستنباط العقاقير الجديدة وبعضهُ يرجع الى التقدم الحثيث في علم التغذية . فمنذ قرن أخذ قواعد الصحة العامة في انكلترة . وفي النصف الثاني من القرن الماضي خطا الطب أعظم خطوة إذ اهتدى باستور الى اسباب الامراض المعدية . ومما تلا ذلك إقامة الدليل على ان العدوى قد تنتقل بالطعام والشراب كما في حالة التيفود والكوليرا وبالحشرات كالبعوض والبراغيث والقمل في حالات الملاريا والحمى الصفراء والطاعون والتيفوس ومع ان هذه الامراض دانت في كثير من البلاد لعلم العلماء والأطباء ، لا يزال الازدحام وسوء التغذية وسرعة الانتقال ، وهي مما يلازم الحروب ، تمهد لانتشار الأمراض المعدية . فوباء الانفلونزا في سنتي ١٩١٨ — ١٩١٩ تفشى تفشياً مروعاً فأصيب بهِ نحو ٧٠٠ مليون من البشر ومات به ما يزيد على ٢١ مليوناً . والتيفوس منتشر الآن في غير بلد واحد . ومن المرجح اذ تنتهي هذه الحرب ، ان يفضي تنقل الناس على سرعةٍ في عالم تكاد طائفة من شعوبهِ تتضوَّر جوعاً ، الى تفشي أعظم الأوبئة في التاريخ ، ان لم تتخذ التدابير اللازمة لحسمها على نطاق دولي

مشتركاً بعد الحرب . وقد نحسن الظن فنميل الى الاعتقاد بأن العبرة المستخرجة من السلام المضيع بعد الحرب الماضية لم يفت مغزاها على القادة والشعوب . ومع ذلك لا بد ان يبقى التعاون الصادق بعد هذه الحرب فرضاً حتى يقوم الدليل العملي الناطق عليه بعد ما يرتفع كابوس الخطر الذي يهدد الكيان ، ويؤلف الآن بين العزائم والقلوب

وليس ثمة ريب في ان الطريق الوحيد الى انشاء سلام وطيد الأركان هو طريق التعاون الدولي تعاوناً صادقاً مستمراً . وهذا الطريق وعر طويل ومن السهل أن نحدق الى العقبات التي تعترض السير في هذا الطريق ، وأن ننقاد لقول القائلين بأن تذليلها مستحيل . والعقبات كثيرة حقًا ، والتغلب عليها يقتضي تفكيراً قوياً وإدراكاً صحيحاً لطبيعة العمران الحديث ، وشجاعة لا تنثني والمنثنون أمام الصعاب بغير محاولة هم دعاة الهزيمة في معركة السلام، ويحقّ عليهم ما يحقّ على دعاة الهزيمة في اثناء الحرب . على إن تحقيق الأمل لا يتم بين ليلة وضحاها ، بل هو جهاد مستمر ، فنحن حيال هذه المشكلات في حاجة الى تربية مستمرة مطردة سعةً وسمواً والى سعي صادق لا يفتر

في حدود هذين الغرضين والإعتبارات المتصلة بهما نحاول بحث بعض المشكلات التي لا بد من مواجهتها بعد الحرب . وهذه المشكلات طائفتان بوجه عام. الاولى ما كان له صلة بالاحوال القائمة في شتى البلاد ، حين تضع الحرب أوزارها . والثانية ما كان لها صلة بانشاء هيئة دولية تنظم السلام وتشرف على حفظه وتوفير الاحوال التي يزكو فيها اصله ويورق فرعه ، وهي بمشكلة طويلة الأمد . وقد عهد معهد كرنيجي للسلم الدولي الى لجنة من المفكرين والخبراء المستقلين رأياً ونزعةً سياسيةً ، في بحث هذا الموضوع وتوضيحه، فقالت في تقريرها : « حالما تنتهي الحرب ستواجه جماعة الامم مهمتين منفصلتين ، ولكنهما متفاعلتان ، ولا بد من التأهب لهما قبل أن ينصبّا على عالم نهكته الحرب وهزه عود السلام فراح لا يقيم وزناً كبيراً لضرورات الحال الجديدة . اما المهمة الاولى فهي مشكلة التعمير السياسي والمادي والروحي في البلاد التي هوت عليها كف الحرب ثقيلة مدمرة . وأما المهمة الثانية فانشاء نظام دولي دائم »

تشتمل المهمة الاولى على ثلاث طوائف من المشكلات نستطيع أن نصفها بالمشكلات الاجتماعية ، والمشكلات الاقتصادية ، والمشكلات الحربية السياسية ، وهذا تقسيم يقصد التيسير . وإلاّ فإن هذه المشكلات ليست منفصلة بعضها عن بعض . فالمشكلات الاجتماعية ، كتوفير المأكل للجياع والهزال ، وتوفير الملبس للعراة او من في حكم العراة ، والأدوية للمرضى متصلة اوثق اتصال بالمشكلات السياسية مثل قيام الحكومات وقدرتها على حفظ الأمن وتمهيد الطريق لاستئناف الحياة السياسية الرشيدة ، ومتصلة كذلك أوثق

الاتصال بالمشكلات الاقتصادية ، وبخاصة العودة الى الإنتاج الزراعي والاقتصادي السوي، فقدرة الناس على العمل هي رأس المال الأساسي في كل عهد وكل حضارة

وبين المشكلات الاجتماعية التي لا بد من التأهب لمواجهتها نجد في المقام الأول مشكلة المبادرة الى إغاثة الشعوب الخارجة على سقم من سعير الحرب . فلا بد من وضع الخطط التي تكفل مقاومة الجوع والمرض مقاومة عاجلة فعالة، وجميع الدلائل تدل على ان المرض سيكون بعد هذه الحرب ، كما كان بعد الحروب السابقة ، أفتك بالناس من الأسلحة . ستصمت المدافع حين يصدر الأمر بكف القتال ، ولكن نار المرض ستمضي ملتهمة حاصدة ما دامت الأحوال مضطربة ، وما دام الناس لا يقوون على المقاومة ، وما دام العلاج عزيزاً . والأحوال التي تصحب الحروب وتساعد على انتشار الأوبئة قائمة ، وهي سوء التغذية والجوع ، وترحيل طوائف كبيرة من الناس من بلد الى بلد ، كترحيل الاسرى والمعتقلين وترحيل العمال ، وقلة وسائل العلاج واضطراب الأحوال الاجتماعية . ومواجهة هذه المشكلة الضخمة لا يمكن ان تلقى على كاهل الهيئات المتطوعة . ولا بد من أن تتأهب لها الحكومات فتخصص لها أموالاً طائلة ، وتوفر لها أسباب النقل

ومن حسن الحظ وبواعث الرضى والثقة بالمستقبل أن الدول المتحدة قد ادركت التبعة العظيمة الواقعة على كاهلها في علاج هذه المشكلات ، وانضمت اليها دول ليست محاربة تشعر بضرورة مشاركتها في تحمل نصيبها من هذه التبعة . فأنشئت الهيئة الدولية للاغاثة والتعمير ، وقد ضم مؤتمرها ممثلي أربع وأربعين دولة يبلغ عدد سكانها ، أربعة أخماس سكان الكرة الأرضية . وللدلالة على ضخامة المشكلات التي تعالجها هذه الهيئة ، أقول ان الخبير البريطاني السير فردريك ليث روس وضع بياناً مفصلاً بما تحتاج اليه بلاد القارة الاوربية لا غير من مقادير الطعام في الستة الأشهر الاولى التي تلي وقف الحرب ، فاذا هو يحتاج الى سفن أو وسائل نقل أخرى مجموع حمولتها ثلاثة وعشرون مليوناً ونصف مليون من الأطنان . فمهمة هذه الهيئة هي تدبير هذه المقادير تأهباً لتوزيعها ، ثم تدبير السفن ووسائل النقل اللازمة لنقلها ، ثم نقلها وتوزيعها على أساس من العدل ، والحاجة كما يقرها خبراء التغذية . وما يقال في المأكل يقال في الملبس والدواء واعادة الرحّلين واللاجئين الى أوطانهم ويقدر عددهم بعشرين مليوناً على الأقل في أوربة وحدها

أما الطائفة الثانية فهي المشكلات الاقتصادية ، ومنها تدبير عمل للجنود المسرحين ، وتحويل المصانع التي لا تحصى من انتاج الحرب الى انتاج السلام ، وتوزيع المواد الخام اللازمة للصناعة ، وتدبير حل معقول للنساء اللواتي تعودن الانتاج والكسب في اثناء

الحرب ، وتثبيت النقد بحيث تنتظم المعاملات التجارية بين بلاد الارض على أساس نظام مستقر أو مائل الى الاستقرار ، وتنظيم المواصلات البحرية والجوية ، وتحويلها من أغراض النقل الحربي الى النقل السلمي . وكل مشكلة من هذه المشكلات تحتاج الى بحث دقيق والى تعاون وثيق لكي تحل ، ولا تحل ارتجالاً

وأخيراً هناك طائفة ثالثة من هذه المشكلات تتصل بالنظام السياسي في البلدان التي تحتلها الجيوش الحليفة عقب نهاية الحرب مباشرة ، أو عقب استردادها من المحور قبل أن تنتهي الحرب . وهذه البلدان لا بدّ أن تبقى مدةً ما في حكم البلاد المحتلة احتلالاً عسكريًّا ، أي تبقى خاضعة لقيادة الجيش المحتل . ولكن العالم في حاجة من هذه الناحية الى مبدإ جديد . فهذه الحرب حرب عالمية كما لايخفى . والجهد الحربي الذي تبذله الدول المتحدة جهد مشترك . وهذا يقتضي أن يكون عمل التعمير السياسي والاقتصادي في البلاد المجتاحة عملاً مشتركاً ولا بأس في أن تتولاه دولة ما ، ولكن على شرط أن تتولاه باسم الدول المتحدة جميعاً ، ووفقاً للمبادىء والخطط التي أقرت لمثل هذه الحالة . ففرضٌ على الدول المتحدة منذالآن أن تضع القرارات الخاصة بطبيعة الادارة والمبادىء التي تتبع فيها والمراحل التي تجوزها كل أمة في عودتها التدريجية الى الحياة السياسية السوية والحكم القومي ، وأن يعد الرجال لتولي هذه التبعات

هـذا طرف يسير جدًّا من المسائل التي يجب أن تعالج حين تنتهي الحرب ، حتى قبل انتهائها — مثلاً في البلاد التي تُرفع يد الغاصب عنها . وارجاء معالجتها على أسس من الحزم والعدل والانسانية يكون باعثاً من بواعث الاضطراب والفوضى حتماً . فمعالجتها لا يمكنها أن تنتظر انشاء هذه الهيئة الناشئة متدرجاً نموًّا وقوة وسعة اختصاص . ولذلك يكاد يجتمع الرأي على أن تكون هناك فترة تطول أو تقصر بين نهاية الحرب — أي عقد الهدنة العسكرية — وبين عقد معاهدة الصلح ، ومدتها تتفاوت في رأي الباحثين من ٥ سنوات الى ٢٥ سنة

فأوربة بعد الحرب ، وكثير من البلاد الأخرى ، ستكون أشبه ما يكون بمقاطعة أصابها الزلزال وطغى عليها السيل وفشا فيها الوباء . فيجب أن يوجه الاهتمام الاول الى حفظ الأمن وغوث المنكوب واصلاح الخراب . وفترة الانتقال يجب أن تكون كافية لعلاج هذه المشكلات التي لا يمكن أن ترجأ معالجتها ، ولخمود العواطف المشبوبة ولتهيئة الظروف الاجتماعية والاقتصادية والنفسية لكتابة وثيقة السلام والحرية والرخاء التي ترنو البشرية اليها ، ولتنفيذها . وبغير أن تهيأ هذه الظروف جميعاً قد تكتب الوثيقة ، وقد تكون غاية في البلاغة والإحكام ، ولكنها تبقى حبراً على ورق

٢ — تنظيم السلام

كان رجال الفكر والاجتماع والسياسة الذين تعنيهم أغراض الحرب وقواعد البنيان الاجتماعي والسياسي بعدها ، يذهبون في المراحل الأولى من الحرب مذهبين مختلفين ، في ما يتعلق بالأهداف التي تتوخاها الدول المتحدة منها . أما المذهب الأول فقوامه ضرورة اعلان الاهداف ، واقناع الناس ، بصدق النية على تحقيقها ، وأما الثاني فقوامه تقديم الاهتمام بكسب الحرب ، وضرورة صرف الجهد والعزم الى هذا الاهتمام . فكسب الحرب في رأي اصحاب هذا الرأي هو الغرض المقدم على غيره من الاغراض . فكان رد أصحاب المذهب الاول أن اعلان الاهداف ، جزء من السلاح السياسي الماضي الذي يحث الشعوب المتحدة الحرة والمستبد بها ، على بذل كل جهد في سبيل الظفر

وكان النضال ، حين دارت هذه المناقشة ، يجتاز مرحلة دقيقة ، فكانت الحاجة كل الحاجة ، الى حصر الجهد في شؤون الحرب والاعمال الحربية ، ومع ذلك اجتمع روزفلت وتشرتشل اجتماعهما المشهور الاول في المحيط الاطلمي — اغسطس ١٩٤١ — فأسفر عن وثيقة « دستور المحيط الأطلمي » ، وقد عزز من شأن هذه الوثيقة ما جاء في تصريحات الاقطاب المسئولين بعد ذلك ، مما وضّح قواعد تلك الوثيقة أو فصلها أو أيدها ، ثم وافقت عليها جميع الدول المتحدة ، وزادها تأييداً ما أسفر عنه مؤتمر موسكو من اعتراف بضرورة المضي في التعاون بعد الحرب وانشاء هيئة عامة ، للسهر على حفظ السلام والسلامة بين الدول . واستخرج مجلس الشيوخ الامريكي النص الوارد في هذا الصدد ، في تصريح موسكو ، وأدرجه في قرار وافق عليه موافقة تقرب من الاجماع

وكل من عني بالبحث أو بالتأمل في بعض المشكلات التي لا بدّ من مواجهتها بعد الظفر ، سواء أمباشرة كانت تلك المشكلات أم بعيدة الأمد ، يعلم أنها معقدة كل التعقيد وان استيضاحها واعداد خطط لمعالجتها يقتضيان ، على أقل تقدير ، بحثاً مسهباً وثيقاً وتفاهماً على القواعد الأصلية ، وعلى بعض التفاصيل . وبعض هذه المشكلات لا بد من معالجته على الفور ، حين تنتهي الحرب ، بل ربما قبل انتهائها ، في بعض البلاد ، فليس في الوسع ارجاء التأهب لذلك . واليوم أبكر من غد

على ان فترة الانتقال ، فترة عابرة مهما يطل أمدها ، والوضع فيها وضع شاذ ، مهما يكن ضرورياً ، ولا مفر منه ، والسلام لا يستتب الا اذا عادت الأمم الى الوضع الطبيعي والحياة السوية في نطاق من النظام يضمن لها ثلاثة أغراض ، السلامة والحرية والرخاء . وكل غرض من هذه الأغراض وحدة لا تتجزأ . فسلامة كل أمة جزء أصيل من سلامة

الدول جميعاً . وكل تهديد يوجه الى سلامة أمة ما ، هو تهديد موجه الى سلامة الجميع ، وكذلك حرية كل أمة ، ورخاء كل أمة

فارتقاء الحضارة الحديثة أفضى الى ارتباط الأمم بعضها ببعض ، والى اشتباك مصالحها فأصبحت العزلة التامة في هذا العصر الذي وحدت بين أممه مآثر العلم ومنتجات الصناعة أمراً مستحيلاً ، وغدت الاقامة في برج عاجي يطل المقيم فيه ، على تيارات الحياة ، بغير أن يتأثر بها ، منافية لاتجاه الحياة نفسها . ولا يزال السلام الطويل الأمد الذي ترنو اليه الانسانية مرتبطاً بالسلامة الحربية المشتركة ، ولا تزال الحرية التي نتطلع اليها متصلة ببيان حقوق جديدة مشتركة ، لجميع الناس على السواء توافق أحوال العصر الحديث ، ولا سبيل الى الرخاء المنشود الا عن طريق حياة اقتصادية مشتركة

فالمشكلة التي تواجهها الانسانية بعد الحرب ، هي مشكلة انشاء هيئة أو هيئات ، تجعل هذا « الاشتراك » مستطاعاً . ويخطئ من يظن ان عقد معاهدات الصلح بعد فترة الانتقال يضع الامر في نصابه ، ويحل المشكلة . فالصلح الذي يضمن في ظله الأمن المشترك والحرية المشتركة والرخاء المشترك ، لا يمكن ان يكون حادثاً عابراً ، كعقد مؤتمر وكتابة معاهدة ، بل هو عمل مستمر وليس عقد المؤتمر وكتابة المعاهدة الا توطئة وتمهيداً . فانشاء الهيئة العامة التي اشار اليها تصريح موسكو ووافق عليها مجلس الشيوخ الأمريكي ، لا بد ان يكون لباب المشكلة الطويلة الأمد التي تواجهها الأمم بعد الحرب . فما يكون قوام هذه الهيئة ؟ وما الركن الذي تقوم عليه ؟ أتكون عالمية بأوسع معنى الكلمة ، أم تكون هنالك هيئات كبيرة محلية ، أم تكون بعثاً لعصبة الأمم بعد تعديل ما يجب تعديله فيها ، لتكون أقدر على النهوض بالتبعات الملقاة على كاهلها ؟ أم تكون لوناً من الاتحاد السياسي ، تشرف عليه حكومة عالمية ؟

قرأت كثيراً مما كتب في هذا الموضوع . فلم أجد اجماعاً بين اصحاب الرأي ، بل على الضد من ذلك وجدت مشروعات تختلف عن مشروع بعث العصبة الى توحيد الأمم وتوثيق الصلة بينها على اساس الصلات المالية والاقتصادية . وسأعرض بعض هذه المشروعات على أن أشير في نهاية المقال الى ما قد يعد مشروعاً أو أركان مشروع بأحسن مزاياها

أما المشروع الاول فهو مشروع بعث عصبة الأمم . واصحاب هذا المشروع يذهبون الى أن انهيار الاجتماع الدولي بين الحربين العالمية الأولى والعالمية الثانية ، يرجع الى أربعة اخطاء . اولها خيبة العصبة في تعديل فكرة السيادة القومية المطلقة ، وثانيها امتناع الولايات المتحدة الأمريكية عن الاشتراك في العصبة ، والثالث النص في ميثاق العصبة ان قرارات المجلس يجب أن تكون بالاجماع لتكون نافذة المفعول ، والرابع أن العصبة لم تملك القوة

اللازمة لتنفيذ قراراتها . فاصحاب هذا المشروع وضعوا اقتراحات لتصحيح كل هذه الاخطاء الأساسية في كيان العصبة ويعتقدون أن بعث العصبة على هذا الأساس يكون كفيلاً بتحقيق الغرض منها اذا توافرت النية الحسنة والفكر النير والعزم الصادق . وهذه صفات مفروضة فرضاً في كل مشروع لأن كل مشروع مهما يبلغ الكمال منهار من أساسه ، ان لم تتوافر هذه الصفات

وأما المشروع الثاني فهو مشروع الاتحاد . وصاحب نواة هذا المشروع صحفي امريكي يدعى كلارنس سترايت ، كان زمناً طويلاً مكاتباً لجريدة نيويورك تيمس في جنيف ، وقد راقب أعمال العصبة عن كثب ، وخرج من مراقبته الى القول بأن رجال السياسة ، كما عرفهم ، عاجزون عن تسوية شؤون الدول تسوية سلمية عادلة لأنهم بحكم نشأتهم وصناعتهم مندوبون الى ضمان المصالح الخاصة بالحكومة التي يمثلونها ، ولذلك اقترح في كتابه « الاتحاد الآن » مشروعاً تنشىء بمقتضاه جماعة من الدول المتماثلة في تقاليدها ونظراتها السياسية والاجتماعية ، وهي الديمقراطيات على جانبي المحيط الأطلسي، اتحاداً كبيراً قوياً على نمط الاتحاد الذي انشىء بين الولايات المتحدة في أول عهدها . فتمارس حكومة هذا الاتحاد الوظائف العامة الخاصة بقوة دفاع مشتركة واقتصاد حر مشترك ، خال من الحواجز بين الدول أعضاء الاتحاد ، ونقد واحد ، ونظام مشترك للمواصلات »

وكان هذا الاقتراح قبيل نشوب هذه الحرب، فبعد نشوبها اقترح سترايت انشاء اتحاد في الحال بين الولايات المتحدة وجامعة الامم البريطانية ، على هذه القواعد ثم يوسع نطاقه ليضم رويداً رويداً الدول الديمقراطية، الى أن يضم العالم. وقد عني باحث آخر بوضع دستور لاتحاد اوربي ، على ان يضم تحت جناحيه اتحادات اقليمية أوربية مثل الاقليم الذي يشمل بولندة وتشيكوسلوفاكية ، والاقليم الذي يجمع بين اليونان ويوغسلافية

وأما المشروع الثالث فهو القائم على مبدأ حسن الجوار ، أو مبدأ الجار الطيب . وأصحاب هذا المشروع يشيرون الى نجاح مبدأ الجار الطيب الذي مارسته حكومة الولايات المتحدة في القارتين الامريكيتين ممارسة فعالة متسقة الجوانب في عهد الرئيس فرنكلين روزفلت ، ويقولون ان هذا النجاح تم بغير سلطة عليا من قبل هيئة دولية كالعصبة ، أو حكومة اتحادية كالحكومة التي يقترحها سترايت وأصحابه ، وان الدأب في هذه السياسة انشاء لجان وعقد مؤتمرات لبحث الموضوعات ، وتقديمها الى الحكومات المختصة

وهناك مشروعان آخران احدهما قائم على مبدإ مالي ، والآخر على مبدإ اقتصادي . أما الأول فركنه بنك عالمي تكون مهمته تنظيم الحياة الاقتصادية وتنسيقها في أرجاء العالم ،

وأما الثاني فقائم على المبادىء التالية : اذا منعت المنتجات الزراعية والصناعية من اجتياز الحدود السياسية فالجنود يجتازونها ، واذا لم تحطم القيود التي تقيد التجارة فان القنابل تحطم المصانع ، وان الاتفاقات الاقتصادية القائمة على مصلحة الفريقين المتبادلين أدنى الى المحافظة عليها من الاتفاقات السياسية ، أي ان اللباب في هذين المشروعين هو « الاتحاد الاقتصادي الآن » ، وهو يقابل جزءاً من مشروع سترايت الذي يجمع بين الشؤون الحربية والاقتصادية وبعض الشؤون السياسية . على ان اصحاب الاتحاد الاقتصادي يرون أنْ لا حاجة الى الاندماج السياسي ، لأن التوحيد الاقتصادي يجعل التوحيد السياسي في المقام الثاني وفي حكم تحصيل الحاصل

هذه نماذج من المشروعات المقترحة ، ولكل منها تفصيل وعلى كل منها إعتراضات ، فما قلته هنا لا يتجاوز الاشارة وحسب ، وواضح من هذا القليل أن أجزاء من كل منها لازمة للمحافظة على سلام العالم وحريته ورخائه . كل مشروع من هذه المشروعات وغيرها ، أشبه ما يكون بآلة موسيقية واحدة ، لها لحنها الخاص بها ، ولكن النغم الفخم مؤلف من جميع الألحان ، معزوف عزفاً منسقاً على جميع الآلات ، وفي كل مشروع كلمة تعد في منزلة المفتاح الذي يفتح به باب ذلك المشروع ، ففي هذا كلمة « العصبة » ، وفي ذاك كلمة « الاتحاد » ، ولكن أصحابها جميعاً مدركون أن كلمة واحدة أو مبدأ واحداً لا يكفي لدفع جميع القوى الانسانية من سياسية واقتصادية وروحية في عنان واحد ، لتجر مركبة مثقلة بمشكلات العالم ، فهذه الالفاظ تدل على اتجاهات ويجب التوفيق بينها

فعالم بعد الحرب سيشهد قيام أكثر من اتحاد واحد ، منها السياسي ومنها الاقليمي ، ومنها الاقتصادي ، ومنها الخليط لجزء من مشروع « الاتحاد » يجب أن يدمج في كل مشروع يرجى له نجاح . وربما لا تُبعث عصبة الأمم كما كانت ، ولكن لا ريب في أن بعض الأعمال التي كانت تنهض بها العصبة ستبعث ، ويجب ان تبعث وتدمج في هيئات دولية قديمة منبعثة ، أو جديدة على الاطلاق . وليس في وسع أحد ان يزعم ان التوسع المرجو في التجارة العالمية ، والمساواة في الفرص المتاحة للحصول على المواد الخام ، يمكن ان يحققا ، في ظل أنظمة النقد والصارف المضطربة التي كانت تسود العالم قبل نشوب الحرب . فجزء من المشروعين المالي والاقتصادي يجب ان يدمج في النظام العام الشامل

فهذه المشروعات متصلة بعضها ببعض ، معتمدة بعضها على بعض ، غير مناقض بعضها لبعض . انها تسعى جميعاً الى غرض واحد ، فالحاجة الى النية الحسنة والفكر النير ، والعزم الذي لا يلين ، انما هي الحاجة الى الروح فبغير الروح ، لا نجاح لمشروع ما : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »

فؤاد صروف

رسالة الطب

في الحياة

لصاحب السعادة الدكتور سليمان عزمي باشا

للبيئة والمجتمع والوراثة تأثير في شخصية الانسان، واذا ماتهذبت غرائزه بالتربية والتعليم تطبع بحميد الصفات فابتعد عن القبائح

فالطبيب الطبيب النبت اذا ما حصل على تعليم راقٍ ومتين يصبح ذا شخصية بارزة وأخلاق عالية وكفاية فنية عظيمة، وخليقاً بأن يمتاز على معاصريه ببعد النظر وسعة الصدر والمقدرة على فهم الامور واخراج الاستنتاجات السليمة وقدر المسائل حق قدرها، لأن فن الطب ودراسته والعلوم الطبية وما يتصل بها عودته البحث والاستنتاج وربط الامور بمسبباتها ونتائجها كما عودته المثابرة والصبر والتأني وتقدير المسئولية — فمسئولية الطبيب في فنه تتصل بأهم وأنفس شئون الحياة (الروح — الصحة والعافية — الحياة) وما عدا ذلك من مال وكسب وجاه وشهرة وافتخار وتنعم بزينة الحياة وملذاتها وما يعده طلابها سعادة ونعيماً وغاية يسعون وراءه في هذه الحياة الدنيا هو عند زهادها مظاهر خلابة عبدها الناس وتغالوا في الاستكثار منها، ولولا هذا التباين في مقاصد الناس لفسدت الأرض. وقد راجت سوق المادة للاسف في هذا العصر، ولا أزعم ان الأطباء براء من كل هـذا فهم بشر ولكل انسان وجهات نظر تختلف عن وجهات نظر غيره وكل يرى سعادته وهناءته في ادراك ما تصبو اليه نفسه — والسعادة فنون ولكل فن عشاقه

بل قد رأى بعضهم السعادة لدى المجانين لأنهم سعداء في اعتقادهم وفيما تركز في ذهنهم وشغلهم عن كل شيء آخر

وهذا البحث الذي كتبه أخيراً أحد أساتذة علم النفس وترجم في مجلة « المختار » تحت عنوان « العقل في الجنون » يوافق قول الشاعر العربي « وما لذة العيش إلا للمجانين »

فهم يعيشون في دنيا من الاحلام بعيدون عن دنيا الحقائق والتفكير والهموم، لاهون بما هم فيه، فرحون بما لديهم غافلون عن كل شيء آخر من أمور الحياة، لايشعرون بمسؤولية ولا تقع عليهم تبعة تصرفاتهم — وما أنسب قول الشاعر العربي في ذلك

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

واذا كانت الماديات ضرورية فهي كالملح للطعام لا تكون إلاّ بقدر، ولا يجب أن تتضاءل ازاءها الفضائل وتتلاشى المزايا الطيبة الخالدة ، فكل شيء مصيره الى الفناء إلاّ الشخصيات الانسانية التاريخية وأعمالها الجيدة النافعة فانها باقية على مرّ السنين والايام

وقد أثرت العلوم المادية المحسوسة في الطب نفسه ، فبعد ان كان الطبيب يطبق معلوماته ويقيس بخبرته ويحكم بعقله الراجح فيما يعرض له من الامور دخلت المادة في العلم وأصبحت التحاليل والمجاهر والأشعة والعقاقير مهيمنة على الفن ونسبت اليها الفوائد السحرية في سهولة التشخيص ونجاح العلاج وأهملت الى حدٍّ ما شخصية الطبيب وتأثيره النفسي في اعتقاد المريض — لا أقول ذلك لأنقص من قيمتها وحقها فهي ذات فائدة عظيمة — ولكن ألاّ يضحى قِبَلها شخصية الانسان ، فليس العلم بذاته هو الذي يقرر ، وليست الآلات والاجهزة هي التي تفكر، ولكن العالم هو الذي يشاهد ويستنتج ويقرر

فاذا اتخذنا الطب مثلاً فقد بحث الانسان في الطب وقرن بحثه بأمراض الانسان والحيوان، وغيرّ وبدّل في النظريات ليصل الى دفع الامراض وتخفيف ويلاتها . ولو تتبع الانسان النظريات الطبية من مبدأها الى الآن لوجد اننا الآن بعيدون كل البعد عن كثير من النظريات الاولى بل ذهبنا الى أبعد من ذلك ونظرنا اليها كأنها خرافات — ويجب ألاّ نحتقر واضعيها لانها كانت اول درجة من درجات السلم ارتقينا منها ثم صعدنا درجة فدرجة الى ان وصلنا الى ما نحن عليه ، ثم عدلنا البناء لهذا السلم وشيدناه على أساس أمتن وبمادة بنائية أقوم ، والفضل للمتقدم

والطب كغيره من العلوم لا تكون له فائدة الاّ اذا عمل بهِ . وفي هذه الصناعة الشاقة يجب على الطبيب الماهر أن يربط ما يشاهده من اعراض المرض بأسبابه وتأثيرها في وظيفة اعضاء الجسم . خذ القلب مثلاً — فاذا ما شخص الطبيب آفة عضوية في القلب محدثة تغيراً في انسجته فلا يقف بحثه عند هذا الحد بل يجب أن يتعرف تأثير هذا المرض في وظيفة القلب، وهل القلب يؤدي وظيفته كاملةً او ناقصةً ، وهل عاقهُ المرض عوقاً تامًّا او غير تام عن أدائها — وهذه النتيجة التي ينبغي أن يصل اليها الطبيب هي من أدق وأشق النقط في عملهِ لانهُ يتوقف عليها سير العلاج

ويستلزم الوصول الى هذه النتيجة فحص باقي اعضاء الجسم لارتباط الدورة الدموية بها جميعاً، كما ان من أهم ما يعنى به الطبيب فحص الدورة الدموية من قلب وشرايين وأوردة واوعية شعرية وضغط دم في حالة أمراض اعضاء الجسم الاخرى ، لان المرض وان ظهر موضعيًّا في عضوٍ ما فانهُ يؤثر في كامل بنية المريض، ولاسيما الامراض الحادة والحمية منها على

وجه الخصوص . والانسان متغير متقلب في كيفية تأثر بليته بالامراض، ولكل فرد خواصه. وفي هذا الجو العاصف الممتلىء بالصعوبات والشذوذ ماذا يفيد العلم وماذا تفيد آلات الفحص والمعامل بدون ذكاء الطبيب وسلامة تفكيره وإصالة رأيه وكفايته ومقدرته على تطبيق العلم

خذ أبسط الامثلة : ماذا يفيد علم الجراحة اذا لم يكن عند الجراح الأنامل الموهوبة لاتقان اجراء العملية، وماذا يفيد العلم والانامل الموهوبة اذا لم يكن الجراح سريع الخاطر حنكتهُ التجارب فيقابل ما يطرأ عليهِ اثناء العملية من الصعوبات وتمكنهُ خبرته ان يقرر متى يقدم على اجراء العملية ومتى يحجم عن عملها — ويقاس على ذلك كله ما يسعه فكر القارىء من الاحتمالات .

خذ مثلاً آخر المدرس : لا يكفي أن ينبغ طبيب في فنه ليكون أستاذاً قديراً بل هنالك مواهب ومميزات أخرى يجب أن تتوفر فيه ، منها حسن الالقاء والقدرة على التعبير بألفاظ سهلة سلسة بسيطة بليغة ، وأن يكون قادراً على المسايرة مع عقلية الطالب والامتزاج بحالته النفسية فيستعمل خبرته وتجاربه أثناء القاء الدرس فلا يكون شبه اسطوانة فونوغرافيـة يلقي ويعيـد ما يقرأه في بطون الـكتب

ويجب أن يكون في علمه وأخلاقه وآدابه وكفايته ومواظبته مثلاً يحتذى بهِ ليتشرب الطلبة بروحه ويأخذوا عنهُ أحسن المواهب ، هذا اذا قصد تكوين جيل صالح سليم مقدر للمسئولية ، حي الضمير ، طاهر الذمة ، فيكون المثل الاخلاقي لهم يأخذون عنهُ فلا يكون كما قال الشاعر :

خـذ بقولي ولا تنظر الى عملي   ينفعك قولي ولا يضرك تقصيري

بل يكون كالقدوة لهم . ولا ينهى عن خلق ويأتي مثله . وقد قال جوتيه شاعر الألمان في هذا المعنى « لا تطالب أحداً إلاّ بما تطالب بهِ نفسك أولاً »

العلم والاستاذ والطبيب يجب أن يعدّ كل منهم عمله ومهنته كعلم وصناعة وفن ويؤدي لـكل منها حقه فيزيد علمه بكثرة البحث والاطلاع ويتقن صناعته بكثرة الممارسة والتجارب لتزيد خبرته ومهارته ويتقن فنه بالدقة في القول والعمل وبث روح الاخلاص في المهنة مع العطف المشبع بروح الفن

فبالتعليم والتثقيف ومعرفة الـكليات والجزئيات وقوة الملاحظة والذاكرة والأبحـاث الشخصية والمشاهدة والقيـاس وسعة الاطلاع وحسن الاستنتاج وكثرة المرانة والتجريب يصل الطبيب الى الحـكم الصحيح في أي مسألة تعرض عليه ، ويكون أسرع من غيره في استنباط الحقيقة وربط الأسباب بمسبباتها

وماذا يفيد العلم والتعليم اذا لم يكن للطبيب شخصية قوية بارزة وأخلاق متينة يقدر

بها المسئوليات التي يواجهها فيسخر العلم لفائدة الانسانية في أسمى معانيها وهي حفظ حياة أخيه الانسان والمحافظة على صحته وعافيته ومنع الامراض عنه وشفاؤه منها اذا ما انتابته. فينبغي للطبيب أن يعتز بكرامته ويستقل برأيه دون مكابرة ولا عناد ويسمو بشخصيته فوق كل الاعتبارات، ومن هانت عليه نفسه كانت على الناس أهون

فالذكاء والنشاط وحب الاتقان والاخلاص للفن وصدق العزيمة وقوة الارادة والصبر والمثابرة والصدق صفات ملازمة للشخصيات الوثابة ، لا الشخصيات القانعة بالقليل مما تعلمت من علم أو من فن

ولا يكفي أن ننجح فيما تعلمنا ونقتصر عليه بل يجب أن نبحث ونلتج ونزيد العلوم والفنون فلا نكون عالة على الآخرين نأخذ ولا نعطي ونتعلم ولا نزيد ، إذ لا ينبغي أن يكون الانسان أنانيًا يأخذ ولا يعطي فقد قتلت الأنانية النفوس . ويجب أن نفكر في غيرنا لنعيش كلنا سعداء

الأنانية تورث الكبرياء والغيرة والحسد والاستئثار بالخير والايثار يورث التواضع والغبطة والمحبة وتعميم النفع والخير والعلم بدون الأخلاق المتينة جسد بلا روح

رحم الله (شوقي) حيث قال :

صلاح أمرك للاخلاق مرجعهُ فقوّم النفس بالأخلاق تستقم
والنفس من خيرها في خير عافية والنفس من شرها في مرتع وخم

ورجال العلم والمهن والادارة والصناعة والتشريع وأمثالهم ، والاطباء على الخصوص ، ان أساءوا استعمال فنهم يضرون أكثر مما ينفعون، ويتمثل اذن مريضهم بقول من قال

تداويت من داءٍ بداءٍ وأقتل ما أعلك ما شفاكا

الطب والرحمة متلازمان ولذا ندخل الطب في شؤون المرضى الاجتماعية أكثر من غيره من المهن ، وهو علم شاق متعب صعب ، ولكنه كله رحمة وعطف، به كثير من التضحية ونكران الذات

واذا كان فن من الفنون خليقاً ان تمارسه الملائكة او رجال الدين فهو صناعة الطب، ولذا يسمي الناس الأطباء ملائكة الرحمة ورسل الانسانية . ولو رجعنا للتاريخ لوجدنا من القرون الوسطى وما قبلها من العصر المسيحي ان كثيرين من الرهبان كانوا يتولون التطبيب وكانت الأديرة في اوربة ملجأ للمرضى. ولا غرابة في ذلك فان رجال كل دين يرون من التدين السير على خطوات رسلهم وأنبيائهم، وقد أتى المسيح عليه السلام بمعجزات طبية عديدة وحث على الرحمة والمحبة والسلام ، فمن المعقول اذن ان يسير الرهبان والمتدينون في طريق التطبيب والعناية بالمرضى لما في ذلك من رحمة وحنان وعطف على الفقراء والضعفاء والبائسين

وكتب تاريخ الطب حافلة بما يثبت ذلك، ومع انتشار العلم والحضارة الحديثة أخذت المستشفيات ومدارس الطب تنفصل شيئاً فشيئاً عن أماكن العبادة الى انصار أغلبها معاهد علمانية، ولا يزال بعضها الى الآن دينية أو شبه دينية — ويروي لنا التاريخ ان أول مستشفى شيد في انجلترة شيده سنة ١٠٨٤ رئيس الاساقفة لانكفران Lanc franc وسماه مستشفى سنت جون St. John كما ان بها مستشفيات اخرى شيدها في أول أمرها رجال الدين

وفي العهد الأخير زاد الاهتمام بشؤون المرضى الاجتماعية واهتمت الملكة فكتوريا بهذه الناحية غاية الاهتمام واقتفى أثرها من جئن بعدها من الملكات وساعدن وعضدن المشروعات التي تؤدي الى تحسين شؤون المرضى الاجتماعية ونجحت أعمال البر والاحسان التي من هذا القبيل في انجلترة بفضل اهتمامهن بها وغيرتهن عليها وتشجيعهن لها

ويجمع المال لهذه الجمعيات عن طريق الهبات والتبرعات والاشتراكات وجمع النقود في ايام معلومات . ويدير هذه الجمعيات هيئات منظمة، للسيدات وللاطباء فيها أكبر نصيب، لأن السيدات بغريزتهن ذوات نفوس شفيقة رحيمة، والاطباء بحكم صناعتهم ذوو شفقة ورحمة ومعرفة بمواطن البؤس والشقاء، فهم المرشدون الهادون لهذه الجمعيات ولهم أكبر نصيب في تنفيذ اغراضها، فالطبيب بحكم صناعته يتصل بجميع الطبقات : الفقير والمتوسط والغني، ويراهم عند بؤسهم ومرضهم وحاجتهم وضعفهم، فهو عليم خبير وهو أقدر الناس على ارشاد الأغنياء والسلطات الى وجوه البر المختلفة والى أفضل ما يعمل لتخفيف الضراء عن الانسانية

وهكذا صدق قول جلادستون السياسي الانجليزي الخطير « سيأتي الوقت الذي يكون فيه الأطباء مرشدي الأمم » . وليست رسالة الأطباء في هذا الجيل كما كانت عليه في العصور الخالية مقصورة على علاج الفرد ومنع المرض وتخفيف آلامه وويلاته عن الأفراد بل اتسعت وانفسح أمامها المجال وأصبح طب الفرد وطب الجماعة وطب الوقاية والعلاج وشؤون المرضى الاجتماعية داخلة في دائرته، وتفرع الطب الى فروع عديدة . ومن النصائح التي ذكرها الدكتور يوسف مراد في كتابه شفاء النفس الوصية الآتية، اذكرها لأنها كأنما خصصت للاطباء « لا يمكن ان تكمل شخصيتك الا اذا شعرت فعلاً بأنك عضو عامل في مجتمع تسعى دائماً لخدمته مهما كانت طبيعة عملك — دعم الأواصر التي تربطك بأفراد اسرتك ومهنتك وقريتك ووطنك بل بأفراد الانسانية جمعاء . . . . ان الأمراض النفسية لا تبعد ان تكون أمراضاً خلقية وان أساس الصحة العقلية هو في جوهره تغلب الايثار على الأنانية والتعاون على المنافسة والتسامح على الحقد والبغضاء »

لا يعنى الأطباء بالحكم أو بالسياسة كما يفهمها الآخرون وقلما يجادلون بل هم عمليون لهم سياسة طبية اجتماعية خاصة بهم بل تشمل تقريباً كل مرافق الحياة وتدخل في الشؤون الطبية

والاجتماعية كلها للخير والبر ولاسعاد الانسانية ، وتخفيف ويلات الأمراض. فأول من فكر في ادخال شؤون المرضى الاجتماعية في دائرة الأطباء المستر لوك والكولونيل منتفير في سنة ١٨٩٥ في مستشفى رويال فري في لندن ، ثم نظم معهداً لتدريب السيدات على هذه الأعمال سنة ١٩٠٧ واستحق الانعام عليه بلقب سير فصار اسمه سير شارلز لوك. والحياة نضال مستمر والأطباء يجيدون النضال على طريقتهم وأسلوبهم في ذلك غير أساليب الآخرين فهي خالية من الشدة والعنف ، كلها لين ورفق لأن البيئة التي يجولون فيها تستدر الرحمة والبر والعطف

كل طبيب مثقف يتخذ مثله الأعلى من تأثير البيئة والتربية والتعليم والتوجيه الصالح فيضع نصب عينيه آمالاً يصبو اليها . والطبيب يرى مثله الأعلى أن يكون رجل علم وصناعة وفن تقوم جميعها على أسس علمية متينة وأخلاق سامية — ويهيئه عمله أن يكون رجل بر وخير وانسانية . واختلاطه بكل طبقات المجتمع ودرسه لعقلياتهم وأمزجتهم المختلفة يحتم عليه أن يكون ذا ثقافة بسيكولوجية لينجح في تأدية رسالته لأن الطب أقرب العلوم الى البسيكولوجيا العملية ، فعمله ليس مقصوراً على الافراد بل والجماعات . وكل طبيب حاز شهرة في فنهِ عندهُ خبرة بسيكولوجية عملية وان لم يكن قد درسها من قبل

وكذا الحال في رجال الأعمال الناجحين في أعمالهم التي تحتاج لمعاملة الافراد والهيئات والحكومات

وقد اتسقت واجبات الطب وامتدت الى النظر في الشؤون الاجتماعية فلا مندوحة للطبيب عن أن يتصل بسلطة المجتمع الذي يعيش فيهِ ويستعين بذوي الجاه والنفوذ والمال لتتوفر له وسائل النجاح في تأدية رسالته

واذا فكرنا قليلاً نجد انهُ لولا التعاون الذي تحتمه المدنية والحضارة لما امكن أي انسان أن يؤدي عملاً مجدياً مثمراً مفيداً . فالعلوم والفنون والتعليم والتربية والصناعة والقضاء والتشريع والادارة وغير ذلك من مختلف الاعمال كلها تتعاون لحفظ كيان الحضارة. وترتقي الامم بتوثيق هذا الارتباط وتنحط بتفككه . والعامل البسيط والصانع والفلاح والخادم الى آخرهم يؤدي كل منهم وظيفة انسانية نافعة للمجتمع . قال الشاعر

فالناس للناس والدنيا مكاتفة بعض لبعض وان لم يشعروا خدمُ

وقد كان للطب اثر كبير في نجاح المشروعات العظيمة . وفي التاريخ الحديث عبرة من فتح قناة بانما اذ كان لتأثير انتشار الملاريا اثر سيء على نجاح المشروع في اول امره . وعند ما واجهت امريكا هذه المشكلة بالاحتياطات الوقائية والعلاجية عادت الصحة الى العمال وامكن اتمام هذا العمل المجيد . وقد حفظ التاريخ بين صفحاته فوز الطب وانتصارهُ الباهر في اتمام المشروعات الحيوية العظيمة بعد أن أخفق المال وحده في اتمامها

الامير عمر طوسون

كما عرفته

حديث لسعادة فؤاد أباظة باشا

مدير الجمعية الزراعية الملكية

رغب اليَّ صديقي رئيس تحرير المقتطف ان أتلقى حديثاً لهذه المجلة من فؤاد اباظة باشا عن المغفور له الامير عمر طوسون . فهو من أكثر الناس معرفة بالامير الراحل الذي كان رئيساً للجمعية الزراعية الملكية

ولقد استغرق هذا الحديث مع فؤاد باشا ثلاث جلسات ، تبينت خلالها احاطة واسعة ، وتواضعاً جميلا من جانب محدثي الكريم . وقد تفضل فأمدني بما ليس لديَّ من مؤلفات الراحل العظيم لمراجعتها في عدد آت

واني بعد ان عرضت على سعادته هذا الحديث فأقره لا يسعني الا شكره باسم المقتطف

محمد عبد الغني حسن

لا أدري أي النواحي عن الأمير عمر طوسون أطرق ، فهو جامع لكل خلال الخير ، ومن أية ناحية نظرت اليه وجدته عظيماً جليل القدر . فكأن الشاعر القديم عناه بقوله :—

كالبدر من حيث التفت وجدتهُ   يهدي الى عينيك نوراً ثاقبا

وقد أفاضت الصحف والمجلات الاسبوعية في وصف الأمير ما أفاضت وكانت سيرته موضوع الحديث على كل لسان . ونقل الأديب في كل سامر . فكان رحمه الله الحديث الحسن لكل واعٍ ، والكلمة الطيبة في فم كل متكلم . وما كذب القائل : —

وانما المرء حديث بعدهُ   فكن حديثاً حسناً لمن وعى

وهنا قلت لمحدثي . وما أصدقَ الشاعر حين قال :

تدول أحاديث الرجال وتنقضي   ويبقى حديث الفضل والحسناتِ

***

ولقد وُصفَ رجلٌ فقيل فيه « فُتّش عن تجربة » فأنا محدثك اليوم عن الأمير حديث المجرب لهُ ، وقاصٌّ عليك بعض ما رأيت منهُ في الجمعية الزراعية التي تشرفتْ برياسته، خلت اليوم من مكانه ومكانته . وهو مكان كان رحمه الله فيه ملء السمع والبصر . فقد نزل ن بين أعضائها منزلة الاعزاز والتكريم والحب . وتلك منازل يهبها الله لمن يكل اليه الأمر

الكبير والشأن الخطير . وكان حضوره في جلسات الجمعية سبباً الى مبادرة الاعضاء للاجتماع. فكأن بينه وبينهم دوافع وجواذب . والآن وقد انفضَّ منه المجلس ، وتعطل الندي . إلاَّ أن روحه لا تزال مرفرفة ، وحماسته للجمعية لا تزال ماثلة ، تستمد منها المضي الى غاياتها ، والاستمرار على تحقيق أهدافها . ولا أذكر أن جلسة واحدة شهدها الأمير فتأجلت لعدم اكتمال العدد القانوني

ولعلك تسألني عن السر في تلك المكانة التي أنزلها الامير بيننا . وليس في المسألة سرٌّ أذيعه ، ولكنها فضيلة حباه الله بها . وأرى من الوفاء لهُ أن أنشرها . ولم تكن تلك الفضيلة مطوية حتى تنشر ، أو مكنونة حتى تذاع . ولكنا نحن الذين اتصلنا به واقتربنا منه عرفناها له وأكبرناها فيه . ويسرني اليوم أن تذيعها بوساطة « المقتطف » على الذين لم يتح لهم أن يعرفوها بأنفسهم أو يشهدوها بأعينهم

لقد خلق الأمير بيننا جوًّا يتجلى فيه الحب لشخصه . وكان حبًّا يكتنفه الاجلال ويحيط به الاحترام . وكان على بعد منزلته دانياً ، وعلى جلال قدره متواضعاً

***

لقد أحببنا الأمير لانهُ كان منا وكنا منهُ . وكانت تنزل النازلة بأحدنا فيجد عند الأمير حسن العزاء وجمال المواساة ... وكان يحل المسرور بأحدنا فيجد عند الأمير لطف المشاركة وكرم التهنئة . أليس في ذلك ما يأسر القلوب ويطوّق الأعناق ؟

وأحببنا الأمير في الجمعية لانهُ كان يدير مناقشاتها ومباحثاتها في جو هادىء ، مما يفسح المجال للرأي الناضج والفكر المختمر . وكان شر الآراء عنده الرأي الفطير . فلا يصدر القرار إلاَّ بعد البحث الطويل والرأي الحر والاقتناع بالاجماع . فاذا ما تشعبت مسالك الفكر ، واختلفت مذاهب الرأي في الأمور الهامة ، أحالها على المختصين من أعضاء المجلس ، وعلى اللجان الخاصة لدراستها دراسة تفصيلية . ثم أخذ رأي المجلس واحترم رأي الاغلبية ، ولو كانت في غير جانبه . بعد أن يطلب اثبات رأيه . ولم يستأثر سموه بذلك الحق لشخصه أو يختص به لنفسه ، بل كان ذلك حقًّا لكل عضو من الاقلية

فأنت ترى انهُ كان معنا يأخذ بالشورى ، ويدع المجال لاصطراع الأفكار ومبادلة الآراء . ولا يبت في أمر حتى تدرسه اللجنة المختصة وبعرض رأيها على المجلس لاتخاذ قرار في الامر . والواقع ان ادارة الجمعية كانت تسير — وستظل سائرة ان شاء الله — على المبادىء الدستورية والأخذ بالشورى والخضوع لرأي الاغلبية . وكان سموه لا يتعدى اختصاصات المجلس ، والمجلس لا يتعدى اختصاصات اللجان . والجميع لا يتعدّون اختصاص

المدير العام . وكل أولئك في حدود السلطة العليا للجمعية العمومية صاحبة الرأي الأعلى في شؤون الجمعية

فكان نظاماً برلمانيًّا دقيقاً رضي عنهُ الجميع ، فاذا ما استقر الرأي على مبدأ من المبادىء كان سموه « نظاميًّا » من طراز رفيع وغرار بديع . وكأنما أشرب « النظام » في قلبه ، وخالط حبه دمه ، فلا يرضى بالعبث به أو الخروج عليه على أية صورة

ولا شك ان هذه الروح « النظامية » كان لها أثرها بين موظفي الجمعية .. فاطرد بينهم النظام ، واتسق سير الاعمال . وطبيعة عمل الجمعية الزراعية تقتضي قيام العلاقات مع الحكومات المختلفة . وهنا يقوم عامل لا يتصل بادارة الامير ورياسته أكثر مما يتصل بمركزه وشخصيته . فقد كان لتلك الشخصية المحبوبة والذات الموهوبة مركز ممتاز محبوب وكان لذلك المركز أثره في تسيير أعمالنا . وكانت علاقاتنا بالحكومات المختلفة تقوم على أساس من حسن التفاهم وجميل التعاون

ومن هنا كان احساسنا نحن بالمصاب عظيماً ، وخطبنا في الفقيد أليما

***

هذا هو الأمير عمر طوسون في الجمعية ، بل تلك ناحية واحدة من نواحيه المتعددة فيها، ولو شئت أن أقص عليك الكثير من آثاره لتشعب الكلام . فله في كل زاوية منها حجرٌ ، وفي كل بقعة أثر ، وفي كل عمل لها أحاديث وسير . ولكن المقام لا يأذن

أما الأمير خارج الجمعية ، فاسأل عنه في كل ميدان تره فيه سابقاً . فما تخلف عن شوط ولا قعد عن غاية ، ولا أحجم حيث يجب الاقدام . وكنت تراه في اليوم العصيب والأزمة المحدقة ، والشدة العارمة ثابتاً كالطود ، واضحاً كالصُّوى . صريحاً في الحق ، جهيراً بالرأي يخلص النصح ويصدق المشورة ، وبخاصة اذا اختلفت النوازع ومالت الدواعي

وما ألبس، رحمه الله، الباطل حقاً ، ولا صوّر الكذب صدقاً . بل كان رأيهُ لله وللوطن، ذلك الذي قال فيه في مقدمة أحد كتبه « هذا الوطن العزيز الذي مهما بذلنا في سبيله من جهد فلن نستطيع أن نوفيهُ شيئاً من حقوقه الواجبة »

ولم يكن في وطنيته مستبدًّا ولا مستكبراً ، بل كان ديمقراطيًّا شعبيًّا . ولم يفرض على الناس زعامته ، بل فرضها عليهم صدق دعوته واخلاص عقيدته. فاذا ما أشكل الأمر ، وأعضل الرأي التفت الناس الى الأمير عمر طوسون وتطلعوا اليه فلا يضن بالرأي ولا يبخل بالمشورة . وأدلى بما ينصح به الناصح الشفيق الذي يخلط حلو الكلام بمره ، وسهله بوعره ويحرك الاشفاق منهُ ما هو ساكنٌ من غيره

وهذه المشاركة الشعبية تظهر بجلاء في البلاغ الذي صدر عن اصحاب السمو الامراء وفيهم عمر طوسون يوم ٣ / ١ / ١٩٢٠ وفيه « جئنا نحن اولاد محمد علي لا لنشارك أمتنا في أمانيها ومقاصدها فقط ، بل لنضم صدورنا الى صدور افرادها ، ونجعل ايدينا في ايديهم حيث إننا لسنا الاّ روحاً واحداً ، حتى نكون جسماً لا يجبر ، وقوة لا تقهر . فنطالب بحقوق وطننا »

وكما كان معنا في الجمعية من احترام الرأي وتقدير حرية الفكر كان في مواقفه الوطنية. كما جاء في حديثه مع المرحوم الشيخ عبد المجيد اللبان يوم ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٢٠ « وانهُ — أي الامير — وان كان رأيه الخاص الذي يتمسك به كل التمسك هو وجوب حصول البلاد على حقوقها كاملة غير منقوصة فهو يحترم رأي الامة لانهُ رأي الجماعة التي يتحتم احترام رأيها »

فهل رأيت بعد هذا مثلاً لاحترام الرأي من رجل كان يمكنهُ أن يتخذ من شرف نسبه وجلالة قدره مسوّغاً للاستبداد بالرأي والاعتساف في الحكم ؟

وكفاه في الوطنية فخراً أنهُ هو اول من دعا الى ارسال وفد مصر الى مؤتمر فرساي في ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ للمطالبة بحقوقها . وكانت الفكرة اختمرت بادىء ذي بدء في نفسه فحادث بشأنها المرحوم محمد سعيد باشا فاقترح عليه ان يتكلم فيها مع المرحوم سعد زغلول باشا لشخصيتهِ البارزة في الهيئة الاجتماعية وفي الجمعية التشريعية . وقد ظاهر سموه بالفعل الوفد الذي سافر من أجل هذه الغاية وزوّده بماله وجاهه وآرائه

أما السودان فكان للامير همه وشغله ، فهو شديد الايمان بالعلاقة بين الشقيقين ، ولا يدع فرصة تمر من غير توطيدها . وفي كتابه (المسألة السودانية — طبع المستقبل سنة ١٩٣٦) يعرض الادوار التي مرت بالمسألة السودانية عرضاً تاريخيًّا وطنيًّا رائعاً

ولقد اتخذه السودانيون في مصر دعامة لهم وركناً شديداً يأوون اليه فيجدون فيه نجدة الكريم واخلاص الحميم وحصافة الحكيم ، وامتدّ نائله الى السودان تربة وأرضاً لا دعاية وكتابة ، فعم ريفه وحضره ، وسهله ووعره . وكفاه فضلاً أن البعثتين اللتين أوفدتهما الجمعية الزراعية الى السودان سنة ١٩٣٥ وسنة ١٩٣٧ كانتا من ثمار تفكيره

(الحق ان هذا تواضع من فؤاد اباظه باشا . فالبعثة الاولى كانت من ثمار تفكير اباظه باشا نفسه . فعرضها على الامير فشملها سموه بعطفه وتشجيعه ، هل أغضبت فؤاد باشا لأني أذعت عنه فضلاً رأى حياؤه أن يستره ، وأبى تواضعه أن يذكره ؟ ولكن الفضل أجدر أن ينشر ، وأحق ألاّ يستر ، وقد هداني الى هذه الحقيقة كتاب « السودان » الذي أخرجته

وزارة التجارة والصناعة سنة ١٩٣٨ مطبعة مصر . وقدم له بمقدمة صاحب العزة عبد الرحمن بك فكري — عبد الغني)

***

وكان في الامير عمر طوسون نزعة دينية قوية . فهو يكره الخمر وشاربها . وقد جعل جمعية منع المسكرات بالاسكندرية تحت رياسته الشرفية وأولاها معونته . ومن مآثره انهُ اقترح على الحكومة المصرية اشتراكها في مؤتمر مكافحة المسكرات المعقود في (انفرس)

وكثيراً ما كان يحارب الآراء الاجتماعية المتطرفة التي باعدت بين المسلمين ودينهم القويم. وهنا يتجلى حفاظه وغيرته

وما كان أشد فرحه حين يرى مسجداً أُسس على التقوى ، أومنارةً يرتفع منها الآذان باسم الله الاكبر . والمسجد الذي انشئ في قرية (بهتيم) النموذجية هو من وحيه واشارته

على ان هناك في اقصى جنوبي السودان مئذنة عالية لمسجد جديد . ولو كانت تنطق الاحجار وتتكلم الديار لنطق هذا المسجد بأيادي الأمير عمر طوسون عليه

ذلك هو « مسجد جوبا » وتلك هي مئذنته . وهناك في تلك الأرض النائية وذلك المكان السحيق، يجتمع المسلمون ليولوا وجوههم شطر المسجد الحرام خمس مرات في اليوم...

ولم يكتف الأمير بتأليف لجنة لبناء « جامع جوبا » تحت رعايته بل بدأ التبرع بمائة جنيه ثم شفعها بألف وألف لانشاء مبان يستغل ريعها للانفاق على المسجد ومرتبات القائمين عليه، هذا عدا اعانات أخرى لمساجد متعددة في السودان . رحم الله الأمير لقد رفع للدين حوائط ومنائر ، والله يقول « انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر »

***

أما الأمير عمر طوسون المزارع فقد كان فلاحاً بطبعه ، مشغوفاً بالزراعة محبًّا لأصحابها. وقد وُهبَ في هذا الباب عبقريةً خاصةً غذاها بالصبر ، ونمّاها بالجهد ، وأضاف الى عقله المطبوع عقله المصنوع . فبلغ بمزارعه مبلغاً نقلها من أرض غامرة الى جنانٍ عامرة بيدين حولتا الجدب خصبا فكأنهُ الامير أبو دلفَ الذي مدحه الشاعر بقوله :

ولو يجوز لقال الناس كلهمُ   لولا أبو دلف ما أورق الشجرُ

***

أما اهتمام الامير بالعلم فتنطق بهِ مؤلفاته ومحاضراته وأبحاثه . وكان شديد التتبع لكل كتاب يظهر ، أو بحث ينشر ، أو محاضرة تذاع . فاذا رأى موضعاً للتعليق أو الاعتراض لم يحجم عن ذلك . سواء كان الموضوع سياسيًّا أو تاريخيًّا أو اجتماعيًّا . وكان أسلوبه

في الرد والمناقشة خالياً من شوائب الكلام . فلا يقصد إلاّ الحقيقة ولا ينشد إلاّ المصلحة . وما عرفت عنهُ انهُ نال من مُناظِره أو حاول أن يحطّ من شأنه . ولكنه كان يناظر في أدب العظيم ، وحكمة الرزين

وأروي للقراء مسألة تدل على يقظته وتتبعه لكل ما ينشر أو يقال : فلقد شك أستاذ محاضر ذات يومٍ فيما جاء بكتاب الامير « مديرية خط الاستواء » من أنَّ ملك أوغنده كان تحت حماية مصر . فاهتم الأمير بالامر . وعزَّ عليهِ أن يخرج هذا الرأي من رأس مصري . وأقنع المحاضر بالحجة والبرهان ان أوغنده كانت حقيقة تحت حماية الحكومة المصرية

أما مؤلفاته فقد ذكرتها الصحف سرْداً . ولعلكم تتناولون التعريف بها الى قرائكم في المقتطف تعريفاً يدل على موضوع كل كتاب وقيمته للحق والعلم والتاريخ (سأفعل — ان شاء الله — في العدد المقبل في الباب المستحدث : — التعريف والتنقيب — عبد الغني)

وللامير نواحٍ أخرى كثيرة لو اتسع المقام لأطلت الحديث عنها . الاّ انني اكتفي بالاشارة الى غرامه بالرحلات والكشف والارتياد . والصحراء الغربية على الخصوص تشهد بذلك . وله على « المتحف الحربي » أيادٍ لا تنكر بين تشجيع وتوجيه واهداء . وله مشاركة طيبة في «متحف الحضارة» الذي اهتم به حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق . فقد جعل الأميرُ عمرُ الجمعية الزراعية تساهم في المشروع . وكان — سَقت قبره الغوادي — مرجع اللجنة فيما يختص بقسم السودان . وكان اكثر رجالنا اطلاعاً على تاريخ مصر القديم والحديث . ولا يزال المجمع العلمي يذكر له محاضرته بالفرنسية عن فروع النيل القديمة وقد ظل ثلاث ساعات يلقيها

***

وأكبر ما كان في الأمير مروءته وانسانيته، وهمته وحيوية ضميره ، وكان أفق انسانيته فسيحاً لا يضيق بالحدود ولا ينحصر في بقعة من الارض . ولكنه امتد الى بلدان اخرى كموقفه من الحرب الطرابلسية وحرب البلقان وحرب الحبشة . فقد كان دائماً سباقاً الى النجدة سريعاً الى الندى

واذا قال الشاعر الجاهلي في مدح قومه :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم   في النائبات على ما قال برهانا

فان الامير عمر طوسون لم يكن ينتظر حتى يندب . ولكن مروءته كانت دائماً تبدأ ؛ ومعروفه كان دائماً يبتغى . .

تلك أسمى مراتب الانسانية

اللغة القبطية

نشأتها وتطورها

للدكتور باهور لبيب

قبل أن نتحدث عن اللغة القبطية نشأتها وتطورها يجدر بنا أن نعرض لهذا اللفظ ومدلوله وأصله واشتقاقه لأن البحث عن أصل الكلمة يميط اللثام عن معالم كثيرة تنير الطريق للباحث وتبعده عن الوقوع في الخطأ . فلفظ (قبطي) نسبة الى (قبط) وهنا نرى ياء النسبة العربية . أما كلمة (قبط) فهي تحريف للفظ اليوناني والروماني الذي أطلقه اليونانيون والرومانيون من بعدهم على مصر والمصريين بعد حذف السابق (اي) واللاحق (وس) وبقيت كلمة — جبط —. بالجيم المعطشة التي تنطق عادة (ق) ، لذلك كتبت الكلمة بها أي (قبط) بمعنى مصري . ولا شك في أن يونانية هذا اللفظ الخاص بمصر وشعبها لدلالة قوية على العلاقات القديمة التي كانت قائمة بين مصر واليونان فالتاريخ يحدثنا والآثار تؤيده على ان العلاقات اليونانية المصرية بدأت في أوائل الدولة الحديثة أي في عصر التوحيد الثالث (١٥٨٠ — ١٠٨٥) ق . م . وذلك ان بعض الفراعنة استعان بالجنود اليونانيين المرتزقين في بعض حروبهم .

وأخذت هذه الصلة تنمو تدريجيًا حتى إننا نجدها تجارية في العصر الذي سبق حكم الفرس لمصر . وبعد دخول قمبيز عاهل الفرس البلاد نزح كثير من التجار اليونانيين وتبعهم عدد عظيم من علماء اليونان ومفكريهم الذين عنوا بدراسة تاريخ مصر وآثارها ودينها وأخلاق اهلها ، نذكر منهم هيرودوتس المؤرخ وأفلاطون الفيلسوف وهوميروس الشاعر وارفيوس الموسيقي وغيرهم وهكذا أصبحت مصر كعبة القصاد من بلاد اليونان المختلفة من تجار وعلماء وجنود حتى ان (بسماتيك الاول) مؤسس الأسرة السادسة والعشرين (وأول ملك من ملوك عصر التوحيد الرابع) منح الجالية اليونانية جزاء المساعدة التي قدمها له جنود اليونان بعض الاجزاء من البلاد لتكون خاصة بهم وبأسراتهم من بعدهم كالحي الخاص باليونانيين في بلدة منف وفي بلدة دفنة . ثم في عصر الملك احمس الثاني خصصت لهم مدينة (نوقراتيس) وموقعها الحالي بالقرب من صفط الملوك

لذلك لا نعجب أن نرى بعد ذلك شعب مصر يرحب بقدوم الاسكندر ويرسم كهنة آمون له ابنًا لكبير آلهتهم آمون ومنحه سائر الألقاب الفرعونية الخمسة . توفي الاسكندر

وورثه البطالسة فأخذت الصلة بين مصر واليونان تقوى حتى صارت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية وقدبقيت كذلك حتى دخول العرب مصر وتعدت العلاقات الثقافية الى السياسية إذ أصبحت مصر تحت حكم اليونان مدة طويلة (٣٣٢ ق . م . الى ٣٠ ق . م .) وكانت هذه المدة الطويلة كافية لتوثيق العلاقات بين الشعبين المصري واليوناني وكافيـة أيضاً لأن يلمس المصريون الفرق بين الكتابتين اليونانية والمصرية القديمة متمثلة في الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقيـة فبينما الكتابة اليونانيـة ، وان كانت من أصل مصري ، تتطور وتصبح أكثر ملاءمة للحياة في ذلك الوقت إذ بالمصرية تبقى محافظة على صورها وأشكالها القديمة المختلفة .لذلك شعر المصريون بالحاجة القصوى الى وجوب العدول عن الكتابة المصرية القديمة الى الأبجدية اليونانية التي كان المصريون قد أخذوا في استعمالها بخاصة في كتابة أسماء الأعلام. ثم قاد هذه الحركة فيما بعد العالم الاسكندري (بونثينوس) وتلاميذه المصريون حوالي أواخر القرن الاول وأوائل القرن الثاني للميلاد فقد نقحوا الاملاء القبطي وكتبوا اللغة في الابجدية اليونانية البالغ عدد حروفها اربعة وعشرون واضافوا اليها سبعة حروف وهي (شاي وفاي وخاي وهوري وجنجا وكيما وتي) اخـذت من الديموطيقية لعدم وجود اصواتها في اليونانية . ثم اضافوا حرفاً آخر وهو (صو) الذي يستعمل للدلالة على العدد «٦» كما هو الحال في اليونانية. ومن حسن الحظ ان حفظ لنا التاريخ بعض الكتابات القبطية القديمة التي ترجع الى العهد الذي لم يكن قد اعترف فيه بعد بالمسيحية ديناً رسميًا للدولة بالرغم من دخول المسيحية البلاد ايام حكم نيرون على يد القديس مرقس عام ٥٤ م

ومن أشهر هذه الكتابات البردية التي طبعهـا العـلامة (جريفث) (١) والنص المحفوظ بمتحف اللوفر ونشره (ارمان)(٢). فهذان النصان يعالجان اموراً تتصل بالسحر والفلك لا علاقة لها بالمسيحية بتاتاً . ففي البردية الاولى نجد ذكراً لنجم السعد وآخر لنجم النحس كما يوجد في النصين دعاء الى اوزيريس اله الموتى وانوبيس اله الجبانة ورع وايزيس . وغير هذه الكتابات عثر في اخميم على بطاقات للمومياء يرجع تاريخها الى القرن الثاني الميلادي وبعضها مؤرخ بالعام الرابع من حكم الامبراطور هدريان وقد نشرها (شتيندورف) (٣) . وكلمـا يتقدم بنا العهد نجد المسيحيـة تتثبت في مصر فتنهزم امامها الوثنية ويضطر الامبراطور قسطنطين الى الاعتراف بها ديناً رسميًا له وللدولة حوالي عام

(١) F. L. L. Griffith, The old Coptic Horoscope of the Stobar Collection, Aeg. Z. 38, pp. 71—85

(٢) A. Erman, Die aeg. Beschwoerungen des grossen Pariser Zauberpaprus, Aeg. Z. 1883, p. 89

(٣) Steindorff, Aeg. Z. 1890, p. 49 : Die Mumien Etiketten

٣٢٥ م . وحوّل خلفهُ بعض المعابد المصرية القديمة الى كنائس كما اغلق الباقي منها ثم جاء الامبراطور (جوستنيان) فأرسل قائده (نرسيس) الى جزيرة الفيلة حيث قضى على البقية الباقيــة من عبادة ايزيس واوزوريس . وهكذا نرى المسيحية تعزز بعد ان قدمت من ابنائها الشهداء الكثيرين ايام حكم (دوقلسيان) حوالي عام ٢٨٤ م . فأصبحت مصر بعد ذلك معقلاً للمسيحية ووطناً للديورة والرهبنة ، واستطاع الاقباط أن يخلقوا فنـًّا قبطيـًّا متأثراً باليوناني حيناً وبالفرعوني حيناً آخر

أما اللغة القبطية وآدابها فقد استمرت حيَّة حتى القرن العاشر الميلادي بدليل اننا نجد الاسقف ساويرس بن المقفع يقول ما معناه ان القلم العربي عرف عند أهل الديار المصرية كما اننا نعرف من جهة أخرى ان كثيراً من العرب عرفوا اللغة القبطية حتى نجد في أوائل الحكم العربي لغة الدواوين القبطية أو اليونانية . وظلت اللغة القبطية اللغة الرسمية لمصر حتى عهد عبد الله أخ الوليد بن عبد الملك بن مروان . الذي أحل العربية محلها سنة ٧١٤ م . ولما كانت سنة ٩٩٧ م قام الحاكم بأمر الله بن العزيز أحد ملوك الفاطميين وأمر بابطالها لغةً حية.

واللغة القبطية كغيرها من اللغات تنقسم الى لهجات وقد ظهر ذلك جليـًّا عند استخدام الأبجدية اليونانيـة لاستخدام الحروف الصائتة الى جانب الصامتــة (المتحركة والساكنة) بخلاف الجاري في اللغات السامية التي تكتفي بالحروف الصامتة فقط . ونحن نستطيع ان نفرق بين خمس لهجات في القبطية ولا نستطيع ان نجزم بوجود أكثر من لهجتين في العصر الفرعوني . وأشهر اللهجات القبطية هي :

أولاً — البحيرية التي كانت أصلاً لهجة الاسكندرية عاصمة مصر الرسمية ، ايام اليونان والرومان ، وما جاورها في الوجه البحري . ومما زاد في انتشار هذه اللهجة انتقال بطاركة الاسكندرية الى (بابلون) أي الفسطاط او مصر القديمة ثم الى القاهرة واستخدامهم اللهجة البحرية كلغة رسمية للكنيسة . وما تزال هذه اللهجة مستعملة الى اليوم فقط في العبـادات في الكنائس الارثوذكسية وبين قليل من الأسر ويلاحظ انها أكثر اللهجات تأثراً بالمفردات اليونانيـة لقربها من مواطن الثقافة اليونانية

ثانياً — اللهجة الصعيدية وهي لغة أهل طيبة (الأقصر) ومعظم سكان الصعيد الأعلى

ثالثاً — اللهجة الأخميمية وهي خاصة بأهل اخميم وأقرب اللهجات الى المصرية القديمة وأبعدها تأثراً بمفردات اللغة اليونانية وذلك لبعدها عن الأوساط الاجنبية

رابعاً — اللهجة الفيومية وهي لغة سكان الفيوم وما جاورها من البلدان

هذه نظرة عاجلة عرضت فيها للغة القبطية نشأتها وتطورها كما بينت ان لفظ قبطي هو اسم يطلق على أبناء مصر مسيحييها ومسلميها ، وسأتحدث الى القراء عن بعض أدب هذه اللغة



القوى الخلقية

للموسيقى

لعثمان علي عسل



برينو فالتر Bruno Walter من الموسيقيين المعروفين في العالم. فقد كان رئيساً لجوقة اوبرة برلين وفينة وميونيخ . وقام بعدة رحلات الى باريس وروما والولايات المتحدة وقد نشر هذا المقال في مجلة الماركير دي فرانس Mercur de France (فبراير سنة ١٩٣٩) مترجماً بقلمي كوليت وجاك فيشوت . وعن هذه الترجمة نقلنا هذا المقال

ان من يلاحظ المستمعين في قاعة للموسيقى يسترعي انتباهه ظاهرة سيمائية أخاذة ذلك انهُ قبل أن يبدأ العزف ، يبدو الجمهور كأنهُ غير مكترث . ثم لا تلبث الموسيقى أن تبدأ ، فتنقل الى مملكتها هذه المخلوقات البشرية التي كانت الى هذا الحين سادرة . وهكذا تتحوّل كل الوجوه بتأثيرها ويرتسم عليها تعبير غير عادي من الانفعال والسماحة : فهذا التحوّل العام في أسارير الوجوه ، يشهد بجلاء ان عاطفة عميقة أو نفحة من الخير أخذت تلمس النفوس وذلك أن الموسيقى حينما تستحوذ على المستمعين ، بفيض أنغامها ، تثير في نفوسهم هاتفاً خلقيّاً يمكن التعبير عنهُ بهذه الكلمات :

« لتطرح بعيداً عنك كل ما هو مبتذل وشرير . ودع السبيل لما ينطوي عليه قلبك من أسمى النزعات وأنقاها وأكثرها حدة »

وأنني لعلى يقين من انني لا أبالغ . ألم تتهيأ الفرصة لكل انسان ، بعد أن تضطره الموسيقى الى الخلو الى نفسه ، أن يلاحظ انها تصير بعد ذلك مصدراً للسمو ؟ وهكذا نجد أنفسنا منساقين الى أن نتساءل عن القوى التي تسري خلالها تلك القوى التي لا يظهر أثرها على الحساسية الموسيقية فحسب ، بل على العاطفة الخلقية للمستمعين أيضاً . ولكن ينبغي عليّ قبل أن أتصدى لهذا البحث ، أن أتجنب سوء فهم قد يعترض القارىء . فمن الأمور التي لا تخطر على بالي ، بحث الآثار الخلقية للموسيقى باعتبارها أهم رسالة للموسيقى ، وأن أجعل منها وسيلة للتهذيب والتربية . كلا ! فالقوى الموسيقية وآثارها في عالم الأصوات هي ماهية الموسيقى الحقيقية . غير انهُ اذا تيسر لها فوق ذلك ، أن تضفي على الانسانية شيئاً من

التحسن ، مهما كان ضئيلاً ، فلنا كل الحق أن نسجد في معبد الجمال شكراً على هذا العون ، المنقطع النظير الذي تسديه للخير

واذا أردنا أن نميز هذا الهاتف الخلقي ، الذي تثيره الموسيقى في النفوس ، نجد من حسن الحظ ، شواهد أخرى غير هذه الشواهد التي لاحظناها في تغير السمات ، وان كانت هذه شواهد غنية بمعانيها . أليس في مقدورنا أن نتأمل النفس بدراسة حركاتها ، حين تؤثر فيها الموسيقى ، بدل أن نفحص سمات وجوه غريبة عنا ؟ وأينا لم يحس أن الضباب الذي يخيم عليه ، يكون أسرع تبدداً بفعل الموسيقى من انقشاع السحب أمام الشمس . كما انها تحرك في الوقت نفسه كل ما فينا من الخير والحب

وقد عبر الشاعر شوبير Shober عن هذه الفكرة بوضوح ، في قصيدته عن الموسيقي أوحاها اليه شوبارت « لقد أشعلت في قلبي حبًّا ملتهباً ، وفتحت أمامي أبواب عالم أسمى » ونحن الذين نعشق الموسيقى ندين لها بهذا الانفعال ، والسمو ، ونشوة القلب ، وحالة التجلي أيضاً . وقد عرفنا كل هذه الاحوال بتجارب عديدة وجميلة

ولكن مما عسى أن تتكوّن هذه القوة الخفية ، التي توقظ فينا هذه الرغبة الشديدة في الخير ، هذا « الحب الملتهب » الذي يشير اليه شوبير ؟ هل شخصية الموسيقار الروحية السامية المتلألئة بالحب هي التي تعبر عن نفسها في موسيقاه ، أو انها تطرد أثناءها بقوة طاغية ، تدفعنا في تيارها بلا مقاومة ، الى أسمى أجواء هذه العاطفة . أو هل في طبيعة كل موسيقى وسورتها قوة تعمل في طبيعتنا الخلقية وهي مستقلة عن شخصية الموسيقار ؟ وأخيراً هل يتبدل الانسان حقيقة الى أحسن مما هو عليه بتأثير الموسيقى ؟ أو أن مآل هذا الهاتف الخلقي كمآل خطبة أنطون قديس بادوفا للأسماك التي يتحدث عنها الشعر « ما كاد الوعظ ينتهي حتى عاد كل الى طبيعته فأسماك اللوتسو ظلت لصوصاً وثعابين البحر عشاقاً ، فالخطبة ساحرة ، غير أن الأسماك كانت هي هي . أي انها ظلت كما كانت » . فهل هذا شأن الموسيقى ، وهل ينتهي الهاتف الذي توجهه للبشر ، الى ما انتهى اليه وعظ القديس انطون ؟ واذا كان هذا الهاتف التهذيبي يثير لذة واقعية ، ألا ينتهي بِهِ الأمر الى تأثير دائم ؟ واذا لم يكن الأمر كذلك ، فهل نتهم قوة الموسيقى التهذيبية بالضعف ، أو نتهم الجنس البشري بالعجز والنقص ؟

ان التجارب التي تمت حتى الآن تجيب إجابة لا تؤيد كل التأييد هذا السؤال من وجهيه لأنهُ اذا كان الانسان ينزع حتماً نحو الكمال بتأثير الموسيقى ، فينبغي علينا نحن الموسيقيين ،

الذين نخضع لتأثيرها على الدوام، أن تكون الخلاصة النهائية لأخلاق الانسانية، لأن أمواجها المطهّرة تدفعنا كل يوم وترمينا في عبابها العاصف. ومع ذلك فانني أخشى أن لا يكون الموسيقي على العموم أحسن طبعاً أو أحط خلقاً من الذين يمتون الى حرف أخرى. واذا كان بين أفذاذ الملهمين، من لهم شخصيات سامية طاهرة أمثال باخ وبتهوفن وموزارت وشوبارت، فانهُ يوجد من أصحاب العبقرية المبدعة، من لا تثير حياتهم في نفوسنا اعجاباً من غير تحفظ. ففي نفوس هؤلاء المبدعين، وهي الينابيع الأصلية للموسيقى الحقيقية، التي تجعلنا نحس الرفعة والحماسة والصفاء، ما يكدر صفوها من البواعث الدنيئة. كما ان حياة هؤلاء الرجال العظماء تنطوي على أعمال لا عظمة فيها، وعواطف وضيعة

أفلا يبدو لنا بعد ذلك أن هاتف الموسيقى التهذيبي، ليس له إلاَّ آثار عابرة تعمل في النفس، على نحو ما يعمل التيار الكهربائي في قطعة الحديد المغطسة التي تكتسب حين يتم النحاس قوة لا تلبث أن تزول حين ينقطع، ومن ثمَّ تعود قطعة من الحديد هامدة؟

وأنا لا أعتقد انهُ ينبغي لنا ان نضع أهمية القوة التهذيبية للموسيقى موضع الشك، كما انني لا أرتاب أيضاً في أن الانسان على استعداد للانتفاع بها جديًّا. غير انهُ من اللائم حينئذٍ أن نجعل آمالنا متواضعة وأن نسلم بأنه ليس من المحتوم أن تقودنا الموسيقى الى الفضيلة والكمال، كما انهُ من المحتمل أن تردنا الى حالة أحسن. وأنا مقتنع بذلك شخصيًّا. ولكي نتحقق من هذه الدعوى، التي تفيض بالأمل، أود أولاً ان أحلل القوى التهذيبية للموسيقى تحليلاً عميقاً، ثم نتحدث عن نتائجها المحتملة

ومن رأيي ان قوى الموسيقى التهذيبية لها ثلاثة مظاهر: رسالة، وتفسير، ومقياس للقيم الخلقية. وانني لأجد صعوبة هائلة في توضيح النقطة الأولى: وهي كيف تبدو لي الموسيقى رسولاً من مملكة الاخلاق؟ فهي توادي وجهها كما توادي الملائكة الصغيرة محياها بجناحين من أجنحتها في معبد الرب. ومن ثم لا نستطيع ان نراها الرؤية التامة. واذا عدلنا عن هذا النهج في التشبيه، فاننا نعجز عن ادراك ماهيتها ادراكاً عقليًّا واضحاً، ليتسنى لنا أن نعبر عنها تعبيراً يمكن صياغته لفظيًّا. فمنذ عامين تقريباً قام شاب من الولعين بالموسيقى، ببحث في مدينة نيويورك، فوجه الى الموسيقيين المشهورين السؤال التالي: «ما هي الموسيقى؟» وقد بدا لي ان الاجابات التي كنت أعرفها، وكذلك الردود التي تلقاها الشاب، كانت كلها مملوءة بالمغالطات من ناحية، وغير وافية من ناحية أخرى. ولم أرد أنا عليه لأنني أحسست العجز. غير أني كثيراً ما عاودت البحث، منذ هذه اللحظة عن

جواب لا يكون ناقصاً كل النقص . ولم أتمكن الى هذا اليوم ان أضع تعريفاً لمعنى الموسيقى ومع ذلك فنحن جميعاً نعلم ما هي عند ما نستسلم لايحاء الاحساس لا عند ما نلجأ الى جلاء الفكر ووضوح المناقشات التي نصغى اليها ، ففي تلك اللحظة نشعر بأنهُ لا يوجد شيء يمكن أن يأتلف وأرواحنا ، ولا يكون أشد امتزاجاً بها من روح الموسيقى المليئة بالأسرار . كما نعلم جيّداً حينما نصغى الى صوت باطن ، ان ثمة قانوناً جوهريّاً يسير حركات الموسيقى التي لا نهاية لتنوعها : فالنشاز يميل الى الائتلاف لكي ينتهي الى حل . وجميع الأشكال التي يتطوّر اليها التأليف الموسيقي — مهما كان — في الزمان ينتهي بميل نحو التوفيق ، والتهدئة ، والانسجام السكوني . وهذا الميل أو هذا الاتجاه الذي ينتهي الى الهدوء ، من الاضطراب المنسجم ، هو طابع الموسيقى الغربية، وهي التي أعنيها في هذا البحث . والنشاز، متوازناً غير ثابت ، قانون طبيعي لهذه الموسيقى ، ولا يحدث فيها أي اختلال . فهي تجد نفسها مضطرة ان تتحول وتتطور ، لكي تنتهي الى حل في توافق كامل . فكل موسيقى ينبغي أنْ تنتهي عند هدوء التوافق الرئيمي . وليس في وسعي ان استوفي هذا البحث بتتبع تطورات النظرية الموسيقية ، ولكني أجدني مضطرّاً ان أشير بالاجمال الى ان عناصر القلق تعمل كمحركات ودوافع تفضي الى الاطمئنان ، ولا يحدث هذا في الانسجام فحسب بل يحدث ايضاً في تركيب اللحن نفسه . وكذلك الحال في النشاز فانه يؤدي الى فعل مماثل غير انهُ اذا كان كل ائتلاف معناه الانتهاء عند الهدوء ففي أية قطعة من الموسيقى احتمالات كثيرة لختام مفاجيء . فاذا بدا حينئذٍ ان تطور القطعة ما زال يخضع للحركة انتهى الامر بالائتلاف الى ان يكون كالنشاز تقريباً . فالموسيقى في حاجة الى خاتمة لتركيبها عند حل سكوني لكي توكد فعل التوفيق والتهدئة

***

ان تطور الموضوع والسياق والتغمس يدعو الى هذا القلق في الانسجام ، وفي الصورة كما يؤخر ويؤجل في الحلول : لكي يتمخض في النهاية ، عن خاتمة هادئة في السياق النغمي والانسجام ، والصورة . والانفعال النفسي الذي ينشأ عن هذا التردد والتوقف ، وكذلك الآثار التي يتركها على الحساسية ، مردها كما ذكرت الى ان النشاز يميل الى الائتلاف ، واضطراب الصورة الى السكينة ، والتي لا يستطيع ان يصل اليها الاّ بتطور اللحن ولا يبلغها الاّ في النهاية

وفكرة المقام الصوتي من صميم الأفكار التي تتعلق بالنشاز والائتلاف فالتوافق

يكون نافراً او مؤتلفاً اذا اتجه نحو القام ، او اذا بلغهُ . وهؤلاء الذين ينكرون فكرة المقام يطرحون فكرة النشاز والائتلاف . وخطأ النظرية الخارجة على نظرية المقام قائم فيما يلي :

ما دام الموسيقيون من أتباع هذه النظرية لا يعترفون بالمقام الصوتي ، فان النشاز في ألحانهم لا يحتاج الى تقدم ، ومن ثمَّ يفقد هذا النشاز معناه ، كما تنحرف موسيقاهم عن طريقها الطبيعي وتصبح صناعية متكلفة ، ويكون شأنها كشأن البذرة التي لا تحتوي على حيوية محتملة الظهور ، أي انها تظل لغة صوتية مجردة . وهذه الفكرة لا يمكن ان يعقلها ويقبلها ذوو الروح الموسيقية السليمة . لأن أصحاب هذه النظرية لا يحاولون التغلغل في أسرار القوانين الموسيقية ويستبدلون بها نظرية ذات صبغة عقلية . ولهذا من الجائز ان يبدو انتاجهم جريئاً وروحياً ، غير انهُ لا يمكن ان يكون موسيقياً . وأظن انهُ ليس من العبث ان اشير الى ان اكثر الانسجامات وأشدها اندفاعاً لا يمكن ان يكون خارجاً على المقام لأنهُ يعتمد اعتماداً مهما كان ضعيفاً على فكرة المقام . ولا ينطبق ما ذكرت الاَّ على الملحنين الذين يمارسون النظرية المعارضة للمقام الصوتي بدقة . وكذلك المحاولة التي تحول بين الموسيقى والتوافق النهائي ، فان هذه الموسيقى تنتهي الى خاتمة ليس لها منفذ ، فلا يمكن ان يقر انسان ان قطعة موسيقية تنتهي بنشاز ، فمن المستحيل ان نعتقد انها انتهت ولكنها تترك في أنفسنا أثراً بأن هناك انقطاعاً في اللحن . ومهما تحكم الملحن فانهُ يعجز أمام الارادة غير المحسوسة التي تحدو باللغة الموسيقية أن تحل النشاز في روح المقام ، وأن تنتهي بالتوافق التام

وأني لأجد نفسي ملزماً ، لكي استوفي هذا العرض أن أشير الى أن لدينا توافقين رئيسيين : توافق أكبر وتوافق أصغر . وعندي أن الاثنين ليس لهما في الخاتمة نفس القيمة الانسجامية واذا كان الثالث مؤتلف كالتوافق الاكبر من غير شك ، فالتوافق التام الأصغر يبدو لي كعنصر ضعيف نافر ، وأحسب ان (باخ) شعر بهذا عند ما ختم بتوافق تام أكبر قطعة مكتوبة بالتوافق الأصغر . وما دامت قوانين الموسيقى نفسها تسمح بخاتمة بالأصغر ، فعلينا ان نعترف بأن هذا النزوع الاولي نحو التوفيق يمكن ان يعبر عنه بصيغتين وإن كانت احداهما لا ترضينا تماماً . والتوافق الكامل هو الانسجام الوحيد الذي يعبر عن تمام الرضى والسعادة والشعور الكامل بالراحة . وهو خالد لأنهُ عبارة عن النقطة النهائية للتأليف الموسيقي ، كما انهُ لا يدع مجالاً لالهام ما بالتغير

ويشترك المستمع بحساسيته في هذا الميل الدائم الذي ذكرناه ، وهو نزوع ينتقل من الانفعال الى الهدوء ، ثم الى السكينة النهائية المحددة . ولكن ينبغي علينا ان نميز تمييزاً دقيقاً بين ما تعبر عنه الموسيقى بذاتها وما يعبر عنه الملحن خلال الموسيقى . فماهية الموسيقى كما أشرنا هي في هذا النزوع من التنافر الى الاستقرار ، وهي تبلغ ذروتها بانتهائها بالائتلاف. وهكذا تناجينا الموسيقى بميل نحو التهدئة وان كان .هذا لا يمنع الملحن من استخدامها لكي يعبر لنا عن العذاب وسوء التفاهم والتمرد واليأس

وهذا مماثل لما يحدث في مجال آخر ، فقانون الثقل والجاذبية العامة يتحكم في المادة ، غير أن هذا لا يمنع جسماً في وزن هائل كالطائرة من الارتفاع في طبقات الجو والبقاء فيها فالتشابه تام في الحالتين : وهو في تغلب قوة الانسان على القوانين الجوهرية لعنصر من العناصر

وكما أن الادراك الصحيح العميق لقانون الجاذبية ، في حالة الطيران ، يسمح بالتحكم في هذا القانون وبالتمكن من التحليق ، كذلك تتبين بجلاء طبيعة الموسيقى الصادقة ، باستعمال القوانين التي تنظم السياق الموسيقي استعمالاً جريئاً لكي يتسنى للروح أن تعبر عن نفسها بحرية . « الى أعلى » « الى اليمين » « الى اليسار » هذه الاتجاهات التي تخضع لها الطائرة أثناء تحليقها ، على حين قانون الثقل التي تغلبت عليه يلزمها بالهبوط نحو الأرض . ان التعبير عن فيض العواطف يصاغ في لغة موسيقية ، وتكون التهدئة في هذه اللغة عبارة عن قانون أصابه شيء من التعديل . فقد يرغب الملحن في التعبير بالموسيقى عن العذاب وهذه تردد في الوقت نفسه ، همسة من الفرح يكون أثرها أقوى من رنات الملحن الاصلية . فهو يستطيع أن يردد « لا » عنيفة صاخبة ، غير أن اللغة التي يستخدمها لهذا الغرض قد تترنم « بنعم » في صوت يدرك بعناء ، ولكنهُ يكون أشد وقعاً في النفس. والسرور ، كما يقول نيتشه ، أعمق تغلغلاً في النفس من الألم ، وعلى هذا تكون « رسالة السرور » للموسيقى ، من حيث هي موسيقى ، أشد جلجلة في النفس من الآلام العديدة التي تحاول الموسيقى أن تفسرها وفقاً لالهام الملحن. وفي هذا التجلي الشامل الذي يثيره الهناء الداخلي الناشىء من التهدئة العامة ، نجد علة أساسية للسعادة التي تحملها الموسيقى الى المستمع . فعندما نصغي الى الموسيقى نجد أن ميلنا الشديد ورغبتنا العميقة في الانسجام بمعناه العام — يتحققان ويتأيدان ثم يهدآن . وبهذا المعنى تبدو لي الموسيقى رسالة لها قيمة خلقية عالية تحمل من عالم الأصوات الذي تغشاه الاسرار انجيل السعادة الى وجودنا الخلقي

« يتبع »

الحيوان المنسي

للاب أنستاس ماري الكرملي

﴿ تمهيد ﴾ — نريد بالحيوان المنسيّ ذلكم الحيوان الذي لم يذكره علماؤه في مؤلفاتهم ، أقدمين كانوا أم محدثين ، إما نسياناً ، وإما اهمالاً ، واما جهلاً لحقيقته أو اسمه أو لسبب آخر لا نعرفهُ وربما ذكره بعضهم ذكراً لا يتحصل منهُ فائدة تذكر ، كقوله مثلاً : حيوان ، أو طائر ، أو حشرة ، أو سمك ، أو هامّة ، أو نحو هذه الألفاظ العامة التي لا تُسمن ولا تُغني من جوع

وقد عنينا كل العناية للوصول الى نتيجة بيّنة ، لمقابلة الالفاظ بما ورد من جنسها في اللغات الاجنبية ، ان كان هناك ما يشابهها أو يبيّن حقيقتها . وقد اعتمدنا في ذلك كله على معجمنا الكبير المسمى « الساعد » ، وكنا قد ابتدأنا بهِ منذ سنة ١٨٨٣ ، أي منذ نحو من ستين سنة ، ونحن لا نزال نشتغل بهِ ، إذ العمر لا يكفي ، ولو كان عمر نوح

هذا ونحن لا نراعي فيه ترتيباً ، لأننا نعالج الوضوع بموجب ما يحضرنا من اللفظ ، فننتقل من وصف دابةٍ ، الى دويّبة ، الى طائر ، الى سمكة ، الى حشرة ، إذ الغاية الأولى والقصوى التحقيق والتدقيق ، لا الترتيب ولا التبويب ، إذ هذه الامور تأتي بعد الجمع والتأليف لا غير . وعليه نبتدىء بحثنا من الطائر الآتي ذكره .

الصرّ والاطيش

﴿ توطئة ﴾ — ذكرنا غير مرة في الصحف والمجلات ان في لغتنا الضادية ، ألفاظاً لا يهتدى الى معرفة حقيقتها إلاّ بشق الانفس . وفي بعض الاحيان ، قد يصرف الباحث أياماً ، بل شهوراً ، لا بل سنين ، ليعرف مؤدّى الحرف الذي يبحث عن معناه ، فلا يرجع إلاّ مورقاً (١) ، أو يعود بما عاد بهِ حنين . وهذه الأوضاع تشمل ما يتعلق بالحيوان ، والطير ، والسمك ، والنبات ، والجماد . فيعرف الشيء الفلانيّ بقول اللغويين : حيوان ، أو

(١) يقال أورق الصائد : اذا لم يصد . وأورق الطالب : لم ينل . وأورق الغازي : لم يغنم

طائر ، أو سمكة ، أو نبات ، أو معدن ، وكل ذلك لا يفيد فائدة تهدي الباحث الى ضالته وربما كان ذلك اللفظ يتعلق بصناعة ، أو فن ، أو علم ، أو مادة ، كان ذلك معروفاً في عصر من العصور ، أو بلد من الديار العربية اللسان ، أو قبيلة من قبائل العرب ، لكنهُ لم يسجّل معناه في العهد الذي كان يعرفهُ الجميع ، فذهب أصحابهُ ، وانقرض من كان يعرف معناه ، فبقينا اليوم كمن كان في سبحات وجه الله

ومن جملة الألفاظ التي كنا نتسقّط معرفتها ، ونتصيّد معانيها في زواياها وخباياها ، ونبذل السعي للوقوف عليها ، ألفاظ جمة في علم الحيوان في مختلف أقسامه ومن جملتها : (الاطيش) و (الصر) ، فكنا نقول : ما هذا الاول ، وما هذا الثاني ؟ وما يقابلهما عند العلماء وأبناء الغرب ؟ . أما الآن فنظن أننا قد وجدنا ضالّتنا — على ما يخيل الينا — فجئنا نكاشف بها قراء المقتطف مهدين حقائق العلم الى عشاقهِ ، ليروا رأيهم ، ويكاشفونا بما يعنّ لهم ، ويفندوا قولنا ، ويصلحوا أودنا . فنقول :

﴿ الأطيش ﴾ — حاولنا أن نعرف رأي اللغويين عند تعريفهم هذا الطائر . واكبر معجم بيدنا هو تاج العروس ، فرأيناهُ يقول في مادة (ط ي ش) ، ما هذا نصه بحروفهِ : الاطيش طائر ، وكأنه لخفتهِ وكثرة اضطرابهِ انتهى — وفي الاوقيانوس ما نقلهُ : الاطيش زنة احمر : اسم طائر . اه — وفي لسان العرب — وهو معجم عربي فارسي ضخم في أربعة مجلدات كبيرة — ما معناه الاطيش : اسم طائر . اه — وفي حياة الحيوان الكبرى للدميري : « الاطيش طائر . قالهُ ابن سيده . اه . وقد تصفحنا أسفاراً عديدة ، فلم نجد فيها أكثر من هذا القدر . وما زاد عليهِ بعضهم هو من مختلقاتهم إذ لا يقوم على أساس قويم . وقد وجدنا نحن ما يوضح الآن معناه إيضاحاً يدفع كل شبهةٍ .

﴿ كيف اهتدينا اليهِ نبَـأً ﴾ — طالعنا في كتاب الامتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ج ١ في ص ١٤٤ س ١٣ هـذه العبارة : « سمن بعروا ، وهي دابة بخراسان تسمنُ على التعب والشقاء — فتعجبنا من غرابة هذا الاسم ومن غرابة كتابتهِ بهـذه الصورة المعيبة . وكنا قد قرأنا في سابق الأيام ان لهذه الدابة عدة أسماء ، ذكرنا منها اثنين في لغة العرب (٦ : ٢٢٧) وهما القطاسُ والخشقاء ونسينا الاسم الآخر ، الا اننا كنا نتذكر انهُ ثلاثي الاحرف ، وعينه عين معجمة لكنه ذهب عن ذاكرتنا ، وكان الاسم مشهوراً عند العرب في صدر الاسلام ، فقلنا في نفسنا : لا بد من الاهتداء اليه ، اذ هذه أحسن فرصة لاصلاح الخطأ والاهتداء الى الحق . فأخذنا نتصفح حياة الحيوان الكبرى

للدميري في احدى نسخه الخطية الخمس التي عندنا لأننا كنا قد عثرنا عليه في احدى تلك النسخ ، فألفينا في حاشية الصفحة ٩ بجانب كلمة الأطيش هذه العبارة :

« هو طائر يشبه الصر كل الشبه ، ويألف الجماعة من أصحابه ، ويطير دفعات ، ويألف الغياض والغابات ، ويستطيب بزر الكتان ، ويعشش على صغار الأشجار كالجوز ، والكرم ، والرتم ، والعوسج ، ونظائرها ، وهو كثير الطيش ومنه اسمه » انتهى . فتركنا الى وقت آخر البحث عن مترادف الخشقاء ، وتابعنا تحقيق الأطيش ، فظهر لنا انه المسمى بالانكليزية Linnet وان الصر هو Canary Bird ، فاصطدنا عصفورين بحجر ، كما يقول بعضهم في أمثالهم . وهذا الصيد نفسه المفيد لم يكن منا قصداً ، بل نبهاً

٤ ـ ﴿ تحلية الأطيش ﴾ قال لاروس في معجمه الوسط : الأطيش المبتذل (وبلسان العلم Linaria Cannabina مبثوث في اوربة كلها ، اللهم الا في أقصى الشمال ، فانه يرى عوضاً عنه ، نوع مجاور له ، هو الأطيش الأصفر المنقار Linaria flavirostris والأطيش المبتذل طائر حسن ، أربد ، أسمر ، ورأسه وصدره معلمان بأحمر زاه في الذكر ، الا ان هذا اللون يخضر في الطيور الأسرى ، والاناث. هذا والأطايش من آكلة الحبوب خلقة، وقد انشأ العلماء ردفي جنس لبعض الانواع مثل الأطيش الشمالي (واسمه العلمي Degiothus linaria ومأواه أقصى شمالي اوربة وأميركة، وأطيش البلاد المتحدة «Leucostide Tephrocotis»اه

وقد أجمع علماء الطير في جميع البلدان على ان غذاء هذا الطويئر أنواع البزور ولا سيما بزر الكتان ومن ذلك اشتقاق اسمه في لغاتهم Linotte أو Linnet و Linarta الذي معناه الكتاني او آكل بزر الكتان ويعشش على الجفان وصغار الأشجار . والفرنسيون يضربون المثل بطيشه فيقولون فلان أنزق من الأطيش ، وبلسانهم Tête de Linotte

﴿ الصر ﴾ — لم نجد اسم هذا الطائر في القزويني ، ولا في الدميري ، ولا في المخصص، لكنا وجدناه في القاموس ، وتاج العروس، وهذا نصهما مدمجاً بعضه ببعض(١) : « الصر » بالكسر (طائر كالعصفور) في قده ، (أصفر) اللون سمي بصوته . يقال : صر العصفور يصر : اذا صاح . وفي حديث جعفر الصادق : اطلع عليَّ بن الحسين وأنا أنتف صراً . قيل : هو عصفور بعينه كما ورد التصريح به في رواية أخرى » انتهى — وهي عبارة صاحب النهاية بعينها، وان لم يصرح الزبيدي بذلك ، اذ هذه عبارة ابن الأثير بنصها :

(١) ما كان بين هلالين هو كلام القاموس ، وما كان بلا هلالين هو نص التاج

« وفي حديث جعفر بن محمد : اطلع عليَّ (١) بن الحسين ، وأنا انتف صِرًّا . هو عصفور او طائر في قده ، أصفر اللون سمي بصوته يقال : صر العصفور يصر صروراً : اذا صاح . » اهـ — فوجود ذكر الصر في الحديث نفيس جداً لانه يعلمنا ان عرب الجاهلية كانت تعرف هذا العصفور

﴿ من أين جاءنا هذا الاسم ؟ ﴾ — رأينا ان الصر يسمى بالفرنسية سرن Serin وكان يسمى في المائة الرابعة عشرة للميلاد سرينا Serena والقسم الأول من الكلمة الفرنسية اي (سر) يشبه اسم طائرنا بالعربية اي (صر)، لكن ليس هذا من ذاك ، ومن أصرَّ على قوله ، فقد أظهر قلة وقوفه على اسرار الضاد . لأن (الصر) مأخوذ من حكاية صوته ، كما جاء في تفسير الحديث الذي نقلناه عن النهاية . اذ لهذا الطويئر البديع الحسن ، نغمات عديدة . أما النغمة التي يكررها صباح مساء فهي صِرْرْرْرْرْرْرْ اي صاد مكسورة يتبعها راءات سا كنة يختلف عددها بين العشرة والخمسة عشرة وبالحروف الفرنجية Sirrrrrrr . فهو مسمى بحكاية احد أصواته لاغير ، كما سميت طيور كثيرة بحكايات اصواتها كالقلق ، والكوكو ، والصرصر ، والهدهد ، الى أشباهها

﴿ تحلية الصر ﴾ — دلنا نص الحاشية المطرزة لحياة الحيوان الكبرى الخطية : ان الصر بقد الأطيش وانه يشبه الأطيش وهو Linnet بالانكليزية ، وأفادنا ابن الاثير انه بقد العصفور ، اصفر اللون ، فلم يبق شك عندنا في انه المسمى بلسان العلم Serinus وبالانكليزية Canara Bird وبالفرنسية Serin . قال لاروس الوسيط: « الاصرار: طيور رشيقة القوام متوسطات القد ، خضر الألوان ، تتخللها صفرة وسواد ، ويرى الاصفر في السلائل الأليفة ينفتح شيئًا فشيئًا ، ويهجم على الريش كله ، والصر الشامي Cini Dryospiza مبثوث في سقي ابحر الروم ، والصر الكناري D. Canaria أصغر من السابق وهو خاص بجزائر السعادة أي الجزائر الخالدات (اي جزر كناري) وماديره وهو داجن في اوربة منذ مئات من السنين . أما صر فلسطين D. aurifrons والصر القزم Metoponia pusilla فهما من الاناضول

﴿ الخلاصة — زدنا على ما ثبت من اسماء الطير وما يقابلها في اللغات الغربية والعلمية لفظين ولا نظن ان أحداً من محققي العرب الاقدمين او المحدثين سبقنا الى تحقيقهما وتحديد أعيانهما وان كان ثمَّ فـرطنا اليه ، فنود ان نعرف اسمه ، لنذكره بالحسنى ، ونقدم اليه عبارات الشكر والثناء

(١) في الاصل المطبوع : على بن الحسين وهو خطأ

من ملاحق كتاب « رسوم دار الخلافة »

المآصر

في بلاد الروم والاسلام

— ١ —

لميخائيل عواد

تصدير

من يطالع التصانيف العربية القديمة ، وخاصة ما وضعه وصّاف البلدان ومن طوّف في الأصقاع ، يجد أموراً شتى ، تتطلب منه الوقوف والتريُّث ، لما لها من الخطر ، وذلك استجلاء لمعانيها التي كادت تخفى علينا الآن لبعد العهد بها ، واستيضاحاً لما كانت عليه في تلك العصور الخوالي

ونذكر اننا وقفنا منذ سنين على شيء من هذا القبيل يتعلق بضرب من المطاحن المائية كان يطلق عليه في العصور الاسلامية اسم « العروب » فرأينا أن نستقصي ما ورد عنها في كتب الأدب والتاريخ والبلدان ، فحصل لنا من ذلك شيء وفير ، مكّننا من وضع بحث فيها ونشره (١)

وسننشر بحوثاً من هذا القبيل ، توضح ما جاء في تلك المؤلفات من مثل هذه المصطلحات والأوضاع التي كانت يومذاك أمراً مفهوماً معروفاً بين أكثر الناس ، ثم تغيّرت الأحوال فخفي معناها واستبهم مدلولها أو كاد

وهانحن أولاء نبحث في ناحية لا نظنّ ان احداً من الكتبة المحدثين قد طرق بابها ، نعني بها « المآصر » النهرية والبحرية ، فنقول :

كان مما عني به أولئك البلدانيون ، الثغور المتوسدة سواحل البحار ، فوصفوها بما أوتوه من علم ومعرفة ، وخصّوا موانئها بقسط وافر من هذا الوصف ، تلك الموانىء

(١) العروب في العراق (الرسالة ، العدد ٣٦٠ ، ص ٨٩٤ — ٨٩٦)

العجيبة التي كانت تعجّ بالسفن الذاهبة والقادمة والراسية . ولاعجب من قول بعضهم في صفة ميناء أطرابلس ، بأنه ميناء « عجيب يحتمل الف مركب [1] » وان « المراكب تحط فيه ليلا ونهاراً ، وترد بالتجارة على مرّ الاوقات والساعات صباحاً ومساءً ، من بلد الروم وأرض المغرب بضروب الامتعة والمطاعم [2] »

وأهم ما يسترعي الاهتمام في كثير من هاتيك الموانىء ، وجود سلسلة ضخمة من الحديد تعترض الميناء فتحده من جهة البحر ، رسخ أحد طرفيها في صخرة مرتفعة مشرفة على جانب الميناء ، وربط طرفها الآخر بقفل محكم الصنع وُضع داخل برجٍ مطل على الميناء من جهته الثانية ، ويجلس في البرج المذكور شخص يطلق عليه اسم « صاحب القفل » عنده الأمر والنهي في خروج السفن من الميناء ودخولها اليه فيعمل على رفع السلسلة ، أو على خفضها

وشبيه بهذا ما كان يجري في بعض الانهار ، غير انه كثيرا ما استبدلت السلاسل بالقلوس ، والابراج بالسفن النهرية ، كما سيجيء تفصيله

ويطلق على هذه كلها « المآصر » وكانت الثغور ذات المآصر ، تتمنع من جهة البحر ، بسلام لايضارعها فيه إلا تلك المدن التي تحيطها الاسوار ويحرسها الحرّاس ، فالمآصر اذن الحصن الحصين لبعض الموانىء وسدّها المنيع ، تدفع به عنها كل غزو يأتيها من جهة البحر

وكانت الضرائب والعشور تجبى عند هذه المآصر على كل مالٍ وطعامٍ وحيوان وغير ذلك مما يدخل البلاد أو يخرج منها على ما سنبيّنه في مطاوي بحثنا

١ — المآصر النهرية

(أ) المآصر في كتب اللغة وأمثالها

يعتبر الصحاح للجوهري (المتوفي سنة ٣٩٣ للهجرة) من أقدم المعاجم التي ذكرت المآصر فقد قال في مادة (أ ص ر) ما نصه : « أصر : أصره يأصره أصراً حبسه ، والموضع مأصَر ومأصِر ، والجمع مآصر ، والعامة تقول معاصر [3] »
ويقول الراغب الاصفهاني (المتوفي سنة ٥٠٢ هـ) في مادة (أ ص ر) : « الأصر عقد

(١) البلدان لليعقوبي (ص ٣٢٧ طبعة دي خويه ، ليدن)
(٢) صورة الارض — المسالك والممالك — لابن حوقل (ص ٦٩ طبعة كريمرز ، ليدن)
(٣) الصحاح ١ : ٢٨٠ ، بولاق

الشيء وحبسه بقهره ، يقال أصرته فهو مأصور ، والمأصَر والمأصِر محبس السفينة [(١)] »

وفي أساس البلاغة للزمخشري (المتوفي سنة ٥٣٨ هـ) في مادة (أ ص ر) أيضاً قوله : « . . . ومضى فلان الى المأصر وهو مفعل من الأصر ، أو فاعل من المصر بمعنى الحاجز ولعن الله أهل المآصر أو المواصِر[(٢)] »

وجاء ابن منظور (المتوفى سنة ٧١١ هـ) فافصح لنا أموراً لم يذكرها من سبقه من أرباب اللغة . فقد قال في مادة (أ ص ر) ما هـذا بحروفه مع ترك الاجابة لنا به في موضوعنا : « . . . والمآصر هو مأخوذ من آصرة العهد انما هو عقد ليحبس به . . . ، الكسائي : أصرني الشيء يأصرني أي حبسني ، وأصرت الرجل على ذلك الامر أي حبسته ، ابن الاعرابي : أصرته عن حاجته وعما أردته أي حبسته ، والموضع مأصِر ومأصَر ، والجمع مآصر ، والعامة تقول معاصر . . . والمأصر يمد على طريق أو نهر تؤصر به السفن والسابلة ، أي يحبس لتؤخذ منهم العشور [(٣)] » اهـ

أما الفيروز آبادي (المتوفي سنة ٨١٧ هـ) فقد أشار اليها في مادة (أ ص ر) اشارة خفيفة بقوله : « والمأصِرُ كمجلس ومرقد المحبس . ج مآصر ، والعامة تقول معاصر [(٤)] »

وتلاه السيد (مرتضى الزبيدي صاحب التاج (المتوفي سنة ١٢٠٥ هـ) فذكرها أيضاً في مادة (أ ص ر) ملخصا أقوال بعض من تقدمه ، قال [(٥)] : « : والمأصر مفعل من الاصر أو فاعل من المصر بمعنى الحاجز . ولعن المآصر ، هكذا في الاساس ولم يفسره ، وفي اللسان : والمأصر يمد على طريق أو نهر يؤصر به السفن والسابلة أي يحبس ليؤخذ منه العشور . . . »

قال نصر الهوريني في تعليق له على ماجاء في التاج : « قوله ولعن المآصر كذا بخطه ، والذي في الأساس : ولعن الله اهل المآصر أو المواصر . او قوله ولم يفسره تفسيره هو ماذكره عقبة عن اللسان »

وقد نبهنا ابو منصور موهوب الجواليقي (المتوفي سنة ٥٣٩ هـ) الى خطأ شائع في لفظ المآصر ، وقع فيـه أكثر اللغويين الذين تطرقوا الى ذكرها ، فقال : « . . . . وهو المأصر بكسر الصاد ، وفتحها خطأ . ومعنى المأصر في اللغـة الموضع الحابس من قولهم :

(١) المفردات في غريب القرآن (ص ١٧ ، المطبعة الميمنية) (٢) أساس البلاغة (١ : ١٤ ، طبع دار الكتب المصرية) (٣) لسان العرب (٥ : ٨٠ — ٨٢ ، بولاق) (٤) القاموس المحيط) ١ : ٣٦١ بولاق الطبعة الثالثة سنة ١٣٠١ هـ) (٥) تاج العروس (٣ : ١٥)

أصَرت فلاناً على الشيء أأصِره أصراً اذا حبسته عليه وعطفته » (١)

وممن ذكرها أيضاً ابو عبدالله محمد بن احمد بن يوسف الكاتب الخوارزمي (المتوفى سنة ٣٨٧ هـ) ، فقد قال في تعريفها : « المأصرُ : سلسلة او حبل يشد معترضاً في النهر ، لمنع السفن من المضي » (٢)

هذا ، وقد نُسب الى المأصر نفر من الناس . قال القاضي ابو سعد عبد الكريم السمعاني (المتوفى سنة ٥٦٢ هـ) في مادة (المأصري) : بفتح الميم والضاد (كذا ، والصواب الصاد) المكسورة بينهما الألف وفي آخرها الراء . هذه النسبة الى مأصر ، وسنأذكر السبب فيه . والمشهور بهذه النسبة ابو بشر يونس بن حبيب بن عبدالقادر بن عبد العزيز بن عمر ابن قيس بن أبي مسلم العجلي المصري ، كان له محل عظيم ، كاتبه المعتز بالله كتاباً بالنظر في امر متظلم تظلم اليه ، وهو ابن أخت حبيب بن الزبير الذي روى عنه شعبة وكان ينزل المدينة وكان ابو مسلم من سبي الديلم ، سباه أهل الكوفة وحسن اسلامه فولد له قيس الأصر ، ويقال انهُ مولي لعلي بن ابي طالب ثم ولاه الماصر ، وكان اول من مصر (كذا والصواب مأصر) الفرات ودجلة ، فهي قليس (كذا ، والصواب قلس) المأصر . والنسبة اليه مأصري . وكان ممن خرج مع عبدالرحمن بن الاشعث امام الحجاج مع القراء ، فلما هزم ابن الأشعث هرب عبدالعزيز وعمر بن قيس مع اهله الى اصبهان واقام عمر بن قيس المأصر بالكوفة . . . . . فهذه قصة قيس الماصر ، واما ابو بشر يونس بن حبيب .. قلت توفى قبل الثلثمائة » (٣)

واختصر هذا الكلام جلال الدين السيوطي (المتوفى سنة ٩١١ هـ) فقال : الماصري : بكسر المهملة وراء الى قيس الماصر ، لأنهُ اول من مصَر (كذا ، والصواب مأصَر) الفرات ودجلة » (٤)

هذا جل ما وقفنا عليه بشأن الماصر في الأسفار اللغوية القديمة ، واما ما جاء عنها في المعاجم الحديثة ، فلا يعدو ان يكون تكراراً لما سبق لأنهُ في الحقيقة منقول برمته عن هاتيك التصانيف القديمة . ومن ثمة اكتفينا بالاشارة الى ذلك دون ان نعمد الى ايراد ما جاء فيها » (٥)

(١) تكملة اصلاح ما تغلط فيه العامة (ص ٤٨ طبع دمشق) (٢) مفاتيح العلوم (ص ٧٠ طبعة فان فلوتن في ليدن) (٣) الانساب (الورقة ٥٠٢ ب ، نشره مرجليوث ، ليدن)
(٤) لب اللباب في تحرير الانساب (ص ٢٣٤ طبعة فاث ، ليدن سنة ١٨٤٠)
(٥) انظر مثلاً : محيط المحيط لبطرس البستاني (١ : ٢٥) ، أقرب الموارد لسعيد الشرتوني (١ : ١٢) ، البستان لعبدالله البستاني (١ : ٤٤) ، دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي (١ : ٨٤) ، مادة أ ص ر) ، معجم لين : ج ١ ص ٦٣

(ب) المآصر في كتب البلدان

ان أفصح الأنباء التي اتصلت بنا بصدد المآصر النهرية ، ما اخبرنا بهِ ابن رسته (الذي صنف كتابهُ في سنة ٢٩٠ للهجرة) في كلامهُ على الطريق بين بغداد والبصرة ، فقد اوضح لنا ماهيتها ، وشرح طريقة استخدامها ، ودونك ما قاله : « من بغداد الى المدائن ومن المدائن الى دير العاقول ، ومنهُ الى جرجرايا ، ومنه الى جبل ، ومنه الى فم الصلح ، ومنه الى واسط ومنه الى نهر بيشن ومنه الى الصينية ومنه الى الحوانيت ومنه الى القطر . وهذه القرى من واسط الى هذا الموضع كلها شرقي دجلة . وبالحوانيت [1] اصحاب السيارة [2] والمأصر من قبل السلطان . والمأصر ان تشد سفينتان من احد جانبي دجلة وسفينتان من الجانب الآخر وتشد السفن على شطين . ثم تؤخذ قلوس [3] على عرض دجلة وتشد رأسها الى السفن لئلاً تجوز السفن بالليل » [4]

وقد ذكرها ابن رسته في موطن آخر من كتابه بقوله : « وبدير العاقول مسجد جامع واسواق ومآصر ، وبها اصحاب السيارة وماصر على دجلة » [5]

* * *

﴿ الذيل ﴾

(١) السيارة : « ضرب من السفن . وجاءت صحيحة بصورة (شبارة) في تاريخ الطبري في غير موطن . وجاء في معجم دي خويه (ص ٣٠٣) في آخر كتاب الطبري : هي

---

(١) ذكرت الحوانيت في المسالك والممالك لابن خرداذبه (ص ٥٩ طبعة دي خويه في ليدن) ، وتاريخ الطبري (٣ : ١٨٥٨ ، ١٨٩٩ ، ١٩٠٠ ، ١٩٠٢ ، ١٩٠٣ ، ١٩٠٦ ، ١٩١٧ ، ١٩٢٢ ، ١٩٦٥ ، ١٩٦٦ ، طبع أوربة) ، وعجائب الاقاليم السبعة لسهراب (ص ١١٨ طبعة متريك ، فينة = ص ٩ من طبعة لسترنج في المجلة الاسيويه البريطانية)

(٢) السيارة « انظر الذيل » - رقم ١

(٣) قلوس « انظر الذيل رقم ٢ »

(٤) الاعلاق النفيسة (ص ١٨٤ — ١٨٥ طبعة دي خويه ، ليدن)

(٥) الاعلاق النفيسة (ص ١٨٦)

السُّمَيريّـات ، لأن مسكويه يذكر السميريات في حين غيره يقول الشبارات. وعليهِ فالشبارة هي الرواية الصحيحة . (انظر تكملة المعجمات العربية لدوزي) — والشبارة ضرب من السفن الصغيرة كانت في ايام الخلفاء العباسيين في دجلة والفرات . قال ابن العبري (مختصر تاريخ الدول ص ٤٤٢ طبعة صالحاني : « وفيها (سنة ٦٤٠ للهجرة) توفي الامام المستنصر بالله الخليفة ببغداد .. ومن شدة غرامهِ بمدرستهِ المعروفة بالمستنصرية ، أمر لصقها بستاناً خاصّاً له ، فقلّ ما يمضي يوم الا ويركب في السيارة ويأتي البستان يتنزه فيه ... » (عن « المساعد » — بتصرف —،وهو معجم لا يزال مخطوطاً ، للأب أنستاس ماري الكرملي)

ونحن نضيف الى ما تقدم قول الطبري (١١٧٤:٣) : « . . . ويصير ابو سعيد ومن معهُ الى خش ، ثم الى عسكر الافشين ، فتلقاه صاحب سيارة الافشين . . . »

وذكرها هلال الصابيء (رسوم دار الخلافة ص ١٤ ، المخطوط) في جملة أصناف السفن في دجلة سنة ٣٠٥ هـ حين قدوم رسول ملك الروم . قال : « . . . وفي دجلة الشذاءات والطيارات والزبازب (و) السيارات والزّلالات والسُّمَيريات بأفضل زينة وعلى أحسن تعبئة . . . »

وقول الشريف الادريسي (مختصر نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ص ٣٨ طبع رومة سنة ١٥٩٢ م) : « . . . وتدخلها المراكب السيارة . . . »

وذكرها غير مرة سبط بن الجوزي (المتوفى سنة ٦٥٤ هـ) . قال في ترجمة الوزير أبي الفرج محمد بن عبدالله بن هبة الله بن المظفر رئيس الرؤساء : « .... فلما كان يوم الاربعاء رابع ذي القعدة ركب في سيارة وعبر في دجلة الى الجانب الغربي وجميع أهل بغداد من الجانبين يدعون له ويبكون عليهِ لأنهُ كان محسنا اليهم ... ولما صعد من السيارة عند القلمة وأرباب الدولة بين يديهِ بأسرهم ... » : « مرآة الزمان ٨ : ٢٢٠ حوادث سنة ٥٧٣ هـ طبعة جويت شيكاغو)

وقال في احداث سنة ٦١٤ هـ : « وفيها زادت دجلة زيادة عظيمة ، وركب الخليفة في سيارة وخاطب الناس يتأوه لهم ويقول : لوكان هذا الماء يرد بمالٍ او حرب دفعتهُ عنكم » : (مرآة الزمان ٨ : ٣٨١)

(٢) القلوس واحدها القلس وهو على ما في تاج العروس (مادة : ق ل س) : حبل ضخم من ليف او خوص . قال ابن دريد (الجمهرة ٣ : ٤٢ : فاما القلس الذي يتكلم بهِ اهل

العراق من هذه الحبال) لا أدري ما صحته ، أوهو حبل غليظ من غيرها من قلوس سفن البحر ولو قال من قلوس السفن كان أصاب في حسن الاختصار فان السفن لا تكون الا في البحر ويروى أيضاً القلس بالكسر وهكذا ضبطه ابن القطاع . . . . يقال قلس السفينة بقلسها إذا ربطها بالقلس ... »

وتستخدم القلوس لأغراض شتى منها لتثبيت الجسور. قال هلال الصابيء (تحفة الامراء في تاريخ الوزراء ص ٢١ طبعة آمدروز) : « نفقات الجسرين وثمن مايبدل من سفنهما والقلوس وأرزاق الجسّارين من جملة ثلثمائة دينار في الشهر عشرة دنانير »

ويتخذه الملاحون لسفنهم النهرية كما ذكر ذلك القاضي التنوخي (نشوار المحاضرة ١ : ٢٠٦ طبعة مرجليوث) في معرض كلامه على أخبار جحظة البرمكي . قال « . . . . قال : وأخبرني أنه كان حَـديديٌّ (وهو ضرب من السفن في العصر العباسي) لابن الحواري وقد حملهم الى بَـلاشْـكَـر ليتفرجوا والحديدي يمده الملاحون بالقلوس »

واتخذت القلوس لبعض الأغراض في اقامة الافراح ، من ذلك ما ذكره صاحب التكملة في حوادث سنة ٣٥٩ هـ (أنظر تجارب الامم ٦ : ٢٦٩ ، حاشية ١) قال : « وعمل (ابو الفضل العبّاس بن الحسين الشيرازي) دعوةً لمعز الدولة . . . وقطع دجلة من فوق الجسر الى دار الخلافة بالقلوس الغلاظ ، وطرح الورد فيها حتى ملأها وغطا (كذا) دجلة . . . »

وللمحاسن أضداد ، فقد اتخذت القلوس للضرب والتعذيب والقصاص . فمن جملة أخبارها في هذا الصدد ماحكاه المسعودي (مروج الذهب ٨ : ١٥٤ طبعة باريس) : « . . . فضربه بالسوط والقلوس والمقارع والدرة على ظهره وبطنه وقفاه ورأسه وأسفل رجليه وكعابه وعضله ، حتى لم يكن فيه للضرب موضع ، وبلغ بهِ ذلك الى حالة لايعقل ولا ينطق . . . »

وكذلك ماذكره مسكويه وهلال الصابيء في عرض كلامهما على ابن الفرات (تجارب الأمم ٥ : ١٣٦ ، سنة ٣١٢ هـ وتحفة الأمراء ص ٥٩) ، قالا : « . . . فأوقع نازوك المكاره بالمحسّن حتى تدوّد بدنه ، ولم يبق فيه فضل لضرب . وضرب ابن الفرات ثلاث دفعات بالقلوس فلم يعط شيئاً . . »

« يتبع »

كف القرد (١)

قصة

لوديع فلسطين

في ليلة من ليالي الشتاء الباردة ، وفي الصالون الصغير بفيلا « لوبرنام » جلس الأب وابنهُ يلعبان الشطرنج ، وقد أسدلت الستائر وأوقدت المدفأة ، فلعب الوالد لعبة وضع فيها « الملك » في مركز حرج استوقف نظر السيدة العجوز الهادئة الجالسة الى الموقد تحيك بعض أشغال الأبرة . ولما أدرك الوالد غلطته متأخراً ، أراد تضليل ابنهُ كي لا يفطن اليها ، فقال : « انصت الى الريح »

فلم يحوّل الابن عينيه عن رقعة الشطرنج ، وأجاب : « اني منصتٌ » ثم مدّ يده وقال : « كش الملك »

وخسر الأب المباراة ، فقالت له زوجه : « عسى أن تكسب المرة القادمة يا عزيزي »

ورفع الأب — مستر هوايت — رأسه ، وألقى نظرة فاحصة تجاه الباب ، ثم هتف : « ها هوذا » ، وترك مقعده مسرعاً نحو الباب الخارجي ، وفتحه مرحباً بالضيف . فدخل الزائر ، وهو عملاق مديد القامة ، قدّمه مستر هوايت الى أسرته قائلاً : « السرجنت ماجور موريس » . فصافح الضابط أعضاء الأسرة ، ثم احتل مقعداً مجاوراً للمدفأة ، وأخذ يتأمل النار ، وأخذ الجميع يتناولون الشراب ويتسامرون . فشرب الزائر قدحاً ثم أتبعهُ بثانٍ ، وثالث ، فاتسعت عيناه ، وشرع يفيض في الحديث ويطنب وقد أخذت الأسرة الصغيرة تراقب هذا الزائر العريض المنكبين وهو يتهالك في مقعده ، راوياً ما شاهده من المناظر الوحشية وما استوقف نظره من تصرفات الشعوب العجيبة ، وما علق بذاكرته عن الحروب والأوبئة

وقال مستر هوايت ناظراً الى ضيفه مشيراً الى زوجته وابنه : « كان لما فارقنا منذ

---

(١) للكاتب الانجليزي و. و. جيكبز W. W. Jacobs وعنوان القصة Monkey's Paw.

اثنين وعشرين عاماً شاباً مهملاً منسيّا ، أما الآن فقد صار شيئاً . أنظرا اليه
وعلقت مسز هوايت على كلامه بلطف : « يبدو انهُ لم يخسر كثيراً »
وقال الكهل هوايت : « كم أود أن أذهب الى الهند مثلك يا موريس كي أرسل بصري في أرجائها »
— « خيرٌ لك حيث انت. » أجاب الضابط هازًّا رأسه ، ثم وضع قدحه الفارغ أمامه ، وتأوه تأوهاً خفيفاً ، ثم هزّ رأسه ثانية
— « أريد أن أشاهد الهياكل القديمة وفقراء الهند وسحرتهـا . . . أكمل ما كنت تحدثني عنهُ يومئذٍ يا موريس ، عن كف قردٍ أو شيء من هذا القبيل »
— « لم أقل شيئاً يستحق الانصات اليه »
واستفهمت مسز هوايت متعجبة : « كف قرد ؟ »
فأجاب الضابط محاولاً التخلص من هذا الموضوع : « انهُ موضوع يجوز أن يمت بصلة الى السحر » .
فبدا الاهتمام على السامعين الثلاثة ، واشرأبّـوا بأعناقهم الى الزائر ، الذي أفرغ قدح الشراب ، دون وعي في جوفه ، ثم أعاده ثانياً الى مكانهِ فملأه المضيف له
واستطرد الضابط باحثاً في جيوبه عن شيء : « اذا شاهدتها وجدت انها كفّ صغيرة عادية ، جففها الزمن »
ثم أخرجها من جيبه وقدمها لهم . فتراجعت مسز هوايت فزعاً منها ، ولكن نجلها هربرت تناولها ، فاحصاً إياها باهتمام
فأخذها مستر هوايت من ابنه ، وفحصها بدوره ، ثم وضعها على المائدة مستفهماً : « أي غرابة في هذه الكفّ الضامرة ؟ وأي عجبٍ يكتنفها ؟ »
أجاب الضـابط : « انهـا تحمل رقيـة أحد الفقراء الهنود ، وهو رجل تقيّ ورع ، أراد أن يبرهن ان القدر يتحكم في حياة الناس ، وان الذين يعترضونهُ يفعلون ذلك لضرّهم ، فعقد على الكفّ تعويذة كي يستطيع ثلاثة رجال متباعدين أن ينال كل منهم ثلاث رغبات منها »
وكانت حركات الزائر شديدة التعبير ، طافحة بالتأثير ، مفعمة بالثقة ، حتى ان مستمعيه شعروا بأن مرحهم دبّ اليه القلق ، وضحكاتهم تطرق اليها الخوف
وسأل هربرت هوايت متخابثاً : « حسناً ، ولمـاذا لا ترجو تحقيق ثلاث رغبات يا سيدي ؟ »

فنظر اليه الضابط نظرة فاحصة معبّرة ، وقد ابيضّ وجهه المنقبض ، وأجاب بهدوء : « لقد فعلت »

وهنا سألت مسز هوايت : « وهل نلت حقًّا ما رغبت فيه ؟ »

— « نعم » وقرع الزجاجة على أسنانه القوية

— « وهل رغب آخرٌ في شيء ؟ » سألت السيدة العجوز باصرار

وكان جوابه : « الرجل الاول ، تحققت رغباته الثلاث . لستُ أعلم الرغبتين الاوليين منها ، ولكن الثالثة أدّت الى الموت ، وهكذا حصلتُ على الكفّ »

وكانت نغمة كلامه قوية جدًّا ، حتى خيّم على الجماعة صمتٌ رهيب

وقال الكهل أخيراً : « اذا كنت قد نلت مرامك منها يا موريس ، فليس بك حاجة للكفّ . لماذا تحتفظ بها ؟ »

فهزّ الضابط رأسه ، وهمهم : « كانت لديّ فكرة في بيعها ، ولكني لا أظن اني أفعل ذلك . لقد كانت سبباً لكوارث كثيرة حتى الآن . أضف الى ذلك أن الناس لن يشتروها ، لأن بعضهم يظن انها خرافة طريفة ، والذين يعتقدون أن بها قوة يريدون أن يجربوها أولاً ، وينقدونني قيمتها بعد تجربتها »

فسألت السيدة العجوز محدقة ببصرها اليه : « لو استطعت أن تحقق ثلاث رغبات أخرى ، فهل ترجوها ؟ »

فأجاب الضيف : « لستُ أدري . . لا أعلم »

ثم تناول الكفّ ووضعها بين سبابته وابهامه ، وقذف بها فجأة في الموقد ، فصاح هوايت صيحة حسرة ، ثم انحنى سريعاً وانتشلها من النار

فقال الضابط موكداً : « خيرٌ أن تدعها تحترق »

فأجاب هوايت : اذا كنت زاهداً فيها يا موريس ، أعطني إياها »

— « كلاّ . لقد ألقيت بها في النار . واذا احتفظت بها فلا تلُمْني على ما قد يصيبك منها . ألقها في النار ثانية كرجل عاقل حكيم »

فهزّ هوايت رأسه ، وفحص غنيمته الجديدة عن قرب ثم استفهم : « وكيف استعملها ؟ »

— « ارفعها أمامك في يمناك ، وردّد رغباتك بصوت مسموع . . . ولكني أحذرك العواقب »

فقالت مسز هوايت وهي تهمّ بمغادرة مكانها الى اعداد العشاء : « انها تذكرني بقصص الف ليلة وليلة . . ألا تظن انه يمكنك أن تطلب لي أربعة أزواج ؟ »

وأخرج زوجها الطلسم من جيبه بعد أن دسّه ، وأخذ الثلاثة يضحكون . فأمسك الضابط بيده ، وظهرت على محياه نظرة تحذير ثم قال مشدّداً : « اذا لم يكن من التمني بدٌّ فارجُ شيئاً معقولاً »

فدسّها مستر هوايت ثانية في جيبه ، ثم حوّل المقاعد وانتقل بضيفه الى المائدة . وقد أنساهم العشاء قصة الطلسم ، ثم عاد ثلاثتهم ينصتون الى حديث مغامرات الضيف في الهند

وانصرف الضيف مشيعاً بتحيات مضيفيه

ثم تساءلت مسز هوايت : « هل نقدته شيئاً عوضاً عنها يا أبتِ »

— « مبلغ زهيد ، وقد رفض قبوله ، ولكني ألححت عليه ، فقبل وقد أوصاني ثانية بأن أطوّح بالطلسم »

فقال هربرت : « سنصبح أغنياء .. مشهورين . . . سعداء . أرجُ يا أبتِ أن تصبح امبراطوراً حتى لا تكون خاضعاً لأحد »

وأخرج مستر هوايت الطلسم من جيبه وفحصه بدقة ثم قال : « لست أدري ماذا أطلب . . يبدو اني أملك كل ما يعوزني . . »

فقال هربرت : « حسناً ، أرج اذن الحصول على مائتي جنيه ، فان فيها لكفاية وريّا »

فافتر وجه الوالد عن ابتسامة ، ثم رفع الطلسم في يمينه وقد جلس ابنه الى البيانو ، وأخذ يعزف بعض النغمات المثيرة ، وردّد الوالد بوضوح : « أرجو الحصول على مائتي جنيه » وإذ ذاك صدرت من دولاب الموسيقى نغمة حيّت كلمات الوالد ، ولم تخنقها سوى صرخة مفزعة داوية صدرت من الوالد الشيخ خفّت اليه زوجته وابنه

فصرخ : « لقد تحركت في يدي وأنا أردّد رغباتي . . . تلوّت كالأفعى » ثم نظر الى الكفّ الملقاة على بساط الحجرة نظرة استياء وانقباض »

فقال الابن ملتقطاً الطلسم وواضعاً إياه على المائدة : « أين المال ؟ انني لا أراه ، وأقسمُ بأني لن أراه »

ونظرت الزوجة الى رجلها نظرة فاحصة ثم قالت « يبدو انك واهمٌ ! »

فهزّ الرجل رأسه : « خيراً ، لم ينتج عنها ضررٌ ، ولكنها رغم ذلك صعقتني »

ثم جلسوا الى المدفأة ثانية حتى أفرغ الرجلان غليونيهما . وفي الخارج كانت الريح قد بلغت أشدها حين انتبه الكهل على صوت اقفال الباب بالدور الثاني من الفيلاّ . ثم خيّم على الثلاثة صمت غريب رهيب ، حتى انصرف الرجل وزوجه أخيراً الى مخدعيهما

وأجاب الابن والده : أظن انك ستجد المبلغ مربوطاً على سريرك ، وستراقبك الاشباح حين تخبيء المال الحرام . .

وجلس منفرداً في الظلام محدقاً في النار التي ترسل زفراتها الأخيرة : فتراءت له فيها أشباح ، كان آخرها رهيباً جداً حتى انهُ حدّق اليه دهشاً مذهولاً . وقد تجسّم له تجسُّماً ناطقاً ، حتى صدرت منهُ ضحكة قلقة . ثم أخذ يتحسس المائدة بحثاً عن كأس من الماء كي يقذف بمحتوياتهِ النار ، ولكن يده أصابت « كفّ القرد » ، فسحب يده سريعاً ، وأخذ يفركها على مئزرته ، وصعد الى مخدعه يسبق الريح

***

وأشرقت شمس اليوم التالي تفترش مائدة الإفطار ، فضحك هربرت متهكماً مما كان يقض مضجعه الليلة البارحة . وخيّم على الغرفة جوّ غريب لم يكن لها به عهد ، ولم تألف مثيله من قبل . أما الطلسم ، فقد وضع باهمال على خزانة أدوات المائدة

وقالت مسز هوايت : « أعتقد أن جميع الجنود سواء ، ولاسيما المتقدمون في السن منهم . ما كان يحسن أن ننصت اليهِ ، إذ كيف تتحقق الرغبات في هذه الأيام ؟ وإذا تحققت ، فكيف يصيبك يا أبتِ مبلغ مائتي جنيه ؟ »

فأجاب هربرت : « قد تمطرها السماء »

وهنا قال الوالد : « لقد حدثنا موريس أن الرغبات تتحقق بطريقة طبيعية جدًّا حتى يمكن نسبتها الى المصادفات »

— « على كل حال ، لا تتحدثان في موضوع المال حتى أعود » قال هربرت هذا الكلام ثم انصرف تشيعه نظرات والدته حتى توارى في الطرقات . ثم عادت الى مائدة الافطار سعيدة متهللة . ودق ساعي البريد الباب ، فأسرعت اليهِ ، واذا به يحمل اليها « صكًّا » من « الخياط » فقالت معلقة على هذا : « سيجد هربرت في هذه الحادثة مادة طيبة للدعابة والتندُّر حين يعود من عمله »

فقال مستر هوايت ، وهو يصبّ بعض الشراب في قدحه : « أريد أن أقول رغم كل ذلك ان الطلسم تحرّك في يدي . وأقسم بذلك »

فقالت زوجه : « انك واهم »

— « لقد قلتُ انه تحرّك في يدي ، ليس في ذلك ادنى شك ... ما الأمر ؟ »

فلم تنطق زوجه بجواب ، اذ كانت تتأمل حركات غريبة لرجل بالباب الخارجي . كان الرجل يطل من نافذة الباب بحركات قلقة ، إقدام ثم إحجام وكان يبدو أنهُ يحاول حمل نفسه على

الدخول قسراً . ووقف أمام الباب ثلاث مرات ثم ارتد ثانية . وفي المرة الرابعة ، تقدّم واضعاً يده على الباب ، وعلى حين فجأة استقرّ رأيهُ فدفع الباب وسار في الممر . وفي اللحظة عينها ، خلعت مسز هوايت مئزرة المطبخ التي كانت ترتديها ودسّتها في بطانة مقعدها ، ثم خفت الى الزائر الذي كان يبدو قلقاً مضطرباً ، وأدخلته الحجرة . فحدّق اليها خلسة ، وأصغى الى اعتذارها عن فوضى الحجرة . ثم انصلت اليه تحاول الصبر ما استطاعت امرأة على ذلك ، ولكنهُ وقف اولاً صامتاً كالجلمود ساكناً كأبي الهول وأخيراً فتح فه ثم انحنى والتقط قطعة من القطن كانت عالقة بسراويله : « لقد دعيت كي .... لقد أتيتُ من قبل شركة « موومبجنز » !

فصعقت السيدة العجوز وقالت وقد تقطعت أنفاسها : « هل في الأمر شيء ؟ هل حدث لهربرت أمر ؟ ما هو ؟ ما هو ... »

فتدخل زوجها : مهلاً يا سيدة . اجلسي ولا تسبقي الحوادث » ثم التفت الى الزائر قائلاً « اني واثق بأنك لا تحمل اخباراً سيئة يا سيدي »

فقال الزائر : « اني آسف .... »

فاستفهمت المرأة « هل أصابهُ شيء ؟ »

فأحنى الزائر رأسه أسفاً : « أصيب أصابة خطيرة ، ولكنهُ لا يحس المًا »

فضمّتْ السيدة يديها ثم قالت : « آه شكراً يا الهي . . . شكراً يا الهي لذلك . . . شكراً ... »

وقطعت حديثها لما تبينت أن كلام الزائر يحتمل أن يطوي شراً ، وخاصة عندما أبصرته واجماً وتبينت الصراع الذي يكاد يمزق أحشاءه . فانقبض صدرها ، ثم تحولت الى زوجها ووضعت يدها في يده . ومضت لحظة صمت طويل

وبعد جهد ، قال الزائر بصوت حبيس : « لقد التهمته الآلات » فأجابَ مستر هوايت مذهولاً بهول ما سمع : « التهمته الآلات ؟ » ... « نعم ... »

ثم جلس محدقاً الى النافذة فاقداً صوابه ، وأخذ يدي زوجه بين يديه ، وضغط عليهما كما كان يفعل منذ اربعين عاماً ..

وتحوّل الى الزائر قائلاً : « لقد كان آخر من بقي لنا ... يا للقسوة » . فتنحنح الزائر ، ثم قام واتجه صوب النافذة قائلاً : « لقد رغبتْ اليّ الشركة أن ابلّغكم تعزيتها الصادقة وتقديرها لمصابكم الفادح » ودون ان يحوّل بصره قال : « أرجو أن تعلموا أني لستُ سوى خادمها ، أؤمر فأطيع »

ولم يكن لكلامه من جواب سوى رجع الصدى . وابيضّ وجه السيدة وزاغ بصرها وانقبض صدرها . أما زوجها فقد ظهرت على محياه علامات أعادت الى الذاكرة وجه الضابط في اليوم السابق، ثم أكمل الزائر حديثه قائلاً : « وأودّ أن أقول ان الشركة لا تتحمل مسؤولية ما حدث . ولكن نظراً لخدمات نجلكما ، فهي ترغب في تعويضكم »

فأسقط مستر هوايت يدي زوجته ، ثم قفز من مقعده وحدّق الى الزائر مرتعباً ، وعبرّت شفتاه الجافتين عن السؤال : « كم ؟ »

— « مائتين من الجنيهات » أجاب الزائر

ودون ان يلتفت الى صراخ زوجته ، ابتسم الكهل ابتسامة خافتة ، ومدّ يده كالضرير ، ثم سقط على الارض كتلة فاقدة الحس

***

في المقبرة الكبيرة الجديدة ، على بعد ميلين ، دفن الكهلان ابنهما ثم عادا الى منزلهما غارقين في صمت ووهم رهيبين . لقد مرّت الحوادث متتابعة حتى إنهما لم يدركا صحتها اولاً وأصبحا في حالة انتظار كأنهما يتوقعان حدوث شيء آخر — شيء يستطيع أن يخفف الحمل الثقيل الذي ناء به قلباهما . ولكن الأيام مرّت وابتدأ انتظارهم يستحيل فشلاً — فشل المتقدمين في السن الذي يسمونه خطأ : « بلادة » . فكانا قلما ينطقان بكلمة ، لانهما لم يجدا ما يتحدثان عنه ، وأصبحت أيامهما طويلة مملّة

وكان بعد أسبوع من ذلك أن استيقظ الكهل فجأة في الليل ، ثم مدّ يده ووجد نفسه وحيداً في فراشه . وكانت الحجرة دامسة الظلام ، والريح تهب معولّة في الخارج . فجلس في مخدعه وانصت ثم اندفع يقول : « عُدْ ! انك لا شكّ تعاني برودة الجو » فقالت الزوجة وقد استيقظت باكية : « ان ابني يضنيه البرد » . ووصل صوت نحيبها الى اذنه ، وكان الفراش دَفِئاً ، والنوم يثقل جفنيه فاستلقى ونام الى أن ايقظته صرخة مفاجئة من زوجه :

— « كفّ القرد ! » « كف القرد ! »

فقفز استعداداً وقال : « أين هي ؟ أين ؟ ما الامر ؟ » ثم أقبلت اليه من مخدعها تتخبط في عرض الحجرة وقالت : « أريدها ... هل أعدمتها ؟ »

— « انها على خزانة المضيات . . لكن لماذا ؟ » فصاحت ضاحكة ، ثم انحنت وقبّلت

وجنتيه وقالت : « آه لقد خطرت عليّ الآن فقط.... لماذا لم تخطر على بالي من قبل ؟ . . . لماذا لم تخطر على بالك أنت ؟ ... »

— « ماذا تعنين ؟ »

« الرغبتان الاخريان ... لقد نلنا رغبة واحدة فقط » فقال الزوج : « أما كان فيما حدث عبرة لك ؟ »

فصاحت ظافرة : « كلاّ ... سنطلب طلبة أخرى . . . انزل واحضر لي الطلسم سريعاً وتمنَّ أن يعود ابننا حيًّا... »

فجلس الرجل في فراشه ، وطرح رداء نومه على قدميه المرتعشتين ثم صرخ ذاهلاً : « يا الهي ، . . هل جننتِ ؟ »

— « احضرها ... احضرها سريعاً واطلب آه .. ابني ابني »

فأشعل زوجها ثقاباً أنار بهِ الشمعة ثم نهرها : « عودي الى فراشك . انك لا تدركين ما تقولين »

فأجابت الزوجة محمومة : « لقد نلنا رغبتنا الأولى ، فلماذا لا نرغب أخرى ؟ »

فقال الكهل : « انها مصادفة »

فصرخت زوجه مرتعشة من النشوة : « اذهب واحضرها واطلب ... »

فالتفت الكهل اليها واهتزّ صوته : « لقد مات لعشرة أيام خلت ، أضفي الى ذلك ، ولن أقول أكثر من هذا ، انني لن أستطيع معرفته إلاّ من ثيابه . اذ كان منظره مخيفاً يوم الحادث ، فكم بالحري منظره الآن ؟ »

فصرخت الزوجة « هات الطلسم » ثم سحبته الى الباب قائلةً : « هل تظن اني أرهب الطفل الذي أرضعت ؟ »

فنزل في الظلام الى الدور الاسفل ، وأخذ يتحسس طريقه الى خزانة أدوات المائدة ، وكان الطلسم في مكانه ؛ ولكنّ خوفاً رهيباً خيّم عليه ، إذ كيف يستطيع أن يتمنى عودة ابنه مشوهاً اليه . فهرب من الحجرة منقبضاً ، وضلّ الطريق الى الباب ، وأخذ يتحسس طريقه حول المائدة ثم يزحف بجوار الحائط ، حتى وجد نفسهُ أخيراً في ممر صغير ، والطلسم الوبيل في يده ، والعرق يتصبب مفرقيه

ولما دخل الحجرة استحال وجه زوجه بياضاً يعبر عن بهجة الانتظار ولـكنه لفرط خوفه ، تراجع منها رعباً

فصرخت بصوت عالٍ : « اطلب طلبتك »

— « عبثٌ باطل ! »

وصرخت ثانية « اطلب »

فرفع الرجل يمينه وقال : « أطلب عودة ابني حياً ثانية » وعلى أثر ذلك ، سقط الطلسم إلى الأرض وأخذ يتأمله مرتعداً . ثم غاص مرتعشاً في مقعد مريح بينما اتجهت زوجه الى النافذة ترفع ستائرها وتطل منها بعينين ملتهبتين

* * *

ظل الـكهل مكانه حتى شعر بالبرد ، وكان يسترق البصر إلى طيف زوجته وهي تطل من النافذة . وكانت الشمعة على وشك الاحتراق ؛ تلقي أشعتها الراقصة الأخيرة على جانبي الغرفة وسقفها ، حتى تلاشت . وزحف الـكهل ، على أثر خيبة الطلسم ، إلى فراشه دون أن ينبس ببنت شفة ، ثم تبعته زوجه بعد دقيقة أو اثنتين .

وصمت الاثنان ، ولـكنهما كانا ينصتان إلى دقات ساعة الحائط وفي أثناء ذلك ، صات أحد الجرذان ، فسمع صوته واضحاً جلياً . وإذ كان الظلام دامساً حالـكا ، نهض الرجل المحطم من فراشه جامعاً أهداب شجاعته ، وأخذ علبة الثقاب ، ثم أشعل منها عوداً وهبط الدرجات كي يحضر شمعة

وعند الدرجات الأخيرة ، انطفأ العود ، ثم انتظر كي يشعل آخر . وفي الوقت ذاته سمعت دقة هادئة على الباب الخارجي يكاد يخطئها السامع . فسقط العود من يده ، ووقف لحظة واجماً دون حراك حتى تكرر القرع على الباب .. ثم التفت حوله مذعوراً وهرب مسرعاً الى حجرته مغلقاً بابها خلفه

وردد المنزل إذ ذاك صدى القرعة الثالثة

فصرخت السيدة مذهولة : « ماهذا ؟ »

فأجاب الـكهل بنبرات مرتعشة : « فأر . . . فأر . لقد صادفته على الدرجات »

فجلست الزوج في فراشها تنصت، ثم تردد في أرجاء المنزل صوت طرقة أخرى على الباب فصاحت: « انهُ هربرت . . . . انهُ هربرت ! »

ثم قفزت الى الباب ، ولكن زوجها سبقها وأمسك بذراعها ضاغطاً عليها بشدة . وهمس في أذنها : « ماذا تنوين ؟ »

فصرخت وحاولت التملص : « انه ابني . . . هربرت . . . لقد نسيت انه يبعد عنا ميلين ... لماذا تمنعني ؟ ... دعني ... يجب أن أفتح الباب »

وصرخ الكهل مستعطفاً مرتعشاً : « أناشدك بالسموات لاتدعيه يدخل »

فردت عليه : « انك تخشى ابنك ! . . . دعني . . . سآتي حالاً يا هربرت ... هأنذا يا هربرت . . . »

* * *

وسمعت دقة ، ثم أخرى . وإذ ذاك أفلتت الزوجة من زوجها ، وتبعها هـــذا الى أول الدرجات مستعطفاً وهي ماضية عنهُ كالسهم ، تنهب الدرجات نهباً وتطويها طيًّا . وسمع مستر هوايت صوت مزلاج الباب السفلي وهو يدفع ، ثم نادته زوجه : « الرتاج العلوي .. اسرع إليّ ... انهُ شديد الارتفاع »

ولكن زوجها كان جاثياً على الأرض يرسل بيديه عليها بحثاً عن الطلسم . آه لو كان يجده قبل أن تستطيع زوجه فتح الباب . وردد الباب صوت طرقة واضحة . ثم سمع الزوج صوت امرأته وهي تستعين باحد المقاعد في فتح الرتاج العلوي . ثم سمع صوت المزلاج وهي تديره من مكانهِ . وفي تلك اللحظة عينها عثر على « كف القرد » ، وبحركة جنونية ردد طلبته الثالثة والأخيرة

وفجأة خمدت الطرقات رغم أن صداها كان لا يزال يتجاوب في أرجاء المنزل . ثم سمع الزوج صوت المقعد تسحبهُ زوجتهُ الى الخلف ، وفتح البـاب . فصعدت اليهِ نسمة باردة حملت اليهِ نحيب زوجته ، نحيب الأسى والاستياء ، فشجعهُ ذلك على أن يسرع إلى جوارها وأن يتقدما إلى الباب الخارجي

وفي الجهة المقابلة ، كان ضوء المصباح يتراقص فيضيء طريقاً هادئاً مقفراً .

الدين والفلسفة

الخصومة بينهما في المغرب

لمحمد يوسف موسى

« بعد ان تكلمنا في الكلمة الثانية على مظاهر الخصومة بين الدين والفلسفة في المشرق الاسلامي ، نتكلم اليوم على مظاهر هذه الخصومة في المغرب »

نستطيع القول بأن المملكة الاسلامية في المغرب والأندلس ، وقد تعاقبت عليها دول مختلفة ، كانت مصداقاً لبعض قوانين ابن خلدون الاجتماعية . ذلك بأن هـذا الفيلسوف الاجتماعي استقرأ الاطوار التي تمر بها الأمة من الأمم ، من لدن قيامها الى انقراضها ، وجعل الطور الثاني هو « طور الاستبداد ، أي استبداد الأمير بقومه والانفراد دونهم بالملك ، وكبحهم عن التطاول للساهمة والمشاركة ، ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنيًا باصطناع الرجال واتخاذ الموالي والأنصار » (١) كما يقرر في موضع آخر « ان العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة ، وأن السبب في ذلك انهُ متى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم انصرفت عنهُ إلى ما وراء المعاش من التصرف في حاجة الانسان وهي العلوم والصنائع » (٢)

من أجل ذلك ليس عجباً أن نرى الدولة الاموية التي أسسها صقر قريش بالأندلس ، تعمد قبل كل شيء إلى توطيد سلطانها فيما اقتطعتهُ من بلاد الدولة العباسية ، ويشغلها هذا التوسع في بسط النفوذ والسلطان عن العلوم والفلسفة ، حاشا ما كان خاصاً بكتاب الله وسنة رسوله والفقه واللغة ، وما إلى ذلك من العلوم الاسلامية الأصيلة التي لاغنى عنها . ولهذا نجد صاعداً الأندلسي المتوفي سنة ٤٦٢ هـ يذكر « أن هذه البلاد ظلت بعد الفتح لا يعني أهلها بشيء من العلوم إلاّ علوم الشريعة وعلم اللغة ، إلى أن توطد الملك لبني أمية بعد عهد أهلها بالفتنة ، فتحرك ذوو الهمم لطلب العلوم » (٣) . ونعتقد انهُ من الواضح أن المراد بالعلوم التي تحرك هؤلاء لطلبها العلوم ، التي من جنس العلوم القديمة الفلسفية التي لم يكن للعرب إلفٌ بها

(١) المقدمة ص ١٣٨ (٢) نفسه ص ٣٤٤ (٣) طبقات الامم ، طبع مصر ، ص ٧١

ثم كان أن أخذت العلوم الفلسفية تنشط من عقالها وتأخذ مكانها الحقيقة بها في عهد الحكم الثاني المستنصر بالله (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ) ، الذي كان له فخر افتتاح هذه الدراسات العالمية وتمهيد سُبلها للراغبين ، بما كان يجمع من الكتب والمؤلفات . وكان يدفع هذه الحركة العلمية للأمام التسامح الذي لا تكاد العصور الحديثة يعرف لهُ نظيراً كما يقول « رينان — Renan » الفيلسوف الفرنسي المعروف « إذ كان هناك مسيحيون ويهود ومسلمون يتكلمون لغة واحدة ويتناشدون شعراً واحداً ، ويتعاونون على الدراسات العلمية والأدبية . لقد امّحت كل الحواجز التي كانت تفصل الناس ، وصار الجميع يتعاونون في إقامة صرح التمدن المشترك ، كما غدت مساجد قرطبة بتلاميذها الذين يعدون بالآلاف مراكز الدراسات العلمية والفلسفية »[1]

لكن العامل السياسي ظهر — مضافاً إلى عوامل أخرى — فقضى على هذه النهضة في مستهل أمرها . إذ توفي الحكم وتولى ابنه هشام المؤيد ، وكان غلاماً حديثاً ، فاستبد به وبالملك الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر ، وعمل هذا الحاجب على استمالة العامة والفقهاء فعمد الى خزائن الحكم العلمية فأفرز بمحضر من أهل العلم والدين ما فيها من كتب علوم الأوائل القديمة ماعدا الطب والحساب وأمر باعدامها : فأحرق بعضها ، وطرح بعضها في آبار القصر وهيل عليها التراب والحجارة ، وغيرت بضروب من التغايير . فعل ذلك تحبباً الى عوام الاندلس ، وتقبيحاً لمذهب الخليفة الحكم عندهم « إذ كانت تلك العلوم مهجورة عند أسلافهم ، مذمومة بألسنة رؤسائهم ، وكان كل من قرأها متهماً عندهم بالخروج عن الملة ومظنوناً به الالحاد في الشريعة »[2]

ومما يؤكد ما نراه من أن الحاجب المنصور اجترح ما اجترح مدفوعاً بعامل سياسي ، مايذكره المقري نقلاً عن ابن سعيد ، إذ يقول بياناً لحالة فنون العلم لدى أهل الاندلس ، « ان كل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلاّ الفلسفة والتنجيم ، فان لهما حظاً عند خواصهم ولا يُتظاهر بهما خوف العامة . فانه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه العامة اسم زنديق وقيدت عليه أنفاسه فان زل في شبهة رجموه أو حرّقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ، أو يقتلهُ السلطان تقرباً للعامة . وكثيراً ما كان يأمر ملوكهم باحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت ، وبذلك تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه »[3]

---

(١) ابن رشد ومذهبه ، بالفرنسية ، ص ٤

(٢) طبقات الامم ص ٧٦ (٣) نفح الطيب ، نشر دوزي ، ج ١ ص ١٣٦

ولم يكتف المنصور بما فعل ، بل أصدر مرسوماً حرّم بهِ الاشتغال بالفلسفة فصار الذين يعنون بها يستخفون بدراساتهم ، كما صار الذين استمروا يحملون شعلة التفلسف عرضة للمحن والأرزاء . مصداق هذا حياة متفلسفي ذلك العصر ومنهم ابن باجه المتوفي سنة ٥٣٣ هـ ومعاصره مالك بن وهب الأشبيلي

بل تعدّت المحنة الفلسفة الى علم الكلام في عصر أسرة المرابطين ، فصار قبيحاً وبدعة في الدين بما وسوس بهِ بعض الفقهاء الى علي بن يوسف بن تاشفين المتوفي سنة ٥٣٧ هـ فشدد في نبذه متوعداً من عُثر عنده على شيء من كتبه حتى انه لما دخلت مؤلفات حجة الاسلام الغزالي أمر باحراقها وتوعد بسفك الدم من وجد لديه شيء منها (١)

***

وإذا تركنا أسرة المرابطين الى دولة الموحدين التي خلفتها ، نجد فيها من عُرف بتشجيع الفلاسفة ومن عمل على اضطهادهم ، حتى ان ابن رشد انكر اشتغاله بالفلسفة لما سأله امير المؤمنين أبو يعقوب عن رأي الفلاسفة في قدم السماء ، على نُصرته للفلاسفة (٢)

وبالرغم مما رأيناه من كراهة الفلسفة واضطهاد الفلاسفة والمتفلسفين بالمغرب والاندلس لايسع الباحث الاَّ ان يقرر أن هذه الاضطهادات زادت الفلسفة والفكر الحر أنصاراً مستخفين تارة ومجاهدين أخري وكان ذلك لعوامل مختلفة .

ونعتقد انهُ صار من السهل الآن معرفة البواعث التي دفعت رجال الدين ، او نقرأ منهم على الأقل ، إلى معاداة الفلسفة وعلم الكلام الآن في ذلك العصر . هذه البواعث قد يدخل فيها الجهل والتعصب والسياسة والحسد احياناً ، ولكن من الحق ان نقرر انهُ في كثير من الحالات كان الباعث على ما امتحن به الفلاسفة ومن اليهم عدم صلاحهم للنظر فيها او انحرافهم في شيء من آرائهم عن بعض ماجاء بهِ الدين ، إما حقاً وإما جهلا

وإلاَّ فكيف نفسر ان المنصور ابا يوسف يعقوب (ولي سنة ٥٨٠ هـ) لم ير بأساً في اشتغال الحفيد أبي بكر بن زهر بالفلسفة ، وقد حرم الاشتغال بها ، لما يعلمه — كما قال — من متانة دينه وخلقه (٣) وكيف ان ابن زهر هذا ابى بشدة على اثنين من تلاميذه ان يشتغلان بشيء منها قبل ان يتقنا علوم الدين ويتعودا القيام بالشعائر الدينية ؟ (٤)

ومهما يكن امر البواعث العامة والخاصة التي دفعت إلى اضطهاد الفلسفة والفلاسفة ، فانهُ بنكبة ابن رشد سنة ٥٩٥ هـ فقدت الفلسفة الاسلامية آخر نصير وممثل لها من المسلمين

(١) المعجب للمراكشي ، نشر دوزي ، ص ١٢٣ — ١٧٥ ، (٢) نفسه ص ١٧٥ (٣) طبقات الاطباء ج ٢ ص ٦٩ (٤) نفسه ص ٦٩ — ٧٠

في الشرق والغرب ، وتضافرت عوامل مختلفة على اماتة روح الابتكار وسيادة روح التفكير

* * *

وأخيراً ، هل يبيح الدين ما كان من اضطهاد كثير من رجاله للفلسفة والفكر الحر ؟ وهل كان من الخير أن تسوء العلاقة بين رجال الدين والفلسفة ، كما رأينا ؟

١ — مهما تكن البواعث التي صدر عنها بعض رجال الدين في عدائهم للفلسفة ومهما تكن مكانتهم وشهرتهم في التاريخ ، فانه مما لا ريب فيه في رأينا أن الدين الاسلامي لا يبيح كل ما امتحن به هؤلاء الفلاسفة ومن اليهم من اضطهاد وتنكيل . الدين الذي يأمر كتابه ألاّ نجادل أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن ، كما أمر موسى وهرون أن يلينا القول لفرعون لعلهُ يتذكر أو يخشى ، الدين الذي حث على النظر في العالم ، ظاهره وباطنه ، لنعرفه فنشكر من سخره لنا ؟ الدين الذي يقرر كتابه انهُ لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ الدين الذي هذا شأنه ، لا يرضي ما صنعه رجاله بالفلسفة

نفهم أن تحترب الافكار وأن تقرع الحجة الحجة ولكن لا نفهم أن تُنتضى السيوف وتسيل الدماء لتأييد رأي قد يكون خاطئاً ! ربما كان من الفلاسفة من ركب رأسه ، وذهب الى ما لا يتفق وأصول الدين ، هؤلاء جزاؤهم أن يؤدبوا بأدب الشرع ، ولكن منهم من حسنت نيته فاجتهد وأصاب أو أخطأ ، فكيف يجوّز مسلم لنفسه أن يرميه بالالحاد وأن يحرّض على تعذيبه وعلى قتلهِ أحياناً

٢ — يتبين من هذا الذي قدمنا انهُ لم يكن من الخير لأحد من الطائفتين أن تسوء العلاقة بين رجال الدين ورجال الفلسفة كما رأينا . لقد حفر هذا الخلاف — بل العداء — بين الفريقين هوّة ظلت فاصلاً بينهما دهراً طويلا ، وأساء كل من المعسكرين بالآخر الظنون ، فرمى رجال الدين الفلاسفة بالالحاد ، وجازاهم هؤلاء شرّاً بشرّ فرموهم بالجمود وعدم الفهم للدين ! وكان من هذا وذاك أن حُرم الدين الانتفاعَ بجهود كثير من أبنائه المفكرين ، وان تحامى العامة الفلاسفة ، فانكمش الفكر الحر وأخلى الطريق للجهل والتقليد

ومن المؤلم أشد الألم انهُ لا يزال لذلك الموقف آثاره في هذا العصر الذي نعيش فيه إذ يمثل أحد المعسكرين بعض رجال الأزهر ويمثل المعسكرَ الآخر بعض رجال الجامعة . وإذ ثار الخلاف واشتد في حالات كثيرة — كلنا يذكرها — على حساب العلم والتفكير ! بل لعلنا لا نخطيء اذا قلنا انهُ من السهل أن نجد ممثلين لهذين المعسكرين في الازهر نفسه

علم الله انهُ لولا داء الحسد لسلم تاريخ الاسلام مما ذخر بهِ تاريخ الأديان من اضطهاد التفكير الحر ورجاله . ذلك بأنهُ — كما يقول الشيخ محمد عبده — « اذا عدّ عادّ بعض

رجال العلم الذين أخذتهم القسوة في الاسلام ، وقتلهم حماقات الملوك باغراء الفقهاء وأهل الغلو في الدين ، فما عليه إلاّ أن ينظر في أحاولهم فيقف لأول وهلة على ان الذي أثار أولئك عليهم ليس مجرد العصبية للدين ، وأن ليست الغيرة عليه هي البـاعث لهم على الوشاية بهم وطلب تنكيلهم ، وانما نجد الحسد هو العـامل الاول في ذلك كله والدين آلة لهُ ، ولهذا لا تجد مثل ذلك الأذى يقع إلاّ على قاضي قضاة كابن رشد أو وزير أو جليس خليفة أو سلطان أو ذي نفوذ عظيم بين العامة . وهذا كما يقع من الفقهاء مثلاً لإيذاء الفلاسفة ، يقع من الفقهاء بعضهم مع بعض لاهلاك بعضهم بعضاً ، كما يشهد به العيان ويحكي لنا التاريخ[(١)]

هذا ، وقد تم ما أردنا من عرض العلاقة بين رجال الدين والفلسفة ومنـه وضح أن الفلسفة والفلاسفه كانوا أحسن حظاً في المشرق منهم في المغرب ، فما تعليل هذا ؟

***

لا نعرف أحداً من مفكري الشرق وفلاسفته عني بتخصيص كتاب أو رسالة للتوفيق بين الدين والفلسفة وان كانوا عالجوا هذه المسـألة في اثناء كتاباتهم ، على حين صنع ذلك فلاسفة المغرب ، كما يتبيـن من « حي بن يقظان » لابن طفيل ، ومن مؤلفـات ابن رشد التي خصـصها كلها او بعضها لهذه الغاية على ما سيجيء

ومعنى هذا انهم في الشرق لم يحسوا الحاجة الملحـة لتأمين حياتهم كما احسها إخوانهم في المغرب ، فعملوا على اظهار ان ما يُعنون به هو فلسفة تتفق والدين الذي يعتقدونه حقـاً اي ان المفكرين في الشرق نقصهم الى حدّ كبير عامل هام من العوامل التي تدفع المتفلسف للتوفيق بين الدين والفلسفة اول كل شيء

ذلك بأن اوائلَ المفكرين — كالكندي مثلا — كانوا يعيشون في عهد المأمون ومن تلاه من الخلفـــاء العباسيين الذين عُـرفوا ، كما قدمنا ، بحرية الفكر وتشجيع المفكرين وحمايتهم ولما جاء المتوكل سنة ٢٣٢ هـ ، واضطهد المتكلمين والفلاسفة وحجر على اصحاب المقالات ، صادف هذا الانقلاب في السياسة العلمية ضعف سلطان العباسيين وظهور دويلات في قلب الدولة الاسلامية وتبع ذلك تفرق العلم وطلابه في مراكز كثيرة تابعة لأمراء يحبون العلم ويشجعون عليه[(٢)]

(١) الإسلام والنصرانية ص ١٠١ — ١٠٢

(٢) هذا واضح ومعروف ذنه يمكن الرجوع الى « تاريخ آداب اللغة العربيـة » لجورجي زيدان ج ٢ من ٢٢٠ — ٢٢١ ، و « مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي » لسيد أمير على ص ٢٤٧ — ٢٤٩ الترجمة العربية

ومن هذه الدويلات الدولة الحمدانية بحلب والسامانية ببخاري . كما وقعت السلطة المركزية ببغداد نفسها فترة طويلة في ايدي اسر بني بويه المعروفين كذلك بتشجيع العلماء وفي كنفهم نبغ مسكويه

وكانت تجزئة الدولة الاسلامية على هذا النحو من صالح الفلاسفة والمفكرين الذين كانوا يجدون حماة في امراء تلك الدويلات ومن المثل لهذا الفارابي وسيف الدولة الحمداني كما كان الواحد منهم اذا خشى على نفسه من امير من الامراء انتقل الى غيره ومن مثل هذا ابن سينا [1] ويضاف الى ذلك كله ان الدولة العباسية كانت امشاجا من عناصر مختلفة في الدين والجنس والثقافة مما يجعل الفلاسفة أجرأ إذ يجدون وسطاً موافقاً بعض الموافقة [2]

كل تلك العوامل تجعل الفيلسوف الشرقي لا يحس الحاجة الماسة الى التوفيق اول الامر بين الدين والفلسفة ولا لأن يخصص لهذا مؤلفا من مؤلفاته . وعلى عكس هذا كان الحال في الغرب الاسلامي تحت حكم المرابطين اولا والموحدين ثانياً ، في وسط مليء بالجهد وتعصب العامة وكثير من رجال الدين ، ضد كل احرار الفكر وان كانوا من المتكلمين على مذهب الاشعري ! بل ضد كل عالم له رأي خاص وان كان الغزالي خصم الفلاسفة اللدود ! في وسط يبلغ التعصب فيه ضد الفكر والفلسفة درجة تجعل بعض الامراء يوقعون — ابتغاء مرضاة العامة ورجال الدين — بمن كانوا يحمونهم ويشاركونهم سراً في دراسة الفلسفة أحياناً كما وقع لابن باجه وابن رشد ! لاعجب اذاً إن رأينا الفلاسفة في المغرب اسوأ حظاً من إخوانهم في المشرق ، فيخصصون بعض جهودهم للتوفيق بين الدين والفلسفة ، ليأمنوا على أنفسهم ويحببوا الفلسفة للناس بالتدليل على انها والدين من منبع واحد

***

والآن ، وقد انتهينا من ماهية الدين والفلسفة ونشأتهما وبيان العلاقة بينهما في خلال العصور ، نكون وصلنا الى المرحلة الاخيرة وهي بيان ما كان من شعور بعض المفكرين الفلاسفة بالحاجة الماسة للتوفيق بين هاتين القوتين وعرض محاولاتهم هذا التوفيق في ايجاز ومبلغ نجاحهم فيما قصدوا اليه

(١) طبقات الاطباء ج ٢ ص ٥ — ٦ والمستشرق منك — Munk — » في كتابه أمشاج من الفلسفات اليهودية والعربية ص ٣٥٤ ، وكارا دي فو — Carra de Vaux » في كتابه « ابن سينا » ١٣٩ — ١٤٠

(٢) كتاب « نظرية ابن رشد » للمستشرق جوتي Gauthier ص ١٦٣

عمر الخيام

كما أعرفه

لمحمود المنجوري

الوثائق التاريخية التي وردت فيها أخبار عمر الخيام

وهي وثائق كتبت على وجه التحقيق قبيل السنوات الآتية : ٥٠٦ هـ و ٥٣٦ هـ و ٥٩٥ هـ و ٦١١ هـ و ٦٢٠ هـ و ٦٢٨ هـ و ٦٤٦ و ٦٧٤ هـ و ٧١٨ هـ و ٨٠٨ هـ وما بعدها وسنرى إن الخيام توفى سنة ٥٢٦ هـ

ونستطيع عند ما نستعرض وقائعها والتواريخ التي دونت فيها ، ان نقسمها الى ثلاثة أقسام، وأن نخرج منها ما يأتي :

(١) — وثائق عاصر كاتبوها الخيام نفسه ، وكانوا على وجوده شهود اثبات رأوه رأي العين

(٢) — وثائق جاءت في كتب دونت في القرن السادس والسابع والثامن للهجرة

(٣) — تعليقات جاءت في كتب دونت في القرن التاسع للهجرة وما بعده

﴿ القسم الاول ﴾ : وثائق تتناول وقائع ذكرتها شهود اثبات رأوا الخيام رأي العين

(ا) — المقالة الثالثة من (جهار مقالة — أربع مقالات) لاحمد بن عمر علي النظامي العروضي السمرقندي ، خصص النظامي هذه المقالة لأخبار الفلكيين وجاء بها ما ترجمته :

« حظيت في سنة ٥٠٦ هـ في مدينة بلخ وفي قصر « أمير بوسعدجر » بخدمة الاستاذ عمر الخيام والامام المظفر الاسفزاري ، وفي اثناء الحديث سمعت حجة الحق أي عمر الخيام يقول : انني اذا مت فان قبري سيكون في مكان تهب عليه نسائم الشمال وينتثر عليه الزهر والورد مرتين في العام الواحد

وقد تملكني العجب من قوله لاني كنت أعلم ان خياماً لا يتكلم الا عن روية . وفي سنة ٥٣٠ هـ دخلت نيسابور، فبلغني ان التراب قد أخفى ذلك العظيم منذ اربع سنوات، وترك العالم السفلي يتيماً . ولما كان له حق التعليم ذهبت لزيارة قبره يوم الجمعة ومعي رجل

ليدلني على قبره ، فأخذني الرجل الى مزار (حيرة) ولما وصلنا التفت الى اليسار فألفيت قبر الخيام بجانب جداو حديقة مهجورة. وقد أحاطت بقبره أشجار المشمش المنورة وكان الزهر يتساقط على قبره حتى أخفى قبره وقد ذكرت ما قاله لي في بلخ. فبكيت ولم أجد في هذا العالم نظيره، أسكنهُ الله تبارك وتعالى جنانه بمنهِ وكرمهِ»(١)

هذه وثيقــة من أقدم الوثائق التاريخيــة كتبها تلميذ لعمر الخيام وقد تناول فيهــا اثبات ما يأتي :

انهُ قام على خدمة استاذه الخيــام سنة ٥٠٦ هـ بمدينة بلخ وسمع دروسه مع دروس زميله الامام المظفر الاسفزاري — وهو فيلسوف عاصر الخيام وناظره — وانهُ عاد الى نيسابور سنة ٥٣٠ هـ فعلم ان الخيام قد مات منذ اربع سنوات ، وانهُ زار قبره براً ووفاءً باستاذه

وبتحقيق هذه الوثيقة تقع وفاة الخيام سنة ٥٢٦ هجرية

ونص هذه الوثيقة اكثر أمانة ودقة لتدوين الوقائع مما ذكرتهُ مقدمة رباعيات فتزجرلد بل انها تختلف عنها في بعض التفاصيل ، وجدير بالمستشرقين ان يستوثقوا من النصوص عند اعادة طبع رباعيات فتزجرلد وان يرجعوا الى هذه الوثيقة لتصحيح ما ورد في المقدمة

ولقد اهتم بعض المستشرقين بأنواع الزهور التي يمكن ان تنبثق مرتين في العام الواحد تأكيداً لرواية الخيام عن نفسهِ فكتب في هذا العلامة برون كما كتب العلامة وليم سمبسن (W. Simpson) الذي زار نيسابور في اكتوبر ١٨٨٤ وحج الى قبر الخيام ورآه رأي العين وشاهد الزهور منتثرة من شجر يورق مرتين في العام ، وذكر المستشرق رس D. Ross ان وليم سمبسن ارسل فصيلة من هذا الشجر الى انجلترة وان العمريين غرسوها في حدائق كيو Kew—Gardins وان الغرس أفلح ونوَّر

(ب) — كتاب حكماء الإسلام للامام ظهير الدين ابي الحسن ابي القاسم البيهقي(٢) فقد ذكر الخيام مرتين .

(١) جهار مقالة، ترجمة E. G, Browne طـ كمبردج ١٩٢٢ والترجمة العربية للاستاذ الصراف ص ٧ دار السلام. بغداد ١٩٣١

(٢) ذكر ياقوت ان البيهقي ولد سنة ٤٥٠ هـ بخراسان وتوفي سنة ٥٣٦ هـ فهو اذن معاصر للخيام وهو منسوب الى بيهق بلدة قريبة من نيسابور وقد نقل عنه المستشرق الروسي زوكوفسكي ولكنه لم يذكر اسم هذا الكتاب

(١) فقال : دخلت على الامام — أي عمر الخيام — في خدمة والدي فسألني معنى هذا البيت في الحماسة :

ولا يرعون أكناف الهُوَيني إذا حلوا ولا أرض الهدون

فقلت له : الهوينى اسم تصغير كالثريا والحميا ومعناه انهم من عزهم وجرأتهم لا يرعون النواحي التي أباحتها المسالمة ووطأتها المهادنة ولكن النواحي المتحاماة

ثم سألني عن أنواع الخطوط القوسية . فقلت : أنواع الخطوط القوسية اربعة منها محيط دائرة ومنها قوس اعظم من نصف دائرة . فقال لوالدي « شنشنة أعرفها من أخزم »

ولقد جاء في ترجمة المستشرق الروسي Schukovski زوكوفسكي لهذا النص [1] ان البيهقي دخل على عمر الخيام في سنة ٥٠٥ هـ وعلى هذا يكون البيهقي قد شاهد بنفسه عمر الخيام في هذه السنة

(٢) وحكى لي الامام محمد البغدادي انهُ كان يتخلل بخلال من ذهب ويتأمل في كتاب الشفاء ، ولما وصل الى فصل « الواحد والكثير » قال لي : اطلب الأصحاب لأنني أريد أن أوصي . ولما اجتمعوا أخذ يصلي لله معرضاً عن صحبه ، ولما سجد كان يقول في سجوده : « اللهم اني عرفتك قدر ادراكي ، فاغفر لي فان معرفتي اياك وسيلتي اليك » ثم قضى نحبه

هذا وصف يقرره شاهد أثبت كيف قضى الخيام ساعاتهِ الاخيرة من هذه الحياة ، ولست أدري كيف يرتاب بعض الباحثين في احتمال حدوث هذه الوقائع ، فليس غريباً أن يدرك الانسان قرب أجلهِ ولا سيما اذا بلغ السن التي بلغها الخيام . وليس غريباً أن يوصي الخيام قبل وفاته وما نزال نسمع كل يوم ما يشبه هذا الحادث

على ان مؤرخاً آخر قد وصف الساعات الاخيرة للخيام ، ولكن في وضع أكثر سعة واحتمالاً ، فذكره الشهرزوري شمس الدين محمد بن محمود في كتابه « نزهة الارواح » الذي ألفهُ بين سنة ٥٨٦ و ٦١١ هـ بقوله :

وحكي انهُ كان — أي عمر — يتخلل بخلال من ذهب وكان يتأمل الالهيات من الشفاء ، فلما وصل الى فصل الواحد والكثير وضع الخلال بين الورقتين ، وقام وصلى ، وأوصى ،

(١) نسب زوكوفسكي هذا النص الى كتاب فردوس التواريخ لمولانا خسرو الابرقوهي المكتوب قبيل سنة ٨٠٨ هـ وقد أخذ عنه المستشرق رس في مقالات نشرها في مجلة الجمعية الملكية الاسيوية ، ابريل ١٨٩٨ ص ٣٤٩ والواقع ان الذي جاء بهذا النص هو البيهقي في كتاب حكماء الاسلام وقد نقله الاستاذ حامد الصراف عن نسخة مصورة موجودة بالمجمع العربي بدمشق ظفر بها العلامة محمد كردعلي في أوروبة . ونقلها مصورة هدية الى مجمع دمشق ص ٧ : الصراف ط. دار السلام بغداد

ولم يأكل ولم يشرب . ولما صلى العشاء سجد وكان يقول في سجوده « اللهم تعلم أني عرفتك على مبلغ امكاني فاغفر لي ، وان معرفتي اياك وسيلتي اليك » . ومات رحمه الله تعالى

ولقد جاءت هذه الشهادة من مؤرخ نقد الخيام ووصفه « بسوء الخلق وضيق العطن » كما سترى في الوثيقة التالية :

﴿ القسم الثاني ﴾ — وثائق جاءت في كتب دوّنت في القرنين السادس والسابع والثامن للهجرة

(١) نزهة الأرواح وروضة الافراح لمحمد الشهرازوري سنة ٥٨٦ هـ مقدمة الاستاذ ساخاو في الآثار الباقية لأبي الريحان البيروني ص ٥٦

عمر الخيام نيشابوري الآثار والميلاد كان تلو ابي على ابن سينا في اجزاء علوم الحكمة إلاّ انهُ كان سيء الخلق ضيق العطن ، تأمل كتاباً باصبهان سبع مرات وحفظهُ وعاد الى نيسابور فأملاه فقوبل بنسخته الأصلية فلم يوجد بينهما تفاوت ، وله ضنة بالتصنيف والتعليم ، وله مختصر في الطبيعيات ورسالة في الوجود ورسالة في الكون والتكليف . وكان عالماً بالفقه واللغة والتواريخ

ودخل الامام عمر يوماً على شهاب الاسلام الوزير عبد الرزاق وكان عنده امام القراء ابو الحسن الغزالي وكان يتكلمان في اختلاف القراء في آية فقال الوزير : على الخبير سقطنا ، فسئل الامام عمر عن ذلك ، فذكر وجوه اختلاف القراء وعلل كلام كل واحد منهما ثم ذكر الشواذ وعللها وفضل وجهاً واحداً فقال الغزالي « كثّر الله في العلماء مثلك اجعلني من بعض أهلك وارض عني فاني ما ظننت أحداً من القراء في الدنيا يحفظ ذلك ويعرفهُ فضلاً عن واحد من الحكماء »

وأما أجزاء الحكمة من الرياضيات والمعقولات فكان ابن بجدتها

ودخل حجة الاسلام الغزالي عليه وسأله عن تعيين جزء من أجزاء الفلك القطبية دون غيرها مع كونه متشابه الأجزاء ، فطوّل الخيامي الكلام ، وابتدأ من الحركة من مقولة كذا وضن بالخوض في كل النزاع ، وكان من دأب ذلك الشيخ المطاع ، حتى أذّن الظهر فقال الغزالي جاء الحق وزهق الباطل . وكان السلطان ملكشاه ينزله منزلة الندماء ، والخاقان شمس الملوك ببخارى يعظمه غاية التعظيم ويجلسهُ معهُ على سريره

تثبت هذه الوثيقة مقابلة الخيام لوزير من وزراء عهده وهو شهاب الاسلام والي طوس كما تقرر مقابلتهُ للامام الغزالي ، وشهادته للخيام واقراره له بالفضل كما تثبت ان الخيام كان مقرباً من الملوك حتى ان الخاقان شمس الملوك كان يجلسهُ على سريره تقديراً لعلمه واعزازاً

لمركزه ، وكان ملكشاه ينزله منزلة الندماء . فالخيام بهذه الوثيقة عالم يقرن بالغزالي ونديم تتوق الملوك الى مجلسه ورجل مُوفق الحظ يرفعهُ الملوك ويقربونه اليهم

ولم تكن هذه الشهادة آتية من رجل شايع الخيام بل جاءت من مؤرخ حمل عليه ونقد مذهبه فأثبت ان الخيام « كان سيء الخلق ضيق العطن » فهذه وثيقة تقرر ما للخيام وما عليه في نظر مؤرخها ، وهي الى ما ذكر تثبت ما وصل الى علم صاحبها من أسماء مؤلفات الخيام وتشهد بذكاء عمر النادر

(ب) مرصاد العباد لنجم الدين أبي بكر الرازي ألفه سنة ٦٢٠ هـ — ١١٢٣ م بالفارسية في التصوف وأدب النفس ، وهو لا يشتمل على سيرة الخيام إلاَّ ان مؤلفه نقد الخيام نقداً له قيمته من ناحية الحكم على مذهب الرجل وعلى خلط الناس بين مذهبه ومذهب المتصوفة ، فوضع الخيام في مصاف الفلاسفة الماديين الذين ينكرون البعث والنشور فقال ما ترجمته (١)

« وما الحكمة في جعل هذه الروح العلوية النورانيـة في قالب سفلي أظلم متخذ من التراب ؟ ثم ما السبب في التفريق بين الروح والجسد وقطع العلاقة بينهما ؟ لِمَ تتلاشى هذه الصورة وهذا الشكل ، وما السبب في نشر جسد الانسان في المحشر مرة اخرى ؟

أجل ، ان الذي خرج من زمرة (كالانعام بل هم أضل سبيلا) ووصل الى المرتبة الانسانية وخلص من قوله (ويعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) وسلك بذوق وشوق عظيمين الطريق الحسن ، علم ان ثمر النظر والقدم هو الايمان والعرفان

ان الفيلسوف الدهري الطبيعي محروم هذين المقامين حتى ان أحد الفضلاء وهو المشهور بحكمته وكياسته (عمر الخيام) قد تاه في بيداء الضلال بقوله :

در دائرة كامدن ورفتن ماست
آن را نه بدايت نه نهايت بيداست
كس مي نزند دمى درين عالم راست
كاين آمدن ازكجا ورفتن بكجاست

يعني : ان الدائرة التي فيها تجيء وتذهب ليست بذات بداية ونهاية ، لا أحد يستطيع أن يقول من أين هذا المجيء والى أين هذا الذهاب

---

(١) الترجمة للصراف عن الفارسية

(ج) كتاب كامل التواريخ لابن الاثير سنة ٦٢٨ ﻫ جاء فيه عن الخيام في حوادث سنة ٤٢٧ ﻫ ما يأتي :

« وفيها جمع نظام الملك والسلطان ملكشاه جماعة من أعيان المنجمين ، وجعلوا النيروز اول نقطة من الحمل ، وكان النيروز قبل ذلك عند حلول الشمس نصف الحوت ، وصار ما فعلهُ السلطان مبدأ التقاويم . وفيها أيضاً عمل الرصد للسلطان ملكشاه واجتمع جماعة من أعيان المنجمين في عملهِ ، منهم عمر بن ابراهيم الخيامي وأبو المظفر الاسفزاري وميمون ابن النجيب الواسطي وغيرهم . وخرج عليهِ من الأموال شيء عظيم ، وبقي الرصد دائراً الى ان مات السلطان سنة ٤٨٥ ﻫ فبطل بعد موتهِ »

فهذه الوثيقة تقرر اجتماع الخيام بعلماء عصره بدعوة ملكشاه لتصحيح التقويم وعمل الأرصاد الفلكية وهي تثبت ان هذا الاجتماع بدأ سنة ٤٢٧ ﻫ ولكنها لم تذكر اسماء جميع أعضاء هذا المجمع الفلكي

(د) كتاب تاريخ الحكماء للمؤرخ الوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن القاضي الأشرف يوسف القفطي المتوفى سنة ٦٤٦ ﻫ سنة ١٢٤٨م . وفيه ذكر الخيام قال :(1)

« امام خراسان ، وعلاّمة الزمان ، معلم علم يونان ، ويحث على طلب الواحد الديان ، بتطهير الحركات البدنية ، لتنزيهِ النفس الانسانية ويأمر بالتزام السياسة المدنية ، حسب القواعد اليونانية . وقد وقف متأخرو الصوفية على شيء من ظواهر شعره فنقلوها الى طريقتهم وتحاضروا بها في مجالسهم وخلواتهم ، وبواطنها حيّاتٌ للشريعة لواسع ، ومجامع للاغلال جوامع . ولما قدح أهل زمانهِ في دينهِ وأظهروا ما أسره من مكنونهِ ، خشي على دمهِ وأمسك من عنان لسانهِ وقلمهِ ، وحج متاقاة لا تقية ، وأبدى أسراراً من السرار غير نقية . ولما حصل ببغداد سعى اليهِ أهل طريقته في العلم القديم فسد دونهم الباب سدّ النادم لاسد النديم ، ورجع من حجهِ الى بلده يروح الى محل العبادة ويغدو ، ويكتم أسراره ولا بدّ ان تبدو ، وكان عديم القرين في علم النجوم والحكمة وبهِ يضرب المثل في هذه الأنواع لو رُزق العصمة . وله شعر طائر تظهر خفياته على خوافيه » . وقد أتى القفطي بقصيدة نظمها الخيام بالعربية منها

اذا كان محصول الحياة منية   فسيان حالا كل ساعٍ وقاعد

كتبت هذه الوثيقة التاريخية في القرن السابع للهجرة وهي تهدف بنا الى المناحي التي

(١) أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ط. ليبسك

أخذ عنها الخيام فلسفته فنقرر أن الخيام « يعلم علم اليونان ، ويأمر بالتزام السياسة المدنية حسب القواعد اليونانية » وتكشفنا على أمر اخر خطير يعلل ذهاب الناس بالخيام مذهب المتصوفة فتدلنا الى سر ذلك فتقول بأن بعض المتصوفين وقفوا على شيء من ظواهر شعره فنقلوه الى طريقتهم وتحاضروا به في مجالسهم وخلواتهم وهذا يعلل السبب في اختلاف عدد الرباعيات وكثرتها ويكشف لنا السر في وجود الرباعيات المنسوبة الى الخيام فهؤلاء المتصوفون هم الذين أدخلوا الكثير من نظمهم على رباعيات الخيام فنحلوه إياه

وتدل هذه الوثيقة على ان الخيام لم يسلم من نقد عصره واتهامه اياه بالزندقة حتى انهُ خشي على دمهِ ، وكف عن أسلوبهِ في التهكم بالعادات والتقاليد والعقائد وذهب يحج بيت الله متاقاة ودفعاً لسوء يناله أو مكروه يصيبه من الناس

وتشير هذه الوثيقة الى ان الخيام كان صاحب مدرسة يتبعه في مذهبهِ تلاميذ وأشياع فتقرر بأنهُ لما عاد من الحج الى بغداد اقبل اليه « اهل طريقته في العلم القديم فسد دونهم الباب سد النادم » وتقرر بأن الرجل كان يخشى على نفسه من خصومه فتظاهر بعد الحج بالعبادة والتقوى « ورجع من حجهِ الى بلده يروح الى محل العبادة ويغدو ، ويكتم أسراره ولا بدّ ان تبدو »

(هـ) كتاب آثار البلاد وأخبار العباد وهو مؤلف عربي في الجغرافية كتبه زكريا القزويني سنة ٦٧٤ هـ وقد ذكر الخيام عند كلامه على مدينة نيسابور قال

« ينسب اليها من الحكماء عمر الخيام ، كان حكيماً عارفاً بجميع أنواع الحكمة سيما النوع الرياضي ، وكان في عهد السلطان ملكشاه السلجوقي ، سلم اليه مالاً كثيراً ليشتري به آلات الرصد ، ويتخذ رصد الكواكب . فمات السلطان وما تم ذلك »

(و) كتاب جامع التواريخ كتبهُ رشيد الدين بن فضل الله المتوفى سنة ٧١٨ هـ جاء فيه ما ترجمته [1]

ان اسباب العداوة والنفرة التي كانت بين سيدنا حسن الصباح وعمر الخيام ونظام الملك انهم كانوا في مدرسة واحدة ، وكان بينهم صفاء واخاء وصداقة عظيمة كما يحدث بين ابناء المدارس ، حتى وصلت الصداقة الى اوجها ، واتفقوا على الاخاء والمحبة ثم اتفقوا على ان من ينال منهم رتبة علمية يساعد الآخرين ، وبحسب الاتفاق ، اتفق انْ وزّر نظام الملك وزيراً كما هو مذكور في تاريخ آل سلجوق فذهب اليه عمر الخيام وذكره بالعهود

(١) الترجمة للصراف . وذكر رس ان هذا الكتاب قد تم تأليفه سنة ١٣١٠ م أي حوالي سنة ٧١٠ هـ

والمواثيق في أيام الصبا فتذكر نظام الملك الحقوق القديمة وقال له : وليتك نيسابور ونواحيها وكان عمر حكيماً عظيماً فاضلاً عاقلاً فقال : ليس لي طاقة بالسياسة وأمر العوام ونهيهم فأعطي راتباً شهريًّا بحسب الوظيفة . فأعطاه نظام الملك عشرة آلاف دينار في السنة من دخل نيسابور المحروسة بدون نقص ولا انقطاع ... وكذلك سيدنا حسن الصباح ذهب من الري الى نظام الملك ليحظى بخدمته ، وقال له : الكريم اذا وعد وفَى ، فقال له نظام الملك : اختر بين ولاية الري وأصفهان » وكان سيدنا ذا همة عالية فلم يقنع بذلك ولم يرض به وكان يتوقع ان يشاركه بالوزارة فقال له نظام الملك : كن ملازماً لحضرة السلطان مدة. ان نظام الملك كان يعلم ان حسن الصباح كان طالباً لأن يحل محله في الوزارة والرتبة فكان يتحذر منه ، وبعد سنين استوحش السلطان من نظام الملك ورفع الحساب من عهدته »

تصف هذه الوثيقة حكاية الرفاق الثلاثة وما اتفقوا عليه فيما بينهم من عهد أيام الصبا والمدرسة ، وتذكر ولاية نظام الملك الوزارة وذهاب عمر الخيام يطالبه البر بوعده ، وتذكر وفاء الصديق نظام الملك للخيام وكيف أقطعهُ ولاية نيسابور وكيف أبى الخيام هذا وطلب راتباً يناله ، وكيف أجيب الى بغيتهِ . وتذكر هذه الوثيقة كيف سعى حسن الصباح الى صديقهِ القديم وكيف طالبهُ برًّا بوعده ، وكيف كان يضمر لصديقهِ الوزير من طمع في الجاه والوزارة ، فلم يقنع بولاية الري أو اصفهان ، كما تذكر ان نظام الملك أحسَّ بهذا الخطر عليهِ من زميله القديم فأبعده عن نفسهِ ولكن الحقهُ بخدمة السلطان ، كما تشير هذه الوثيقة اشارة خفية الى ان السلطان غضب بعد ذلك على نظام الملك فحد من اشرافهِ على أموال الدولة بسبب سعاية حسن الصباح

على انهُ يظهر جليًّا ان صاحب هذه الوثيقة كان من أتباع الباطنية بدليل انه يذكرُ حسن الصباح مقروناً بلفظة « سيدنا وأنهُ كان ذا همة عالية » فلم يقنع بالعرض السخي الذي عرضهُ عليهِ نظام الملك ، وبدليل انهُ لم يصرح بنقد لحسن الصباح في سعايتهِ عند السلطان ووشايتهِ بصديقه وولي نعمته نظام الملك

***

والوقائع التي جمعتها هذه الوثيقة تجعلنا نعتقد ان الخيام قد اجتمع بصديقه القديم حسن الصباح ، فهل تعاون الخيام في نشر الدعوة الباطنية مع صديقه صاحب هذه الدعوة ، وهل تخفي الرباعيات عقائد الباطنية مطوية مسطورة ؟ لعلنا نظفر بشيء من ذلك في دراستنا المقبلة للخيام .

فلاسفة الرواق

للدكتور عثمان أمين
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

كروسبوس [1]

١ — ﴿ شخصيته ﴾ هو تلميذ « كليانتس » وآخر ممثلي الرواقية القديمة وأبعدهم أثراً وأكثرهم انتاجاً عقليًّا . ذكر ديوجانس اللايرسي أن القدماء كانوا يقولون : « لولا كروسبوس لما أمكن أن تقوم لمدرسة الرواق قائمة « بعد اضمحلالها في عهد « كليانتس » [2]

ولد كروسبوس حوالي سنة ٢٧٧ ق.م في مدينة «صول» بجزيرة قبرص . وكانت قبرص في ذلك الحين مسرحاً للمنازعات السياسية بين البطالسة حكام مصر من جهة وبين ديمتريوس وانطيغوناس من جهة أخرى . واذن كانت جزيرة قبرص بلاداً قد قضي فيها على التقاليد القومية وحال فيها تقلب الحكام والسادة الفاتحين دون ازدهار الشعور بحب الوطن [3] فلم يكن من العسير على كروسبوس وقد نشأ في بلاد كهذه أن يجعل المثل الاعلى في الأخلاق فكرة الجامعية العقلية الروحية التي تنادي بأن الفيلسوف لا وطن له أو ان وطنه هو الكون بأسره .

وكان لكروسبوس قوة على الجدل عظيمة حتى قيل في عصره « لو كان بالآلهة حاجة الى فن الجدل لاتخذوا جدل كروسبوس » . ولقد كان كروسبوس نفسه — فيما يروى — يقول لأساتذته انهُ ليس بحاجة الى شيء أكثر من تقرير المسألة وهو كفيل بأن يجد من نفسه البرهان عليها [4] ولقد عاب عليه بعضهم مرة انهُ لم يجار الجمهور في الذهاب الى استماع

---

(١) يذكره القفطي باسم « كرسفس » (أخبار الحكماء طبع مصر ١٣٢٦ ص ١٧١) والشهرستاني باسم « خروسبس » (الملل والنحل طبع مصر (بهامش الفصل لابن حزم) ج٣ ص ٩٩)

(٢) Diogène Laerce, Vie des Philosophes VII 183.

(٣) Bréhier, Chrysippe, p. 8

(٤) Diogène Laerce, VII, 179

دروس « ارسطون »، فأجاب « لو انني كنت تابعت الجمهور لما درست الفلسفة[١] » وهذا دليل على مبلغ ما طبع عليه من الاعتداد بالنفس وقلة التواضع

٢ — ﴿أساتذته﴾ تتلمذ كروسبوس لكليانتس في الرواق . ويروي « سطيون » الاسكندري أن « كروسبوس » كان يختلف الى الاكاديمية المنافسة للرواقية . وكان يحضر الدروس التي كان يلقيها « ارقيزيلاس » و « لاقيدس » . ويقول « ديوجانس اللايرسي » ان هذا يفسر لنا كيف ان « كروسبوس » كتب رسالة في مناقب « العادة » وفي مساوئها كما يفسر استعماله منهج الاكاديمية في الكلام على الجحوم والاعداد[٢] . ويذكر « شيشرون » شيئاً عن مضمون رسالة « كروسبوس » هذه التي جمع فيها طائفة من أقوال الاكاديميين وحججهم في نقض معيار الحقيقة . ويضيف أن « قرنيادس » — وهو من أنصار الاكاديمية الجديدة — لم يكن محتاجاً الى أن يخترع حججاً جديدة لهدم معيار الحقيقة بل كان يكتفي بما أورده « كروسبوس » في رسالته المتقدمة الذكر[٣]

لكن فيما أورده « سطيون » عن اختلاف كروسبوس الى الاكاديمية ما يدعو الى الظن أن تلك القصة ليست الا افتراضاً محضاً قصد منهُ أن يفسر لنا وجود نظريات اكاديمية مبسوطة في مؤلفات كروسبوس . ولعلّ هذا يدل على رغبة كروسبوس في أن يقف تمام الوقوف على حجج خصومه وعلى تحريه الدقة في العلم بآرائهم[٤]

٣ — ﴿تعليمه﴾ ويظهر ان كروسبوس جعل من التعليم شغله الشاغل حين تولى الاشراف على الرواق . فقد أجمع رواة الاخبار على انهُ كان يُعنى على الدوام بحسن ادارة المدرسة وانتظام سيرها وعلى انهُ كان من الاساتذة المجتهدين يؤدي مهمته كل يوم بهمة لا تعرف الملل[٥] والذي ورد في الفهرست المرقيولاني من انتظام ساعات دروسه قد يذكّر بالموعد المضبوط الذي كان يخرج فيه الفيلسوف الالماني « كانت » كل يوم طلباً للرياضة

كان زينون صديقاً لانطيغوناس ملك مقدونيا كما ذكرنا واتصل « سفيروس » الرواقي بالملك « كليومين » ثم ببلاط الملك « فيلوباطر » بالاسكندرية[٦] لكن كروسبوس لم يتصل بأحد من اهل الجاه . وينبغي أن تقر مع « ديوجانس اللايرسي » أنهُ وحده خالف العادة

(١) Diogène Laerce, VII 182
(٢) Diogène Laerce, VII, 183-184
(٣) Cicéron, Premieres Académiques, II, 87. — Arnim, II 34, 12
(٤) Bréhier, Chrysippe, p. 11
(٥) Diogène Laerce, VII, 182
(٦) Diogène Laerce, VII, 177

المتبعة في اهداء الكتب الى الملوك فلم يهد من مصنفاته الكثيرة شيئاً الى ملك أو امير [١]

ولعل أهم طابع في منهج التعليم عند « كروسبوس » هو انهُ نظري تلقيني (دجماتيق) فقد كان الناس حتى ذلك العهد يسيرون على التقاليد السفسطائية التي تنحو نحواً عمليًّا صرفاً في التعليم، فكان هم المدارس أن تلقن الطلاب بواسطة التدريب على الخطابة كيف يمهرون في تأييد الآراء او نقضها على السواء. وذاعت تلك الطريقة في التعليم حتى كادت مدرسة ارسطو نفسها أن تصير شيئاً فشيئاً مدرسة لتخريج الخطباء [٢] واتخذت الاكاديمية منذ « ارقيزيلاس » « منهج جورجياس » « السفسطائي . وهو عبارة عن الكلام في نقض كل رأي يطرح للبحث او تأييد اي رأي كان . وأمثال تلك المناهج في التربية والتعليم تدل على شيء من التشكك وعلى ان الغاية من التعليم عملية صرفة كما اشرنا . لكن « كروسبوس » وان لم يكن يستنكر كل الاستنكار طريقة عرض الآراء المخالفة ، كان يرى فساد هذا النهج ما دام الباحث يريد لاقناً عمليًّا بل علماً اخلاقيًّا . ذلك ان معارضة الحق بالرأي الشبيه بالحق قد تزعزعه في النفوس، وهذا لا يناسب الا من يريدون التوقف في الحكم . ومن أجل ذلك وجب في عرض آراء مخالفة لآرائنا أن لا نعرضها الا بعد ان نهدم ما يجعلها شبيهة بالحق [٣]

٤ — ﴿ كروسبوس وأقيسته المنطقية ﴾ يذكر ديوجانس اللايرسي أن كروسبوس كان يصوغ أقيسة منطقية من القبيل الآتي : « ما ليس في المدينة ليس في البيت أيضاً . ولا بئر في المدينة ، اذن لا بئر في المنزل » وقوله « يوجد رأس ما . وذلك الرأس ليس لك . فاذا كان ذلك كذلك فهنالك رأس ليس لك واذن أنت من دون رأس ». ثم قوله « اذا كان شخص في ميغارا فهو ليس في أثينا. ويوجد الآن رجل في ميغارا ، اذن لا يوجد أحد في أثينا». ومنها قوله « اذا قلت شيئاً مرَّ من شفتيك . وأنت تقول عربة . اذن هنالك عربة تمر من شفتيك » وقوله « اذا لم تكن فقدت شيئاً قط فأنت ما زلت مالكاً اياه . ولكنك لم تفقد قط قروناً . اذن فأنت صاحب قرون [٤] » ... !

ولم يبين لنا ديوجانس اللايرسي ماذا كان قصد « كروسبوس » من ايراد أمثال هذه الأقيسة العجيبة . ولكن يخيل الينا أن « كروسبوس » انما أوردها مازحاً ، وانهُ أراد أن

---

(١) Diogène Laerce, VII, 183 (٢) Cicéron, orator, 46

(٣) Plutarque, De Stoic. repug., 10 cité par Bréhier, Chrysippe p. 16

(٤) Diogène Laerce, VII, 186-187

يبين قلة الكفاية في أقيسة المنطق الصوري الارسطاطاليسي وانها يمكن أن تؤدي الى نتائج مضحكة لا تخلو من سخف وان تكن سليمة من حيث الصورة ، وعلى ذلك تكون مراعاة المادة في المنطق واجبة

٥ — ﴿ مصنفات كروسبوس ﴾ كان كروسبوس واسع الاطلاع دائب التأليف أراد أن ينشىء في علوم زمانه موسوعة تحل محل الموسوعة الارسطاطاليسية فألف في المنطق والطبيعيات والاخلاقيات . ألف فيما يروى نيفاً وسبعمائة كتاب لم يبق منها إلاّ شذور قصيرة أورد ديوجانس اللايرسي فهرساً لكتب كروسبوس [١] فذكر فيه ١١٩ مصنفاً في المنطق — أكثرها مقصورة لا تزيد على فصل واحد — وذكر ٤٣ كتاباً في الاخلاق . ولكن الفهرس المنطقي ناقص في أوله، وفي ترتيب مواده اضطراب كبير . فهو لا يوافق تقسيم المنطق عند كروسبوس على نحو ما عرفه ديوقليس اللاغنيسي [٢] وعلى نحو ما يستفاد من كلام شيشرون[٣]. ثم ان فهرس الكتب الاخلاقية مضطرب كذلك أشد اضطراب فهو يحوي عدداً كبيراً من المصنفات المنطقية قد دسّت فيه دسًّا . واذن فهذا الفهرس كله ليس مصدره « كروسبوس » بل الظاهر ان واضعهُ أحد القيمين على المكتبات القديمة الذين يجهلون أهم معاني الفلسفة الرواقية [٤]

واذا كان فهرس ديوجانس اللايرسي قد خلا من ذكر المصنفات الطبيعية لكروسبوس فان من الكتّاب المتأخرين كشيشرون وبلوطرخس من ذكروا من هذا القبيل ١٩ مصنفاً طبيعيًّا[٥]

ومن مصنفات كروسبوس المشهورة في الطبيعيات (ولم يذكرها ديوجانس اللايرسي) رسالة في النفس ورسالة في الآلهة ورسالة في القضاء والقدر ورسالة في العناية

ومن مصنفات كروسبوس في الاخلاق رسالة في الاهواء [٦] ورسالة في الفرق بين الفضائل [٧] ورسالة في الجمهورية[٨]

---

(١) انظر قائمة كتبه الطويلة في : Diogène Laerce, VII, 198-202

(٢) Diogène Laerce, VII, 62 (Arnim, II, 38, 5.

(٣) Bréhier, Cicéron, orateur, 32, 115

(٤) Bréhier, Chrysippe, p. 20-22 (٥) Bréhier, Chrysippe, 30

(٦) Bréhier, Chrysippe, 36-51 (٧) Diogène Laerce, VII, 202

(٨) Bréhier, Chrysippe, 33-55

٦ — ﴿ نظريات كروسبوس الخاصة ﴾ : روى بلوطرخس ان كروسبوس بسط نظرية المعاني السابقة ونظرية المعاني الشائعة بسطاً وافياً ورتبها ترتيباً واضحاً. وقال شيشرون إن كروسبوس هو صاحب النظرية التي يفرق فيها بين العلل الاولى والعلل الثانية ليوفق بين نظرية القضاء والقدر وبين فكرة المسؤولية والحرية الاخلاقية ، فقال ان القضاء المحتوم انما ينصب على العلل الثانية . اما ميولنا وهي العلل الاولى فهي في مقدورنا ونحن أحرار في توجيهها (١)

ولكن عيب على كروسبوس اسرافه في نظرية الرواق عن الاشياء « السواء » أعني الاشياء التي ليست خيراً ولا شراً كالحياة واللذة والارتزاق

وأخذ على كروسبوس كذلك انهُ أباح في كتابه الجمهورية التزوج من الاقربين كزواج الأب من ابنته والابن من أمه والاخ من أخته . وانه في كتابه العدالة أباح للناس ان يأكلوا لحوم البشر (٢)

وعاب خصوم كروسبوس عليه، فضلاً عما ذكرنا، ان أسلوبه كان ثقيلاً وان لغته لم تكن مهذبة مختارة وانهُ مثلاً حين فسر قصة « هيرا » و « زيوس » قد تفوه بألفاظ لا تليق بجلال الآلهة بل هي أولى بأن تصدر من « أولاد الشوارع » كما قال ديوجانس اللايرسي (٣)

والحقيقة ان كروسبوس كان دائماً مضطراً الى ان يتكلم أو أن يكتب مستعجلاً اما لتوضيح مسألة أو للرد على خصم فلم يستطع في مثل تلك الحال ان يتوخى في أقواله أو في مصنفاته ما كان يتوخاه كتّاب ذلك الزمان من رشاقة العبارة وجمال الاسلوب (٤)

٧ — ﴿ مهمة كروسبوس في الرواق ﴾ حمل كروسبوس عبء التراث الرواقي فكان عليه أن يضطلع بواجبين : الاول — ان يجمع كلمة الرواقيين بعد أن تفرقوا شيعاً كثيرة لا انسجام بينها ولا خطر لها . والثاني — أن يدفع عن الرواق هجمات الخصوم أو المنافسين . أما الواجب الاول فقد وفق كروسبوس في ادائه . اذ تولى الرد على « ارسطون » و « هيرلوس » بل « كليانتس » . وكانت ردوده حاسمة فوضع بذلك حداً للمناقشات الطويلة التي كانت سبباً في انشقاق الرواقيين على أنفسهم . وأما الخصوم والمنافسون الذين كان عليه أن يواجههم فكثيرون ، أهمهم ينتمون الى مدرستين احداها الابيقورية وهي معاصرة على وجه التقريب للمدرسة الرواقية والثانية هي الاكاديمية الجديدة وهي مدرسة كانت تنتسب الى أفلاطون

---

(١) Cicéron, De fato, 18 (٢) Diogène Laerce, VII, 188

(٣) Diogène Laerce, VII, 187-188 (٤) Diogène Laerce, VII 180

ولكنها رأت ان تدعو باسمه الى مذهب التشكك . ولنحاول ان نرى الآن ما عسى أن يكون شعور كروسبوس والرواقيين نحو هاتين المدرستين

أما الابيقوريون فلم يكن الرواقيون ينظرون اليهم إلاّ نظرات الازدراء . فالابيقوريون قوم لا ثقافة لهم . يحتقرون الجدل فلا يجيبون على حجج الرواقيين القوية واعتراضاتهم الدقيقة إلاّ بتصريحات غامضة وتوكيدات عامية من غير دليل . وكثيراً ما كانوا يحاولون الاجابة عن نتائج الاستدلالات المنطقية فيقنعون بقولهم « ليس هذا صحيحاً » . فاذا أراد الرواقيون مثلاً أن يبرهنوا لهم على ان اللذة ليست في عداد الخيرات ورأيتهم يجيبون . « اللذة خير . هذا شيء نحسه كما نحس ان النار تسخن ولا يمكن ان يبرهن عليه »

لكن موقف الرواقيين من شكاك الاكاديمية كان في الحق موقفاً يخالف موقفهم من الابيقوريين. كان لا بد لكروسبوس ان يناهض ادلتهم وان يقارع حججهم بما لا يقل عنها قوة وبراعة . فاضطر ان يحاربهم بمثل أسلحتهم فانتهج في ذلك منطقاً دقيقاً محبوكاً وكان له منه ما أراد . بل انهُ بلغ من المهارة في فنون الجدل والمحاجة واثارة الشكوك ما لا مطمع وراءه

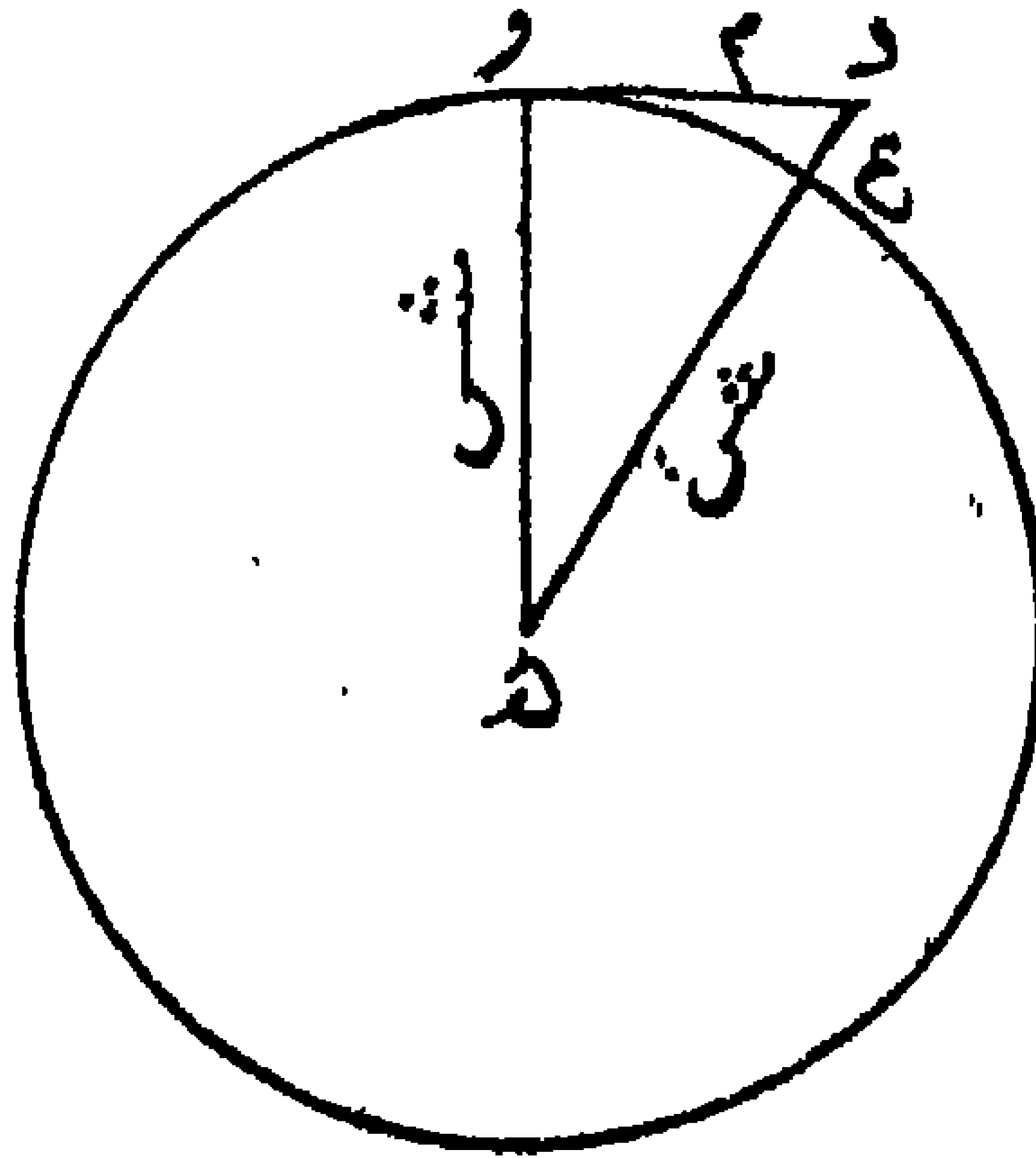
ولكن مذهباً كان مضطرًّا الى الدفاع عن أمره في شتى النواحي كان لا بد له ان يتسع شيئاً فشيئاً وان يزيد وضوحاً . وأكبر الظن ان كروسبوس بقي مخلصاً لآراء زينون في المواضع الأساسية ولم يمنعهُ ذلك من ان يضيف اليها بعض التفاصيل وان يوضح ما كان منها بحاجة الى ايضاح حتى أصبحت الرواقية بفضل جهوده فلسفة تامة مرتبطة الأجزاء واضحة المعالم. ومن المحقق ان كروسبوس اوضح طائفة من المسائل ظلت غامضة بعد زينون وكليانتس من ذلك مسألة معيار اليقين والمعرفة . وكروسبوس هو يقيناً صاحب الفضل الأكبر في بناء علم النفس الرواقي وهو على الخصوص المنشىء للمنطق الرواقي كله او يكاد . فاذا كان ذلك كذلك فما نظن ان القدماء كانوا مغالين حين قالوا . « لو لم يوجد كروسبوس ما وجد الرواق » (١)

وجملة القول ان كروسبوس دافع عن المذهب الرواقي دفاعاً قويًّا مستمرًّا ولم تكل عزيمته عن مناصرة المدرسة على كثرة الهجمات التي كانت ترد اليه من كل صوب ، من الأبيقوريين ومن الشكاك ومن تلاميذ « زينوقراط » و « استراتون » وغيرهم . ولا شك ان كروسبوس هو الذي دأب على تنظيم الرواقية وبسطها بسطاً ثبتت به دعائمها مدى خمسة قرون ، حتى جاء افلوطين الاسكندري فقوض بفلسفته جميع المذاهب المادية

(١) Rodier, Etudes, p. 238

بابُ المُراسلةِ والمُناظرةِ

مدى الرؤية من الطيارة



في صفحة ٤١٤ من مقتطف ديسمبر الاخير جدول مدى الرؤية من طائرة محلقة . ولاستخراج مسافة مدى الرؤية ، أي المسافة من مرتفع الراصد الى الافق ، طريقة رياضية بسيطة مهما كان مقدار الارتفاع

الرسم يمثل محيط الارض ونقطة د ترمز الى موقع ارتفاع الطيارة أو قمة الجبل أو أي مرتفع عن سطح البحر . والحرف و يرمز الى الأفق . والحرف م يرمز الى المسافة بين الناظر والأفق

ارسم الخط و ه وهو شعاع (نصف قطر) الارض وارسم الخط د ه وهو مؤلف من الشعاع ش والخط ع الذي هو مقدار الارتفاع

ومن حيث ان الخط د و (الذي هو م) مماس للدائرة فهو مع الشعاع ش يعمل زاوية قائمة . فالمثلث و د هـ قائم الزاوية

***

وبحسب قضية فيثاغورس مربع د هـ الذي هو ع + ش يساوي مجموع مربعي م^{٢} + ش^{٢} هكذا :

$$(ع + ش)^{٢} = م^{٢} + ش^{٢}$$

$$ع^{٢} + ٢ ع ش + ش^{٢} = م^{٢} + ش^{٢}$$

$$م^{٢} = ع^{٢} + ٢ ع ش$$

وهو معلوم ان نصف قطر الأرض المتوسط (ش) يساوي ٣٩٥٧ ميلاً تقريباً

فاذا كانت الطيارة على ارتفاع ميلين مثلاً كانت

$$م^{٢} = م^{٢} + ٢ \times ٢ \times ٣٩٥٧$$

$$م^{٢} = ١٥٨٢٨$$

م = ١٢٦ ميلاً تقريباً

ولنفرض ان الارتفاع ميل واحد فقط

$$م^{٢} = ل^{٢} + ٢ \times ١ \times ٣٩٥٧ = ٧٩١٥$$

م = ٨٩ ميلاً تقريباً

الميل = ٥٢٨٠ قدماً

***

إمتحن ذلك الجدول بهذه الطريقة فالرقم الذي يطابق نتيجة هذه القاعدة يكون صواباً وإلاّ فهو خطأ .

نقولا الحداد

١ — الفنون الرفيعة

سبق لي ان كتبت في المقتطف ان العناية بالاعلاق والالطاف من دلالات الثقافة المنفعلة. وهذه دار الآثار العربية في القاهرة تهيء معرضا للطنافس التركية . وسيفتتح المعرض للجمهور مع خروج هذا العدد ، وقد نظم المعرض الاستاذ المستشرق جاستون فييت G. Wiet مدير الدار والاستاذ حسين راشد رئيس أمنائها . فهما حقيقان بالتهنئة والشكر

ودونك بحثاً في الطنافس التركية وفحصاً عن نفائس المعرض بقلم بصير يضطلع بتعليم الفنون الاسلامية في جامعة فؤاد الاول ب . ف

معرض السجاد التركي

بدار الآثار العربية في القاهرة

شاء الاحتياط من خطر الغارات الجوية في هذه الحرب أن تنقل دار الآثار العربية وغيرها من المتاحف الكنوز الثمينة الى مخابىء أمينة ، فكان من ذلك أن حرم الجمهور المصري ونزلاء مصر الكثيرون مشاهدة معظم بدائع الفنون المصرية من العصر الفرعوني الى عصر الأسرة المحمدية العلوية . وكأن دار الآثار العربية رأت أن تخفف من وطأة هذا الحرمان فعملت على أن تنظم كل عام معرضاً لجانب من جوانب الفنون الاسلامية تساهم فيه بقسط يسير من نفيس مقتنياتها وتكشف فيه عن روائع الفنون الاسلامية التي عني بجمعها نخبة من أعلام المصريين

وقد أصاب معرض العام الماضي نجاحاً عظيماً وكانت الدار قد جعلته وقفاً على الصور الايرانية والهندية والتركية من مجموعة شريف صبري باشا . وأتيح للاستاذ ڤييت مدير دار الآثار أن يضيف الى المكتبة الفنية سفراً جليلاً في وصف هذه المجموعة

أما هذا العام فقد قامت الدار بتنسيق معرض جميل للسجاد التركي وأحسنت صنعاً في تعزيزه ببعض نفائس الطراز التركي من المنسوجات والتحف الخزفية والمعدنية . وقد ساهم في هذا المعرض الى جنب دار الآثار العربية نخبة من أصحاب المجموعات الفنية النفيسة ، بينهم من المصريين الامير يوسف كمال وشريف صبري باشا والدكتور علي ابراهيم باشا والدكتور بشير فارس ، ومن الاجانب السير روبرت جريج

المعروف ان آسيا الصغرى كادت تعادل ايران في مقدار ما تنتجه من السجاد الذي كان يصدَّر الى مختلف الآفاق . أما من حيث النوع فلا شك أن بعض ضروب السجاد التركي من حقه أن يدخل في أبدع السجاجيد الشرقية . وذلك لأن بلاد الاناضول وفيرة المراعي ، يجود الصوف في جوها البارد وأرضها الجبلية ، وعلى مقربة من مراكز النسج فيها مياه خالية من الاملاح يُغسل فيها الصوف فتجود صباغته بعد ذلك . ومع هذا فان السجاجيد التركية بوجهٍ عام دون الايرانية في النسج وكثرة الألوان والزخرفة

ونسج السجاد قديم في آسيا الصغرى . وقد أشار الرحالة مركوبولو في القرن الثالث عشر الى السجاجيد السلجوقية الجميلة في تلك البلاد ، وكذلك ذكرها ابن بطوطة في القرن الرابع عشر . بل وصل الينا ثلاث سجادات تركية قديمة ترجع الى عصر السلاجقة في القرن الثالث عشر والرابع عشر بعد الميلاد . وكانت هذه السجادات محفوظة في جامع علاء الدين بمدينة قونية ثم نقلت منه الى متحف الاوقاف في استانبول . والواقع ان مركوبولو ذكر مدينة قونية Iconium في مقدمة بلاد التركمان أو الروم السلاجقة فقال ان أدق طنافس العالم وأبدعها كان ينسج فيها على أيدي السكان الذين كانوا مزيجاً من الترك والأرمن واليونان

ويظهر في تلك السجاجيد التركية القديمة التي وصلت الى العصر الحاضر ما ظلَّ جارياً بعد ذلك من وجود ساحة (او : أرض) متوسطة في السجادة فيها الرسم الرئيسي ويحيط بها إطار (أو : كنار) قوامه أشرطة تختلف في العدد والعرض بحسب نوع السجاد . والمساحة تشتمل على رسم هندسي بسيط متكرر أو على أشكال صغيرة متعددة الاضلاع مكررة في صفوف ومناطق منظمة . أما الاطار فمتوسط العرض وزخرفته من أشكال هندسية أو من حروف كوفية غير مقروءة (١) ، على النحو الذي نعرفه في كثير من التحف الاسلامية حين يعمد الفنانون الى استعمال الكتابة للزخرفة فينقلون أطراف كلمات أو مقاطع حروف ويكررونها من غير رعاية للمعنى . ونسج السجاجيد المذكورة لا يزال غليظاً بعض الشيء ، ولكن التنسيق بين الألوان الحمر والزرق والصفر فيها يشهد بمهارة وذوق فني لطيف

وطبيعي ان زخارفها عليها مسحة من البداوة ولا أثر فيها للرسوم النباتية أو رسوم الكائنات الحية . ومع انها الأساس الذي قام عليه السجاد التركي في القرون التالية فان أشبه السجاجيد بها كان ينسج في الاندلس والمغرب في القرنين الرابع عشر والخامس عشر

(١) انظر : Bode — Kühnel : Vorderasiatische Knüpfteppiche aus Aelterer Zei شكل ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢

وأقدم ما نعرفه من السجاجيد التركية بعد هـذه المجموعة القديمة يرجع الى القرن الخامس عشر . وقد دخلته رسوم الحيوان والطير ولـكنها رسوم بعيدة عن الطبيعة وقوامها خطوط مستقيمة تجعلها مجموعة من الاضلاع والزوايا . وخير مثال لذلك قطعة من سجادة هي الآن في متاحف الدولة في برلين . وفي هذه القطعة منطقتان في كل منهما رسم هندسي لحيوانين خرافيين يتعاركان ، وحول الرسم إطار من رسوم هندسية بسيطة

ولا يزال نسج السجادة خشناً، وأما أرضها فصفراء ، على حين ان رسوم الحيوانات زرق وحمر . اما زخارف الاطار فحمر وسود . وقد قرأتُ أن في المتحف التاريخي بمدينة استوكهلم قطعة من سجادة تشبه القطعة التي نحن بصددها وفيها رسم طائرين متواجهين [1] ولـكنني لم أر صورة لها . ويلوح ان سجادة نرويجية قديمة قد زخرفت برسم يشبه رسم الحيوانين في القطعة المحفوظة في برلين . ولا يميل مؤرخو الفنون الى ادراجها في المنتجات الشرقيـة بل يرجحون ان صنّـاعاً من اهل اسكنديناوه نقلوا الزخرفة عن سجادة شرقيـة حصلوا عليها بوساطة التجارة المزدهرة بين الشرق وأمم الشمال عن طريق الروسية او بوساطـة القرصان النرويجيين الذين كانوا يبلغون سواحل البحر الابيض المتوسط [2]

وفضلاً عن ذلك كله إن رسوم بعض السجاجيد التركية قد وصلت الينا مستعملة في الألواح الفنية التي خلفها فنانون هولنديون أو إيطاليون فيما بين القرن الثالث عشر والقرن السادس عشر، مما يشهد بأن تلك السجاجيد كانت تصدَّر الى اوربة في زمن اولئك الفنانين . والحق ان كثيراً من قصور المدن الايطالية وكنائسها القديمة تحتوي حتى الآن على تحف ثمينة من السجاد التركي القديم ، بل ان أكثر ما في متاحف العالم من هذا السجاد صار اليها من تلك القصور والكنائس . ومن الفنانين الايطاليين والهولنديين الذين رسموا الطنافس التركية في ألواحهم الفنية جِيوتو Giotto ودُمينِيكو دي بارْتولو Domenico di Bartolo وفرا أنجيلِيكو Fra Angelico وكارباتشيو Carpacio وهولباين Holbein وفان ايك Van Eyck ومِمليِنج Memling

***

والمعروف ان المنطقة الرئيسية لنسج السجاد في تركية هي النجاد الواقعة في الاناضول على مسافة غير بعيدة من شاطىء البحر الأبيض المتوسط. فمنطقة عُشَاق وكوردهس وقولا —

(١) انظر ص ٤٣٢ : Dimand : A Handbook of Moham. Decorative Arts

(٢) المرجع السابق ، من تأليف الاستاذين بوديه Bode وكونل Kuehnel ص ٣٦

وكلها غربي آسية الصغرى — لا تزال تنتج مقداراً كبيراً من السجاجيد التركية، وأصبحت ازمير منذ القرن السادس عشر قاعدة هامة لتصدير تلك الطنافس الى اوربة، حتى نسب اليها ضرب من الطنافس كان يصنع فيها او على قربٍ منها ، وكان جل القائمون عليهِ من الجاليات الاجنبية في ازمير ممن يشتغلون برسم زخارفه وتعيين مساحته والاشراف على نسجه بحسب الرغبات الأوربية . هذا وان كانوا يقلدون في زخارفه رسوم السجاجيد الشرقية القديمة ولا سيما السجاجيد الايرانية فقد كانوا احياناً يستعملون رسوماً يرغب فيها عملاؤهم في الغرب ، ويلتزمون أبعاداً يعينها اولئك العملاء وهي توافق حجرات البيوت المعدة لها في اوربة . والملحوظ مع هذا ان منطقة « عشاق » لا تزال تنتج حتى الآن طنافس تشبه النوع الذي نحن بصدده . فأصبحت المجموعة كلها، قديمها وحديثها، تنسب الى مدينة عشاق، وكادت النسبة الى أزمير أن تذهب . وليست الطنافس المنسوبة الى عشاق نوعاً واحداً، بل هي أنواع

وتدل صناعتها على انها من فصيلة واحدة . فأشهر أنواع تلك الطنافس نوعٌ سجاجيدُه كبيرة خشنة النسج تحتوي على جامة (صُرّة) في وسطه ، بيضية الشكل بوجه عام . وفي كل من اركان ارض السجادة ربع جامة اخرى ، وذلك مما يذكّر بالزخارف الايرانية التي نجدها في العصر الصفوي على بعض ضروب الطنافس الايرانية وفي بعض الجلود والصفحات المذهبة و« الألواح » القاشانية

***

والحق ان تأثر السجاجيد المنسوبة الى عشاق بالطراز الايراني جلي واضح . وفي بعض انواع هذه السجاجيد تتكرّر الجامات ويختلف حجمها وتتعدد اجزاؤها وتتألف احياناً من رسوم صليبية الشكل او شبه نجمية او متعددة الاضلاع . وتحتوي الجامات واجزاء الجامات وسائر أرض السجادة على رسومِ فروع نباتية وزخارف عربية « ارابسك » . اما الاطار فمن شريط متوسط العرض بين شريطين ضيقين، وفي الشريط الاوسط رسوم فروع نباتية ووريقات شجر وزهور . وألوان هذه السجاجيد قوية ويغلب أن تكون أرضها حمراء اوحمراء قاتمة ، وإطارها ازرق قاتم . اما رسومها فباللون الاصفر والازرق والاخضر . ويرجع أقدم هذه الطنافس الى القرن السادس عشر ولكن معظمه من القرنين السابع عشر والثامن عشر . وقد جاءت رسومه في الألواح الفنية التي خلفها بعض الفنانين الاوربيين في القرنين المذكورين . ولا غرابة في تأثر تلك السجاجيد بالزخارف الايرانية فالمعروف ان كثيرين من الفنانين الايرانيين قدموا الى تركية وعملوا في القصور العثمانية ، فتلقى عليهم

الفنانون الترك كثيراً من أساليب الصناعة والزخرفة ولا سيما في التصوير وصناعة الخزف والقاشاني والسجاد. وثمة طنافس منسوبة الى عشاق بعضها للصلاة كما يبدو من الرسم الشبيه بالمحراب في ارضها، وبعضها سجاجيد صغيرة تصدّر الى البلقان

أما سجاجيد الصلاة المنسوبة الى عشاق فنادرة . والمشهور منها الآن سجادتان: الأولى في مجموعة الدكتور علي باشا ابراهيم وهي بين نفائس المعرض الذي نحن بصدده. والثانية في القسم الاسلامي من متاحف الدولة في برلين، وكلتاهما ترجع الى بداءة القرن السادس عشر . وقوام الزخرفة في التحفتين شريط كبير من رسوم السحب الصينية يشغل النصف الأسفل من الساحة الوسطى، يلتني ويضيق في أدناه ليضم رسماً هندسيًّا . وفي أركان السجادة والجزء الباقي من أرضها رسوم زهور وفروع نباتية ووريقات شجر محرفة عن الطبيعة . واللون الرئيسي في هاتين السجادتين هو الازرق القاتم في الجزء الاكبر من الساحة الوسطى ثم الأحمر والأخضر في الرسوم وفي سائر الساحة . ونسجهما خشن، ولكنه لا يعيب من رونق الزخرفة وتناسق الالوان وزهوّها. هذا والمعرض يضم احدى عشرة سجادة من الطنافس المنسوبة الى عشاق . وكلها من مجموعة الدكتور علي باشا ابراهيم . وفيها سجاجيد نادرة لا نكاد نعرف لها مثيلاً حتى في المتاحف الحافلة

وعرضت الدار ثلاث سجاجيد من نوع تركي ينسب الى المصور الالماني هولباين H. Holbein (١٤٩٧ — ١٥٥٤). واحدى هذه السجاجيد من مجموعة الدكتور علي باشا ابراهيم، والأخرى من مجموعة السير روبرت جريج . ويمتاز هذا النوع بزخارفه الهندسية البحتة التي يكثر فيها رسوم النجوم وأشباهها والأشكال الصليبية والمربعات والفروع النباتية المحرّفة عن الطبيعة، المرسومة في أسلوب هندسي . أما الاطار فالغالب أن يكون متوسط العرض وأن تكون زخرفته من رسوم هندسية تقلّد الحروف الكوفية . وألوان رسوم هذه الطنافس في الغالب صفر وزرق على أرض حمراء . وقد فقدت الرسوم النباتية فيها كل صلة بالطبيعة، فتتعذر استبانة أصولها

والظاهر ان سجاجيد هولباين كانت منتشرة جدًّا في اوربة خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر والنصف الاول من القرن السادس عشر، فقد ظهرت رسومها في الألواح الفنية التي خلفها بعض أعلام الفنانين في ذلك العصر ولاسيا هولباين Holbein الالماني ولورنزو لوتو Lorenzo Lotto البندقي . ويضاف هنا ان المتاحف الغربية والمجموعات الفنية الخاصة غنية بهذا النوع من الطنافس التركية . ويظهر من رسومها في الالواح الفنية

الباقية ان نسجها تطوَّر قليلاً فانتهى في زخرفة الاطار الى فروع نباتية منطلقة او محبوسة في جامات

وفي القرن السابع عشر وصل تطور الرسوم النباتية في هذه الطنافس بوجهٍ عام الى أن شطَّ بعدها عن الطبيعة حتى أصبح فهمها غير ميسور

. ومعظم سجاجيد هولباين صغيرة تشبه سجاجيد الصلاة . وثمت ضروب من الطنافس التركية تشبه سجاجيد هولباين في زخارفها الهندسية ، وان كانت تخالفها قليلاً في اختيار الألوان أو في سعة الاطار أو في ازدحام الزخرفة ومساحة الموضوعات الزخرفية وفي هيئاتها. وترجع هذه الطنافس الى القرنين السادس عشر والسابع عشر . ولا يمكن التمييز بين أنواعها المختلفة إلاَّ للاختصاصيين الذين تدرَّب بصرهم على تقدير تلك التحف والحكم عليها ، لأن المرجع الأساسي في فهمها ليس الوصف وانما العين الدقيقة والخبرة الواسعة . وليست هذه الأنواع بأسرها ممثلة في المعرض

***

وفي المعرض سجادة من مجموعة الدكتور علي باشا ابراهيم (رقم ١٥ في الدليل) تنسب الى النوع المعروف باسم الطنافس ذات الطيور . وهو ضرب من السجاجيد زخارفه هندسية، وأرضه بيضاء وفي النادر صفراء قاتمة ،وفيه رسوم زهور ووريدات ورسوم عربية « ارابسك » محرفة عن الطبيعة ويبدو بعضها أحياناً كأنه رسم طير ذي رأسين في اتجاهين مختلفين . والحق انها تشبه طنافس « عشاق » في بعض أساليبها الفنية ، ولا سيما رسوم الاطار. ويرجع عصرها الى ما بين نهاية القرن السادس عشر ونصف القرن السابع عشر ، كما يظهر من تاريخ بعض الالواح الفنية التي رسمت فيها (١)

وفي المعرض كذلك سجادتان من مجموعة علي باشا ابراهيم من النوع الذي يعرف باسم الزخرفة الصينية المسماة « تيشنتاماني » والتي تسمى أحياناً زخرفة « البرق والكوْر » أو زخرفة «السحب والأقمار» (رقم ١٦ و ١٧ في الدليل) . وذلك لأن الرسم الذي يتكرر في أرض السجادة يتألف من ثلاث كوَر على هيئة مثلثٍ وتحتها خطان صغيران ضيقان فيهما تمرج بسيط . أما الاطار فتوسط العرض وفيه رسوم سحب صينية وأوراق شجر وزهر أو شبه كتابة كوفية . وأرض هذا النوع من الطنافس بيضاء مساحتها كبيرة في الغالب

(١) المرجع السابق لبوده وكونل ، ص ٤٤

أما الطنافس التركية التي تنسب الى دمشق فيمثلها في المعرض ثلاث سجادات، الاولى من مجموعة الدكتور علي باشا ابراهيم ، والثانية من دار الآثار العربية ، والثالثة من مجموعة سمو الأمير يوسف كمال.. والحق ان الرأي الراجح في دوائر الفنون الاسلامية الآن ان هذا النوع من السجاجيد خرج من المناسج السلطانية التي أنشأها سليمان القانوني في القسطنطينية، ولكنها تنسب الى دمشق لان الزخارف التي تسودها هي عينها التي نعرفها في الخزف والقاشاني المنسوبين الى دمشق في القرن السادس عشر ، والذي كان بعضهُ على الأقل يصنع في آسيا الصغرى .. وقوام تلك الزخارف الفروع النباتية والمراوح النخيلية palmettes وأوراق الشجر والأغصان والزهور والبراعم والخزامى والقرنفل والسوسن

وأرض تلك السجاجيد حمراء ، وموضوعاتها الزخرفية قريبة من أصولها الطبيعية ، ولكنها مكررة ومرتبة في هيئة متكلفة بعيدة عن الطبيعة . ومع انها تأثرت بالاساليب الايرانية فان لها طابعاً خاصّاً . وتبدو زخارفها البديعة كأنها لوح من القاشاني ذي الألوان البهيجة و الزهور الدقيقة ، مما نعرفه في منتجات الطراز التركي في القرنين السادس عشر والسابع عشر

وثمت سجاجيد صلاة من النوع الذي نحن بصدده الآن . وكذلك يطلقون اسم سجاجيد المائدة على نوع منهُ متوسط المساحة ، مربع الشكل . ومن ضروبه الأخرى المعروفة سجاجيد ليست رسوم النبات والزهور فيها بغالبة على ساحة السجادة ، بل نجد هذه الرسوم في جامة (صُرّة) في وسطها ، وفي كل ربع جامة من اركانها الاربعة وفي الاطار كله . أما سائر الساحة ففيهِ رسم مكرر قوامهُ نقطتان بينهما خطان متعرجان [1]

ولا يتسع المقام هنا لأن نعرض لنوع آخر من الطنافس المنسوبة الى دمشق والتي تكثر فيها رسوم النجوم والمناطق الهندسية المتعددة الاضلاع والزخارف النباتية المحرّفة عن الطبيعة ، وتسودها الألوان الحمر والخضر والزرق . فان جلّ علماء الآثار يظنون الآن ان هذا النوع من صناعة مصر فيما بين القرن الخامس عشر والسابع عشر [2]، وان كان بعضهم

(١) المرجع السابق ، شكل رقم ٩٤

(٢) راجع مقال الاستاذ زيجفريد ترول Siegfried Troll عن الطنافس الدمشقية في المجلد الرابع من مجلة Ars Islamica (سنة ١٩٣٧) . وراجع مقال الاستاذ إردمان K. Erdmann عن الموضوع عينه في المجلد الخامس من المجلة المذكورة

يذهب الى ان الطنافس المنسوبة الى دمشق بأنواعها المختلفة من انتاج مصانع سلطانية قامت في آسيا الصغرى على مقربة من القسطنطينية

***

ومن الطنافس المعروضة بضع سجاجيد من النوع المنسوب الى ترانسلفانية (من رقم ٢١ الى ٢٥ في الدليل) . والحق انهُ يشبه سجاجيد « عشاق » بعض الشيء ، وانما ترجع نسبته لتلك البلاد الى انه كان اكثر الطنافس التركية انتشاراً فيها ، إذ وُجد عدد كبير منهُ في كنائس المجر ورومانية ، حتى ان علماء الفنون الاسلامية رجحوا انهُ كان يصنع في الاناضول خصيصاً للتصدير الى شمالي البلقان

ويظهر التأثر بالطراز الفارسي في هذا النوع من الطنافس ، فقوام زخرفته في معظم الأحيان جامة في وسط ساحة السجادة وفي ارباع جامات في أركانها. وقد يحذف رسم الجامة وأجزائها من ساحة السجادة ويستبدل بهِ رسم مشكاة . أما الاطار فمن بحور او مناطق مستطيلة بينها مناطق نجمية الشكل على النحو الذي نعرفهُ في بعض سجاجيد الصلاة المصنوعة في مدينة كوردهس . وفي الساحة الوسطى والاطار رسوم نباتية وزخارف عربية (ارابسك) محرفة عن الطبيعة. ويرجع هذا النوع من الطنافس الى القرن السابع عشر وفاتحة الثامن عشر ، كما يتبين من الالواح الفنية الاوربية التي ترد فيها رسومهُ ، ومن النصوص المؤرخة على بعض سجاجيدهِ مسجلة تاريخ اهدائها الى احدى الكنائس في اقليم ترانسلفانية (١)

***

وقد وفقت دار الآثار لان تجمع في هذا المعرض عدداً وافراً من أبدع سجاجيد الصلاة التركية . وكلها من صناعة المناطق الجبلية بالاناضول في القرنين السابع عشر والثامن عشر. وكثير منها دقيق النسج أرضه حمراء او زرقاء او بيضاء ، ومساحتها صغيرة في أغلب الأحيان (٦ أقدام × ٤ أقدام) . ويمتاز معظمها برسم يمثل محراباً في أرض السجادة. وقد يكون المحراب ذا قوس واحد أو ثلاثة أقواس. وقد تكون لهُ أعمدة وربما حل محلها عصابتان أو عصابات زخرفية رأسية . وقد تتدلى من المحراب مشكاة وربما قام مقامها ابريق أو غير ذلك : ورسوم المحاريب مختلفة ففيها ذو القوس الدبب وذو العقد الفارسي . ورسوم

(١) راجع J. de Vegh et Ch. Lager: Tapis turcs provenant des églises et collections de Transylvanie ص ٣٢

التعريف والتنقيب

نستحدث هذا الباب ونتبسط فيه إرادة أن نتدبر
ما يتصل بقضايا الفكر وما يدخل في شؤون
الذوق ، فنجريه إلى غايتين : إحداهما مراجعة
بعض ما يخرج في العلم والأدب والفن كتابةً
أو أداء ، والأخرى نشر ما انطوى من
الضنائن المخطوطة أو المهملة . ومقصدنا أن
يصبح هذا الباب مرجعاً للمستطلع السائل
ومعرضاً للمستبصر الراكن . هذا ويشترك في
إنشاء الباب نفر من أهل النظر وأعداء الهوى

بشر فارس

المشتمل

الأعمدة قد تتطور حتى تصبح سلاسل أو أشرطة من الزهور والنبات وتبدو كأنها تتدلى من المحراب بدلاً من أن تكون دعامة له ، أما الاطار في تلك السجاجيد فمن عدة أشرطة رفيعة فيها رسوم زهور ووريقات محرفة عن الطبيعة، مكررة في نظام دقيق

***

ومعظم سجاجيد الصلاة التركية النفيسة ينسب الى مدينـة كوردهس . أما ما جفت زخارفه وشطت عن أصولهـا الطبيعية وخشن نسجه فينسب الى مدينتي قولا أو لاذيق . وثمت مدن أخرى ينسب اليها بعض أنواع هذه الطنافس ولكنا لا نطمئن كثيراً الى هذه التفرقة الاقليمية لأن أساسها أسماء وضعها التجار بغير تدقيق ولا تمحيص

فالنوع الذي ينسبونه الى كوردهس (جوردس) (من رقم ٢٧ الى ٥١ في المعرض) يكون المحراب فيه أصغر منهُ في سائر أنواع سجاجيد الصلاة ويرتكز على عمودين أو أكثر. وأما الرسوم فدقيقة والألوان شاحبة والنسج محكم محتبك والاطار ضيق ، وبينه وبين أرض السجادة عدة أشرطة رفيعة . ولهذا النوع من الطنافس فروع لا يتسع المقام للكلام عليها هنا . وحسبنا أن نشير الى بعضها ، مثل الذي كان يهدى الى العرائس ويمتـاز باطاره الذي تبدو زخارفه كأنها مثلثات متجاورة تستقر على قاعدتها تارةً وعلى احدى زواياها أخرى ، ومثل سجاجيد « الصف » وهي التي كان أفراد الأسرة الواحدة يصطفون عليهـا للصلاة ، وهي طويلة ، تشتمل على بضعة محاريب متجاورة

أما سجاجيد قولا (كولا) فأقل احتباكاً في النسج ودقة في الرسم ولكنها أكثر توقداً في الألوان . والحق ان الفرق ليس كبيراً بين سجاجيد كوردهس وسجاجيد قولا . ولكن المسافة بين عمودي المحراب في السجاجيد الاخيرة تزخرف غالباً برسوم زهر ونبات محرّفة عن الطبيعة . وكذلك تمتاز سجاجيد كوردهس بأن لها شريطاً فوق الساحة الوسطى وشريطاً تحتها على حين هذا غير موجود في سجاجيد قولا سوى شريط واحد فوق رسم المحراب . أما أشرطة الاطار فأكثر عدداً في سجاجيد كوردهس

***

وفي المعرض مجموعة نفيسة من سجاجيد قولا بعضها للدكتور علي باشا ابرهيم واحداها من مجموعة السير روبرت جريج والاخرى من مجموعة الدكتور بشر فارس .

(من رقم ٥٢ الى ٧٠ في المعرض) وتترجح تواريخها بين القرن السابع عشر والتاسع عشر

وثمت ضرب من طنافس الصلاة ينسب الى بلدة لاذيق من اعمال مدينة قونية ، ويمتاز بألوانه الزاهية من أخضر وأزرق وأصفر. وفي ساحة المحراب رسم عصوين ورؤوس سهام فضلاً عن سائر رسوم الزهور — ولاسيما الزنبق — ولنا عهد بهذه في سجاجيد الصلاة التركية (من رقم ٧١ الى ٨١ في المعرض)

وينسب الى ميلاس ضرب من الطنافس يمتاز برسوم في ساحته محرّفة عن الطبيعة تمثل شجرة الحياة، وبخانات مستطيلة تجري فيها خطوط متعرجة ، ألوانها الأحمر والاصفر والازرق والبنفسجي (من رقم ٨٥ الى ٩٠)

اما سجاجيد « المودجور » فذوات ألوان فاقعة وإطارات تبدو كأنها مربّعات من القاشاني (من رقم ٩١ الى ٩٤)

والى « بِرْغَمَه » (برجما) وقونية تنسب طنافس صغيرة مربعة يسودها من الالوان الأحمر والأزرق والأبيض ، وتنشط رسومها في البعد عن الطبيعة فتصبح اشكالاً هندسية متعددة الاضلاع . واكبر الظن ان هذه الطنافس كانت تجلب الى اسواق برجما وقونية ، ولكنها من صناعة القبائل البدوية شمالي الاناضول . (من رقم ٩٥ الى ١١٥)

***

والحق إن المجال لا يتسع هنا لتفصيل الكلام على شتى انواع الطنافس التركية ، فحسبنا الاشارة الى توفيق الدار لجمع هذه النخبة الحسنة في المعرض

وما من شك في ان وصف هذا السجاد لا ينقل صورة واضحة لألوانه وزخارفه . فان ميدان السجاد من ميادين الفنون الاسلامية التي لا تكشفها ولا تتفهمها الا العين

***

أضف الى ذلك أن علماء الفنون يختلفون أحياناً في نسبة الطنافس التركية المتأخرة الى شتى مراكز الصناعة - لأن معظم هذه شارك في انتاج انواع مختلفة ، ولا سيما منذ مال السجاد التركي الى طريق الاضمحلال في القرن التاسع عشر ، فغمضت زخارفه وضاع التباين بين الاطار والساحة الوسطى ، وسادت في الرسوم الاشكال الهندسية لملء الفراغ فحسب

زكي محمد حسن

٢ ـ الكتب

« الاسلام اليوم » Islam To-day

نشر : A. J. Arberry and Rom Landau
طبع : Faber and Faber Ltd., London
١٤ × ٢١½ ، ٢٦٠ ص ، لندن ١٩٤٢ (١)

رأى مخرجا هذا الكتاب النفيس وناشراه ـ المستر ا . ج. أربري ،والمستر روم لانداو ـ ان العالم الاسلامي « وحدة منقطعة النظير » في تاريخ الجنس الانساني ، وعللا ذلك بان الاسلام وضع للمسلمين قواعد حياتهم السياسية والاجتماعية والدينية جميعاً ، ورسم لهم النهج في كل باب ، ووجههم وأخذ بأيديهم في كل حلبة ، وبذلك تسنى له ان يتخطى الحواجز الجنسية والقومية والاجتماعية التي لم يكن ثمَّ معدى عن قيامها حائلاً بين طالب علم في مصر ، وفلاح في جاوه ، وتاجر في مراكش ، وصحافي في سورية . وليس أبغض الى الاسلام من التمييز بين الطبقات وتفضيل بعضها على بعض أو رفع واحدة منها فوق أخرى ، على النحو المعهود الذي لا تزال له بقية في اوربة . ورأيا كذلك أن فكرة « الوحدة الاسلامية » لم تزل منذ بداية هذا القرن تقوى ويتعاظم أثرها في العلاقات الدولية ، وحسب المرء ان يذكر اسماء بلدان كمصر والعراق ومراكش وايران ليدرك ما للشعوب الاسلامية من قيمة وأثر في شؤون العالم

ولذلك أرادا أن ينشرا على الناس كتاباً يكون فيه الجواب عن مسائل كهذه : هل صار العالم الاسلامي تحت سلطان الغرب ؟ وما هي آماله في العصر الحاضر ؟ وهل أمر الحكم فيه الى الدين ، والى اي مدى ؟ وما موقفه من الحرب العالمية ؟

وليس ثمة شكوى من قلة الكتب الموضوعة عن العالم الاسلامي ، ولكن هذا الكتاب أريدَ به أن يبيّن علاقة هذا العالم بالحوادث الدولية العصرية ، وانهُ لمطمع بعيد حتى في أيام السلام ، فكيف بهِ في زمن حرب تكثر فيها المصاعب والحوائل دون الاتصال بأرجاء هذا العالم الفسيح ؟ ولهذا استكتب الناشران طائفة من العارفين بالبلاد الاسلامية والواقفين على أحوالها وشؤونها ، وجلهم من الانجليز ، ولكنّ بينهم اثنين من الشرقيين المسلمين

(١) رتبت أسامي الكتب على حروف الهجاء

أحدهما الدكتور طه حسين بك وثانيهما السير حسن سهروردي ، فكان من جراء تعدد الاقلام وانفراد كل كاتب بفصل ، أن فقد الكتاب وحدة التأليف ، ولكنهُ صار أعظم قيمة لأن كل كاتب اعرف بموضوعه الخاص وأشد توفراً عليه من كاتب واحد يحاول الاحاطة بكل موضوع .

وقد تناول الكتاب معظم البلاد الاسلامية المستقلة وأكثر الجماعات المسلمة المهمة ، وأهمل تركية لأنها في سنة ١٩٢٨ فصلت الدين عن الدولة ، وألغت التعليم الديني في مدارسها وكفت عن تعليم اللغة العربية أيضاً ، وأغلقت التكايا وما اليها ، ولم تدع إلاَّ المساجد لاقامة الشعائر . وهذا سبب لا نراه كافياً لتسويغ اهمالها واسقاطها من عداد الدول الاسلامية ، وشبيهٌ بذلك أن تسقط فرنسة من عداد الدول المسيحية من أجل ان الدين والدولة فيها مفصولان . ومما يجعل الحجة في ترك تركية أضعف ان الكتاب تناول بالبحث طوائف اسلامية في بلاد غير مسلمة ، نحو الصين والبلقان وروسية . فعسى أن يتدارك الناشران هذا النقص في طبعة تالية

ويعنينا من الكتاب، على وجه الخصوص ، الفصل الذي كتبه الدكتور طه حسين بك عن « مصر الحديثة » وهو وجيز لا يعدو ست صفحات وبعض صفحة ، ومن العسير ان يكفي للتعريف الوافي بمصر في حاضرها ، وبخاصة اذا أراد الكاتب ان يصل الحاضر بالماضي ، ويرد هذا الى ذاك ، ويجعل أحدهما بسبب من الآخر — كما فعل — وانهُ لنهج سديد في ذاته ، ولكنه يضيق مجال القول في حاضر مصر . ويذهب الدكتور طه بك بحق الى ان مصر كانت ، وما زالت ، منذ أقدم العصور تصل الشرق بالغرب ، وتجعل من بلادها ملاذاً للحضارة كلما اصطلحت عليها الخطوب وحلت بها النكبات والمحن ، وان قدرتها على اداء هاتين المهمتين الجليلتين رهنٌ بعوامل ثلاثة : مبلغ رخائها المادي ، وسهولة اتصالها بالعالم الخارجي ، وحظ أهلها من الحرية الشخصية . وقد ساق الأمثلة والشواهد ، بإيجاز ، من قديم العصور وحديثها . وتراه ، من أول الفصل الى آخره ، لا يزال يكر راجعاً الى العهود القديمة للقياس والمقارنة والتمثيل . ولا شك أن هذا ما يقتضيه التعريف الحسن بروح مصر ونزعتها ، او بخصائص هذه الروح ، ولكنه في فصل قصير يجعل التعريف بمصر الحاضرة قليل الغناء ، ويحول دون الاحاطة الواجبة بالجوانب المختلفة التي ينبغي ان ترفع قبل العيون لقراء غربيين لا يعرفون عن مصر الاَّ النزر اليسير — اذا كانوا يعرفون شيئاً

ونستأذنه في القول انه بالغ قليلاً في قوله ان مصر آخذة الآن بأسباب نهضة لم تعرف مثلها في تاريخها الطويل . فاما انها آخذة بأسباب نهضة فصحيح ، وأما ان هذه النهضة

لامثيل لها في تاريخها الطويل الحافل فأمل نسأل الله ان يتحقق . ولكنه ليس أكثر من أمل لا نراه يجيز للباحث ، مهما بلغ من اطمئنانه اليه ، ان يسوقه مساق الأمر الواقع

وقد خص التعليم بجل عنايته ، وكان في هذا على صواب ، فان نهضة التعليم تفضي الى النهضة في كل باب آخر ، ولكن قارىء الكتاب حريّ ان يسأل بعد ان يفرغ من قراءة هذا الفصل عن الحالة الاقتصادية والاجتماعية (وفي جملتها الحركة النسوية) . وعن الحكم ونظامه القائم في البلاد ، وعن الفنون والآداب والصناعات ، والزراعة وغير ذلك مما تقوم عليه حياة الأمم . ولو كان الدكتور طه أوجز فيما أطال فيه ، وعُني ولو بالاشارة الى هذه النواحي ، لجاء فصله أوفى وأجدى . على ان من حقه علينا ، انصافاً له ، ان نحمد له عنايته بهذا التعريف الحسن بخصائص مصر العامة التي لازمتها من قديم الزمان ، وان كان بيانه لا يخلو من حماسة الوطني وغيرته على سمعة بلاده ، وليس هذا بعيب في ذاته ، وان كل مصري ليشكره له ، ولكن الكتاب لم يوضع للمصريين

ابراهيم عبد القادر المازني

﴿ قوانين الدواوين ﴾ بقلم الاسعد بن مماتي ، الوزير الأيوبي

جمعه وحققه : عزيز سوريال عطية

١٧ × ٢٤ ، ٤٦٩ ص ، الجمعية الزراعية الملكية ، القاهرة ١٩٤٣

يعدّ كتاب « قوانين الدواوين » وثيقة تاريخية عظيمة الخطر لأقسام مصر الجغرافية وأحوالها الزراعية ونظام الادارة والحكم فيها في القرن السادس الهجري أيام الدولة الايوبية التي لم يصلنا عنها إلاّ النزر اليسير . وقد كان المؤلف مشاركة في الدواوين المصرية حتى ولي رياستها في عهد الايوبيين . وأضيف اليه ديوان الجيش وديوان المال . فهو عريق في مناصب الدولة الكبرى ، ولذا كان لكتابه قيمة كبيرة . فأحاديثه عن أحوال الدواوين في مصر هي أحاديث الخبير المطلع على الأمور

ومن هنا كان اهتمام المغفور له الامير عمر طوسون بنشر هذا الكتاب عظيماً ، ومقصده أن ينتفع بهِ قراء العربية والمشتغلون بشؤون الزراعة والتاريخ

وكان للامير الراحل فضلَ البدء في تحقيق الكتاب وتنقيحه قبل أعداد أصوله للطبع . ولما بلغه أن الدكتور عزيز سوريال عطية ، أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة فاروق الاول بالاسكندرية معنيٌّ بهذا الكتاب وكل اليهِ أمر إنجاز العمل عن حسن تقدير ، فبذل الدكتور جهوداً مضنية لم يفت سمو الامير أن يشير اليها في مقدمته للكتاب

ونحن اذا أشدنا باشارة الامير على الجمعية بنشر الكتاب ، وأشدنا بمجهود سموه في التنقيح زمناً ، وأشدنا كذلك بمجهود الدكتور عزيز سوريال بعدما استقل بالعمل ، فان ذلك كلهُ ليس بمانعنا من أن نصرف الى هـذا الكتاب المهم عناية خاصة فنقول فيه كلمة لا تنقص من قيمة الجهد المبذول ، بل على الضد من ذلك تُعلي من قيمته

والحق ان أصول الكتاب ونسخه الخطية كانت — كما يلوح لي — على حال لا يستقيم معها اخراج الكتاب في سهولة ويسر . ولذلك آثر الدكتور عزيز سوريال أن ينشر النص دون تصويب إلاَّ ما لا بدَّ منهُ ، معتذراً لذلك بأن يظل الكتاب محتفظاً بقيمته الاثرية أو أسلوبه الأثري . وهذا موضع نظر : فان أقدم مخطوطة للكتاب ليست بخط مؤلفه ابن مماتي بل كتبت بعده بما يزيد على قرن . فما قيمة الاحتفاظ بأسلوب أثري ليس للمؤلف الأصلي يدٌ في مسخه وتحريفه ؟

والآن نذكر ملاحظاتنا :

ا — ﴿ ترجمة المؤلف ﴾ رجع الدكتور الى شذرات ذات قيمة في حياة ابن مماتي في « وفيات الاعيان » و « خطط المقريزي » و « معجم الأدباء » . ولكن يظهر انهُ عثُرت لهُ بعد انجاز الكتاب شذرات أخرى كالوافي بالوفيات للصفدي . وقد وعد بنشرها مستقلة تكملةً للكتاب. وما كان أجمل لو أن الناشر استوفى ترجمة ابن مماتي ووضعها في أول الكتاب فلم يعمد الى الاضافة والتكميل مما يدل على تأخر في الأهبة

وفي كتاب السلوك للمقريزي أشارات موجزة الى ابن مماتي ص ١٠٥ سطر ٤ ص ١٣٨ سطر ١١ ص ١٦٥ سطر ٦ وفيها ذكر القبض عليه وتعليق رجليه ، وص ١٩٢ سطر ١٢ وفيها ذكر فراره الى حلب

ونذكر ايضاً انهُ جاء في السلوك ج ١ ص ٥٨ ذكر للخطير مهذَّب بن مماتي وقد علق عليه الدكتور محمد مصطفى زيادة ناشر الكتاب بقوله (لعلهُ ابن مماتي صاحب كتاب قوانين الدواوين) والصواب انهُ والده

ولم يتعرض المستشرق نيكلسون لذكر ابن مماتي ، على حين ان الاستاذ « هيوار » ذكره في كتابه المشهور ص ٢٠١ ، وهو يشيد بقيمته الشعرية . على ان القليل الذي وصل الينا من شعره لا يجعلنا نطمئن الى حكم « هيوار » Huart على العلات

ب — ﴿ تحقيق وفاة ابن مماتي ﴾ يذكر الدكتور عزيز ان ابن مماتي توفي بحلب سنة ٦٠٦هـ نقلاً عن معجم الادباء ، وهذا يوافق ١٨ نوفمبر سنة ١٢٠٩ م . ثم يعود الدكتور عزيز في هامش صفحة ٢٢ من المقدمة فيذكر أن تاريخ وفاته على حسب رواية ابن خلكان هو ٣٠ من

نوفمبر سنة ١٢٠٩ م . وهذا يوافق ما جاء في كتاب « هيوار » . ولكن السيوطي يذكر في «حسن المحاضرة» ج ١ ص ٣٢٥ طبعة الوطن ، أن ابن مماتي توفى سنة ٦١٦ هـ . وهو تاريخ علق عليه الدكتور بكلمة « كذا » . ولست أرى ما يمنع صحة هذه الرواية . فقد روى ابن دقماق صاحب كتاب « الانتصار » أبياتاً لابن مماتي يمدح فيها الملك الكامل . وهذا الملك استقل بملك مصر في يوم الجمعة ٧ جمادى الآخرة سنة ٦١٥ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ — ص ٢٢٧)

والدكتور عزيز يشك في صحة هذه الأبيات لا لسبب ظاهر الا أنها تؤيد رواية السيوطي في تاريخ الوفاة

ويلوح لنا ان الدكتور عزيزاً لم يبذل من الجهد في تحقيق وفاة ابن مماتي كل ما هو حقيق بطول أناته وسعة علمه. ولقد رجعتُ اليها في ابن الاثير طبع أحمد الحلبي سنة ١٣٠٣ هـ فلم اجد لها ذكراً في حوادث سنة ٦٠٦ هـ ولا في سنة ٦١٦ هـ . ورجعت اليها في كتاب «روضة المناظر في اخبار الاوائل والاواخر» لابن الشحنة فلم أجد لها ذكراً. ورجعت اليها في « تاريخ أبي الفداء » طبعة دار الطباعة بالقسطنطينية فلم اجد لها أيضاً ذكرا

ومما يثير العجب أن المقريزي في كتاب « السلوك » لم يذكر وفاة ابن مماتي في حوادث سنة ٦٠٦ هـ ، ولكنه ذكر في حوادث سنة ٦٠٧ هـ وفاة يوسف بن الاسعد ابن مماتي ....

أما ابن العماد الحنبلي صاحبُ « شذرات الذهب » فقد ترجم لابن مماتي ترجمة مختصرة (ج ٥ ص ٢٠ طبعة القدسي) . وذكره في وفيات سنة ٦٠٦ هـ . وهو ناقل عن ابن خلكان بالتحقيق لانهُ لم يذكر من مؤلفاته غير الكتابين اللذين ذكرهما ابن خلكان وهما : « نظم سيرة صلاح الدين » و « نظم كتاب كليلة ودمنة »

ج — ﴿ ضبط الشعر في الكتاب ﴾ الشعر الوارد في المقدمة محرف مكسور في الجملة . ومع ان المؤلف يصحح كلمة في بيت « ليستقيم بها المعنى والوزن » (ص ٤٦٨) فاتته أشياء في الشعر الوارد كله ، ففي ص ١٦ ،

منــه رأينا الصبح تزدا ن وتزداد انفراشا

وصوابه :

مذ رأينا الصبح يزدا ن ويزداد انفراشا

والتصويب عن « معجم الادباء » طبعة رفاعي لا طبعة مرجوليوث التي رجع اليهــا الاستاذ عزيز

وفي ص ١٧ ضبط البيت الآتي هكذا :

ورأى أن يرسلَ الاسْـــهُـم بالبَـرَد فراشا

وصوابه بالبرْد بسكون الراء .

وفي ص ١٧ أيضاً :

وأنست الصبيَّ الصبا وأذكرت جهنّما

وصوابه : وأنست الصّبي الصّبا

ومن التحريف في الشعر ص ١١

كفر النصارى بعد ما عَـذَروا به دين المسيح

والصواب : غَـدَروا بمعنى خانوا

وفي ص ١٦ (هذا البيت في هجاء رجل) :—

ففي أفعاله تَوْرًا وفي ألفاظـــه بَـرَدَى

ويضبط الدكتور « تورا » بالتاء المثناة الفوقية . ويعلـّق في هامش ص ٢٠ مع بعض التصرع : في الاصل : « ثورا » . وهو خطأ والصواب « ثورا » بالثاء المثلثة . راجع مادة « ثورا » « معجم البلدان » طبعة الخانجي وهو نهر بالشام . وقد صنع فيه العماد الأصفهاني بيتاً يقول فيه

يزيد اشتياقي وينمو كما « يزيد » يزيد « وثورا » يثور

(ويزيد : اسم نهير بالشام أيضاً .)

ويذكر الدكتور بيتين نسبا الى عمارة اليمني حين أمرَ « شيركوه » النصارى في مصر بلبس الغيار والتعمم بغير عَذَبة . وهما : —

يا أسد الدين وَمَن عدله يحفظ فينا سنة المصطفى

كفى غيارا شدُّ أوساطنا فما الذي يوجب كشف القفا ؟

وكان يحسن بالدكتور ان يحقق هذا ، فظاهر الشعر يوهم أن عمارة كان نصرانيًّا . وذلك لم يقل به أحد ، فهو عريق في الإسلام (راجع وفيات الأعيان ج ٢ ص ٨٦) . والدكتور يروي عن ياقوت . وعبارة ياقوت فيها خلط . وحق هذا الشعر ان يكون لابن مماتي أو لأبيه المهذب لأنهما كانا غير مسلمين ثم أسلما .

د — ﴿ النظر في المتن ﴾ رجع الناشر في تحقيق أسماء النواحي الى مؤلفات أخرى ، وهو سعي جليل . ولو فعل ذلك في أسماء النبات أيضاً لكان أتمّ . ولو جرىَ على رسم واحد في كتابه لكان أكثر اطراداً وأوفى مراطاً ولكنه تارة يرسم هاتور : هتور ، والاقراصية : إقراصيا ، وزهرة المنثور : المنتور ، وتارة يذكر : التفاح القاسمي ، ثم يعود

فيقول عنه : التفاح الشامي . والصواب القاسمي . (راجع «نزهة الأنام في محاسن الشام »).
وتارة يذكر : التين البوني ، وهو خطأ وصوابه : البرزي ، نسبة الى برزة ، من متنزّهات الشام (راجع ص ٢٦١ من « نزهة الأنام »)

وفي ص ٨١ جاء في متن الكتاب (— وبها — أي بمصر — الأفيون ، وبها القرط) ويفسّرهُ الدكتور في الهامش بأنهُ لجام الفرس ! ! مستعيناً في ذلك بالقاموس المحيط. فما معنى قول ابن مماتي بعد ذلك « وليس في الدنيا قرط تشد عليه الخيل الاّ في مصر » . فهل معنى هذا انه ليس في الدنيا لجام تشد عليه الخيل الاّ في مصر ؟ الحق ان القُرط وزان قُفل نبات شبيه بالرطبة واسم حبه البرسيم (راجع «المخصص» . ومعنى « تشد » هنا أي تقوى عليه الخيل (راجع « القاموس » مادة : — الشدة)

هـ — ﴿ الاخطاء النحوية ﴾ آثر الناشر ألاّ يتعرض لتصويب أخطاء الكتاب النحوية واللغوية . ولكنه عمد أحياناً أخرى الى التصويب . فلمَ لا يجري على قاعدة سواء ؟ وكيف يترك الأستاذ الدكتور أمثال هذه الاخطاء من دون تصويب : — « تختلف باختلاف سفينه ص ٢٧٦». «ومتى وُجد شيئاً ص ٣٢٩ » «وأربعُ مثاقيل ص ٣٣١» و« لهذا الحراج ص ٣٤٥ » و « البطة خمسين رطلاً ص ٣٦٥ » . ؟ ان ابن مماتي هو الأديب الشاعر الرئيس العين الجليل الكبير المنزلة (كما نعته ياقوت) فكتابه — عندنا — بريء مما تركه الأستاذ الدكتور بحجة الابقاء على أسلوبه الأثري وان كانت هذه حجة بعض الناشرين من الافرنج

أما الأبيات الناقصة المخلّعة في ص ١٧٠ المنسوبة الى أبي الفضل الأدفوي في فضل مدينة قوص فلا يحسن تركها على هذه الصورة ، فانها لأبي الفضل الأدفوي مؤلف كتاب « الطالع السعيد الجامع لاسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد » . والمتوفى سنة ٧٤٨ هـ وهي مذكورة كاملة صحيحة سليمة في كتابه ص ١٥ (طبع المطبعة الجمالية)

وبعد فهذه ملاحظات لم نرَ بدّاً من ذكرها حتى تتم الفائدة للقارىء فيضيفها الى جهد الأستاذ الدكتور عطية ، وهو جهد ملموس في ثنايا الكتاب عند مراجعة النسخ المخطوطة ومعارضة بعضها ببعض ، وفي آخره عند تدوين المسارد (الفهارس) وهي ثمانية مقسمة الى فنون مختلفة بين أسماء الأعلام ، والبلدان ، والخلجان والترع والجسور ، والنبات والزرع ، فضلاً عن الأقسام الادارية والألفاظ المستعصية . والكتاب أخيراً مرجع نفيس

محمد عبد الغني حسن

﴿ أبو شوشة والموكب ﴾ بقلم محمود تيمور

١٣½ × ١٩ ، ١٠٤ ص ، مطبعة الترقي ، دمشق ١٩٤٣

هذه هي الطبعة الثانية لهاتين المسرحيتين ، وقد ظهرت في دمشق وباللغة الفصحى ، والطبعة الاولى كانت خرجت في مصر باللغة العامية . ولعل هاتين المسرحيتين ولاسيما الاولى خيرما عمل محمود تيمور للمسرح . وقد سبق لنا ان كتبنا في ذلك . وعلى من يريد الاستزادة أن يطالع المقدمة التي صنعها زكي طليمات — الخبير بفن المسرح ظاهره وباطنه — لهاتين المسرحيتين ، فانه نظر فيهما بحذق

*

﴿ تاريخ بير السبع وقبائلها ﴾ بقلم عارف العارف

١٧ × ٢٤ ، ٣٢٩ ص ، مطبعة بيت المقدس ، القدس ١٩٤٣

يبحث الكتاب في تاريخ البلاد التي تؤلف « قضاء بير السبع » في الوقت الحاضر والتي يحدها من الشمال جبل الخليل ومن الشرق البحر الميت ووادي العربة ومن الغرب البحر الأبيض المتوسط وشبه جزيرة سينا ومن الجنوب خليج العقبة . ويعتمد المؤلف ثلاثة مراجع : الكتب والأسفار فالطلول والآثار ثم الأحاديث والأخبار . ولكنه يتلقاها بالمراجعة والتمحيص ، وليس المرجع الأول بغزير . وفي الأبواب باب في الحروب التي نشبت بين القبائل مع ذكر أسبابها وأيامها . ثم باب تُعرض فيه حال بير السبع على تعاقب العصور من زمن الكنعانيين والعموريين والفلسطينيين والمصريين وبني اسرائيل وغيرهم كالأنباط والفرس واليونان والروم حتى عهد العرب والصليبيين والاتراك ومن حل محلهم اليوم . ولهذا الكتاب الذي حاول صاحبه ان يجريه مجرى المبحث العلمي مسرد اجتمعت فيه موضوعات الكتاب وأسماء الأمكنة والأعلام الواردة

*

﴿ ما تيسر ﴾ بقلم خليل سكاكيني

مجموعة مقالات وخطب في التربية والاجتماع والسياسة

١٥ × ٢٢ ، ١٣٥ ص ، المطبعة العصرية ، القدس ١٩٤٣

﴿ من يوميات فتاة عصرية ﴾ بقلم حسين شوقي

١١½ × ١٦½ ، ١٢٨ ص ، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ، ١٩٤٤

٣ - المحاضرات

﴿ علاقة مصر بالاجانب ﴾

ألقاها حسن نشأت باشا في قاعة ايوارت مساء ١٧ فبراير سنة ١٩٤٤

استهلّ المحاضر كلمته بوجوب الدخول في هذا البحث على ضوء العقل ومجانبة العاطفة وتوخي مصلحة الوطن ، وقال عن بلادنا ان الطبيعة خصتها بمركز عظيم جعلتها حلقة الاتصال بين الشرق والغرب

وبذلك عظم شأن الجاليات الاجنبية القديمة من فينيقيين وبعد ذلك من رجال من جنوة وپيزة والبندقيـة ، وأما اليوم فنرى جاليات تمثل جميع بلاد الغرب والكثير من بلاد الشرق ، وعرض المحاضر لحالة النزلاء في عهود قديمة — (١) العهد الاول ، الى آخر القرن السابع قبل الميلاد وفيه كانت مصر ذات مركز تجاري له اهميته .وذكر فيما ذكر ان رمسيس فتح أبواب مصر على مصراعيها لدخول الاجانب فنزل بها كبار التجار ثم منحوا امتيازات — (٢) العهد الثاني منذ حكم پسماتيك الذي أقام بمصر بموازرة اليونانيين . وبعد ذلك رحل اليهود الى مصر ورحل السوريون عقب حروب ساماري وسنحاريب ثم رحل التجار والعلماء والفلاسفة — (٣) وأيام البطالسة أصبحت مصر المنفذ الرئيسي لتجارة آسيا والهند وافريقية ، وكان يقوم بالتجـارة اليونانيون واليهود . وتاريخ هذين الشعبين هو تاريخ الاجانب المقيمين في مصر ايام البطالسة وايام الرومان

النزلاء أيام الحروب الصليبية : فيها قام الايطاليون بالسفارة التجارية فنُقلت البضائع الشرقية الى اوربة ، وعلى الرغم من العوائق التي أقامها جان مديسيس. ومنذ القرن الثاني عشر جرت بين پيزة ومصر معاملات تجارية فعقدت معاهدة بين الخليفة الفاطمي اسماعيل الظافر وسفير البطريق فيلاتوس وقناصل پيزة

النزلاء منذ القرن التاسع عشر الى الآن : في هـذه الفترة نزح الى مصر عدد كبير من الاجانب من جنسيات مختلفة ، وأهم الجاليـات : البريطانية — الفرنسية — الايطالية — اليونانية — البلجكية — السويسرية — الاسبانية . . . وأحصى المحاضر النزلاء سنة ١٩٣٧ فكانوا ١٨٦٥١٥ ، وهي أقل نسبة ، ففي سنة ١٩٢٧ مثلاً بلغوا ٢٢٥٦٠٠

ثم أشار الى اكرام الحكومات للاجانب منذ عهد محمد علي ، وأسهب في وصف حالة الاجانب ابتداء من مايو سنة ١٩٣٧ ، وأشار الى الضمانات في حق الاقامة ورعاية الشركات

الى غير ذلك مما ينزه نيّة الحكومة المصرية . وأوصى أخيراً باكرام وفادة الجاليات ، ثم ختم محاضرته بالجملة البليغة الخالدة « أحرار في بلادنا كرماء لضيوفنا »

كامل محمد عجلان

وظيفة الجامعة في العالم الحديث

ألقاها الدكتور لمنت Lamont أستاذ الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فؤاد الاول في الجمعية الجغرافية الملكية مساء ٢٣ فبراير سنة ١٩٤٤

عرض المحاضر لنشأة الجامعات في البيئات الدينية المسيحية والاسلامية في العصور الوسطى ثم تحررها من سلطة رجال الدين وبدء اتجاهها نحو الديمقراطية في التربية العلمية والخلقية

وبحث الاستاذ عن هذه المسألة : هل نجحت الجامعات في تأدية رسالتها في القرن التاسع عشر وفاتحة القرن العشرين ؟ فقال : أما جامعات بريطانية فانها نجحت من ناحية التربية الخلقية لأنها نشأت في بيئات اقليمية وذهبت عن طلابها الصفة الجامعية التي ازدهرت في العصور الوسطى حين كان طلاب الجامعة الواحدة من مناطق وأوطان مختلفة وكان بعضهم يؤثر في بعض من حيث تباعد آفاقهم فكراً وتجربة ، وقد ضاع ذلك في الجامعات الاقليمية الجديدة . ثم ان هذه الجامعات حصرت عنايتها في التربية العلمية التي توافق الانقلاب الصناعي وتقدم الآلة

واستثنى المحاضر هنا جامعتي اوكسفرد وكمبردج وجامعات الولايات المتحدة حيث يلتقي طلاب من مناطق متباعدة . ثم أشار الى ما يجري في المانية إذ يتنقل الطالب بين جامعات شتى رغبة في زيادة تجاربه واتساع مداركه

ثم عرض لمصر وشرح مزايا موقعها الجغرافي وزعامتها لبلاد الشرق العربي فأشار الى ضرورة انشاء عدة جامعات تكون مراكز للثقافة . ولكنه صرّح بأنهُ يخشى اننا اذا فتحنا الباب على مصراعيه ، فكثر عدد الطلاب في الفرقة الواحدة ، ضعفت الصلة بين الطالب وأستاذه فينحدر التثقيف الى نظام المحاضرات العامة

ويلوح ان المقصد من هذه المحاضرة رغبة المحاضر في أن يحث الجامعة على تنمية الصلة بين الاستاذ والطالب لتفلح الجامعة في تربية الشخصية والارشاد الى طرق البحث العلمي القويمة الى جنب توفيقها في مجال العلوم البحتة والتطبيقية

زكي محمد حسن

٤ – الذاهبون

« في الذاهبين الاولين من القرون لنا بصائر »

قسّ بن ساعدة

جان جيرودو Jean GIRAUDOUX

فرنسي . ولد سنة ١٨٨٢ وتوفى سنة ١٩٤٤ . جال في أوربة ورحل الى شمالي أميركة . انسلك في وزارة الخارجية . زار روسية والشرق . عين يوم اعلان الحرب على المانية مدير مكتب الدعاية

كانت القصة الفرنسية بعد الحرب الماضية خفيفة الوزن، أضرّت بها السرعة . والقصص الحقّ وليد الخبرة بالحيـاة ، والنظرة النضيجة ، والتفهم والتوجع . وهـذان من توابع الملابسة الطويلة لمحن الانسانية

كان جان جيرودو — وعلى هذه الحال جُلّ إخوانه القُصّاص — لايُعنى إلاّ بالساعة التي هو فيها : الحاضر جملة الحيـاة . فلعلّ الحرب الماضية علمتهم جميعاً السخرية بالمستقبل ، لأن الموت في الزمن القريب وربما كان في الغد ، ففيمَ العناية بما هو آتٍ ؟ وما يكون البقاء ؟ وما يكون العمل الذي لايغنى ما دام الفناء فينا ؟ ثم بصّرتهم لواحقُ الحرب أن الأوضاع والتمثلات والعقائد الى تبدل محيّر ، فما يكون الشعور بالقائم المتصل ؟

من هنا وهناك تلك القصص الخالية من القيمة الدائمة، من الحقيقة الثابتة

مثل هذا اللون من القصص انما يدخل في الأدب العابر والانشاء الذي لا خطر لهُ ، لأنهُ غير مغموس في تيّار الحياة الدفّاقة ، ولا منتزع من وليجة النفس المعقّدة . وليس معنى هذا انهُ أجنبيّ عن الفن . فأولئك القصاص عمدوا الى أساليب في البيان أخاذة ، وطرقوا موضوعاتٍ منشّطة ، إلاّ أن شأنها غير عظيم

وامتاز جيرودو — في جانب الموضوعات — بتناول نفسية المرأة على حين انها كالمهملة في الغالب عند اخوانه ، ووصف ملامح فرنسة في قراها ومدنها ، في سهلها وسمائها ، في برج ايفل ، وعالج صلة فرنسة بألمانية فحلّل روح هذه وبيّن متناقضاتها . وصفة جيرودو في كل ذلك الاطمئنان الى عيشة رغد ، والتمتع بسعادة هيّنة ، مما يبث في قصصه طراوة

الفنيّ، ونعومة المرقّة، وخفة الشارد، وسذاجة المبتسم.. تلك حال من حالات النفس يهددها الملل، لذلك ما قويتُ على أن ألزم قصةً لجيرودو وذهني ظمآن وضميري طلاّب. ان الملل الذي يهدد أبطاله من طول النعيم يدلف الى القارىء، وذلك حتى في قصصه الأخيرة، Choix des Elues مثلاً، حيث أراد أن يغذّي العيش الهيّن بعنصر داخل عليه: الرفق

وأما بيان جيرودو فغاية الفن سواء في الجو الذي يختاره لجري القصة أو في التعبير. اما الجوّ فبين الواقع والموهوم، ان جيرودو يفكك الواقع ويرسلهُ في كون متخيَّل كما صنع في Juliette au pays des hommes فيتسحّب معهُ الخاطر ويشرد الرأي. وأما التعبير فأسلوبه أفواج من الاستعارات الغرائب والتشبيهات الطرائف، تارةً متلاحقة وأخرى متشابكة، وفي قصة Suzanne et le Pacifique الشيء الكثير من هذا. كل ذلك يردّ التأليف جملة من البدَوات الشوارد، ولكنها بدوات ان لم تكن مثقلة بالتفكّر فهي مرهفة، مصقولة. ولا شك أن جيرودو واخوانه — على رأسهم كوكتو J. Cocteau — ابتدعوا في التعبير وافتنوا في التصوير حتى انهم ابتكروا أداة كان اساتذتهم الشعراء، مثل رامبو وأپولينير، مهدوا الطريق اليه.

وها هنا مَثَل من بيان جيرودو (فاتحة قصة ... Suzanne)

«كان اليوم، مع هذا، مما لا يحدث فيه شيء، ومما تخرج فيه الكواكب متجاورةً لا عمل لها، خروج الدجاج والمطرُ مستمر، وقد أحسّت الكواكب أن الحياة ستظل راتبة حتى المساء، وكان من دأبها ان تنوّعها. وكان كل شيء في السماء: كانت الشمس، وتحت شعار كان القمر. الليلُ، الصباحُ، كل شيء كان محضراً على سُمُط وضّاءة. وكانت ريح الجنوب تقع على ريح الشرق عموديةً، وكانت أنسام شمالية غربية جنوبية تلمسك برفق في الزاوية القائمة»

***

إن قصص جيرودو قدرها في طراوة الموضوع وطلاوة الأسلوب. ولكن له مسرحيات، وفي بعضها فوق ذلك. ولا أعني تلك التي جعلته المسرحيّ الرائج — أو كما يقول الفرنسيون à la mode — أو الساحر l'enchanteur، ثم لا أعنى تلك التي أداها الممثل لويس جوفيه L. Jouvet أشهراً أو شهوراً متلاحقة، من ذلك مسرحية Amphitryon 38 وقد شهدتّها سنة ١٩٢٩ في مسرح Champs Élysées وخرجتُ منها وأنا أقول: «تلك

حلاوة ! » . ومن ذلك ايضاً آخر مسرحية شهدتها له ، وكان ذلك في مسرح Comédie Française في خريف ١٩٣٨ ، وعنوانها « المزامير » . وما أدري هل طبعت ، لذلك أجلها وأنعتها : هي تنقل الفكرة الجائلة في مزامير العهد القديم الى مجرى الحياة الحاضرة . ومدار هذه الفكرة عند جيرودو أن امرأة موزّعة القلب تبوح بما يضطرب في دخيلة نفسها بمرأى من سيدها ومسمع ، فتخبره غير واعية بأنها تجلهُ وتحب معهذا فتىً ناعماً ، فلابد من القطيعة. والمسرحية مجراة على الطريقـة الرمزية المستحدثة : ايماء وتلويح وحديث باطن وغموض لطيف ، الاّ انها اقرب الى المهارة الذهنيّة منها الى التأثر الدفين

والحق ان المهارة الذهنيَّة الى جنب الثرثرة واستدعاء الطرائف وفرض الكاتب فنَّهُ على العبارة مما يضر بصدق الشعور وبعد الفكر عند جيرودو . ثم ان جيرودو يؤثر الخفة ويطلب الظرف ويقصد الأخذ ، وعلى هذا مسرحياته Ondine ونظائرها . وما أظن أن بهذا يعجَب من يُكبر شكسبير . غير ان لجيرودو مسرحية Siegfried وقد نقلها من قصة له ، بل له « حرب طروادة لن تكون » La guerre de Troie n'aura pas lieu . فهـذه حقـاً مسرحية ذات خطر ، وان انبثت في ثناياها عيوب جيرودو ، نحو الحشو والتكلف . هي مسرحية على حسب المفهوم الاغريقي ، ولا مفهوم غيره ، وعليه جرى شكسبير المعلم وراسين وإبسن . وقوام ذلك تناظر قوتين متفاوتتين ، احداهما تصرع الأخرى بعد عراكٍ عنيفٍ طويل . وموضوع المسرحية الاخيرة ، في كلمة ، أن حرب طروادة وقعت لسبب تَفِه أعجز سلم القومين وأضاع حلم الرئيسين . وبهذا ردّ جيرودو الى المسرح جوهره النقيّ ، وهو النضال الخفيّ العنيف ، والى الناظر متعتـه الرفيعة ، أريدُ الانجذاب المستتر والاغراق في التأمل الصامت (هل يقرأ أهل المسرح عندنا ؟!) . ولـكن جيرودو أخرج هذه المسرحية ثم عدل الى الخفائف الظرائف ، لأنهُ المسرحيّ الرائج فلا بدّ له من مؤانسة النظّـارة ، ولا يكون ذلك إلاّ اذا نزل اليهم

واني ناقل لك هنا بعض مشهد من هذه المسرحية ، وربما فطنتَ معي الى مسحة شكسپيرية

الفصل الثاني ، المشهد الثالث عشر

(الرئيسان : أُليس وإكتور ، يتفاوضان في الصلح)

إكتور — أهذا هو النضال الحقّ يا أُليس ؟

أُليس — أجل . النضال الذي منه تثور الحرب أو لا تثور

إك — هل تثور ؟

أل — سنعرف ذلك بعد دقائق خمس

إك — اذا كان النضال في مجال الكلام فخطي قليل

أل — يخيل إليّ أنهُ سيكون في مجال الوزن . كلانا كأنه في كفة ميزان . لينطق المثقال !

إك — وزني ؟ ما أزن يا أليس ؟ وزني رجلٌ فتيّ ، امرأة فتية ، طفل سيولَد . وزني مرحُ الحياة والاطمئنان اليها . وزني الطفرة نحو الذي هو عادل وطبيعي!

أل — وزني الرجل الكهل ، المرأة في الثلاثين ، الابن الذي أقيسه كل شهر بحزّات أجريها في اطار باب القصر . . ويزعم أبي أني أفسد المنجور . . . وزني التلذذ بالحياة والحذر منها

إك — وزني الصيدُ والبسالة والوفاء والحب

أل — وزني الاحتشام بين أيدي الآلهة والناس والأشياء

إك — وزني البلّوط الذي في أواسط آسيا الصغرى ، كل أشجار البلوط المورقة المتكتلة ، مبعثرة مع بقرنا المجعّد فوق تلالنا .

أل — وزني شجر الزيتون

إك — وزني الباز . أحدق الى الشمس ببصري

أل — وزني البومة

إك — وزني قوم بأسرهم من الفلاحين الدمثين والصناع المجتهدين وآلاف من المحارث والمناسج والأكوار والسنادين ... آه ! فيمَ هذه الأثقال جميعها تبدو لي ، لجاءة ، خفيفة أيّ خفة بين يديك

أل — أزن ما يزن هذا الهواء الذي لا يفسد ولا يرق ، في الشاطىء ، في الجزائر

إك — لِمَ المواصلة ؟ ان الميزان يميل

أل — جهتي ؟ أجل ، لعله كذلك

بشر فارس

٥ — التعقيب

النقد القويم لا بد منه للتعريف والتنوير ، فلكل من القارىء والكاتب فائدة فيه . لذلك يظفر بمنزلة جليلة في الدوائر العلمية والادبية في البلدان الرفيعة المثقفة . ومن المتبع في تلك الدوائر أن يحترم المؤلف حرية الناقد وعمله

وبعد فقد نشر هنا في العدد الماضي نقد لكتاب ظهر حديثاً ، وجرى النقد على الاسلوب العلمي فكراً ولفظا . فلم يستطع المؤلف المنقود أن يقدر هذا النقد ، فرد في مجلة الرسالة ولم يناقش مآخذ الناقد الكثيرة المتشعبة ، بل آثر خطة في التعبير ، ليس من شيمتنا الخوض في مثلها ، والتجأ بعد ذلك الى ما استنكره أولو المكانة والمعرفة ، وقد بعث الينا أحد هؤلاء الافاضل بكلمة ننشرها اعلاءً للعلم الراسخ والادب النزيه

أناة أيها السادة !

لست بالذي يرى لنفسه أن يلقي درساً في وجوب الأناة والتريث فيما يكون بيننا من نقاش وجدل ، وانما أرجو في أدب أن أذكر بعض السادة في العلم والكتابة أن يترفق بعضهم ببعض ، وأن يكون الجدال بينهم بالتي هي أحسن ، فذلك أحرى بالعلماء ، وأدعى الى أن يتقدم بالنقد من يرى ان عنده شيئاً من العلم يفيد التقدم به ، وآمن طريق يقود الى الحق الذي ينشده الكاتب والناقد

أكتب هذه الكلمة وقد قرأت ما كان من نقد ورد فيه حدة وعنف بالغ بين الأساتذة الأفاضل العقاد واحمد شاكر وبشر فارس ، وقد اعتذرت أولاً عما كان من ذلك بأن الحق يجعل لصاحبه مقالاً ! لكنه وقفني في رد الاستاذ العقاد على الدكتور بشر فارس ما رماه به من « سوء الذوق » بسبب بعض ما جاء بنقده لكتاب « الصديقة بنت الصديق » بمجلة المقتطف ، فقد فهمت منه — ما فهمه كثير غيري — شيئاً يتصل بالناقد وبالشك في السيدة عائشة رضوان الله عليها

اني لم أتشرف بعد بصداقة الاستاذين ، ولكني اعرف لكل منهما حقه من التقدير ومكانته الملحوظة فيما برع فيه ، ولذلك رأيت اني أستطيع أن أقول كلمة حق في اللغة التي آثرها

صاحب « العبقريات » في الرد على صاحب « مباحث عربية » وغيرها من المباحث القيمة الممتعة

لا أريد التعرض للمسائل التي دار عليها النقد ، فقد يكفي ما قرأ القارئون للحكم في هذه الناحية ، ولكني أرى من الخير ومن الواجب أن أتعرض للغمزة الواضحة التي لفّها الاستاذ العقّاد صاحب « العبقريات » في عبارة « سوء الذوق » التي تكررت مرتين

اني اعتقد أنهُ ليس من مصلحة الدين والعلم والحقيقة أن نستعدي الدين فيما يشجر بيننا من خلاف ، الاّ ان يكون الدين هدفاً للعدوان من جاهل أو باغٍ ، وليس هذا حال الدكتور بشر فارس فيما جرى على لسانه في نقده لكتاب « الصديقة بنت الصديق »

لقد عقب الدكتور بشر على بعض استدلال الاستاذ العقاد على تنزيه السيدة عائشة عما رُميت به بأن هذا استدلال مجتلب ، بل محض ذاتي لأن البشر يتفق لهم أن يزلوا وإن كانوا من أهل التصديق والايمان . ولو قال هذا وسكت لكان حقيقاً باللوم والرمي بأكثر من سوء الذوق ، لكنهُ قال بعده ما يأتي بنصه : (وكيفما كانت الحال فأن قصة الافك لا تحتاج الى مثل ذلك الاجتهاد . وحسب الباحث المحدَث أن يقول ما قاله المؤلف بحق في أول كلامهِ على تلك القصة : « تلك شبهة لا تكفي للشك في امرأة من عامة المسلمين ... ، إذ لو كانت كل امرأة تتأخر في الطريق تؤخذ بالتهمة في دينها وعرضها ، لكانت التهم في الأعراض أهون شيء يخطر على بال » . وللمؤلف أن يردف هذا بما يسميهِ علماء التاريخ النقد الداخلي critique interne ، ومداره تحرّي الصحيح من المروي رغبةً في تبيين أخلاق عائشة وصفوان . فسيرة الصديقة في ايام النبي وبعده تبدو فوق الشبهة ، وأما سيرة صفوان فنزيهة بشهادة الرسول نفسه اذ قال : وقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه الاّ خيراً ، وما كان يدخل على أهلي الاّ معي — عن البخاري) . اه

ألا يكون بهذا قد أبان الدكتور بشر عما في صدره من اجلال لأم المؤمنين ولصفوان ، وابعادهما عن كل ظن وريبة وشبهة يتمسك بها جاهل او ضال او مدخول الصدر ؟

ثم قول الاستاذ الدكتور بشر : « هذا الاستدلال مجتلب بل محض ذاتي » — الذي قال اولاً — ألا يؤوّل بأنهُ استدلال ان صدّقهُ من يرى لأم المؤمنين النزاهة والجلالة من أجل دينه فحسب فقد لا يصدق له من لم يكن كذلك ، وأن الخير لهذا أن نلجأ أو نضيف اليهِ استدلالاً آخر يؤمن له الجميع ، وهو الاستدلال بالاخبار المروية الصحيحة الموثوق بها التي منها نعرف سيرة الصديقة وسيرة صفوان

من الممكن ان نرى هذا التأويل ، بل من الحق أن تحمل عليه عبارة الدكتور بشر ، وبخاصة أن بقية كلامه يؤكده ويجعلهُ واجبا

***

وبعد ، فاني رجل سلم ، ولكني رأيت الحق يقتضيني هذه الكلمة ، ومني الى الاستاذ العقاد والدكتور بشر خالص التقدير

محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين
بالجامعة الازهرية



والمقتطف ماثل للطبع قرأنا لعالم ثبت وقاض شرعي ، في صحيفة «الوفد المصري» رقم ١٧٧٣ ، كلمة جاء فيها ما يتعلق بهذا الموضوع ، ونحن نثبته هنا :

وبعد فلا نكاد نفرغ من شأن للعقاد حتى يبدو لنا شأن ، فانه يكبر عليه ان يقول له انسان « أخطأت » أو يجادله في كلمة مما يقول، وانما يريد من الناس الخضوع والتسليم ، أصاب أم أخطأ ، وهو يعرض كتبه على الناس ، وفيها الصحيح الجيد ، وفيها الزيف الباطل ، ولكن هكذا هو !

فقد كتب الأستاذ بشر فارس كلمة في المقتطف قال فيها رأيه في كتاب « الصديقة بنت الصديق » فذكر مزايا رآها في الكتاب وبدا له ان ينقده بعض النقد الهادىء اللين، فكان العقاد على سجيته ، ثار به ثورته المعروفة ، وقرعه وندد به ، بل أراد ان يوقع بينه وبين قرائه بالتزيد عليه في تحميل كلامه ما لا يحتمل ، وحذف آخره يزعم انه يبهته بأوله

فقد قال العقاد في كتابه (ص ١٠٢) في شأن قصة الافك «على الذي يقبل وشاية كتلك الوشاية الواهية أن يروض عقله على تصديق أمور كثيرة لا موجب لتصديقها . لأنها تفتقر الى كل دليل ، والأدلة على ما يناقضها كثيرة . عليه ان يصدق ان صفوان بن المعطل كان رجلاً لا يؤمن بالنبي ولا بأحكام الاسلام . وان يصدق ان السيدة عائشة كانت — وهي زوج النبي — لا تؤمن به ولا تعمل بدينه . ولا دليل على هذا ولا ذاك »

وهذا كلام حق في ذاته لا شبهة فيهِ ، ولكن الدكتور بشر فارس رأى أنهُ ليس من نوع البحث العلمي البحت وأنهُ من نوع الدفاع والحذق في الجدل فقال : « والذي أراه أن هذا الاستدلال مجتلب بل محض ذاتي ، وذلك لاننا نعلم من طريق المشاهدة والملاحظة ان البشر يتفق لهم ان يزلوا وان كانوا من أهل التصديق والايمان . ولولا هذا ما احتاجوا الى ربٍّ توّاب . . . وكيفما كانت الحال فان قصة الافك لا تحتاج الى مثل ذلك الاجتهاد . . . (١) ، فسيرة الصديقة في أيام النبي وبعده تبدو فوق الشبهة ، وأما سيرة صفوان فنزيهة بشهادة الرسول نفسه »

وهذا كلام صحيح أيضاً ، فعائشة في ايمانها ودينها وتقواها وسيرتها في حياة النبي وبعده فوق مستوى الشبهات ، سيرة الأطهار الابرار ، ولا يمكن لمنصف ان يفهم من كلام الدكتور بشر غير هذا . ولكن الاستاذ العقاد لم يتورَّع عن ان يرمي الدكتور بشراً بما لا يُفهم من كلامه بأي وجهٍ من وجوه التأويل ، فهو يقول (أي العقاد) : « واذا كان لهذا الكاتب عذر من قلة الفهم فكان ينبغي أن يتجنب قلة الذوق لئلاَّ يجمع بين الفقرين السيئين ، وفي واحد منهما كفاية ، فلا يحسب علينا أن نطيل القول في حديث الافك دفاعاً وتصحيحاً ، وهو يطيل القول فيهِ للتوهين والتشكيك »

هكذا والله يقول العقاد ، وما ندري أين التوهين والتشكيك في كلام بشر ؟ إلاَّ أن يكون سوء الطوية من العقاد ، والحقد الذي يدفعه الى أن يرمي كل من تعرَّض لكلامه وآرائه بغير الاستحسان والتقريظ . فان بشراً لم يخالفه في معنى من المعاني ، وخاصة في تفنيد الافك من وجهة العقل والخبرة بسيرة السيدة عائشة وطهرها ونقاء تاريخها من كل شائبة ، وأن « سيرتها في أيام النبي وبعده تبدو فوق الشبهة » كما قال بشر

***

وما أردت الى الدفاع عن الاستاذ بشر ، فانهُ يعرف كيف يدافع عن نفسه ، ويعرف كيف يَقف العقادَ عند حده ، وانما أردت أن أصوّر عدوان العقاد وطغيانَهُ ، ليحذر الناس من تحريفه الكلم عن مواضعه .

احمد محمد شاكر

(١) راجع القول كلهُ في كلة الشيخ محمد يوسف موسى السابقة لهذه

باب الأخبار العلمية

تدرج علم الضوء

تقدّم علم الضوء تقدماً محسوساً قبل أن يهل القرن السادس عشر بمئات السنين . فقد بحث فلاسفة اليونان المتقدمون وعلماؤهم المتأخرون في علم الضوء . ثم تبعهم العرب فشاركوا بنصيب وافر في تقدم هذا العلم وتدرجه . وقد قيل ان بطليموس — الذي كان يدرس بالاسكندرية بين عام ١٢٧ وعام ١٥١ بعد الميلاد — وضع كتاباً في علم الضوء عرفهُ أهل أوربة بعد ترجمته من العربية في القرن الثاني عشر . وقد احتوى هذا الكتاب على بحوث في انكسار الضوء وفي انكسار الاشعة الضوئية عند نفوذها في الهواء المحيط بالكرة الارضية . وقد وجد المؤلف انهُ اذا مرّ الضوء من وسط الى وسط آخر فان زاوية السقوط تناسب زاوية الانكسار . وهذه العلاقة صحيحة تقريباً اذا ما كانت هاتان الزاويتان صغيرتين

ولم يثبت لنا التاريخ ان علم الضوء قد تقدم تقدماً يذكر منذ عهد اليونان حتى بدأت النهضة العلمية الاسلامية في القرن الثامن وحين ابتدىء في النظر في الكتب اليونانية العلمية وفي نقلها . ففي عصر هارون الرشيد ، وهو أشهر الخلفاء العباسيين ، بلغت حركة ترجمة الكتب العلمية الى اللغة العربية أشدها . ثم أخذ المسلمون في الدرس والتأليف وأخذت العلوم تنمو وتزهر

وأعظم علماء الطبيعة وأشهرهم في العصر الاسلامي هو أبو علي الحسن بن الحسن المعروف بابن الهيثم (٩٦٥ — ١٠٣٨) البصري المولد . وقد رحل ابن الهيثم الى مصر ودخل في خدمة الخليفة الفاطمي الحاكم (٩٩٦ — ١٠٢٠) ومن أهم بحوث ابن الهيثم بحوثه في علم الضوء . وهي بحوث تدل على مقدرة فائقة في الطرق التجريبية العلمية . وابن الهيثم هو أول من عمل على تصحيح الفكرة التي كانت سائدة عند اليونان عن الطريقة التي نرى بها الاشياء . فقد كان اليونانيون يعتقدون ان شعاع الضوء ينبعث من العين ويقع على الشيء المنظور ، وان الاشياء التي يقع عليها هذا الشعاع يمكن رؤيتها . والتي لا يقع عليها لا ترى . وقد كان ابن الهيثم أول من خطأ هذه النظرية . وقرر ان شعاع الضوء يخرج من الشيء المنظور ، ويقع على العين . وقد قال ابن الهيثم أيضاً ان الابصار هو عبارة عن تكوين صور المرئيات على « شبكية العين » ، وان انتقال التأثير الحاصل

يكون بوساطة العصب البصري الى المخ

وقد شغف ابن الهيثم بكل ما له علاقة بالبصريات . فاستعمل المرايا الكرية والمرايا المكافئة . وقد بحث في ما يسمى « بالزيغ الكري » أي ان الاشعة المتوازية اذا وقعت على سطح مرآة كرية لا تتلاقى بعد انعكاسها في نقطة واحدة . وقد درس قوة التكبير في العدسات . ثم بحث ايضاً في انكسار الاشعة الضوئية عند نفوذها في الهواء المحيط بالكرة الأرضية . ثم استعمل ابن الهيثم الطرق الحسابية في توضيح الكثير من المسائل الضوئية . هذا مجمل مما أسداه ابن الهيثم لعلم الضوء . ولكن مما لا شك فيه ان مؤلفه في الضوء بعد ترجمته الى اللغة اليونانية قد ساهم بنصيب وافر في تقدم العلوم عند أهل الغرب، وبالأخص على يدي روجر باكون وكبلر

وربما كان شغف روجر باكون بعلم الضوء نتيجة لدراسة وتتبع ما ورد في الترجمة اللاتينية لكتاب ابن الهيثم في هذا العلم . وقد شرح باكون قوانين انعكاس الأشعة الضوئية . وكذلك النظرية العامة لانكساره ويقال انهُ كان على علم بالمرايا والعدسات ، وانهُ وضع نظرية في حدوث « قوس قزح » كمثال في التعليل العلمي الصحيح المبني على الاستنتاج

ومن أجلّ البحوث التي تقدم بها عالم في علم الضوء بحوث العالم البريطاني الخالد السير اسحق نيوتن (١٦٤٢ — ١٧٢٧) (النشرة العلمية الشهرية العدد ٢٢ مايو سنة ١٩٤٣). وقد قيل « لو ان نيوتن لم يقدم للعالم إلاّ بحوثه في علم الضوء لكانت منزلته بين العلماء منزلة النابهين المتفوقين منهم » . ولكن كما بينا في نشرتنا السابقة . وكما سنبين لقرائنا في الاعداد التالية . فان بحوث نيوتن في فروع العلوم المختلفة عديدة ولا تقل في أهميتها عن بحوثه في علم الضوء « النشرة الشهرية العلمية »

مستقبل الملاريا

لقد تنبأ الدكتور ماكدوويل هامون الاستاذ بمدرسة الطب بجامعة كاليفورنيا بأن غارة عنيفة ستشن على الملاريا في المستقبل ، الغرض منها مكافحة المرض في الايام الستة الاولى بين عضة البعوض الملوثة بالميكروب وبين ظهور المرض في خلايا الدم . هذا الدور هو ما يدرسهُ العلماء الآن

ولقد أثبتت الدراسات على الملاريا في الطيور أن الطفيلي يتطوَّر في الخلايا المسطحة الشبكية في الطحال من نخاع العظم وفي الخلايا الشعرية في المخ . وذلك قبل أن يصل الى خلايا الدم . فلعل الابحاث القادمة تستطيع أن تقف المرض في دوره الأول اما الآن فيجب أن نعتمد على مقاومة البعوض واصطياد اليرقات ويجب ان لا نتراخى في محاربتها معاً

طبيعة الشمس وعرضها بالسينما

قال الاستاذ شابمان في حديثه الافتتاحي بصفته رئيساً للجمعيـة الفلكية بلندن ، في جلستها التي عقدت في شهر مايو الماضي ، انهُ من الممكن ، بل من اللازم ، العمل على تقديم الكشوف الحديثـة في « الطبيعـة الشمسية » ، بطرق جذابة يقبل عليها الشعب، فيستمتع برؤيتها ، ويستفيد من الاصغاء الى تفسير الشارح لها . ويمكن الوصول الى هذا المأرب باستخدام الافلام السينمائية الملونة . فاذا تعاونت الهيئات المختصة في بعض المراصد على العمل في هذا المضمار ، أمكنها اخراج فلم ملون ممتع ، يعرض على الشاشة البيضاء مدة ساعة أو أقل . ويعطي للنظارة فكرة عامة شـاملة ، عن دورة أو أكثر من دورات كلف الشمس Sun spots . ولا شك في أن اخراج فلم كهذا يعطي أفراد الشعب عامة ، والأطفال خاصة ، فكرة للتعرف منها عن الكيفية التي كشف بها غاليليو الدورة الشمسية ، وعن ظهور الـكلف الشمسية واختفائها

***

ثم يمكن للنظـارة أيضاً رؤية التغير الذي يحدث في محور الشمس ، وقت تصويره تصويراً فوتوغرافيًّا من أماكن مختلفة على سطح الأرض ، وفي أوقات مختلفة طوال العام السنوي ثم يمكن ايضاً ملاحظة مناطق الكلف الشمسية وهي تقرب من خط الاستواء. فيكثر عددها ويقل خلال احد عشر عاماً . اما عن تاريخ جماعات الكلف الشمسية وعلاقتها بتلك الرقع الزاهية flocculi التي توجد على سطح الشمس ، والتي تكون في الغالب على مقربة من الكلف الشمسية ، فيمكن عرض كل هذا بصور سينمائية مكبرة مأخوذة عن كثب . ثم يعرض في هذا الفلم ايضاً كسوف الشمس ، والصور الاكليلية ، ثم يتبع ذلك عرض ما تقوم به المراصد من اعمال في الوقت الحاضر، واستعراض ما تقدمت به من كشوف في الماضي . ويعتقد الاستاذ شابمان ان اخراج فلم كهذا لا بد منه ، وانهُ يجب على علماء الفلك العمل على البدء فيهِ حتى يكونوا على استعداد لعرضه للجمهور في انحاء العالم المختلفة. عقب انتهاء الحرب العالمية الحاضرة . ويخص بالذكر الاستاذ شابمان « جمعية الفلك العالميـة » « واللجنة العالمية للتقدم العلمي ». ويشير الى ضرورة اهتمامها بتنفيذ هذا المشروع القيم

« النشرة الشهرية العلمية »

في العدد الماضي ، اقرأ : ص ١٩٩ ، س ١٨ : Moufette — ص ٢٠٠ ، س ٩ : نخيره — س ٢٠ : عينه — س ٢١ : خطيـة — س ٢٢ : الدُّرور — ص ٢٠٢ س ٢٤ : بل بالفتح

فهرس الجزء الثالث

من المجلد الرابع بعد المائة

المقتطف

الجزء الرابع من المجلد الرابع بعد المائة

١ ابريل سنة ١٩٤٤ — ٨ ربيع ثاني سنة ١٣٦٣

من أسرار الكون المادي

لا تزال الاشعة الكونية

لغزاً كونيًا

ليس بين مباحث الطبيعة والفلك ، في العصر الحديث ، ما هو أجلُّ شأناً وأفتن للبّ من البحث في الاشعة الكونية، لتبيُّن قوتها وفعلها ، واستشفاف صلتها ببداية الكون ونهايته. فهي اذا قيست بالمعهود المألوف من ضروب الاشعة كانت أقواها فعلاً وأشدها اختراقاً للاجسام . والآراء الخاصة بطبيعتها وأصلها ومصدرها ومعناها الفلسفي الأوسع ، مختلفة وقد تكون متناقضة . ففريق يقول انها تحمل، في ثنايا أمواجها القصيرة ، أنباء الخليقة في رحاب الكون المادي ، وفريق يذهب الى أنها تحمل رسالة فناء العوالم واضمحلال الشموس . وبعضٌ يقول إنها أمواج أو مقادير «كوانتات» من الضوء تعرف باسم الفوتونات وآخرون يقولون انها كهيربات . وتزعم جماعة انها صادرة الينا من رحاب الفضاء البعيد ، بين النجوم والسدم ، ويقنع باحث واحدٌ على الأقل بأنها لا تتعدّى في تولدها حدود الدثار الغازي الذي يحيط بالارض . على انهم جميعاً مقتنعونَ بأنها تحمل رسالةً خطيرةً ، فهم لذلك مقبلون في لهفة على السعي لحلّ الرموز التي كتبت بها الرسالة

كيف يتبين العلماء الاشعة الكونية وكيف يقيسونها ؟. صنعت لذلك — في تجارب البحاثة كمطن — كرة من الصلب ، قطرها بضع بوصات ، يملأها غاز الأرغون مضغوطاً ضغطاً عالياً . والاشعة الكونية حين تخترق هذا الغاز ، تجعلهُ قابلاً بعض الشيء لايصال الكهربائية

والتيار الكهربائي الضعيف الذي يخترقهُ يقاس بجهاز (الالكترومتر) مرهف الإحساس . ولكن الاشعة المنطلقة من الراديوم وغيره من العناصر المشعة ، تفعل بالغاز فعل الاشعة الكونية ، لذلك تحاط كرة الصلب هذه بجدار كثيف من الصلب ، لانهُ يحجب أشعة الراديوم وأشباهها ولا يحجب الاشعة الكونية

فاذا أخذت هذه الكرة الى نفق عميق ، وجد الغاز الذي فيها لا أثر فيهِ لسريان تيار كهربائي . ولكن اذا ظلت على سطح الكرة ، لوحظ ان تياراً ضئيلاً يخترقهُ ، ويمكن أن يقاس هذا التيار بعدَّاد خاص . وسبب ذلك ان الاشعة الكونية لا تستطيع ان تخترق طبقة كثيفة من قشرة الأرض وجداراً كثيفاً من الصلب ، لتؤثر في الغاز ، حين يكون في النفق العميق . فاذا نقلت كرة الصلب هذه ، الى قمة جبل ، او رفعت في الجوّ بمنطاد ، زاد مقدار التيار الذي يخترق الغاز ، وهذا يثبت ان الاشعة الكونية هي التي تفعل في الغاز فتهيج ذراته فتجعلهُ قابلاً لايصال الكهربائية ، فهي أقوى في الجو منها على سطح الارض

وقد ذهب كمطن وأعوانهُ ، من سنوات ، الى بلاد بيرو في أميركا الجنوبية لأن فيها سكة حديد تخترق الجبال ، وعند أعلى موقع تجتازه سكة الحديد ، نفق يخترق الجبل ، وهو يرتفع ثلاثة أميالٍ عن سطح البحر . فلما نقلت الكرة المصنوعة خاصة لقياس الأشعة الكونية ، الى داخل النفق ، كاد أثر الاشعة الكونية في غاز الارغون لايدرك حتى بأدق الآلات وأشدها إحساساً . فلما خرجوا بها خارج النفق ، بدا أثر الأشعة الكونية جليًّا

وهناك طريقة أخرى لتبيُّن الاشعة الكونية ، تعرف بطريقة « انبوب الاحصاء » أو « العدَّاد » . وهو كرة من زجاج ، وقد تكون مستطيلةً ، يملأُها غاز لا يوصل الكهربائية في حالتهِ السويّة . فاذا فعلت بهِ الأشعة الكونية ، أصبح موصلاً للكهربائية . ولكن بدلاً من أن يقاس التيار الذي يخترق الغاز بجهاز (الالكترومتر) يقوّى التيار مليون مليون ضعف ، ثم يمرُّ في مكبر للصوت ، فكلما اخترقت شعاعة من الاشعة الكونية هذا الانبوب ، سمعت نبرة معيَّنة في مكبر الصوت

أهم صفةٍ تتصف بها هذه الاشعة العجيبة هي قدرتها على اختراق الاجسام . فنحن نعلم ان الاشعة السينية (أشعة اكس) تستطيع اختراق الاجسام المادية ، فتخترق كفَّ الانسان أو جسمهُ ، ولا تخترق عظامهُ ، فيبدو الهيكل العظمي في صورةٍ ، صورها الطبيب المختص للجسم أو لأحد أعضائهِ . ولكن طبقةً من الماء سمكها بوصة واحدة تحجب نصف شعاعةٍ من الاشعة السينية . وطبقة من الماء سمكها قدم واحدة تحجب نصف شعاعة من أشعة جمَّا . أما قدرة الاشعة الكونية على اختراق الاجسام فقد رويت عنها نوادر تحيِّر

الالباب . فقد جرّب مليكن تجارب أثبتت لهُ ان الاشعة الكونية تخترق طبقة من الماء سمكها متفاوت بين ٥٤ قدماً في احدى البحيرات و٦٠ قدماً في أخرى . والنتائج التي أسفرت عنها تجارب مسشكي الروسي في نهر نيفا قرب لينغراد أيدت نتائج مليكن . ولكن رجينر الالماني أجرى تجاربهُ في بحيرة كونستانس فقال انهُ عند ما بلغت أجهزتهُ عمق ٢٨٠ متراً تحت سطح الماء ، ظلّ يبدو فيها أثر للاشعة الكونية . ففي الطبيعة اذن مصدر — أو مصادر — يطلق أشعة أقوى من أشعة الراديوم أضعافاً كثيرة . فما هو ؟

ترجع بوادر هذا البحث الى أوائل القرن العشرين . ولكن الاشعة الكونية ، لم تظفر بعناية عظيمة من العلماء إلاّ حين اقترح مليكن نظرية عجيبة لتفسير مصدرها ، وكان ذلك حوالي سنة ١٩٢٦ . ولباب رأيه ان الاشعة الكونية تنشأ أو تتولّد في رحاب الفضاء بين النجوم ، إذ تتكوّن ذرات العناصر الثقيلة باندماج ذرات العناصر الخفيفة . وفي هذا الاندماج، تنطلق طاقة عظيمة هي الاشعة الكونية . وأتى بأدلة تشير الى ان هذا التولّد انما هو مرحلة من مراحل التكوّن والفناء في الكون ، سائرين في حلقة مفرغة

لجديرٌ بنا أن نقف هنيهةً عند هذا الرأي ، لأن مليكن عاد اليه — أو الى نقيضهِ — في مجلة نايتشر من عهد قريب ، على أثر ما ظهر من نتائج المباحث الأخيرة في هذه الأشعة

بنى مليكن نظريتهُ ، على ان هذه الاشعة هي اشعاعات كهرطيسية (كهربائية مغنطيسية) أو فوتونات من قبيل الاشعة السينية وأشعة غمّا . ولكنها أقصر من هذه الاشعاعات أمواجاً وأشدّ اختراقاً للاجسام . وكان هذا الفرض طبيعيًّا لشدة نفوذ الاشعة ، ثم عمد مليكن الى الرياضة والطبيعة معاً ، فقال إنّ أشعة لها نفس قدرة النفوذ التي تتصف بها أضعف الاشعة الكونية ، يمكن أن تتولد اذا اجتمعت أربع ذرّات من الايدروجين ، واتحدت فتكون من اتحادها ذرة من الهليوم . فالطاقة التي تنطلق من هذا الاندماج ، هي في قوتها وقدرتها على اختراق الأجسام ، من رتبة الاشعة الكونية

لذلك أشار مليكن الى شعاعة منها بقوله « إنها صراخ ذرة عند ولادتها » في رحاب الفضاء ، فكان قوله هذا نفخاً في بوق أهاب بالعلماء الى البحث

وعلى هذا القياس قيل ان تولد ذرات العناصر التي تفوق الهليوم في وزنها الذري — كالاكسجين والسليكون — ينشيء أشعة كونية ، من درجات متفاوتة في قدرتها على اختراق الاجسام المادية ، وان هذه الذرات تتقارب بفعل التجاذب ، فتتكوّن منها السدم ثم النجوم. وتشع السدم والنجوم مادتها بتحولها الى ضوء وحرارة ، وتنطلق الطاقة الشاعّة منها في رحاب الكون ، فتتحوّل في خلال رحلتها الطويلة — وهذا فرض فلسفي — الى

بروتونات وكهيربات ، ومن هذه الدقائق تتألف ذرات الايدروجين ومن اجتماع ذرات الايدروجين تتكوَّن ذرات الهليوم فذرات عناصر أخرى وتنطلق أشعة ، وكذلك ترى الكون بحسب رأي مليكن ، يبتدىء من حيث ينتهي

ما كاد مليكن يطلع بنظريته هذه ، حتى قال جينز برأي يخالفها . فالأشعة الكونية ، في نظره ، رسائل تنبيء بفناء المادة وتلاشيها ، لا بتولدها . واتخذ من الحساب الرياضي اساساً لتأييد القول المشهور في علم الطبيعة ، وهو ان الكونَ يتدرَّج انحطاطاً في مقدار الطاقة الفعالة التي فيه ، الى حيث لا رجعى . فالكون بحسب ناموس « الثرموديناكس » الثاني ، وحساب جينز ، سائر الى نهاية ، ولا عودة له منها

ثم جاء باحث طبيعي فرنسي شاب يدعى دوفيلييه ، فاقترح نظرية أخرى لتفسير أصل الأشعة الكونية ، ولكن الأصل الذي بنى عليه نظريته هو أن الأشعة الكونية ليست مؤلفة من فوتونات ، بل هي كهيربات تنطلق من الشمس الى الأرض ، من مناطق عالية الضغط الكهربائي في الشمس ، فيدنو بعضها من جو الأرض فيؤثر في جوها ، فيحدث الاضواء القطبية الباهرة ، ويمزق ذرات الغازات في الهواء فتتطاير شظاياها

ولعلَّ أغرب الآراء التي اقترحها العلماء لتعليل نشأة الاشعة الكونية ، هو رأي الأب لميتر الفلكي الطبيعي البلجيكي وهو صاحب الرأي القائل بأن الكون كان من ألوف ملايين من السنين ، مركزاً في حيز ضيق ثم اختلَّ استقراره الداخلي ، فانفجر فجأة ، فانتثرت منهُ السدم فأخذت تبعد بعضها عن بعض ، وما فتئت تتباعد . على انه يقول ان الاجزاء التي انتثرت من الكون عند انفجاره لم تكن سدماً ونجوماً فقط ، بل كان منها دقائق صغيرة جداً ، ذرات وكهيربات وفوتونات ، وعنده ان هذه الدقائق المتناهية في الصغر ، التي ما فتئت تجوب رحاب الفضاء من بداية الكون ، هي الاشعة الكونية

فهل ثمة سبيل الى معرفة الحقيقة في طبيعة هذه الاشعة ؟ وهل هي فوتونات كما يقول مليكن وجينز ، او كهيربات كما يقول دوفيلييه او مزيج من أشعة ودقائق مختلفة كما يقول لميتر ؟ وقد جرَّب عالمان المانيان — بوث وكولهرستر — تجربة اقنعتهما نتائجهما بان الأشعة الكونية دقائق مكهربة سالبة الكهربية . فاذا صحَّ هذا وجب أن يكون هنالك اختلاف في قوة الاشعة في مناطق مختلفة على سطح الأرض ، لأن الأرض تفعل فعل مغنطيس كبير ، فيجب ان تحرف الدقائق اذ تنطلق نحو الارض . وهذا الانحراف يجب أن يكون على أقله في المناطق المجاورة لقطبي الأرض المغنطيسيين وعلى اكثره في المناطق البعيدة عنهما اي في المناطق الاستوائية . وليس في النتائج التي أسفر عنها بحث هذه الناحية من الموضوع ، ما يصح ان يسلم به على أنهُ

قاطع . ولكن الاستاذ كمطن انشأ تسعة بعوث — بمال أمدَّه به معهد كارنجي — فرحلت الى مواقع شتى على سطح الارض كالمناطق الاستوائية في العالمين القديم والجديد ، وجنوب افريقية وزيلندة الجديدة ، وتوقلوا في الجبال العالية . ولما جمعت الحقائق وبوّبت الارصاد أظهرت ان قــوة الاشعة الــكونية قرب القطبين تزيد على قوتها في المناطق الاستوائية بمقدار ١٥ في المائة فقبل الرأي القائل بأن جانباً من هذه الاشعة على الأقل مؤلف من دقائق مكهربة . ولــكن بعضها لا يتأثر بفعل الأرض المغنطيسي . ومباحث بيكار البلجيكي ورجينر الالماني في أعالي اطباق الجو تحمل على الاعتقاد بأن بعض هذه الاشعة مؤلف من فوتونات ، ولــكن قد يكون بعض آخر مؤلفاً من ذرات ونوى ذرات العناصر الخفيفة ، فكأن رأي ليمتر ، هو على ما يعلم أدنى الى الحقيقة .

على أن البحث مستمر . وقد انتظم فيه باحثون لم نعهد اسماءهم من قبل في هذا البحث مثل علماء وفد ذهب من جامعة شيكاغو الى جبل افانز في كولورادو والدكتور لاپ أحد علماء معمل برسون للبحث الطبيعي وغيرهم . وقد نشرت نتائج أرصادهم في المجلة الطبيعية . ومنها ان الاشعة تصيب الارض في شآبيب ، يشمل أحدها بقعة من الارض محيطها ٣٥٦٠٠ قدم ، وان في مركز الدائرة بقعة محيطها ٣٥ قدماً تبلغ فيها كثافة الاشعة او الدقائق ، مبلغاً عظيماً . وهؤلاء العلماء أميل الى عد الاشعة الكونية كهيربات

ولــكن مليكن لا يزال أحد فرسان الميدان المقدمين . وقد عاد من عهد قريب ، الى بحث رأيه عن ولادة العوالم ، كما تدل عليها الاشعــة الكونيــة ، على ضوء المباحث الجديدة . ونشر مقاله في مجلة « نايتشر » . فرأي جينز كان قائمــاً على أن انحلال ذرة ما ، يولد طاقــة عظيمة . وان انحلال ذرة كربون يولد طاقة قدرها ٦٦٠٠ مليون كهيرب فولط . وانحلال ذرة نتروجين يولد ٧٥٠٠ مليون كهيرب فولط . فانحلال ذرة اورانيوم على هذا القياس يولد ١٢٥٠٠٠ مليون كهيرب فولط . ولــكن شآبيب الاشعة الكونية التي بحثها الدكتور لاپ تشمل طاقة من رتبة ١٠٠٠٠ مليون مليون كهيرب فولط ، فلو كان الاعتماد في توليدها على انحلال ذرة لوجب ان تكون هذه الذرة ٨٠٠٠٠ الف ضعف أثقل من ذرة الاورانيوم . فهل في الفضاء الرحب مكان ما ، توجد فيه ذرة من هذا القبيل ؟ المرجَّح ان الجواب بالنفي ، واذن فالمباحث الحديثة تبعد في نظر مليكن رأي جينز في ان مصدر هذه الاشعة هو انحلال المادة في رحاب الفضاء

وعليه فالوقت لم يحن بعد لفهم معنى الرسالة التي تحملها هذه الاشعة وانتاج نتائج فلسفية عامة عن مقامها في الــكون المادي وصلتها ببدايته ونهايته



معارض الجمعية

الزراعية الملكية

وتشجيع الصناعات الأهلية *

لفؤاد أباظه باشا



ـ تقام المعارض لأغراض عديدة كبيرة الفائدة . فهي ميدان للمباراة والتنافس بين الصناع وغيرهم من المنتجين مثل الزراع فيعرض كل منهم أحسن ما وصل اليه جهده . كما هي الواسطة الهامة لتعريف المستهلكين بمختلف الصناعات ومنتجاتها . كما تعتبر من اهم الوسائل التي يتعرف بها الصناع انفسهم رغبات المستهلكين ثم لجهود الهيئات التي تقوم بالأبحاث الخاصة بالصناعة وتقدمها وطرق تحسينها والمواد الخام التي تدخل في هذه الصناعات ومصادرها وينتج عن هذه العوامل مشتركة خلق صناعات لم تكن موجودة وتحسين الموجود منها لدرجة تستهوي رغبة المستهلكين وتستطيع درء مزاحمة المنتجات الأجنبية الواردة خصوصاً بعد استعراض الاحصائيات التي تقدمها الحكومة والهيئات المشتغلة بالاحصاء عن أحوال الاسواق وغيرها . كما يجب ألا نغفل ان المعارض العامة كانت تربط الزراعة بالصناعة والصناعات الزراعية

ولقد أقامت الجمعية الزراعية خمسة عشر معرضاً عامّاً في القاهرة عدا المعارض المحلية ، وتميزت المعارض التي أقيمت منذ سنة ١٩١٩ لآخر معرض ١٩٣٦ بكونها معارض زراعية صناعية ، بحيث جمعت المعروضات الزراعية والصناعية التي اشترك في تقديمها هيئات الحكومة ذات العلاقة بالزراعة والصناعة ، كذلك الهيئات الأهلية من زراعية وصناعية

ولا ريب في أن الجمعية قد أدت باقامة المعارض خدمة عظيمة للبلاد ، وأشاعت فيها روح الجد والمثابرة والاتقان . واذا كانت مصر قد عرفت منذ قديم الأزمان بأنها بلاد زراعية وبلغت في هذا السبيل ، بفضل ما أدخلته من أساليب الزراعة الحديثة مبلغاً عظيماً جعلها في الصف الأول بين البلاد الزراعية ، فان المعرض قد أتاح الفرصة أيضاً فتبين الجميع ان النهضة

* محاضرة ألقيت بالسراي الصغرى بالجزيرة في شهر فبراير سنة ١٩٤٤

الصناعية تسير مع الزراعة في طريق النماء والازدهار . ونفت بذلك من الأذهان ما استقر فيها من زمن قديم ، وهو أن مصر لا يمكن أن تصبح بلداً صناعياً

أجل . كانوا يلقنوننا في المدارس والمعاهد أن الطبيعة قضت على مصر أن تظل أبد الدهر بلداً زراعياً فحسب ، وان كل جهد يبذل في سبيل جعلها بلداً صناعياً للصناعة هو جهد ضائع . وقد رسخت هذه الفكرة في عقيدتي ، منذ كنت طالباً متأثراً بما كان يلقنني إياه أساتذتي من الاوربيين الذين تلقيت العلم على أيديهم . وسرت هذه التعاليم منهم الى الوطنيين . وأخذ الجميع يكررون هذا القول على مسامعنا حتى ساد الاعتقاد ان مصر لا تصلح ان تكون بلداً صناعياً

ولكنني حين أشرفت على اقامة معرض سنة ١٩٢٦ ، ولمست عن قرب مدى ما وفقت له مصر في ميادين الصناعة أدركت مقدار ما في هذا القول من خطأ ، وأيقنت أن مستقبل البلاد في الصناعة — بجانب الزراعة — مكفول مرموق

وحين أخذت الجمعية تُعد العدة لمعرض سنة ١٩٣١ لاحت لي بوادر جديدة على أن النهضة الصناعية تسير في طريقها ، وانها توشك أن توفي على غايتها

وفي ١٩ ديسمبر سنة ١٩٣٠ ألقيت محاضرة عن معرض سنة ١٩٣١ قلت فيها « ان معرض سنة ١٩٢٦ كان حادثاً موفقاً جعل الجمهور المصري يشعر أن في بلده صناعة، وصناعاً حذاقاً . وبدأت الطبقة المتفرنجة التي كانت لا ترى في صناعات بلدها الا اصنافاً منحطة لولعها بكل ما هو اجنبي ، تفيق من غفلتها وتفتح عيونها . وقد أخذتها الدهشة عند ما قدم العامل المصري البرهان الساطع على فساد هذه النظرية التي غرسها في اذهانهم هؤلاء المغرضون الذين لا يهمهم الا الترويج للمنتجات الأجنبية والقضاء على المصنوعات المصرية

وقبيل افتتاح معرض سنة ١٩٣٦ ألقيت في جمعية الشبان المسلمين يوم السبت ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٥ محاضرة قلت فيها « ان معرض سنة ١٩٣١ كان سجلاً لمقياس التقدم المطرد في شؤون الصناعة والزراعة . وان مصر قد قطعت خطوات سريعة في هذا المضمار مما ساعد على توازن كفتي ميزانها التجاري عند ما بدا في الأفق شبح منافسة الاقطان الأجنبية لأقطاننا المصرية وأصبح القطن غير صالح وحده ليكون المرجع والعماد الوحيد للثروة المصرية »

وجاء معرض سنة ١٩٣٦ مصداقاً لهذا الذي توقعت . وبدد الوهم السابق بل كان بمثابة النهار الساطع الذي طلع على ليل قاتم . وآمن الجميع أن مصر يمكن أن تصبح بلاداً صناعية عظيمة كما هي بلاد زراعية عظيمة . وأن ليس أمامها ، كي تصل الى ما تصبو اليه ، الا ان تصح النيات وتتضافر القوى ، فقد وهبها الله تربة خصبة وأرضاً ممهدة منبسطة ، ورقعة ممدودة .

وموانىء صالحة ، وموقعاً جغرافيًّا جعلها صلة بين الشرق والغرب . يضاف الى هذا كله مهارة تقليدية ورثها العامل المصري منذ فجر التاريخ حين كانت مصر معلمة العالم في دقة الصناعة وجمال الفن

ولو لم يكن لمعرض سنة ١٩٣٦ إلاَّ الفضل في ابراز هذه الحقيقة الكبرى لكفاه نجاحاً ولكفى الهيئة التي أعدت لهُ جزاء على ما تكلفت في سبيله

وقد امتاز معرض سنة ١٩٣٦ بأن خصص فيه قسم للسودان فجاء المعرض معبراً عن الاماني القومية تعبيره عن النهضتين الزراعية والصناعية . وأُتاح الفرصة لسكان وادي النيل لكي يجتمعوا في صعيد واحد على شاطئه السعيد

وليس هذا فحسب ، بل لقد أتاح معرض سنة ١٩٣٦ لجيراننا من اهل العراق وسورية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والحجاز واليمن وشمالي افريقية الفرصة لزيارة مصر والتعرف الى نهضتها فأدى بذلك خدمة جليلة عظيمة الاثر بالنسبة الى مركز مصر ومستقبلها



ولنبحث في محاضرتنا هذه عن أثر هذه المعارض في تشجيع الصناعات الاهلية ، باعتبارها معاونة للجهود الحكومية والاهلية في خلق الصناعات وتحسينها . فالمعارض كما قلنا كانت تؤدي رسالة الهيئات الحكومية والاهلية والمستهلكين الواحد للآخر

وللوصول الى تحقيق ما افادته الصناعات من رسالة المعارض يتطلب ولو عدة طرق أحدها بحث الانتاج للمصانع المحلية الأصيلة والمستحدثة . بيد ان هذا الامر عسير لعدم وجود الاحصاء الانتاجي الكافي . وقد يلمس كل منا ظهور المصنوعات الاهلية ورواجها حوله ولكن حصر ذلك ليس بالسهل من الوجهة الاحصائية . ولعل اكبر دليل ملموس ما نجده الآن في حالة الحرب الراهنة من انتعاش المنتجات الاهلية ورواجها مع انقطاع الوارد لدرجة هائلة . اما الطريق الثاني فيكون من استقراء بيانات البضائع الواردة في مختلف السنين ومقارنتها من حيث أخذها في التناقص وحلول المنتجات الاهلية بدلها . ولقد سلكنا هذا السبيل بمقارنة الواردات الاجنبية في بعض السنوات قبل وبعد المعارض الثلاثة الاخيرة وهي معارض ١٩٢٦ و١٩٣١ و١٩٣٦ مع ملاحظة ان البلد الذي تزدهر فيه الصناعات تقل وارداتها من المنتجات المشغولة أو المصنوعة وتزيد في واردات المواد الخام التي لاسبيل لانتاجها محليًّا ويجب ألاَّ نغفل عاملين عند المقارنة : أولهما الزيادة المطردة في سكان البلاد خلال سني المقارنة اذ كان يجب أن تتمشى معها زيادة الوارد من المواد المصنوعة . ثم زيادة القدرة على الشراء .

أما العامل الثاني فهو ارتفاع الأثمان للمواد في السنوات الاخيرة وزيادة الرسوم الجمركية . فلو كانت الصناعة في مصر باقية على حالها لتحتم زيادة أثمان المصنوعات الواردة سنة بعد أخرى . وهـذه الامور مجتمعـة تزيد من بروز المقارنة عنـد استعراض الوارد من المصنوعات الاجنبية

فالمعرضان الزراعيان في سنتي ١٩٠٩ و١٩١٢ يجب ان نعتبرهما معارض تمهيدية للنهضة الصناعية في مصر . غير ان حلول الحرب الماضية سنة ١٩١٤ لا تمكننا من تتبع أثرهما . وان لم يخلو من الفوائد الزراعية والصناعية خصوصاً في تعريف الصنّاع بالآلات والماكينات بما عاد بفوائد لا بأس بها بطريق غير مباشر

أما معرض سنة ١٩٢٦ وهو الأول بعد الحرب العالمية الماضية فقد كان مفاجأة عجيبة اذ أظهر للملأ وجود صناعات أهلية متقنة كانت مهملة يجهلها كثيرون من المصريين كانوا يعولون في شراء أمتعتهم على المصنوعات الاجنبية كما سنبين في الاحصائيات الواردة بعد. ثم جاء معرض سنة ١٩٣١ ومعرض سنة ١٩٣٦ بنجاح أظهر . وهكذا تقدمت المعارض وتدرجت تبعاً لتقدم البلاد وبالجملة خطت خطوة واسعة

وليس الاحصاء الذي نقـدمه شاملاً بل نكتفي بالامثلة لنبين مدى ما أفادته بعض الصناعات الأهلية

﴿ صناعة المو بيليات أو الأثاثات الخشبية والمعدنية ﴾ كان للمعروضات التي قدمتها المدارس الصناعية والمصانع الاهلية أثر كبير . اذ برهن على اتقان هذه الصناعة التي لا تقل ان لم تفق ما كان ينكب عليـه كبار المصريين وغيرهم . وان العـامل المصري اذا وجد التشجيع ورواج سلعته أمكنه ان يبلغ درجة النبوغ . ففي سنة ١٩٢٨ استوردت مصر أثاثاً خشبيـاً من أنواع مختلفة بمبلغ ٣٧١ ألف جنيه تقريباً فهبطت قيمة الوارد في سنة ١٩٣١ الى ١١٨ ألف جنيه وفي سنة ١٩٣٣ (أي بعد معرض ١٩٣١) هبطت مرة أخرى الى نحو ١٥ ألف جنيه ثم أخذت هذه القيمة في القلة . ومقابل ذلك زادت قيمة الوارد من الخشب الصالح لاستعمال الأثاث مما يدل على نهوض هذه الصناعة

ومن بين أنواع الاثاث : النوع المنجّـد وكانت قيمة الوارد منهُ ٣٢ ألف جنيه سنة ١٩٣١ فأصبح ٣ آلاف جنيه سنة ١٩٣٧ مما يدل على انتعاش صناعة التنجيد أيضاً

وقد يتبع هذه الصـناعة صناعات أخرى مثل الأثاث المصنوع من الصفصاف أو الخيزران فقد كانت قيمة الوارد منهُ ٩ آلاف جنيه سنة ١٩٢٧ فأصبحت ٦٢ جنيهاً فقط

سنة ١٩٣٦ . والمعلوم ان هذه الصناعة منتشرة في البلاد

ولا بأس ان نضيف الى هذا الباب صناعة المكانس التي كانت وارداتها في سنة ١٩٢٧ بمبلغ ٢٠ ألف جنيه تقريباً واصبحت في سنة ١٩٣٣—٧٥٠ جنيهاً وفي سنة (١٩٣٧) ٢٣٥ جنيهاً فقط . وهذا ناشيء عن زراعة ذرة المكانس في مصر وتقدم صناعة المكانس كما دلت على ذلك معروضاتها

﴿ الأثاث المعدني ﴾ نكتفي بالتدليل على ما أفادته صناعة الأثاث المعدني بالاسرّة فقد كانت قيمة الوارد من الاسرة المصنوعة من الحديد والنحاس ١٣٥ ألف جنيه سنة ١٩٢٨ فأصبحت في سنة ١٩٣١ — ٢٠ ألف جنيه منها ١٢ ألف جنيه قيمة الاسرة الحديدية و ٨٥٠٠ جنيه قيمة الاسرة النحاسية المستوردة . وذلك نتيجة نشاط صناعة الاسرة في مصر وزيادة المصنوع منها من الخشب . وهكذا هبطت قيمة واردات المصنوعات النحاسية المصقولة من ٥١ ألف جنيه سنة ١٩٣١ الى ١٨ ألف جنيه سنة ١٩٣٨ كما هبطت قيمة الوارد من مواقد البترول من ٤٧ ألف جنيه سنة ١٩٢٨ الى ١٥ ألف جنيه سنة ١٩٣٣ . وهكذا الحال مع أجهزة الاضاءة والنجف والاعمدة ومصنوعات النيكل المنقوشة على هذا النحو

﴿ صناعة الاحذية الجلدية والجلود ﴾ لم يكن اهتمام العارضين من الافراد والهيئات الحكومية بصناعة الاحذية الجلدية والجلود ليقل عن غيرها . وقد اصبحت بحق صناعة وطنية تسد حاجة السكان . لقد استوردت مصر سنة ١٩٢٨ ما لا يقل عن ٥٧٠ الف زوج من الأحذية الجلدية فهبط سنة ١٩٣١ الى ٢٢٤ الف زوج وفي سنة ١٩٣٣ الى ٥٩ الف زوج وفي سنة ١٩٣٦ الى ٥١ الف زوج وقيمة ذلك بالتوالي ٢٤٦ الف جنيه ثم ٩٥ الف جنيه ثم ٢٨ الف جنيه ثم ٢١ الف جنيه — ونشطت مع هذه الصناعة صناعة دهان الاحذية والجلود فقد كانت قيمة الوارد منها نحو ٤٠ الف جنيه سنة ١٩٢٨ هبطت الى ١٥ الف جنيه سنة ١٩٣٦

وقد نشطت أيضاً صناعة دبغ الجلود وما أدخل عليها من تحسينات فزادت قيمة المادة الخام التي تستورد للدباغة (خلاصة نباتية) من ٢٨ الف جنيه سنة ١٩٣١ الى ٤٨ الف جنيه سنة ١٩٣٨ كما قلت قيمة الوارد من الجلود الخام بنحو ٥٠ ٪ وغيرها — وأصبح يستعمل بعضها في صناعة الاحذية الجلدية في البلاد وما يزيد على ذلك يصدر الى الخارج وقد صدرت مصر سنة ١٩٣٣ بما يساوي ١٥٠ الف جنيه جلود غير مدبوغة وبمبلغ ١١٨

الف جنيه جلود مدبوغة . وفي سنة ١٩٣٧ زادت قيمة الصادر على الاول كثيراً وعلى الثاني قليلاً . وهكذا نشطت صناعة الجلود في مصر من احذية جلدية وحقائب وسروج وغير ذلك مع تقدم فن الزخرفة مما يجعلها مضاهية لأحسن الاصناف المستوردة

﴿ صناعة الصابون والزيوت والشحوم ﴾ كان لمعروضات الصابون والمواد الزيتية ومشتقاتها التي نسقت للزائرين أثر كبير في الصناعة وتقدمها وما لاقته بعد من رواج . لقد كانت تستورد البلاد في سنة ١٩٢٥ نحو ١٠٤٠٠ طن من الصابون العادي ثمنها نحو ٥٢٤ الف جنيه فهبطت الى ٦٣٠٠ طن سنة ١٩٣١ و ٤٦٠٠ طن سنة ١٩٣٢ وبفضل تقدم الصناعة وانتشارها قلت كمية المستورد وأصبحت ٢٨٠٠ طن سنة ١٩٣٦ — وقد تقدمت الصناعة كما هو مشاهد الى درجة انتاج أحسن أنواع الصابون: صابون غسل الوجه وغيره — ومقابل ذلك تستورد البلاد كميات عظيمة من زيت الزيتون وزبدته وجوز الهند وزبدته بمقادير متزايدة لادخالها في صناعة الصابون علاوة على ما تستنفده من زيت بذرة القطن . ولا شك ان مصر كسبت مبالغ عظيمة بزيادة انتاج الصابون محلياً بدلاً من الكمية التي كانت تستوردها

ولا بد من الاشارة الى صناعة زيت بذرة القطن وما أفادته المعروضات والمشاهدات من ترغيب الطبقة العليا والمتوسطة في أنواع الزيت المكررة لاستعمالها في الغذاء وقد أثمرت هذه المحاولة وأصبحت تزاحم الزيوت المستوردة مثل زيت الزيتون وغيره — ولذلك يلاحظ تناقص في كمية زيت الزيتون المستوردة للتغذية . وزيادة في كميته المستوردة منه للصناعة ، فقد كان المستورد منهُ في سنة ١٩٣٦ للصناعة ٢٢٦٥ طن وللتغذية ٩٥٠ طن فقط بعد أن كان مقدار الوارد من الأخير ٢٢٧٠ طن في سنة ١٩٣٣ . وبجانب صناعة الزيت نشطت صناعات كثيرة منها السمن الصناعي والدهان وشموع الاضاءة وغيرها

وقد كانت قيمة الوارد من الشموع ٦٩٠٠ جنيه في سنة ١٩٣٢ فهبطت الى ٢٥٠٠ جنيه في سنة ١٩٣٦ كذلك دهان الأحذية والجلود من ٤٠٠ الف جنيه سنة ١٩٢٨ الى ١٥ الف جنيه سنة ١٩٣٦

﴿ صناعة السكر والارز ﴾ ولا شك ان صناعة السكر وموقفها ازاء الوارد والصادر قد تغير ، فقد كان المستورد من السكر المكرر حول ٥٠ الف طن والخام ١٠ آلاف طن وذلك بين سنوات ١٩٢٤ الى ١٩٢٨ وقد تحوّل الموقف إذ أصبحت مصر لا تستورد من

السكر المكرر أكثر من ٦٢٤ طن سنة ١٩٣٦ و ٣٧ الف طن من الخام في تلك السنة وتكرره في المصانع المصرية

كذلك كان يستورد أرز مقشور بكمية كبيرة، مثال ذلك ٦٦ الف طن سنة ١٩٣١ فهبطت الى ٤٦٠٠ طن سنة١٩٣٢ وما بعدها . بينما تستورد مصر كميات من الارز غير المقشور تزيد أو تقل تبعاً لرغبة الزراعة في تجديد التقاوي وسد الفائض ، فقد كانت قيمة المستورد ٦٥٣ الف جنيه سنة ١٩٢٥ فهبطت الى ٢١٦ الف جنيه سنة ١٩٣٢ والى ٣ آلاف جنيه سنة ١٩٣٣ . ومعنى ذلك ان مصر تسد حاجتها من ناتج الارز المزروع في بلادها . وزادت تبعاً لذلك أعمال مضارب الأرز وهي صناعة بلغت مراحل كبيرة من التقدم

﴿ مصنوعات الحرير والصوف ﴾ كان لمعروضات الحرير والصوف أهمية خاصة في المعارض . أولاً لأن البلاد ليست منتجة لخام الحرير بينما تستعمل الأنسجة الحريرية في نطاق واسع . بيد انصناعة الحرير ازدهرت فزادت كميات الخيوط الخام وغيرها المستوردة من ٩٢ الف جنيه سنة ١٩٣١ الى ١٤٠ الف جنيه سنة ١٩٣٣ الى ٢٦٢ الف جنيه سنة ١٩٣٧ وكذلك زادت قيمة الخام المستورد من خيوط الحرير الاصطناعي من ٥٦ الف جنيه في سنة ١٩٣١ زيادة تدريجية الى ٢٤٩ الف جنيه في سنة ١٩٢٧. على ان ما بيّن ازدهار صناعة الصباغة أيضاً ان الوارد من الخيوط المصبوغة لم يزد على ٤ آلاف جنيه سنة ١٩٣١ و٧ آلاف جنيه سنة ١٩٣٧. ويقابل ذلك هبوط وارد المصنوعات الحريرية الدقيقة مثال ذلك الدانتلّة والمطرزات وشرائط الحرير والعقادة والقطيفة حيث كان قيمة الوارد منها ٦١ الف جنيه سنة ١٩٣١ فصار نحو ٣٨٠٠ جنيه سنة ١٩٣٣ فقط

أما الملابس« الجاهزة» وأجزاؤها من الحرير ومثلها« الملابس الداخلية» فقد كان قيمة الوارد منها ٩٦ الف جنيه سنة ١٩٣١ فصارت ٣٤ الف جنيه سنة ١٩٣٣ و ٢٥ الف جنيه سنة ١٩٣٦ ومثلها الشيلان والكفيّات من الحرير الطبيعي فقد كانت قيمة الوارد منها سنة ١٩٢٨ — ٣٦ الف جنيه فصارت ٥٦٠٠ جنيه سنة ١٩٣١ ثم هبطت الى ٩٠٠ جنيه فقط سنة ١٩٣٣

ويدهشكم الاطلاع على الرقم الخاص« بالكرافتات» وهي تعمل من قطن أو حرير ، فقد كان قيمة الوارد منها سنة ١٩٢٨ نحو ٧٦ الف جنيه وفي سنة ١٩٣١ هبط الى ١٩ الف جنيه وبعد معرض ١٩٣٣ — هبط مرة أخرى الى ٦ آلاف جنيه . وفيما تقدم دلالة عظمى على اتساع وتقدم هذه الصناعة الدقيقة في البلاد وهي مثل لعدد كبير غيرها

﴿ الصوف ﴾ ومصر ليست من البلاد التي تنتج الصوف . انما يشتغل كثير من المصانع الصغيرة وربات المنازل في اعداد المنسوجات الصوفية . ولزم تبعاً لذلك ان يزيد مقدار المستورد من غزل الصوف وخيوطه لامداد من تقدم ذكرهم . اذا كانت صناعة الصوف تنتشر وتتقدم ايضاً . ويدل الاحصاء على ان قيمة المستورد من الغزل والخيوط الصوفية كانت ٢٥ الف جنيه سنة ١٩٣١ فصارت ٥٨ الف جنيه سنة ١٩٣٣ ثم صعدت الى ٩٦ الف جنيه سنة ١٩٣٦ . ومن بين هذه بند بارز وهو خيوط الصوف المعدة للبيع بالتجزئة للافراد . فقد كانت قيمة الوارد منهُ ٩ آلاف جنيه سنة ١٩٣١ فصعدت الى ٣٢ الف جنيه سنة ١٩٣٧

وهذا البيان يدل على تقدم صناعة الصوف كبيرها وصغيرها في البلاد بينما يقابل هذه الزيادة التي شوهدت في المستورد من المواد الخام انخفاض في المصنوعات الصوفية المستوردة مثل الملابس الجاهزة فقد كان قيمة المستورد منها سنة ١٩٢٨ — ١٠٥ آلاف جنيه — فهبطت الى ٥٢ الف جنيه سنة ١٩٣١ و ٤١ الف جنيه سنة ١٩٣٣ و ٣٧ الف جنيه سنة ١٩٣٦ . وقد هبطت ايضاً قيمة الوارد من السجاد المصنوع من الصوف

﴿ صناعة الطرابيش وأغطية الرأس ﴾ وهذه صناعة ناشئة بدأ بها بعض الأفراد اولاً ثم انهارت، ثم كان مشروع القرش الذي أنشأ مصنع الطرابيش بالعباسية ثم نما وازدهر وأصبح يموّن القطر المصري كله بالطرابيش — كانت قيمة ما استورد منها سنة (١٩٢٨) ٩٣ الف جنيه فهبطت سنة ١٩٣٣ الى ٧٩ الف جنيه ثم الى ٤ آلاف جنيه سنة ١٩٣٦ — وكذلك كان حال أغطية الرأس الأخرى التي كان قيمة الوارد منها سنة ١٩٣١ — ١٤٠ الف جنيه فتناقص الى ٦٢ الف جنيه سنة ١٩٣٦

﴿ الصناعة القطنية ﴾ يتطلب الكلام على الصناعة القطنية ومقدار ما أفادته من رسالة المعارض المجال الكبير مما قد تضيق عنه مثل هذه المحاضرة وذلك لتشعب الموضوع وتعدد أنواع الصناعة ولذلك نستعرض اولاً الصناعات الفرعية الصغيرة مثل القطن الطبي والجوارب والملابس الجاهزة و«البياضات» والمناديل وغير ذلك مما كان ممثلاً في المعارض الزراعية الصناعية العامة أحسن تمثيل

﴿ القطن الطبي ﴾ مَن من الذين زاروا المعارض العامة ولم تقفهُ معروضات القطن الطبي التي كان يعرضها بعض شركات مصر ولم يعتبر أنها جرأة غير موفقة في عمل قطن معقم يستعاض به عن مصنوعات البلدان الاجنبية . ولكن كانت النتيجة في جانب المتفائلين كما

يتضح من مقارنة قيمة الواردات من القطن المعقم . حيث كانت قيمتها سنة ١٩٢٨ تبلغ نحو ١٩ الف جنيه ثم هبطت الى ٢١٠٠ جنيه في السنة التي أقيم فيها معرض سنة ١٩٣١ وما لبثت ان صارت في السنة التالية ٨٠٧ جنيه وهكذا حتى أصبحت قيمتها ٢٥٠ جنيه فقط بعد معرض سنة ١٩٣٦

﴿ بعض المصنوعات القطنية الدقيقة ﴾ كانت تستورد مصر من الجوارب ما قيمتهُ ١٣٤ الف جنيه سنة ١٩٣٣ فهبط الى ٥٧ الف جنيه سنة ١٩٣٨ ومن الملابس القطنية الجاهزة بما قيمته ٢٤ الف جنيه سنة ١٩٣١ فهبط الى ١٦ الف جنيه سنة ١٩٣٦. كما هبطت قيمة الوارد من الملابس الداخلية الجاهزة من القطن من ٢٦ الف جنيه . الى ١٢ الف جنيه. اما « الفوط والبشاكير » فكان قيمة الوارد منها سنة (١٩٢٨) ٧٦ الف جنيه فهبطت الى ٨ آلاف جنيه سنة ١٩٣٨ ، والبياضات المزينة الجاهزة من ٧٩ الف جنيه سنة ١٩٣١ الى ٢١ الف جنيه سنة ١٩٣٨ . والبطانيات القطنية من ١٢ الف جنيه الى ٢٠٠٠ جنيه فقط والشيلان والـكفيات القطنية من ٥٧٠٠ جنيه الى ٨٠٠٠ جنيه والمناديل وأغطية الرقبة من ٢١ الف جنيه الى ١٧ الف جنيه

أما بالنسبة لخيوط القطن التي تهيأ على بكر أو بدونهُ وهي مرحلة وسطى في هذه الصناعة فقد كان قيمة الوارد منها (المهيأ على بكر) ١٢٠ الف جنيه سنة ١٩٣١ فهبط الى ٦٩ الف جنيه سنة ١٩٣٦

اما عن الاقمشة القطنية السمر الثقيلة فقد كانت تستورد مصر بما قيمته ٣١٢ الف جنيه سنة ١٩٣١ فهبط الى ٢٢١ الف جنيه سنة ١٩٣٦ . بينما كان النزول عظيماً في الاقمشة القطنية السمر المقصورة فقد كانت قيمة الوارد منها ٢٨٦ الف جنيه سنة ١٩٣١ فهبط الى ٣٣ الف جنيه سنة ١٩٣٣ كذلك هبطت قيمة الحشو اللباد والحبال بنسبة كبيرة . أما بالنسبه لجملة الأقمشة القطنية المستوردة في سنوات ١٩٢٥ ، ١٩٢٩ ، ١٩٣٣ ، فكانت قيمتها كما يأتي ٨،٤٠٠،٠٠٠ جنيه و ٦،٦٠٠،٠٠٠ جنيه و ٣،٥٠٠،٠٠٠ جنيه بالتوالي

ومما يدل على ان مصر تقدمت ايضاً في عمل غزل القطن علاوة على صناعة النسيج. ان المادة الخام هبط استيرادها ايضاً وهي المعروفة بغزل القطن مما يدل على كثرة انتاجه فى مصر داخليًا

﴿ صناعة الثقاب (الـكبريت) ﴾ يصح تطبيق المثل (أندر من الـكبريت) على الماضي حينما كانت قيمة الوارد من عيدان الكبريت او الثقاب ٢٤٥ الف جنيه عام ١٩٢٨ ولـكن الحال

تبدّل الآن اذ هبطت كمية المستورد الى ما يعادل ٨٠ الف جنيه سنة ١٩٣٣ و٢٥ الف جنيه سنة ١٩٣٦ . ومع ان صناعة ثقاب الكبريت سائرة في الازدياد الاّ أن المثل السابق ذكره لا يزال قائماً مع تعديله الى « أندر من الكبريت الجيد » ولعل صانعيه يوفقون الى اجادته أكثر مما هو عليه الآن

﴿ صناعة الجبن ومنتجات الالبان وبعض الأغذية ﴾ تميزت المعارض العامة بمعروضات الجبن والمحفوظات وأنواعها التي تفنن في ابرازها المعاهد الزراعية والمصانع الوطنية مما برهن على امكان عمل اكثر انواع الجبن في مصر على أحسن القواعد

كانت قيمة الوارد من الجبن في سنة ١٩٢٥ نحو ٣٥٠ الف جنيه فهبطت في سنة ١٩٣٢ الى ٢٠٧ آلاف جنيه ثم الى ١٩١ الف جنيه سنة ١٩٣٣ . وربما كان اكبر برهان على انتشار هذه الصناعة كفايتها للمستهلكين في الوقت الحالي

وهكذا الحال عن منتجات الألبان والفاكهة التي كان قيمة الوارد منها (أي الفاكهة) ٦١٤ الف جنيه سنة ١٩٣٠ فهبط الى ٤٥٥ الف جنيه سنة ١٩٣٣ وهبط مرة أخرى الى ٢٠٩ آلاف جنيه سنة ١٩٣٧ . ولا شك انهُ كان للمعروض من أصناف الفاكهة والرغبة في زرع الأحسن منها فعل كبير في قلة الوارد . ولا ننسى معروضات التعبئة لتصدير الفاكهة الى بلدان اوربة منذ حوالي ١٩٣٥

وعلى هذا النحو من تقدم صناعة التجفيف والحفظ نضرب مثلاً للفاصوليا واللوبيا الناشفة التي كان يستورد منهما ما قيمته ٤٨ الف جنيه سنة ١٩٣١ فهبطت الى ٦ آلاف جنيه سنة ١٩٣٣ و ٧٠٠ جنيه فقط سنة ١٩٣٧

وقد كان للمكرونة المصنوعة محليًّا مجال في المعرض بحيث بينت للناس جودة النوع وتعدده فبعد ان كان الوارد منها سنة ١٩٢٨ نحو ٧٠ الف جنيه اذ به يهبط الى ٧ آلاف جنيه سنة ١٩٣٣ — و ٢٤٠٠ جنيه سنة ١٩٣٦

وهناك مثل آخر على الصناعة الغذائية كالأسماك الطرية او المملحة ، فقد كانت تستورد مصر منها ما قيمتهُ ٣٢٧ الف جنيه سنة ١٩٢٥ فهبط الى ٢٣٣ الف جنيه سنة ١٩٢٨ واستمر هذا الهبوط حتى وصل الى ٨٥ الف جنيه سنة ١٩٣٣

كذلك الحال مع اللحوم المجففة او المملحة (مثل الباسطرمة) فقد كان الوارد منها سنة ١٩٢٧ يقدر بنحو ٧٦ الف جنيه فهبط الى الفين جنيه سنة ١٩٣٢ والف جنيه فقط سنة ١٩٣٣

﴿ صناعة الزجاج ﴾ تميزت المعارض منذ نشأتها بوجود صناعة للزجاج بدائية يقوم بعرضها أصحاب مصانع الزجاج او بالحري أفران الزجاج الكائنة بجهة باب النصر — وتقتصر على الانتفاع بالكسر من الزجاج في عمل الأساور والخواتم والأقراط وبعض دوارق وكؤوس الماء . ثم تدرجت في الحرب الماضية الى الانتفاع بزجاجات « الغازوزة » وغيرها في عمل أكواب للشرب اثناء الحرب الماضية . ولكن تميزت المعارض الاخيرة بمعروضات المصانع الكبرى التي تؤلف المادة الزجاجية نفسها من موادها الخام في صنع الأكواب والآنية وزجاجات «اللمبات» وغير ذلك من الضروريات . وانهُ وان لم نتمكن من بيان ناتج المصانع الحديثة بصفة احصائية الاَّ اننا نشعر بأنها سدت الفراغ ابان هذه الحرب وتكاد تفي مصنوعاتها بمتطلبات السكان . على انهُ اذا اقتصرنا على مقارنة الوارد من زجاجات « اللمبات » وحده لوجدنا ان قيمة الوارد منها سنة ١٩٣١ كانت ٤٣ الف جنيه فهبطت تدريجيًّا الى ثلاثة آلاف جنيه فقط

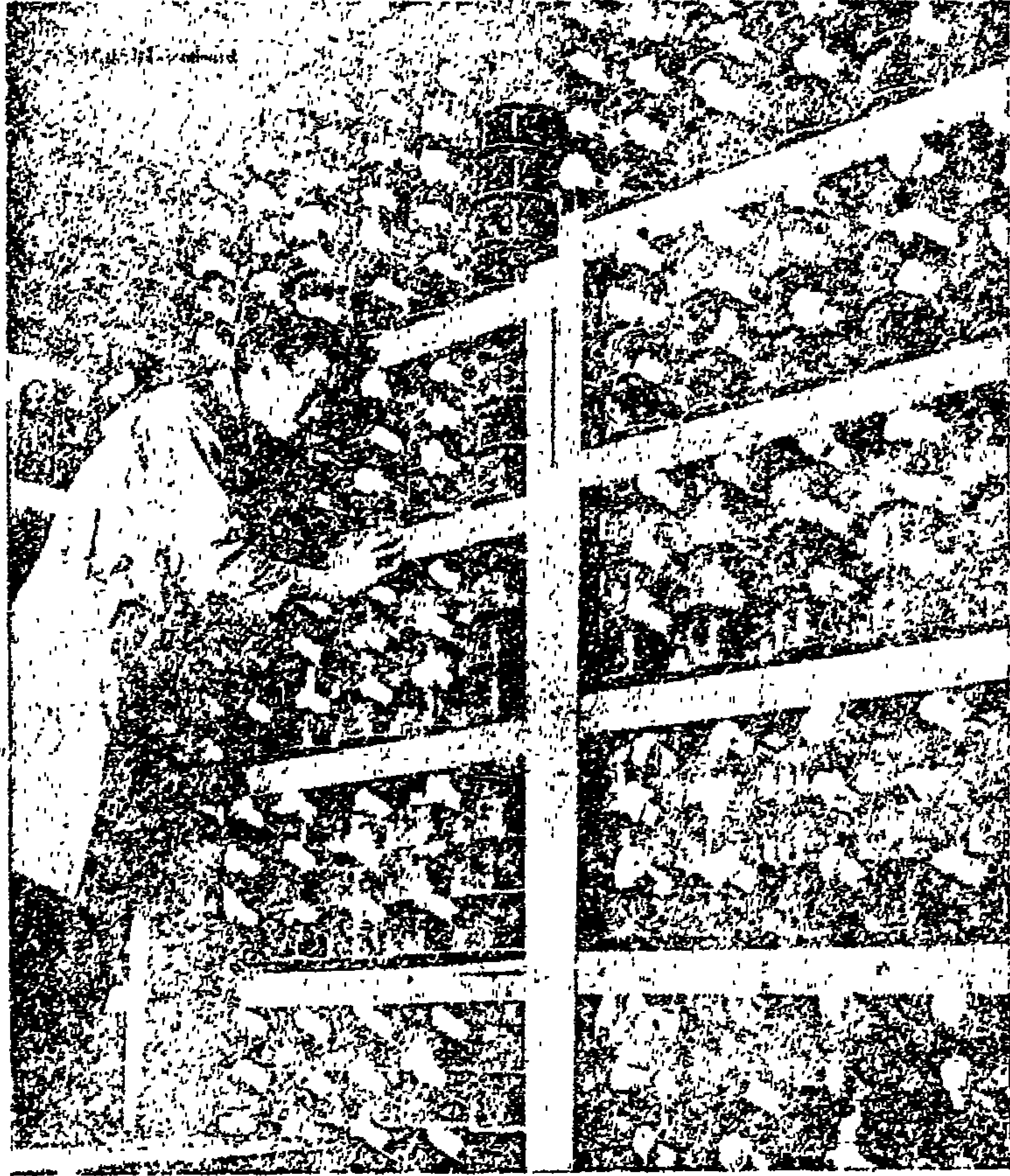
هذه هي — أيها السادة — بعض الأمثلة التي أوردناها دلالة على انتعاش الصناعات المحلية وتقدمها وخلق صناعات جديدة مما ساهمت المعارض في عملها إذ كانت كما قلت سابقاً رسالة بين المستهلك والصانع والهيئات المشتغلة بتقدم الصناعة . ولا ننسى الصناعات الهامة الاخرى التي انتعشت وأدت الى المستهلك أجل الخدمات والتي تعمل الحكومة والهيئات مجتمعة الى تقدمها مثل صناعة الاسمنت التي كادت تقضي على الوارد بأكمله . ثم الأدوات الكهربية وملحقاتها وأصناف الأدهنة الطبيعية وحاصلات البحر مثل الصدف والأزرار والأسفنج والحلوى ، والصناعات الزراعية باختلاف أنواعها

***

وفي المعارض القادمة ان شاء الله سنعني كل العناية بعرض كل ما يشحذ الهمم لاظهار صناعتين هامتين جدًّا أصبحت الحاجة اليهما من الأمور الملموسة — صناعة الكهربى من تدفق المياه من خزان أسوان واستغلالها في صناعة الاسمدة الكيميائية ، ثم صناعة الحديد من ملايين الأطنان الموجودة في منطقة أسوان

وتجدون في هذا المكان نفسه بيانات شائقة عنها في المعرض الجليل الفائدة الذي أقامته وزارة التجارة والصناعة حتى تتمكن أسوان السكينة من تبوء مركزها بين مديريات القطر في المكان الذي أعدتهُ الطبيعة لها في عالم الصناعة

وفقنا الله جميعاً لما فيهِ خير البلاد .



هنا زجاج يحوي محصول يوم واحد من البنيسيلين في أحد المصانع التي يحضر فيها . وفي كل زجاجة من هذه الزجاجات المصفوفة على رفوف جرعة من البنيسيلين . ولكن البنيسلين النقي لا يستخرج منها الا بعد انقضاء ثلاثة أسابيع على تهيئة هذه الزجاجات

ثورة في العلاج

للدكتور محمد رشاد الطوبي

المدرس بكلية العلوم

يرى الباحث في تاريخ العلوم المختلفة ان هذا التاريخ حافل بعدد كبير من الاكتشافات العلمية التي كان لها أثر واضح في تقدم الانسان ، وليس هناك من شك في أن كثيراً من هذه الاكتشافات كانت نتيجة أبحاث طويلة ودراسات متواصلة قام بها العلماء المختصون ، لذلك كان العالم مديناً لهؤلاء القوم الذين أفادوه بعلمهم وتجاربهم فأخذ يرتقي سلم المجد بخطوات ثابتة ، فكم من هؤلاء العلماء من وصل الليل بالنهار غير مدخر كل ما يملك من جهد أو مال لتحقيق فكرة أو لاستنباط شيء جديد يعود بالنفع على الانسانية كلها ، وقد تكون المصادفة وحدها هي المنبئة بظهور اكتشاف جديد كما حدث أحياناً ، ومع ذلك فالفضل كله لمن قام باستغلال تلك المصادفة السعيدة استغلالاً ناجحاً ، فقد تقع مثل هذه المصادفة لكثير من الناس ولكن عين الباحث المدقق هي التي تجلو الحقائق وتظهر للناس ما يحتوي عليه هذا الكون من العجائب والأسرار

ومن أروع الأمثلة على مثل هذه الاكتشافات قصة اكتشاف البنيسيلين ذلك الدواء العجيب الذي اكتشف حديثاً واهتزت لهُ الاوساط الطبية والعلمية في جميع البقاع ، ويعدُّه كبار المشتغلين بالابحاث الطبية من أهم الاكتشافات التي ظهرت في تاريخ الطب كله ، فهم يقولون عنهُ انهُ أقوى دواء عرف حتى الآن في علاج الأمراض الناتجة عن الميكروبات ، كما وصفه بعضهم بأنهُ حجر الفلاسفة في عالم الطب ، ولقد كانت عقاقير السلفميد تُعَدُّ اكتشافاً رائعاً وكانت لها شهرة فائقة في انقاذ حياة المرضى. ولكن سرعان ما تضاءلت هذه العقاقير بعد اكتشاف البنيسيلين، إذ أن هذا الدواء قد نجح نجاحاً باهراً في علاج كثير من الأمراض الفتاكة التي لا تؤثر فيها مركبات السلفميد على الاطلاق ، ويظهر أثره في القضاء على هذه الامراض بسرعة أثارت دهشةَ الأطباء كما إن النتائج التي حصلوا عليها من استعماله جعلتهم يؤمنون بأن هذا الاكتشاف هو فتح جديد في عالم الطب

ومكتشف البنيسيلين هو الدكتور فلمنج الذي يشغل وظيفة بكتريولوجي في مستشفى سان ماري بلندن ، وقد حدث في عام ١٩٢٩ أن ترك الدكتور فلمنج سهواً في معمله طبقاً زجاجيًّا معرضاً للهواء بهِ مزرعة من مزارع الميكروبات التي كان يجري عليها تجاربه في ذلك الحين ، وكانت هذه الميكروبات من جنس ستافيلوكوك أو الميكروبات العنقودية

ويحتوي هذا الجنس على أنواع تحدث البثور والدمامل والجمرات وبعض أمراض العظام المزمنة وتسمم الدم ، وقد حدث ان جرثومة من جراثيم العفن التي كان يحملها الهواء كما يحمل الملايين غيرها من جراثيم قد سقطت في الطبق الذي يحتوي على مزرعة الميكروبات السالفة الذكر ، والعفن عبارة عن نباتات دنيئة تعيش على كثير من المواد العضوية كالخبز والجبن والفواكه والخضروات وغيرها ، فاذا تركت قطعة من الخبز مثلاً معرضة للهواء زمناً كافياً في مكان رطب فانها تتعفن ، وينتج ذلك عن سقوط بعض جراثيم العفن التي يحملها الهواء على الخبز فتأخذ في النمو وتحدث عفن الخبز المعروف لكل انسان ، وهناك عدة أنواع مختلفة من العفن منها النوع المعروف علميًّا باسم بنيسيليوم نوتاتم وهو الذي تدور عليهِ هذه القصة ، وكانت الجرثومة التي سقطت في مزرعة الميكروبات من هذا النوع الأخير ، فأخذت هذه الجرثومة في النمو وسط الميكروبات العديدة التي تحيط بها من كل جانب حتى كوّنت حجماً واضحاً من العفن داخل المزرعة . ولما عاد الدكتور فلمنج لفحص مزرعته الصغيرة لاحظ وجود هذا العفن بداخلها ، ولعلهُ لم يكن راضياً في بادىء الأمر عن هذا الضيف الغريب الذي اندسّ وسط الميكروبات فسلبها نقاءها ، وهو أمر كثيراً ما يتذمر منهُ الباحث ، ولكنهُ عندما بدأ يدقق النظر في هذا العفن لاحظ شيئًا هامًّا كان هو الباعث له على اكتشاف البنيسيلين ، وذلك لانهُ وجد ان الميكروبات قد نمت بنجاح تام في جميع انحاء المزرعة وانتشرت بها انتشاراً واضحاً الاَّ في منطقة معينة تحيط بالعفن من جميع الجهات ، كانت هذه المنطقة خالية من الميكروبات على الاطلاق ، فكأن العفن قد حرَّم على الميكروبات اقتحام هذه المنطقة والاقتراب منها ، وقد استنتج فلمنج من ذلك ان هذا العفن ربما كان ينتج مادة تقتل الميكروبات او توقف نموها ، ولكي يتحقق من ذلك أخذ قليلاً من العفن ووضعهُ في أنبوبة اختبار تحتوي على سائل بهِ بعض المواد الغذائية فبدأ العفن ينمو بسرعة فوق سطح هذا السائل ، وبعد اربعة أيام ظهر في السائل لجأة لون أصفر برّاق ذلك هو لون المادة الكيميائية التي بدأ النبات في افرازها والتي أطلق عليها فلمنج اسم البنيسيلين نسبة الى نبات العفن الذي يعرف باسم البنيسيليوم . ثم القى فلمنج بعد ذلك العفن جانباً ووجه اهتمامه الى ذلك السائل الاصفر ، فأخذ منهُ قطرة واحدة

ووضعها على مزرعة جديدة من ميكروبات ستافيلوكوك فأوقفت نموها في الحال

ولقد ظهر تقرير فلمنج عن البنيسيلين عام ١٩٢٩ وفيه أكد ان قوة هذا الدواء الجديد في مقاومة الميكروبات لم تعهد من قبل في أي دواء آخر جرب استعماله ، فلو امكن فصل هذه المادة من السائل وتحضيرها نقية ، ثم التدرج من ذلك الى معرفة تركيبها الكيميائي والى ايجاد وسيلة لانتاجها صناعياً بواسطة التأليف الكيميائي لكان هذا الدواء الجديد هو أمضى سلاح عرف في عالم الطب لمحاربة الميكروبات ، ولم يكن فصل البنيسيلين من المواد الكيميائية الاخرى التي توجد معه في السائل من الامور الهينة ، ولذا فقد ظل استعماله فترة من الزمن قاصراً على تجاوب المعمل اذ كانت له فائدة كبيرة في فصل الميكروبات التي لا تتأثر بفعله عن الميكروبات الاخرى التي يؤثر فيها

واستمر الأمر على هذا المنوال حتى كان عام ١٩٣٩ حيث فكر بعض علماء اكسفورد في استكمال الابحاث الخاصة بالبنيسيلين ، فبدأ الدكتور ابراهام بالاشتراك مع الدكتور كايين في عمل مزارع البنيسيليوم ، وسرعان ما حصل هذان الباحثان على نتائج اولية تدعو الى الدهشة ، فبينما عقاقير السلفميد لا تقوى على مقاومة الميكروبات اذا كانت في جموع حاشدة فقد برهن البنيسيلين على انهُ قادر على مقاومة الميكروبات مهما كان عددها ، وكذلك لا تستطيع عقاقير السلفميد ان تقوم بعملها في الجروح الملوثة بالميكروبات اذا كانت هذه الجروح تحتوي على دم أو صديد أو بقايا أخرى ، أما البنيسيلين فلهُ تأثير عجيب في مثل هذه الظروف

وكان الدكتور كايين والدكتور چينجز اول من استخلصا من السائل الاصفر مقادير ضئيلة من مسحوق ومادي اللون ، ولقد كانا على علم بان هذا المسحوق ليس هو البنيسيلين النقي ، ومع ذلك فقد كان ذا أثر شديد في ميكروبات الدفتريا والالتهاب الرئوي والميكروبات العنقودية (ستافيلوكوك) والسبحية (ستربتوكوك) ، ولكن عرفت قوة تأثير هذا المسحوق في الميكروبات السابقة وهي في داخل انبوبة الاختبار ، فهل يكون له نفس الاثر اذا كانت تلك الميكروبات في جسم الانسان ؟ لا بد للاجابة عن هذا السؤال من اجراء التجارب التي تثبت ذلك ، ولما كان اجراء مثل هذه التجارب على الانسان أمراً غير ممكن ، فقد قام الباحثان باجراء التجربة الآتية على الفيران ، وذلك انهما أحضرا خمسين منها وحقنت كلها بكميات قاتلة من ميكروبات ستافيلوكوك وستربتوكوك معاً وقد قسمت بعد ذلك هذه الفيران المريضة الى مجموعتين متساويتين ، اما افراد المجموعة الاولى فقد تركت

وشأنها ، ولكن افراد المجموعة الثانية حقنت كلها في فترات منتظمة بالبنيسيلين داخل الاوردة ، وبعد يومين كاملين ماتت جميع افراد المجموعة الاولى وعددها خمسة وعشرون ، ولكن تغلبت أفراد المجموعة الثانيـة على المرض فلم يمت منها سوى فرد واحد بينما بقي الاربعة وعشرون فرداً الآخرون في حالة جيدة

وقد استمرَّت بعد ذلك الأبحاث الخاصة بالبنيسيلين واشترك فيها غير من تقدم ذكرهم كل من الدكاترة فلوري وفلتشر وجاردنر وهيتلي ، وكان أول ما عمل في هذا الميدان هو التحقق من ان البنيسيلين لا يضر بكريات الدم البيض كما جاء في تقرير فلمنج ، ولقد توصل هؤلاء الباحثون الواحد بعد الآخر الى النتيجة التالية ، وهي ان البنيسيلين يمنع بعض أنواع الميكروبات من أن تنمو وتتكاثر داخل جسم المريض ، وليس ذلك بالامر الهين بل هو انتصار عظيم في عالم الميكروبات ، والسبب في ذلك انهُ اذا لم تتكاثر الميكروبات داخل الجسم فان كريات الدم البيض تستطيع ان تتغلب عليها بسهولة ، فهي تنتقل الى حيث توجد هذه الميكروبات وتلتهمها وبذلك يسلم الانسان من شرها وينجو من الهلاك

وبعد انقضاء عام واحد على بدء هذه الأبحاث في اكسفورد وفق هؤلاء الباحثون الى تحضير مسحوق أصفر اللون هو البنيسيلين النقي ، وكان هذا التوفيق نتيجـة للجهود المتواصلة والعزم الصادق الذي لا يلين ، فقد أجريت في خلال هذا العام كثير من التجارب الشاقة وعولجت جميع الصعوبات التي اعترضت تلك الأبحاث بمختلف الطرق حتى أمكن التغلب عليها في نهاية الأمر ، وبذلك استطاع هؤلاء العلماء استخلاص البنيسيلين النقي من السائل الذي يعيش عليه نبات العفن

ولقد بين الدكتور ابراهام قوة تأثير البنيسيلين بالتجربة الآتية ، فقد عمل محلولاً مركزاً كل التركيز من السلفابيريدين والسلفاتيازول وهما من أحسن العقاقير الحديثة المستعملة في مقاومة الميكروبات ، ووضع قدراً من كل من هذين المحلولين في بعض المزارع الغاصة بالميكروبات الفتـاكة ، فلم يستطع أحدهما ان يقف نموها وقفاً تامًّا ، ولـكنهُ قام بتجربة البنيسيلين على مثل هذه المزارع فوجد انهُ لا يترك ميكروباً واحداً داخلها دون ان يقف نموه في الحال ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل ان البنيسيلين له نفس هذا التأثير اذا خفف محلوله المركز تخفيفاً هائلاً وذلك بوضع قطرة واحدة منه في خمسمائة الف قطرة من الماء ، وقد وجد بعض البـاحثين الآخرين ان البنيسيلين المخفف بنسبة واحد الى مليونين يقضي على ميـكروب السيلان ، والمخفف بنسبة واحد الى مليون يقضي على

ميكروب الالتهاب السحائي ، والمخفف بنسبة واحد الى ربع مليون يقضي على ميكروب الالتهاب الرئوي

وقد جرب البنيسيلين بعد تحضيره نقيًا في علاج بعض المرضى الذين كانوا بالمستشفيات عند ما أخفقت جميع الوسائل الأخرى في علاجهم فانتشلهم ذلك الدواء العجيب من الموت المحقق . ومن الأمثلة على ذلك ان كان هناك مريض بالالتهاب السحائي أخفقت في علاجه كافة العقاقير ومنها عقاقير السلفميد المشهورة ، وقد يئس الأطباء من علاج هذا المريض فقدم ليكون موضعاً للتجربة ، فأخرج الأطباء كمية من السائل الموجود في قناته الشوكية بواسطة حقنة ، ثم وضعوا مكان هذا السائل كمية من البنيسيلين ، كما أعطوا المريض حقنة أخرى من البنيسيلين في العضل ، وبعد عشرة أيام كان هذا المريض صحيحاً معافى ، وكان أثر البنيسيلين في المصابين بتقيحات العظام المزمنة مما يدعو الى الدهشة ، فقد ظل بعض هؤلاء المرضى يلازمون الفراش عدة شهور ومنهم من ظل مريضاً بضع سنوات ، ولكنهم استطاعوا ان يسيروا على اقدامهم بعد أسابيع قليلة من علاجهم بالبنيسيلين ، وقد استعمل البنيسيلين أيضاً بنجاح تام في حالات تسمم الدم والالتهاب الرئوي

وقد سافر بعد ذلك الدكتور فلوري والدكتور هيتلي الى الولايات المتحدة بالطائرة ومعهما كمية من نبات البنيسيليوم ، وكان الغرض من هذه الرحلة رجاء السلطات هناك اتخاذ التدابير اللازمة لتحضير كميات كبيرة من البنيسيلين لأن بريطانيا كانت في هذا الوقت تمر بساعات عصيبة وكانت الحرب الجوية على أشدها فلم تستطع أي شركة من الشركات الكيميائية البريطانية أن تأخذ على عاتقها حينئذ انتاج مقادير كبيرة من البنيسيلين ، ولا سيما ان ما ينتجه النبات من هذا الدواء ضئيل للغاية ، إذ يجب زرع مقادير هائلة من البنيسيليوم لاستخلاص ما يكفي من الدواء لعلاج مريض واحد ، فقد قدر ان الجرام الواحد من مسحوق البنيسيلين يستخرج من حوالي مائة جالون من السائل الذي ينمو عليه النبات ، وقد حدث في احدى الحالات التي كانت موضع التجربة أن نفدت كمية البنيسيلين أثناء العلاج ، وكان المريض قد ظهرت عليه كل علامات التحسن ، ولكنه مات قبل أن تحضر كمية أخرى من الدواء لاتمام العلاج

ثم تغيرت بعد ذلك ظروف الحرب واستطاعت بريطانيا أن تنشىء عدداً من المعامل الضخمة لانتاج البنيسيلين كما انها آخذة في الوقت الحاضر في انشاء عدد آخر من هذه المعامل على وجه السرعة ، وبقدر ما تسمح به مقدرتها الانشائية ، إذ أن المعمل الواحد من

هذه المعامل يحتاج الى مئات الآلاف من الزجاجات التي يزرع بداخلها نبات البنيسيليوم كما انه يحتاج الى كثير من المواد الكيميائية والأجهزة التي تستخدم في مختلف العمليات ، هذا عدا الكيميائيين والعمال الذين يقوم كل فريق منهم باحدى عمليات الانتاج ، ويستخدم في هذه المعامل عدد كبير من الفتيات يقمنَ بغسل الزجاجات وتعقيمها وعمل المزارع بداخلها واحضار السوائل التي يتغذى عليها النبات وجمع السوائل المحتوية على البنيسيلين وتركيزها الى غير ذلك من العمليات . وقد أنشئت في الولايات المتحدة كذلك عدة معامل لانتاج البنيسيلين بنفس الطريقة المتبعة في المعامل البريطانية

والسبب في سرعة انشاء هذه المعامل هو ان البنيسيلين قد جرب بنجاح منقطع النظير في معالجة الجرحى في ميادين القتال ، وذلك لأن الجروح التي يصاب بها الجنود تكون دائماً معرضة للاصابة بالغنغرينا الخطيرة ، وقد وجد ان البنيسيلين لا يضارعه دواء آخر في معالجة مثل هذه الجروح والعمل على التآمها ، وطريقة استعماله هو ان يذاب مسحوق البنيسيلين في الماء المعقم ويحقن داخل الأوردة او العضلات او يرش المسحوق كما هو على الجروح مباشرة ، وتستخدم اي واحدة من هذه الطرق الثلاث حسب نوع الاصابة ، وليست هناك فائدة كبيرة من أخذه عن طريق الفم لانهُ يتفكك في الحال بفعل العصارات الموجودة في المعدة ، وقد انقذ البنيسيلين عدداً كبيراً من الجنود الجرحى في مختلف الميادين من خطر بتر اعضائهم

اما طريقة تحضير البنيسيلين في المعامل الخاصة بانتاجه فتكون بزرع نبات البنيسيليوم في زجاجات خاصة أعدت لهذا الغرض ، ويوضع في كل واحدة منها كمية من السائل الذي يتغذى عليه النبات ، وهذا السائل عبارة عن محلول السكر بنسبة أربعة في المائة كما يوجد بهِ ايضاً كميات ضئيلة جدًّا من بعض الأملاح المعدنية ، وبعد ذلك يتم تعقيم الزجاجات والسائل الموجود بداخلها تعقيماً كاملاً بوضعها في افران خاصة تسمى اوتوكلاف ، ثم يوضع داخل كل زجاجة كمية من جراثيم العفن وتسد فوهتها بقطعة من القطن لتمنع وصول أي أنواع اخرى من الجراثيم او الميكروبات الى داخل الزجاجة ، وفي الوقت نفسه تسمح بدخول الهواء لكي يتمكن العفن اثناء نموه من التنفس ، ثم توضع هذه الزجاجات في غرف لها درجة حرارة خاصة ، فيبدأ العفن في النمو تدريجيًّا حتى يكوّن طبقة سميكة فوق سطح السائل بعد انقضاء اسبوعين تقريباً من بدء هذه العملية ، وهو يفرز في السائل اثناء هذا النمو مادة البنيسيلين فيؤخذ السائل وتستخرج منهُ هذه المادة بعمليات معقدة ، ولهذا السبب فان المقادير التي تستخرج من هذا الدواء محدودة جدًّا في الوقت الحاضر ، ويرسل الجزء الأكبر منها الى

القوات المحاربة ، ولا يترك لاستعمال المدنيين الاّ حوالي عشرة في المائة من الانتاج الكلي ، وهذا الجزء اليسير لا يسمح باستعماله الاّ بتصريح خاص ممن بيدهم الأمر ، وتصل يوميّا الى الدكتور فلمنج نفسه والى مجلس الابحاث الطبية ووزارة التموين البريطانية مئات من الرسائل التي يكتبها الاطباء وغيرهم في مختلف أنحاء انجلترة لطلب الحصول على كمية من البنيسيلين لمعالجة المرضى الذين يكونون في حالة الخطر ، ولكنه لا يعطى غالباً إلاّ في حالة الأمراض الفتاكة التي لم يجرب في معالجتها قبل ذلك لمعرفة قوة تأثيره عليها ، وليس هناك من أمل في الحصول على كميات كبيرة من هذا الدواء العجيب في الوقت الحاضر إلاّ بعد معرفة تركيبه الكيميائي ، ولا يزال هذا التركيب سرّاً من الأسرار ، وهناك عدد كبير من الأبحاث المختلفة التي يقوم بها الآن أكبر الكيميائيين في المصانع والجامعات البريطانية والأمريكية للوصول الى هذه الغاية ، وهم يتبادلون يوميّا المعلومات والنتائج التي يحصل عليها كل منهم بغية الوصول الى هذا الغرض النبيل ، وقد حصلوا فعلاً على بعض الظواهر التي قد توصلهم الى معرفة التركيب الكيميائي للبنيسيلين ، ومتى كللت هذه الجهود بالنجاح يكون من المستطاع تحضير كميات كبيرة منه بواسطة التأليف الكيميائي بدلاً من استخراجه من النبات الذي لا يكوّنه إلاّ بكميات محدودة ، ويظن بعض العلماء المشتغلين بهذه الابحاث انّ هذا اليوم ليس ببعيد

❊

ومما يجعل البنيسيلين مفضلاً كثيراً في علاج الامراض الميكروبية على أنواع السلفميد انهُ لا يحدث أي أثر سيء في الكليتين وفي القلب ، وانهُ لا يحدث أي تسمم عام كما يحدث استعمال السلفميد، ولا يشاهد في استعماله هذه الحساسية الخاصة التي ترى حين استعمال السلفميد الذي لا تتحمله بعض الاجسام ولو كانت المقادير المستعملة قليلة

وكان من الطبيعي بعد ان اكتشف البنيسيلين وعرفت مزاياه المتعددة ان يوجه العلماء اهتمامهم الى البحث في الانواع الأخرى من البنيسيليوم لعلهم يجدون من بينها ما ينتج أنواعاً أخرى من العقاقير ، وقد توصل بعضهم فعلاً الى اكتشاف مادة أخرى تسمى باتيولين يكوّنها نوع آخر من البنيسيليوم ، وقد اكتشفت هذه المادة منذ ثلاثة أشهر فقط (اوائل ديسمبر ١٩٤٣) ووصفت كعلاج للبرد ، ولا شك في ان الأبحاث المتعددة التي تسير الآن في هذا الاتجاه ستظهر لنا عقاقير جديدة لم يعرفها الطب من قبل.



استغلال الاراضى البور

بشمالي الدلتا في بضع سنوات

يوسف فارس*



استقرّ العرف في مصر على ان يجري اصلاح الأراضي البور وفق نظام الري الدائم وذلك بشق الترع والصارف على اختلاف درجاتها، وغسل التربة باستخدام زراعة الأرز ونحوه

ولا ريب ان هذا النظام سديد من الناحيتين الهندسية والزراعية . بيد انهُ من الوجهة العملية شديد البطء، لا يواتي طموحنا الى الاصلاح العاجل . فنظام الري الدائم يتابع في سيره مدى كفاية المياه المختزنة بأسوان وجبل الاولياء . وزيادة هذه المياه تتطلب تعلية الخزانات القائمة او بناء غيرها . وذلك يقتضي دراسات عميقة ونفقات طائلة يتعذر معها الاقدام على التنفيذ السريع ولا سيما في ظل المحنة العالمية الحاضرة

على ان السياسة المائية التي سادت في القطر المصري حقبة من الزمن، لا ينتظر ان يحدث فيها بعد الحرب انقلاب فيما يتعلق باصلاح الأراضي البور، فالمتوقع ان يجري الاصلاح كما كان من قبل بنسبة تترجح بين عشرين وثلاثين الفاً من الأفدنة في السنة

ولما كانت الاراضي البور بشمالي الدلتا تبلغ مساحتها نحو مليونين من الأفدنة، فلا بد من نحو قرن لكي يتم اعدادها للزراعة جميعاً . واذن تبقى مساحات كبيرة معطلة ترتقب نوبتها البعيدة في الاصلاح

ومما هو معلوم ان زيادة المساحة عامل كبير في زيادة الانتاج الزراعي، ومصر أحوج ما تكون الى ان تزيد في انتاجها لكي تعين الشعب على الخلاص مما يعانيه من بؤس وضنك

وحسبنا مثلاً نكبة الصعيد التي رفعت لنا الستار عن حقائق مروعة كنا نغضي عنها العيون . واذا استطاعت مصر أن تزيد في انتاجها الزراعي حتى يفيض عن حاجتها، تسنى لها أن تمد بالفائض عنها بلاداً أضرت بها الحرب وجعلتها في حاجة الى العون

---

* المتخرج في المدرسة العليا للزراعة من جامعة أنجيه بفرنسة ومن أعضاء اللجنة الاستشارية للشؤون الاقتصادية بوزارة المالية . وقد عرض هذا البحث على تلك اللجنة في جلستها المنعقدة أول مارس ١٩٤٤

بيان المشروع

ولا يتم لنا استغلال الأراضي البور في شمالي الدلتا في وقت قصير ، إلاَّ اذا أقلعنا في اصلاحها عن نظام الزراعة المضعَّفة Culture intensive [1] الذي يستدعي الري الدائم ، ولجأنا الى نظام الزراعة الموسَّعة Culture extensive [2] الذي يساعدنا على تنفيذها اتباعُ طريقة الري الحوضي . على أن نكتفي بمحصول واحد في السنة، وهو في بلدنا المحصول الشتوي ، سواء كان من الفصيلة النجيلية أو البقلية

ويتطلب هذا النظام تقسيم الأراضي أحواضاً تحدها الترع والمصارف الرئيسية التي تحفر لذلك الغرض ، حتى تغمر الأحواض وقت الفيضان بمياه النيل، على غرار ما كان متبعاً في مصر قبل اتساع الري الصيفي ، وما هو متبع حتى اليوم في جنوبيّ الصعيد . ويجب أن يراعى في حفر تلك الترع والمصارف الرئيسية أن تكون صالحة للري الدائم حين تتحول اليه الاراضي في المستقبل بالتدريج المساير لتوافر المياه الصيفية وكفاية الدولة المالية وما اليهما من العوامل

ومتى يتمّ حفر الترع والمصارف بجسورها، وانشاء الطرق اللازمة لهـا ، يشرع في غسل التربة أكثر من مرة على حسب مقدار الملوحة في الارض — بما يندفق من المياه إبّان الفيضان على الطريقة الآلية المعروفة بـ« تضريب التربة» بالمياه . وطريقة « التضريب » أكثر عوناً على سرعة إذابة الأملاح القابلة للذوبان ، فاذا تشبعت المياه بالاملاح المذابة سريعاً صرفت مباشرة صرفاً سطحيًّا سريعاً أيضاً وتخلصت منها التربة كل التخلص . ولا مرية انهذه الطريقة أفضل وأسرع من طريقتنا المألوفة ، لاننا في الأغلب نترك المياه تترشح في باطن الارض . فيظل أثر الأملاح في الارض باقياً

---

(١) هي زراعة تدريجية تكون بواسطة رؤوس أموال كبيرة وترمي الى غلات عظيمة جداً تستخرج من مساحات محدودة بعض الشيء . وفي هـذه الحال لا احجام عن تحسين التربة وتعزيز السباخ البلدي بأسمدة كيميائية اضافية وتغذية الحيوان بسخاء وشراء آلات محكمة وتقاوي مختارة وحيوانات نتاجها ممتاز . واذ ان العملية الزراعية في الواقع عملية صناعية حقاً يجب أن تصفى بربح كاف . على ان هذا الربح قابل للزيادة في مقادير كبيرة، اذا أجرى المزارع عمله، وهو به خبير في فطنة وحسن تصرف

(٢) هي الزراعة التي تطبق على الاطيان الفسيحة بموارد قليلة ، ولا يكون تطبيقهـا إلا في بلاد حديثة العمران وفقيرة، تكون أراضيها قليلة الخصب، أو في مناطق لا تكثر فيها أسباب الاصدار . غير ان هـذه الزراعة لا تُعنى بتحسين التربة . ومن المعقول ان تزرع مساحات كبيرة من غير حصول على غلات وافرة ، وذلك في البلاد الحديثة العمران مثل اميركا وافريقية واستراليا ، حيث ثمن الارض الخصبة لا تسوى شيئاً أو لا تكاد تسوى . هذا واذ ان طريقة الزراعة مرتبطة بنظام الاقتصاد في منطقة من المناطق يتحتم استغلال الارض شيئاً فشيئاً فتصير مناطق الزراعة الموسعة بلاد زراعة مضعفة ، وذلك من جراء النضال الاقتصادي

فأما الآلات المهيأة لتضريب التربة بالمياه فليس هذا مقام الافاضة في وصفها . وقد تعوق الاحوال الحاضرة سبيل الحصول عليها في يسر . ومن الممكن أن يستعاض الآن عن عملية التضريب بهذه الآلات بعملية اخرى تقرب منها وهي حرث الارض بالمحاريث والامشاط في أثناء غمرها بالماء مرات . على أن تكون كل حرثة في اتجاه متعامد مع سابقتها

وبعد التضريب على هذا النحو تُغمر الأرض بمياه الفيضان المشبعة بالغرين «الطمي» فترة محدودة . ثم تصرف المياه الى المصارف صرفاً بطيئاً ابقاءً على الغرين الراسب على سطح الأرض وحينئذٍ تنثر بذور احد المزروعات النجيلية كالشعير والقمح أو البقلية كالفول والبرسيم ، كما هو حادث في حياض الوجه القبلي . ولا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان الشعير او غيره سيغل في مناطق شمالي الدلتا التي تنهمر فيها الأمطار انتاجاً اوفر مما يغلهُ الصعيد الذي يشتد جفاف جوه وحرارته

ومن الطبيعي أن نتبع في زراعة تلك الاراضي دورة ثنائية : سنة نجيلية ، وسنة بقلية . وستؤتي النجيلية كالقمح والشعير انتاجاً مرضياً سواء اسمدت الاراضي بالنترات ام بذرت بعد استجمام وتشميس لاحق لزراعة بقلية . واما البقلية وأهمها الفول فاذا سمدت بـ« سوبر فُسفاة » وعولجت بالبكتيريا الخاصة بها ، فقد تعيد لأراضي الدلتا الطينية عهدها الذي اشتهرت بهِ منذ الفراعنة في جودة الأنتاج الزراعي

تنفيذ المشروع

والآن وقد اوضحنا ان في الامكان سهولة استغلال الاراضي البور اذا اتبعنا فيها نظام الزراعة الموسعة ، نضيف الى ذلك ان الأيدي العاملة في مصر كثيرة ، والمياه موفورة ، والتربة ليست على الانتاج بمستعصية . الاَّ انه لا بد لتنفيذ المشروع من همم عالية ، وعزائم ماضية . وقد علمنا وشهدنا كيف تقوم فرق هندسية في الجيوش المحاربة باقامة الجسور وتمهيد الطرق ومد السكك الحديدية وحفر الخنادق في أقصر وقت مستطاع . فلمَ لا نعمد الى المناطق الخاصة بالسكان من الفلاحين الشبان . فنجرد منهم فيلقاً نستعين بهِ على تعمير هذه الاراضي البور وتثميرها ، ولمَ لا نندب الجيش المرابط لهذه المهمة فلا نضطر الى تسريحه بزوال اسباب وجوده

وانهُ لجميل ان نشاهد اولئك الشبان ، وهم في زيهم العسكري ، وخيامهم المضروبة ، يتمرنون على فلاحة الارض واستعمال السلاح معاً . فيحفرون الترع والمصارف باشراف المهندسين

ثم يزرعون ويحصدون باشراف خريجي «المدارس الزراعية» ولا تقتضي اقامتهم بناء منازل قد تثقل نفقتها كاهل المشروع . اذ كفتنا خيامهم وحياتهم الرياضية العسكرية مؤونة التشييد والبناء . فان نفذ المشروع بهذه الوسيلة كان لهؤلاء الشبان ان يفاخروا بأنهم احيوا اراضي شمالي الدلتا واعادوا اليها مجدها التليد ، اذ كانت مستودع الغلال للشرق

ولو جرينا في الترع والمصارف الرئيسية المطلوبة على نظام بعض المصالح الحكومية من حيث التخطيط والقطاعات ، فان ما يخص الفدان الواحد من مكعبات الحفر لن يزيد بأية حال على ٥٠ متراً مكعباً (ريّا وصرفاً) . فالعامل مهما ضؤل مجهوده لا يقصر عن انشاء ما تتطلبهُ مساحة خمسة افدنة في السنة وخدمتها في الزراعة

ومن هذا يتوضح لنا ان جيشاً من العمال لا يربو على مائتي الف رجل يضطلع بتنفيذ هذا المشروع ويقوم بزراعة مليون من الافدنة في سنة واحدة . فان جاوزها لم يعدُ السنتين. وتعبئة مائتي الف أمرٌ هين بالاضافة الى ما يجند في الجيوش الجرارة من الملايين

ورب قائل إن المشروع لا يسلم من بعض الاعتراضات، شأنَ كل جديد. ونحن لا نريد ان نتوهم ما يعترض بهِ على المشروع ونجادل فيه . فنحن نؤمن بان لكل مشروع ما له وما عليه

ولكن تلك الاعتراضات مهما تكن فلا ينبغي ان تقف حجر عثرة في سبيل تنفيذ المشروع ، كما لم تقف عيوب الري الدائم حجر عثرة في سبيل تنفيذه الى اليوم . وحسبنا ما أبانهُ المهندس ولككس في كتابهِ عن الري المصري ، ولا بأس بأن نقوم بتجربة في مساحات من هذه الاراضي البور نتبين بها مقدار أثر المشروع ومدى نجاحه

فوائد المشروع

نجمل فوائد ذلك المشروع فيما يلي :

أولاً : من الوجهة الفنية

١ — ان تنفيذ هذا المشروع لا يحتاج الى :

ا — تعلية الخزانات او انشاء غيرها

ب — معظم أعمال الري الصناعية بسبب قلة المجاري واختلاف طرق توزيع المياه

ج — الآلات الخاصة بحفر الترع والمصارف ، وذلك لوفرة الايدي العاملة

د — الماشية في الاعمال الزراعية التي تلزم للاصلاح ، فمن الممكن جلب الآلات الآن اذ أصبحت المواصلات البحرية قصيرة ومأمونة

٢ — ان هذه الأراضي بما تأخذ من مياه قمة الفيضان تصبح صمام الأمن لمصر الشمالية فلا يهددها الغرق وبذلك تساعد حياض مصر العليا على اتمام هذه المهمة . ونرى ان هذا الزمام الشاسع قد يفضل حياض الوجه القبلي لوجود الصمام في قلب الخطر نفسه

ثانياً : من الوجهة الاقتصادية

يغري بتنفيذ المشروع الآن ارتفاع اسعار المنتجات الزراعية في اوقاتنا الراهنة ، فيسهل استرداد ما أنفق في سبيل اصلاح تلك الأراضي في زمن قريب . ولو أنطقنا لغة الارقام لأدركنا انهُ حينما يتم اصلاح مليون فدان في سنتين على أساس استغلال المراوحة بين زراعة الحبوب والبقول ، ينتج لنا نحو من مليون طن من محصوليهما في السنة ، وثمنه زهاء ٢٥ مليون جنيه. وقد لا يتكلف المشروع هذا المبلغ ، فكأن انتاج سنة واحدة كفيل بسد نفقاته كلها . كما انهُ يكفي لتغذية ما يقرب من خمسة ملايين نسمة مدة سنة كاملة . وبديهي ان صافي الربح لـ ٢٥ مليون جنيه يصبح بعد السنة الاولى زيادة مطردة في ايرادات ميزانية الدولة

ثالثاً : من الوجهة الاجتماعية

اذا عبأنا جيشاً من الشبان ليقوم بتنفيذ المشروع أتحنا لهم فرصة التمرس بالعمل مع رعاية النظام والقواعد الصحية، فيرتدُّون رجالاً أقوياء عاملين ، ينهضون بالعظائم . وحين تنتهي فترة التجنيد قد لا يفارق الجنود أو أكثرهم هذه المناطق التي ألفوها ونعموا بها ، فلا يلبثون أن يستوطنوها ويعمروها

وسيفتح هذا المشروع الباب على مصراعيه لآلاف العمال الذين يعملون الآن في جيوش الحلفاء ، بعد أن تقل الحاجة اليهم ، وبخاصة حين تضع الحرب أوزارها

كذلك يشق المشروع أفقاً واسعاً لخريجي المدارس الهندسية والزراعية فيلقون في تلك الرحاب الفسيحة ما يقوي مرانتهم ويشحذ مهارتهم ، فيستفيدون ويفيدون

وقصارى القول ان مصر تثب الى الأمام وثبة بعيدة اذا نهضت بتنفيذ هذا المشروع غير متوانية ولا مسوّفة ، فانها بذلك تسد حاجتها الحاضرة والمستقبلة الى كل ما له علاقة بالحاصلات الزراعية والحيوانية . ومن واجب مصر ان تسارع الى تحقيق ذلك رفعاً لمستوى الحياة الاجتماعية بين طبقات الشعب ، وتمهيداً لأبناء الوطن ، في الغد القريب او البعيد ، ان ينعموا بحياة مطمئنة وعيش رغد (١)

---

(١) مما يؤيد وجهة نظر هذا المشروع انه بعد تقديمه الى اللجنة جاء في صحيفة الاهرام ما يفيد ان انجلترة عمدت الى اصلاح صحراء بريطانية باتباع نظام الري الحوضي المصري، فاستغلت أربعة ملايين من الفدادين، أي نصف ما ننشد نحن استغلاله

اوائل المشترعين

في الاسلام

لمحمد عبد الغني حسن

كان الصحابة بعد عصر الرسول يقضون بالأحكام الفقهية تبعاً لاحكام القرآن وأقوال النبي وأفعاله ، فلم تكن هناك حركة فقهية بالمعنى العلمي المعروف : ولكنهم كانوا يقضون بالاجتهاد والرأي واتّباع الرسول تبعاً لأحوال البلاد المفتوحة بشرط ألا يتعارض قضاؤهم مع الكتاب والسنة الصحيحة ، وان يبنى على أساس القواعد العامة فيهما

ولم يكن الصحابة على حال واحدة من الفقه والقضاء بعد وفاة النبي عليه السلام ، بل اختلفت أحوالهم تبعاً لاختلاف علمهم وشجاعتهم الأدبية وطول ملازمتهم للرسول . ولكننا لا نجد بينهم أمضى في الفقه من عمر بن الخطاب . فكان يمضي فيه على اجتهاد ورأي ومعرفة . ولقد تمت على يديه بعض مبادىء في الفقه كالتشدد في الرجم ، والحد في الخمر وصلاة التراويح جماعة ، والنهي عن التمتع في أشهر الحج . وهي مبادىء تدل على اتساع نظر هذا الخليفة الفقيه ، وعلى جرأته . كما حدث في عقوبة الرجم في الزنى ، فقد تشدد في تنفيذها وأوصى بها . واستدل بما سمعهُ هو وغيره من الصحابة من رسول الله وبما رأوه من عمله : فقال عمر : — (لقد خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل لا نجد الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله . ألا وأن الرجم حق على من زنى وقد أحصن اذا قامت البينة أو كان الحمل أو الاعتراف، ألا وقد رجم رسول الله ورجمنا بعده) [1] . ولم يخالف في الرجم إلاّ بعض الخوارج وبعض المعتزلة ، ثم استقرّ اجماع المسلمين على وجوب الرجم

أما حد الخمر فهو عند عمر ثمانون جلدة ، وقد كان العمل قبلهُ يجري على خلاف ذلك . فقد كان الشارب في عهد النبي وأبي بكر وأول عهد عمر يضرب بالأيدي والنعال والأردية [2]

---

(١) رواه البخاري وغيره (فتح الباري ١٢ : ١٢٦ — ١٢٧)
(٢) صحيح البخاري — كتاب الحدود

فجعل عمر حده أربعين جلدة ثم زاده الى ثمانين . ويُعدُّ عمل عمر في هذا من باب التعزير ، وقد ألجأه اليه شدة الحاجة اليه لانهماك الناس في الشراب

أما جمع الناس على التراويح في رمضان . فقد ورد (عن عائشة أن النبي صلى في المسجد فصلى بصلاته ناس ، ثم صلى الثانية فكثر الناس ، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة فلم يخرج اليهم رسول الله ، فلما أصبح قال : رأيتُ الذي صنعتم فلم يمنعني من الخروج اليكم إلاَّ أني خشيت أن تفترض عليكم ، وذلك في رمضان) (١)

فلما جاء عمر خرج فرأى الناس اوزاعاً يصلون في المسجد فجمعهم على صلاة التراويح

ولعلَّ شخصية عمر القوية وقوة عزيمته كانتا أفعل الأسباب في أخذ الناس بما لم يألفوه في عهد الرسول والصديق . فلو كان غير عمر ما استطاع أن يستحدث في الاسلام ما لم يحدث في عهد سلفيه . إلاَّ انهُ جمع الى صفة الامام الحاكم صفة الفقيه المشترع . وكانت هذه الصفة أكبر عون لهُ على مواجهة الناس بما لم يعهدوه في عهد الرسول

ولقد عدَّ بعض الناس عمله هذا بدعة جديدة في الاسلام ! ولكنه هو نفسهُ ردَّ عليهم في ذلك ردًّا حاسماً . فانهُ لما رأى الناس في المسجد مجتمعين حول أبيّ بن كعب يصلي بهم التراويح قال : « نعمت البدعة هذه ! » . والبدعة هنا هي الجماعة في التراويح ، فقد امتنع النبي عليه السلام عنها خشية أن يشق على أمته بافتراضها عليهم . والبدعة هنا كذلك هي زيادتها الى عشرين ركعة . وقد كان النبي لا يزيد في النفل على احدى عشرة ركعة (٢)

ولم يكن عمر رضي الله عنه يحكم في الأمور استبداداً برأيه ، بل كان يشاور الصحابة ويناظرهم حتى ينكشف وجه الحق . ولهذا وجدت فتاويه من المسلمين صدراً رحباً وقبولاً كثيراً ، فلم يتحرجوا بها ولم يضيقوا . على خلاف عليّ كرم الله وجهه الذي كان يتابعه أهل الكوفة . وكان عند عمر من المرونة الفقهية ما يجعله فقيهاً بطبعه

وكان للرأي والاجتهاد عنده اعتبار كبير ويشبهه في ذلك عبد الله بن مسعود الذي كان يسلك طريقته ويتعصب لمذهبه حتى قال : — (لو سلك الناس وادياً وشعبا ، وسلك عمر وادياً وشعبا . لسلكت وادي عمر وشعبه) . وبلغ من ثقة عمر فيه أن أرسله الى الكوفة ليعلّم أهلها ويفقههم ، وقال لهم : لقد آثرتكم — بعد الله — على نفسي :

ولم تكن حياة ابن مسعود في الكوفة اخلاداً الى السكون وركوناً الى الدعة . بل كثيراً ما ملأها بعلمه ومناظراته وفتاويه

(٣) رواه البخاري ومسلم وغيرهما . نيل الاوطار ٣ : ٦١
(٤) نيل الاوطار للشوكاني طبع منير الدمشقي ج ٣ ص ٦٤

وهناك فقيه رابع من فقهاء الصحابة وأعلمهم وأجدرهم بالتصدر للفتيا والقضاء . هو زيد بن ثابت . وتأتي منزلته في الفقه من طول ملازمته للنبي عليهِ السلام وكتابته الوحي . وقد امتاز بالأمانة في النقل والتعمق في الفقه ، ولهذا وثق بهِ عمر واستخلفهُ في كل سفر . ولقد فرّق عمر الناس في البلدان واستبقى في مدينة الرسول زيداً ، فهو أثير عنده قريب منه . يرجع اليهِ في الغامض ، ويستشيره في الأمر العارض . ويقدّمه على كبار الصحابة ولا يقدّم واحداً منهم عليهِ . وكذلك كان مع الخليفة عثمان وقد شهد له سعيد بن المسيب أزكى شهادة (١)

*

أما عبدالله بن عباس فقد كانت له في الفقه قدم راسخة . شهد له الكثير بالعلم والفقه والتضلع من العربية والتمكن من الشعر والفهم لكتاب الله والتثبت من الحساب والفرائض(٢). وكان عمر يعظمه ويجله لا لقرابته من رسول الله عليه السلام ، ولكن لعلمه وفضله

وهو أحد الستة الذين هم أكثر رواية عن النبي ، وهم أبو هريرة وابن عمر وجابر وابن عباس وأنس وعائشة . واذا اختصَّ أنس وأبو هريرة بالرواية فقد جمع ابن عباس اليها الفقه والعلم . فهو من أوائل فقهاء الاسلام . وكان لغزارة علمه يقيم في مكة فتشدُّ اليه الرحال ويقصده الطلاب من جميع الاقطار

وكان هو وابن مسعود وزيد بن ثابت الثلاثة الذين يقوم الصحابة بقولهم في الفقه ويعتدّون بكلامهم

وقد شهد له العلماء جميعاً بغزارة العلم والتبحر فيه . وممن ذكره منهم علي بن المديني ، وسفيان بن عيينة ، وعبدالله بن طاهر والأزرقي صاحب كتاب مكة . وله غير ذلك أخبار طوال في كتب التاريخ والطبقات

واذا صحَّ أن النبي عليهِ السلام توفى وعمر ابن عباس ثلاث عشرة سنة في رأي ، أو خمس عشرة سنة في قول ابن حنبل — اذا صحَّ ذلك كان عجيباً أن يعد ابن عباس من اكثر الصحابة روايةً للحديث . وموضع العجب أن تسمح لهُ حداثة سنه بحفظ قدر من الأحاديث يضعهُ في مصاف الستة الكبار من رواة الحديث . ولكن العلم لا تمنع منهُ حداثة ، والفضل لا تقف دونهُ طراءة السن . وقديماً قال الشاعر : —

(١) الجزء الخامس ، تهذيب تاريخ ابن عساكر
(٢) تهذيب الاسماء واللغات للنووي الجزء الاول مادة عبد الله

فما الحداثة من حلم بمانعة قد يظهر الحلم في الشبان والشيب

*

وهناك عبد الله بن عمر ، ولكنهُ يختلف عن ابن عباس . فابن عباس كثير الرواية كثير الفتوى ، وابن عمر قليل الكلام قليل الفتوى . ولكن اقلاله من القول والفتوى لم يمنع من قيمته الفقهية . فهو يقيم بالمدينة ويفد عليهِ الوفود من الناس بغية الاغتراف من علمه

*

وتشاء الاقدار السعيدة أن يكون للمرأة المسلمة حظ المشاركة في الحركة الفقهية القائمة في مكة والمدينة وغيرهما بعد وفاة الرسول . فليس الفقه خاصًّا بالرجال ولا وقفاً عليهم وخاصة اذا كانت المسائل الفقهية تتعلق بأحوال المرأة وما يعرض لها وما يكون في بيتها. فنرى السيدة عائشة تشترك مع الرجال في رواية الحديث . ونراها من الستة الأكثر رواية لحديث رسول الله عليهِ السلام ، ونرى خلقاً كثيراً من الصحابة والتابعين يروون عنها . وبقيت في المدينة يفد اليها السائلون من صحابة الرسول فتجيبهم ، وخاصة في الفرائض . ولم يصح انها دخلت الشام (١)

*

هؤلاء السبعة هم أكثر الصحابة اشتغالاً بالفقه بعد وفاة الرسول . وكان عمر أعجبهم في هذا . فلم تشغله الخلافة عن الفقه . وهو في أحكامه رحب الصدر لا يضيق بالنقد كما يفعل ضيّقو العطن : وقد يخطيء في المسألة فيعترف بالخطأ ويقول : أصابت امرأة وأخطأ عمر ! . ويكتب كتاباً في مسألة « الكلالة » في الميراث ثم تحضره الوفاة ، فيمحو الكتاب ويقول لأصحابه : — (ترون في الكلالة رأيكم) ...

وكان من الطبيعي ان يحدث اختلاف بين فقهاء الصحابة في بعض المسائل ، وهو خلاف لا يرجع الى صلب الدين الأسلامي نفسه ، فذلك ما لا يقول به منصف ، ولكن مرده كان الى فهم الفقهاء ، والى اختلاف البيئات ، والى تفرق الصحابة في الامصار فكان كل منهم يفتي بما رآه عن النبي أو سمعه (٢) ، والى تأخر تدوين الحديث

ولكن هذا الخلاف كان فيه بعض الخير ، ان لم يكن فيه الكثير منه . فقد كان تمهيداً لمدارس الرأي التي ظهرت بعد ذلك ، والتي كان الجدال بينها مشهداً من مشاهد الحركة الفكرية في الاسلام

---

(١) تهذيب الاسماء واللغات ج ١ مادة عائشة (٢) الاحكام في أصول الاحكام لابن حزم ج ٢ ص ١٢٥ ، ١٢٦

المآصر

في بلاد الروم والاسلام

— ٢ —

لميخائيل عواد

(ج) المآصر في كتب التاريخ

يُعدّ أسلم بن سهل الرزّاز الواسطيّ المعروف بـ « بحشل » (المتوفى سنة ٢٨٨ هـ) من أقدم المؤرخين الذين نوّهوا بأخبار بعض المآصر النهرية ، فقد حدثنا عن المأصر الذي بصريفين (١) واسط ، وهو المشهور في التاريخ باسم « المأصر الأسفل » وقد اتخذت فيه السلاسل بدل القلوس ، وكان الأمير المعروف بـ « مسروق » أشهر مَن أشرف على أعمال هذا المأصر . واليك جملة ما ذكره بحشل بشأنه . قال : « حدّثنا أسلم ، قال : حدثنا عمرو ابن صالح ، قال : حدثنا هشيم عن مجالد عن الشعبي ، قال : بعث زياد مسروقاً على السلسلة

حدّثنا أسلم ، قال : حدثنا عليّ بن الحسن ، قال : حدثنا حفص بن غياث عن الأعمش عن أبي وائل ، قال : أقمت مع مسروق بسلسلة واسط سنتين

حدّثنا أسلم ، قال : حدثنا وهب بن بقية ، قال : حدثنا حماد بن أسامة عن الأعمش عن أبي وائل . قال : كنت مع مسروق بسلسلة واسط ، فمرّت سفن فيها هدايا الى معاوية

حدثنا أسلم ، قال : حدثنا سعيد بن يحيى بن الأزهر ، قال : حدثنا حفص عن اسماعيل ابن أبي خالد عن أبي اسحاق ، قال : كان مسروق لا يفتش أحداً ، ويقول لمن مرّ به : ان كان لنا معك شيء فأعطيناه

حدثنا أسلم ، قال : حدثنا زكريا بن يحيى ، قال : حدثنا عباد بن عباد عن عاصم ، قال : قلتُ للشعبي : كيف أفلت مسروق من عمله على السلسلة ؟ قال : أما رأيت الثوب يُدفع الى القصّار فيغسله فيجيد غسله . هكذا أفلت مسروق من عمله

حدثنا أسلم ، قال : حدثنا الحسين بن منصور ، قال : حدثنا عاصم بن علي ، قال : حدثنا

(١) أنظرها في معجم البلدان (٣ : ٣٨٦ ، طبعة وستنفلد) .

شعبة عن ابن (لعلّه : أبي) اسحاق عن أبي وائل ، قال : كنت مع مسروق بالسلسلة ، فما رأيت أميراً قط كان أعفّ منه ما كان يصيب ماء دجلة

حدثنا أسلم ، قال : حدثنا اسحاق بن داود ، قال : حدثنا الحسين بن الربيع ، قال : حدثنا سفيان بن عيينة عن اسماعيل بن أبي خالد ، قال : بعث زياد مسروقاً على السلسلة ، فجاء بعشرين ألفاً . فقال : ما جئت به ؟ قال : جئتُ بعشرين ألفاً . قال : هي لك . فلم يقبلها

حدثنا أسلم ، قال : حدثنا زكريا بن يحيي ، قال : حدثنا شريك عن أبي اسحاق والأعمش أراه عن ابراهيم ، قال : أقام مسروق بالسلسلة سنتين

حدثنا أسلم ، قال : حدثنا تميم بن المنتصر ، قال : حدثنا يزيد بن هارون ، قال : حدثنا حميد الطويل عن عبد الله بن حنين وكان شريك مسروق على السلسلة

حدثنا أسلم ، قال : حدثنا محمد بن اسماعيل بن سالم ، قال : حدثنا يحيي بن أبي بكر ، قال : حدثنا شعبة ، قال : حدثني عبد الملك بن ميسرة ، قال : سمعت زياداً وكان داهية وكان عشاراً ، وكان العشارون يومئذٍ القراء مسروق وزياد بن حدير [1] » اه

وذكر ابو بكر محمد بن يحيي الصولي (المتوفى سنة ٣٣٥ ﻫ) ، في حوادث سنة ٣٣٣ ﻫ انهُ « عقدت الشرقية [2] وما فيها من الأعمال على احمد بن جعفر المعروف بابن الشرطيّ بثمانية آلاف سوى الاستثناءات فانها خمسة آلاف درهم . وضمنت دجلة والمأصر الأعلى بخمسمائة دينار ، وعقد القيار بألفي درهم ، فصار الجميع نيفاً وثلاثين ألف درهم في الشهر [3]

وعلى ذكر المأصر الأعلى ، حكى مسكويه (المتوفى سنة ٤٢١ ﻫ) في حوادث سنة ٣٦٠ ﻫ ، عند كلامه على ارتفاع ابن بقية ، قال : « كان هذا الرجل (ابن بقيّة) من القرية المعروفة بأوانا . . . . ونشأ في أيام الفتنة وغلبه أهل الرستاق على طريق دجلة العليا . . . وكان جرى رسمه بتقلد المآصير ، واتفق له أن اتصل بصاحب مطبخ معز الدولة المعروف بعمله وكان ضامناً لتكريت وما يجري معها من المآصير العليا وأبواب المال ، فلما خدم عمله توجه معهُ وخفّ على قلبه ، فتدرّج من حالٍ الى حالٍ حتى استعمله على هذه الأعمال كلها وفوّضها اليه [4] . . . »

(١) تاريخ واسط (المخطوط ص ٦ ب — ٧ أ)

(٢) هي على ما في معجم البلدان (٣:٢٧٩) : « محلة بالجانب الغربي من بغداد . . . قيل لها الشرقية لانها في شرقي مدينة المنصور ، لا لانها في الجانب الشرقي »

(٣) أخبار الراضي بالله والمتقي لله ، وهو الجزء الثاني من كتاب الاوراق (ص ٢٧٦ ، طبعة هيورث دن في القاهرة (٤) تجارب الامم (٦ : ٢٨٥ ، طبعة آمدروز في القاهرة)

والظاهر من هذا ، ان المآصر العليا هي التي كانت مبثوثة ما بين بغداد وتكريت — وربما تعدّت البلدة الاخيرة — تقطع دجلة في عدة مواطن ، لكنّ أشهرها في التاريخ هو المأصر الأعلى في بغداد . وقد ذكره ابو الفرج ابن الجوزي غير مرّة . قال في أحداث سنة ٤٢٥ هـ

« فمن الحوادث فيها عوْد العيارين الى الانتشار ومواصلة الكبسات بالليل والنهار ، ومضى البرجمي (١) الى العامل على المأصر الأعلى بقطيعة الرقيق (٢) ، فقرر معه أن يعطيه في كل شهر عشرة دنانير من الارتفاع ويطلقوا له سميريتين كبيرتين بغير اعتراض ، وأخذ عهده على مراعاة الموضع (٣) . . . »

وها هوذا يعود الى ذكر هذا المأصر الشهير عند كلامه على الحسن بن أبي جعفر الملقب بـ « عميد الجيوش » الذي خدم صمصام الدولة وبهاءها ، « وولاه بهاء الدولة تدبير العراق فقدم سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة والفتن كثيرة ، والدعّار قد انتشروا ، فقتل وأغرق خلقاً كثيراً » ، وقد جاء في عدله وهيبته حكايات منها انه « أعطى بعض غلمانه صينيّة فضة فيها دنانير وقال : خذها على رأسك ، وسر من النجمي (٤) الى المأصر الاعلى ، فان اعترضك معترض فاعطه إياه واعرف الموضع الذي أخذت منك فيه . فجاءه وقد انتصف الليل ، وقال : قد مشيت البلد جميعه ، فلم يلقني أحد (٥) »

ونعود الى قول مسكويه في المآصر . فقد نبّه عليها أيضاً عند كلامه على حوادث سنة ٣٢٥ هـ ، بقوله : « وانما امتعضتُ (البريدي يتكلم) لكم من ظلم ابن رائق ومحمد بن يزداد خليفته لكم ، وتحملتُ في مالي أربعة آلاف دينار في كل شهر بازاء ما كان يؤخذ من الشرطة والمآصير والشوك تخفيفاً عنكم ، وقد أزلتُ جميعها ، وهذا خطي برفعها عنكم... (٦) » وابن رائق هذا هو الذي وضع المآصر ببغداد. فقد زاد صاحب التكملة (٧) على قول مسكويه (٨)

---

(١) البرجمي ، انظر « الذيل » رقم ١ (٢) الرقيق ، أنظر « الذيل » رقم ٢ (٣) المنتظم (٨ : ٧٧)
(٤) النجمي ، أنظر « الذيل » رقم ٣
(٥) المنتظم (٧ : ٢٥٢ — ٢٥٣) ، وقد نقل هذه الرواية ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة (٤ : ٢٢٨ ، طبع دار الكتب المصرية) (٦) تجارب الامم (٥ : ٣٦٤)
(٧) هو محمد بن عبد الله الهمذاني المتوفى سنة ٥٢١ هـ) له تكملة لتاريخ الطبري . أنظر : تجارب الامم (٥ : ٥ ، حاشية ١) ، والمنتظم (١٠ : ٨ ، حوادث سنة ٥٢١ هـ) ، والاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للسخاوي (ص ١٤٤ ، طبع دمشق) (٨) قال مسكويه (تجارب الامم ٥ : ٣٨٣) : « . . . وسار موسى فياذه الى حصن مهدي فلكها ، وكانت من أعمال البصرة ، وصارت الاسافل ووراءه ، ودخل الامير سوق الاهواز فنزل دار أبي عبد الله البريدي وانتظمت له الامور ، وحصل البريدي بالبصرة واستقامت لهم ، واستقر بجكم بواسط ينازع الملك ببغداد ، وجمع ابن رائق أطرافه وأقام بها »

بالكلام التالي : « وهو الذي وضع الماصير (الماصر) ببغداد ، وما كانت سمعت بالضرائب [١] من قبله [٢] »

وفعل ابن رائق هذا في أمر الماصر يقرب من فعل « ابن الهاروني » ، فقد كان كلاهما يتصرف في أمر استيفاء الدراهم من الماصر والمكوس ، ويثقل كاهل الناس بما لا طاقة لهم به . فقد حكى ابن الجوزي في أحداث سنة ٥٣٠ ه ان « هذا الملعون ابن الهاروني قصده إساءة السمعة وهلاك المسلمين وهو السبب في جميع ما جرى، فقبض على ابن الهاروني يوم الخميس ثامن عشر (شهر) ربيع الأول ، وجاء رسول زنكي فلقي الخليفة (الراشد بالله) وشكا مما جرى من ابن الهاروني وتأثيراته في المكوس والمواصير ، وقال : الخادم يسأل أن يسلم اليه ليتقرب الى الله بدمه ، فقال له تدبّر في ذلك . ثم تقدم في بكرة الاحد حادي عشرين الشهر الى ابي الكرم الوالي بقتله ، فقتل في الرحبة وصلب على خشبة قصيرة ، ومثل به العوام ، فلما جنّ الليل أخذه أهله وعفوا أثره ، وظهرت له من الأموال والأثاث وأواني الذهب والفضة أمر عظيم ، ووصل الى الخليفة من ماله مائتا الف ، وكانت له ودائع عند القضاة والتجار [٣] »

وهكذا يجد المرء في حوادث السنين أنباء في وضع المكوس والماصر واقرارها واستيفاء الدراهم منها ، أو اسقاطها وازالتها من الوجود .

فقد كان من جملة حوادث سنة ٥١٥ ه أن أعيدت المكوس والمواصير ، وألزم الباعة أن يرفعوا الى السلطان ثلثي ما يأخذونهُ من الدلالة في كل ما يباع . . . » [٤]

واستمرّت الحال على هذا المنوال حتى دخلت سنة ٥٣٣ ه ، ففي شهر ربيع الاول « أزيلت المواصير والمكوس ، ونقشت الألواح بذلك ، واستوزر السلطان (مسعود) رجلاً من رؤساء الري يقال لهُ محمد الخازن ، فأظهر العدل ورفع المكوس والضرائب ، وكان حسن السيرة ، فدخل عليه رجلان يقال لأحدهما ابن عمارة ، والآخر ابن أبي قيراط يطلبان ضمان المكوس التي أزيلت بمائة الف دينار ، فرفع أمرهما الى السلطان ، فشُهرا في البلد مسوّدَي الوجوه وحبسا » [٥]

---

(١) الضرائب ، انظر « الذيل رقم ٤ (٢) تجارب الامم (٥ : ٣٨٣ ، حاشية ١)
(٣) المنتظم (١٠ : ٥٦) (٤) المنتظم (٩ : ٢٢٧ — ٢٢٨)
(٥) المنتظم (١٠ : ٧٨ — ٧٩) ، الكامل لابن الاثير (١١ : ٤٧ ، أوربة = (١١ : ٢٩ ، بولاق)

ونظير هذا الحادث ما جرى في سنة ٥٤١ هـ . فقد روى أبو الفرج ابن الجوزي انهُ « طيف بالألواح التي نقش عليها ترك المكس في الأسواق ، وضربت بين يديها الدبادب والبوقات » (١)

وقد أفاض في ذكر هذا الحادث سبطه ، بقوله « وفيها (سنة ٥٤١ هـ) بطلت المكوس والضرائب ببغداد ، وسببه ان ابن العبادي جلس بجامع السلطان ، وحضر السلطان عنده ، فوعظه وذكر ما يجري على المسلمين من الظلم ، ثم قال : يا سلطان انتَ تهب في ليلة لمطرب مثل هذا المأخوذ من الناس ، فاجعلني ذاك المطرب واجعل ذلك شكراً لما أنعم الله عليك ، فأشار بيده قد فعلتُ ، وارتفعت الضجة بالدعاء ، ونودي في البلد بالاسقاط ، وكتب به ألواح ونصبها في المحال والشوارع ، فلم يزل الأمر على ذلك حتى قلع الألواح أبو العباس أحمد بن الناصر لدين الله ، وقال : ما لنا حاجة ان يكون عندنا آثار الأعاجم » (٢)

ويظهر ان اسقاطها وازالتها لم يكن طويل الأمد ، فقد عادت هذه الضرائب والمآصر الى ما كانت عليه ، وتحكم المكاسون والماصريون في رقاب الناس ، فارتفعت الشكاوى من كل جانب ، واستغاث النـاس بالسلطان ، فأمر عماله باسقاطها ، كما جرى في سنة ٥٤٥ حيث كان « مرض ابن البلنكري وهو خاص السلطان مسعود ، فلما عوفي أسقط المكوس . وكان المكّاس ببغداد يلقب مختص الحضرة ، وكان يبالغ في أذى الناس وأخذ أموالهم ، ويقول أنا قد فرشت حصيراً في جهنم » (٣)

وورد ذكر المآصر في العمل الذي وجده هلال بن المحسن الصابئ (المتوفى سنة ٤٤٨هـ) المشتمل على ذكر أحمد بن محمد الطائي ، وما ضمنه من الأعمال وشرطه على نفسه من حمل مال الضمان مساومةً الى بيت المال . وقد شرح فيه وجه خرج المياومة ، فذكر هلال « المرتزقة برسم الشرطـة بمدينة السلام والخلفـاء عليهم ، وأصحاب الأرباع والمصالح والأعوان والسجانين وأصحاب الطوف والماصريين ومن في جملتهم من الفرسان الذين ميزوا وألحقوا بطبقة (المتوسطين) من المشايخ والمترفين ومن هذه سبيله من الرجالة الموكلين بأبواب المدينة ، وأيام شهرهم مائة وعشرون يوماً من جملة ستة آلاف دينار في المشاهرة = خمسين ديناراً » (٤)

(١) المنتظم (١٠ : ١٢٠)
(٢) مرآة الزمان (٨ : ١١٣ — ١١٤) ، وقد نقلها ابن كثير في البدء والتاريخ (١٢ : ٢٢١)
(٣) المنتظم (١٠ : ١٤٣) ومرآة الزمان (٨ : ١٢٤)
(٤) تحفة الامراء (ص ١٥) ، وانظر ص ٥٧ من مقدمة الناشر ، مادة (أصر . الماصريون).

﴿ الذيل ﴾

(١) قال ابن الجوزي (المنتظم ٨ : ٦٦، حوادث سنة ٤٢٣ هـ) : « وقوي أمر العيارين وكبس رئيسهم البرجمي خاناً فأخذ ما فيه ، فقوتل فقتل جماعة ، وكان يأخذ كل مصعد ومنحدر ، وكبس داراً بسوق يحيي وأخذ ما فيها واحرقها ، هذا والعسكر ببغداد »

ثم قال (٨ : ٧٩ ، سنة ٤٢٥ هـ) : « وفي ليلة الأحد سادس عشر (شهر) رمضان ، أغرق البرجمي اللص بفم الدجيل ، أخذه معتمد الدولة فغرقه بعد أن بذل مالاً كثيراً على أن يترك فلم يقبل منه ، ثم دخل أخو البرجمي الى بغداد فأخذ أختاً له من سوق يحيي وخرج فتبع وقتل »

ولتتبع أخباره ، أنظر المنتظم (٨ : ٤٤ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٧٢ وما يليها)

ونسج البرجمي هذا في استيفاء البالغ من الضرائب والمآصر ونحوها ، على منوال سلفه العيار المعروف بـ « عزيز » الذي قوي أمره واستفحل في سنة ٣٨٤ هـ ، وكان من أهل باب البصرة من الجانب الغربي من بغداد « فالتحق به كثير من الدُعّار وطرح النار في المحال ، وطلب أصحاب الشرط ، ثم صالح أهل الكرخ ، وقصد سوق التمارين وطالب بضرائب الأمتعة ، وجبى ارتفاع الأسواق الباقية ، وكاشف السلطان وأصحابه ونادى فيهم ، وكان ينزل الى السفن فيطالب بالضرائب وأصحاب السلطان يرونه من الجانب الآخر ....» : (المنتظم ٨ : ١٧٤)

(٢) في المطبوع « دار الدقيق » وهو تحريف ظاهر ، وقد وردت بهذا التحريف غير مرة في كتاب المنتظم ، ولم ينبه اليها الناشر وقد طلبت الى الصديق العزيز الدكتور مصطفى جواد ، العالم بخطط بغداد ، ان يعين موقع كل من قطيعة الرقيق هذه والنجمي — الآتي ذكرها — بالنسبة الى بغداد الحالية ، لنستشف من خلالها محل المأصر الأعلى ، فتفضل بالمعلومات التالية :

« قطيعة الرقيق ، وقطيعة أم جعفر ، وزبيدية بغداد : أسماء ثلاثة لقطيعة واحدة ، والظاهر من أخبار خطط بغداد انها كانت تنتهي من أعلاها بالموضع المعروف اليوم بالبحية

(البوحية) من شرقيّ الكاظمية الشمالي ، وكان فيها القافلائيون — وهم كما في أنساب السمعاني الذين يشترون السفن الكبار المنحدرة من الموصل والمصعدة من البصرة ويكسرونها ويبيعون خشبها وقيرها وقفلها أي حديدها — ، فالشط الغربي المنصوب فيه الجسر في عهدنا بين الكاظمية والأعظمية كانت أرضه من قطيعة الرقيق . وقد قالوا قطيعة الرقيق كما قالوا (دار الرقيق) و (سوق الرقيق) » اه

قلتُ : انظر معجم البلدان (٢ : ٥١٩ مادة دار الرقيق) و (٤ : ١٤١ قطيعة أم جعفر) و (٤ : ١٤١ — ١٤٢ قطيعة الرقيق) و (٢ : ٩١٧ الزبيدية)

...

(٣) قال الدكتور مصطفى جواد : « النجمي الذي كان بالجانب الغربي من بغداد كان مقابلاً لدار الخلافة الحديثة المتضدية التي كانت على دجلة بين مشرعة الصبغة الحالية الى ما وراء جسر بغداد الاسفل (جسر الملك فيصل) . قال ابو المظفر يوسف بن قزاغلي المعروف بسبط ابن الجوزي في حوادث سنة ٤٥٠ (مرآة الزمان ، مخطوط رقمه ١٥٠٦ ، عربي ، ورقة ٤٧ من نسخة دار الكتب الوطنية بباريس) نقلاً عن تاريخ محمد بن هلال الصابىء ما نصه : « وبعث رئيس الرؤساء (أبو القاسم علي بن الحسن بن المسلمة) الى أبي الأغر دبيس يستحثهُ في القدوم الى بغداد خوفاً من البساسيري ، فقدم يوم الاثنين ثاني ذي القعدة في مائة فارس ، فنزل النجمي مقابل دار الخليفة ، واستأذن في ضرب الطبل على باب خيمته في أوقات الصلوات ، فأذن لهُ في بعضها »

وهذا دليل صريح على كون النجمي مقابلاً لدار الخلافة (يفصل بينهما دجلة) . ولنا دليل ضمني على انه كان مقابلاً لقصر التاج من دار الخلافة . وكان هذا في الموضع الذي بنيت فيهِ المحكمة الشرعية وما جاورها من العمارات (قبل بعض السنوات) فقد ذكر سبط ابن الجوزي أيضاً في حوادث سنة ٤٤٩ (مرآة الزمان ، المخطوط ، ورقة ٢٢) ان أبا الغنائم سعد بن أبي الفرج محمد بن فسانجس داعية المستنصر الفاطمي المستولي على واسط الخاطب له فيها ، كان أصحاب طغرل بك قد أسروه في هذه السنة وطافوا بهِ على أقبح حال وعليه قميص أحمر وطرطور أحمر وقلادة ودع ، فلما بلغ المطوف بهِ النجمي حُطَّ من فوق الجمل ونصبت لهُ خشبة فصلب عليها وشدّت رجلاه الى رأسه ، ثم قطع رأسه ورميت جثته الكلاب فأكلتها »

وقد ترجمه جمال الدين ابن الجوزي في وفيات سنة ٤٤٩ (المنتظم ٨ : ١٨٩) ، فذكر انه صلب بازاء التاج . وبذلك نحكم بأن التاج كان مقابلاً للنجمي » اهـ

قلنا : وعليه يكون المأصر الأعلى في أعلى الجانب الغربي من بغداد ، والنجمي في أسفل هذا الجانب ، فغلام عميد الجيوش طاف المدينة من أعلاها الى أسفلها ، وهو ما يوافق قول ابن كثير في هذا الخبر (البداية والنهاية ١١ : ٣٤٤) : وأمر بعض غلمانه أن يحمل صينية فيها دراهم مكشوفة من أول بغداد الى آخرها . . . »

وقد نبّه مسكويه الى محل النجمي يومذاك فقال في أحداث سنة ٣٦٩ هـ (تجارب الامم ٦ : ٣٩٦) : « . . . وخرج الطائع لله في تلقّيه (لتلقي عضد الدولة) مع جماعة من الجيش والمقيمين وسائر الخواص والعوام ، ودخل يوم الأحد لليلة خلت من ذي الحجة ، واجتاز في الجانب الغربي على تعبية من الجيش ، وبعد أن ضربت لهُ القباب متصلة منتظمة بين عسكره من باب حرب وبين الموضع الذي ينزله من آخر البلد ، وهو البستان المعروف بالنجمي ، وعبر في يوم الاثنين له الى داره فاستقرّ فيها »

أنظر النجمي في صلة تاريخ الطبري (ص ١٦٧ ، ليدن) ، والاوراق — أخبار الراضي والمتقي — (ص ١٤٤) ، والمنتظم (٧ : ٢٢٣ و ٨ : ٢٩٤) ومعجم البلدان (١ : ٤٦٠ ، مادة بادوريا) ، والكامل لابن الاثير (٨ : ١٣٧ حوادث سنة ٣١٦ هـ)

(٤) ذكر البشاري المقدسي (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٣٣ — ١٣٤ طبعة دي غويه في ليدن) في عرض كلامه على«الضرائب»في اقليم العراق بأنها كانت « ثقيلة كثيرة محدثة في النهر والبر . وفي البصرة تفتّشٌ صعبٌ وشوكات منكرة .وكذلك بالبطائح تقوّم الامتعة وتفتش . وأما القرامطة فلهم ديوان على باب البصرة ، وللديلم ديوان آخر حتى انه يؤخذ على الغنمة الواحدة أربعة دراهم ، ولا يفتح إلاّ ساعة من النهار ، واذا رجع الحاجُّ مكسوا أحمال الأدم والجمال الاعرابية ، وكذلك بالكوفة وبغداد ، ويؤخذ من الحاج للمحمل ستّون ، ومن الكنيسة أو حمل البرّ مائة ، ومن العمارية خمسون ومائة بالبصرة والكوفة »

وللتوسع ، راجع : المنتظم (٦ : ٢٩٦ ، حوادث سنة ٣٢٧ هـ) ، والبداية والنهاية لابن كثير (١١ : ١٨٩) ، والنجوم الزاهرة (٣ : ٢٦٤)

القبلة الاولى

ليوسف الخال

ضممتُ يا لطف من ضممتُ　　وقبلة كان ما غنمتُ
بريئة البوح يعتريها　　سكون حب غفا وصمتُ
يلفّها الطهر قرمزيّا　　هام على ثغرها فهمت
أستوضح اللون باشتياقٍ　　يهمّ بي مثلما هممت
فأطبق السر مستباحاً　　يموج في كل ما علمتَ
تحبني جهدَ ما تمنّت　　وتخنق الوهم إن وهمت
تحبــــني جامحَ التمني　　اثر في الحب ما لمتُ
وأنشق الفوح من شذاها　　منزّه النفح أين رمتُ
يا قبلة كلها نعيم　　حسبي من العمر ان نعمت
ولي بها غاية تُرجّى　　صلّيت من أجلها وصمت

الدين والفلسفة

التوفيق بينهما في المشرق

لمحمد يوسف موسى

بعد أن تبينا فيما مضى نشره معنى الدين والفلسفة ونشأتهما والعلاقة بينهما في المشرق والمغرب التي كانت الى الخصومة ، ننتقل الى ما كان واجباً على الفلاسفة من محاولات التوفيق بينهما

﴿ تمهيد ﴾ ربما كانت محاولة التوفيق بين الدين والفلسفة تبدو واجبةً وأمراً طبيعيًّا يحس به الفيلسوف المتدين لأكثر من عامل واحد ، اولاً : ليحقق الانسجام بين ما ورث من عقيدة تعمر قلبه ويراها فوق الشك وإن عزَّ عليه أحياناً ان يفهم بعض جوانبها ، وبين النتيجة التي أدى اليها النظر العقلي الصحيح ، وثانياً : ليكون بمنجاة من غضب بعض رجال الدين الذين يرون كل تفكير عقلي فلسفي ضربة موجهة الى الدين الذي مصدره الوحي لا العقل ، وليكون أيضاً بمأمن من اضطهاد الشعب لمن يرى من المفكرين فضلاً لنفسهِ في التفكير ، ويزعم انهُ قادر على فهم ما يراه الكثيرون أسراراً وأموراً فوق طاقة الانسان

واذا كانت محاولة التوفيق مما يهم كل مشتغل بالفلسفة كما قلنا ، فهي أمرٌ لا بد منهُ لفلاسفة المسلمين ، لكل ما تقدم ، ولبعد شقة الخلاف بين الاسلام وفلسفة أرسطو في كثير من المسائل ، وليستطيعوا الانتاج في هدوء

من أجل ذلك كله نجد أمر العلاقة بين الدين والفلسفة له أصله الأغريقي الذي لا ينكر ، ونجد كل المدارس الفلسفية تقريباً في العصر القديم تحتفظ بمكان صغير أو كبير للمسائل الدينية وترى للدين جدواه الخلقية والاجتماعية ، كما نجد هذا الاتجاه لتأسيس علاقة طيبة بين الدين والفلسفة يزيد عند « فيلون — Philon » اليهودي وأمثاله في مدرسة الاسكندرية وعند بعض آباء الكنيسة في المسيحية [1]

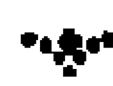
---

(١) نظرية ابن رشد للمستشرق « جوتييه » بالفرنسية ص ١٥٩ — ١٦٠

هذا فيما يتصل بالمفكرين غير المسلمين. أما بالنسبة الى المسلمين، فان الذي يفهم الاسلام وروحه التي تدعو للاخذ بالوسط في كل الامور وتوجب التوفيق بين المتنافرين، والذي درس تاريخ الاسلام وبخاصة الناحية العلمية — نقول إن الذي يفهم روح الاسلام ودرس تاريخ العلوم الاسلامية وتطوراتها، يرى أن روح التوفيق بصفة عامة كانت طابعاً للمسلمين في كل ضروب التفكير النظرية تقريباً، والتاريخ شاهد صدق على ما نقول

ففي علم الكلام نجد مذهب الأشعري — الذي عُرف بمذهب أصل السنة والجماعة — مذهباً وسطاً أريدَ بهِ التوفيق بين مذهب السلف القائم على التمسك بالنص من غير تعرض لتأويله عقليًّا، ومذهب المعتزلة الذي أعطى للعقل الحرية في فهم نصوص القرآن وتأويلها بما يتفق مع العقل، كما نجد المعتزلة أنفسهم يرون ان الوحي والعقل من الله فلا يمكن أن يتناقضا، وأن الأنبياء لم يكشفوا شيئاً تعجز العقل معرفتهُ، ولهذا يجب أن يكون مايجيء به الوحي معقولاً والا وجب تأويله. وفي التشريع نجد مذهب مالك يعتمد على الحديث والمذهب الحنفي يعتمد على الرأي ونظر العقل واجتهاده، فجاء مذهب الشافعي وسطاً موفقاً بين هذين الطرفين. وفي الفلسفة نجد محاولة الفارابي التوفيق بين افلاطون وأرسطو التي خصص لها كتاباً من مؤلفاته، كما نجد أن أهم مميزات فلاسفة العرب المشائين بصفة عامة نزعة التلفيق والتوفيق بين كثير من المذاهب الفلسفية السابقة لهم،

فاذا كانت نزعة التوفيق من النزعات التي سادت مفكري الاسلام في جميع فروع التفكير بصفة عامة، فكم بالاولى يعمل الفلاسفة على التوفيق بين الدين الذي يعتقدون صحته ولا يرتابون في شيء منه والفلسفة المبنية على النظر الصحيح والمنطق السليم!



من أجل هذا نجد كل فلاسفة الاسلام — مثلهم مثل غيرهم من المتكلمين والمفكرين — حاولوا هذا التوفيق سواء منهم من تقدم به الزمن ومن تأخر، مع اختلاف في الطرق التي اصطنعوها والجهود التي خصصوها لبلوغ الغاية المرجّاة، ومع تفاوت في مبلغ ما قُدّر لكل منهم من نجاح. ويطول بنا الكلام اذا تحدثنا في شيء من البسط على كل تلك المحاولات التي بذلها في هذه الناحية الفلاسفة وغير الفلاسفة من المفكرين في الاسلام

لذلك نكتفي بايجاز القول عما كان من أعلام الفلاسفة وحدهم؟ أعني عن الكندي والفارابي ومسكويه وابن سينا في المشرق، وابن باجه وابن طفيل وابن رشد في المغرب

في المشرق

١ — عاش الكندي في فترة من حياته في بيئة التفكير الحر والتسامح الكبير ، هذه البيئة التي خلقها المأمون (١٩٨ — ٢١٨ هـ) وشجعها حتى انهُ كان نفسه شيعيًّا ووزيره يحيى بن أكثم سنيًّا ووزيره الآخر احمد بن أبي دؤاد معتزليًّا ، وحتى ان الرجل كان لا يجد حرجاً في أن يعتقد ما يرى من مذهب ، فكان يجتمع في البيت الواحد عدة إخوة لكل منهم مذهبه ورأيه [1] لكنهُ عاش بعد هذه الفترة في العصر الذي بدأه المتوكل على الله (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) والذي عاد فيه سلطان أهل السنة

لا جرم اذاً ، أننا نراه يشعر — ككل مفكر حر — بالخوف والقلق على نفسه ، فيحاول التوفيق بين الدين الذي لا يشك في انهُ حق والفلسفة التي يقرها عقله . ولهذا نجد ابن النديم يذكر لهُ بين مؤلفاته رسالة في تثبيت الرسل وأخرى في نقض مسائل الملحدين [2] كما نرى ظهير الدين البيهقي يذكر عنه انهُ « قد جمع في بعض تصانيفه بين أصول الشرع وأصول المعقولات » [3] كما يذكر في ترجمة أبي القاسم الحسين بن الفضل الراغب انهُ كان من حكماء الاسلام ، وهو الذي جمع بين الشريعة والحكمة في تصانيفه ، وان من كلامه : « بين العقل والشرع تظاهر ويفتقر أحدهما الى الآخر » [4] وبهذا لم يكن الفارابي هو الذي افتتح هذا العمل ، أي التوفيق بين الدين والفلسفة ، كما قرر أحد العلماء الباحثين [5]

٢ — على أن الفارابي عمل لهذه الغاية بجدّ ، غير منبعث ، على ما نعتقد ، باتقاء تعصب الجهّال ورجال الدين ، إذ قضى حياته في جوٍّ حماه من هذا ونحوه . لقد عاش المعلم الثاني عيشة هادئة وادعة حيناً في بغداد موطن تعلمه ودراسته ، ثم انتقل الى حلب وأميرها سيف الدولة الحمداني — المعروف كما قدمنا بحب العلم وتشجيع أهله — ليعيش في كنفه عيشة الزاهد المتصوف الذي لا تغرّه رياسة ولا تفتنه الدنيا حتى مات بدمشق وقد رحل اليها بصحبة أميره سنة ٣٣٩ هـ . والذي يرجع الى ترجمته ، كما ذكرها ابن خلكان [6]

(١) جورجي زيدان في كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » مطبعة الهلال بالقاهرة سنة ١٩١٢ ج٢ ص ١٩ (٢) الفهرست طبع مصر ص ٣٦٢ (٣) تتمة صوان الحكمة طبع الهند سنة ١٩٢٥ ص ٢٥
(٤) نفسه ص ١٠٤ — ١٠٦ ، وقد أتينا بهذا استطراداً نافعاً في هذا المقام
(٥) ابراهيم مدكور في كتابه « مكانة الفارابي » بالفرنسية ص ٤١
(٦) ج٢ ص ١١٢ — ١١٤

وابن أبي أصيبعة [١] وصاعد الاندلسي [٢] والقفطي [٣] ، يجد مصداق هذا فالفارابي لم يضطهد بسبب الفلسفة . اذاً فقد كانت محاولته التوفيق لما رسخ في ذهنه من ان الحقيقة واحدة ، وانهُ قد وصل اليها أفلاطون وأرسطو وجاء بها الوحي ، فيجب لذلك التوفيق بين ما يظن تعارضه من هذا كله

والخطة التي اتخذها الفارابي تتلخص في أمرين تأثره فيهما من أتى بعده : تفسيره النبوة بجعلها أمراً عقليًّا ، وتأويل بعض العقائد الدينية التي يسميها المتكلمون بالسمعيات تأويلاً عماده العقل والنظر ، وبهذا وذاك يكون قد اعترف بالوحي ولم يلغ العقل ، وجعل لكل منهما مكاناً بجانب الآخر . انهُ يرى ان النبوة ليست أمراً خارقاً للعادة ، إذ ليس النبي إلاّ انساناً بلغت قوته المتخيلة غاية الكمال، وتسنى له الاتصال بالعقل الفعال ، فيعرف عنهُ في اليقظة الأمور الحاضرة والمستقبلة وغيرها مما يجعل له صفة النبوة [٤] ، ويكون الفرق بينه وبين الفيلسوف أن النبي يصل الى هذه الحقائق كما وصفنا على حين يصل الفيلسوف اليها بالنظر العقلي ، وليس هذا — في رأي الفارابي — بالفرق الكبير

ولم يخف على الفارابي ما في تفسيره للنبوة وبعض السمعيات (مثل الملائكة واللوح والقلم والحساب) من عسر في الفهم يجعله فوق طاقة بعض الناس ، فقسم الناس الى طبقات ثلاث : العامة ورجال الدين والفلاسفة ، ورأى انهُ يجب عرض الأشياء على كل طائفة حسب مقدرتها على تصورها وفهمها ، إما بذكر حقائقها ، وإما بتقريبها لهم بذكر محاكياتها وأمثالها [٥]

بهذا التفسير العقلي لنظرية النبوة وبعض العقائد السمعية ، وبتقسيم الناس ازاء هذه الامور الى طوائف ثلاث ، رسم الفارابي طريق التوفيق بين الدين والفلسفة للذين أتوا بعده وتأثروا بهِ في هذه الناحية كما يظهر ذلك واضحاً من صنيع مسكويه وابن سينا

٣ — أما أبو علي احمد بن يعقوب مسكويه فقد عاش في كنف دولة بني بويه ،

(١) طبقات الاطباء ج ٢ ص ١٣٤
(٢) طبقات الامم ص ٦١ — ٦٣
(٣) أخبار الحكماء ص ١٨٢ — ١٨٤
(٤) آراء أهل المدينة الفاضلة، نشر « Dieterici » بليدن ص ٥٢ ، والسياسات المدنية طبع حيدر آباد سنة ١٣٤٦ ﻫ ص ٤٩ — ٥٠
(٥) كتاب الجمع بين الحكيمين ، طبع ليدن ، ص ٢٦ — ٢٧ والسياسات المدنية ص ٥٥ — ٥٦

وظلّ أثيراً لدى أمرائها حتى توفي سنة ٤٢١ هـ كما ذكر القفطي ، او بعد هذا بعام كما يقول صاحب كشف الظنون وياقوت . وقد عني كالفارابي بمسألة التوفيق بين الدين والفلسفة ، أعني المسألة التي تعتبر معقد الطرافة والابتكار في الفلسفة الاسلامية ، وكانت وسيلته لهذه الغاية تفسير النبوة تفسيراً عقليًّا يضعف الفرق بين النبي والفيلسوف ويزيد الصلة بينهما ، وتبيين الحاجة الماسة للنبوة ، وغير هذا وذاك مما وافق فيه رجال الدين والمتكلمين كخلود النفس وحدوث العالم عن عدم (١)

النبيء عنده ، انسان يصل بتأثير العقل الفعال في قوته الحاسة وقوته المتخيلة الى ما يصل اليه الفيلسوف من حقائق ، لا فرق بينهما الاّ ان هذا وصل اليها مرتقياً من أسفل ، أي من قوة الحس الى قوة التخيل الى قوة الفكر التي بها يدرك حقائق الأمور التي في العقل الفعال، على حين النبي يتلقى نفس الحقائق منحطة اليه من عل ، ولأن الحقائق التي يصلان اليها واحدة ،كان الفيلسوف أسرع من غيره لتصديق ما يأتي به النبي وقبوله(٢)

والناس في رأيه — كما أشرنا من قبل — في حاجة ماسة لمعرفة الآراء الصحيحة والأعمال النافعة التي بها تدرك السعادة ، وان كان معرفة صحة ما دعوا اليه بالنظر الصحيح تكون من جهة الحكماء (٣)

٤ — واذا تركنا مسكويه الى الشيخ الرئيس أبي علي بن سينا نجد أنهُ قد عُني بالبحث في كثير من رسائله الصغيرة — فضلاً عن النجاة والاشارات — بتخصيص بضع صفحات من كل منها للغاية التي سعى لها الفارابي من قبل وهي الجمع بين الوحي والعقل، ونجده قد تأثر به الى حدّ كبير فيما اتخذ لهذه الغاية من خطة وطريق ، أعني من تقريب الفلسفة من الدين ، وتفسير عقائده وشعائره تفسيراً يرضاه العقل والتفكير الصحيح . لهذا نرى الاكتفاء هنا بما ذكرناه عن الفارابي ففيه مقنع وغناء

ولكننا نرى ان نشير هنا الى ان ابن سينا عاش في بيئة كانت — كما ذكرنا من قبل — تشجع العلم والبحث الحر فلم يناله سوء بسبب اشتغاله بالفلسفة ، وما ناله من الاضطراب في حياته بعد وفاة أبيه كان سببه اشتغاله بالسياسة . واذاً فلم يعن بمسألة التوفيق تقية ومحافظة على الحياة الهادئة الرغدة ، بل ليوائم بين عقيدة القلب المقدسة ونظر العقل الصحيح

(١) الفوز الاصغر طبع بيروت سنة ١٣١٩ هـ ص٣٢ ، ٤٩ (٢) نفسه ص ١٠٢ — ١٠٤
(٣) نفسه ص ٦٦

اختبار العبقرية

كامل محمود حبيب

« ان سوء المعاملة والعوز يؤثران في أشد الاطفال ذكاء فيبدو غبيا »

لعمري كيف تباينت أنصباء الناس من الذكاء ؟ ولماذا غدا بعضهم شجاعاً والبعض جباناً وبدت على بعضهم الرغبة في أن يصير قائداً واستنام الآخرون الى أن يكونوا تبعاً ، ونشأت فئة في الغطرسة والكبرياء . وركنت فئة أخرى الى الخنوع والضعة . وهكذا مما لا حصر له من الخصال المتشعبة ؟ ومن بعد ، كيف تمنح الطبيعة رجلاً منةً ضافية فتسمو به في ناحية خاصة من نواحي الحياة فيبدو نجماً متألقاً في سماء الدنيا ؟

عجز العلم — حتى قريب — عن أن يفك طلاسم هذه الاسئلة ، ولكن معامل الابحاث النفسانية أخذت تحاول — حديثاً — نبش هذا الموضوع فانتهت الى ان العبقرية الفعالة هي نتيجة لأمرين متلازمين : الوراثة ، والبيئة التي أحاطت بالطفل في مطلع العمر . وحين وجد العلماء أنفسهم لا يستطيعون أن يقطعوا برأي جازم ، قالوا ان الذكاء وليد الوراثة فحسب . واذا كانت البيئة — في كثير من الاحايين — تؤثر في العبقرية الباكرة فذلك لأنها قد تدفع المرء الى غاية لا يستطيع أن يميز بين غثها وسمينها

ولقد أحلّ العلم الحديث البيئة المبكرة المحل الاول عند تحديد الخصائص الانسانية ، ونبه المجتمع الى أمر حيوي ذي بال : هو أن يعنى بالأفراد ذوي الكفايات الممتازة عناية خاصة منذ ظهور أول سيماء عليهم

كيف — اذن — استطاع العلماء أن يكشفوا عن العبقريات ؟ وما هو مستوى الذكاء المفرط في رأيهم ؟ هذان سؤالان لا يدفعان بنا الى الاستغراق في التسلية فحسب بل الى جدال عنيف يتناول « اختبار الذكاء »

والذكاء الخارق يتميز بسمات منها : الذاكرة الممتازة ، والسمو في الترابط العقلي والمنطقي

والقدرة على استدعاء المعلومات عند الحاجة . ومنذ سنوات قام الاختصاصيون بعمل اختبارات شملت فئات كثيرة من الناس فكشفت عن مستوى الذكاء النسبي فيهم

وفي سنة ١٩١٧ طبق الاختبار الاول « ألفا » على الجيش الاميركي ، وكان ينضم على أسئلة فيها خداع بسيط وأحاجي سهلة واختبارات للذاكرة . وبعد مئات الآلاف من هذه الاختبارات رتبهم العلماء في سمط ، واستنبطوا المستوى العادي للذكاء الذي اتخذ وحدة القياس ، واعتبر « معدلاً للذكاء » ووضع له رقماً اختيارياً هو « ١٠٠ » فاذا قلّ ذكاء شخص عن المستوى العادي بمقدار ١٠ ٪ مثلاً قيل ان ذكاءه (م ٩٠) واذا زاد عليه بمقدار ٢٠ ٪ قيل ان ذكاءه (م ١٢٠) وهكذا ...

وكانت اختبارات الذكاء مثار نقاش حاد طويل لا حاجة لنا فيه ، غير انهُ مما لا ريب فيه ان هذه الاختبارات هيأت معدلاً للذكاء لا ينفلت منهُ انسان مهما كانت مهنته . على ان مستوى الذكاء الذي تبينهُ الاختبارات بعد السابعة من العمر قلما يتغير بمرور الزمن

ولقد قامت جامعة إيوا بالولايات المتحدة — منذ سنوات — بسلسلة من الابحاث أثبتت ان مستوى الذكاء في كثير من الاطفال يرتفع غير قليل إن هم ظفروا بعناية وانتباه ، وشعروا بالطمأنينة والهدوء . وأثبتت أيضاً ان العوز وسوء المعاملة يؤثران في الطفل الذكي فيبدو غبيًّا

وان أكثر الابحاث متعة هي محاولات بذلت لدراسة مستوى الذكاء في طفولة ثلثمائة رجل من عظماء العصر الحاضر ، معتمدة على ما جاء في كتب التاريخ عن طفولتهم

وجاءت نتائج هذه الابحاث تؤيد القضية القائلة بأن الذكاء لا يرافق — دائماً — النجاح في الحياة العملية ، على عكس ما يتراءى عادة . فلقد ظهر من هذه الابحاث ان نابليون هو أعظم عظماء التاريخ الحديث ويليه تسعة ان رتبوا فهم : ڤولتير وبيكن وجوتيه ولوثر وبورك ونيوتن وملتن وبت وواشنجتن . ورغم ذلك فان معدل ذكائه وهو على رأس العشرة الاوائل يماثل معدل ذكاء واشنجتن وهو الاخير فكلاهما مستوى ذكائه يساوي (م ١٤٠) . على حين كان ذكاء بورك يعادل (م ١٦٥) ولوثر (م ١٧٠) وكل من ملتن وبيكن (م ١٨٠) وكل من نيوتن وبت وڤولتير (م ١٨٥) ولكن جوتيه بذّ الجميع في ذلك فمعدل ذكائه يساوي (م ٢٠٠)

وانهُ ليبدو أن العبقرية يصحبها الذكاء المبكر . وهذا هو الغالب وان لم يكن دائماً هو

الحق . فان جون ستيورت مل تعلمَّ الاغريقيــة في الثالثة من عمره ، وقرأ افلاطون في السابعة ، وفي الثامنة درس اللاتينية والهندســة والجبر وحينما كانت سنه تربو قليلاً على السادسة كتب تاريخ رومة

ولشد ما يذهلنا أن يكون كريستيان هنيكين في الرابعة من عمره ثم هو يقرأ الألمانية ويتكلم عدة لغات ويشدو طرفاً من الرياضة والتشريح والجغرافية ، ويستظهر ١٤٠٠ عبارة مقتبسة من الأدب اللاتيني . ولقد أراد ملك الدانيمارك أن يجلس الى العبقري الصـغير، غير أن المنية لم تمهلهُ فاختطفته وهو في الرابعة وأربعة أشهر

ثم ان كارل ويت التحق بالجـامعة في الثامنة من عمره وحصل على شهادة Ph D في الرابعة عشرة وعاش حياة علمية عالية ناجحة مدى عمره الطويل البالغ ٨٣ سنة.

والعظيم يأتي — عادة — بالفذ من أعماله في صبح شبابه . فجوتيه كتب « آلام فرتر » في الخامسة والعشرين من عمره ، وملتُن نظم أناشيده العبقرية ، وهو عند الحادية والعشرين وشيلنج وضع مبادىء فلسفته وهو في العشرين ، وپت تقلد منصب رئيس الوزارة البريطانية في الرابعة والعشرين

ومنذ تسع عشرة سنة قام العالم النفساني الفذ الدكتور تيرمَن بجـامعة ستانفورد الأميركية ببحوث واسعة ، تبحث عن الذكاء الخـارق في مدارس الاطفال على الشاطىء الپاسيفي ولا سيما في كاليفورنية . فاختبر الاطفال العديدين ، من أبناء تلك المنطقة اختبارات ذكاء متشابهة فوجد ان نحواً من ١٥٠٠ طفل من هذا العدد الضخم حازوا (م ١٤٠) فأكثر مما رفعهم الى صفوف العباقرة

هذا العدد من العبقريين نما الآن واشتد وانغمر في الحياة يكافح ليكسب قوته ؛ وهم يخترقون سبلهم في نجاح تتقطع دونه أعناق زملائهم

والبنون والبنات من هذا العدد تزوجوا من أناس هم دونهم في الذكاء بمقدار ٢٥ درجة وأنجبوا أطفالاً عند هذا المستوى تقريباً ، وهو يقرب جداً من مستوى ذكاء آباء العبقريين وأخواتهم

والآن تنكشف أبحاث الدكتور تيرمَن عن أشياء تبعث في النفس الدهش : فان ٢٥٪ من عباقرته نجحوا في الحياة نجاحاً فاق كل ما جناه الباقون ، و ٥٠٪ بلغوا مستوًى متوسطاً والباقي أخفقوا اخفاقاً ظاهرا . وكان ما ربحته الفئة السامية من مادة يربو كثيراً على أضعاف

ما جناه القسم المتخلف . وان أعجب العجب في ما جاء به الدكتور تيرمَن هو ان فئتين من عباقرة الأطفال أثبتت التجارب تساويهما في الذكاء ، وعاشا معاً زميلين في الدرس وفي المدرسة نفسها ظهرت احداها — مع ذلك — على الاخرى . لاريب، في أن عاملاً بيِّناً أثر في كل من الفئتين فأحدث هذا الفرق الواضح . ذلك العامل هو — كما قال الدكتور تيرمَن — البيئة المنزلية وما بذرت في نفس الطفل من غُراس الشخصية فأطفال القمة هم أبناء الأثرياء الذين يستطيعون أن يهيئوا لابنائهم حياةً راقية هادئة مستقرة . أما أفراد الطبقة الدنيا فهم غراس بيوت لا تعرف الهدوء ولا السعادة ، والآباء فقراء ، جلهم غرباء ترهقهم ثقافتهم الاجنبية وشظف العيش في وقت معاً . وهكذا غلبت على الأطفال البيئة المنزلية لجذبتهم الى أسفل ، الى أسفل ...

وفي الحق إن الأطفال الموهوبين لا يؤدون عملهم المدرسي على الوجه الاكمل ، لأن المادة تضجرهم فيرفضون العمل الا أن يجدوا فيه المتعة ، ثم قد تأتي الصدفة فتحيل حياة العبقري الى شيء آخر : فمثلاً : نيوتن كان قد انتهى الى أن يكون فلاحاً امياً لولا أن زار — ذات مرة — طالباً في الجامعة من ذوي قرابته . وفراداي هجر المدرسة في الرابعة عشرة من عمره ... هجرها الى الأبد ... ولكن مجرى حياته تغير حين قرأ موضوعاً عن الكهربي في احدى دوائر المعارف . وإنهُ ليقال إن قرابة نصف العباقرة تبدو عليهم سيماء الذكاء وعودهم ما يبرح لدناً ، ورُبعهم يشب دون ان ينبيء عن شيء من العبقرية

ولقد اثبتت التجارب أن الذكاء الحاد وليد الوراثة ، على حين أن الشخصية والخصائص هما من نواتج البيئة ، وأن التدريب السديد يستطيع ان يخلق من العبقرية بالقوة عبقرية بالفعل ، وأن أهم العوامل في تكوين هذه العبقرية اثنان : الحافز ، وهو أن يعيش المرء في بيئة تتطلب مقدرة عظمى وتقدر هذه المقدرة حق قدرها ، ثم الشعور بالأمان والهدوء منذ فجر الحياة

وإن ما يصدق على العبقريين ينطبق ايضاً على مَنْ عداهم ، فالذكاء والشخصية عند المتوسطين من الناس يتأرجان إن هما وجدا ظروفاً ملائمة طيبة . هذه القاعدة المهمة الواضحة يتجاهلها ، أو يتغاضى عنها القائمون على التربية ابتداءً من الوالدين الى الدولة

ولقد أبان لنا العلم عن السبب الذي يجب من أجله أن ندفع عقولنا الى العمل ، وأن نزوّد الجيل الناشيء كل ما نستطيع من تدريب وتجارب نافعة واطمئنان ثم الشعور بالقوة والنجاح •

القوى الخلقية

للموسيقى

— ٢ —

لعثمان علي عسل

برينو فالتر Bruno Walter من الموسيقيين المعروفين في العالم. فقد كان رئيساً لجوقة اوبرة برلين وفينة وميونيخ . وقام بعدة رحلات الى باريس وروما والولايات المتحدة وقد نشر هذا المقال في مجلة الماركير دي فرانس Mercure de France (فبراير سنة ١٩٣٩) مترجماً بقلمي كوليت وجاك فيشوت . وعن هذه الترجمة نقلنا هذا المقال

يحلو لي الآن بعد أن عرضت ما نفهمه من ماهية الموسيقى الخالصة ، أن أوجه البحث نحو النقطة الثانية وهي : ما تحدثنا به العبقرية المبدعة باللغة الموسيقية فما هي القوى الخلقية للموسيقى المفسرة لعالم العواطف الانسانية ؟

ان الملحن يختار الموسيقى ليترجم عن عواطفه . وهو ينقلها الى المستمع في لغة موسيقية . والموسيقى كما يقول شيلر « توقظ قوة العواطف الغامضة التي ترقد في القلب في سبات غريب » وأنا أضيف الى ذلك أن الموسيقى وحدها هي التي تملك هذه القدرة لأنها تصدر من هذه العواطف الغامضة وتعينها على الظهور في صورة واضحة . عواطف غامضة ؟ نعم ! ولكن ألا تحمل الينا أيضاً رسالة تفيض بالعواطف الواضحة ؟ ألم تكتسب الموسيقى بفضل بيتهوفن ومن عهده قوة على التعبير عن حياة الملحن وسيرته

وأحب أن أنبه القراء الى الخطر الذي ينشأ عن عدّ الموسيقى كتاباً شخصيًّا للملحن يصف فيه تجاربه وعواطفه . فان ادخال الاعتراف الشخصي في اللحن لا يزيد في غزارته إلا في اللحظة التي تتحول فيها التجربة التي نحياها ، برمتها ، الى موسيقى (كما هو الحال عند بتهوفن) فتنتهي التجربة من كونها تجربة بحيث لا يعطل تمتعنا بالموسيقى البحتة تذكار حوادث واقعية . أضف الى هذا أن « العواطف الغامضة » لها أهمية كبيرة لا حد لها ، لأن انتقالها من الملحن الى المستمع هو الذي يكشف قوة التفسير التي للموسيقى من حيث هي موسيقى . فهي تعبر عن حالة الملحن القلبية حتى ان لم يستعمل بانتباه ، هذه الرنة أو تلك ،

لكي يعبر عن عواطف معينة . لأنها تتفجر وتتدفق من أعماق النفس ، حيث لا يوجد وعي ، وحيث تكون السيادة للذات الغريزية التي نبهتها قوة العواطف الغامضة . وأنا أعتقد أن الموسيقى تعبر تعبيراً صحيحاً عن ذات الملحن

فكم يثيرنا قسم الـ Andante من سمفونية چوبيتر ويبعث في نفوسنا الحماسة لأن موسيقاه انبثقت من نفس (موزارت) الكبيرة في لحظة كانت فيها هذه النفس تضطرم بالانفعال والحماسة . وفي هذا دليل على ثروة الموسيقى الصادقة . يقول ريتشار ڤاجنر « لا أستطيع أن أدرك عبقرية الموسيقى إلاّ في الحب » وهو بهذا يكاد أن يعلن قاعدة محددة . فللموسيقى مصادر سامية هي قوة عظيمة وفيض غامر من الحب . ونحن نجد في في كل قسم Adagio من بتهوفن — وهو أروع صورة يتحقق فيها الفن الموسيقي — أنشودة حب تتردد . كما قيل في Le Joueur de vielle لشوبارت . وأحسب انهُ اتضح بعد ذلك ان الهاتف الخلقي الذي توجههُ الموسيقى الينا بواسطة العبقريات المبدعة يتغلغل في أعماق نفوسنا . فمن منا يستطيع أن يقاوم رسالة حب لباخ أو لشوبارت أو لموزارت أو لبتهوفن أو لبرامز ؟ ولا تتركب الموسيقى بكل تأكيد من عبارات بطيئة كما هو الحال عند بتهوفن ، مع ان هذه العبارات تحتوي على جميع عناصر التعبير الموسيقي لأنها كما تعبر عن عاطفة واحدة عميقة تعبر أيضاً عن تباين العواطف وكثرتها . فحياة المبدع النفسية لا تقوم على عاطفة حب فقط ، بل على العكس من ذلك نجد أن الثراء التام للحياة الباطنة المتحركة تملأ النفس بأنواعها وآلامها وكآبتها واضطرام العاطفة وخمودها ، ثم تتحول الى موسيقى . غير انهُ لا يسعني أن أعتبر هذا كلهُ إلاّ تجزئة وتقسيماً للعاطفة التي توجد في المركز والتي تحتوي على جميع الأجزاء . وأعتقد بأن الحال في تنوع الاحساسات ، وتنوع الموسيقى الناشئة عنها ، ونسبتها الى مركزها ، كنسبة الألوان الكثيرة التي تتفرع من المنشور البلوري بالنسبة الى الضوء الشمسي الذي يوجد في هذه الألوان جميعاً ويتحلل فيها وهو يبذل لها زخارته

ومن المهم أن نلاحظ أن ما نسميه بالموضوع في الحركات السريعة (الموضوع الثاني غالباً) يرجع الى نوع الاداجيو والأندانت . كما هو الحال أيضاً في جميع السياق النغمي على العموم . فلهذا النوع قدرة محددة مسلم بها بكل وضوح مهما تباينت صور التنوع الموسيقي

لم أتعرض حتى الآن إلاّ للموسيقى البحتة ، لأن التعبير (الدرامتيك) في الموسيقى الوصفية أو المسرحية ، يطغى على الرسالة التي تحملها الينا ، تلك الرسالة التي تنبثق من قلب الملحن ومن أعماق سريرته . ومع ذلك فالموسيقى (الدرامتيك) تقدم لنا أكثر الصور وضوحاً لقوى الموسيقى الخلقية ، ان لم تكن أعمقها وأبعدها غوراً . فنحن نشاهد في

مناظر الاوبره مخلوقات نبيلة ومخلوقات شريرة والدسائس التي تدبر في الخفاء كما نشاهد التقوى والجحود والطهر والفجور والطيبة والحقد والذلة والعظمة ، وكلها تفرغ في قالب موسيقي لكي تظهر على المسرح . ولكن كيف تعبر هذه الموسيقى عن الخيانة والكراهية ؟ هل تجد لغتها النبيلة قدرة على التعبير عن هذه الافعال التي لا تمت الى الأخلاق بصلة كالتي نجدها للتعبير عن المسائل الخلقية ؟ وهل تشمل رعايتها الابرار والأشرار على السواء . لا ، قطعاً ... فهي تتحيز الى أحد الجانبين . إذ تندفع بكل سخاء عند ما توحي الانسانية الرفيعة بالوقائع الدرامتيك ، وتصف بقواها حين تصف العواطف الدنيئة من الطبيعة البشرية . وبهذا المعنى نستطيع ان نقول إن الموسيقى مقياس للاخلاق

لنلاحظ جيّداً أهمية الأدوار التي يقوم بها يهوذا والشهود المزورون والقديس الأكبر في « عذاب المسيح عند القديس متى » ، فهي تكاد تكون تافهة من الناحية الموسيقية . وكذلك انكار بطرس لسيده المسيح في ترتيل يبدو ضعيفاً ، في حين أن الترتيل يتحوّل الى موسيقى حقيقية إذ يتحدث أصحاب الأناجيل عن الندم ، ويصفون خروج بطرس وبكاءه المرير . والفرق كبير بين هذه الأمثلة التي ذكرنا آنفاً ، وبين أمثلة أخرى مثل اجواق الملاحدة في « المسيح المنتظر » لهيندل ، أو لحن بِتسارو في « فيدليو » حيث تعبر الموسيقى بأسلوب حاد عن التهكم والحقد . ومن ثمّ تنشأ عبارات موسيقية تفيض بالحيـاة والقوة والروعة الدرامتيك . ومع ذلك اذا قارنا هذه العبارات بالعبارات الأخرى التي تناجي بها الموسيقى ، المؤمنين ، والعشاق ، والمنكوبين ، وثائري الشعور ، نجـد الفرق بينها كالفرق بين البراق الذي يخضع للظلم فيدب على الأرض ويبذل قواه في الحمّال أعباء أرضية ، وبين البراق الذي يفك قيوده ويحرر أجنحته ليحلق في آفاق السماء الواسعة . واذا فضلنا أن نعدل عن هذا النمط في التصوير ، نجد في عالم الموسيقى الذي لا حدود له ، مناطق يمكن أن نسميها « أرض البحث عن الوصف اللاانساني » ، « أرض البحث عن المنفعة رغم كل شيء » وهذه هي المناطق التي تتركها للشر ليتصرف فيها . وهي مناطق متطرفة نائية تتصل بالناحية الغريزية العقلية من الطبيعة البشرية . فاذا قارنا في « فيديليو » الموسيقى الخاصة بدور بتسارو التي أشرنا اليها ، بأصوات أدوار لينوره وفلورستان ، نشعر بالمسافة الروّعة التي تفصل بين المنطقة الخاصة بالاول والأجواء الخاصة بالآخرين ، حيث تسود فيها أسمى قوى الموسيقى. كما نلاحظ أيضاً عند ما نعرض بدون نصوص الموسيقى التي تعبر عن الانحطاط الخلقي أن حظها من الموسيقى الحقّة يسير ، في حين ان الموسيقى التي تصور العواطف السامية مجردة

عن نصوصها تثيرنا بقوة تعادل تقريباً قوتها حين نرددها بالنصوص . لنتأمل صوت «رحماك يا الهي» في عذاب المسيح عند القديس متى أو في دور ليونورة العظيم في فيديليو . ! وماذا قدم (موزارت) للدساس بارتولو ليتغنى بهِ بجنب اللحن الذي أجراه على لسان الكونتس والذي يستدر الحنان، وعلى لسان سوزان الفاتنة ؟ وأية صلة بين ترديد ألبريش السَّعِر وميم الخاتل وترديد سيجموند وسيجلنده ؟ وكذلك بين أنغام ڤوتان دماسٍ « ذهب الرين » . ولنقارن أيضاً بين دور ڤوتان الهائج في الفصل الثاني من « الڤالكيري » بالموسيقى التي يتدفق بها تدفقاً سهلاً ليّناً وداع الحبيبة في نهاية الفصل الثالث . وكذلك تظل منطقة الاداجيو والاندانت مغلقة في وجه مؤلفي الموسيقى الغنائية التي تثير الحقد وروح الدس وارادة الايذاء . على حين هذه المنطقة التي هي أوسع مناطق الموسيقى (لاننا نعثر على عناصرها في جميع العبارات التي تردد في حركات سريعة) وكذلك جميع القوى التي يمكن أن تمت اليها بصلة ، تتفتح آفاقها للعواطف السامية ويسهل قيادها لأصحاب النفوس النبيلة . وليس في وسعي ان أتعهد هذه المقارنات بالزيادة : بالنظر من ناحية الى القطع الموسيقية التي لها قدرة على التعبير الدنيء كما هو الحال في دور ليسيار في « اريانته » لڤيبر ، وظهور پتسارو على المسرح وهو عازم على القتل في الفصل الثاني من « فيديليو » وبذاءة ألبريش في « ذهب الرين » . وبالنظر من ناحية أخرى الى الأحوال التي يسهل فيها التمييز بين حالات النفس التي تعبر عنها الموسيقى حينما تنهل من أعمق مصادرها كما هو الحال في جوق فيديليو (أية لحظة يا الهي ...) ودور پامينة في Flute enchantée وفي اعلان الوفاة في الڤالكيري . غير انهُ من المحتمل الاعتراض على ذلك بأنهُ كثيراً ما يمكن صياغة الشخصيات الهينة وحوادث الحياة اليومية ، والدس والخداع والكذب والبذاءة ، في لغة موسيقية بأسلوب ممتع أو جذاب دون أن ننتقص من حقيقة التعبير الدرامتيك . وهذا يرجع في الواقع الى نبل اللغة الموسيقية المجبولة عليه والى شخصية الملحن الفذة الممتازة

لهذا لم يكن من المحتمل أن يُعبر بسهولة تعبيراً موسيقياً عن العواطف الدنيئة . فهي على عكس ذلك تخضع بمرورها بالموسيقى نوع من التشكل . وهذا التشكل لا يبدو صناعياً في الجو السامي لفن الموسيقى . ومهما يكن جانب الموسيقى الروحية الممتعة الفاتنة ، الذي يخصص في الاوبرة ، لما في الحياة اليومية من دناءة وشر ، فان الفرق واضح جداً بين هذه الموسيقى وبين الموسيقى التي تتدفق بقوة جارفة عند ما تعبر عن السمو الخلقي . وهذا الفرق يكفي لأن يكون مقياساً حاسماً لتقويم الطابع الخلقي للمراحل الدرامتيك . ولكن

تقرير هذا الأمر، الذي له مكانة خاصة في الأخلاق ، لا يمكن ادراكه إلاّ على انهُ ينطوي في نفسه على عامل خلقي . ومما لاشك فيه ان هناك جوًّا آخر تنشر فيهِ الموسيقى جناحيها بكل سعة كما تنشرهما في جو السمو الخلقي : وأعني جو الحب . فينبغي أن نسلم بأن قوة الموسيقى السحرية المعبرة تكون أكثر انقياداً وخضوعاً للعاطفة الغرامية من العاطفة الخلقية ، سواء كان ذلك في أرق عباراتها كما هو الحال في « أعراس فيجارو » أو في قوتها، الجذابة كما في La ci darem la mano de Don Giovanni أو في التجلي الذي يتجاوز طاقة البشر كما في « تريستان » لفاجنر . غير أن هذه القوة المعبرة لا تسلس للعاطفة الغرامية إلاّ اذا امتزجت بالحنو والوطنية والتجلي والحماسة . أي بالاجمال حينما يكون لهذه العاطفة علاقة بالأخلاق . فقدرة الموسيقى على الاقناع ، عندما تعبر عن العاطفة الغرامية ، تكون من القوة بقدر ما للمستوى المعنوي للعلاقات التي تعبر عنها من السمو . واذا قدرنا مكانة القوى الخلقية للموسيقى والحياة الخلقية الخاصة بفننا يجب علينا أن نسلم بأن للموسيقى — نظراً لتطورها الذي لا يحد — تأثيراً أخلاقيًّا في ثقافة الانسانية على شرط ان تتقبل الانسانية هذا التأثير . غير ان ماهية الانسان الخلقية معقدة ، فالخير والشر يوجدان في طبيعتنا في مزيج متنافر . وليس من الممكن نظريًّا الاجابة عن السؤال الآتي : هل تستطيع الموسيقى أن تسمو بأخلاق الكائن الحي وأن يستمر تأثيرها على الدوام ، والى أي حد تستطيع ذلك ؟ ربما سجلت ملاحظات عملية في هذا الشأن غير انها بالتأكيد نادرة جدًّا ولم تتم بطريقة منظمة تمكننا من أن نستخلص منها نتائج نافعة .

وأود أن أعرض بدقة لاحدى هذه الحالات التي انتهت الى علمي صدفةً وتبدو لي انها جديرة بالتنويه

زارني ذات يوم في سان فرنسسكو رجل نصف (وقد نسيت مع الأسف اسم هذا الرجل الودود) وذكر لي انهُ موسيقي وان حياة المسجونين كانت موضع اهتمامه . فلما تأمل في مصيرهم وفكر في أحوالهم النفسية وأمعن النظر في الاحتمالات التي ينطوي عليها مستقبلهم ، خطرت بذهنه فكرة استخدام الموسيقى للتأثير فيهم . قد نجح في الحصول على موافقة مدير السجن على هذا المشروع . وبدأ يعلم المسجونين الغناء الجوقي بأصوات كثيرة . وقد انتهت مساعيه التي ثابر عليها الى نتيجة مدهشة — كما زعم — . فقد تغيرت أحوال كل سجين تغيراً تامًّا . ولم يكن التذاذهم بالمرح وسرورهم الحقيقي يتجليان في أوقات الدروس الموسيقية فحسب، بل لاحظ اللاحظ شيئاً من التحسن في علاقات هؤلاء الرجال الغلاظ

العنيدين برؤسائهم ، وفي صلاتهم بعضهم ببعض . وكانت العقوبات المتبعة لا توقع على من يرتكب منهم مخالفة من المخالفات ، بل كان يكفي أن يهدد المتهم بالابعاد من الدرس المقبل ، حتى يسهل قياده وتلين أخلاقه . ولم يطلق سراح أحد هؤلاء المسجونين — على قدر ما يعلم زائري — ثم عاد مرة ثانية الى السجن . ومع ذلك فقد حيل بينه وبين الاستمرار في مهمته من عدة سنوات وأظن ، على ما أذكر ، انهُ قد طرأ تغير على ادارة السجن أفسد عليه مجرى عمله . وقد لجأ إليّ ، كما لجأ الى آخرين ، ليجعلني أتحمس لفكرته ، وأسعى له عند أصحاب الأمر لكي يعود لمزاولة نشاطه ولينجح في نشر الدعوة لمشروعه . وقد سعيت له ولم ينجح مسعاي مع الأسف . واعتقد ان هذا الرجل الألوف الذي أطلعني على تجاربه كان يسير في الطريق السويّ

من الواجب علينا أن نعتبر المجرم كائناً معادياً للمجتمع ، أو كائناً غير اجتماعي على الأقل ، بمعنى أن شعوره بالمجتمع يمازجه الفزع منه أو انه لا يبالي به ولا يكترث له الامر الذي يقيد من علاقته به . فهو من ثمَّ وحيد في العالم ، تقيده شراسة ذاته ، ويعيش في عزلة رهيبة. ولم يتذكر محدثي (الذي بدا لي حجة في هذا الموضوع) أحوالاً تمكنت فيها الاحاديث الطيبة والمواعظ الحسنة من النفاذ في الدروع الصلبة لهذه الكائنات المنطوية على أنفسها ، أو من التغلب على مقاومة هؤلاء المسجونين ، تلك المقاومة الوحشية الباردة ، إلاّ في حالة ما تعرض حياتهم الى خطر . فهنا حيث أخفقت الألفاظ الطيبة ، كان للموسيقى القدرة التامة على النجاح . لقد درّب هؤلاء الرجال على الغناء الجوقي بأصوات كثيرة ، فكانت أرجاء السجن تدوي بالتوافقات وتطوراتها ، نتيجة لمجهوداتهم المشتركة فكان بعضهم يغني بـ « Si bemol » وبعضهم بـ « re » والآخرون بـ « Fa » ويواصلون جميعاً الغناء ويحصلون بذلك على انسجام آخر . وبتأثير هذا الانسجام، يتحول هؤلاء الرجال المحبوسون في وحدتهم الى جماعة قادرة على اتيان عمل خيري . فهم قد تشربوا بروح الاجتماع، وأحسوا احساساً مبهماً بجمال العمل المشترك . ومن ثمَّ ندرك بسهولة ان نفوسهم تنطوي على حرارة جديدة وسمو جديد . وليس في وسعي أن أتتبع التفسير بأحوال مماثلة

فمن الطبيعي أن ندع جانباً هؤلاء الذين يقفون كل حياتهم على الموسيقى ، ومع ذلك فعدد هؤلاء أقل مما نتصور . واني لأتمنى أن يدرّس في المدارس الغناء بأصوات كثيرة ، لكي نربي في نفوس الأطفال ذوق العمل المشترك الذي يتجلى في صور مختلفة للانسجام فانني لا أزال احتفظ في نفسي — من أعوام دراستي الاولى — بالاحساس بالفراغ

الذي كان يثيره غناؤنا بصوت واحد ، وبالشعور بالخلاص التي كانت تملأ قلوبنا عند ما نغني بأصوات كثيرة

ولا أظن ان هذه السعادة التي أتذكرها الآن جيداً ينبغي أن أفسرها باللذة الموسيقية فحسب ، تلك اللذة التي يثيرها رنين أغنى ، بل أيضاً بهذا الرضا المعنوي الذي كان ينشأ من هذا الاتحاد المنسجم بيني وبين زملائي . فعند ما يغني المنشدون بصوت واحد يكوّنون كتلة ، وعند ما يغنون بأصوات كثيرة يكوّنون مجتمعاً . وقوة الموسيقى هذه التي تنزع الى تهذيب الشعور الاجتماعي وتوجيهه نحو جماعة متآلفة ، برهان جوهري على وجودها وعلى شدة قوتها التهذيبية وليست هذه الجماعة مقصورة على جماعة العازفين ، ففننا يجذب الجمهور الى دائرته السحرية ، وسواء كان عدد المستمعين خمسة أو ألفين فان نفس الموجة تدفعهم جميعاً الى أسمى درجات العاطفة ، فالموسيقى تحولهم الى جماعة مشتركة : أجل ! انني كثيراً ما أحس عندما تقهرني قدرتها السحرية على التحول بأننا نخضع لنوع من التحلل الذي ينتهي بامتزاج جميع الانفس في نفس واحدة . فالموسيقى تزيل من الحواجز المضروبة على الفرد ، عند ما تدفعنا بلا مقاومة كنهر حقيقي من الحب . والنفس الانسانية ، هذه النفس المنفردة ، التي كتب عليها أن تقضي حياتها الأرضية في سجن دائم ، تتصل فجأة بالكون كله اتصالاً غير محدود ، وهي تحلق في آفاق العاطفة السامية كما تتطلع من وراء الغيب إلى سلام أبدي . وفي وسعنا أن نتمثل ، أثناء التجلي الموسيقي ، بأقوال فاوست وهو يحتضر « إنني أقضي أسمى لحظات حياتي وحيداً مع ينبئني بسعادة عليا »

ويبدو لي بوضوح في اللحظة التي أختم بها هذا المقال ، أنني عاجز عن اثبات ما تعرضت له بطريق العقل . فمن الواضح أن كل ما كتب وما سيكتب عن الموسيقى ، مع استثناء الوقائع التاريخية ، يجب أن ينتهي بعلامة استفهام لا بعلامة وقف . وانني لأضع هذا البحث تحت هذا التعبير الرمزي . . .

وليس من قبيل أحلام رجل موسيقي بذل عمره كله في حياة موسيقية ، ما أصبو اليه من ابداء الرأي وعرض الاقتراحات ، فالموسيقى تكشف أسرارها بنفسها في فصاحة قاهرة الى هؤلاء الذين يتفتح لها شعورهم

استسلم لندائها إذن ، أصغ الى « أداجيو » لبتهوفن . وسل نفسك بعد ذلك ألست على حق فيما أقول ؟ ألا تهدي الموسيقى شعورنا الخلقي الى سبيل يتفق مع سلوك الضمير ؟ وأخيراً ، ألا تطبع هذا الشعور الخلقي بطابع مقدس ينقيها ، بما لها من قدرة عجيبة تتصل بالقدرة الالهية . . .

هذه الحرب

نضالان (١)

يكاد الرأي يتفق بين علماء الاجتماع البشري على ان هذه الحرب ليست حرباً بالمعنى العادي المألوف من الحروب ، بل هي مزيج من لونين من النضال ، النضال القومي ، والنضال الاجتماعي الذي يرمي الى احداث انقلاب في حياة البشر . ففي الناحية الواحدة نضال قائم بين الأمم المتحاربة ، وفي الناحية الاخرى نضال قائم بين طبقات من الناس ، وآراء يعتنقونها في التنظيم السياسي والاقتصادي والاجتماعي . اما الاول فالوحدة فيه هي الدولة المؤتلفة او المحالفة لدول اخرى . وأما الثاني فيتعدى حدود الدول ، ويخرج عن نطاق الولاء القومي ، بل ربما مزّق الجبهة القومية وقطع أوصالها . وهذا اللون من النضال ، هو مظهر الانقلاب في نظم العمران ، واللوحة الواسعة التي ترسم عليها ، صور المعارك الدائرة الرحى في البر والبحر ، وفي أطباق الفضاء

فحالة العمران الذي يتجاذبه هذان اللونان من النضال ليست بالأمر الذي يسهل تبسيطه وتبين العوامل المتعددة المتفاعلة فيه . وكثيراً ما يخطئها الجمهور من الناس . وقد يخطئها فريق غير يسير من قادة الجمهور . وكل عمل يعمل يجب ان ينظر فيه قبل الاقدام عليه ، ثم يجب ان يحكم عليه بعد انجازه ، ثم يجب ان يقاس في الحالين ، بهل هو عمل يصلح من الناحية القومية ، أو هو مخالف لمصلحة طبقة من الطبقات ، أو كتلة من الكتل . وقد تمثلت هذه الحقيقة في غير بلد واحد قبل يونيه ١٩٤٠ ، وقبل ٧ دسمبر ١٩٤١ . وقليل من الناس يستطيع ان ينظر نظراً مجرداً الى التغير الدائم في ازمة العمران المتعددة الوجوه ، المتداخلة العناصر ، فيميل الى اقامة الوزن الاكبر في اعتباره ، للوجوه التي تعنيه ، وتمسه في المقام الاول ، مهملاً الوجوه الاخرى ، بعض الاهمال او كله . فمن الناس ، من يعنيه في المقام الاول ان هناك طائفة من الدول ، المعتدية ، تحاول ان ترفع نير طائفة اخرى من الدول القائمة ، لتخلق هي بدورها امبراطوريات جديدة . ومن الناس كذلك ، من يعنيه في المقام

(١) مجمل حديث أذاعه رئيس التحرير من بيروت ٢٨/٢/١٩٤٤

الاول ، طابع الانقلاب ، الذي يتميز به العهد الأخير من الحضارة . فيعتقد ان النضال الاصيل انما هو صراع بين الافكار أو صراع بين النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، التي تتجلى فيها هذه الافكار ، او تسعى الى ابرازها فيها . وقد يذهب بعضهم ، الى أبعد حد في هذا النظر ، فينكر النوع الاول من النضال ، اي النضال بين الامم ، ويؤكد ان هذا اللون من النضال متصف بصفة مصطنعة تخفي وراءها النضال الثاني وهو عندهم النضال الصحيح الأصيل

والحقيقة طبعاً ، هي ان كلاً من هاتين المدرستين ، من مدارس الفكر والنظر متأثرة بالتنشئة الفكرية والخلقية التي نشأت عليها ، ميالة الى ان تعلي من شأن المسائل التي تهمها في المقام الاول ، مهملةً المسائل الاخرى . وليست هذه الحالة بالحالة الجديدة ، الفذة المقتصرة على هذا العصر من عصور الحضارة . فعاصرو الثورة الفرنسية ، وعهد نابوليون واجهوا هذه المشكلة ، كما تواجهها أمم الأرض الآن . ولا يزال المؤرخون الى الآن غير متفقين على اي الأثرين الكبيرين من آثار نابوليون أهم وأجدر بالتقديم . أهو أن نبوليون فتح معظم اوروبة ، فأفضت فتوحاته الى قيام حدود سياسية جديدة ، وتوازن سياسي جديد ؟ أو أن نبوليون نشر عن طريق فتوحاته الافكار الحية المحركة الدافعة التي كانت منطوية في الثورة الفرنسية نفسها ؟

وما حدث حينئذٍ حادث الآن . ولكن المشقة التي نعانيها في استشفاف الحقيقة هي ان ما هو حادث الآن حادث لنا . فنحن في غماره ، أردنا أم لم نرد . والرجل الذي ينكفىء عن تدبره ، واستيضاح ما يجب عليه ، بصدق واخلاص ، هو أحد دعاة الهزيمة في معركة السلام والحضارة ، ويحق عليه ما يحق على دعاة الهزيمة ، في حرب الدفاع عن الكيان . بل أن النكير عليه أشد وأنكى لأن معركة السلام والحضارة هي معركة البشرية جمعاء . بل ليس في وسع احد الآن ، حتى ولا العالم الرياضي الذي لا يعنى الا بالرموز والمعادلات ، ان يقيم في برجه العاجي ، يطل منه على تيارات الحياة ، بغير ان يخوضها . فهذا الرجل ، يجب ان يهمه على الاقل ان يتاح له الجو الحر الذي يستطيع فيه ان يفكر ، ويبدع ، على سجيته ، واتاحة هذا الجو الحر مسألة اجتماعية يجب ان تعنيه

ان تاريخ البشرية ما فتىء منذ الأزل نضالاً بين طرازين من الرجال . أما الاول فهو الرجل المنتج المبدع ، الخلاق . وهذا الرجل لا يحتاج الى شيء كحاجته الى الاستقلال ، كي يفكر ويعمل . فلا هو يبتغي الى السلطان والسيطرة على الغير ولا يحتاج اليهما ، ولكنهُ

كذلك رجل لا تستطيع ان تكرههُ على التفكير والعمل اكراهاً . وأما الآخر ، فهو المستكين المسيَّر ، انهُ نوع من الطفيليات يخشى الاستقلال، ويرغب في ان يؤمر فيطيع . وان يوضع له النظام المحكم الدقيق فيجري عليهِ ، فيكون فيهِ ترساً في عجلة في آلة كبيرة . فهذا الرجل يوافق على النظام الذي يقوم الطاغية على رأسهِ — أيّاً كان منشأ الطاغية — لان ذلك يعفيهِ من ضرورة التفكير والعمل المستقل

ان السلطان والحرية غير متنافيين ، وفي وسع البشر ان يتمتعوا بالحرية بغير ان تعم الفوضى ، وفي وسع الحكومة ان تمارس السلطان بغير ان ينتشر الاستبداد . والناس يجب ان يكونوا سواءً امام القانون ، فمصيرهم ليس متعلقاً بنزوة حاكم طارئة ، أو شهوة شرطي سري . وهذه القواعد جميعاً مردها الى الايمان بأن للانسان الفرد كرامة في ذاته ، فيجب ان يمنح حريات أساسية لكي يتاح له النمو العقلي والروحي المتسق ، وهذه الحريات هي روح الحضارة ، واليها مرجع كل ارتقاء

ونحن ابناء هذا الشرق ، في دوله المختلفة ، قد جنبنا تجنياً كبيراً ، معظم أهوال الحرب — بالمعنى الاول — ومحنها . ولكننا لم نجنَّب ، ولن نجنب مشاق الحرب الثانية ، أو النضال الثاني . فمعركة الحضارة لا تنتهي . وصراع الحرية صراع مستمر يتجدد كل جيل . وأنكر خطيئة نبلى بها في هذا العهد الذي يتمخض عن صور جديدة من الاجتماع البشري هي خطيئة عدم المبالاة . وكلما أمعنا في دراسة الاسباب الباعثة على نهوض الحضارات وانحطاطها وجدنا صفحات التاريخ حافلة بالامثلة ، على ان كل تقدم مرده الى الافراد العاملين المبدعين الخلاقين ، فهؤلاء يجب ان يربوا التربية الحسنة. وان يتاح لهم الجو الحر الذي يستطيعون ان يبدعوا فيهِ وان يعملوا وهذا هو الهدف الانساني الاعلى

---

* وضع « كروتشي » الفيلسوف الايطالي مجلداً ضخماً في فلسفة التاريخ جعل عنوانه « التاريخ : قصة الحرية »

* على رجال العلم ان يحاربوا حربين — حرب المدافع والطائرات والدبابات ، بما يضيفونه الى أدوات الحرب من ضروب التحسين والاتقان ، وحرب الفكر لتحقيق الحرية التي لا يزدهر علم ما الاَّ في ظلها كتاب « العلم ونظام العالم »

عمر الخيام

كما أعرفه

لمحمود المنجوري

هل عمر الخيام خرافة

٣ — الوثائق التاريخية التي وردت فيها اخبار عمر الخيام

﴿ القسم الثالث ﴾ — وثائق وتعليقات دوّنت في القرن التاسع للهجرة وما بعده

(ا) — فردوس التواريخ لمولانا خسرو الابرقوهي سنة ٨٠٨هـ جاء فيه عن الخيام ما يأتي:

عمر هو ابن ابراهيم الخيام فذّ اقرانه في غالب علوم عصره وخصوصاً في علم الفلك ، وهو مؤلف لا يجارى ، وشاعر مقطوع النظير ، ومن أشعاره

هر دره كه دز روى زمينى بود ست
خورشد رخى زهـــره جبينى بود ست
كرد أزرخ نازنيـــن بآزرم فشان
كان هم رخ وزلف نازنينى بود ست

ان كل ذرّة في الوجود ما هي الاّ وجه جميلة بدده الزمن . فيا رفيقي قم فانفض هذا الغبار في لين ورفق، ان هذا التراب كان وجه فتانة وضّاحة الجبين

(ب) رياض الشعراء حوالى ١٣٢٨ هـ[1] . وفيه ما ترجمته :

كان عمر احد علماء عصره البارزين ، وكانت له مكانة رفيعـة فقدّره السلطان سنجر وقرّبهُ من مجلسه وأجلسهُ على سريره ، وكان في ايام الشباب قرناً في المدرسة لنظام الملك وحسن الصباح ، واشتهر وهو في مقتبل العمر بالورع والتقوى والاستقامة والتمسك بتعاليم دينه ، ولكنه لما بلغت بهِ السن مبلغها وأشرف على الكبر عكف على معاقرة الخمر يرتشف

(١) ذكر رس ان هذا الكتاب الف سنة ١٧٨٤ م وانه عثر فيه على ما ترجمناه هنا وهو مودع بخزانة المتحف البريطاني مجلد ١٥٥ رقم ١٦٧٢٩ ولم يذكر اسم المؤلف . وقد تحققنا من ان هذا الكتاب وهو مختصر كتاب اخبار العلماء للقفطي واختصره الزوزني باسم تاريخ الحكماء طبع لبسيك سنة ١٩٢٥ واما كتاب اخبار العلماء فقد طبع بمصر سنة ١٣٢٦ هـ وهو معجم تاريخي للفلاسفة والاطباء والعلماء الطبيعيين واصحاب الرياضيات من العرب وغيرهم — راجع ياقوت وجرجي زيدان

من كاساتها ضالته من الحكمة ، وما زال يشرب حتى يفقدَ الوعي فمرّض نفسه لسخرية الناس

وذكروا ان أمه بعد وفاته كانت تعكف الى الله باكية مصلية نادمة طالبة لابنهـا المغفرة والتوبة ، وان عمر جاءها ذات مرة في الحلم وأنشدها رباعية ذكرتها وتضرّع اليها أن تكف عن الدموع والاستغفار له « فما كان البكاء والاستغفار بمنقذ عمر من النار ! . وليس لمخلوق ان يُعَلِّمَ الله كيف يرحم عباده ! »

هذه وثيقة طريفة حقًّا جاءتنا بالجديد من المعلومات ، فعمر كان أيام شبابهِ عفًّا تقيًّا ولـكن الحال تغيرت بهِ أيام شيخوخته ، فشرب وعبث ، وعاشت أمه بعده تطلب له الرحمة والغفران . ثم جاءها في المنام ، وأنشدها رباعية

وفي الحق أني لا أستطيع ان آخذ بهذه الوثيقة في جملتها ، ففيها أمور كأنها قصة صادرة عن خيال منمق رفيع ، ولهذا لا أجدها في الجملة مرجعاً تاريخيًّا ، فليس من المعقول أن تبقى أم عمر — وهو المعمّر — حية من بعده ولها من المواهب ما يحفظ زواية الشعر وروايته عن النام !

ونص هذه الوثيقة يقرر بأن عمر عاش الى زمن رأى فيه (سنجر) بن ملك شاه سلطـانًا ، وبأن سنجـر قرَّبهُ وأجلسـه على سريره . واني لأجد من الخير ان أقرن ما ذكرته هذه الوثيقة بوثيقة قديمة كتبت قبل هذه بنحو ٨٢٢ سنة كتبها العروضي السمرقندي أحد تلاميذ الخيام ظفرت بها في كتاب نزهة الارواح للشهرزوري نقلاً عن (جهار مقالة) وترجمتها : ودخل — أي عمر — على السلطان سنجر وهو صبي وقد أصابهُ جدري ، فلما خرج سأله الوزير كيف داويته وبأي شيء عالجته فقال عمر : بالصبي مسّ ، فسعى بذلك خادم حبشي الى السلطان . فلما شفي السلطان أبغضهُ

ونحن نستطيع ان نجني من هذا النص الاخير ان عمر دخل على الصبي سنجر بن ملك شاه لما كان وليًّا للعهد ، وكذلك تؤيد هذه الوثيقة الرأي القائل بان الخيام درس الطب وحذقه حتى استدعاه السلطان ليطبب ولي العهد

(ج) التاريخ الألفي[1] ذكر الخيام في التاريخ الألفي ، وهو مصدر وضع بعد القرن الرابع عشر . في سفر سجل الحوادث التاريخيـة في الالف عام الاولى للهجرة الحياة الاسلامية فهو يتناول سرد الاحداث إلى القرن السادس عشر للميلاد

وهو مختصر نزهة الارواح للشهرزوري ، وقد جاء فيه ما خلاصته : الحـكيم عمر الخيـام هو واحد علماء خراسان وهو في الفلسفة صنو ابن سينا

(١) التاريخ الالفي لمؤلفه أحمد بن نصر الله تتوى

ونستطيع ان نعلم من مراجعة تاريخ الشهرزوري[١] ان عمر قد ولد في مدينة نيسابور وان اسرته نيسابورية الأصل والمنشأ ، ولكن البعض يزعم انهُ ولد في قرية شمشاد التابعة لمدينة بلخ ، وبعضهم يقول بأنه مولود في قرية (بسنك) التابعة لاستراباد . على ان الذي يؤكده الشهرزوري هو ان عمر مولود في نيسابور[٢] . وكان ضنيناً في التأليف والنشر فلم يخرج كتباً كثيرة وله فيها (ميزان الحِكَم) في ماهية الأحجار الكريمة و (لوازم الأمكنة) في فصول السنة . ويستدل من تآليفه على انهُ كان يؤمن بتناسخ الأرواح فروى انه في مدينة نيسابور مدرسة قديمة أخذ في اصلاح بنائها ، وبينما كانت الحمير تحمل مواد البناء الى المدرسة ، كان الاستاذ عمر الخيام يتمشى في فناء المدرسة مع جماعة من تلاميذه ، فبصر بحمار يحجم عن الدخول في استحياء، فابتسم الخيام واستبق الحمار وأسرَّ في أذنه الرباعية الآتية

أي رفته وباز آمده بل هم گشته
نامت زميـــان نامها گم گشته
ناخن همه جمع آمده وسم گشته
ريش ازپس كون در آمده دم گشته

يعني : يأيها الذي غاب ورجع مرة أخرى من الأنعام ، ذهب اسمك بين الاسماء وقد تبدلت أظافرك وصارت ظِلْفاً ثم بدت لحيتك في عجزك ذيلاً

فدخل الحمار المدرسة في غير تردد ، فسأل التلاميذ استاذهم ما شأن هذا الحمار ؟ فقال لهم ان الروح التي علقت بهذا الحمار كانت لاستاذ في هذه المدرسة ، لهذا تردد الحمار في الدخول استحياءً من الرفاق ، فلما علم ان الاصدقاء قد عرفوه دخل وقضي الأمر

فان تعجب فعجبٌ كيف أخذ بعض المستشرقين هذه الرواية اخذاً صحيحاً فنقلهـا ذوكوفسكي عن التاريخ الألفي وأكد بها ان خياماً كان يؤمن بتنـاسخ الأرواح ، ثم نقلها غيره أمثال رُس وأكد بها في أبحاثه بأن الخيام كان مؤمناً بالتناسخ ، مع ان هذه الرواية في وضعها تعارض ما ذكر عن الخيام من حكمة وفلسفة ، فهي في تأليفها خرافة أو فكاهة مدسوس بها على فيلسوف مفكر له نقاد ومعارضون فما كان لرجل مثل الخيام له وقاره ومركزه العلمي والفلسفي[٣] ان يسر الى حمار شيئاً في أذنه يحول الحمـار عن قصده ،

(١) راجع وثيقة الشهرزوري التي أوردناها في وثائق القسم الثاني

(٢) نيسابور مدينة فارسية فتحها المسلمون أيام عثمان وفي رواية أيام عمر ثم استردها عثمان وهي مشهورة بأهل العلم كالامام الموفق استاذ عمر الخيام — ياقوت

(٣) لقب الخيام في عصره بألقاب علمية ، فسماه السمرقندي « حجة الحق » والبيهقي « الامام » والنسوي « سيد الحكماء » ولقب في عصره بالفيلسوف — جامع البدائع

والرباعية في شكلها سخرية ليس لها من مثيل في تأليفها وموضوعها في جميع الرباعيات حتى المنسوب منها الى الخيام . ولم يذكر في أي مصدر من المصادر التي ذكرت الخيام انهُ كان استاذاً في مدرسة نيسابور ، مع ان هذه الرواية تدل على انه كان استاذاً في هذه المدرسة

ولهذا ليست لهذه الوثيقة أي قيمة تاريخية من ناحية الحكم على عقيدة الخيام وإنْ أخذ بها بعض المستشرقين أمثال زوكوفسكي ورُس وغيرهما

وسنترك مناقشة عقيدة الخيام في التناسخ لمكان آخر من هذا البحث

هذه هي الوثائق التي استطعنا الى الآن أن نصل اليها وهي حجج قاطعة ترد دعوى الدكتور ملر بأن الخيام خرافة . .

وهناك وثيقة أخرى جاء بها الشيخ مير خند جواندمير صاحب كتاب روضة الصفا وهو من علماء القرن الثامن للهجرة سجل فيها وصية نظام الملك ، ولقد سلخناها من وثائق القسم الثاني لقيام شك المستشرقين فيها ، ولأن السير رُس قطع بعدم صحتها . واليك نص هذه الوصية عن الفارسية :

وصية نظام الملك

نقل الشيخ ميرخند هذه الوصية في كتابه روضة الصفا (ج ٤ ص ٦١) وهو من علماء القرن الثامن للهجرة ، ولقد أخذ بعض العلماء هذه الوصية وثيقة صادرة من نظام الملك نفسه كما رفض البعض الآخر الوقائع التي وردت فيها . واليك ترجمتها :

« قال الاستاذ نظام الملك أسبغ الله عليه فيض رحمته ، كان الشيخ مُوَفَّق النيسابوري رحمه الله رحمة واسعة من أعظم رجال خراسان علماً وحكمة ، وكان رجل وقار وبركة ، ناهز من العمر الخامسة والثمانين ، وذاع صيته وآمن الناس بأنَّ من قرأ عليه القرآن والحديث نال مرتبة عالية وشرفاً رفيعاً ، ولهذا بعثني اليهِ أبي مع الاستاذ الفقيه عبد الصمد ، فخرجنا من طوس وسعينا الى مجلسه في نيسابور أطلب العلم وأجِدُّ في التحصيل من فيضه الموفور

ولقد شملتني عناية أستاذي واحتوتني رعايته ، فوقع من قلبي موقعاً . ونال مني محبة واحتراماً ، ولبثت على هذه الحال أربع سنين

وحدث أن رأيت عند مقدمي اليه طالبين يبلغان من العمر ما بلغت ، قد وصلا اليه ولما يمض عليهما غير يسير ، وهما الحكيم عمر الخيام ، والملعون حسن بن الصباح ، وكان لهما حظٌّ من الذكاء وفير ، وما لبثنا حتى كانت بيننا مودة ربطتنا برباط قوي متين فاذا انتهينا من حلقة إمامنا سعيا إليَّ نستذكر دروسنا كل يوم

وكان عمر نيسابوري المولد ، وأما حسن بن الصباح فكان أبوه من الري ، وكان رجلاً صعب المراس ساء مذهبه وخبث مشربه وفسد معتقده ، نشأ حسن في الري في زمن وليه أبو مسلم الروزي ، رجل الفضل والعقيدة ومكارم الاخلاق ، بينما كان حسن ملحداً خارجاً على الجماعة وأهل السنة مكثراً من اظهار مفاسدهم ، ولكنهُ كان اذا حضر مجلس الوالي أبي مسلم اصطنع الورع والتقوى ، ودفع عن نفسه الريب والشكوك ، واتخذ من تلمذته على الامام موفق النيسابوري ، وهو امام أهل السنة والجماعة في نيسابور ، دافعاً للشبهات مُستاقاة وتدليساً . فلازم دروس الامام متخذاً الزهد والعزلة دليلاً على صدق طويته وسلامة معتقده ، ولكن حاله كانت مترددة فرويت عنه دعوة الإلحاد وشاع مروقه بين الكافة ، وكان يدعي انهُ عربي المنتسب حميري القبيلة من آل صباح ، وان والده من الكوفة نزل الى (قم) ثم انحدر الى (الري) ولكن ذلك ما كان ليأخذه أهل خراسان بل أنكروه على حسن ، وكذّبهُ أهل طوس ، وذكروا ان أباه كان قرويًا صُعلوكاً من أهالي خراسان

ولقد جاءني حسن ذات يوم واستبق القول فقال : نحن تلاميذ الامام موفق النيسابوري ، فلابد لنا من نوال حظوظ مسعودة ، فان لم ننلها جميعاً فلا بدَّ من واحد منا نائلها . فمن هذا السعيد الذي سيحظى بفيض الامام وتوفيقه ، فأي عهد نستوثقه بيننا حتى يرعى صاحب الحظ أخويه ؟ فقلنا ليكن ما تريد . فقال فليكن بيننا الميثاق على ان من ينال رفعة وحظًا أشرك أخويه فيما أتاه من الدنيا . فقلنا : فليكن هذا الذي تقول والله على ميثاقنا شهيد . ومضت السنون ودارت الايام دورتها ، وتنقل بي السفر من خراسان الى ما وراء جيحون ، ثم استقرَّ بي المقام في غزنة وكابل ، ولبثت فيهما ردحاً من الزمن ثم عاد بي النوى الى بلدي وأهلي ، فوكل إليّ السلطان الب أرسلان عملاً مسئولاً وقلدني وظيفة خطيرة . ثم استوزرني على رعيته ، فجاءني عمر الخيام فأكرمت وفادته ، وذكرت ما تعهدنا بهِ من حسن الوفاء . وعرضت عليه ان من كان على علمه وفضله وجب أن يلازم مجلس السلطان . وقلت لهُ سأذكر فضلك عند ربي ، فهيء لك مكانة في نفسهِ لتقع منها موقعاً . فتصبح من نفسه كشخصي حظوة ومكانة . فقال الحكيم الخيام : لقد دعاك منبتك الطيب ودفعتك نفسك الكريمة وألهمك وفاؤك الحسن الى ما عرضت ، وفي الحق لست أنا غير رجل ضعيف متواضع لا يليق لأن يكون ما أردت من شرف ، فلست قمينًا بتواضع وزير المشارق والمغارب ، وان هذا الالتفات الرحيم الذي آثرتني بهِ ليس بالشيء الكثير ولا الغريب عن خلقك الكريم وشأنك الخطير ، فلتكن أياديكم باقية عليّ أبد الدهر واني لو قضيت العمر

شاكراً لكم لما أجزيت الوفاء حظه ، فلأكن يا مولاي موضع الخضوع لمقامكم ولست بقادر أن أرد ما أمرت أو أدفع ما شملتني من عطف فان في الرد كفراً وجحوداً ، على اني لا أبغي من الدنيا إلاّ أن ألبث في دولتكم متصلاً بكم مشتغلاً بنشر العلم والمعرفة داعياً لكم بطول البقاء

ولم يتحوّل عمر عن كلامه ، وأيقنت انهُ مدفوع اليهِ عن ضمير ورغبة ، فعينت له كل عام ١٢٠٠ دينار من بيت المال في نيسابور ينفقها في شئونه ، ولكن عمر عاد بعد ذلك الى موطنه وعكف على دراسة علومه خصوصاً علم الهيئة الذي بذّ فيهِ الأقران وبلغ منهُ مبلغاً رفيعاً ، ثم عاد الخيام الى (مَرْو) وأخذ في تدريس علم الحكمة في عصر ملك شاه ، فقربهُ الملك وأعزه ، وبلغ الخيام في عهده مبلغ كبار العلماء والحكماء »

وذكرت الوصية ذهاب حسن الصباح الى نظام الملك يستوفيه عهده ، وان الوزير ترك له الخيار في ولاية الري واصفهان . ولكن حسن لم يكن ليقنع بهذا الذي عرض عليهِ فأحسّ بهذا نظام الملك، فقدمهُ للسلطان حاجباً له ، وظل في مركزه يرقب الفرص ويتحينها ، وأبى إلاّ أن يكون خوّاناً غدّاراً فراح يعبث في البلاط سعاية ووشاية ، فسعى بالوزير لدى السلطان ثم افتضح أمره فشقّ عصا الطاعة وخرج غاضباً موتوراً معلناً الثورة العامة

مجمل رأي الذين يرفضون وثيقة نظام الملك

تشكك غير واحد من المستشرقين في الوقائع التي نطقت بها هذه الوثيقة ، وجاءوا تأييداً لشكهم بأسباب اعتمدوا عليها في تقرير عدم صحتها ونسبتها الى الوزير نظام الملك ، ومن هؤلاء العلماء السير رُس والمستشرق هوتزما

ولقد توسلوا الى عدم صحة هذه الوثيقة بالتشكيك في اجتماع الرفاق الثلاثة عمر ونظام الملك وحسن الصباح في مدرسة واحدة لاستحالة تقارب أعمارهم ، وقد أيّدوا ذلك بأدلة أوردوها ، وبهذا تمكنوا من إيجاد برهان على ان هذه الوصية لم تصدر من نظام الملك وفي هذا يقول السير رُس :

« أخذ بهذه الوصية جميع الذين درسوا عمر ، وقبلها العمريون على أنها شيئاً تاريخياً لا يتطاول اليه الشك ، على الرغم مما تحوي من تناقض تاريخي ملحوظ

على اننا نستطيع أن نبحث عن التاريخ الأدبي لهذه الوصية، فنجد انها ذكرت لاول مرة في كتاب المؤرخ الفارسي الشيخ مير خند ، فلما اراد المتقدمون من الباحثين ان يبحثوا في صدق هذه الرواية ومبلغها من الحق التاريخي وجدوا انها دُوّنت تدويناً معقداً في القرن

الخامس عشر للميلاد ، أي بعد عصر الخيام بنحو الف سنة ، وانها لم تكتب في المراجع التي ذكرت الخيام في السنوات التالية لعصره ، وانها منسوبة الى الوزير نظام الملك وبدأ المتادبون يميلون الى رفض حكاية الرفاق الثلاثة التي سجلتها وصية نظام الملك ، ونظروا اليها نظرهم الى رواية مشكوك في وقائعها ، فقال المستشرق هوتزما أن واضع هذه الوصية قد خلط بين نظام الملك وبين وزير آخر من عظماء الفرس وهو أنوشروان بن خالد ، فلقد ذكر أنو شروان عن نفسه انهُ هو الآخر كان في المدرسة مع حسن الصباح، ولكن هذا الرأي قد ناله فتور، وأصابه اعراض، لما أخذ المستشرق برَون بوصايا نظام الملك وأكّد صحتها، ولقد سارت مسير الحقائق التاريخية في القرن الرابع عشر للميلاد ، والرأي عندي هو ما رآه هوتزما ، فقد يحتمل أن تكون الخرافة قد بدأت كما تبدأ الخرافات دائماً بالخلط بين الاشخاص ، فقد يكون أحد الاشخاص أو الرواة، قد خلط لأمرٍ ما، بين الوزيرين نظام الملك وانوشروان، ونسب ما قرره انوشروان عن اجتماعه هو وحسن الصباح في مدرسة واحدة الى نظام الملك، وتناسى الناس حقيقة الأمر وذكروا الواقعة منسوبة الى نظام الملك

على أني اميل الى رفض قصة الرفاق الثلاثة لسببين : الاول ان المؤرخين المتقدمون والذين اتصل عصرهم بعصر الخيام أو قرب منه لم يذكروا وصية نظام الملك ولم يشيروا اليها ، الثاني ان ليس من المعقول تعمير الخيام وحسن الصباح معاً هذا الاجل الطويل، فجميع المراجع أجمعت على أن مولد نظام الملك كان في سنة ١٠١٧ م اذ انه مفروض ان الخيام وحسن الصباح كانا قرنين لنظام الملك فتكون سنة مولدهما على وجه التقريب هي نفسها هذه السنة أي سنة ١٠١٧م، وقد ذكر ان عمر الخيام مات سنة ١١٢٣م على حين مات حسن الصباح سنة ١١٢٤ م أي انهما عمّرا نحو مائة سنة وست ثم وسبع . فان حدث وطال هذا الأجل لأحدهما فكيف حتمت الاقدار أن يطول الأجل لكليهما!

على انهُ لو ظهر ما يُسعيننا على تحديد ميلاد حسن أو عمر في سنة متأخرة اذاً لرجعنا بهذه الوثائق التي تهيء لنا اسباب الحكم على سلامة قصة الرفاق الثلاثة أو على مبلغها من الانتحال. واذا أقمنا الحجة على ان حسن الصباح لم يكن مع نظام الملك في مدرسة واحدة ، كان في هذا الكفاية على نقض الثقة في قصة الرفاق الثلاثة ، وعلى انتحال الوصايا ونسبتها الى الوزير نظام الملك ، على انني أرى انه اذا لم يتح لنا إقامة حجتنا هذه على إبطالها وجب علينا اذا أخذنا بها ان نعتمد على شهود رأوا الرفاق الثلاثة في مدرسة واحدة ، فليست المراجع وحدها كافية لأن تكون دليلاً على مثل هذه القضايا ولكن الاثبات فيها يكون قوياً مدعماً اذا ما أكدته البيّنة

ولقد اطلعنا على مذكرات لوزير فارسي مشهور ، وهو انوشروان بن خالد ، الذي سجل على طائفة الاسماعيلية كبائرها وخفاياها ، وذكر لحسن بن الصباح وأتباعه جرائم وآثاماً ، وليس من شك في ان هذه المذكرات سجلت أهم الأحداث التاريخية التي عاصرته او التي اتصلت بعصره اتصالاً وثيقاً ، وهي على وجه التحديد الأحداث التي وقعت بين موت الفاتح ارطغرل بن محمود وبين حكم ملك شاه أي بين سنتي ١٠٧٢ م — ١١٣٤ م . ولقد ترجم هذه المذكرات الى العربية المؤرخ الاسلامي عماد الدين الاصفهاني احد خلصاء صلاح الدين ، وذيلها بتضمين لتاريخ السلاجقة ، ثم أعاد نسخ هذا التاريخ البنداري في القرن الثالث عشر للميلاد

هذا هو التاريخ الأدبي الذي نشره هوتزما سنة ١٨٨٩ ، وإنك لتجد في صفحة ٦٦ من النسخة العربية المذكورة بيانات طريفة سجلها انوشروان بنفسه عن قيام مذهب الاسماعيلية (١)

وليست قيمة هذه البيانات في انها تقرير من وزير عاصر حسن الصباح وزامله في المدرسة ، ولكنها تضم الى هذه القيمة تصويراً واضحاً لحسن الصباح يكشفنا على تعليمه وعلى ناحية من أيام شبابه ، وفي الحق ان الوزير انوشروان لم يذكر اسم حسن الصباح صريحاً ، الا انه أراده فعبر عنه بكلمات لا تميز غير شخصية حسن نفسه ، وليس من العسير عليك ان تميز شخصية حسن مما وصف انو شروان ، فهو يقول « لقد وقع امر يدعو الى العجب في سياق الأحداث التي حدثت ، اذ ان أشخاصاً كانوا معنا في المدرسة ونالوا ما أخذنا من حظ وفير في العلم والدين والفقه والآداب ، قد اختلفوا عنا مشرباً ومذهباً ، وكان من بينهم صاحب (ري) (٢) الذي تنقل في الأسفار والذي اتخذ النسخ والكتابة حرفة له ، ونفذ أعماله بقدرة ونجاح ، ثم انبرى في ثورة وما زال بها حتى استولى على قلعة حصينة ، ثم ارتكب أعمال الارهاب والتخريب مع أتباعه ، وما زالت مذاهبهم خافية عن الناس حتى افتضح امرهم وشاع (٣) .

(١) وصف الوزير انو شروان الفظائع التي ارتكبها حسن الصباح وأتباعه ، والجرائم التي نهض عليها نظام مذهب الاسماعيلية الارهابي ، وكيف قام حكم الارهاب الذي أخذوا به أهالي البلاد والملوك . وقرر انو شروان أن أول رجل عظيم ذهب ضحيتهم هو الوزير نظام الملك حيث قتل سنة ١٠٩٢ م بعد موت ملك شاه بشهر واحد (برون ط هوتزما ص ٦٧) ورس ط ١٩٠٢ ص ٣٣ لندن

(٢) جاء بكتاب جامع التواريخ ان حسن الصباح ذهب من الري الى نظام الملك ليحظى بخدمته وذكر الوزير بوعده فقال له نظام الملك « لك الخيار بين ولاية الري واصفهان » فلم يقنع حسن بذلك ولم يرض به اذ كان يتوقع أن يشاركه الوزارة . فقال له نظام الملك فلتلزم خدمة السلطان

(٣) البنداري ط هوتزما ص ٦٧ ، ورس ط لندن سنة ١٩٠٢ ص ٣٢

باب المراسلة والمناظرة

تحقيق سن عائشة

لأحمد محمد شاكر

يقول صاحب كتاب « الصديقة بنت الصديق »(١):

« كانت روايات من أقوال الاقدمين تذكر ان النبي عليه السلام خطب السيدة عائشة وهي في السادسة وبنى بها وهي في التاسعة . وكان هذا مجالا لاعداء الاسلام وأعداء نبي الاسلام يبدئون فيه ويعيدون ، ويجدون المستمعين والمتشككين حتى بين المسلمين . فهنا مجال لاطالة الوقوف يعبره أمثال هذا الناقد الحاقد مهرولين ويجهلون ما وراءه من الزور الاثيم والبهتان المبين . وهنا وقفنا لنثبت بالعقل والنقل أن محمداً عليه السلام لم يبن بالسيدة عائشة إلا وهي في السن الصالحة للزواج بين بنات الجزيرة العربية ، فأثبتناه على رغم الاقاويل والسنين » (الرسالة ٥٥١ في ٢٤ يناير سنة ١٩٤٤)

وهذه الروايات التي نجهل ما وراءها « من الزور الاثيم والبهتان المبين » (!) هي الروايات الصحيحة التي لا شك في صحة إسنادها والثقة برواتها عن سن عائشة حين زواج رسول الله بها ، وأنه عقد عليها وسنها ست سنوات ، وبنى بها وسنها تسع سنوات ، وهي الاحاديث التي رواها البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه والدارمي وأحمد بن حنبل وابن سعد كلهم من حديث عائشة بالاسانيد الثابتة الصحاح ، وبالالفاظ الواضحة التي لا تحتمل تأويل المتأولين . ولا لعب العابثين ، والتي رواها ابن ماجه من حديث عبدالله بن مسعود وابن سعد من حديث أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود ومصعب بن سعد بن أبي وقاص وابن شهاب الزهري وحبيب مولى عروة بن الزبير . كل هؤلاء الأئمة الثقات الأثبات الذين يروون ويصدقون ما يروون ، هم عنده مثلنا « ما يجهلون ، وراءه من الزور الأثيم والبهتان المبين » ويدركه هو وحده بما أوتي من جرأة وتهجم ، وبما فقد من بحث وتحقيق ، فهو يثبت وينفي « على رغم الأقاويل والسنين » فهو يلعب بالروايات ويحرفها كيف شاء ثم

(١) انظر نقد بشر فارس لهذا الكتاب في المقتطف ، فبراير ١٩٤٤ ، باب « التعريف والتنقيب ».

يقول : « ولهذا نرجح أنها كانت بين الثانية عشرة والخامسة عشرة يوم زفت اليهِ » (كتاب الصديقة ص ٦٥) ثم ينمي ما اجترحت يداه فيقول (ص ٧٨) :

« فعائشة البكر التي لم يتزوج النبي بكراً غيرها قد مات عنها عليه السلام وهي دون العشرين »

« فههنا انفلات من ذلك الجزم » كما قال الدكتور بشر فارس في نقده ص ١٩٣

وهو يبني تحقيقه هذا العجيب على مقدماتٍ اخترعَ بعضها اختراعاً ، وحرَّف بعضها تحريفاً منكراً ، بالتحوير أو التأويل ، ثم يسوق ذلك كله مساق الحقائق التاريخية الثابتة ، شأن الرواة الثقات . ثم لا يذكر شيئاً من الحقائق التي تخالف هواه . فهو يقول :

« وتختلف الاقوال في سن السيدة عائشة يوم زفت الى النبي عليه السلام في السنة الثانية من الهجرة ، فيحسبها بعضهم تسعاً ويرفعها بعضهم فوق ذلك بضع سنوات » (الصديقة ص ٦٤)

أما زعمه أن بعضهم يرفعها فوق ذلك بضع سنوات فانه قول مبتكر ، لم يقله أحد من العلماء ، ولم يرد في رواية من الروايات ، وإنما يريد أن يتزيد بهِ ويصل الى بغيتهِ .

وأما جزمه بأن الزفاف كان في السنة الثانية من الهجرة ، فانهُ اعتمد فيه — فيما أرى — على قول الحافظ النوويّ في تهذيب الاسماء (ج ٢ ص ٣٥١) : « وبنى بها بعد الهجرة بالمدينة بعد منصرفه من بدر في شوال سنة اثنتين بنت تسع سنين ، وقيل بنى بها بعد الهجرة بسبعة أشهر وهو ضعيف ، وقد أوضحتُ ضعفه في أول شرح صحيح البخاري » هكذا يقول النووي ولكنهُ نسي ، فانهُ لم يوضح دليل ضعفه في أول شرحه للبخاري عند شرح الحديث الثاني من الصحيح ، في نسختنا المخطوطة عن أصلها العتيق . وهذا الترجيح من النووي في تأريخ الزفاف خطأ صرف . والقول الذي ضعَّفه بغير دليل هو الصحيح الراجح . قال الحافظ بن حجر في فتح الباري (ج ٧ ص ١٧٦ من طبعة بولاق) : « واذا ثبت أنهُ بنى بها في شوال من السنة الاولى من الهجرة قوي قول من قال انهُ دخل بها بعد الهجرة بسبعة أشهر ، وقد وهَّاه النووي في تهذيبه ، وليس بواهٍ إذا عددناه من ربيع الأول ، وجَزْمُه بأنَّ دخوله بها كان في السنة الثانية يخالف ما ثبَتَ » . والدليل على خطإٍ ما رجحه النووي حديث عائشة نفسها في طبقات ابن سعد (ج ٨ ص ٣٩ — ٤٠) : « تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم في شوال سنة عشر من النبوة ، قبل الهجرة لثلاث سنين ، وأنا ابنة ست سنين ، وهاجر رسول الله صلى الله عليهِ وسلم فقدم المدينة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ، وأعرس بي في شوال ، على رأس ثمانية أشهر من المهاجَر ، وكنتُ يومَ دخل بي ابنة تسع سنين »

فالثابت من قول عائشة نفسها أن رسول الله بنى بها في السنة الاولى من الهجرة ، في شوال بعد مهاجره في ربيع الأول ، بسبعة أشهر على رأس الثامن . وترجيح النووي أن ذلك كان بعد غزوة بدر في السنة الثانية ، ترجيح بغير دليل ، والادلة الثابتة تنفيه

فحكايةُ الكاتب الجريء قولاً مرجوحاً لا دليل عليه ، وإتيانه به في صيغةٍ توهم أنه القولُ الواحدُ الذي لم يروَ غيره ، كأنه قضية مسلمة ، إذ يقول : « وتختلف الأقوال في سن السيدة عائشة يوم زفتْ الى النبي عليه السلام في السنة الثانية من الهجرة » . هذا الصنيع منه لن يكون من الأمانة العلمية في شيء

ومن هذا النوع من الأمانة قوله (ص ٦٤) : « فقد جاء في بعض المواضع من طبقات ابن سعد أنها خطبت وهي في التاسعة أو السابعة » . والذي في ابن سعد (ج ٨ ص ٤٢) : « أخبرنا محمد بن حميد العبدي حدثنا معمر عن الزهري وهشام بن عروة قالا : نكح النبي صلى الله عليه وسلم عائشة وهي ابنة تسع سنوات أو سبع » . وأنا أوقن أن الكاتب الجريء أعرف باللغة العربية من أن يخفى عليه الفرق بين معنى « نكح » وبين معنى « خطب » وأنهُ لن يغير لفظ إحداهما الى لفظ الأخرى عن جهل بهما ، وإنما يفعل ذاك عن عمد وهو يعرف ما يفعل

ثم ما باله يدع الروايات الصحيحة المتواترة ، ولا يستند الاّ الى الروايات الشاذة أو المنكرة التي تخالف كل رواية صحيحة ؟ . أمامه الروايات الصحيحة في كتاب ابن سعد وغيره عن الزهري وعن هشام بن عروة وعن غيرهما أن رسول الله تزوج عائشة وهي بنت ست سنين ، وفي بعضها « سبع سنين » ودخل بها وهي بنت تسع سنين . فما بال هذه الرواية التي لاشك أن راويها أخطأ فيها أو اختصر فأخطأ من روى عنهُ فهمَ اختصاره . ولكنّ الكاتب الجريء يريد شيئاً معيناً ، فلا عليهِ أن يتخيَّر منْ الروايات اضعفها ، ولا عليه أن يحرف ألفاظها الى ما يشاء ، لتصل بهِ الى ما يريد ! ثم هو يريد أن يصور للقارىء أن الذي كان في السنة العاشرة من البعثة قبل الهجرة بثلاث سنوات هو خِطبةٌ فقط ، يوهم أنهُ لم يكن هناك زواج ، وإن لم يصرح بنفيه ، فيقول (ص ٦٣) :

« وجرت الخطبة بعد ذلك في مجراها الذي انتهى بالزواج بعد سنوات » ويقول (ص ٦٤) : « فتمت الخطبة في شوال سنة عشر من الدعوة قبل الهجرة بثلاث سنوات »

ويحرف رواية ابن سعد من كلمة « نكح » الى كلمة « خطبت » ويقول (ص ٦٥) :

« وان خطبة النبي كانت في نحو السنة العاشرة للدعوة »

ويقول في (الرسالة) في الكلمة التي اقتبسناها أول مقالنا هذا :

« كانت روايات من روايات الاقدمين تذكر أن النبي عليه السلام خطب السيدة عائشة وهي في السادسة الخ»

وهو يعرف كما يعرف المسلمون جميعاً، عالمهم وجاهلهم ، ذكيّهم وغبيّهم، أن الخطبة عند المسلمين غير الزواج ، وأنهما غير الزفاف والدخول ! ولكن هكذا يكون الكاتب الجريء

وأعجب من هذا كله ، وأشدُّ جرأةً على الحق ، وأشد تهجماً على سيرة رسول الله ، وأسوأ أثراً على الجريء فيما قال وكتب، وفيما يقول أو يكتب، أن يقول (ص ٦٤) :

« فقد جاء في بعض المواضع من طبقات ابن سعد أنها خطبت وهي في التاسعة أو السابعة ، ولم يتم الزفاف كما هو معلوم إلا بعد فترة بلغت خمس سنوات في أشهر الاقوال » !

أما القول الذي يصفهُ بأنهُ « أشهر الاقوال » فانه لم يقله أحد قط، ولم يُروَ في كتاب من كتب السنة أو السيرة أو التاريخ ، هذا الى محاولة تصوير هذه الفترة بأنها فترة خطبة لا فترة زواج قبل البناء ، ثم هو يصرُّ على ما ادعى اصراراً عجيباً لم يأت عليهِ ببرهان . فيقول ما نقلنا من قبل : « وجرت الخطبة بعد ذلك في مجراها الذي انتهى بالزواج بعد سنوات.»

ويقول (ص ٦٤ — ٦٥) :

« إذ لا يعقل أنها — يعني خولة بنت حكيم — تشفق من حالة الوحدة التي دعتها الى اقتراح الزواج على النبي ، وهي تريد له أن يبقى في تلك الحالة أربع سنوات أو خمس سنوات أخرى » !

ومن أين يأتي بالخمس السنوات ويدعي أنها أشهر الأقوال ؟ والأقوال كلها متضافرة على أنها ثلاث سنوات والشهور محدودة فيها بينة ؟ يتمسك بالروايات الصحيحة التي فيها أن الزواج كان قبل الهجرة بثلاث سنين ، ثم يجزم بالرواية الضعيفة أن الزفاف كان في السنة الثانية من الهجرة ، ثم لا يجدُ مناصاً من قواعد الحساب أن الثنتين إذا أُضيفتا الى الثلاث كان الجميع خمساً من غير تردد . فقد سُلِّمَ له قوله ووصل الى ما أراد . ولكنه نسيَ أو تناسى أن الروايات كلها تذكر أن بين الزواج والزفاف ثلاث سنين فقط ، وأنها حُددت بالشهور من شوال الى شوال ، وأنهم كثيراً ما يذكرون عدد السنين ويجبرون فيها الكسور ، فتقول عائشة ما روينا من قبل : إن رسول الله تزوجها قبل الهجرة بثلاث سنين، وهي تريد سنتين وكسراً إذ حدَّدت التاريخ بالشهور : أن الزواج كان في شوال سنة عشر من النبوة ، وأنه قدم المدينة في ١٢ ربيع الأول ، وهي السنة الأولى من الهجرة ، وأنه دخل بها في شوال من السنة نفسها على رأس ثمانية أشهر ، وأنه تزوجها وهي بنت ست سنين ودخل بها وهي بنت تسع . فهذا حسابها صحيحاً من شوال قبل الهجرة بثلاثٍ الى شوال في

سنة الهجرة ، ثلاث سنين كوامل ، لا تحتمل تزيداً ولا تحويراً ، فأين هذا الحق من ذاك الصنيع ؟

ثم يزداد الكاتب الجريء جرأة ، فيذهب يحتال حيلة غريبة في التأوّل ، يفتعلها افتعالاً ، يزعم أنه ينصر رأيه ، ويقيم حجته ، فيقول (ص ٦٥) :

« ويؤيد هذا الترجيح من غير هذا الجانب أن السيدة عائشة كانت مخطوبة قبل خطبتها الى النبي ، وأن خطبة النبي كانت في نحو السنة العاشرة للدعوة . . فاما أن تكون قد خطبت لجبير بن مطعم لانها بلغت سن الخطبة وهي في قرابة التاسعة أو العاشرة ، وبعيد جداً أن تنعقد الخطبة (١) على هذا التقدير مع افتراق الدين بين الاسرتين . وإما أن تكون قد وعدت لخطيبها وهي وليدة صغيرة كما يتفق أحياناً بين الاسر المتآلفة ، وحينئذ يكون أبو بكر مسلماً عند ذلك ، ويستبعد جداً أن يعد بها فتى على دين الجاهلية قبل أن تتفق الاسرتان على الاسلام . فاذا كان أبو بكر رضي الله عنه قد وعد بها ذلك الوعد قبل اسلامه ، فمعنى ذلك أنها ولدت قبيل الدعوة وكانت تناهز العاشرة يوم جرى حديث زواجها وخطبها النبي عليه السلام »

هكذا ينقل الكاتب الجريء ويتأول . واحفظوا عليه قبل كل شيء إصراره على أن الذي كان في السنة العاشرة للدعوة خِطبة لا زواج ، وإن لم ينفِ الزواجَ صراحةً ولكنهُ يوقعهُ في نفس القارىء ويقنعه به إقناعاً من لحن القول « يوم جرى حديث زواجها وخطبها النبي عليه السلام »

والقصة التي يشير اليها ويحاول أن يصبغها بصبغة رأيه ، هي قصة مطولة في زواج النبي صلى الله عليهِ وسلم بسودة بنت زَمْعةَ وبعائشة رضي الله عنهما . رواها أحمد بن حنبل في مسنده (ج ٦ ص ٢١٠ — ٢١١) ونقلها عنهُ الحافظ ابن كثير في تاريخه (البداية والنهاية ج ٣ ص ١٣١ — ١٣٣) وأشار الى رواية مثلها عند البيهقي مؤيدة لاسنادها . وهذا الحديث فيه قصة وَعْدِ أبي بكر بابنته للمطعم بن عدي على ابنه جبير ، وخطبةُ النبي إياها وزواجهُ بها ، ثم زفافها اليهِ بعد قدومهم المدينة . وهذا موضع الشاهد منهُ : « قالت أم رُومان — زوج أبي بكر لخولة بنت حكيم التي كان لها فضل السعي في هذا الزواج — : إنّ مطعم ابن عديّ قد ذكرها على ابنه ، ووالله ما وعدَ أبو بكر وعداً قط فأخلفه ، فدخل أبو بكر على مطعم بن عديّ وعنده امرأته أم الصبي . فقالت : يا ابن أبي قحافة لعلك مصبٍ صاحبنا تدخلهُ في دينك الذي أنت عليه إن تزوج اليك ؟ فقال أبو بكر المطعم بن عديّ : أَقَوْلَ هذه تقول ؟ قال : إنها تقول ذلك . فخرج من عنده وقد أذهب الله ما كان في نفسه من عدته

(١) المعروف في شرعة المسلمين أن الخطبة ليست عقداً ، ولكن الكاتب الجريء يريد شيئاً قد كشفنا عنه

التي وعده. فرجع فقال لخولة : ادعي لي رسول الله، فدعته فزوّجها اياه ، وعائشة يومئذٍ بنت ست سنين ..... قالت عائشة فقدمنا المدينة فنزلنا في بني الحارث بن الخزرج في السنح . قالت : فجاء رسول الله فدخل بيتنا ، واجتمع اليه رجال من الأنصار ونساء ، فجاءتني أمي وإني لفي أرجوحة بين عِذْقين ترجح بي ، فانزلتني من الأرجوحة ، ولي جُميمة ففرقتها ومسحتْ وجهي بشيءٍ من ماء ، ثم أقبلت تقودني حتى وقفتْ بي عند الباب وإني لأنهج ، حتى سكن من نفسي ، ثم دخلت بي ، فاذا رسول الله جالس على سرير في بيتنا وعنده رجال ونساء من الانصار ، فأجلستني في حجره ، ثم قالت : هؤلاء أهلك فبارك الله لك فيهم وبارك لهم فيك . فوثب الرجال والنساء فخرجوا ، وبنى بي رسول الله في بيتنا ، ما نُحرتْ عليّ جزور ، ولا ذبحت عليّ شاة ... وأنا يومئذٍ بنت تسع سنين »

هذه هي القصة التي يحاورها الكاتب الجريء ويداورها . ويلعب بها ويعبث ، يستنبط منها . وما رأينا فيما قرأنا أشد جرأة على الحق ، ولا إيغالاً في الباطل ، ولا لعباً بالألفاظ والمعاني ، ولا تحريفاً للكلم عن مواضعه ، مما صنع هذا الرجل

حديث صريح اللفظ ، بَيِّن المعنى ، يَقْسره هذا الكاتب الجريء على أن يدلّ على ضدّ لفظه الصريح ومعناه الواضح ، فلا يأتي بالحديث على وجهه ، بل يصرّفهُ على لفظ من عنده ، يُخدَع به القارئون ، فلا يدركون ما وراءَهُ . ثم يبني استنباطه على غير علم بعادات العرب ، وعلى غير معرفةٍ بأحكام الشرع . فهو يقول ما حكينا من قوله ، ويصرّ عليهِ إصراراً منكراً فيما قرأنا له الآن (في العدد ٥٥٩) من الرسالة المؤرخ يوم الاثنين ٢٠ مارس إذ يقول :

« وبحسبنا أن نعلم أن عائشة خطبت قبل خطبتها للنبي ، وأن الذي خطبت له كان من المشركين ، بحسبنا أن نعلم هذا لنعلم أنها خطبت قبل الدعوة الاسلامية وأن أبا بكر لن يزوج بنته بعد الدعوة الاسلامية لرجل يكفر بدينه، وهو البرهان الراجح على أنها حين خطبت لمحمد عليه السلام وبنى بها بعد الخطبة بسنوات قد كانت في سن صالحة للزواج »

وليحفظ عليه القارىء أيضاً أنهُ فعل هنا ما فعل من قبل ، فلم يأت بذكر لعقد الزواج بين رسول الله وبين عائشة ، بل ساق القول من الخطبة الى البناء ، كما نبهنا عليهِ آنفاً ،إذ هو لا يريد أن يعترف بعقد عُقْدَةِ النكاح في السنّ المبكرة . ثم نعود الى ما نحن بسبيلهِ :

بنى هذا الكاتب الجريء كلّ دعواه في هذا الحديث ، وكلّ استنباطه منهُ على شيء واحد ، يستبعده جدّاً في كتابهِ (ص ٢٦٥) وينفيه نفياً باتّاً في مقاله (الرسالة ٥٥٩) وهو

أن أبا بكر « لن يزوج بنته بعد الدعوة الاسلامية لرجل يكفر بدينه». وهو يخطىء في هذا جدًّا ، فان لفظ الحديث الذي سقناه يدل على أن أبا بكر كان عند وعده للمطعم بن عديّ إنِ استمسك بهِ المطعمُ ،وأنهُ ذهب اليهِ لعلهُ يجد من وعده مخرجاً، ففجأتهُ أمُّ الصبي بخشيتها أن يؤثرعلى ابنها إن هو تزوج عائشة فيدخلهُ في دينهِ الذي هو عليهِ، وهو الاسلام . فلم يجد أبو بكر من اختلاف الدين أو تخوُّف أمّ الصبيّ مخرجاً من عدتهِ، فسأل الرجل، وهو وليُّ ابنه الصبي في التزويج، ليرى أيقرُّ زوجه على قولها ، فلما وافقها الرجل وجدَ أبو بكر المخرج من وعده « فخرج من عنده وقد أذهب الله ما كان في نفسه من عدته التي وعد » . وإنما أوقع الكاتب الجريءَ في هذا الخطأ وأوهمهُ، معرفتـه أنَّ زواج المسلمة بغير المسلم زواج باطل لا ينعقد ،وأن المسلم إذا ارتد عن الاسلام فسخ عقد زواجه بزوجـه المسلمة ، وأنَّ غير المسلمة إذا أسلمت وكانت ذات زوج عُـرض على زوجها الاسلامُ ، فان أبى أن يسلم فُـرّق بينهما . وهذه أحكام يعرفهـا العامة والخاصة، فبنى عليهـا أنهُ «بعيد جداً أن تنعقد الخطبة مع افتراق الدين» وأنه « يستبعد جداً أن يعد بها فتى على دين الجاهلية قبل أن تتفق الاسرتان على الاسلام » وأنها « خطبت قبل الدعوة الاسلامية ، وأن أبا بكر لن يزوج بنته بعد الدعوة الاسلامية لرجل يكفر بدينه » . ولـكنهُ لم يعلم أول هذا التحريم لزواج غير المسلم بالمسلمـة ، ولم يدرك مبدأ أمره ، أكان في أول الاسلام حتى يطبق في هذه الواقعة في وقتها ، ام هو تشريع تأخر عنها ، فلا يطبق عليها ، ولا يستدل بهِ فيها

ألا فليعلم الكاتب الجريء أن زواج المسلمة بالمشرك كان جائزاً وواقعاً في أول الاسلام ، على عادة القبائل والاسر من التزاوج والمصاهرة ، وأنهُ لم يحرمه الله تعالى الاّ بعد صلح الحديبية ، في أواخر السنةِ السادسة من الهجرة ، لما نزل قوله تعالى في سورة الممتحنة (لا هنَّ حلٌّ لهم ولا هم يحلّـون لهنّ) . قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (ج ٨ ص ٣٢٣ طبعة المنار) : « هذه الآية هي التي حرمت المسلمات على المشركين ، وقد كان جائزاً في ابتداء الاسلام أن يتزوج المشركُ المؤمنةَ ، ولهذا كان أبو العاص بن الربيع زوج ابنةِ النبي صلى الله عليه وسلم زينب رضي الله عنها ، وقد كانت مسلمة وهو على دين قومه ، فلما وقع في الأسارى يوم بدر بعثت امرأتهُ زينب في فدائه بقلادة لها .... فأطلقهُ رسول الله على أن يبعث اليهِ ابنته ، فوفى له بذلك ... وبعثها مع زيد بن حارثة ، فأقامت بالمدينة من بعد وقعة بدر ، وكانت سنة اثنتين ، الى أن أسلم زوجها أبو العاص بن الربيع سنة ثمان فردها عليهِ » . وليس بعد هذا البيان بيان . وما إخال أن الكاتب الجريء حيلة في أن يجادل

فيهِ ، وهو ينقض كل ما بنى عليهِ استنباطهُ أو تحريفهُ

وليعلم الـكاتب الجريء أيضاً أن كل ما ينسب الى رسول الله صلى الله عليهِ وسلم من « قول أو فعل او تقرير » هو عند المسلمين من « الحديث » وأنهُ لا يجوز لأحد أن ينسب الى الرسول شيئاً من هذا إلاَّ عن ثقة وثبت ، وباسناد صحيح ، على النحو الذي قام به أئمة الحديث ووضعوا له القواعد والقيود ، في فن واسع المدى ، لعلهُ قد سمع بهِ ، وأنهُ لا يعذر أحد في التحدث عن رسول الله بغير ثبت ، لقولهِ عليهِ السلام : « من حدَّث عني بحديث يُرى أنهُ كذب فهو أحد الكاذبين » وأن العمد الى التحدث عنهُ بما ليس بصحيح من أعظم الآثام ، لقولهِ صلى الله عليهِ وسلم : « من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » . فليعد نظراً إلى ما قدمت يداه في هذه المسئلة بعينها ، يجـدْ أنهُ أنـكر الصحيحَ الثابت الذي لا خلاف فيهِ عند المحدثين وغيرهم ، أن رسول الله تزوج عائشة قبل الهجرة وهي في السادسة أو السابعة من عمرها ودخل بها في المدينة بعد ثلاث سنين من الزواج ، وأنهُ لـكي يصل الى تأييد إنكاره ، وتأييد دعواه أنها كانت بين الثانية عشرة والخامسة عشرة يوم زفت الى النبي ، اضطرَّ الى تحريف ألفاظ الأحاديث ، والى تحريف معناها ، والى سوق الـكلام من الخطبة الى الزفاف ، خشية أن يذكر عقد الزواج قبل الهجرة فيكون حجة على نفي ما أراد إثباته وإثبات ما أراد نفيه ، حتى لقد كاد يزلُّ بهِ قلمهُ إذ يقول :

« وجرت الخطبة بعد ذلك في مجراها الذي انتهى بالزواج بعد سنوات » (كتاب الصديقة ص ٦٣)

فانهُ يوهم القارئَ ، وإن لم يصرح الكاتب ، أن الذي كان في مكة قبل الهجرة لم يكن فيهِ زواج ، وأنه انتهى بالزواج بعد سنوات ، يعني في المدينة . ولـكنهُ لم يستطع أن يكون جريئاً كما يريد ، فخشي أن يدعي أن هناك زواجاً كان بالمدينـة ، لئلاَّ يكشف للناس عن فساد قوله ، ووهْي أدلته . وإن هو أنكر علينا هذا فليقل لنا كلمة صريحة : متى تزوج رسول الله عائشة ، أعني العقد لا الخطبة أكان ذلك قبل الهجرة حين خطبها على أبيهـا ، أو كان بعد الهجرة حين بنى بهـا ؟ ويجدْ أنهُ حرَّف عن عمدٍ كلمة « النكاح » التي هي الزواج الى كلمة « الخطبـة » . وأنهُ جاء الى أبـين حديثٍ وأصرحه في الدلالة على سن عائشة ، وهو القصة التي فيها سعيُ خولة بنت حكيم ، فحرَّفه بالتأويل المنكر ، ليستدلَّ بهِ على ضدِّ ما يدلُّ عليهِ لفظهُ الصريح ، أنها تزوجت بنت ست سنين وزُفت بنت تسعٍ ، وأن أمها أخذتها يومَ الزفاف من أرجوحة كانت تلعب بها بين النخيل . ويجـدْ أنهُ ادَّعى أن هناك من يرفع سن عائشة فوق التسع بضع سنوات ، ولم يقل ذلك أحد . وأنهُ ادَّعى أن

الزفاف لم يتمّ إلاّ بعد فترة بلغت خمس سنوات في أشهر الأقوال ، ولم يوجد قط قول بهذا ، فضلاً عن أن يكون أشهر الأقوال . ويجدْ أنه كان يجهل حكم الزواج بين المسلمة والمشرك في صدر الاسلام ، وأنهُ تحدث فيهِ بغير علم . ويجدْ أنهُ فوق هذا كله جمح بهِ قلمهُ ، فوصف هذه السنن الصحاح بأنها « من الزور الاثيم والبهتان المبين » حين زعم أننا نجهل ما وراء روايات الأقدمين . وليت شعري بمَ يصف عمله في التحريف والتحوير والقول على رسول الله بما لم يأت عليهِ ببرهان ، ونخر بأنهُ أثبتهُ « على رغم الاقاويل والسنين » ؟

ثم ليعلم أيضاً أن السنة النبوية « من قول وعمل وتقرير » مصدرٌ عظيم للتشريع الاسلامي ، وهي المصدر الثاني بعد القرآن ، وهي المفسرة لهُ المبينة ، كما قال الله لنبيهِ : (لتبين للناس ما نزّل اليهم) وأن هذه الأحاديث التي أنكرها بتحريفه وتأويله ، وأثبت ضدّ ما ثبت فيها « على رغم الاقاويل والسنين » فيها دلالة على أحكام شرعية خطيرة الأثر ، منها جواز تزويج الصغيرة للكبير ، ومنها أن الصغيرة يلي أمر تزويجها وليّها إذ هي لا تملك أمر نفسها ، ومنها أن البناء بالصغيرة جائز حلال ، الى غير ذلك من الأحكام ، وأن إنكاره ما فيها إنكارٌ لكل ما يستنبط منها بالطريق العلمي في الاستنباط ، ونسبة شيء الى رسول الله لم يثبت بالطريق الصحيح للاثبات ، بل ثبت ضده ونقيضه . فان لم يدرك هذا كلهُ فقد أبلغناه ، وما علينا من وزره من شيء

وبعد : فما الذي دفع به الى هذه المضايق ، وأورده هذه الموارد وأقحمه ؟ يظن أنهُ يسوّغ عمله إذ يقول : « ذلك هو التقدير الراجح الذي ينفي ما تقوّله المستشرقون على النبي بصدد زواج عائشة في سن الطفولة الباكرة » (كتاب الصديقة ص ٦٦) ويقول : « وإنما عنانا أن نبطل قول القادحين في النبي أنه عليه السلام بنى ببنت صغيرة لا تصلح للزواج ، وقد أبطلنا ذلك بالادلة التي لا نكررها هنا » (الرسالة في العدد ٥٥٩) . هذا عذره الظاهر لنا من كلامه . وليس لنا أن نخوض فيما وراءه

ولكن أهذا هكذا ؟ قال مستشرق ، أو طعن مبشر ، أو قدح ملحد ، فقال أحدهم ما شاء من قدح في عمل بعينه ، أفترى أنت هذا العمل معيباً يجب التبرؤ منه ، أم تراه جائزاً لا شيء فيه ولا غبار على من يعمله ، وأن العائب إنما ينظر اليه من ناحية غير صحيحة ، وبعين مغرضة ليست بريئة ؟ أفلا ترى أنك إذا نفيتَ هذا العمل وأنكرته فقد رأيته معيباً كما رأى العائب ، وقادحاً كما فعل القادح ، فما حاجتك الى التستر وراءه ، وماذا يمنعك أن تصرح بأن هذا العمل غير جائز ، وأنك توافق في استنكاره من سبقك من المستشرقين ؟

هذا هو الطريق المنطقي للبحث العلمي، العالمُ لا يدافع عن نظرية علمية ولا ينصرها الاّ اذا رآها رأيهُ والتزمها قوله. ثم ألم يكن الاجدرُ بالكاتب الجريء أن يصنع ما يصنع الرجالُ، فيصرح بانكار كل الأحاديث التي فيها سنّ عائشة وينقدها على طريقة المحدثين فيُبين ضعف أسانيدها وبطلان روايتها إن استطاع، فذلك خير له من تأويلها وتحريفها والتزيّد فيها، ثم مناقضته نفسه بالاحتجاج ببعض ألفاظها على أسلوب عائشة المرسل السهل الجزل الفصيح (ص ٥٧ — ٥٨) كما استدرك عليه الدكتور بشر في نقد كتابه

وبعدُ مرة أخرى: فان شريعتنا شريعة الاسلام، أباحت تزويج البنات الصغار، وجعلت تزويجهنّ للأولياء، بدليل زواج النبي صلى الله عليه وسلم بعائشة وبنائه بها وهي دون العاشرة، وبدليل قول الله تعالى في سورة الطلاق (واللائي يئسنَ من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدّتهنّ ثلاثة أشهر واللائي لم يحضنَ). فاللائي لم يحضنَ هنّ الصغيرات اللائي لم يأتهنّ الحيض وهنّ دون البلوغ، عليهنّ عدّة ثلاثة أشهر إذا طلقنَ، ولا يكون طلاق وعدة إلاّ بعد زواج، أليس كذلك؟ فمن رضي هذه الشريعة لم ينكرْ ولم يعبأ بقول العائبين المغرضين، ومن أبى (أفأنت تكرهُ الناسَ حتى يكونوا مؤمنين)

احمد محمد شاكر

التعريف والتنقيب

نستحدث هذا الباب ونبسط فيه إرادة أن نتدبر ما يتصل بقضايا الفكر وما يدخل في شؤون الذوق ، فنجريه إلى غايتين : إحداهما مراجعة بعض ما يخرج في العلم والأدب والفن كتابةً أو أداء ، والأخرى نشر ما انطوى من الضنائن المخطوطة أو المهملة . ومقصدنا أن يصبح هذا الباب مرجعاً للمستطلع السائل ومعرضاً للمستبصر الراكن . هذا ويشترك في إنشاء الباب نفر من أهل النظر وأعداء الهوى

بشر فارس

المشتمل

١ – المسائل

النقد والعلم

قاعة استطالات كأنما تريد أن تدوّب الطرف على البعد، ثم وضيت ببعض الظلمة كأنما تبغي أن تبعث الوجدان على التأمل ... كنّا في مدرّج من مدرّجات السّربون ننتظر أستاذاً لنا نتلقى عنهُ صناعة الأدب وثقافته

دخل ذلك الشيخ، شيخُنا، فقال :

اليوم أبتدىء حيث انتهيتم . فأكبر الظن أنكم نظرتم في التآليف التي دللتكم عليها من أشهر، أريد التآليف التي تتصل بنظريات النقد مباشرةً أو مقاربة، نحو « كتاب الشعر » لارسطو و«فن الشعر» لهوراس الروماني ورسالة « الاعجاز» de Sublimitate المنسوبة الى لنجينُس اليوناني(١) ونحو ما ورد تحت اقلام بِنْ جُنْسن ودرّيدن الانجليزيين، وموتِنْي الفرنسي ، وكَنْت الألماني ، الى جنب من تناولوا أحكام النقد في القرنين الماضيين ، وأظنكم تمهلتم بين يدي مانزوني الايطالي ، فعلمتم ان كل عمل من اعمال الفن يحمل في طياته معالم الحكم فيهِ ، فيسأل الناقد : « ما غرض المؤلف ؟ أمعقول هو؟ أوَ بلغه المؤلف؟ » ثم تبين لكم ان النقد قائم على اصول وقواعد تشترك فيها الذاتية والموضوعية ، وان هذه الأصول والقواعد تارةً مشتقة من طبيعة الفن نفسه ، وأُخرى راجعة الى مزاج الناقد وذوقه وذكائه وحسه وخياله والى مبلغ انعطافه

لست لهذا اعرض اليوم ، ولست بمرشدكم كيف تشتقون تلك الأحكام ، ولستُ بمبصركم طرائق تهذيب المزاج ، وارهاف الذوق وغيره من الأدوات الذاتية . فأنتم على بصرٍ بكل ذلك ، او في استطاعتكم ان تكونوا كذلك اذا انتم طلبتم في هذه الجامعة مراحل الأدب وخصائص الفن ومطالب الفلسفة

اني أريد ان انبهكم الى ان النقد منذ منتصف القرن التاسع عشر آخذ في الولوج في ناحية العلم . وليس معنى هذا انهُ عادل عن نعومة الذوق الى خشونة المذهب . ولكن

(١) من القرن الثالث بعد الميلاد

المقصود من ذلك انهُ فن ينظِّم حيث يجب التنظيم ويقيِّد حيث يحسن التقييد . فما هو بالهائم هيمان البدوات ولا هو بالشارد شرود السوانح

وقليل من التاريخ هاهنا يفيد ويوطّيء :

سأقصر السردَ على ترقي النقد في فرنسة ، إذ فيها مال اولَ ميلهِ نحو العلم ثم ثبت في جانبه . وليتكم تطالعون ما ألفهُ سِنتسبري في الانجليزيةِ في تاريخ النقد والذوق الادبي في اوربة(١) فتطّلعوا ما كان من شأن النقد في غير فرنسة . وفي هذه اللغة ايضاً كتاب A. Morize في « مسائل التاريخ الادبي ومناهجه » خرج في بُستُن سنة ١٩٢٢ . ثم لا بدّ لكم من التوسع في ما انا قائله ، فاطلبوا لذلك كتاب G. Rudler في « مسالك النقد وتاريخ الأدب في الأدب الفرنسي الحديث » وهو مطبوع سنة ١٩٢٣ في أكسفُرد، وفي هذا الكتاب ما يرجعكم الى مؤلّفات النقّاد انفسهم ، فاذهبوا اليها حتى ينبسط لكم ما أنا مُجمِل هنا

تمهّل شيخنا شيئاً حتى نفرغ من تدوين المراجع ، ثم قال :

سنة ١٨٨٨ اخرج هِنكا Hennequin كتابه « النقد العلمي » ، وسنة ١٩٠٠ أخرج رِنار Renard « المنهج العلمي لتاريخ الادب » . وذانكم المؤلّفان غاية محاولاتٍ سبقت . فمنذ فجر القرن وصلت مدام دي ستال Mme de Staël الأدبَ بأوضاع المجتمع ومعتقداته . وتلاها فيّما Villemain يستشف روح الأمة من بيان الكتّاب ، ويتعقب الأثر الانجليزي في رسائل القرن الثامن عشر في فرنسة . ثم جاء سانت بوف Sainte-Beuve وأراد — لما كان يخرج أحاديث « الاثنين » — ان يصنع « التاريخ الطبيعي للعقول » ، فجعل يتعرّف طباع الأدباء من دواوينهم ثم يتصفح تلك الطباعَ يستوضح تأثير البيئة من جهة المعنى ومن جهة الحس جميعاً . واما تين Taine فذهب الى ما يلي ذلك إذ اراد ان يُقعد الأدب تحت حكم مذهب « الحتميّة العلمية » ، فهو ابداً يفتش عن الأسباب الموجبة ، لذلك يعدّ مظاهر الفن ولائد ثلاثة عناصر مؤتلفة على تفاوت : السلالة والبيئة والزمان . ثم اصبح النقد مع بُرُنتيير Brunetière لوناً من الوان فلسفة « النشوء والارتقاء » او « التحول » ، من ذلك انصراف همه الى تسلسل المؤلّفات بعضها من بعض وخروجها من طور الى طور بأسباب جماعية أو فردية

(١) Saintsbury, the History of Criticism and Literary Taste in Europe (1900 — 1904)

على ان النقد في فرنسة لم يدخل كله في ذلك الجانب الوضعي . فقد اتجه فريق الى الطريقة الابتداعية romantique ، وقوامها الحِيزة ، وغرضها التأمل ثم الانجذاب الى ألطاف الجمال وأنوار الجلال. ومن ألمع الأمثال هنا كتاب فكتور هُجو في «وليم شكسپير». ولهذا الضرب من النقد ان يكون . فالحق ان وراء سبحاته مطالع آفاق . غير انهُ ادخل في إنشاء الفنان المتخيِّل ، وعلى هذا فصول تيوفيل جوتييه ، لذلك هو حريّ بتناول « الفنون الرفيعة » نحو الموسيقى والرقص والتصوير . وأيًّا كانت جهتهُ فانهُ يحسن بهِ ان يلتفت الى ما سيأتي من الحديث ، حتى يُعتمد . ومن لواحق الابتداعية اسلوب التأثر في النقد ، ومن أربابه عندنا جول لِميتر . وهنالك أساليب أخرى لعلي أتكلم عليها جميعاً في إملاءة آتية



واليوم لسنا نرى النقد عبداً لمذهب من مذاهب العلم ولا تبعاً من اتباعهِ . بل نحن نتكلم في ما بين النقد والعلم من تساير وتماسك وتجاوب ، على ما قد بيَّنه ، من طريق النظر والعمل ، رُكن النقد الأدبي في هذا العهد : ج. لانسو G. Lanson [1] ومن نحا نحوه

فالنقد الأدبي مثلاً انما ينهض على الإحاطة المستنيرة بتاريخ الأدب ، وهذه الاحاطة المستنيرة هي التي تصقل الذوق فتجذب الحس الى الجميل وتنفره من القبيح ثم تهيء الحكم. فليست معرفة التاريخ الأدبي ههنا لوجه المعرفة ، ولكنها تجري الى تلطيف الاحساس وشحذ الادراك . ولا بدَّ للاقبال على تاريخ الأدب من منهج سديد ، وقد وقفتم على بعض هذا المنهج لما تحاورنا في طرائق علم التاريخ ، فعرضت لمسئلة الفهارس والمراجع معَ إعداد النصوص وترتيبها ثم تمحيصها بنقدها نقداً خارجيًّا هنا وداخليًّا هنا ، كل ذلك الى جنب ما يتصل بالبحث عن استمداد الأديب من سابق له ، ونزوله على حكم بيئتهِ ، وجريانهِ مع تيار عصره ، وانفراده عن مواقف غيره بطابَع قائم برأسه

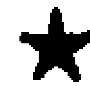
ومن التقصير ان تقنعوا بالاستبحار في تاريخ الأدب ، فلا معدى عن الوقوف على مقاصد الفلسفة بما يندرج تحتها من علم النفس وعلم الاجتماع خاصةً ، واذكروا هنا كيف يتنقل كُرُتشي B. Croce الناقد الايطالي الملهَم بين تاريخ الأدب والفلسفة تنقل العارف، واذكروا أيضاً معاصرَنا الفرنسي مَرتا Maritain . ثم استضيئوا بعد ذلك بالرفيع من آداب الأمم الأخرى ، فالموازنة بينها من الابواب التي شُقت الآن في النقد الأدبي . واستأنسوا أخيراً بالفنون على الوانها

(١) لا نزال نعاني رسم الكلمات الاعجمية على أصل مخارج حروفها و نبرات حركاتها !

تلكم عُـدّة من عدد التمييز والحكم . ثم دونكم آلة لا بدّ منها للناقد الوثيق الأمين . وهذه الآلة هي ما نسميه . الأسلوب العلمي . وهو يـكتسب من طول الممارسة لخطط العلوم على أصنافها وأقسامها . ولا احب ان اذكركم بقواعد منهجه : من نبذ الهوى ، وطرح التعصب ، ولزْم الشك خشيـة الزلق، ثم التحفظ في التعميم ، والتزن في التحليل ، والتريث في التركيب

ذلـكم موقف الذهن من الحقيقة ذات الحرمة ، وذلكم هو السبيل الى المعرفة ذات الرفعة . ومن شرائط الأسلوب العلمي : استطلاع لا غرض فيه ، وطوية بيضاء ، ودأب متصل ، ثم إعراض عن الارضاء او الاسخاط وإهمالٌ لسطوة هذا او شهرة ذاك ، وامتثال للوقائع المحسوسة ، وتقصٍّ في الجسّ مع فحص ما سطّـره النقاد من قبل وما انتهوا اليه من نتائج . ثم احذروا البرهنة من طريق القياس لأن مبذولات الفن ليست على غاية في الدقة واليُـسر والاستقلال ، وخير من تلك البرهنة ان تعملوا العمل الذي لا عجلة فيه حتى تنضج الفكرة فيستقر الرأي على عمود الحق او ما يداني الحق . فعليكم ان تعتمدوا الحسّ المختبر ولا ترجعوا الى الهاجس ، الى الحدْس ، الى نفضة الوجدان الا في الذي يدقّ عن الادراك المباشر ويُـعجز الحسّ الظاهر ِكثل الشعور بالاعجاز والروعة

فاذا انتم نظرتم في اثر من الآثار قديماً كان او حديثاً ،عرفتم كيف توجهون البحث وقد رفعتم عن ذوقكم واحساسكم وخيالـكم سلطان الرعونة والانانة [1] ، فتحصرون الذات المطلقة وتحدّونها ، لا تدعونها تشط وتبغي حيث لا يحق لها سوى الـكشف اللطيف



بهذه الآلة و تلـكم العدة تنفصلون عن فئتين تقبلان على النقد ايضاً :

ان عامة القراء هم إحدى هاتين الفئتين ، ينقدون عفواً بحسب مناهلهم ومنازعهم . ويلحق بالقراء من ينشر في الصحف حتى في الـكتب احاديث تجري مجرى هيناً لا تصعيد نظرٍ فيها ولا تصويب: احاديث مرتجلة تـكاد تُـقرأ مرةً ثم تُـلقى . وأما الفئة الثانية فأهلها يقتحمون النقد لميلٍ فيهم الى التهويل ، فيفرشون ألوان مهارتهم الذهنية على حساب الاثر

(١) « الرعونة : الوقوف مع الطبع » ، « الانانة: قولك أنا » عن اصطلاحات « الفتوحات المكّية» راجع ذيل « التعريفات » للجرجاني

الذي ينظرون فيهِ ، فما يَشغلهم الدنوّ من الحقيقة ولا يحركهم الغوص على دقائق الأثر خدمةً له وعنايةً بجمهور القراء . وذلك لأنهم لا يعلمون ان للنقد غاية سامية تلهو بحذقهم ، فكأنهم لم يقرأوا ما كتبهُ ڤُلتير: «لقد طالما كانت لنا تسع ربّاتٍ للأدب ، والنقد الصحيح هو الربة العاشرة »

انما غاية النقد تجري الى امور. منها : تدبر ما يُرفع للعين . امّا كان الناقد kritikos عند الهلّنيين يتوسم ما ينشده الراوية من شعر هوميرس، فيرتاب في صحة هذا البيت او في موقعه من القصيد؟ — ومنها : وضع القيم في مواضعها من طريق أحكام هي وليدة الاطلاع والدّربة والتفهم والانجذاب ، فلا اجتلاب ولا مجازفة — ومنها : الحدّ من طغيان النقد المرتجل والمقتحم جميعاً باقامة الحصافة والأمانة والاحاطة واللقانة مقام الشطط والهوى والدعوى والعبث — ومنها : إعانة الآثار الرفيعة على ان تنكشف وتنتشر الى جنب الاشادة بالقرائح الغَمْرة السَّمْحة الطلقة وبخاصة ان كانت مهملة أو كالمهملة، مغمورة أو كالمغمورة، هل تذكرون متى قُدِر شكسبير حق قدره ، وكيف عُرف فضل مونْتِيْني Montaigne في انجلترة وفي وطنه فرنسة ؟ — ومنها : كشف الستر عن اهل الكسب لوجه الكسب وأصحاب الدجل في العلم والأدب ، فتبصرون القراء المستطلعين الراكنين اليكم بالأوهام التي بنى عليها اولئك الخلق صيتهم وجاههم . من ذلك المنزلة الوضيعة التي تركز فيها الآن نوعاً معروفاً راكضاً في الأسواق مبتذلاً ، إذ أطلقنا عليهِ هذا الاسم « أدب البوابين » ، ويسميه الإنجليز « الأدب الاصفر »، وفي هذا الأدب الرخيص قَصص وغيره . ومن ذلك أيضاً ما صنعهُ بوالو Boileau ثم موليير Molière في القرن السابع عشر لما عيّرا « المتحذلقات ». فلا تخشوا ان تمسوا الاصنام الجُوف . وبذلك كله تصرفون الجمهور عن أعداء الثقافة الحقة وعمن يدنسها راضياً ناعماً ، ثم تدفعون اليهِ ـ وأنتم رواده المخلصون ـ مقاييس الفن الخالص — ومنها أيضاً : الانشاء ، وذلك باستيفاء النواحي القمرة في الأثر المنقود سواء بالمراجعة او الاستدراك او التنبيه إن كان الأثر مما يتصل بفروع العلم ، او برد الالوان الى اصولها وانواعها مع المعارضة والشرح اذا كان الأثر مما يدخل في ضروب الفن . وأنتم في ذلك تبنون وترفعون ، وتنوهون وتوجهون ، وطلبتكم الحقيقة . فيأنس بنقدكم أهل الدراية وأرباب الفضل ويعظمونكم ويتأثرونكم

★

ولا تظنوا انكم سالمون من المطاعن والمغامز ، وإن توفرت لديكم العدة وتوثقت بين أيديكم الآلة . او لعلكم من أجل ذلك يقع فيكم من يقع . وانما خصومكم من جهتين : جهة المرتجلين والمقتحمين الذين يحكمون بالوهم السانح والخاطر الهاجم ، الا اذا كانوا ممن يرعى حرمات العلم والادب ويكبر الجد ، ثم جهة المؤلفين الذين خفّت بضاعتهم وانتفخ صلفهم وجلّهم ممن نشأ نشأ شيطانيًا à la diable فأعياهم التحصيل وفاتهم التهذيب ، لذلك يرون الحق أبداً في جانبهم حتى اذا شرب احدهم وهو ريّان وطعم وهو شبعان . سيرمونكم بما أرمى أنا واخواني به

سيقول لكم العيّ الكسلان أو المغرور النفّاج — وفي الناس من يجمع بين النعتين — : أنتم أهل اطلاع على الأصول والقواعد والمراجع والمصادر ، فحرام عليكم ان تخنقوا العبقرية ، عبقريتنا ، بضغطها بين اسباب معارفكم

ألا فأخبروهم ان الاحاطة مرقاة الفهم السليم . وذكّروهم ان النقد أخذ في النمو بالاسكندرية على ايدي خزنة الكتب الذين جمعوا ورتبوا ، وفهرسوا وسردوا ، ونسخوا واذاعوا ، وانهُ صار الى ما صار اليهِ في القرن التاسع عشر بفضل التنقيب عن النصوص والتحرير لها والتوفر عليها . ثم فقّهوهم معنى الاحاطة ، عاذرين لهم : الاحاطة وسيلة لا غاية ، وليست المراجع والمصادر وما اليها غير ادوات تتوسّع بها المعرفة وتتقوى الذاكرة . نحن نسعى وراء الآراء ، ولكننا نريدها الى الصواب أقرب وعن الخبط أنأى . وهل يشك سوى الجاهل او المعتسف ان نشاط الذهن أسلم حين يتخذ موقفاً بعيداً عن التخرص والمجازفة ؟ واما الذوق فبالاطلاع ينعم ويرحب : فلا عجز عن لقف الرهيف وفهم البعيد ولقن الدقيق ، ثم لا صد عن الجديد ولا بغض للطريف ولا اغفال حتى للشاذّ الغريب



سيثب اليكم الممخرق والمرتزق جميعاً ، هذا من امانتكم فزع وذاك على درايتكم حنق . فليكن ذلك لكم تفكيهاً وتلهية ، ولا بأس ان يرفه عنكم وانتم في جدّ سيّار . فللناس أهواء ، وهواكم ان يظل بين ايديكم الجوهر الكريم الذي لا يرتقي اليهِ سوء

بشر فارس

٢ - الكتب

• رسالة الغفران • منقولة الى الانجليزية بقلم G. Brackenbury

١٣½ × ١٩½ ، ١٥٩ ص ، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ، ١٩٤٣ *

قرأت هذه « الرسالة » فذهبت أفكر في ترجمة الأدب من لغة الى لغة كيف ينبغي أن تكون ؟ أنجعلها حرفية دقيقة بغير نظر الى ما بين اللغات من فرق في الذوق ، وطريقة تأليف الكلام « على معاني النحو » كما يقول الجرجاني ، وما بين أبنائها من اختلاف في أساليب التفكير والتناول ؟ ان الأمانة تقتضي هذا ، ولكن الامانة لا تهون في كل حال ، ولاسيما اذا عظم الاختلاف بين لغتين كالعربية والانجليزية ، وبعدت مسافة الزمن بين العصر الذي ننقل منه والعصر الذي ننقل اليه ، فكان لهذا أثره حتى في الأجيال المتعاقبة من أمة واحدة ، فما ظنك بأمتين ، غربية حديثة ، وشرقية قديمة ؟ أم نتصرف كما تصرف فتزجرلد حين نقل « رباعيات الخيام » من الفارسية الى الانكليزية فطرح الثوب وتحفظ بالروح ونظم معانيها شعراً انجليزيًّا سلساً يطيب وروده على الأذن ولا تنفر منه أذواق قومه ؟ وليس لي علم بالفارسية ، غير أني قرأت ترجمات عربية شتى لهذه الرباعيات عن الفارسية ، بعضها منثور والبعض منظوم ، قيل في وصفها انها حرفية ، وأنا أفضل ترجمة فتزجرلد ولا أعدل بها شيئاً ، لأنها شعر استطاع قائله — ولا أقول مترجمه — أن يكسبه جمالاً ويجعل له سحرا . ولكن هذه لا تعدّ ترجمة بالمعنى الصحيح ، وأصدق ما يقال فيها — في رأيي — ان فتزجرلد استوحى معانيها من الخيام ، ولم يتقيد بالأصل ، بل أرسل نفسه وهو ينظمها على سجيته وسجية قومه .

ويقول بيتس E. S. B. Bates في كتابه «دراسات في الترجمة»(١) ما معناه ان الترجمة الأدبية لا ينبغي أن تقتصر على أداء المعنى فحسب ، بل يجب أيضاً أن تنقل روحه الى القارىء ، وأن لا تكون في ثوبها المستعار أقل روعة أو جمالاً أو قوة منها في ثوبها الأصلي

* رتبت أسامي الكتب على حروف الهجاء .

(١) Intertraffic, Studies in Translation

ويذهب تتلر A. F. Tytler (١) ، الى ان الترجمة ينبغي أولاً أن تكون دقيقة الأداء للمعاني التي في الأصل، وثانياً أن يكون للاسلوب وطريقة الاداء الطابع نفسه الذي للاصل ، وثالثاً أن يكون للترجمة كل ما للاصل من سهولة التأليف وسلاسة الانشاء . ولكنه يجيز بعض التصرف في الشعر ، لأن روح الشعر ألطف من أن يحتمل الالتزام الدقيق للاصل ، وأخلق بهِ أن « يتبخر » اذا بالغ المترجم بالتقيد .

وأحسب ان من العسير فرض قانون يلتزمه كل مترجم في كل حال ، أو وضع قاعدة لا يتزحزح عنها مقدار شعرة ، ولكن من المسلم فيما أرى ان الامانة شرط لا معدى عنهُ ، وليست الامانة أن تؤدي المعنى وحده ، بل ينبغي كذلك أن تحرص على « شخصية » الكاتب . واذا قلت الشخصية فقد قلت الاسلوب ، وطريقة تناول الموضوع ، وعرضه ، والنهج الخاص في تأليف الكلام ، فان المعنى الواحد يكتبه رجلان ، فيكون بينهما تفاوت ، ويوجهه كل منهما وجهته لأنهُ ينظر اليهِ من ناحية غير ناحية صاحبه ، ويخلطه في نفسه بغير ما يخلطه ذاك ، ويزاوج بينه وبين ما عنده ، ويولد من هذا التزاوج شيئاً آخر قد يجيء مختلفاً جداً على الرغم من التشابه العام ، كما يتشابه الشقيقان ، وهما بعدُ اثنان متميزان

• • •

« ورسالة الغفران » التي ساقتنا الى هذا الحديث ، هي ، كما يعرف القارىء لأبي العلاء المعري . وسبب كتابتها ان ابن القارح حُمّل رسالة اليه ، فأضاعها ، فكتب اليهِ يعتذر وتكلف في اعتذاره أن يظهر علمه وفضله وأدبه ، فرد عليهِ أبو العلاء برسالة الغفران وقابل ما تكلف من العلم بمثله فأغرقه في بحر من علمه بالأدب ونقده الشعر ، واحاط ذلك باطار من الفكاهة ، وتخيل ابن القارح في الجنة يطوف بها ويرى ويسمع الى آخر ذلك

وكان الاستاذ كامل الكيلاني قد نشر « مختصراً » لهذه الرسالة ، احتفظ فيهِ باطار القصة ، ولم يستبق من غيرها الا ما لاغنى عنه للسياق ، فيسّر قراءتها للقارىء العادي الذي لا يعنيه التوفر على الدرس والتحصيل

وقد نقل المستر ج . براكنبري هذا المختصر الى اللغة الانجليزية ، نقلاً حرفيّاً في الأغلب ، ولم ينبه الى ان هذه ترجمة المختصر لا الأصل ، فالقارىء الانجليزي الذي لا يعرف ذلك قد يذهب الى رأي في المعري لا مسوغ له في الحقيقة لان ما حذف من العناصر الادبية واللغوية في المختصر كثير والباقي لا يكفي للتعريف بما قصد اليهِ ابو العلاء

(١) On the Principles of Translation

ومما يلاحظ ايضاً ان المترجم استعمل الفعل الماضي من البداية الى النهاية كأنما كانت الرسالة رواية لما كان ، على حين حرص أبو العلاء على أن يعرض على القارىء صورة تهكمية لرحلة متخيلة لابن القارح في الآخرة

والترجمة ، كما قلنا ، حرفية على العموم ، وصحيحة ايضا . وقد تصرف الاستاذ في بعض المواضع — ولا سيما في ترجمة الشعر — تصرفاً لا يعاب ، ولكنه وقع في طائفة من الهنات يحسن التنبيه اليها

فقد ترجم هذا البيت

وان صخراً لتأتم الهداة به كأنهُ علم في رأسه نار

هكذا :

Let Sakhr be a guide and a leader outstanding..

اي فليكن صخراً ... ثم ترجم :

أفنى تلادي وما جمعت من نشب قرعُ القوازيز أفواهَ الاباريقِ

بقوله :

All the wealth I have hoarded up
Is nought to the clink of the brimming cup
That rings on the edge of the wine-jar's lip

ومعنى ترجمته : « ان كل ماجمعت من ثروة لا يعدل قرع ... » ثم ترجم :

ان الثراء هو الخلود ، وان المرء يكرب يومه العُدمُ

بقوله :

The only wealth is the life to come
She says " though man be near his end"

فترجم « الخلود » « بالحياة الآخرة » ، وحسب العُدم — وهو الفقر — العَدَم أي الفناء فغير المعنى كله . ثم ترجم :

كأنَّ المدام وصوب الغمام وريحَ الخزامى ونشر القطر
يُعل به بردُ انيابها اذا غرد الطائر المستحر

Like wine and rain and perfumed flow'rs
And scented sap — as healing balm
Flows out the nectar from her mouth
The while the bird in tones its lay
And fills the air with magic sound

وفيهِ قلبٌ لمعنى « يعل به برد أنيابها »
ثم ترجم البيت الثاني على لسان جنّي:

فتارة انا صل في نكارته وربما أبصرتني العين عصفورا
نلوح للانس حُسولاً أو ذوي عَورٍ ولم نكن قط لا حولاً ولا عورا

فقال :

I took at times a horrid serpent's form
Or now a bird's — or did a man deform
To make him squint, or loose one seeing eye

والمعنى هنا مقلوب. فان الجني يقول انهُ هو الذي يبدو لبني آدم أحياناً أحول أو أعور. ولكن الناس صاروا هم الحول او العور في الترجمة . أما الشطر الثاني من البيت الثاني فقد حذف كله

وفي ترتيب أبيات الجني خطأ (ص ١١١ — ١١٣) وهو مطبعي على الأرجح ، ولم نجد ترجمة الأبيات الثلاثة الأخيرة منها

وهذه كلها هنات هينة وقليلة ، لا تغض من قيمة الترجمة ومجهود المستر براكنبري فيها. وليس لنا ان نقول شيئاً في لغته فان الرأي فيها لقومه دوننا ، فهم أعرف بها وأقدر على الحكم عليها وتذوقها

وما أظن الاّ ان القارىء قد أدرك أنّا كنا نؤثر ان يترجم النص الكامل للرسالة لا المختصر ، وإن كان لا يسعنا الاّ أن نعترف بان النص الكامل كان خليقاً أن ينفر القارىء الانجليزي ويتعبه . ولكن التعب حاصل على الحالين ، فان المختصر نفسه لا يوائم ذوق الغربي ، ولا يجري على ما ألف ، ولما كان الغرض من الترجمة ان يطلع الانجليز على مثال من الأدب العربي ، فقد كان الانصاف يقتضي أن يُعرض على أصله وحقيقته ، غير مبتور أو منقوص . وليس الحذف من عمل المستر براكنبري ، فما عدا ان نقل المختصر المنشور ، بامانة ودقة ، فلا لوم عليهِ ، وانهُ لمشكور على مجهوده الذي لا نشك في انه سيفوز من قومه بحقه من التقدير

ابرهيم عبد القادر المازني

القاهرة بقلم عبد الرحمن زكي

١٦ ½ × ٢٤ ½ ، ٢٥٣ ص ، دار المستقبل ومكتبة النهضة بمصر ، ١٩٤٣

كتاب جديد في الآثار الاسلامية وتاريخ مصر منذ العصر الفاطمي . وليس المؤلف غريباً عن هذين العلمين ، فقد تخصص فيهما حين درس بجامعة فؤاد الأول فتخرج في معهد الآثار الاسلامية منذ سنين وكتب المؤلفات والمقالات في تاريخ مصر وفنونها الاسلامية . وليس هذا الكتاب الجديد أول مؤلفاته في القاهرة ، فقد أخرج فيها كتاباً في جزئين ، ظهر الأول سنة ١٩٣٤ والثاني سنة ١٩٣٥ ، وأجمل فيهما تاريخ العاصمة منذ نشأتها الى عصر الخديوي توفيق

أما الكتاب الجديد فقد امتد فيه الحديث عن القاهرة الى عصر الفاروق . وطبيعي ان يكون الكتاب السابق بجزئيه أساس هذا الكتاب الجديد . ولكن الفترة التي انقضت بين ظهورها — وهي نحو عشر سنوات — لم يضعها المؤلف سدى ، فقد أفاد مما ظهر فيها من المؤلفات والمباحث عن مصر الاسلامية وعاصمتها ، كما أتيح له ان يتصل بالأستاذ محمد رمزي بك وان ينتفع بعلمه في هذا الميدان وبمذكراته الوافية عن القاهرة وتخطيطها وأسوارها وأبوابها ومجرى النيل فيها وما الى ذلك

وليس الكتاب دراسة في عمارة القاهرة وتطورها وأحيائها فحسب . وطبيعي أنهُ ليس مجموعة من المقالات لا تكاد تمت بصلة الى القاهرة ، كما حدث في كتاب ظهر حديثاً يحمل اسم القاهرة على الغلاف وفيه من الاستطراد ما لا يسوغ هذه التسمية . وانما كتاب البكباشي عبد الرحمن زكي قصة العاصمة وما يتصل بها من تاريخ مصر ، فقد صوّر المؤلف في صفحاته تأسيسها ، ومظاهر الحياة فيها ، والعمائر التي قامت على أرضها ، والأحداث التاريخية التي كانت مسرحاً لها . وعرض لأعلام الرحّالة الذين زاروها وما دوّنهُ كل منهم عن ذكرياته . ولذلك وفّق في ان يبعد الكتاب عن الجفاف الذي يعيب الكتب التي تفحص عمران المدن فحصاً علميًّا آليًّا لا حياة فيه

• • •

بدأ المؤلف بعرض سريع لعواصم مصر الاسلامية قبل بناء القاهرة فتحدث عن الفسطاط والعسكر والقطائع . وبيّن ان العرب أصابوا في اختيار مواقعها وان ما رماهم

به ابن خلدون من الجهل في انتخاب مواقع المدن وخططها لم يكن صحيحاً في كل المدن التي شيدوها . ثم انتقل الى فتح الفاطميين مصر وانشاء القاهرة على يد جوهر القائد سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) في السهل الرملي الواقع شمالي الفسطاط لتكون سكناً للخليفة الفاطمي وأهل بيته ورجال جيشه . وعرض المؤلف لقدوم الخليفة المعز لدين الله وانتقال الخلافة الفاطمية من بلاد المغرب الى وادي النيل . ثم نقل وصفاً للقاهرة خلفه رسولان قدما الى مصر سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) من قبل عموري (املريك) ملك الصليبيين ليعقدا مع الخليفة ، باسم سيدهما ، اتفاقاً سياسيًّا . وكان الأصح في رأينا ان يؤجل ذكر هذا الوصف الى بعد تمام الكلام على تطور القاهرة في العصر الفاطمي ، لأن قدوم الرسولين الصليبيين كان في نهاية هذا العصر

وقد وفّق البكباشي عبد الرحمن زكي في الافادة من المؤلفات التي كتبها أعلام المشتغلين بالآثار الاسلامية وفي الانتفاع بدراسته في الجامعة ، فنجح نجاحاً كبيراً في دراسة تطور العاصمة في عصور الفاطميين والأيوبيين والمماليك وابراز مميزاتها في كل عهد من هذه العهود التاريخية ، واستطاع ان يفصل الكلام في أسوار القاهرة ومساجدها وقلعتها وسائر ما شيد فيها من العمائر التي اصبحت العاصمة المصرية بفضلها خير متحف لطرز العمارة الاسلامية في مختلف عصورها

ولم يهمل المؤلف دراسة المجتمع في القاهرة خلال تلك العصور التاريخية فتحدث عن أعياد القوم وعاداتهم وأساليب التعليم عندهم وشهرة علماء القاهرة التي سرت الى بلاد الاندلس ، حتى كان الرحالة المسلمون من المغاربة — مثل ابن جبير — يحرصون على لقاء أولئك الاعلام

ومما ذكره في هذا الصدد ان صلاح الدين ولي عرش السلطنة المصرية « ولم تكن في مصر مدرسة واحدة تعنى بنشر التعليم الديني على أسسه الصحيحة » (ص ٦٩) . وهذه مسألة فيها نظر ، وكان الأسلم في رأينا أن يقال انهُ لم يجد مدارس تعلم قواعد الاسلام على مذهب أهل السنة

ولسنا نوافق المؤلف على ان أحداً من حكام القاهرة لم يخلف مثل ما خلفه صلاح الدين من آثار لا تزال باقية وان القاهرة تدين لهذا السلطان بشكلها واتساع نطاقها الى درجة لا تقل كثيراً عما هي عليهِ الآن (ص ٦٠) . فالحق ان في هذا القول هضماً لحق عصر المماليك

وما ازدانت به القاهرة من العمائر الجميلة في القرنين الثامن والتاسع بعد الهجرة (١٤ و ١٥ بعد الميلاد) . ولا يفوتنا ان صلاح الدين مات قبل أن يكمل بناء القلعة والسور

وجاء في الكتاب (ص ٧٦) أن شجرة الدر اتفقت مع الأمراء ، بعد وفاة الملك الصالح ، على مبايعة « ابنها » . وأكبر الظن ان هذه غلطة مطبعية لأن شجرة الدر لم تكن والدة طوران شاه بل كانت زوجة أبيه . فلعل المقصود « ابنه » . ولنذكر في هذه المناسبة ان الأخطاء الطبعيـة كثيرة في الكتاب وان بعضها من الخطر بحيث لا يسهل معهُ فهم بعض الجمل فهماً دقيقاً . وقد سرّنا ان المؤلف فطن الى ذلك فطبع بياناً مستقلاً بتصحيح الأخطاء المطبعية ضمه الى ما لا يزال باقياً في المكتبات من نسخ الـكتاب

ولاشك في ان البكباشي عبد الرحمن زكي يستحق أطيب الثناء على الفصول التي عقدها للكلام على القاهرة في عصر المماليك فانها تمتاز بدقة البحث وتقصي الحقيقة العلمية وعرضها في أسلوب سهل لا تعوزه الحياة . أما ما كتبه في المدينة أيام العصر العثماني والعصر الحديث فحسبه انهُ السابق في هذا المضمار ، لأن القاهرة في هذين العصرين لم يكتب فيها ما يستحق الذكر ، ولأنه أصـاب نجاحاً كبيراً في الاعتماد على ما دوّنه الرحالة الذين زاروها حينذاك وعلى مختلف المصادر التي يجب الرجوع اليها في هـذا الصدد . وطبيعي من المؤلف ، وهو ضابط ومؤرخ للجيش ومدير للمتحف الحربي ، ان يخص الناحية الحربية ببعض الاطالة فنراه يعنى بالحملة الفرنسية على مصر وبمـا أحدث الفرنسيون في القاهرة من هـدم وبناء لأسباب عسكرية مثل مقتضيات الدفاع

* * *

اما الجزء الاخير من الكتاب فعن تطور القاهرة منذ محمد علي الكبير الى أيامنا هذه . والحق انه تطور عظيم بما أحدثه حكام مصر من قصور وحدائق ومرافق عامة وما طرأ على مساحة العاصمة من نمو وامتداد وما قام على أرضها من عمائر ضخمة حكومية وغير حكومية

واذا ذكرنا ما بذله المؤلف في اتمـام الكتاب واعداد صوره وخرائطه من جهود مشكورة ، وما أسداه للخزانة العربية من خدمات باخراج هذا السفر في تاريخ عاصمة الديار المصرية ، فاننا نحرص على ان ننبه الى ان مثل هذه الـكتب العلمية التي يحتاج الباحث الى الرجوع اليهـا يجب ان يعنى فيها بعمل مسارد هجائية لمحتوياتها حتى تسهل الافادة منها ويمكن الـكشف فيها عن مختلف المسائل التي قد يُظن انها تطرقت الى الكلام عليها

وفي رأينا انهُ يحسن بالمؤلف أن يزيد في العناية بتهذيب اللغة في آثاره العلمية، وان يتجنب الأسلوب الحرفي في عبارته، وان يترك التأثر باللغتين الانجليزية والفرنسية في تركيب عباراته، فانهُ بذلك يسدي أجلّ خدمة لمن اعتادوا قراءة الآثار الادبية، ويتجنب لوم الذين يعنون بسلامة العبارة ورصانة الأسلوب

زكى محمد حسن

• الملك الضليل • بقلم محمد فريد أبو حديد

١٥ × ٢٢، ١٩٨ ص، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر، ١٩٤٤

يحتوي هذا الكتاب على ترجمة حياة « امرىء القيس » في قالب قصصي. وهذا الضرب من التراجم القصصية على اسلوب فني يكاد يكون جديداً في ادبنا العربي، فقد عالجه بعض كتابنا من قبل، ولكنهم لم يبلغوا في معظم آثارهم مبلغ الاجادة الفنية. فظهور هذا الكتاب يعد في الواقع ظاهرة جديرة بالاعتبار، لأن حظه من الفن موفور

وقد ازدهرت التراجم القصصية في الأدب الغربي ازدهاراً عظيماً، وبرز فيها ادباء من أعلام الفكر، وقد لقيت من إقبال جمهرة القراء ما يدل على فرط الشغف بها والارتياح اليها. وذلك لأن التراجم على هذا النحو تعرض حياة الشخصيات البارزة عرضاً شائق الأسلوب، خلاب القالب نائياً عن جفوة التاريخ البحت. والانسان مفطور على التطلع الى دخائل هذه الشخصيات في تبسط يدنيها الى الحياة المألوفة الدائرة، وميل الناس الى ذلك أقوى أعراقاً من ميلهم الى تعرف الأبطال الخياليين في القصص، لأن شخصيات التاريخ أناس مثلنا أحاطهم الزمن بهالة من العظمة سمت بهم فوق العيون، ومن ثمّ يطيب لنا أن نجتلي مزاياهم ونتبين نقائصهم ونسبر أغوارهم في وسائل معايشهم

وثمة فرق بين التاريخ القصصي، والقصص التاريخي، ففي النوع الاول يلزم الكاتب نفسه الأمانة والدقة في سرد حوادث التاريخ وترسم الشخصيات. ولكنه يبسط خياله شيئاً ليستعين على الحبك والتصوير، وفي النوع الثاني يطغى الاختراع والتخيل على الموضوع التاريخي، فتبعد القصة عن الثقة التاريخية التي يمكن التعويل عليها

• • •

والكتاب الذي بين يدينا من نوع التاريخ القصصي، وهو يعالج حياة شخصية من الشخصيات البارزة في أدب العربية، وهيهات لدارس هذا الادب أن يأخذ فيه دون أن

يستمع الى قول صاحب تلك الشخصية : « قفانبك ... » وأن تسترعى انتباهه تلك الحياة الجياشة بالمغامرات وتقلبات الدهر ، حتى لتجعل من « امرىء القيس » شخصية أشبه شيء بشخصيات الأساطير

وأوضح ما يطالعك من هذا الكتاب انه صورة واضحة المعالم ، صادقة الشعور ، فانك لتحس إذ تمضي في صفحاته كأنك تحيا في رحاب الصحراء ، بين تلالها ورمالها ، ومراح إبلها ، ومسارح صيدها ، ومنابع مائها ، ومنابت زهرها ، تتنقل مرافقاً هذا الفتى العابث الفياض القلب بشاعريته ، فتطرب بأغاريده يرددها حيث يهوى لا عبء ولا كلفة . ثم ينعى الى الفتى أبوه ، فتراه ينفض عنه غبار اللهو ، وينهض للأخذ بالثأر ، فيواتيه الحظ حيناً ، ويكبو به أخيرا . وينتهي به المطاف الى أنقرة يلتمس الراحة لنفسه المكدودة وجسمه المنهوك ، فيستوفى أنفاسه هناك . والمؤلف يعرض هذه الصورة مفصلة في لطف تنسيق وحسن تعبير ، فيتابعها القارىء جذلان

وكما وفق المؤلف في رسم شخصية « امرىء القيس » وتجلية نفسه في أطوارها المتباينة لم يخطئه التوفيق في رسم سائر الشخصيات التي اتصلت من قرب أو بعد بحياة ذلك الملك الضليل

ولا ننسى ما لهذا الكتاب من فائدة في اضاءة تلك الحقبة المظلمة من التاريخ العربي ، وهي العصر الجاهلي ، فهو يدني للاذهان صورة الحياة السياسية والاجتماعية لذلك العصر ، وهو كذلك يصور لنا حياة « بيزنطة » في مجالي بذخها واستهتارها وما تتقلب فيه من مناعم ومباهج ومجون

محمود تيمور

« الواحة » بقلم صلاح الأسير

١٤ ½ × ٢٢ ، ١٢٥ ص ، منشورات الاديب ، بيروت ١٩٤٣

صلاح الأسير من شعراء الرمزية في لبنان على ارهاف في الشعور ورقة في النغم وانطلاق في الخيال، وقلَّ ان يلمس وادي الحقائق بجناحيه . ولهذا نجد في انطلاقه بعض الشذوذ بين معاني القصيد، فالطائر يظلُّ يحوِّم في الجوِّ متردداً، مختلف الوجهة قبل ان يحطَّ في مكانه ،وقد نجد في هذا التنقل لذة وإن كانت تخطف البصر، وتشتت الفكر . ولا يمنعنا هذا من الالتفات الى معاني الشاعر المستحدثة وتشبيهاته اللطيفة وموسيقاه العذبة . وقد جمع عدد من

قصائد ديوانه ألواناً من هذه المعاني والتشبيهات ،تسوقها في موكب شعري تلك الموسيقى كما هو الشأن في قصائد « الى غريبة » وفيها يقول :

يهتف بي ويشردُ في ناظريها الموعدُ
وأرقب الهمسة في بَوْحٍ لها وأرصدُ
أخاف إن يقينهـا ضـلَّ بهِ التردُّدُ
وبي رفيف اللحن بي مصرعه والمولدُ
ولهفـة لها فمٌ ورغبة لهـا يدُ

وقصيدة « وشاح أزرق » و « تقولين » و « اسمها » و « دمعة » وفي هذه يقول :

من ترى ذوّب في عينيك آثام الليالي
دمعة رقراقة الشكـوى على خدّ الزوالِ
يتلاشى دونها حلم الصبا ، حلم الخيالِ
عمرها لمعة فكر البكر في يوم الضلالِ
مات فيها الأمل الضا حي وغارت في الوبالِ

وقصائد « رجاء » و « الى ساقية » وغير ذلك من العقد المنتظم الحبّات

ولو عني الشاعر بمراجعة بعض ألفاظ الديوان والتدقيق فيها من الوجهة اللغوية لجمل جمال هذه الحبّات متناسق الجوهر ألاّق البريق ، وكان في امكانه أن يتخلص من كلمة « التبرم » في قوله من قصيدة « الى امرأة »

أهواك في التبرم م الظمآن والتردُّدِ

وكان أوقع وأقرب الى الرقة في اللفظ والصحة في اللغة لو استبدل بها كلمة « التململ » ، وكذلك كلمة « مُضنّ » في قصيدته « إني مغنية » بعيدة عن الصحة ، وغير ذلك من مثل هذه الكلمات . وليس معنى التنبيه الى مثل هذه الأشياء انتقاصاً لحق الشعر ، ولكنه حرص الفنان على أن يرى الشيء الجميل خالياً مما يشغله عن متابعة الفتنة فيه

وقد قدّم الشاعر لمجموعتهِ بحوار بين المثال والحجر جعلني استعيد في ذاكرتي وأنا أقرأها مسرحية « مفرق الطرق » لبشر فارس ، وظلّ هذا الخاطر يتراءى أمامي في الجو وفي الحوار وان كان فيهما لفتات من لفتات صلاح الحلوة



حسن كامل الصيرفي

• الوان من الحب • بقلم عبد الرحمن صدقي

١٣ ½ × ١٩ ، ١٥٦ ص ، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ، ١٩٤٤

مجموعة من القصص منقولة من فرائد الآداب الاسبانية والروسية والفرنسية مختتمة بأقصوصة من وضع المترجم موضوعها « بلقيس ملكة سبأ » . وفضل المترجم في هذه المجموعة أنهُ قدّم للقارىء العربي طاقة في اختيار أزاهيرها لطف الذوق . وهـذا الى أن بعض أصحاب هذه الأزاهير لا عهد لنا بالاطلاع على آثارهم في العربية . فبجانب « موپسان » الفرنسي و« تشيكوف » و« جُركي » الروسيّين — وهم ممن حفلت الترجمات العربية بأدبهم — نجد قصصاً « لابانيز » الاسباني و « بلزاك » الفرنسي و « اندرييف وليسكوف وكبرين » الروس ، وهم جدد أو كالجدد على القارىء العربي . ولقصص هذه المجموعة طابع يؤلف بين أشتاتها وهو تحليل نوازع الحب في ألوانها المختلفة

أما الأقصوصة الموضوعة التي تعرب عن فن المترجم فقد أصاب فيها توفيقاً ، اذ نجح في تحليل نفسية المرأة . هذا والكاتب يعنى منْ ناحية الأسلوب باختيار اللفظ للمعنى المراد
*(١)

• تاريخ غزة • بقلم عارف العارف

١٧ × ٢٤ ، ٣٥٥ ص ، دار الايتام الاسلامية ، بيت المقدس ١٩٤٣

من محاسن هذا الـكتاب أن مؤلفه يفتتحه باثبات مصادره العربية والافرنجية ، وإن أغفل ذكر النشر والطبع والسنة والمكان . وفصول الـكتاب تنبسط على عهود كثيرة . فهي تتعقب ، في سرعة أحياناً ، أخبار غزة تحت مختلف من بناها أو ملـكها أو فتحها ، من المعينيين حتى يومنا هذا ، مروراً بالكنعانيين والفراعنة والاسرائيليين والآشوريين والفرس واليونان والرومان والمسلمين على تعاقب دولهم والصـليبيين والمماليك والترك ثم نابليون وابراهيم باشا فالانجليز

هذا وفي الـكتاب فصل موقوف على « غزة في يومنا هذا » (ص ٢٤٩ — ٣١٦) وهو حسن مفيد ، إذ فيه النظرة الواصفة الشاملة والاستقصاء في لمّ معظم ما يتعلق بعمران

(١) النجم يرمز الى اسم من اسماء المتعاونين على الانشاء في هذا الباب

المدينة ، وطريقة المؤلف هنا المشاهدة والتحري . وفي الظن ان هـذا الفصل حقيق بأن يُرجع اليهِ اليوم وفي الغد

وفِقرَ الـكتاب ، مرتبة وفصوله متعاقبة . ثم فيه ٣٥١ صورة تتصل بالآثار والرجال ، وبعض هذه تُلحيق الكتاب بالرسائل الصحافية ، ثم ليس للكتاب مسرد للرجال والأماكن

*

• تونس الخضراء • بقلم لجنة دائرة المعارف الاسلامية

١٤ × ١٩½ ، ١٣٧ ص ، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ، ١٩٤٣

في هذا الـكتاب ادرج نفر من لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية مقالات مقتبسة من تلك الدائرة كان قد ألفهـا طائفة من أعلام المستشرقين الفرنسيين . ورأت اللجنة أن تحذف المراجع التي تثبت في خواتم المقالات ، لأنها تريد اذاعة كتاب سهل المأخذ ، خفيف المادة . ورأت أيضـاً أن تستكتب الاستاذ شفيق غربال من أهل التاريخ في مصر ، فصنع بحثاً في « تونس المعاصرة » جاء كالمدخل الى مقالات المستشرقين . وقـد عرض المؤرخ فيه لما آلت اليه تونس بسبب المشـكلات التي وقعت لهـا وانتهت بهـا الى النزول تحت سلطان فرنسة ، غير أنها لم تُسلب شخصيتُها على نحو ما جرى للجزائر . فهي محميّة أو كالمحميّة ابتغاء الاستغلال . هذا وليس لهذا الـكتاب المفيد مشتمل للموضوعات ولا مسرد للأسماء أو غيرها .

• تغذية الحيوان • بقلم احمد غنيم

١٦ × ٢٣ ، ٢٠٠ ص ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٣

يبحث الـكتاب في انواع غذاء الحيوان وقبول هضمه لهـا وحاجته إلى مواد معينة ومركبات خاصة فيها صنوف من الفيتامينات ثم حاجته الي مقادير قائمة على النسبة الدهنية . ويلي ذلك علائق الغذاء بجهد الحيوان ثم بنموه وتسمنته . ويختم هذا الـكتابَ الذي يعدّ مرجعاً عمليّـاً تجريبيّاً جدولٌ لمواد العلف فيه فائدة دانية كبيرة

*

• جميل بثينة • بقلم عباس محمود العقاد

١١½ × ١٦½ ، ١٥٢ ص ، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ، ١٩٤٤

٣ - المخطوطات

دَرْج بَرْدي مصري *

« فاسمك تخشاه الامم يا ربّ »
« المزامير » ١٠٢ ، ١٥

من المقول الشائع في أوراق البَرْدي انها جافة كالرماد ، وحقاً يجب أن تكون كذلك اذا وقفنا عند المعنى الحقيقي للكلمة ، لأن الماء يصيّر تلك الاوراق كتلة من اللباب البنيّ الذي لا قيمة له . أما اذا انصرفنا الى المعنى المجازي فالأمر ليس كذلك ، إذ الأوراق بعيدة كل البعد عن الجفاف ، هي ملأى بفوائد انسانية في أعين من يستطيع تأويلها

ومن الأمثلة في ذلك أخرى مقتنيات « جمعية فؤاد الاول لعلم البَرْدي » فهي فريدة في نوعها . هي دَرْج بردي — من أجزاء كثيرة — يشتمل على النصف الأخير من سفر « التثنية » من التوراة، مكتوب بحروف جميلة كبيرة مستديرة على انحناء ، وهو الرسم الخاص بالقرن الثاني والاول قبل الميلاد . ولاشك انهُ كان مخطوطاً أنيقاً ، وذخيرة ثمينة عند صاحبها اليهودي — وهي جديرة بالتنويه لتاريخها المتقادم فلا يضارعها إلا قطعة من الترجمة اليونانية للتوراة في مجموعة بَرْدي رَيْلَنْدْز Rylands في منشستر، هي دونها في الحجم كثيراً ، ولكنها من باب المصادفة العجيبة جزء من درج يشتمل على النصف الأخير من سفر « التثنية » أيضاً ويرجع الى القرن الثاني قبل الميلاد كذلك

ومما يبعث الطمأنينة في الأنفس أن النص الوارد في هذه الأوراق المتقادمة مطابق — لولا اختلافات يسيرة — للنص المثبت في العصر الحديث . ومعنى هذا أن نسخاً من النص اليوناني للتوراة كانت متداولة في مصر ، وذلك بعد مدة دون القرنين ، من يوم نقل التوراة من العبرية الى اليونانية أول مرة في الاسكندرية . ثم إن نصوص هذه النسخ المتداولة كانت بالفعل نصوص النسخة التي طبعها سويتي Swete أو بروك Brooke ومَكْلين McLean

ان البقية الضئيلة لمجموعة بردي رَيْلَنْدْز لم تحفظ لنا مثلاً واحداً لكلمة كيريُس Kyrios (الربّ) أو ما يرادفها — هذا على حين ان بَرْدي القاهرة يطلع علينا بمفاجأة تامة ، فهو

* كتب هذا البحث خاصة لباب « التعريف والتنقيب » من مجلة « المقتطف »

يعطينا أمثلة كثيرة في النص اليوناني للكلمة العبرية الآتية (أو على الأحرى: الإرَميّـة) « يَهڤي » المؤلفة من أربعة أحرف . وهذه هي أول مرة نجد فيها كلمة عبرية مستعملة باطراد في نص يوناني من نصوص البردي على الاطلاق

• • •

وتبيّـن الصورة المنشورة هنا أربعة أجزاء صغيرة من التي يتألف منها الدَرْج ، وقد ألصقنا بعضها ببعض ، فبدت في عمودٍ من عشرين سطراً أو تزيد . ويشتمل هذا الجزء من الدرج على قسم من سفر « التثنية » (من الاصحاح ال٣١ ، الآية ال٢٨ الى الاصحاح ال٣٢ ، الآية ال٢٧) أكثره من « نشيد موسى » . وانك ترى اسم الالـه بالعبرية في العمود الثاني في السطر السابع والخامس عشر . ولقد تعمّـد الناسخ — ويكاد يكون من المحقق انه كان يهوديًّـا يتقن اليونانية — أن يتهيأ في كل مرة لاقحام الكلمة العبرية ، وذلك بأن يتيقن من وجود مكان يسع كلمة « يهڤي » المكتوبة من اليمين الى اليسار بعد الفراغ من اثبات آخر كلمة يونانيـة مكتوبة من اليسار الى اليمين . فـكان يقيس المسافة ويحددها بنقطة في كلا الجانبين (أنظر سطر ١٥) . وهكذا نباغت الناسخ — بعد عشرين قرناً — في عمله ، فنستطيع أن نلمح الى طريقته

• • •

ان اسم الاله الخاص في التوراة العبرية وهو « يهڤي » (يَهـوه أو يهوڤا كما يكتب خطأً في الترجمة المقرورة) لا يرد في ترجمتنا اليونانية للتوراة ، ولا يرد كذلك في الترجمة التي تُـدعى « سبعينية » نسبة الى مترجميها السبعين . وأهم ما نعلمهُ عن الترجمة السبعينية قوامهُ المخطوطات الانجيلية كالمخطوط الاسكندري ومخطوط الفاتيكان والمخطوط الامبروزي والمخطوط السينائيء المشهور (وهو الآن بالمتحف البريطـاني بلندن) . ولـكن هذه المخطوطات كلها ترجع الى القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد أي انها كُـتبت بعد ستة قرون أو سبعة بعد ترجمة التوراة (أو بعد ترجمة الـكتب الخمسة الاولى منهُ على الاقل) وقد قام بها المترجمون السبعون في عهد بطليموس فيلادِلـفس

ولقد ذهب بعض الثقات الى أن كلمة كيريُـس (الرب) استعملت منذ البدء لتأدية كلمة « يَهڤي » في الترجمة اليونانية للتوراة ، ولـكن ورقة بردي القاهرة التي نصِـفها الآن تدحض هذا الزعم . ومهما يكن من شيء ، فقد كان ترك الاسم الخاص للاِله وهو « يَهڤي » ، أو الأحرى : استبدال كلمة « كيريُـس » (الرب) بهِ ، خطوة ذات خطر كان على المترجمين أن يخطوها . فقـد كان استبدالاً بعيد الأثر وعلى هذا يقول س . هـ . دود C. H. Dodd

بردي مصري من القرن الثاني ق.م. فيه جزء من « التثنية »
من الاصحاح ال٣١ ، الآية ال٢٨ الى الاصحاح ال٣٢ ، الآية ال٧
من « نشيد موسى »

أما في املاكه الخاصة ومزارعه فقد جعل لافوازييه رائده دائماً تطبيق الطرق العلمية في الزراعة وفي تربية المواشي. ولما عين عضواً في « لجنة البحث في البارود » قلب طريقة العمل التي كانت تسير عليهـا اللجنة قبل انضمامه اليها رأساً على عقب . فأدخل من التعديلات والاصلاحات ما ضمن بها جودة نوع البارود وزيادة المقادير المصنوعة منه ، مما جعل فرنسا في ذلك الوقت في حالة استعداد حربي ، معتمدة في ذلك على ما تنتجه من البارود بدون ان تحتاج إلى استيراد مقادير منه من الخارج

كان لافوازييه من اعظم رجال العلم وقد جمع الى علمه كفاءة ادارية وعناية كبرى بالمصالح العامة . وهي صفات ندر ان تجتمع في رجل واحد (النشرة العلمية الشهرية)

عصر السرعة واللاسلكي

ثم يسبح الخيال بأبي العلاء ، فيستبق الأجيال ، حتى ليتمثل عصرنا الحاضر : عصر السرعة الخاطفة ومايتلوه من عصور ، متلبثاً بمـا كشفهُ العلم وما لم يزح الستر عنهُ الى اليوم ، فيقول :

« ان شاء المليك (الله) ، قرَّب النازح وطواه ، حتى يطوف الرجل ـ في الليلة الدانية بياض الشفق من حمرة الفجر ـ طوفهُ بالكعبة حول « قاف » (وهو ـ فيما تقول الاساطير ـ جبل محيط بالأرض) ، ثم يؤوب الى فراشه والليلة ما همت بالاسحار »

وثمة يطفر به خيالهُ الوثاب ، فيتمثل في عالم الاماني والأحلام ، ما بلغه العلم بعـد عصره بألف عام ، فيتخيل الاذاعة اللاسلكية التي أصبحت الآن حقيقة راهنة بعد أن كانت وهماً من الأوهام ، فيقول :

« ويسلم بمكة ، فيسمعهُ أخوه بالشام »

ثم يتمادى في خياله فيتمثل الانسان وقد استطاع أن ينقل النار في لحظات من مكان قصي الى آخر ، أو يتخيله يغص باللقمة وهو في « خراسان » فيسرع الى ماء « زمزم » ليستقي منهُ ويزيل غصتهُ بهِ ، أو بغيره من المياه البعيدة النائية ، فيقول :

« ويأخذ النار من تهامة ، فيوقد بهـا النار في يبرين وقاصية الرمال

ويجأز بأكيلتهِ (يغص بلقمته) ، في قصور فرغان (في خراسان) فيعتصر بماء المضنونة (زمزم) أو جرابِ (موضع بعيدٍ ، فيه ماء) »

كامل كيلاني

(من مقدمة رسالة الهناء)

تصويب « وظيفة الجامعة في العالم الحديث » نشرت في العدد الماضي ، وسقط منها سطر وبعض سطر . ودونك القراءة الصحيحة للعبارتين : ص ٣٠٢ ، س ١١ ، ١٢ : « فانها نجحت من ناحية التربية العلمية ولـكن أكثرها لم يوفق التوفيق كله في ناحية التربية الخلقية » — س ١٧ : « واستثنى الحاضر هنا جامعتي أكسفرد وكمبردج حيث يلتقي طلاب من مناطق متباعدة . وبسائر جامعات بريطانية ألحق الحاضر جامعات الولايات المتحدة »

فهرس الجزء الرابع

من المجلد الرابع بعد المائة

باب التعريف والتنقيب

المقتطف

الجزء الخامس من المجلد الرابع بعد المائة

١ مايو سنة ١٩٤٤ — ٨ جمادى الاولى سنة ١٣٦٣

من أسرار الجسم الحي

البيوتين والبيودين

وصلتهما بخفايا النمو والمرض

علم الحياة علمٌ واسع النطاق كثير الشعاب ، يتصل من ناحية بالفلسفة ومن ناحية بعلوم الطبيعة والكيمياء . والمارشال سمطس يذهب في ما أُثر عنهُ من مذهب فلسفي — يعرف بالمذهب الكلي Holism — الى أن الحياة ليست وحدةً مستقلةً بل نظام معين . والانسان في نظر أحد الفلكيين ليس إلاَّ مركباً من مركبات الايدروجين في حالة غروية ، وقد أضيفت اليهِ أخلاط ومركبات أخرى . أما علماء الكيمياء فيحاولون أن يحلوا المادة الحية الى العناصر التي تتألف منها ، فيقيسون المقادير اليسيرة من المعادن التي تدخل في تركيب جسم من الاجسام ، وغرضهم أن يضعوا للجسم الحيّ تعريفاً كيميائيّاً ، كما يكتب كبار الطهاة ، وصفةً لكعكة معيّنة أو نوع من الطعام ، ثم يعلنون أن المواد الكيميائيـة ، في جسم الانسان ، لا يزيد ثمنها على ثمانية عشر قرشاً صاغاً ! ولو استطاع الكيميائيون أن يركبوا من هـذه المقادير جسماً حيّاً ، لكانت الاجسام الحيّة أرخص من بعض أصناف الكعك والحلوى

ولكن هيهات ! إننا نجهل الوصفة التي ركّبت بمقتضاها الاجسام الحية ، ولا بدّ أن تبقى بعض الظواهر الغريبة في حياة الأجسام الحية ، كالسرطان والنموّ والمرض مستمرّة حتى يكشف السرّ ، ويعلنَ الخفيّ

انّ تسعين في المائة أو أكثر من تسعين ، من مادّة الكون، مفرغ في أجسام النجوم والسدم . والنجوم والسدم ، على عظمتها ، مركّبة من مادة في حالة توهّج يستطاع تفسيرها وتصوّرها وفقاً لمبادئ الطبيعة والكيمياء . ولكن الخلية على صغرها ، مركّب معقد من سوائل وغازات ومواد غروية ، وهي على برودتها إذا قيست بدرجات الحرارة العادية — لا بحرارة الشموس — مقرٌّ لتفاعل ذريٍّ وجزيئي خفيّ ، تنبثق منهُ شعلة الحياة . فالمادّة الحية (الجبلة ، البروتوبلاسمة) أقرب مظاهر الطبيعة الينا وأبعدها عنا في آن

وليس لأحد أن يتوقع كشف هذا السرّ العظيم — سرّ الحياة — بوحي يهبط على كائن من كان ، ولا لأحد أن يتوقع كشفهُ دفعةً واحدة . فلا بدّ من البحث المحكم الدقيق ، ولا مفرّ من النفوذ الى الحقائق الصغيرة ، رويداً رويداً ، ثم ضمّها بعضها الى بعض ، وقد لا يماط اللثام تماماً عن السرّ ، ولكن البحث العلمي ماضٍ في إماطتهِ قليلاً قليلاً . وفي ما يلي من المقال ، قصة حقيقتين، كشفهما العلم الحديث، تتصلان بأسرار النمو ومقاومة المرض في الجسم الحيّ (١)

البيوتين

أطلق اسم « البيوتين » على أحدث عضوٍ في أسرة من الفيتامينات تعرف باسم فيتامين مركّب B . ومع أن تركيبهُ الكيميائيّ لم يعرف إلاّ من عهد قريب ، فإن مبدأ قصتهِ يرجع الى سنوات خلت

ففي سنة ١٩٢٧ كان فريق من العلماء الألمان ، يجرّبون تجارب بطائفة من الجرذان ، فجففوا بياض (زلال) البيض وأدخلوهُ في طعامهم . وكانت الجرذان حين أكلت هذا الطعام ، تنتفض حيوية ونشاطاً ، فلم تنقض عليها ثلاثة أسابيع ؛ حتى ظهرت عليها أعراض غريبة . فقد بدأ وزنها يقلّ وكساؤها الوبريّ الأبيض الناعم ، يخشن وينزّ ، وظهرت رقع عليهِ زال الشعر منها تماماً . ثم فقدت مرونة قوائمها فلم تلبث حتى تيبّست . وبعد أيام ماتت . وكان مبعث استغراب هؤلاء العلماء ، أن الجرذان كانت تحتفظ بعافيتها كاملة ، لو كان زلال البيض المضاف الى طعامها قد سُلق . فمن الواضح أن في زلال البيض النيء سمّا خاصّا يسمّ هذه الجرذان

(١) اعتمدنا على مجلة «خلاصة العلم» و«رسالة العلم الاسبوعية» ومجلة «هاربر» ومقال لبول ده كروف سبق نشره في ريدرز دايجست

فعني العلماء والأطباء في كل صقع بأخبار هذه الجرذان . كيف يفسّرون هـذا المرض وما يعقبهُ من وفاة ؟ وما هو سبب مرض زلال البيض ؟

على أن فريقاً آخر من العلماء كان مُكبّاً على دراسة نموّ الخميرة فوجدوا أن هنـاك عاملاً غذائيـاً ، لا بدَّ منهُ لخلايا الخميرة ، حتى تنمو نمواً سويـاً ، فأطلقوا على هذا العامل اسم ڤيتامين H أو « بيوتين » فحاول هؤلاء العلماء ، أن يطعموا البيوتين ، للجرذان المصابة بمرض زلال البيض ليروا ما يكون المصير ، فنجت الجرذان مما أصابها وبرئت . فثبت أنّ البيوتين الذي يولـّد خلايا الخميرة ، يبرئ من مرض زلال البيض

فتوسّل العلماء بهـذه الحقائق ، الى المضي في بحثهم ، عسى أن يكشفوا سرَّ الجرذان التي تقضي بزلال البيض . فأفضى البحث في معامل شتى الى تبين بعض السرّ ، واذا هو أن زلال البيض يحتوي على مادة معيّنة ، تسلب الطعام ما فيـه من بيوتين ، باتحادها بهِ . فيمتنع هضمه وتمثيله على الوجه اللازم . وتوسلوا بأساليب الكيمياء الحيوية ، فتبينوا أنّ هذه المادة « بروتين » واطلقوا عليها اسم « اڤيدين » وقد اشتقوه من لفظ « اڤيد » Avid ومعناه « جشع » أو « نهم » لأن هذه المادة فيها جشع للبيوتين والمعروف حتى الآن ، أنّ الأڤيدين لا يوجد الاّ في زلال البيض . ومقادير يسيرة جداً منهُ ، تكفي لاحداث المرض في الجرذان ، فاذا أُغليَ الاڤيدين خلال ثلاث دقائق الى نصف ساعة ، زال فعلهُ

ولا يزال الأڤيدين موضـع عناية عظيمة عند فريق من الباحثين ، ولكنّ موضوع البيوتين ، كان أدنى إلى البحث ، وأقرب الى الفائدة ، فما أوفت سنة ١٩٣٣ حتى كان السؤال الأول عند العلماء المعنيين ببحثهِ ، هو هل يستطاع الحصول عليـهِ نقيـاً من الشوائب ؟ فالڤيتامينات الأخرى قد عزل بعضها ، وركب بعضها بالتأليف الكيميائي ، فهل في الوسع إخضاع البيوتين للعزل والتأليف ؟

وجاءَ الجواب في سنة ١٩٣٦ فكان بالايجاب . فبعد عناء عظيم في التصفية والفصل والتركيز تمكن الباحثان كوجل وتونيس الألمانيان من عزل مقدارٍ منهُ يبلغ ثلاثة أجزاء من مئة ألف جزء من الأوقية استخرجوه من ربع طن من صفار (مح) البيض ، وكان هذا المقدار مبلوراً صافياً كالبلور لا تشوبه شائبة . أما وقد حضّر مقدار يسير من البيوتين المبلور الصافي من مصادر طبيعية ، أفلا يستطاع تركيبهُ بالتأليف الكيميائي في أنابيب المعمل وبوتقاتهِ ؟

والواقع أن ظفر كوجل وتونيس بعزله ، كان توطئةً لا غير ، لبحث دام ست سنوات أخر ، قبل الظفر بالحلّ النهائي

ويعود الفضل في معرفة تركيب البيوتين ، ثم في تركيبهِ بالتأليف الكيميائي الى الاستاذ ڤنسان دي ڤينيو وأعوانهِ في مدرسة الطب بجامعة كورنيل الاميركية . وقد منح دي ڤينيو في السنة الماضية جائزة « ميد جنصن » جزاءً لهُ على بحثهِ واعترافاً بفضله

على أننا نسأل : لماذا يعدُّ العلماء تركيب البيوتين بالتأليف الكيميائي أمراً خطير الشأن ؟ والجواب عن هذا السؤال مزدوج . فتحضيره بالتأليف الكيميائي يتيحهُ للباحثين، في مقادير أوفر وأثمان أرخص فينشط بحثهُ والتجريب بهِ . والبيوتين كثيرٌ في الكبد والكليتين والغدة الحلوة — البنكرياس — والخميرة ومَحّ البيض . ولكن استحضارهُ من هذه المواد شاق وكثير النفقة فاذا أثبت البحث نفعه ، شقَّ استعماله استعمالاً واسع النطاق في الطب إلاَّ إذا كانت المقادير المتاحة منهُ كبيرةً وافية

والبيوتين ، موضع عناية عظيمة لأنهُ مادّة فعّالة من الناحيـة الفسيولوجية ، فلو استعمل منه مقدار يسير جداً لاستطاع أن يحدث تفاعلاً كيميائيّـاً . وفعله في تنشيط النمو يستبين ولو كان المقدار الموجود منهُ لا يزيد على جزء من أربع مئة بليون جزء . وهذه القوّة ، تبعث على الدهشة ، حتى بعد مقابلتها بقوة المواد الاخرى الفعالة من الناحيـة الفسيولوجية . فالثيروكسين مثلاً — مادة الغدة الدرقية — فعّال إذا كان المقدار الموجود منه جزءاً من أربعة بلايين جزء والادرينالين فعال اذا كان المقدار الموجود منه جزءاً من عشرين مليون جزء . فمادة كيميائية ، قويّة الفعل كالبيوتين ، نسيج وحدها أو هي في طبقة خاصة

على أنَّ العناية بالبيوتين ، لا تقتصر على شدّة فعلها ، او فائدتها في تغذية الجرذان ، المصابة بمرض زلال البيض . فقد وجد الدكتور وليم تراجر أحد علماء معهد روكفلر أن تكاثر طفيلي الملاريا في أجسام فراخ الدجاج والبط ، يتأثر بمستوى البيوتين فيها . وبحثهُ هذا يفضي الى الظن ، بأن قلة البيوتين ، في هذه الحيوانات ، يزيد تعرّضها للملاريا . ويقابل هذا أن إضافة البيوتين ، بعد الاصابة ، أضعف شدّة الاصابة . فاذا صحت هذه النتائج وتأيدت ، فهنا مثل على ڤيتامين معين — هو البيوتين — يعزّز المقاومة ضد مرض معين — هو الملاريا . وما دام البيوتين ، يصنع الآن بالتأليف الكيميائي . ففي الوسع إباحة المقادير اللازمة منهُ لتجربة جميع التجارب اللازمة ، الخاصة بمكافحة الملاريا على هذا الاساس

ومن أغرب الحوادث التي رويت ، حادثة سجلها ونشرها الدكتور روبرت وليمز ، في فبراير ١٩٤٣ ، وهي حادثة نقص البيوتين ، في جسم عامل إيطالي عمره ست وستون سنة . كان

هذا العامل منذ حداثته مولعاً بالبيض النيء ، فيمزج بيضةً أو بيضتين بملء كاس من النبيذ ويشرب المزيج . وقد أقام ست سنوات يفعل ذلك مراراً كل يوم . وولعه بالبيض حمله على شراء مزرعة لتربية الدجاج فيها ، من أجل بيضها ، وكان يأكل من عشرين بيضة نيئة الى ٧٠ بيضة كل أسبوع . وكانت تجيء عليه أيام لا يتناول فيها شيئاً سوى البيض النيء والنبيذ . وقد ظهرت على بشرته الأعراض التي ظهرت على الجرذان الذي أدخل زلال البيض النيء في طعامها . ودلّ بحث حالته في المستشفى ، على نقص مقدار البيوتين في جسمه . فعولج بالبيوتين ، وسائر أعضاء أسرة فيتامين B ولكن الاكتفاء بأخذ البيوتين في طعامه لم يكف لاحداث التركيز الوافي من البيوتين في جسمه ، فحقن به حقناً ونجح العلاج

على أن الاهتمام الأكبر بالبيوتين ، آتٍ من ناحية ما يعلق به من أمل في كشف سرٍّ من أسرار السرطان . فبعض الأنساج السرطانية ، لا يحتوي على مقدار كبير من البيوتين ، وبعض آخر منها ، يحتوي على مقدار عالٍ جداً يفوق المعدل السوي . فاذا كان للبيوتين صلة ما بنمو خلايا السرطان ، كما له صلة بنمو خلايا الخميرة ، أصبح في الوسع من الناحية النظرية على الأقل ، خفض النمو السرطاني ، بتحديد المتاح من البيوتين . وقد امتحنت هذه النظرية امتحاناً أولياً ، فلم يسفر الامتحان عن نجاح ، ولكن البحث ماضٍ في سبيله ، وما عرف حتى الآن ، ليس إلاّ فاتحة فصل جديد في تاريخ الطب وتقدمه .

البيودين (١)

أما قصة « البيودين » و « البيوديناات » فترجع الى سنة ١٩٣٥ ففي تلك السنة أسس أسقف مدينة سنسناتي الاميركية معهداً للبحث العلمي واختار لادارته من الناحية العلمية ، رجلاً يدعى الدكتور جورج سبرتي Sperti وكان حينئذٍ في الخامسة والثلاثين من عمره ، ولكنهُ كان قد أحرز شهرة واسعة بين العلماء ببحوثه الباهرة ، فأتاح له المعهد الجديد الفرصة وأفسح له المجال ، إذ مكنهُ من انشاء معمل للبحث في سنسناتي وآخر في « پام بيتش » بولاية فلوريدا للبحث في خلايا الأحياء المائية ، وجمع حواليهِ طائفة مختارة من علماء الطبيعة والكيمياء الحيوية وفسيولوجية النبات وما أشبه ، ووثق الصلة بين المعهد وبين عدد من المعاهد الأخرى وكان الغرض الأكبر البحث في السرطان

فلما اجتمع سبرتي بزملائهِ ذكرهم بحقيقة غريبة غامضة في فعل الخلية . فعند ما يصاب نسيج حي ما بجرح ، تنشط الخلايا التي تجاور الخلايا المصابة ، الى التكاثر تكاثراً سريعاً ، ولا تعود الى حياتها السوية إلاّ بعد ما يتولد النسيج الجديد ويندمل الجرح . فلا بدّ أن تكون

(١) بيودين مركب من « بيوس » : حياة و « ديناميس » : قوة

هناك مادة ، تسيطر على حياة الخلية وتحركها حيناً بعد حين . قال : فاذا كشفتم ما هذه المادة وما فعلها وكيف تفعل ، فلعلكم تفوزون بالمفتاح الذي يفتح أغلق مغلقات الخلية

فكانت الخطوة الاولى، إحداث أذًى ما في الخلايا الحية، ثم مراقبة ما يقع لها ويتم فيها . فاستعمل سپرتي الاشعة فوق البنفسجية ، وهي على ما نعلم مفيدة اذا كانت قوتها ومقاديرها يسيرة ، وفتاكة اذا كانت كبيرة . فذهب إلى أنهُ اذا استعمل هذه الأشعة ، في قوة ومقدار ، فوق الاشعة المفيدة ودون الفتاكة ، حدث الأذى أو الضرر بالقدر المطلوب . وقضى هو وزملاؤه السنوات التالية، وهم مكبون على أنابيب الاختبار تحت مصابيح الاشعة . خلايا الخائر وخلايا أنساج الأجنة من الفراخ وخلايا السحالي والسمك وأكباد الحيوان وما أشبه ، جميعها عُرّضت للاشعة فوق البنفسجية ، وكانوا حين يبلغ الضرر الواقع لها من التعرض للاشعة ، مرتبة معيّنة ، يأخذونها فتغسل في محلول خاص ثم تقطّر الخلايا من المحلول . فاذا كان في هذه الخلايا مادة ما تولدت فيها بفعل الضرر الذي أصابها ، فيجب أن تكون في هذا المحلول المعقم الخالي من الخلايا

وفعلاً وجدت هذه المادة في هذا المحلول . وقد أثبت وجودها بتغطيس قطعة نسيج من جنين فرخ — لم تعرّض للاشعة — في هذا المحلول ،فاذا نشاط عجيب في نمو الخلايا وتكاثرها، وكان هذا النمو بادياً على شرائح المجهر . أي أن الخلية الحية أباحت أخيراً أحد أسرارها

ثم تبين الباحثون أن هناك أصنافاً مختلفة من « البيودين» فصنف يحدث نشاطاً في نمو الخلايا وتكاثرها فيفعل فعلاً ناجعاً في اندمال الجروح . فأطلقوا عليهِ « عامل التكاثر » ، وصنف ينشط التنفس فأطلق عليهِ «عامل التنفس»،وصنف يزيدسرعة الخلية في استهلاك السكر والفوز بالطاقة التي يولدها احتراقهُ ، ولا تزال صلة « البيودينات » بالسرطان موضع بحثٍ . ولكن سپرتي لا يرضى ، أن تهمل حقيقة علمية جديدة الى أن تكشف صلتها الوثيقة بالموضوع الأصيل الذي أفضى الى كشفها .والى رأيهِ هذا مردُّ « مروّخ البيودين » الجديد الفعّال في شفاء الجروح . لأنهُ إذا صحّ أن البيودين — عامل التكاثر — يحرّك الخلايا السليمة الى النمو والتكاثر فيجب أن يكون فعّالاً في شفاء حروق تصاب فيها مساحات واسعة من الجلد . وكذلك استخرج بيودين التكاثر من أكباد الحيوان ،واستخرج بيودين التنفس من خلايا الخميرة ، ومزجا بمادة دهنية فاذا المروّخ يفعل فعل السحر في شفاء هذا النوع من الحروق . ومن عجائب هذا المروّخ أن المصاب بالحرق لا يشعر بألم عند ما يدهن حرقة بمروّخ البيودين مع أن هذا المروّخ لا يحتوي على مخدّر ما . أما سر فعلهِ هذا فلم يعرف بعد .

الى زائرة

لو كنتِ ناصعة الجبينْ هيهاتِ تنفضني الزيارهْ
ما روعةُ اللفظِ المبين؟ السحرُ من وحي العباره



ظلٌّ على وَهَج الحنين رسمته معجزةَ الإشاره
خطٌّ تساقطَ ، كالحزين ، أرخى على العزم انكساره
ماذا بوجد المحسَنين؟ صوتٌ شجٍ خلف الستاره



غيَّبتِ في العَجب الدفين معنىً براءته البكاره
دراًّ يفوت الناظمين ونهضتِ تهديني بحاره
خطواتُ وسواسٍ رزين : وَهبٌ تُعمِّيه الطهاره

بشر فارس

ينبوع الفن

مسرحية في ثلاثة فصول

بقلم خليل تقي الدين

أشخاص الرواية

الكاتب ـ القلم ـ الورقة البيضاء ـ الدواة

المكان لا يتغير في المشاهد الثلاثة . فهو غرفة المكتب في منزل الكاتب . المسرح متخذ شكل منضدة كبيرة عليها ورق أبيض وقلم ودواة . هنا وهنالك كتب كثيرة وصحف ومجلات ، بعضها مرصوف على الرفوف ، وبعضها منتثر على الارض ، وعلى المقاعد . خزائن تندفق الكتب منها . مقعد شرقي مستطيل الى جانبه نارجيلة مهملة كأنها متروكة منذ عهد بعيد . الغبار يعلو الاشياء . لا نظام في المكتب ولا ترتيب ، لكن المكان ، مع ذلك ، يعمر بهذا الاضطراب عمراناً محبباً الى النفوس . على الجدران صور زيتية بغير اطارات من ريشة الجميل وفروخ والانسي (مصورون لبنانيون) ، وصورة كاريكاتورية تمثل الكاتب

المشهد الأول

الزمان — الهزيع الأول من الليل

الدواة (للقلم)	لم هجرتني ؟ . . . أما ظمئت شفتاك ؟ !
الورقة البيضاء (للقلم)	وكيف تجفوني ، أيها الماكر الناسي ؟
القلم	أنا أهجر وأجفو ؟ معاذ الله ! لكنه «هو» الذي هجر، و« هو» الذي جفا ! !
الدواة	هو ! هو ! دائماً وأبداً هو ! متى تخلع عن عنقك هذا النير ؟ . .
الورقة البيضاء	أجل ! متى تتحرر وتحررنا ؟
القلم	نحن ، بدونه لا شيء : جماد لا حياة فيه !
الدواة	لا بل هو بدوننا لا شيء : حيوان ناطق ، لا أكثر ولا أقل ! !
الورقة البيضاء	وهو « لولانا » أريج لا يفوح ،ولحن لا يسمع ، وسراب في صحراء !
القلم	لكننا لا نحيا إلاّ به .
الدواة	وهو ؟ أترى الى هذه الحياة التي يحياها بعيداً عنا ؟
الورقة البيضاء	لقد انحط الى مستوى البشر !
الدواة	وكان بنا يسمو ، ونحن نسمو بهِ الى ذرى الآلهة !
الورقة البيضاء	كنا نبني له المجد ، ونهيء البقاء
الدواة	ونضفر لجبينه أكاليل الخلود
القلم	وما يعنيه من البقاء والمجد والخلود ، وقد دانت له الحياة ، ومنحته نعمة الحب كنزها الأكبر ؟ !

الدواة إنهُ إذن يضحي بنا على مذبح الحب ، وينسانا بين الشفاه المعسولة ، والعيون النجلاء ؟

الورقة البيضاء وتدافع بعد ذلك عنهُ ؟

القلم واحسرتاه ! كنت قصبة جوفاء، فصرت، بين أنامله، حيًّا ، بل خالقاً يبدع الحياة . فكيف أنكره ؟

الدواة ومن أرادك على انكاره؟ لكن أئذا هجرك هو ، وجفاك ، تهجرنا أنت ، وتجفو ؟ ؟

الورقة البيضاء وتنظر اليّ فلا تشفق على عريي ؟

القلم وحق الألف والباء ، إن بي لشوقاً عنيفاً الى عناقك أيتها الحبيبة البيضاء . ولكن ، ما حيلتي وهو يطيل الهجران ؟

الدواة وأنا ؟ أتراك نسيتني أيها الجاحد ؟

القلم وكيف أنساك ، وبي ظمأ قاتل الى نغبة من ينبوعك الأزرق ؟

الدواة فعلامَ لا تأتيني إذن ؟

الورقة البيضاء ولا تكسو عريي بالكلام الخالد ؟

القلم مهلاً ! فهذه ساعته الكبرى ، ولا بدّ أنهُ آت ، فقد هيّأ لهُ الليل الجو الذي يحب . سيجذبه السكون الينا كما كان في ماضيات الأيام

الدواة كان ذلك بالأمس، وارحمتاه على الأمس البعيد !

الورقة البيضاء يوم كان يدلف اليّ خفيف الخطى كما يدلف العاشق الى معشوقه ، فاذا داعبتني يداه ، بعثت فيّ لمساته لذة راعشة، ودغدغ صفحة خدي لهاثه الحارّ ، يوم ينحني عليّ انحناء الحبيب على الحبيب

الدواة ويذيب في قلبي عصارة قلبه !

القلم ونأخذ جميعاً في الخلق والابداع . . .

الورقة البيضاء فاذا صحرائي واحة خضراء ، وسرابي جني وماء ، وجدبي خصب ، وعريي كساء !

الدواة وإذا كل قطرة من ينبوعي فكرة رائعة « وصورة حية » وعاطفة نابضة

القلم وإذا نحن في عرس دائم مع البشر المبدع الخلاق

الدواة عده ليطبع الزمان بالطابع الذي لا يمحى ولا يزول

الورقة البيضاء طابع الفن وميسمه الأكبر

الدواة لكن الليل قد انتصف أو كاد وهو لا يأتي

الورقة البيضاء شأنه منذ شهور

الدواة ونحن ، في انتظاره ، نتحرّق ، ونفنى ، ونذوب

الورقة البيضاء ويتراكم علينا غبار النسيان

القلم وكأن توالي الأيام يسلّمنا الحياة ليعيدنا، كما كنا ، جماداً بغير حياة !

الدواة لا بد من حيلة نردّه بها إلينا

الورقة البيضاء لا بل نرده بها الى نفسه

القلم ولمَ لا تقولان نرده الى الأجيال ؟

الدواة أحسّ أنني هرمت منذ هجرني ، وأن عروقي جفّت ، وغاض في قلبي ماء الحياة

الورقة البيضاء فماذا يحلّ بنا إذا طال بهِ الهجران ؟

الدواة رباه ؟ وماذا يحل بهِ ؟ ...

القلم يظل واحداً في القطيع . نكرة تحمل اسماً ، وتعيش عمراً ، ثم تمضي كأن لم تكن، كما تعيش وتموت الحشرات. فأما أنتِ فتعودين زجاجة فارغة ، تلقى في الطريق ، وأنت صرة صغيرة لشيء حقير ، وأما أنا فأعود قصبة جوفاء تلقى في النار ، أو تدوسها الاقدام

الدواة ربك جنبنا وجنبه هذه النهاية المروّعة

القلم لا بدّ من أن أقتفي أثره وآتيكما بالخبر اليقين، ثم نرى في أمرنا

الدواة إنها لفكرة رائعة ، ولكن أتقوى على اللحاق به ؟

القلم سأندس في جيبه ، على سابق عهدي بهِ ، يوم كان مقامي فوق قلبه

الدواة يالك من قلم مجدود !

الورقة البيضاء ليتني كنت مكانك !

السِتار

المشهد الثاني

الزمان — بين دبيب العتمة وانطفاء النور

القلم وارحمتاه لنا ! واشباباه ! (يجهش بالبكاء)

الدواة إنك تخيفني !

الورقة البيضاء وتبعث الرعشة في جسدي

القلم الويل لنا مما ينتظرنا !

الدواة ما لك تتكلم بالألغاز ؟ ألا تريد أن تهدأ وتحدثنا عما رأيت وسمعت ؟

القلم ماذا تريدين أن أقول ؟ حسبك أن تعلمي أنهُ لن يعود . لن يأتي . لن يأتي أبداً . أيكفيك هذا ؟ !

الدواة (منتحبة) يا ضيعة شبابي ! أيها الينبوع المتفجر من صدري لم يبق لك إلاّ أن تغور . قبلني يا حبيبي قبلة الوداع فقد دنت نهايتي ودقت ساعة الفراق

الورقة البيضاء لقد هبّت عليّ لفحة الموت . وإني لأحس طعمه في حلقي

الدواة ولكن ألا حدثتني الحديث كله ؟

القلم إن صاحبنا عاشق متيّم . فلا عجب إذا نسي ساعته الكبرى ، فساعات حياته كلها عامرة بالحب

الدواة عرفت ، إذن لماذا يخلف مواعيده معنا ؟

القلم أجل ! لأن له كل ليلة موعداً أحب إليه وأشهى !

الورقة البيضاء مع التي يهوى ؟

القلم نعم . « وهو » الى الآن ، عاشق محظوظ . كلما لقيها حدثها حديثاً متصلاً لا نهاية لهُ ، كبعض ما نحسن من كلام

الدواة وهي ، ماذا تقول لهُ ؟

القلم تتدلل . فهي ، ككل الحسان من بنات جنسها ، لعوب إلى حد كبير

الورقة البيضاء وهل تبادله حبًّا بحب ، أم تراها تهزأ بهِ ؟

القلم ليتها صدّته وداست قلبه بقدميها . لكنها تفرض سلطانها عليه ، وتُحكم ، شيئاً فشيئاً ، وضع النير في عنقه

الدواة وهل هي جميلة ؟

القلم (للدواة) لها عينان أصفى من ينبوعك !

الورقة البيضاء لشدّ ما تبالغ !

القلم (للورقة) . . . وشفتان أرقّ منك !

الدواة أكمل . أكمل . ولماذا لا تقول : وقدٌ كقدّك الخيزراني أيها الفاجر ، ما دمت أنت أيضاً قد أخذت بصفاء عينيها ورقة شفتيها !

الورقة البيضاء تبًّا لك من زير نساء ! لست خيراً من الرجال

القلم لِمَ تظلميني ؟ أنا ، إذا شئت ، زير ورقة ودواة . أما النساء فصاحبنا أدرى بهنّ

الدواة ولكنك لم تقل لي بعد هل تحبهُ هذه الفاجرة ؟

القلم يخيل إليّ أنها تحبهُ ، أو هي منجذبة إليه بفضل ما بنيناه له نحن ، سمعتها أمس تغني له مقاطع من شعره ، فراح في نشوة من الطرب ، ثم أكبّ على يديها يوسعهما تقبيلاً ، وهي تضحك وتغني وتبعده عنها بتراخ . . .

الورقة البيضاء يخيَّل إليَّ أنها لا تمنع عنهُ شيئاً . وهذا ما يخيفني

القلم كلاَّ كلاَّ . إنها بعد ، لم تستسلم اليه ، ولكنني أخشى . إنها على أهبة أن تفعل

الدواة يجب أن نحول بينهُ وبينها ! يجب أن نجنبه هذه النهاية المحزنة حتى يعود إلَهاً مبدعاً بعد أن صار بشراً حقيراً !

القلم وأعجب ما في الأمر أنها لا تفتأ تسألهُ لماذا سكت حتى كاد ينساه الناس

الدواة إنها لا تخلو من الفطنة والذكاء . لكن أذكى النساء أكثرهنّ خطراً

القلم قالت لهُ : ألم أوح اليك بشيء ؟ إنك لا تحبني إذن !

الورقة البيضاء وما كان جوابه ؟

القلم جوابه ؟ ... دعي الأدب والشعر فهما وهمٌ ، وأنتِ الحقيقة . إن في عينيكِ من الشعر ما لم يحلم بهِ الأولون ولا الآخرون ، وفي فمكِ من العذوبة ما لم تنطوِ على مثله ألحان الموسيقيين . . . بهذا ، وبمثل هذا كان يجيبها ، وهو مدله نشوان

الدواة الآن عرفت لماذا يجفونا !

القلم لأنهُ سعيد . أو يخيل إليه أنهُ سعيد . هكذا خلقوا ! إنهم لا يذكروننا ما دامت كؤوس اللذة مترعة في أيديهم ، فاذا تحطمت ألهب الشقاء نفوسهم ولسع الألم قلوبهم فلاذوا بنا يغنون ، ويبكون ، ونفحوا الأجيال بفلذات أكبادهم قطعاً وآياتٍ مكتوبة بنجيع الفؤاد ، هي وحدها التي تبقى ، وبها وحدها يخلدون

الدواة كل أملنا إذن أن يشقى ؟ !

القلم أجل ! وأن يعاني ألماً عظيماً . الناس مدينون للألم بكل رائع ، وبكل سام ، وبكل جميل ! لولا الألم لما كان شعر ، ولا موسيقى ، ولا نقش ، ولا تصوير !

الورقة البيضاء تبارك الألم إن ردّ صاحبي إليّ !

القلم إسمعي ! جميع الخالدين من أبناء الفن أحبّوا . وجميعهم أحبوا حبّاً عظيماً . وهم لم يخلدوا إلاّ لأنهم تعذبوا في حبهم

فتسنى لهم أن ينعموا بنعمة الألم الأكبر

الدواة ينبوع الفن !

القلم هذه قسمتهم . إنهم لا يحسنون الغناء ، ولا يبدعون إلاّ إذا غمرهم اليأس والشقاء

الدواة أتراهم في هذه الحالة يستغنون عني ؟

القلم أجل ! لأنهم يغمسون أقلامهم في نجيع الفؤاد !

الورقة البيضاء وما يدريك ان صاحبنا لا يشتاقنا في غمرة السعادة هذه ، أو يحس الحاجة الينا ؟

الدواة أجل ! ليغني نشيد النعيم كما ينشد غيره لحن الشقاء ، سواء بسواء !

الورقة البيضاء أليست اللذة الكبرى كالألم الأكبر ، مهمازاً للعبقرية ؟

القلم كلاّ ثم كلاّ ! إنهم لا يبدعون إلاّ إذا تعذبوا . ألم تسمعي بالمجنون ، مجنون ليلى ؟

الورقة البيضاء بلى ! حدثتني عنهُ جدتي

القلم أكان هنالك مجنون ليلى ، لو زفت اليهِ ليلى ؟

الدواة من يدري ؟

القلم كانا يصبحان زوجين حقيرين في خيمة ضائعة في الصحراء ، يرعيان الغنم ، وينسلان الأولاد

الورقة البيضاء وهما اليوم ...

القلم خالدان في جملة الخالدين

الدواة وغداً ؟

القلم كذلك . لا أمس للخالدين ولا غد . إنهم أسمى من أن يحدهم زمان

الدواة وتريدُ أن تزج صاحبنا بينهم ؟

القلم ولِمَ لا ؟ على شريطة أن أشقيه

الدواة لكنه يبيع البقاء والخلود بساعة معها

القلم لأنهُ بشر أحمق . ونريده على أن يكون نصف إلـه !

الدواة وعلامَ عزمت إذن ؟

القلم دعيني أقص عليك تتمة الحديث . لقد ضرب لها أمس موعداً يلقاها فيه

الدواة متى ؟ وأين ؟

القلم هنا ، غداة غد ، في مثل هذه الساعة ، بين دبيب العتمة وانطفاء النور ،وعند ما فارقها راح يطوّف في الشوارع ويهذي كالمجنون ، ويردد : غداً ! غداً ! واطول شوق المستهام الى غد ! وأكبر ظني أن موعد الغد موعد عظيم ! وظل يسير على غير هدى حتى قادته رجلاه الى الشاطىء ففتح ذراعيه للبحر وأخذ يصرخ بصوتٍ عالٍ كأنه يناديها من بعيد : تعاليْ إليّ ،فؤادي يناديك في هدأة الليل ، هل تسمعين . . . ثم صاح : تعالي ، تعالي ، تعالي كررها عشرات المرات... حتى إذا أتعبه النداء ترنم بالبيت الخالد:

قد يهون العمر إلاّ ساعة وتهون الأرض الاّ موضعا

الدواة بيت شوقي الذي يفضله على سائر ما نظم الشعراء من أبيات

القلم كما يفضل قائله على سائر الشعراء . وظل يغني بصوته العريض

الدواة ماذا ؟ هو يغني ؟...

القلم وماذا عليه إن غنى وسامعوه البحر والأمواج والصخور ؟

الورقة البيضاء وأنت ...

الدواة لقد كان الخائن معها قبل هنيهة ، فهل اشتاقها بمثل هذه السرعة ، حتى يحن اليها هذا الحنين ؟

القلم إذا لم أخطىء كان غد يوماً فاصلاً

الدواة لا بد من عمل حاسم

الورقة البيضاء يجب أن ننقذه من الهوة الفاغرة فاها تحت قدميه ، وننقذ أنفسنا من موت محتم

القلم ونردّه الى من خلق لهم وخلقوا له من دون الناس أجمعين ومن دون سائر الكائنات ، إلينا نحن

الدواة بناة اسمه ومجده وخلوده

الورقة البيضاء وماذا تريان ؟
القلم سأجرح قلبه بيدي حتى تتفجر منه الدماء ، فيعود الينا !
الورقة البيضاء واشوقي اليه ! إنهُ لا يعرف التحليق إلاّ على صدري ؟
الدواة ولا يعرف الاعماق إلاّ في قاعي
القلم ولا يسمو إلاّ بي
الدواة ولكن أخاف إن هدمت حبه أن ينتقم منا
القلم كيف ؟
الدواة إذا لجّ به اليأس أغرقه في الكؤوس ، وجذبته الموائد الخضراء فكنا حفاري قبره بدلاً من أن نكون بناة مجده
القلم كلاّ كلاّ أنا أدرى به منك ، فلا تخافي. إن فيه شعلة العبقرية فهو إنسان موهوب . ولهذا الفريق المختار من الناس أقوى من الخمر ومن المائدة الخضراء ، ومن المرأة نفسها ! نحن الملجأ الأكبر والملاذ الأخير ، ولا غنى له عنا
الدواة وماذا أنت فاعل ؟
القلم سأنفذ خطة عبقرية أستوحيها من موعد الغد . سأكتب اليها رسالة مغفلة أن سر موعدها لم يبق سرّاً . فقد فضحه صاحبنا وفاخر به وتباهى بين جمع من خلانه . .
الورقة البيضاء يا لك من مغامر جريء !
القلم لا يقدم على العظائم إلاّ المغامرون !
الدواة وإذا لم تصدقك ؟
القلم وكيف لا تصدقني وموعدهما سرّ من الأسرار ؟ فاذا كان لها بقية من كبرياء أحجمت ، ثم انقلب حبها بغضاً لمن عبث باسمها وبحبها ، وأنا لهما بالمرصاد
الدواة وماذا علينا أن نفعل ؟
القلم تعيناني على الكتابة
الورقة البيضاء أنت ؟ ! تكتب وحدك ؟ !

القلم صمتاً ، لولا حاجتي اليك لمزقتك شر ممزق ! كيف لا أكتب وأنا القلم !
الدواة إذن هاك قلبي فاغرف منه ما تشاء
الورقة البيضاء وهاك خدي فاكسه بما تريد

﴿ الستار ﴾

المشهد الثالث

الزمان — قبيل منتصف الليل

الدواة ما له زائغ النظرات كأن به مساً من الجنون ؟
الورقة البيضاء لقد قضينا عليه ، ودسنا قلبه ، وحطمنا حبه ولم نفد شيئاً
القلم مهلاً فلا بد من أن يعود !
الدواة رأيته أمس يجهش بالبكاء وينتحب كثكلى فقدت وحيدها
القلم إنهُ أتعس من الثكالى
الورقة البيضاء ألم يحاول ان يتصل بها ؟
القلم بلى ، لكنهُ كان يقابل بالإعراض من جانب خدمها ، وبالصمت المستمر من جانبها هي
الدواة إذا استمرَّ على هذه الحال فقد عقله
القلم لا تخافي ، إنهُ لا يزال تحت تأثير الصدمة الأولى ، ولا بد أن يثوب إلى رشده ، حين يصبح هواه ذكرى ، وخيالا
الدواة وعندها
القلم يأتي دورنا نحن .
الورقة البيضاء خيل إليَّ أمس أنني أسمع وقع خطاه . والواقع أنهُ اقترب مني ، ولكنهُ لم يلبث أن انفجر بكلام غير مفهوم

القلم كانت الصدمة أليمة بقدر ما كانت آماله كبيرة وشوقه اليها عنيفاً
الدواة لقد أحكمت تسديد السهم
القلم وكانت إصابتي جد موفقة . لقد طعننا في الصميم . فانقلب حبها الى كراهية شديدة ، وحقد لا يحسنه إلا النساء
الدواة وأصبت عصفورين بحجر واحد
القلم جازفنا بكل شيء ، ولعبنا لعبة الموت والحياة
الدواة وهل تعتقد أننا فائزون ؟
القلم كل الاعتقاد . لا بل ان بي مثل اليقين أنهُ آتٍ عما قريب . ألم ترَيْ كيف دخل علينا أمس ؟
الدواة لكنهُ لم يلبث أن خرج الى العراء

(يسمع وقع خطوات في الخارج ، فتطفأ الانوار ، ويسدل الستار هنيهة ثم يرتفع)
(فاذا القلم والورقة والدواة قد تزايلت كأشخاص وعادت جاداً يسيطر عليه الكاتب)

الكاتب (مكباً على المنضدة يكتب في حمى الوحي برهة من الزمن ، ثم يلقي القلم من يده ويحدق الى الورقة وقد كستها السطور وينشد بصوت حنون ، خارج من أعماق أعماقه)

يا فؤادي أقصر ! فهذا غرامي قد تلاشى وهذه أحلامي ...
كغيوم مجنونة شاردات تتبارى في أفقها المترامي

قد خلعت الشباب عن منكبي العاني وما زلت في ضحى أيامي
أقطع العمر مثلما يقطع الليل شقيٌّ أعدَّ للإعدام

يا فؤادي خذلتني في غرامي ومحوت الجنات من أحلامي
وعزائي الذكرى وربَّ عزاءٍ كان للنفس باعث الآلام
كلما رنَّت القوافي بأذني رأيت الماضي القريب أمامي
خلق الشعر للحنين وعندي نغم اليأس أعذب الأنغام
وقعتهُ نفسي وغنتهُ أشعاري وأملاه في الشقاء غرامي
كل بيت أرمي به في قصيدٍ قطعة من صميم قلبي الدامي ...

(يكب الكاتب على المنضدة ويروح في سبات عميق ، كأنه محطم)
(الاعصاب من سهر الليالي ، فتعاود الاشياء حياة الاشخاص)

القلم أرأيتما ؟
الدواة وافرحتاه ، عاد الينا ، وعادت معهُ الحياة !
الورقة البيضاء ونعمت بملامسة يديه ، ودفء لهاثه !
القلم (للدواة) لقد روّيت شفتي من ينبوعك العذب
الدواة لا أبعدك الله عني يا حبيبي
القلم (للورقة) وطبعت على خدك الأملس قبلة ما كان أشوقني اليها !
الورقة البيضاء ما رأيك في ثوبي هذا ؟
القلم إنهُ لطرفة رائعة . ولكن اجدي فيها هوذا يتحرك !

(يتململ الكاتب ثم يفيق شيئاً فشيئاً فتبدو عيناه مقرحتين ، ثم يتأمل الابيات ،)
(ويأخذ ورقة جديدة ويشرع في الكتابة برهة حتى اذا انتهى قرأ فيما بينه وبين نفسه)

الكاتب إبكِ يا قلب دماً فان التي عبدتّها قد طواها الأمس القريب !
ويا عينيّ انطفئا فلن تقعا بعد اليوم على محيّاها الصبيح !.
ويا شبابي اذبل قبل أوانك فقد كبرت مائة عام في عشرة أيام
ربّاه ! لو كنت أدري لماذا أعرضت بعد إقبال ، وسخطت بعد رضاء ، وامحت من حياتي ، كما يغيب نجم شعّ هنيهةً في سمائي فأنار ظلمة حياتي كلها
رحماك ، حبيبتي ، سأظلّ أناديك ، وأغنيك ، وأخاطبك ، حتى تأتي إليّ ، أو تأتيني الراحة الكبرى ، فأنحدر الى رمسي وعلى شفتي اسمك المعبود ! !

(يخرج الكاتب من الغرفة محني الظهر ، ثقيل الخطى ، كأنه في الستين من عمره)

الدواة رباه ، ما أشد حزنه ؟
القلم لقد بدأ يحس وخز الألم الاكبر ، وما هذه إلاّ البداية
الورقة البيضاء وعاد معنا سيرته الاولى فأصبحنا في عرسٍ دائم ..
القلم أجل ؟ نحن في عرسٍ ، ما دام قلبه في مأتم .

بعقلين — لبنان —

المآصر في بلاد الروم والاسلام

— ٣ —

لميخائيل عوّاد

(د) المآصر في كتب الأدب

لم يترك الشعراء الأوائل ناحية من مناحي الحياة ، ولا مرفقاً من مرافقها إلاّ قالوا فيه شعراً . وها إن أبا العباس عبد الله بن المعتز بالله يتطرق الى ذكر المآصر في شعر خالدٍ له . فأنشد :

بالكرخ والميدان لي منزلٌ ... ولدتي القفص وقطربل(١)
وخير مال لي طيارةٌ (٢) ... تدبر بي في السير أو تقبل
يلاطم الماءَ مجاديفها ... حامة لكنها تُحملُ
غايتُها قصرُ حُميدٍ وفي ... بستانِ بشرٍ دهرُها الأطولُ
وإن تجد من مأصرٍ غفلةً ... تطِرْ الى كركين(٣) لا تعدلُ (٤)

وكان القاضي المحسّن التنوخي (المتوفى سنة ٣٨٤ هـ) ممّن نبّه الى المأصر الأسفل ، إذ سرد حكاية طويلة جاء في آخرها : « فتوجه النفّاطون والرجّالة الى الزورق فضربوه

(١) لنا مقال لم ينشر بعد بعنوان « مواطن القصف واللهو في العراق ، أيام العباسيين » ، وفيه كلام على هذه المواقع (٢) طيارة ، انظر « الذيل » رقم ١

(٣) كركين : بضم الكافين ، من قرى بغداد ، كانت أحد مواطن القصف واللهو . ولها أخبار في معجم البلدان (٤ : ٢٦٣) (٤) أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم ، وهو الجزء الثالث من كتاب الاوراق لابي بكر محمد بن يحيى الصولي (ص ٩٨ طبعة هيورث دن في القاهرة)

بالنار ، وأقبل الملاّح يلطم ويصيح ويقول : يا قوم فيه أموال الناس . . . . وأحرقت قلوس الزورق التي كانت تربطهُ وتمسكه ، . . . فانحدر مع الماء لنفسه والنار تشتعل فيه ، فوقع على الجسر فقطعهُ وانحدَر حتى انتهى الى موضع معسكر سيف الدولة (لعله ابن سيف الدولة) ، وكان نازلاً في المأصِر بواسط » (١)

(هـ) المآصر في كتب الإدارة والسياسة

لم نقف في المراجع التي تدخل في هذا الباب على أقدم مما ذكره القاضي أبو يوسف (المتوفى سنة ١٨٢ هـ) — صاحب الامام أبي حنيفة — ، قال : « وحدّثنا قيس بن الربيع عن أبي فزارة عن يزيد بن الأصم عن أبي الزبير أنهُ قال : إن هذه المآصر والقناطر سُحْت لا يحلّ أخذها ، وبعث عمالاً الى اليمن ونهاهم أن يأخذوا من مأصرة ، أو قنطرة ، أو طريق شيئاً ، فقدموا ، فاستقلّ المال . فقالوا : نهيتنا . فقال خذوا كما كنتم تأخذون » (٢)

وقد مرّ بنا غير نبأ عن المأصر الأسفل بصريفين واسط ، وها هوذا هلال الصابىء يتطرّق الى ذكره في مجرى كلامه على أحوال دار الخلافة العباسية ببغداد . قال : « ... ومن ذلك النفقات التي تطلق في كل سنة لثمن الجوارح وكسوة الكراع ، وثمن القلوس للمأصر الأسفل ، وثمن الكمأة المقددة : اثنين وأربعين الفاً وسبعة دنانير » (٣)

وقبل الانتهاء من هذا الباب ، نورد أخباراً تشبه أن تكون ذات صلة وثيقة بالمآصر النهريّة . فقد ساق مسكويه في حوادث سنة ٣٣١ هـ هذا الخبر : « كان رسم مراكب ابن وجيه أن تُشدّ بعضها الى بعض بالليل في عرض دجلة فيصير كالجسر ، فلما كان في الليل ونام الناس وكلّ مَن في المراكب ، أشعل ذلك الملاّح السعف ، وأرسل الزورقين والنار فيهما ، فوقعا على تلك المراكب والشذاءات ، فاشتعلت واحترقت قلوسها واحترق مَن فيها . . . » (٤)

وما من شك في أن ابن وجيه ، إنما عمد الى عمله هذا الذي ينطوي على المكر والإيقاع ، إصطياداً للسفن المنحدرة في دجلة وسلباً لما تحمله من مالٍ وزاد

---

(١) نشوار المحاضرة (٨ : ٩٤ ، نشرة المجمع العلمي العربي بدمشق) (٢) الخراج لأبي يوسف (ص ٨٠ ، طبع بولاق) (٣) دنانير ، « انظر الذيل » رقم ٢ (٤) تجارب الامم (٦ : ٤٦)

وروى الوزير أبو شجاع في أحداث سنة ٣٨٦ هـ ما جرى عليه أمر لشكرستان بالبصرة الى أن استقرّ ما بينهُ وبين مهذب الدولة من الصلح . قال : « فاختلفت الرواية في دفعه عنها ، فقيل إنّ أهل البصرة قويت نفوسهم فوثبوا على الديلم ، وانصرف لشكرستان من غير حرب الى أسافل دجلة ، وقيل بل عقد جسراً في الموضع المعروف بالجلّ وقال : الديلم يرمون كلّ مَن يرد من نهر عمر . وجعل أمامه سليسلة حديد ممتدة من إحدى حافتي نهر ابن عمر الى الأخرى ليدفع عن الجسر ما يرسل على الماء من شاشات القصب المضرمة بالنار تغوص بثقلها فتعبر الشاشيات عليها فتغرقها ، فوافى عسكر البطيحة من نهر ابن عمر وجمعوا قصباً كثيراً بعرض النهر وأرسلوه مضرماً بالنار ، وجعلوا سفنهم التي فيها مقاتلتهم من ورائه ، فوقع على السلسلة وتقطعت وعلى السفن الصغار فاحترقت ، ووصل الى الجسر ، ودخل عسكر البطيحة البصرة يقدمهم ابن مرزوق وعسكره الى الجزيرة ... » (١)

وحكى ابن كثير في أخبار سنة ٦٩٠ هـ أنهُ « جاءت البريديّة لغزو العراق ، ونودي في الناس بذلك ، وعملت سلاسل عظام بسبب الجسورة على دجلة بغداد ... » (٢)

يؤخذ مما تقدّم أن المآصر النهرية كانت منبثّة في غير مكان على دجلة والفرات ، على أن أهمها ما كان في : بغداد (وفي أعلاها المأصر الأعلى) والحوانيت ودَير العاقول ، والعَلْث ، والكوفة وصريفين واسط (وعندها المأصر الاسفل)

﴿ الذيل ﴾

(١) الطيارة ، ويقال فيها الطيار : ضرب من السفن النهرية القديمة ، أكثر ما اتخذ في العراق لركوب العظماء . فقد أخبرنا ابن الجوزي (المنتظم ٩ : ١٣٠) في حوادث سنة ٤٩٥ هـ ، خبر طيار شهير عرف بطيار جلال الدولة البويهي . قال أبو الفرج « وفي يوم الثلاثاء حادي عشر المحرّم جلس المستظهر لمحمد وسنجر ، واجتمع أرباب المناصب في التاج ، ونزل كمال الدولة في الزبزب وأصعد الى دار المملكة فاستدعاهما فنزلا في الزبزب ، وكان الطيار قد شعث وغاب وهو الذي انحدر فيه والدهما جلال الدولة أبو الفتح ملكشاه الى دار الخلافة حين جلس له المقتدي بأمر الله ، وانحدر فيه طغرلبك حين جلس له القائم بأمر الله . وهذا الطيار كان لجلال الدولة أبي طاهر بن بويه وأنفق عليه زائداً على عشرة آلاف دينار ،

(١) ذيل تجارب الامم (ص ٢٧٢ — ٢٧٣ ، طبعة آمدروز) (٢) البداية والنهاية (١٣ : ٣٢٢)

وأهداه للقائم ، وجددت عمارتهُ في سنة سبع وأربعين ، وتشعث في أيام المقتدي فجددت عمارته وحط الى دجلة ، فكان للناس في تلك الأيام من الفرجة بدجلة عجائب ، ثم هدم »

والظاهر أنهم سموه بالطيار ، لأنهُ من السفن الخفيفة السريعة الجريان ، كأنها لسرعتها تطير على وجه الماء . وقد أفاض الكلام فيها العلاّمة الطيب الذكر أحمد باشا تيمور في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (٢ «١٩٢٢» ص ٣٢١ — ٣٢٤)

وما ذكرناه ها هنا ، وكل ما جاء عن السفن في هذا البحث ، مختصر من كتاب « السفن والمراكب في بلاد الاسلام والفرنج » من تأليف كاتب هذا المقال وأخيه كوركيس عوّاد وهو ما زال مخطوطاً

(٢) رسوم دار الخلافة (الورقة ٣٠ من المخطوط) وهو كتاب أعددناه للنشر بعد أن حققناه وعلقنا عليه ، وألحقنا به فهارس مفصّلة وملاحق منوّعة . والمقال الذي بين يديكَ أحد تلك الملاحق . طالع ما كتبناه بشأنهِ في : مجلة الرسالة (العدد ٣٦٢ ، ص ٩٧٧ — ٩٨٠) . وهناك إشارات متفرقة عنهُ في الرسالة أيضاً (العدد ٤٨٥ ، ص ٩٧٩ ، ٩٨١ ، والعدد ٤٨٦ ، ص ١٠٠٦ — ١٠٠٧) . والثقافة (العدد ٩٨ ، ص ٣٩ ، والعدد ١٩٨ ، ص ٥ — ٨ ، والعدد ١٩٩ ص ١٩ — ٢١ ، والعدد ٢٠٠ ، ص ١٩ — ٢٠) ، والمقتطف (٩٨ « مارس ١٩٤١ » ص ٢٤١) ، ومجلة غرفة تجارة بغداد (٤ « ١٩٤١ » ص ٢١١)

حقائق جديدة

عن الشمس

* قام الدليل في بحث مقارن بين طيف الذهب وطيف الشمس ، على وجود الذهب في الشمس

* وقام الدليل الطيفي كذلك على وجود عنصر الثوريوم في الشمس ، وهو من العناصر المشعة النادرة

* بدأت دورة جديدة من دورات الكلف التي تظهر على وجه الشمس ، ومدتها إحدى عشرة سنة وثلث سنة

الدين والفلسفة

التوفيق بينهما في المغرب

لمحمد يوسف موسى

---

١ — نترك الآن فلاسفة المشرق الى إخوانهم في المغرب فنجد أن أبا بكر محمد ابن يحيى ، المعروف بابن الصائغ وبابن باجه والمتوفى عام ٥٣٣ ه ، لم يصل إلينا عنه ما يدل على عنايته بهذه المشكلة التي شغلت مفكري الاسلام جميعاً . ولكن المستشرق الفرنسي جوتييه Gauthier يؤكد بحق [١] أن ابن باجه لم ينس هذه المشكلة ، وإنما قصر أجله وكثرة مشاغله حالا بينه وبين أن يخصص لها رسالة من رسائله كما فعل أسلافه ، فقد عاش عيشة مضطربة وشغلته الدنيا حتى فجأته المنية قبل ظهور علمه وبث حكمته ، كما يقول ابن طفيل [٢]

وهذا التأكيد من « جوتييه » له ما يبرره ، إذا لاحظنا أنهُ عاش في بيئة كان يخشى فيها المفكر الحر على نفسه ، وان ابن باجه نفسهُ استثار عداوة كثير من مناوئيه وحساده — ومن بينهم الفتح بن خاقان — فأثاروا عليه الشعب والحكومة واتهموه بالالحاد والخروج عن الدين [٣] . رجل هذا شأنه بين هؤلاء الأعداء والحساد ، كان حريًّا لو امتد به العمر أن يدفع عن نفسه تهمة الالحاد بعمل يبين به أن الفلسفة والدين يتفقان ، وأنهُ ليس من العدل أن يقرف المرء بالالحاد لأنهُ فيلسوف ، ولكن أولئك الأعداء عاجلوه فدسوا له السم فمات منه كما يقال .

٢ — أما ابن طفيل ، الذي عاش عيشة هادئة متمتعاً فيها برعاية أسرة الموحدين حتى توفى عام ٥٨١ ه في عهد السلطان أبي يوسف يعقوب ، فقد عني كما يذكر المراكشي بالتوفيق

---

(١) نظرية ابن رشد ص ١٦٤ (٢) حي بن يقظان ، نشر مكتب النشر العربي بدمشق ص ١٤
(٣) ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٦٢

بين الدين والفلسفة ، حتى إنه من الممكن أن يقال مع « جوتييه » إن الغرض من قصته الفلسفية « حي بن يقظان » كان إظهار هذا الاتفاق والتدليل عليه . فانه لما التقى بطله « حي » — بعد أن وصل الى الحقيقة بالنظر — « بآسال » وقد عرفها من الدين ، وقصّ كل منهما على الآخر قصته ، ثبت لهما أن الحقائق التي عرفها أحدهم بالتفلسف تطابق تماماً الحقائق التي عرفها الآخر من الدين (١)

وقد انتهى مؤلف « حي بن يقظان » الى ما انتهى اليه أسلافه من أن الناس طبقات . فنهم من لا يستطيع أن يطيق معرفة الحقائق عارية بذاتها ، فالخير لهُ في الانتفاع بالشريعة وما ضربتهُ لهذه الحقائق من رموز وأمثال ، ومنهم الذين وُهبوا استعدادات وعقولاً ارتفعوا بها عن العامة ، وهؤلاء تفيدهم المكاشفة بالحقائق ذاتها (٢) ولهذا رأى ، كما رأى أرسطو والفلاسفة الآخرون من قبل ، أن هناك تعاليم باطنة للخاصة وأخرى ظاهرة علنية للعامة ، فيجب أن نجعل كل نوع منها لطائفة خاصة لا يصلح أمرها إلاَّ بهِ ، وبذلك لا يصطدم الدين بالفلسفة ، بل يتقرر بينهما السلام

٣ — وصلنا الآن الى أعظم فلاسفة المسلمين بالأندلس ، أعني الى أبي الوليد محمد بن أحمد ابن رشد المتوفى عام ٥٩٥ هـ ، الذي كانت محاولته في التوفيق بين الدين والفلسفة خلاصة جهود من سبقوه في هذا الطريق وتاجها ، مضافاً إليها ما شاء له عقله القوي وتفكيره السديد

والباحث إذا رجع الى العصر الذي عاش فيهِ فيلسوف قرطبة ، ومثل لنفسه الأثر الخطير الذي أحدثهُ الغزالي ضد الفلسفة والتفكير الحر بكتابه « تهافت الفلاسفة » ، عرف أن ابن رشد كان في حاجة ماسة مُلحّة لبذل الجهود لإماتة هذا الأثر أو إضعافه على الأقل ، وذلك بمحاولة لها دعائمها القوية يضع فيها الحدود الواضحة للعلاقة بين الوحي والعقل حتى لا يقوم بينهما بعدُ خصومة أو عداء . كان لا يسعه إلاّ أن يعمل هذا ، ليصل الى تجلية ما كان يعتقد من مؤاخاة الشريعة للفلسفة وتعاضدها في سبيل المعرفة والسعادة الخاصة والعامة

لقد خصص ابن رشد لهذه الغاية كتابيه : « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » و « الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة » ، وذلك فضلاً عن تناولها في

(١) حي بن يقظان ص ٥٠ ، وجوتييه ص ١٧٠ — ١٧١
(٢) حي بن يقظان ص ١٣٧ — ١٤٠ ، وجوتييه ص ١٧١ — ١٧٣

مناسبات مختلفة في كتابه « تهافت التهافت » . ووضع لهذه الغاية طريقاً يؤدي في رأيه اليها ، ومبادئ تقوم عليها ، هذه المبادئ هي :

ا — الاستدلال بالقرآن والحديث على وجوب النظر العقلي أو التفلسف ، وبيان أن ما يؤدي اليه هذا النظر لا يمكن أن يخالف الشريعة . وقد وجد من القرآن وحديث الرسول ما أسعفهُ بما أراد من وجوب النظر والتفكير والسعي الى الحكمة ، ثم وصل من هذا الى التأكيد بأنهُ من المقطوع بهِ أن كل ما أدى اليهِ البرهان وخالفه ظاهر الشرع فإن هذا الظاهر يقبل التأويل، حتى لا يصطدم العقل بالشرع (١)

ب — بيان أن العقول والاستعدادات للادراك تختلف ، ولهذا انقسم الشرع الى ظاهر له أهله من العامة وأشباههم ، وباطن لهُ أهلهُ وهم ذوو البرهان . ومن أجل ذلك يرى ابن رشد انقسام الناس الى طوائف ثلاث : الخطابيون وهم الجمهور الذي يصدق بالأدلة الخطابية ، وأهل الجدل ومنهم المتكلمون الذين ارتفعوا عن العامة ولكن لم يصيروا من أهل البرهان اليقيني ، والبرهانيون بطبعهم وبالحكمة التي أخذوا أنفسهم بها (٢)

وذلك التفاوت في الفطر والعقول الذي جرّ الى هذا التقسيم يجب أن يكون له أثره في اختلاف التعاليم التي يؤخذ بها كل طائفة أو فريق ، فللجمهور وأشباهه من الجدليين — الذين لا يطيقون الوصول الى التأويل الصحيحة — الايمان بظواهر النصوص الشرعية وما ضرب لهم من رموز وأمثال ، وللعلماء أهل البرهان الايمان بالمعاني الخفية التي ضربت تلك الأمثال والرموز لتقريبها من العقول وهذا يكون بتأويل النصوص . ويجب أن يجعل كل نوع من هذين التعليمين لطائفته الخاصة ، لأن جعل الناس شرعاً واحداً في التعليم خلاف المحسوس والمعقول (٣)، إذ التكلم مع الجمهور على النحو الفلسفي يكون بمنزلة إعطائهِ طعاماً هو سمٌ له وإن كان غذاء للآخرين (٤)

ج — وضع قواعد عامة لتأويل ما يجب تأويله من نصوص الشريعة ، لبيان متى يكون التأويل ، وكيف يكون ، ولمن يصرح بهِ ؟

وفي هذا يرى أن هناك نصوصاً يجب على أهل البرهان تأويلها ، وحملها على ظواهرها كفر ، لأن الواجب عليهم الايمان بما فيها من معانٍ خفية ، كما يجب على العامة حملها على

(١) فصل المقال ، طبع ميونيخ ، ص ٧ — ٨ (٢) الكشف عن مناهج الادلة ص ٢١
(٣) نفسه ص ٧٩ (٤) تهافت التهافت ، نشر بويج ، ص ٣٥٦ ، ٣٥٧

ظواهرها ، وتأويلهم لها كفر ، لأن المفروض عليهم الايمان بالظاهر . من هـذه النصوص قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » ، ونحوه مما يوهم من القرآن والحديث أن الله جسم وينتقل من مكان الى آخر [1] . ويصوغ من هذا كله مبدأ عامًّا ، فيقول بعد ما تقدم : « إن من كان فرضه الايمان بالظاهر فالتأويل في حقه كفر ، إن كان هذا في أصل من أصول الدين لأنهُ يؤدي اليه [2] وغني عن الذكر أن من كان فرضه التأويل يكون الأمر بالعكس بالنسبة اليه بصفة عامة أيضاً

وبعد هذا يتشدد في وجوب عدم إذاعة التأويل لغير أهله ، ومن ثمَّ يلوم اللوم كله الغزالي والمتكلمين عامة لاثباتهم التآويل في كتبهم فذاعت بين أهلها وغير أهلها ، وكان من ذلك أن عاب قومٌ الشريعة وعاب آخرون الحكمة ، وأن مزقوا الشرع وأوقعوا الناس في شنآن وحروب [3]

د — بيان الطريقة المثلى للاستدلال على ما اختُلف فيهِ من المسائل بين رجال الدين ورجال الفلسفة ، كعلم الله وقدم العالم والتفرقة بين القدم الزماني الذي يتصف به العالم — في رأي الفلاسفة — والقدم الذاتي الذي لا يتصف بهِ إلاَّ الله وحده ، والدار الآخرة وكيفية ما يكون فيها من حساب

لقد طبق ابن رشد ، في بيان هذه المسائل وإثباتهـا ، ما قرره سابقاً من ضرورة ملاحظة اختلاف العقول وما يعتبر نتيجة له من اختلاف التعاليم . والكلام في تلك المسائل يطول ، وليس هذا موضعه ، لذلك نجتزئ بما أشرنا اليهِ من طريق معالجتها بياناً وإثباتاً . بتطبيق ما قرره من مبادئ عليها

ه — وأخيراً بيان الوحي ما هو ، وتحديد الصلة بينه وبين العقل ، وبيان الحاجة الى الشريعة مع الفلسفة ، ثم بيان ما يجب أن يُعتقد ويُفهم في النبوة والمعجزات

وقد تكون هذه المسألة الأخيرة ، مسألة الوحي والنبوة ، أهم ما يتعرض له من يحاول التوفيق بين الدين والعقل ، لذلك كان لا بد من أن يقول فيها ابن رشد كلمة صريحة لا لبس فيها ، ولقد قالها

ذكرنا أن ابن رشد خصص كتابيه « فصل المقال ، والكشف عن مناهج الأدلة » لمشكلة

(١) الكشف ص ١٦ (٢) الكشف ص ١٧ (٣) فصل المقال ص ١٧ — ١٨ و ٢٣

التوفيق بين الدين والفلسفة ، وأنهُ عالجها أيضاً في كتابه تهافت التهافت . ونذكر الآن أن الباحث يدهش إذا تتبع رأي فيلسوف قرطبة في هذه المشكلة كما عرضه في هذه المؤلفات الثلاثة، ويكاد يرى نفسه مضطراً للحكم عليه — إذا جعل نصوص هذه المؤلفات كلها بمنزلة سواء — بالتناقض او الرغبة في إيهام القارىء وتضليله !

*

انهُ يعلن أن هناك أموراً تعجز العقول الانسانية عن معرفتها ، وإذاً فلنرجع للوحي الذي جاء متمماً لعلوم العقل ، «لأن كل ما عجز عنه العقل أفاده الله للانسان من قِبَل الوحي »(١) كما يعلن أن الفلسفة تعنى بفحص ما يجيء به الشرع ، فإن أدركته كان هذا أتم في المعرفة ، وإلاّ أعلنت بقصور العقل الانساني عنه وأن هذا مما يدركه الشرع وحده »(٢) ويعلن أيضاً أن تلك الأمور ، وكلها ترجع الى معرفة الله والسعادة والشقاء الانساني في الدنيا والآخرة واسبابهما ، لا تعرف كلها أو معظمها إلاّ بوحي أو يكون معرفتها بوحي أفضل »(٣) ولا عجب عنده في هذا ؛ لأن « الفلسفة تنحو نحو تعريف بعض الناس سعادتهم ، وهم من عندهم استعداد لتعلمها ، أما الشرائع فتقصد الى تعليم الجمهور عامة »(٤) ولهذا كان العلم الذي يأتي به الوحي رحمة لجميع الناس(٥)

بينما يعلن ابن رشد هذا كله ، مما لو حكمنا عليه به لجعلهُ من الفلاسفة غير العقليين، نراه في « فصل المقال » يشيد بعلوّ النظر العقلي ، حتى إنه ليقطع « بأن كل ما أدى اليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع أن ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي»(٦) وهذه القضية — التي لا يشك فيها مسلم كما يقول — يعظم ازدياد اليقين بها عند من قصد الجمع بين المعقول والمنقول ، « فإنا معشر المسلمين نعلم على القطع أنهُ لا يؤدي النظر البرهاني الى مخالفة ما ورد بهِ الشرع ، فإن الحق لا يضاد الحق ، بل يوافقه ويشهد له » (٧) وبعد أن يقرر هكذا قيمة النظر العقلي وعلوّه ، نراه يؤكد قدرتهُ على الوصول الى كل الحقائق ، التي يجيء بها في الوحي في شكل رموز وأمثال ، ويعرفها عقل الفيلسوف عارية خالصة، وهذا هو السبب فيما سبق ذكره من انقسام الشرع الى ظاهر وباطن ، « فان الظاهر هو تلك الأمثال المضروبة لتلك المعاني، والباطن هو تلك المعاني التي لا تتجلى إلاّ لأهل البرهان»(٨)

---

(١) تهافت التهافت ص ٢٥٥ (٢) نفسه ص ٥٠٣ (٣) مناهج الادلة ص ١٠١ (٤) تهافت التهافت ص ٥٨٢ (٥) نفسه ص ٢٥٦ (٦) فصل المقال ص ٨ (٧) نفسه ص ٧ (٨) نفسه ص ١٥

هكذا يظهر لنا ابن رشد في هذه المشكلة ، مشكلة الوحي والعقل ، متعارضاً أو متناقضاً في بادئ الرأي . تارةً يلوح أنهُ غير عقلي فيتبع العقل للوحي كما يبين من نصوص التهافت والمناهج ، التي اعتمد عليها وحدها الأستاذان « مهرن » Mehren و « ميجيل آسين » Miguel Asin فأثبتا له نزعة غير عقلية تجعل العقل تابعاً للعقيدة والفلسفة تابعة للدين في بعض مسائل أساسية [1] وتارةً يكون عقليًّا بمعنى الكلمة ، يوجب — كما رأينا — تأويل النصوص الشرعية التي تخالف بظاهرها ما يؤدي اليه النظر البرهاني الصحيح

لكن الباحث — ليدفع هذا التعارض أو التناقض الظاهري — يجد من الحق أن يرد نصوص المناهج والتهافت الى نصوص « فصل المقال » الذي ألفه خاصة ليكشف رأيه في مسألة الصلة بين الحكمة والشريعة، على حين لم يكن الأمر كذلك في الكتابين الآخرين، وعلى حين كان غرضه من « تهافت التهافت » الرد على الغزالي واظهار الفلاسفة في آرائهم بمظهر لا يختلف عن الدين ليطمئن رجاله ويفرخ روعهم ! وبهذا يكون فيلسوف قرطبة غير متناقض في رأيه وموقفه وفهمه للصلة بين الدين والفلسفة ، وتكون نزعته عقلية لا عوج فيها ولا التواء

وقد يؤكد هذا الذي نرى من تأويل نصوص المناهج والتهافت لتتفق ونصوص فصل المقال ، ما ذهب اليه ابن رشد نفسه في مسألة النبوة والمعجزات مما لا يختلف عما ذهب اليه الفارابي وابن سيناء، أي من أن النبوة حادث طبيعي معقول يكون بالوحي عن الله، بتوسط ما يسمى عند الفلاسفة بالعقل الفعال وعند رجال الشريعة ملكاً [2] وأن الوصول لهذا يكون ببلوغ القوى المتخيلة والعقلية الكمال فتطلع الاولى على اللوح المحفوظ وما فيه من غيب وتنتقل الثانية من معلوم الى آخر بالحدس انتقالاً سريعاً حتى لا يحتاج الى تعلم ، وان المعجزة كذلك أمر يتفق دائماً مع العقل وقوانين الطبيعة [3] فليس يحتاج في ذلك الى أن نقرر أن الأمور الممتنعة في العقل ممكنة في حق الانبياء [4]، وأن المعجزات تكون متى بلغت القوة النفسية العملية حد الكمال فيستطيع صاحبها أن يؤثر في الأمور الطبيعية — مثل نزول مطر وحدوث زلزلة — ويسخرها له كما تؤثر نفس الانسان عادة في جسمه وفي غيره من الناس ايضاً إن كانت هذه القوة النفسية قوية الى حدٍّ ما

(١) يرجع فيما يختص بالاول الى رسالته : دراسات في فلسفة ابن رشد تتعلق بصلتها بفلسفة ابن سينا والغزالي، وفيما يختص بالثاني الى جوتييه في كتابه نظرية ابن رشد (٢) تهافت التهافت ص ٥١٦ وجوتييه ص ١٤٥ (٣) جوتييه ص ١٤٦ (٤) تهافت التهافت ص ٥١٥

وأخيراً فيما يختص بابن رشد ، نرى أن رأيه في فهم الصلة بين الدين والفلسفة ووجوب التوفيق بينهما على النحو الذي رآه هو ما ذهب اليهِ سلفاه العظيمان الفارابي وابن سينا ، وإذاً فليس من الحق ما ذهب اليهِ بعض الباحثين المصريين من أن طريقة ابن رشد في التوفيق تختلف عن طريقة الفارابي وابن سينا . إذ هذا الاستاذ الباحث يرى أن هذين كانا يعملان على التوفيق حقيقةً بين الوحي والعقل ببيان أنهُ بالتعمق في العقل والوحي يرى أنهما يتطابقان ويعبران عن حقيقة واحدة

أما مذهب ابن رشد — فيما يقول — فلا يزيد عن أنهُ فصل لنفوذ الدين عن نفوذ الفلسفة ، ما دام قد جعل الأول للعامة والثانية للصفوة المختارة ، وفصل للتعاليم الدينية عن التعاليم الفلسفية (١)

وهذا الذي يراه الأستاذ ، حين يوازن بين رأي ابن رشد ورأي الفارابي وابن سينا في هذه المسألة ، بعيد عن الصواب

ذلك . بأنّ ابن رشد يرى مثل سلفيه أنهُ لا فرق في الحقيقة بين ما يجيء عن الوحي وبين ما يؤدي اليهِ نظر العقل ، وفي هذا يقول — كما تقدم — إن النظر البرهاني لا يؤدي الى مخالفة ما ورد به الشرع ، فان الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ، كما يرى أن الحكمة هي صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة ، (٢) أو كما يعبر الاستاذ « جوتييه » أن الدين والفلسفة لغتان لحقيقة واحدة (٣) ، وهذا عين ما يراه الفارابي وابن سينا . وأما ما يوجبه ابن رشد من رعاية اختلاف التعاليم باختلاف طبقات الناس العقلية ، وبعبارة أخرى ما يوجبهُ من فصل مناطق النفوذ لكل من العقل والوحي ، فانهُ لا يجعل طريقته في التوفيق تختلف عن طريقة المعلم الثاني والشيخ الرئيس . ذلك لا يجعل إحدى الطريقتين توفيقاً حقيقيًّا ، والأخرى مجرد فصل بين السلطات ! وبخاصة وقد تبين مما تقدم أن ابن رشد مسبوق بالفارابي وغيره من فلاسفة الاسلام بنظرية تقسيم الناس الى طبقات تبعاً لاستعداداتهم العقلية ، ووجوب التفرقة لهذا بين ما يجب أن يكون لكل طبقة منها من التعاليم

(١) الاستاذ ابراهيم مدكور في كتاب مكانة الفارابي ص ٢١٧ — ٢١٨

(٢) فصل المقال ص ٢٦ (٣) نظرية ابن رشد ص ١٨٠ — ١٨١

الطبع الحيواني

بقلم كامل كيلاني

---

١ — الضعيف والقوي

إذا انتقلنا مع شيخنا « أبي العلاء » من الطبع الانساني الى الطبع الحيواني راعنا منهُ أنهُ لا يكاد يحمد للحيوان صفة واحدة إلاَّ أنحى بالذم على غيرها



فهو في جمهور منظومه ومنثوره، لا يفتأُ ينعتهُ بالجور والإفساد ، ويصفهُ بالبغي والاستبداد ، ويعلن سخطه واستنكاره لما يشهده ويراه من فنون بغيه وأذاه

وعنده أن الحيوان كالإنسان — في كل صقع ومصر ، وفي أي عهد وعصر — ظالم معتد أثيم ، يفتك قويه بضعيفه ، ويستبد قادره بعاجزه ، لا فرق في ذلك بين سباع الطير وبغاثها ، وأسد الفلاة ومهاتها ، وهو يرى ما يراه أستاذه المتنبي : أن البغي أصيل في كل نفس ، برة كانت أو فاجرة :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد
ذا عفـــة فلعـــلة لا يظــلم

٢ — غريزة الظلم

والحمامة — على ضعفها — ظالمةٌ باغيةٌ ، وهي غادرة برَّة كانت أو فاجرة :

والشر في حيوان الأرض مفـــترق والإنس كالوحش من ضار ومُبْـتَـقِـل

وهي — فيما يرى شاعرنا — لا تتورَّع لحظة واحدة عن الفتك والأذى والعدوان متى هُيِّيء لها من أسباب الشر وطرائقه ما يحقق آرابها ، ويتيح لها ارضاء نزعاتها الباغية ،

ويكفل إرواء نزفاتها الظامئة الطاغية . فهي تظلم — ما وسعتها طاقتها الضعيفة — كما يظلم الأسد جهدَ طبيعته الباطشة الغلابة ، فهو يقول :

كادت تساوَى نفوسُ الناس كلهم في الشرّ ما بين منبوز ونَبّاز (١)
ظُلْـمُ الحمامة في الدنيا - وإن حُسِبت في الصالحات كظلم الصقر والبازي

والخِشْفُ —وهو ولد الظبية أول ما يولد — يحمل، على عجزه وضعفه، نفساً شرّيرة باغية ، لا تكاد تختلف عن نفس الأسد طبيعة وعنصراً ، ومعدناً وجوهراً ، وكلاهما جدير أن يتقى شرُّه ، ويحذَر ضرُّه .

وإليك النص :

«خفْ من خِشف بغم (٢) ، كما تخاف من هزبر (أسد) ضغم (عض) ، فكل الأنفس مواطن الشرور ، وعنده أن الكل في الغفلة سواء :

وأم شبلين في غيل ومأسدة كأم خشفين في شث وطباق (٣)

على أنه يوصيك أن تصنع المعروف دائماً في كل من تمكنك الفرصة من اسداء الجميل اليه سواء في ذلك الانسان والحيوان ، فهو يقول :

توخ الأجر في وحش وإنس ففي كل النفوس مرام أجرْ

وكأنما يشير بهذا البيت — في لباقة — الى مأثور الحديث :

ما من مسلم يغرس غرساً ، أو يزرع زرعاً ، فيأكل منهُ طير او انسان أو بهيمة الا كان له به صدقة

٣ — طبيعة الخوف

ولا يفوت شاعرنا أن ينبه — فيما نبه اليه من طبائع الحيوان وغرائزه — ما جُبل عليه من طبيعة الخوف من القوي. فهو اذا قرر لنا في بعض فصوله ما تأصّل في طبيعة الانسان من الظلم ، فقال : « طبع النائم على الحلم ، والانسان على الظلم » — لم يَفُتْه — في فصل آخر — أن يُصوّر ما طبع عليه الحيوان من غريزة الخوف من الفاتك الباطش : فيقول :

« المخلوق كما خلق
طُبعَ الهادلُ (الحمام)

(١) نبزه : لمزه ، ونبزه بكذا : لقبه به ، وهو شائع في الالقاب المستهجنة (٢) بغمت الظبية : صاحت الى ولدها بأرخم ما يكون من صوتها ، وبغم فلان صاحبه : لم يفصح له عن معنى ما يحدثه به (٣) يعني أن الظباء — في عرينها — كالظبية التي ترعى من النبات : الشث والطباق

على الخوف من الأجادل (الصقور) .
فالحمائمُ وإن سكن الأقفاص
وعلمن أن لا مناص (أن لا خلاص)
يُحسنَّ النقرَ
ويَخشينَ مخالب الصقرِ »
أو يقول :
« أرى حيوانَ الأرض يرْهبُ حتفهُ ويفزعُهُ رعد ويُطمعهُ برْق »

٤ — براعة النحلة

وله ، الى ذلك فنون من المقابلات بين الانسان والحيوان ، لا يتسع هذا المقام لتفصيلها ، فلنقتصر على بعض ما أبدعهُ في المقابلة بين الانسان والنحلة ، قال :

«والجارسة (النحلة) تبني من الشمع أحسن مسكنٍ وتودعهُ طيِّب الأرْي(العسل)
وزمازمُها تسبيحٌ لملهم الحكمة من أراد
فما فضيلة الصَّنع (الحاذق الكف بالصنعة)
اذا اتخذ قميصاً (درعاً) للحرب
كبارد الحَبَب (طرائق الماء)
أو بُرْدِ الحُباب (جلد الحية)

وما أروع قوله في تشبيه البارع الموهوب بالنَّحلة ، فهو بما أوتيه من مزايا نادرة ، وقدرة باهرة ، يردُّ الوحشيَّ من الكلام أنيساً ، كما يرد النحل ما يجنيه من نوْر الأزهار — وهو مرُّ المذاق — عسلاً سائغاً للشاربين ، فهو يقول :

« ردّت لطافته وحدّةُ ذهنه وحش اللُّغات أوانساً بخطابهِ
والنحل يجني المرَّ من نوْر الرُّبى فيعود شهداً في طريق رُضابهِ»

٥ — رزق الحيوان

وهو — على هذا — دائم العناية ، موصولُ التفكير في الحيوان والانسان جميعاً ، ولهُ في ذلك فنون من روائع الصور ، تضيق بتفصيلها مُطوّلاتُ الاسفار بَلْهَ موجزات الفصول

ويُحسبُنا في هذه الوجازة أن نشير الى بعض ألواحه الفنِّية الرائعة التي تصوِّر ناحية من نواحي تفكيره العميق ، في تمثُّل العناية الالهية بكل حي من الاحياء ، وكيف كفلت

الرزق لجميع المخلوقات . فهو يعرض — في هذا اللوح الفاتن — صورةً رائعة التفصيل تمثل بعض المصادفات التي تعدّها الأقدار لتهيئة الرزق لمن قسم لهم على غير انتظار

فهذا رجل يعتزم السفر فيعدّ للرحيل عدته،ويدفعهُ الشرهُ الى التأنق في اختيار طيّب الزاد ، والافتنان في تهيئة لذيذ الطعام فاذا تمّ لهُ مراده ، وأعدّ للرحلة زاده ، وضع الخبز في سفرة من الخوص ، الى جانب جدْي سمين طري اللحم لذيذ الطعم يكاد يتفطر إهابه لدسامته . ولم ينس المسافر نصيبه من الحلاوة ، فأعدّ لنفسه ما يكفي الجماعة — من لذيذ الفالوذج ، ثم صبر الى الصباح ، فلما أشرق النهار بدأ رحلته ، وما زال يواصل السفر طول يومه ، حتى إذا آذن النهار بالزوال ، نزل على ماء نمير ، جلبه السيل الغزير ، الى عين أو غدير ، فطعم من شهي الزاد حاجته ، وأكل من لذيذ الحلاوة كفايته . وأتاح المسافر بهذه الرحلة فرصة سعيدة ، ومأدُبة فريدة ، لأممٍ من النمل ، جائعاتٍ ، جئنَ اليه مسرعات ، وأقبلنَ على مشاركته في زاده متسللات ، وقد بدَتْ جسومهنّ المحزوزات ، كأنّ ظهورهنّ من الحزّ مقطوعات .

ولا يفوت شاعرنا أن ينبه الى ما يختصّ بهِ الضعيف من قدرةٍ على الأذى ، وإلحاق الضرّ بالقويّ ، فيقرر لنا أن هذه النّملَ الضعيفات ، لسنَ عن الشرّ بعاجزات ، وأنهنّ — على تجرّدهنّ من السيوف والرّماح ، وأدوات الحرب والكفاح — قادرات على ايذاء الكُماة المدجَّجين بالسلاح .

ثم يمثّل لنا شاعرنا كيف أتاح المسافر لضيوفه النازلات بساحتهِ ، ألواناً شهيّةً من فُتات مائدته .

ويصوّر لنا كيف طوّح صاحبنا ما زاد على كفايته من العظام ، بين كثبان الرمال والآكام . فهيّأ بذلك رزقاً لطائفة من الحيوان ، وجدت فيما يحتويه العظم من مخٍّ طريّ، زاداً جدّ شهيّ .

فأقبل عليهِ بعض الجياع ، من الغربان البُقع أو الضباع

وهنا يبدع فيلسوف المعرّة وشاعرها صورة بارعة لتلك الغربان والضباع ، ويصف كيف يتبدّينَ في بديع ثيابهنّ ، فيخيل لمن يراهنّ ، أنهنّ قد تلفّعنَ وتسربلنَ ببديع من الثياب والأبراد ، مخططة بالبياض والسواد .

واليك النصّ العلائيّ :

« أمرُ الأرزاق أزْوالٌ (عجائب)

عزم ظاعنٌ على الشّخوص (المَسير)

فاتخذ سمهةً (١) (سفرة) من خوص .
فيها أبيض حرٌ (خبز)
وعمروسٌ (٢) (جديٌ) ، أرضعتهُ الخروس (٣) (المرضع القليلة اللبن) ورعديد (٤)
(فالوذج) ، يكتفى بهِ العديد
فصار الانسان لما أبصر
فلما فنيَ يومه وأقصر (٥) (صار في آخر النهار)
نزل على عينٍ سجراءَ (يضرب ماؤها الى الحمرة ، لقرب عهده بالسيل) ،
فأصاب من الطعام
والله آثر (خصّ) الأنفس بطيّبِ الأكيلِ (المأكول)
فاجتمع اليه سودٌ جزلٌ (٦) (نمل)
يؤذين ذوي الأسلحة ، وهنّ عزلٌ
فأصبنَ ما قُسِمَ لهنّ ، والحتامة النزل (يعني أن ما سقط من المائدة كان زادهنّ ،
والنزل هو : الطعام الذي يصلح للنازل ، اذا نزل بك)
ورمى بالانقاء (الكثبان من الرمل)
أعظماً ذوات أنقاء (٧) (أمخاخ)
فابتدرهنّ بقعٌ : (جمع أبقع ، وهو الغراب ، أو : الضّبُع ، لونه البقع) كأنما
عليهنّ لفعٌ من البرد أو السّباج (٨)
ومن لفتاته الطريفة في هذا الباب قوله :
يرى الضب الراكب
فيقول لحسلهِ (ولده) :
اتق الحارش (صيّادَ الضّبّ)
فيمر الراكب عجلا ،

(١) السمهة : السفرة تتخذ من الخوص (٢) العمروس : الجدي أو الخروف ، وأكثر ما يستعمل في الجدي ، ويقال : ان عبد الملك بن مروان قال لعدي بن حاتم : « ما تعدون أفضل الطعام عندكم » ؟ قال : العنوق (الاناث من المعزى ، واحده عناق) قال : أما نحن فلا نعدل بالعماريس » (٣) الخروس : التي تلد بكرها ، فيكون لبنها قليلا ، فتعمل لها الخرسة ، وهي طعام تطعمه النفساء ليدر لبنها (٤) الرعديد ، هنا : الفالوذ ، وفي غير هذا الموضع : الجبان (٥) أقصر : صار في قصر النهار ، وهو : آخره (٦) يقال للنملة : جزلاء ، لاجل الحز الذي في ظهرها ، ويقال : بعير أجزل اذا خرجت من فقار ظهره فقارة (٧) (مصدر أنقى العظم إذا صار فيه نقي ، وهو : المخ ، واذا فتحت الهمزة ، فهو جمع نقي) (٨) (اللفع : جمع لفاع وهو ما يتلفع به ، والبرد : جمع بردة ، والسباج : جمع سبيجة وهو ثوب فيه سواد وبياض)

ومعه جراب عجوة ، فيلقيه ،
ويعجله السير عن أخذه
فيكون في ذلك الجراب معيشة للحسل

٦– في طلب الرزق

ومن بدائع الصور التي رسمتها ريشة هذا المبدع قوله أيضاً يمثل ما يعانيه الإنسان في طلب الرزق :

ويغدو الحاطب نشيطاً ، وفي يده المخلب (المنجل) ، وعلى عاتقه المسد
فيكون أكيل أسامة (مأكول الأسد) مع الشروق .

وقوله يمثل ما تعانيه القطاة من ضروب الاخطار في سبيل التماس الرزق :

تنزل القطاة الى شرك الوليد
وهي فرحى بما لاح لها من الرزق
فيؤول أمرها معهُ إلى أحد ثلاثة أشياء :
سحطٍ مزعف (ذبح سريع)   أو سجنٍ حرج   أو عذابٍ مُبَرِّح

وقوله : وابك على طائر رماه فتى   لاهٍ فأوهى بفهره [1] الكتفا
أو صادفته حبالة نصبت   فظل فيها كأنما كتفا
بكر يبغي المعاش مجتهداً   فقص عند الشروق أو نتفا
كأنهُ في الحياة ما فرع الغصـ   ـن [2] فغنى عليه أو هتفا

وقوله يصف النحلة :

وتقدم الجارسة (النحلة) على مارّ الطريق بالسب ، وجتفها فيه — وقوله :
«وينام الوليد عند وجار الضبة المكون (وهي : التي فيها بيضها)
ومعهُ تمرات حشفات (من أردإ التمر) [3]
فتخرج لتسرقهن منهُ   فيصيدها بالسعي الهبن

ملاحظة : هذا المقال من « مقدمة رسالة الهناء » وهي تحت الطبع ، وأما الصورة المنشورة فمن ريشة جبران خليل جبران

---

(١) الفهر : الحجر ملء الكف (٢) فرع الغصن : علاه (٣) وقيل : اليابس الفاسد منه

سرابيوم

« معبد الاسكندرية »

للدكتور باهور لبيب

منذ فترة قصيرة اكتشف رجال متحف بلدية الاسكندرية بجوار عمود السواري آثاراً ترجع الى عهد الملك بطليموس الثالث . وقد نوهت بها بعض الصحف وذكرت أن بينها لوحات ذهبية تدل على أن بطليموس الثالث هو المنشىء لسرابيوم الاسكندرية

ولكنه اتضح من بحث المراجع الأثرية والأدلة التاريخية أن منشىء سرابيوم الاسكندرية هو بطليموس الأول لا الثالث

فكان الاسكندر الاكبر وحكام البطالمة يميلون الى مهادنة المصريين ومجاملتهم من الوجهة الدينية . ولذلك حذوا حذو ملوك الفراعنة فكانوا يزورون الآلهة المصرية في معابدها ، واتخذوا لأنفسهم الالقاب المصرية التي ترجع الى تاريخ معبودات مصرية قديمة كاللقب الحوريسي نسبةً الى الاله حورس (إله السماء) ، الذين كانوا يعتقدون أنه يحمي حامل لقبهُ بل يعتبر من سلالته . واللقب صارع نسبة الى الإله رع (إله الشمس) ظناً منهم أن المسمى به يعتبر ابناً للإله رع

ولم يكتف بطليموس الأول باستمالة المصريين وإرضاء كهنتهم بالطرق المنوه بها آنفاً ، بل فكر في طريقة أخرى لايجاد عبادة مشتركة يونانية مصرية تربط الشعبين

فغير اسم المعبود المصري (العجل آبيس) بتسمية مصرية يونانية (أوسرحابي ، أي العجل آبيس المتوفى) بسرابيس . وعبده المصريون في شكل الآلهة المصرية أزوريس أو العجل آبيس أو الإله اونوبيس . واليونانيون في شكل الإله اليوناني هادس (إله الآخرة) أو اسكالبيوس (إله الشفاء) أو زيوس

وبذلك أصبح كلٌ من الشعبين لا يعتبر هذه الديانة رمزاً لديانة جديدة

فكلّف بطليموس الأول المهندس اليوناني Parmenissus بارمنيسوس انشاء معبد للإله سرابيس بالاسكندرية فأقامه مكان عمود السواري الحالي، وأطلق عليه اسم السرابيوم وكان هذا المعبد أهم مركز لعبادة هذا الإله في عصر البطالمة

وقد أضاف أيضاً بطليموس الاول هيكلاً جديداً بسرابيوم منف [١] للمعبود العجل آپيس، وهو أحد أشكال الإله سرابيس على الطريقة المصرية كما تقدم. ويرجع تاريخ سرابيوم منف الى الدولة الحديثة أو الى ما قبل هذه الدولة على حسب بعض الآراء. ولا يمكن القول بأن بطليموس الاول هو الذي أنشأ سرابيوم منف بناءً على التعديل الذي أجراه فيه [٢]

كما أن وجود ألواح ذهبية باسم بطليموس الثالث بسرابيوم الاسكندرية منقوش عليها أنه أهدى الى سرابيس المعبد والحرم المقدس — لا يدل دلالة قاطعة على انشاء هذا السرابيوم، بل يستنتج من النقوش فقط انهُ اهتم بتوسيع هذا المعبد أو بتجديد بنائه كما حدث في سرابيوم منف في عهد بطليموس الاول، لا سيما أن السرابيوم يشمل عدة مبانٍ

وقد وجد علماء الآثار ألواحاً ذهبية ببلدة كانوب (بجوار أبي قير) باسم بطليموس الثالث منقوشاً عليها أنهُ أهدى هو وزوجته برنيكا المعبد للإله أوزوريس. فالمقصود هنا أن الاهداء ينصب على ما أضيف بمعرفتهما بهذا المعبد. وتوجد إحدى هذه الالواح بالمتحف البريطاني بلندن

مما تقدَّم نستطيع القول بأن بطليموس الأول لا الثالث أنشأ سرابيوم الاسكندرية [٣]

---

(١) سرابيوم منف عبارة عن هياكل متصلة بمحاريب لدفن ما يموت من عجول آبيس وكانت توضع جثث العجول في توابيت وتدفن بهذه المحاريب. وكانت وفاة العجل آبيس تعتبر حادثاً تهتز له البلاد كلها

وعندما يكون العجل آبيس على قيد الحياة كان يعيش في مكان بجوار هيكل بتاح على مسافة أربعة أميال تقريباً داخل بقعة مزروعة من الوادي تدعى «آبيوم».

وعلاقة الاله بتاح بالعجل آبيس هو أن المصريين في عصر الدولة الحديثة كانوا يعتقدون أن روح الاله بتاح قد تقمصت العجل آبيس

(٢) وفوق أهمية ما شيده بطليموس الاول في سرابيوم منف من الوجهة الدينية تقوم له أهمية فنية إذ انه أول بناء في مصر معروف حتى الآن ظهرت فيه الاعمدة اليونانية المسماة «كورنثي»

(٣) وقد وصلت درجة عبادة الاله سرابيس الى حد جعل جميع المصريين يعبدونه، وكذلك يونانيو مصر إذ أصبح إله الدولة. وفي المسائل القضائية ذكر اسمه في القسم

كما أن عبادته انتشرت من الاسكندرية الى البلاد الاغريقية ثم فيما بعد الى الدولة الرومانية

الألم وفائدته

الألم إنذار يحذر من غدا جسمه في خطر

نقلها : كامل محمود حبيب

لقد حاولت المبادئ الفلسفية والتعاليم الدينية طويلاً أن تثبت العدل الذي ينطوي عليه وجود الألم في هذا العالم. أما من الناحية البيولوجية فالألم ضروري في نظام الكون، فما كان لنوع من الحيوان أن يعيش على الأرض ما لم تهيئهُ الطبيعة بأجهزة تنبهه ليدفع عن نفسه أي خطر يهدد سلامته

والألم كأي إحساس آخر تحملهُ الأعصاب من نقطة التأثير في الجلد الى منطقة الادراك في المخ، خلال الحبل الشوكي. وهنا تتم عمليـة إدراك الألم، لا عند مكان الأثر الأول. وإذن فلا ألم بدون عصب، ولا ألم بدون المخ. وهكذا يكون للجهاز العصبي الكامل الصحيح من الشأن في إدراك الألم ما يبذّ شأن الموضع الذي أصيب فعلاً. فرجل بترت يده يستطيع أن يجد لذع الألم أثيرت أطراف الاعصاب المقطوعة والطفل يحس الألم وهو لا يعرف مأتاه، لأنهُ لايقدر على تحديد مصدره تماماً. وإن بعض أنواع الألم لتخدع المرء في تقدير مصدرها، فالتهيج في الحجاب الحاجز ـ مثلاً ـ يبدو كأنهُ ألم في الكتف

ويلوح ان الشعور بالألم ينقلهُ نوع خاص من الأعصاب لا يعدوه، مثلما تنقل أعصاب السمع وأعصاب البصر هذين الإحساسين وحسب. وهناك أعصاب خاصة للمس تدرك الحرارة والبرودة وتستشعر الحركة. ويمكن الاستدلال على وجود هذا النوع إن نحن اختبرنا منطقة من الجلد ضيقة محدودة فأمررنا عليها إبرة حادة دقيقة وشعرة خشنة على التعاقب، فإنا نجد أن منطقتين من مناطق الألم تتباعدان بمسافة مليمتر تقريباً، في حين أن المسافة بين منطقتي الاحساس تربي على ذلك كثيراً. أما على سطح قرنية العين، حيث لا أعصاب للمس، فإن أي لمسة — ولو من شعرة من قطن، تسبب ألماً

ولقد كشفت الاختبارات المجهرية عن أن طرف الأصبع تنتشر عليه نهايات أجهزة تشبه أزرار الأجراس الكهربائية ، وينطلق من كل نهاية عصب كبير . ويقوم كل هذا الجهاز بالادراك الحسي — اللمس — ، ويفرق بين مختلف الاحساسات وإن كانت واهية . والى جانب هذا أعصاب قليلة متفرقة على شكل أنابيب شعرية لا تنتهي بطرف متميز ، تلك هي التي تغطي قرنية العين ، وإذن فهي — ولا ريب — أعصاب الألم

وينتشر في كثير من أجزاء الجسم والأوعية الدموية ، ومعظم الاعضاء أعصاب قريبة الشبه بما تقدم ، وهي تختلف قليلاً في التركيب وفي نوع الاحساس بالألم الذي تنقله . فما من شك في أن اللذعة الوقتية التي يحدثها وخز سن دبوس تختلف كثيراً عن ألم دائم أحدثه قطع شريان أو تمزيق عضلات المفصل . وقد يكون الألم في بعض الأجزاء — كتجويف البطن — أثراً للضغط أو الشد لا من قطع أو حرق ، وفي بعض آخر ـ مثل أجزاء المخ ـ لا يحس المرء الألم

وشبكة الأعصاب اللانهائية المنتشرة في منطقة ما في الجسم تتجمع رويداً رويداً لتكون حبالاً سميكة تحوي أعصاب الحركة التي تسير الى العضلات ، كما تحوي أعصاباً للحس من جميع الانواع . وقبل أن تبلغ العمود الفقري تنفصل قسمين ، فتدخل أعصاب الحركة الى النخاع الشوكي من الامام وأعصاب الحس من الخلف

وفي داخل العمود الفقري اختصاص بيّن ، فالاعصاب التي تنقل الحس بمواضع الأشياء وحركات العضلات تنطلق لتصبح حزمة كبيرة في الناحية الخلفية من النخاع الشوكي . وأعصاب اللمس تتناثر داخل الحبل الشوكي دون انتظام . وأعصاب الألم تدخل الى النخاع الشوكي من الناحية التي جاءت منها وتصعد فيه نحو المخ ، وهي تنتهي الى منطقة من المخ تعرف باسم مبدأ العصب . وهذا تركيب يتحد فيه الانسان مع أحط أنواع الفقريات ، ولعل له علاقة وثيقة بحاستي الشم والذوق من ناحية ، ومن ناحية أخرى بالتعبير عن الانفعالات النفسية . وإن وخز المخ لا يحدث ألماً ، ولكن التخدير الموضعي في المخ يلغي حاستي اللمس والحركة في مناطق خاصة دون الاحساس بالألم .

وإذا بذل كل جهد مستطاع لازالة منبع الألم فلم يجد ذلك شيئاً ، وجب على الاطباء أن يبحثوا عن طريقة تخفف منه . ولربما كانت أبسط طريقة هي استعمال الحرارة أو البرودة في منطقة الألم لتهدئته . وإن الطرق الكهربائية المتباينة لتوليد الحرارة في أنسجة الجسم ،

واستعمال الأشعة تحت الحمراء ... هي اختراعات أوحت بها قارورة الماء الساخن الموقرة

والانفعال المضاد أمر مهم في مناهضة الألم ، ولعل الغريزة الطبيعية التي تدفع الى حك المنطقة المتألمة هي المنشأ الأولي للانفعال المضاد . أما استعمال الاشعة البنفسجية وآلات الدلك فهما طريقتان منقحتان ، غير أن أثرهما محدود ، وعلى أي حال فالانفعال المضاد علاج ضعيف للالم

ويمكن أن تنقسم الأدوية المسكنة الى مجاميع مختلفة ، فالأفيون ومشتقاته ، والمورفين والكودايين والهيروين وغيرها هي مسكنات للآلام الحادة ، ولكن لها ناحية ذات خطر مروع ، تلك أن تأثيرها يتضاءل رويداً رويداً ، ثم يصبح تعاطيها عادة . وهذه الأدوية ذات فائدة جلى في حالات الألم الحاد ، غير أن تأثيرها يزول إن طالت مدة استعماله

* * *

أما المخدرات العامة مثل الايتير والكلوروفورم ، والمخدرات الموضعية كالكوكايين ، فتمنع الاحساس بالألم في أثناء العمليات الجراحية ، ولكنها لا تستعمل في حالات الألم المزمن . والمجموعة المنومة ، مثل الكحول وايدرات الكلورال ، تمنح النوم ولا تزيل الألم . وبعض الأدوية المركبة بالكيمياء مثل الاسبيرين والاسيتانيليد يؤثر في تسكين ألوان خاصة من الألم ويغلب أن تكون معتدلة ومقترنة بمرض معدٍ ، وفي حالات الصداع . وقد تعجز جميع الوسائل عن ان تؤثر في حالات الألم المزمنة مثل النورالجيا المزمنة ، وإذن يصبح حتماً أن يستأصل مصدر الألم بالجراحة

وقد تكون أبسط طريقة لذلك هي بتر أعصاب الألم المتصلة بالجزء المتألم . هذه طريقة جميلة ناجعة إن كانت أعصاب الحسّ متميزة عن الأعصاب التي تحرّك العضلات ، ولكن هذين النوعين من الأعصاب ينضمان معاً في كثير من الحالات ، فيعز علينا أن نضحي بهما معاً

وهناك طريقة أمثل تتلخص في قطع أعصاب الحس من لدن الحبل الشوكي ، والابقاء على أعصاب الحركة ، ولعلّ الخطر الجاثم في تضاعيف هذه الطريقة يتراءى إن قطعت مجموعة كبيرة أعصاب الحس فينشأ عنها فقد حاستي اللمس والتوازن . وقد تستعمل طريقة مشابهة لتلك في الحالات العادية ، وهي حقن أصول الاعصاب بالكحول من لدن الحبل الشوكي .

عمر الخيام كما أعرفه

— ٤ —

لمحمود المنجوري

هل عمر الخيام خرافة

قد يكون من العسير على الباحث أن يزيل من سطور التاريخ الادبي روايات تداولت أجيالاً طويلة ، تلقاها العلماء في غير تردد أو شك ، فالناس — لأمر ما — يقدسون ما جاء عن السلف ، وقد جبلوا على ألا يتعبوا أنفسهم أو يرهقوا تفكيرهم ، على ان الأمانة العلمية تدعو كل باحث ألا يعلن رأياً جديداً قبل أن يتخذ العدة ويجمع البراهين التي تؤيد ما يقول ، بل ان هذه الامانة تدعوه أن يكون هو مؤمناً واثقاً بصحة دعواه ، قبل أن يذهب وراء الشكوك والتردد ويسرع فيعلن آراء مبتسرة في التاريخ والعلم جرياً وراء الشهرة ومخالفة للاجماع الادبي .

فيوم زعم الدكتور ولو ان عمر الخيام خرافة ، لم يتقدم بهذا الزعم مؤمناً به لأنه مستشرق كبير كان في متناوله أن يطلع على ما قدمنا من وثائق تاريخية تؤيد وجود الخيام في الحياة . ولكنه ذهب مذهب العجلة وسعى وراء الظهور برأي جديد . وليس هذا شأن الخلق العلمي . كذلك زعم الدكتور رُس أن وصية نظام الملك وصية موضوعة وان اجتماع عمر الخيام ونظام الملك وحسن الصباح في مدرسة واحدة أمر غير محتمل لاختلاف أعمارهم ، وأنه وضع غير معقول ولا مقبول ، وان الرأي الذي ارتآه السير رُس هو ان وزيراً آخر غير نظام الملك كان مع حسن الصباح في مدرسة واحدة ، وان هذا الوزير هو أنوشروان ابن خالد ، وفي هذا يتمم السير رُس دعواه فيقول :

« قد يكون من العسير ان تقنع الرأي العلمي بأن الوزير انوشروان كان في المدرسة مع حسن الصباح ، فمن سوء الحظ اننا لا نعلم تاريخ ميلاد هذا الوزير ، وأول تاريخ في حياته أشار اليه هو بنفسه سنة ١٠٩٥ عند ما اشترك في موقعة وأصبح بعدها رجلاً عظيماً ، ولقد مال حسن الصباح الى مذهب الاسماعيلية في سنة ١٠٧١ م ، ولم تكن خراسان وطنه ، ولقد

ذكر لنا انهُ دخل في الاسماعيلية على يد فئة كانت تدعو اليها في خراسان ، وعلى أي حال فقد دخل في الاسماعيلية بعد مغادرته المدرسة ، فمن المحتمل ان يكون حسن الصباح قد بلغ العشرين يوم انتهى من الدراسة ودخل في تلك الفرقة، وعلى هذا فلا يمكن ان يكون تاريخ مولده قبل سنة ١٠٥٢ م

وعليه فمن المرجح ان يكون حسن الصباح وأنو شروان بن خالد قد ولدا نحو سنة ١٠٥٠ م ، وانهما كانا في مدرسة واحدة في نيسابور وان شخصاً في القرن الذي تلا هذا العصر حسب أن نظام الملك قرناً لعمر الخيام [1] وان وزيراً عظيماً آخر يسمى انوشروان كان في المدرسة مع حسن الصباح ، وان الاربعة جميعاً درسوا في نيسابور ، وحدث ان اختلط الأمر بين الوزيرين، ومن هنا نشأت قصة الرفاق الثلاثة نظام الملك وعمر الخيام وحسن الصباح

ونستطيع أن نعثر في حياة عمر الخيام كلها على حادثين تاريخيين لا شك فيهما ، ففي سنة ١٠٧٤م اجتمع عمر مع سبعة من علماء الفلك لاصلاح التقويم بناءً على دعوة ملك شاه، والتاريخ الثاني هو سنة ١١١٢ م عند ما زاره تلميذه النظامي العروضي ولقيهُ في بلخ

فلو فرضنا ان حسن بن الصباح ولد في سنة ١٠٥٠م وما دام عمر في سنه وقد ثبت أن عمر في سنة ١٠٧٤ م كان من هيئة كبار الفلكيين فتكون سن عمر في هذه السنة ٢٤ سنة . فهل من المعقول ان يكون عمر قد بلغ في عصره شهرة عالمية فيصبح الفلكي الاول في الدولة ولما يبلغ من العمر غير اربع وعشرين سنة ؟ ولهذا أميل الى وضع تاريخ ميلاد عمر في سنة متأخرة بعض عشرات السنين قبل ميلاد حسن الصباح . ولتكن سنة ١٠٤٠م عاماً لميلاده، فبناءً عليه يكون عمر قد بلغ الثالثة والثمانين في سنة ١١٢٣ م وهو العام الذي اتفق على ان الخيام قد مات فيه . ويكون قد بلغ الخيام الثانية والسبعين عند ما لقيهُ تلميذه النظامي العروضي في بلخ

ولم يذكر تاريخ وفاة عمر على حقائق ثابتة ، واني لاشك في رواية اتصاله بالسلطان سنجر ، فهذه القصة هي الاخرى لم ترد في غير المراجع المحدثة التي خلط اصحابها بين السلطان سنجر وبين شمس الملك الخاقاني صاحب بخارى [2] . ومن المحقق انه قد حدث ايام ولاية سنجر للعهد ما دعاه الى كراهية الخيام [3] انما هو محقق لدينا ان الخيام كان في سنة ١١١٢م

(١) هذه المسألة ما زالت غامضة فلم يأت الخيام في كتاب الجبر بأي اشارة الى نظام الملك بينما تحدث صريحاً عن «أبي طاهر» فقال « لقد أعانني أبو طاهر على استمرار البحث وكنت أوشكت على قطعه يأساً » وأبو طاهر هو شرف الدين أبو طاهر السكومي الذي ولاه نظام الملك في سنة ١٠٨٨ ولاية مرو والذي استوزره السلطان سنجر فيما بعد

(٢) حكم شمس الملك من سنة ١٠٦٧ م الى سنة ١٠٧٩ م (٣) نزهة الارواح للشهرزوري

حيًّا يرزق لما زاره تلميذه النظامي العروضي وان النظامي عاد سنة ١١٣٥ م فزار قبر الخيام

وعثرنا في طبعة طهران لرباعيات الخيام على نبوءة تنبأ بها في شتاء سنة ٥٠٨ ﻫ أي بين سنتي ١١١٤ و ١١١٥ م ، وعلى هذا يجب ان نضع وفاة الخيـام في الفترة بين عامي ١١١٥ م و ١١٣٥ م ومن هذا أرى ان تكون الوفاة في سنة ١١٢٣ م

وعلى ضوء الحقائق التي تقدمت، أبيح لنفسي ان أضع حياة الخيـام وضعاً لا شك فيه فأقول : ولد الخيام بمدينة نيسابور في القرن الحادي عشر للميلاد . والده ابراهيم اتخذ صناعة الخيام حرفـة له ، وليس من المرجح ان يكون عمر قد اشتغل بحرفـة أبيه كما كانت عادة ذلك العصر ، ولقد حفظ في مدته القرآن وتعلم علوم الفقه والحديث والكلام وأدب اللغـة العربية وعلوم الرياضة ، وتخصص في علوم الملك والفلسفة وعكف على دراسة الطب ، ومن المحتمل ان يكون قد درس الفلسفة في مدرسة نيسابور . وكانت وظيفته رصد الأفلاك ، وكان واحداً من الثمانية الذين عينهم ملك شاه لاصلاح التقويم وانشاء التقويم الجلالي »(١)

هذا بحث رُس ولا يخلو من طرافـة ، فهو يكشف عن ناحيـة من طرائق الاستقراء العلمي الذي يقوم به كبار المستشرقين في آدابنا، على انني لا أستطيع أن أقبل ما جاء فيه جميعه كما لا استطيع ان أرفضـه اطلاقاً، فنحن الآن أمام تقريرين أحدهما منسوب الى نظـام الملك لا يريد السير رُس وغيره من العلماء ان يأخذ به ، والآخر منسوب الى انوشروان وقد أخذ به السير رُس . وقد ذكرت في التقرير الأول الوقائع صريحة وأسماء الخيام وحسن الصباح ونظام الملك مكشوفة سافرة ؛ وأما ما ذكره انوشروان فانما هو تلميح لا يجوز أن يأخذ به عالم يقضي بحكمه في قضية تاريخية متصلة بالأدب والعلم . ويرفض السير رس وصية نظام الملك لأن المصادر القديمة لم تذكرها ولأنها ظهرت في عصر متأخر ، فهل ذكرت المصادر القـديمة مذكرات الوزير أنو شروان ؟ على ان عدم ظهور وثيقة نظام الملك في عصر قريب من الخيام لا يقلل من شأنها او يبطلها ، فالبحث العلمي قائم غير منقطع، وباب الاجتهاد مفتوح وقد تظهر الآن وثائق اخرى تتصل بعصر الخيام وغير الخيام ، وكانت مطموزة او مجهولة قروناً طويلة فتغير من الاوضاع العلمية والادبية وتوجد حقائق جديدة لم يكن لها وجود من قبل ، ومع هذا فلا يجوز ان يحتج مبطل بأنها وثائق لم يذكرها المؤرخون القدامى أو انها ما دامت متأخرة عن عصر صاحبها بقرون طويلة فلا يؤخذ بما فيها

(١) مقدمة رس للرباعيات ص ٦٩ طـ لندن ١٩٠٠

وكذلك يرفض السير رُس وثيقة نظام الملك لعدم احتمال تعمير الخيام وحسن الصباح هذا الأجل الطويل معاً ، ولست أدري ما الذي يمنع من تعمير صديقين أجلاً طويلاً متقارباً . واذا جاز ان نصدق أنو شروان عندما يقول : لقد كنت بالمدرسة مع حسن الصباح فلماذا لانصدق وزيراً آخر عند ما يقول هذا القول ، مع ان نظام الملك قاله صريحاً دون تلميح او اشارة أو غموض ، كما فعل انو شروان . وأخذ هوتزما والسير رُس يخرجان من قول أنو شروان ماطاب لهما من تخريج

اما تناقض السنوات التي ولد فيها عمر او حسن الصباح او نظام الملك ، فبحث لا يتصل بسلامة وصية نظام الملك ، فتحديد الاعمار في هذه العصور من الامور التي لا يمكن ان تكون على وجه الضبط والتدقيق ، ويقول رُس انهُ اذا أخذ بوصية نظام الملك فمعنى هذا أن عمر الخيام يكون قد بلغ الرابعة والعشرين عندما استدعاه نظام الملك وملك شاه لاصلاح التقويم ، وأنكر ان يبلغ فلكي ذروة المجد في هذه السن . ولست أدري لماذا ننكر النبوغ وعبقرية الجد على الشباب وما زال الشباب يقود العلم والأدب والهندسة والطب والاختراع في جميع مرافق الفكر والفنون . وهل هو بمستحيل ان ينبغ شاب في سن الخيام فيكشف قوانين جديدة في علوم الفلك والحركة والكهربى والصوت واللاسلكي وعالم الميكروبات ، فتنقلب الحقائق على أوضاعها وتنشأ حقائق جديدة لم تكن في الحسبان؟ ان للشباب جهوداً مذكورة في العبقرية والنبوغ ولهذا لا يجوز ان نأخذ بما أخذ به السير رُس في هذا الباب

على اننا نستطيع ان نشير الى المصادر القديمة التي ذكرت اجتماع عمر الخيام ونظام الملك وحسن الصباح في مدرسة واحدة وهذه المصادر هي :

(١) كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين فضل الله المتوفى سنة ٧١٨ هـ

(٢) كتاب روضة الصفا للشيخ ميرخند من علماء القرن الثامن للهجرة

(٣) فردوس الشعراء سنة ١٣٢٨ هـ

(٤) دبستان مذاهب : كتب في القرن السابع عشر للميلاد في العقائد والمذاهب والاديان

وهذه كلها تأخذ بوصية نظام الملك وتقر ما فيها

على انهُ قد اخذ العصريون بوصية نظام الملك ولم ينكرها غير طائفة قليلة ممن ذكرنا من المستشرقين كما اخذ بها غير واحد من ثقات البحوث الشرقية أمثال المستشرق براون ،

وليس من اصحاب المصادر الحديثة من أنكرها او بعبارة اخرى لم يقم للآن دليل علمي على بطلانها

*

صوت الخيام فى الآداب الحديثة

ظلّ الخيام مغموراً في عصره وبلده لانهُ فيلسوف إنقلابي ،مفكر ، حمل مشعل التفكير الحر، ونـقـد تقاليد زمنه وآراء معاصريه ، وتهكم بزعماء الرأي وقادة الدين . ظلّ مغموراً لأنهُ سبق زمنه بأجيال ، فنظروا اليهِ نظرة المتمرد الثائر . وخبا صوته فلم يصل الى التفكير العربي القديم ، لأن دعوة الخيام قامت على شيء من الخصومة بين العقل الفارسي والعقل العربي الذي سيطر وسما بسيطرة القرآن والدعوة الاسلامية الخالصة على الدولة الفارسية ، ولأن التفكير العربي القديم لم يلتفت الى الخيام التفاته الى شاعر فذ أو فيلسوف جاء بالخارق من الرأي ، ولكن التفكير العربي ظل ملتفتاً الى الخيام التفاته الى عالم فلكي او رياضي ليس غير . فلم تعرف الرباعيات في الأدب العربي ولم يبلغ صوت الخيام كشاعر فارسي له رأيهُ وفنه وأدبه الا في العهود الأخيرة ، ولقد بلغنا هذا الصوت الشرقي الكريم من طريق الغرب وأدب الغرب ولم يصلنا من الأفق القريب !

لعل الثقافة العربية لم تشغل بأدب الخيام لأسباب ، منها أن في الادب العربي الكثير من الشعر ما نحا نحو الرباعيات في الخمر، بل فيه من الشعراء من سبق الخيام الى المعاني التي احوتها الكأس والخمر كما تقرأ في شعر ابي محجن الثقفي، وابي الهندي، وابي نواس وغيرهم، وفيه من شعراء الفلسفة ما أغنى العقل العربي عن هذا الاهتمام به ، فله في أبي العلاء وغير أبي العلاء عوض يظفر بهِ ويغنيه عن شعر الخيام من فلسفة وتشاؤم وتمرد ، فالديوان العربي ديوان حافل محشود بما أغنى التفكير العربي عن الخيام قروناً طويلة

وفي الحق لم يكن من توافق بين مزاج الخيام الثائر وبين العقل العربي الذي هداه القرآن وصرفه عن التمرد والانقلاب ، ولهذا لم تظهر عناية الأدب العربي بهذا اللون الفارسي من الشعر، ولم يحفل به الا في فترة التجديد وانتعاش المبادىء الانقلابية التي سرت من الغرب الى الشرق ، فعاد الشرق الى شاعره فوجدها في صوته القديم تتردد من أجيال سحيقة قبل أن يسمعها من روسو وديدرو وفولتير وغيرهم من ادباء التجديد والثورة والانقلاب

ولعل توافق المزاج الاوربي مع نهج الرباعيات ومع الاهداف الادبية والانقلابية التي احتوتها هو الذي جعل التفكير الغربي يُعنى بها ويهتم بالخيام هذا الاهتمام الملحوظ في همة المستشرقين والمطابع وجمهرة القراء والتأدبين برباعيات الخيام وادبه ودعوته ، فلما ظفر العقل الأوروبي الحديث برباعيات الخيام اعترف بأنها لُقية غالية نادرة ، فهي من ناحية تتفق مع لون من ألوان الشعر المعروف بـ Sonnet وهي بعد هذا تجاري الاتجاهات الجديدة للتفكير في العقائد والمذاهب العقلية والاجتماعية ، فهذا الفوز الذي بلغته الرباعيات في أوروبة انما يرجع الى أن الخيام فهم الحياة كما يفهمها الاوروبي المعاصر ، فهو ينظر الى الحياة بمنظار المدنية الحديثة طبقاً لعقائد رجّحها واتخذها ذوقاً وقياساً لأدبهِ وفلسفته وحياتهِ ، ولقد طبق الخيام هذه الأقيسة وأخضع هذه القيم التي ارتآها على تفكيره ونهجه ووحيه الذي ألهمه الرباعيات ، بل انهُ سلك بها حياته الخاصة مع الخاصة والعلماء وقادة الرأي ، فكان بالقياس الى أهل زمانهِ مفكراً ثائراً وملحداً وفيلسوفاً مجدداً في قيم الحياة العامة التي ألفتها الناس في عهده من جمود وركون ورياء وزهد وانصراف عن الحياة ومباهجها ، ولقد لفت هذا التجديد وهذه الثورة الغربَ الى الخيام كفيلسوف شرقي حمل مشعل التفكير الحر ومعول الهدم قبل أن يحمله مفكري الثورة الفرنسية ولقد اعترف رينان ومسيو باربيه دومينار المستشرق الفرنسي بهذا فقال « أليس حدثاً غريباً أن يظهر شاعر في بلاد فارس في القرن الحادي عشر للميلاد يكون قرناً كما قال رينان لجوتيه وهايني ؟ »

فالخيام فيلسوف مفكر سبق زمانه بقرون وأجيال ، وليست قيمة الرباعيات في جمال شعرها وجزالة موسيقاها ، ولكن قيمتها فيما قامت بهِ كل رباعية كوحدة لها معناها ونظرها ودعوتها الحرة في الحياة والاجتماع والمذاهب الفكرية العامة . وهي من الناحية الأدبية عمل انساني غير مطبوع بطابع اللون أو الجنس أو الاثرة القومية أو المذهبية . ولقد بلغ الاعجاب بالرباعيات أن أنكر كثير من الأدباء والمستشرقين المذاهب التي جاءت بها على مفكر شرقي عاش في القرن الحادي عشر للميلاد ، وذهبت بهم الأنانة الى نسبتها الى فتزجرالد نفسه ، فقالوا انها ليست بشعر فارسي وانما هي شعر انجليزي خالص وحساً والهاماً ومذاقاً وفناً ، ومن هؤلاء الجاحدين مستر لجاليان Le Gallienne ومستر أرثر بلات Arthur Platt وقد تأثر برأيهما بعض المستشرقين والباحثين وبعض الغربيين الرجعيين الذين ينكرون على الشرق فلسفته وعبقريته ومدنيته ، وفنونه وخلوده وجماله والذين يقولون الشرق شرق والغرب غرب .

باب المراسلة والمناظرة

١ — استدراك على مقال

قرأت في مقتطف فبراير سنة ١٩٤٤ مقالاً للدكتور أسعد طلس بشأن « دار الحديث النورية » (ص ١٣٢ — ١٣٧) ، فرأيت فيهِ (ص ١٣٤) ما نصهُ : « وفي سنة تسع وتسعين وسبعمائة حين دخل التتار دمشق احترق قسم كبير من المدينة ، وكانت هذه الدار وغيرها من معاهد العلم طعمة للنار . قال الذهبي في مختصر تاريخ الاسلام : « وفي سنة تسع وتسعين وسبعمائة دخل التتار دمشق وشرعوا في المصادرة والفسق ونهبوا الصالحية وسبوا أهلها ووقع الحريق . . . » الى آخره

وهذا الكلام منهُ مُحال ، ومنهُ خطأ . أما المحال فأن يكون الحافظ الذهبي قال شيئاً من هذا . فان الخبر عن حادث ينسب الى سنة ٧٩٩ ، والحافظ الذهبيّ مات سنة ٧٤٨ أي قبل التاريخ الذي أرّخ بهِ الحادث بأكثر من خمسين سنة . وأما الخطأ ففي تاريخ دخول التتار الى دمشق سنة ٧٩٩ . فانهم لم يدخلوها إلاّ سنة ٨٠٣ . وبذلك أرخها كل المؤرخين الذين رأينا مصادرهم بين أيدينا ، لم يخالف أحد منهم في ذلك . فانظر مثلاً « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » للحافظ السخاوي (ج ٣ ص ٤٧ — ٤٨) في ترجمة « تيمورلنك » فانه ذكر أنهُ قصد سيواس في آخر سنة ٨٠٢ ، ثم نزل يوم الخميس ٩ شهر ربيع الاول سنة ثلاث يعني ٨٠٣ على حلب . ثم ذكر أن التتار اقاموا بحلب يعاقبون ويأخذون الأموال الى يوم السبت مستهل شهر ربيع الآخر أو ثانيه ، ثم رحلوا الى جهة دمشق وأخذوها . ثم قال : « واستمرّ بدمشق — يعني تيمورلنك — الى العشر الثاني من شعبان » الى آخره . وكل ذلك في سنة ٨٠٣ . وانظر أيضاً « شذرات الذهب » لابن العماد (ج ٧ ص ٢٢ ، ٦٤ — ٢٦٥) فانهُ يؤرخ دخول التتار الى دمشق سنة ٨٠٣ . وانظر أيضاً « تاريخ ابن إياس » (ج ١ ص ٣٣٤ طبعة بولاق) فانهُ يؤرخ يوم حرق دمشق في حوادث سنة ٨٠٣ : « فلما كان يوم الخميس مستهل شعبان أمر تيمورلنك باحراق مدينة دمشق » الى آخره . ثم يقول (ص ٣٣٥) : « فلما كان يوم الجمعة ثاني شهر شعبان فيه — يعني في سنة ٨٠٣ هـ — رحل تيمورلنك عن دمشق بعد ما فعل

الذي فعلهُ ، فأخذ عسكره وخرج من دمشق ، وكانت مدة إقامته بدمشق الى أن رحل عنها نحو ثمانين يوماً » . وكذلك تجد تفصيل بعض هذه الحوادث في ذلك التاريخ في « خطط الشام » لمحمد كرد علي (ج ٢ ص ١٧٩)

ولست أدري من أين أتى الخطأ لكاتب المقال ولمصدره الذي نقل عنهُ ، وهو كتاب مخطوط للشيخ عبد القادر بدران . فلعلهُ يتفضل بالتحقيق أو التصحيح.

أحمد محمد شاكر

◆

٢ — الجامعة السورية والمصطلحات العلمية

وردت في مقتطف يناير من هذا العام بضع كلمات طبية أحببت أن أذكر لكم ما يستعمل مقابلاً لها في معهد الطب من الجامعة السورية بدمشق

«عُصَيَّة » وتستعمل مقابلة كلمة باشلّس وفرنسيتها Bacille « مكورات عنقودية » مقابلة Staphylococcus « مكورات عقدية » مقابلة Streptococcus . « مكورات رئوية » مقابلة Pneumococcus . « مكورات بنيَّة » مقابلة Gonococcus (وذلك لمشابهة هذا الجرثوم في المحضرات المجهرية لحبتي البن المتقابلتين) . « العصية الخُنَّاقية » أو « عصية الخناق الغشائي » مقابلة باشلس الدفتريا . « العصية الكولونية » مقابلة Bacillus coli . وكثيراً ما ترد هذه الاسماء بالصيغة الآتية اختصاراً فيقال : عنقوديات وعقديات وكولونيات . وذكرت عظمة الأذن الخلفية والمراد بها Mastoide «وهي الخشَّاء»

وهذه الكلمات ومئات غيرها في مختلف العلوم الطبية تكوّن اصطلاحات لغة طبية مفهومة بين خريجي المعهد الطبي العربي الكثيري العدد والمنتشرين في البلاد العربية كافة . وهي كلمات وضعها أو عرّبها أو اقتبسها من جهود علماء اللغة أساتذة أعلام في هذا المعهد ، أذكر منهم مرشد خاطر أستاذ أمراض الجراحة وسريرياتها ، وحمدي الخياط أستاذ فني الجراثيم والصحة ، والاستاذ جميل الخاني الاستاذ السابق لعلم الطبيعة والأمراض الجلدية والزهرية ، وغيرهم ممن جعل من اللغة العربية لغة كاملة قادرة أن يُستغنى بها عن غيرها في تدريس هذا الفن الجليل : الطب ، والعلوم التي تتفرع منه أو تتعلق به .

دمشق عبد السلام العجيلي

◆

٣ — الشاعر هومِرُس وعلم الآثار

الشهرَ الماضي تحدث الاستاذ أ . ج . ب . ويس A. J. B. Wace أستاذ الدراسات القديمة في جامعة فاروق الاول ، في الجمعية الجغرافية ، عن شعر هومرس وصلة الآثار بهِ . فبدا لي أن أجمل الحديث مع بعض التعقيب على سبيل الاشارة حتى عودة أخرى :

بدأ المحدّث بقوله إن اليونان المتقدمين لم يشكّوا قط في صحة نسبة الالياذة والاوديسية كلتيهما الى صاحبهما سواء في ذلك المؤرخون أو الفلاسفة أو الشعراء

ثم جاءت مدرسة الاسكندرية بمناهجها العلمية وتناولت شعر هومرس بالنقد التحليلي، وبلغت شأواً بعيداً في نقد النصوص من الناحية اللغوية ، وخلّصت النص مما أُقحم فيه من الكلمات والمعاني المستحدثة ، وقد زعم هذه المدرسة العالمان اللغويان أرِيستارخُس Aristarchus وزنودوتس Zenodotus في القرن الثاني قبل المسيح . وظهرت في الاسكندرية أيضاً مدرسة ذهبت الى أن كاتب الالياذة لا يمكن أن يكون هو نفسه مؤلف الاوديسية ، وراحت تفصل بين الملحمتين المطوّلتين ، ومدرسة « الفاصلين » هذه زعمها كزينو Xeno وهيلانِيكس Hellanicus ، ولكن أساطين نقاد الاسكندرية يوم ذاك لم يأبهوا كثيراً لهذه المدرسة

وفي العصر الروماني ذهب المؤرخ اليهودي يوسف Josephus إلى أن الكتابة لم تكن قد عرفت في أيام هومرس ، وأن القصيدتين إنْ هما إلاّ مجموعة من الاناشيد . أما الخطيب الروماني كيكرو Cicero فقال إن المطوّلتين كتبتا في عهد الطاغية پيزِسترَاتس Pisistratus في أثينة في القرن السادس قبل الميلاد

أما في العهد الحديث فقد أخرج الناقد الألماني الكبير وُلْف Wolf كتابه « المقدمة » Prolegomena باللاتينية في سنة ١٧٩٥ موسوماً بطابع الشك الذي ساد أوربة قبل الثورة الفرنسية . وكانت الثورة نفسها من مظاهره ، أخذ فيها بنظرية يوسف وكيكرو جميعاً . وعزا ما في المطوّلتين من وحدة الى مجهودات مدرسة الاسكندرية . وقال إن الأناشيد كانت من نظم شعراء متعددين . وآمنت مدرسة النقد الهومري الألمانية بمذهب إمامها ، واتجه رجالها إلى « تشريح » المطوّلتين وإبراز الأناشيد الأصلية من ثناياها

وهنا طلع علم الآثار بفتوحاته على يد شليمن Schliemann فكشف عن طروادة

مسرح الحرب ومايسيني عاصمة أجا ممنون زعيم الحملة اليونانيـة ، فكشفت ألواحٌ عليهـا كتابات بدّدت نظريات النقّـاد ، وثبت بها قطعاً أن الشعر الهومري كان من الممكن تسجيله في حينه ، لأن الـكتابة كانت معروفة في القرن الحادي عشر ق.م . أو قبله ، حالة أن شعر هومرس لم يدّع أحدٌ كتابته قبل القرن التاسع .

ثم أورد المحدّث شواهد كثيرة على صدق الشاعر وأمانته في الوصف مما كشفت عنهُ الحفائر، منها قرون العنائر المذهّبة ، وهيا كل الـكلاب المدفونة مع أصحابها ، والخوذات البرنزية ، ومختلف أنواع الاسلحة ، وصور مركبات تجرها الخيل وغيرها

وهنا أثبت المحدّث أن اليونان كانوا ينحتون التماثيل في عصر هومرس ، وقال إنهُ وجـد أثناء قيامهِ بالحفائر في مايسيني تمثالاً يصور ثلاثة شخوص

وبعد ، فلا شك أن هذه الشواهد كلها تدل على أن الشاعر عاش في أعقاب حضارة وفـّق في وصفها وصفاً أميناً ، ثم تدحض مزاعم النقاد الذين أنكروا وجود حضارة رائعة في هذا التاريخ المتباعد . ولـكنها ـ عندنا ـ لا تثبت أن الالياذة وضعت على هذا النحو الذي نعرفها بهِ الآن ؛ ولا تهوّن مما يُعزى إلى مدرسة الاسكندرية من تغيير وتنقيح وترتيب في النص ، كما أنها لا ترد في شيء على نظرية « الفاصلين » . وكنا نرجو أن يدعم المحدّث الصلة بين المطوّلتين ، كما صنع الأستاذ ستانلي كسن Stanley Casson في مقاله « كيف ألّـف هومرس الاوديسية ؟ » في مجلة « الآثار » Antiquity مارس ١٩٤٢

وعندنا أن القول الفصل في المسألة الهومرية لا يزال بين أيدي أصحاب النقد الداخلي الذين عليهم أنْ يفسحوا الطريق للشاعر حتى ينافح عن نفسهِ بواسطة آثاره نفسها ، فيظهروا منهجه الشعري وطريقة نظمه وانسياق خواطره ، ثم يتوفروا على تبيين خصائصه الشعرية إلى جنب مفهوم الملحمة في نظره ، ويثبتوا بعد ذلك وحدة موضوع كل مطوّلة واستمرار أبطالها على خـلق لا يتغير في الملابسات المختلفة، ثم اطراد فلسفة واحدة في ما يتعلق بآلهة السماء في كلتا الملحمتين. ومن الأمثلة في هذا ما قاله الاستاذ س . إلـيـُت بَسِيتْ S. E. Bassett في كتابهِ « شعر هومرُس » (سنة ١٩٣٨) .

وهيب كامل

التّعريف والتّنقيب

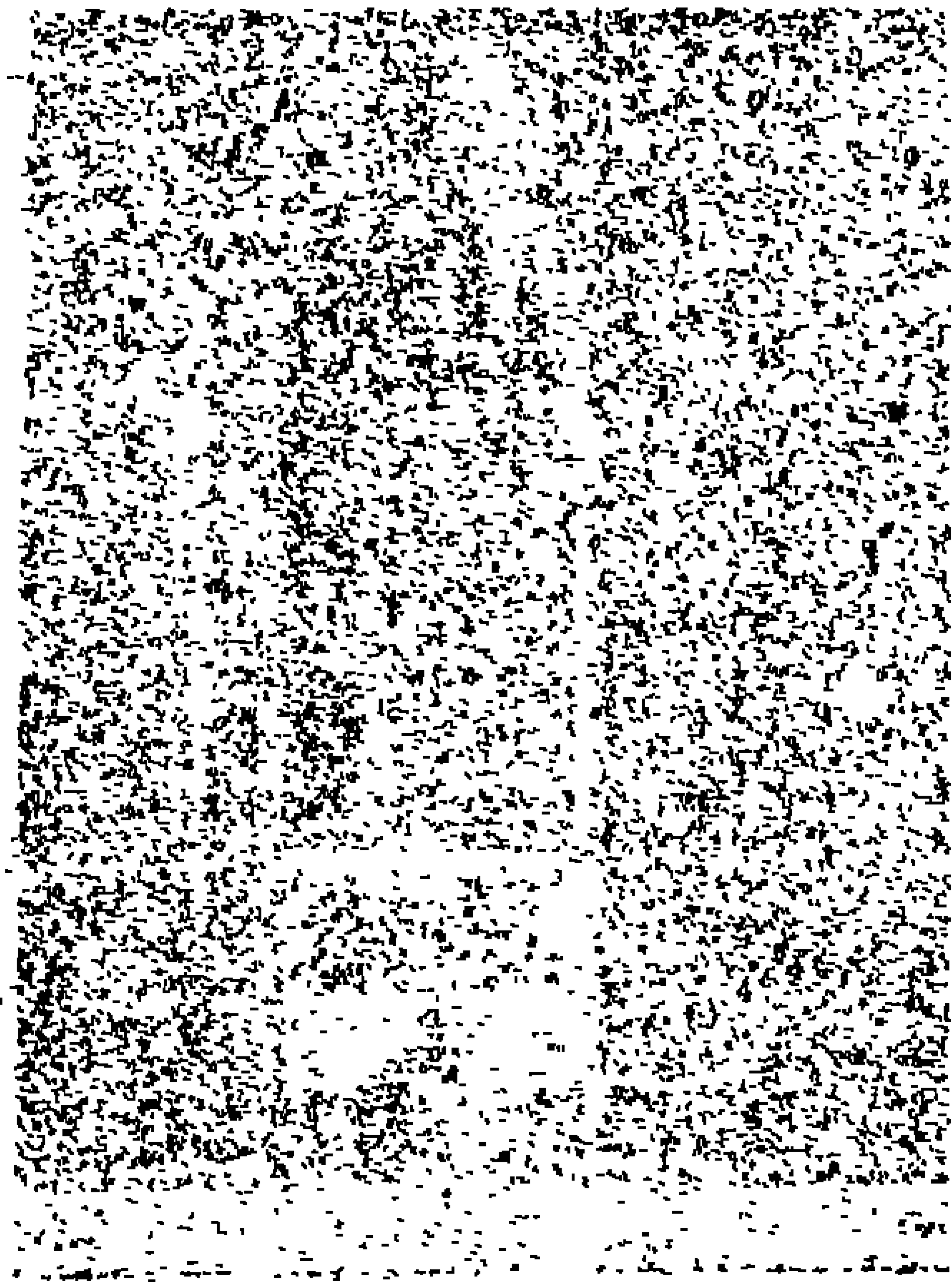
نستحدث هذا الباب ونتبسط فيه - إرادة أن نتدبر ما يتصل بقضايا الفكر وما يدخل في شؤون الذوق ، فنجريه إلى غايتين : إحداهما مراجعة بعض ما يخرج في العلم والأدب والفن كتابةً أو أداء ، والأخرى نشر ما انطوى من الضنائن المخطوطة أو المهملة . ومقصدنا أن يصبح هذا الباب مرجعاً للمستطلع السائل ومعرضاً للمستبصر الراكن . هذا ويشترك في إنشاء الباب نفر من أهل النظر وأعداء الهوى

بشر فارس

المشتمل



— ١ —



— ٢ —

في بناء ماء الفيجة بدمشق آيات من الفن العربي المستحدث صنعها أو سواها من عناصر قديمة فنان ماهر هو محمد علي الخياط الشهير بأبي سليمان . وهنا مثالان : ١ — جرن قديم عباسي من الرخام التركي ، حفر ودهن بألوان مختلفة ٢ — محراب حجرة خشبية ،معظم خشبها من فجر القرن الـ١٩ .

١ – المسائل

اللفـــظ والمعـــنى

اللغة أداة ليس إلاّ ، ووسيلة للعبارة عما في النفس لا أكثر ولا أقل ، فان للأخرس أداة غيرها هي جملة من الاشارات والإيماءات والحركات مع أصوات ساذجة يخرجها للتنبيه أو التوكيد ، والتقرير أو التوضيح . ولكن أداة الأخرس قاصرة جداً لا تعدو حد الدلالة على المراد ، ولا يبلغ من وفائها بالحاجة أن تجلو رأياً حضر ، أو حكمة نبغت أو عاطفة جاش بها الصــدر . نعم تدل على ذلك وتشير اليه ، ولكن كما يشير الفهرس إلى جملة مشتمل الكتاب . وقد كانت هــذه الإيماءات وما يجري مجراها – وما زالت – بعض ما يتوسل بهِ الإنسان من قديم الزمان الى التعبير ، فلم يبلغ بها إلاّ أيسر الحاجات وأدناها منالا . وعلى قدر الحاجات تكون الخواطر والخوالج ، وعلى قدر كثرتها ومبلغ إلحاحها يكون طلب الابانة والرغبة في الافصاح . وقد ألفى الانسان نفسه تكثر حاجاته وتقوى غريزة عقله ويترامى أفقه ولكن أداة الايماء لا تسعفه لأنها تعجز الرقي ، والتعبير الوافي بها يفوت الذرع ، والاكتفاء بها خليق أن يورث نفسه التثاقل وطبيعته التقاعس ، والخاطر يبطىء بها ، والعجز يظهر . ووجد أن الاصوات ألين وأسرع مؤاتاةً ، فضى على الأيسر والأصلح . وما زالت سنة الطبيعة أن كل موجود يؤثر الذي هو أسهل ، ولن تجــد ماء يجري الى فوق ، وله متسرب الى تحت . وهكذا كانت اللغة .



وقد شبهوها بالوعاء ، والظرف ، والجسد ، والثوب — يعنون أنهــا تضمَّن بالمعاني وتحويها ، وان المعاني تحل فيها ، وتكتسيها ، فتظهر بها :

ويقول الجاحظ في رسالته في « الجد والهزل » : « ان الله تعالى علمّ آدم جميع الاسماء بجميع المعاني ، ولا يجوز أن يعلمه الاسم ويدع المعنى ، ويعلمه الدلالة ولا يضع له المدلول عليه . والاسم بلا معنى لغو ، كالظرف الخالي ، والاسم في معنى الابدان ، والمعاني في معنى الأرواح . اللفظ للمعنى بدن ، والمعنى للفظ روح ، ولو أعطاه الأسماء بلا معانٍ لكان كمن

وهبه شيئاً جامداً لا حركة لهُ ، وشيئاً لا حس فيه ، وشيئاً لا منفعة عنده . ولا يكون اللفظ اسماً إلاَّ وهو مضمَّن بمعنى » .

وهذا صحيح . ثم يقول « وقد يكون المعنى ولا اسم لهُ ، ولا يكون اسم إلاّ ولهُ معنى » .

والشّق الأول من هذه العبارة خلط . فاما ان اللفظ وحده ، وبمجرده ، ومن غير أن يكون في كلام مؤلف منظوم ، « شيء جامد لا حركة له ، ولا حسّ فيه » فصحيح إذ كان المعنى لا يستفاد إلاَّ من تأليف الكلام . وأما ان المعنى يكون ، ولا عبارة عنه ، ولا لفظ يؤدّيه ، فهذا هو الذي لا يكون . وقد يستطيع الانسان بعد بضعة آلاف من السنين أن يستغني عن اللغة جملة ، وأن يبلغ من اقتداره على التعبير أن يرسل خوالجه ــ من معان واحساسات ــ موجات في الهواء يتلقاها ويتلقفها غيره كما تتلقى أجهزة الراديو الموجات التي تطلقها في الجو محطات الاذاعة . وأنا أعتقد أن هذا سيكون بعد أن يبلغ الانسان من العلم المبلغ الذي يجعل ذلك ميسوراً . وإن أحدنا ليفهم عن صاحبه مراده بنظرة ولا يحتاج في هذا الى كلام أو اشارة ، فلست أرى ما يمنع التوسع في هذا الى آخر المدى . ولكن هذه منزلة لا تزال بعيدة . وليس بنا عن اللغة الى الآن ، والى زمان آخر طويل ، غنى . وما دمنا عاجزين عن التعبير بغير هذه الأداة فلا سبيل الى معنى إلاّ بلفظ ، ومن كان يتوهم أن من الميسور أو الممكن أن يحصل المعنى بغير لفظ فليجرب ، وليحاول أن يتصور معنى يدور في رأسه ، أو إحساساً يضطرب به صدره ، من غير أن يكون له لفظ يتبدى فيه ، أو فليحدث نفسه بأمر ما ، فانهُ خليق أن يجد أنهُ لا يستطيع أن يفعل ذلك الاّ اذا اهتدى الى اللفظ الذي يفرغه فيه ويصبهُ منه في مثل القالب ، وانه بغير ذلك لا يشعر بأكثر من جيشان او اضطراب فكأنهُ ينظر الى سحاب غليظ متراكب لا تنفذ العين فيه ، أو شيء ملفّف . ولا سبيل الى الرؤية الواضحة الاّ بعد أن يتفتق السحاب أو يتقشع ، ولا يتبين المرء ما يدور في نفسه الاّ اذا صار لما يخالجهُ لفظ يكتسيه ويبدو فيه ، وهذا هو السبب في غموض الكلام ووضوحه ، فالغموض هو قصور اللفظ ، والوضوح هو حلول المعنى في لفظه ، أو قل أن الغموض مرجعه الى أن المرء لم يمهل معانيهِ أو خوالجهِ أو احساساتهِ حتى تصفو مما يخالطها ويعتورها ، أو تطرحه عنها ، وتخرج منهُ ، ويتسنى لها أن تتخذ ما يبرزها ويميزها . أما لماذا يدع المرء الامهال ، فمسألة أخرى ، فقد يكون عجولاً بطبعهِ ، أو يكون بهِ كسل عقلي ، أو تكون المعاني أو الخوالج أدق أو أعوص عليهِ من أن تحيط بها عبارة ، أو يكون قد ركبهُ الوهم فظن أنهُ فهم وأدرك ، وما أدرك شيئاً

على وجهه، وما وسعه لهذا أن يعرب، إذ لا إعراب إلاّ بعد إدراك ، أو يكون فاهماً ولكنه مغتر او ذو بطر ، او كحديث العهد بالنعمة ،فيسرف في البيان او يقصر .

ونعود بعد هذا الاستطراد فنقول ان المعنى لا يمكن ان يحصل او يتيسر تصوره الاّ بلفظه، ومن هنا كان الخطأ في تشبيه اللفظ بالوعاء او الظرف او الثوب او غير ذلك مما يجري هذا المجرى ، ذلك ان اللفظ ليس شيئاً مستقلاً عن المعنى ، وقائماً بذاته ، وانما هو والمعنى كل لا يتجزأ ، وليس للمعنى وجود بغير لفظ ولا للفظ بمجرده حقيقة تدرك ، وكل ما يقال في الايجاز والاطناب هراء ما لم يفهما على وجهيهما الصحيحين . فليس الايجاز الاّ صبّ المعنى في لفظه المعبر عنه والاكتفاء بهِ دون الاستطراد الى غيره، اما الاطناب فليس الاّ استطراداً الى معاني « أخرى » غير الذي اليهِ القصد وعليه القول، فان المعنى لا يؤدي الاّ بلفظهِ ،فاذا تغير اللفظ تغير المعنى لا محالة . ومن هنا كان الترادف في اللغة الواحدة خرافة، الاّ اذا كان المراد أن قوماً اتخذوا لفظاً لمعنى، وقوماً آخرين اتخذوا غيره، ومؤدى هذا أن هناك لغتين لا لغة مفردة ، وان كانتا من أصل واحد .



وقد قيل ما قيل في الشبه بين الانسان والحيوان ، وفي النشوء والتحول وما الى ذلك أو ما ليس اليه ، وذهب بعضهم الى ان الخط الفاصل بين الانسان والحيوان يبدو أنهُ رهن بطيئة واحدة في حشو الدماغ ، ولكن بينهما فاصلاً واحداً لم يستطع ان يزيله أو يستهين بهِ حتى أولئك الذين يردون الفكر الى الاحساس ، ويقولون ان الحيوان يشارك الانسان في الملكات التي هي الأسباب المنتجة للتفكير . وهذا الفاصل هو اللغة فما استطاع حيوان ـ الى الآن ـ أن يتخذ لغة مثل لغة الانسان.

وفي هذا يقول « لوك Locke » ومن الممكن ان يُعدّ من الفلاسفة الماديين : « وأنا على يقين جازم من ان القدرة على التفكير لم يُعطها الحيوان ، وان استنباط الآراء العامة وتصفحها يميز الانسان تمييزاً تامّـا من الحيوان . ومن الجلي أننا لا نسير على آثار غيرنا في استخدام رموز عامة لآراء عامة . واننا ان نقول ان الحيوان تعوزه ملكة التفكير والارتياء لأنهُ لا يستعمل «الفاظاً» أو رموزاً أخرى عامة » .

ومؤدى هذا ان اللغة أكثر من وعاء ، أو ظرف ، أو ثوب ، او جسد ، وان هذه ليست الاّ الفاظاً يراد بها تقريب وظيفة اللغة من الافهام ، وان اللغة آلة يعمل بها العقل

ولا يستطيع بغيرها ان يعمل ، وينظر ، ويتدبر ، ويستنبط ، ويستبين ، ويستكشف الى آخر ذلك. فليست وظيفتها بمقصورة على العبارة عما يدور برأس الانسان او يضطرب بهِ صدره ، أي انها ليست أداة للبيان فحسب ، وانما هي أيضاً أداة للتفكير نفسه وآلة كما أسلفنا ، لحركة العقل .

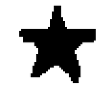
ولست تجد لغة حيث لا تجد انساناً ، ولا نعرف انساناً ليست له لغة ما ، فهي من عمله ، بمعنى أنها نشأت معهُ ، ونمت واتسعت ، تبعاً لاتساع حياته . ومع قدم اللغة — كل لغة — لم يستطع الانسان على كرّ الدهور ان يضيف جديداً الى أصولها أو يغير مناهج تأليفها وتركيبها ، أو يبدل أوضاعها ومقاييسها ، أو يعدل بها عن طرائقها في المجاز والاستعارة الى آخر ذلك ، وكل ما استحدثتهُ الأجيال المتعاقبة لا يعدو الشكل الى الجوهر ، ولا يمتد من الفرع الى الأصل ، حتى ليمكن أن نقول إننا ما زلنا استعمل الألفاظ نفسها التي دار بها لسان الانسان حين سمى الأشياء أسماءها . ولا شك ان اللغة تتطور ولكن أصولها ومناهجها وطرائقها لا يلحقها تغيير ، والقانون الذي يجري حكمه على اللغة هو قانون الطبيعة نفسها ، ولا دخل فيهِ لارادة الانسان الحرة ، أو اختياره ، فهو لا يستطيع أن يستحدث فيها ويغير ، ويزيد وينقص ، على هواه ، كما لا يستطيع أن يغير قانون الدورة الدموية في بدنه ، أو أن يضيف إصبعاً بله شبراً الى قامته . وكما ان الانسان لا يتسنى لهُ أن يقبض على زمام الطبيعة إلاَّ اذا عرف قانونها وتوخاه ، كذلك لا يستطيع الكاتب أو الشاعر أن يقبض على ناصية اللغة ويتصرف فيها ويبلغ بها حيث يريد إلاَّ بعد أن يحيط بقانونها وينزل على حكمها.

وقد حكوا عن الامبراطور تيبريُس Tiberius أنه أخطأ مرة في كلمة فرده بعضهم الى الصواب ، فقال منافق ان الامبراطور نطق بها صحيحة وجاء بها على وجهها ، فاذا لم يكن هذا كذلك، فأحرِ بأن يصبح ما قاله هو الصواب . فعاد الاول يقول : «هذا كذب ونفاق أيها القيصر ، فانك تستطيع ان تمنح الناس الجنسية الرومانية ، ولكن الألفاظ فوق سلطانك » .

وهنا موضع التحرز ، فان اللغة لغتان ، واحدة تستقر وتثبت على صورة فلا يلحقها التغيير الا في النادر والا في ما لا يمس الاصول، وهذه هي التي تكتب ولها آداب ، وأخرى هي اللهجات ، أي لغات الكلام وهذه دائمة التغير ، ولا ثبات لها على حال ، لأنها لم ترزق ما يقيدها الضبط ويصدها عن التبدل والتحول المستمرين . واللهجات أسبق من اللغات

الثابتة ، او لغات الكتابة والأدب . وليست لغة الكتابة والأدب الا احدى اللهجات ، وما كانت لغتنا العربية إلا واحدة من لهجات العرب في الجاهلية ، وقد كتب لها السيادة وقسم لها الاستعلاء ، قبل الاسلام بقليل ، ثم ثبت لها ذلك بنزول القرآن الكريم بهـا ، فاندمجت فيها اللهجات الأخرى ، ولولا القرآن لما عجزت اللهجات الاخرى عن الحياة ، ولكان من الممكن ـ اذا ساعفت احداها الأحوال ـ ان تفيد قوة ، تسترد بها مكانتها .

واللهجات ليست محلية او اقليمية فحسب ، فان هناك لهجات طائفية ايضاً لا عداد لها ، مثل لهجات الرماة والفرسان ، والجنود ، والزراع ، والبحارة ، وأصحاب الحرف . ومن هنا ـ على سبيل المثال ـ كثرة اسماء السيف وغيره من ضروب السلاح ، وما يطلق على الخيل وحملها ونتاجها واسنانها وخلقها وصفاتها ونعوتها والوانها وشياتها واصواتها وعيوبها وأدوائها وعدوها ، وربطها وعلفها وسروجها ، ونعوت الابل في اخلافها وحلبها وكثرة ألبانها أو قلتها وضعفها أو هزالها وأسنمتها وألوانها وأوبارها الى آخر هذا وأمثاله . ومن هنا ايضاً هذا التدقيق الشديد في اسماء الجماعات من الناس وغيرهم . ومرجع هذا الى نوع الحياة التي تحياها الجماعة او القبيلة وانحصارها في نطاق ضيق . فتصبح العناية بالتفاصيل ميسورة ، كما لا يمكن ان تكون في جماعة كبيرة متحضرة جوانب حياتها عديدة .



وبعد ، فان ابن لغة الكتابة والأدب لا يسعهُ الا ان يلم بها وبأصولها وأدبهـا ـ أي بقانونها الذي اكتسب صفة الثبات ، وروحها الذي يمكن ان نسميه « الغريزي » اذا هو أراد ان يمضي على النهج القويم ، فما يمكن ان يتصرف فيها تصرف الاقدار او ان يقضي فيها بأمره كما كان يقضي سلاطين الاتراك ، او اصحاب الحكم بأمرهم في زماننا . حتى العامية او اللهجات ، لا يتسنى فيها مثل هذا العسف . وصحيح ان الفرد هو الذي يستحدث الالفاظ او الصور الجديدة ، ولكنهُ انما يستطيع ان يفعل ذلك بعد ان يتسرب بروحه في الجماعة ، ثم هو لا يفعل هذا عن عمد وبعد اعمال فكر ، وطول تأمل وتدبر ، وانما يصدر عنهُ ما يصدر وهو غير مدرك او دار ، لانهُ إنما يتصرف وفق قوانين طبيعية لاسلطان له عليها ولا سيطرة ، وبعد تهيؤ روح الجماعة او الطائفة التي هو منها .

ابراهيم عبد القادر المازني

٢ – الكتب

• أغنية الرياح الأربع • بقلم علي محمود طه

١٤ × ٢٠ ١٣٢ ص عيسى البابي الحلبي وشركاه القاهرة ١٩٤٣ *

« نظمها شاعر مصري عاش قبل الميلاد بما يقرب من الفي عام ، ونوه بكشفها ، ونقلها الى الفرنسية العلامة الجليل الاب دريتون عام ١٩٤٢ ، وأتمها وقدم لها شاعر مصري محدث بعد الميلاد بما يقرب من الفي عام محاولا أن يتخيل قصتها وأن يهيء لها جواً مسرحياً »

عن مقدمة الديوان

في نظم الأستاذ المهندس علي محمود طه رنة جذابة وحلاوة بحترية ، الرأي فيهما أنهما مستمدّتان بمهارة من الشوقيات من حيث النفس والقوافي والتأثر بالأهازيج الميسورة . وشوقي حقيق بأن تترسم خطاه . ولا يفوتنا أن نقول أيضاً إن « أغنية الرياح الأربع » في موضوعها ومحاولات ناظمها تدل على أنه ممن أطالوا القراءة لشعراء المهجر الاميركي وحذوا حذو مجلة « أبولو » (المدرسة الشعرية المصرية) فالشاعر يطرب لترانيم أبي شادي إذ هناك أوجه شبه بين اتجاهه وبين ما نظمه أبو شادي من روايات غنائيـة منها « الآلهة » . ثم ان الاستاذ طه من الذين استطاعوا ان يظفروا بحظ كبير من عناية الصحف ، وذلك مما يبعثنا على أن نلتفت الى منظوماته ونعنى بها كل العناية .

في منظومة « الرياح الأربع » أجد حقًّـا ريح الجودة في مواقف (ص ٦٠ ، ١٢٦) وفيها مقطوعات تشهد بأن الشاعرية في الاستاذ المهندس لو اكتملت وخلصت لأثمرت وآتت أكلاً شهيًّـا لهُ شأن في ميدان رسالات الشعراء .

فما نأسف لهُ أن شاعراً في مكانة الاستاذ جذبهُ تلذُّذ عامة السامعين والقارئين بالأغاني الشعبية ، فلم يكبر نظمه أن تجري فيهِ تعبيرات مبتذلة . وهذا من مضار رواج تلك الأغاني التي هيهات أن تمت الى الفن الرفيع بصلة قويمة .

فقد حاول الاستاذ أن يسلس قريضه ، وذاك في الحق لون من الجمال ، ولكنهُ لم يوفق كل التوفيق ، فالشعبيات وأمثالهـا في مسرحيته غير قليلة . ودونك أمثلة : « هيمان هيمان

* رتبت أسامي الكتب على حروف الهجاء

يا غرامي» ص ١١ — « ضمي هنا رأسك يا حبيبتي » ص ٢٩ — « لشد ما أهواك يا جميلتي » ص ٢٩ — « فيما مضى من غابر الايام » ص ٣٣ . ومن التعابير التي يتأثر فيهـا العامة : « يلعب بسيفه » يريد : يحرك ، لا يلعب — وفي الأغنية أيضاً :

« كثيرون مثلك مروا بنا فردوا الزبائن عن بابنا »

وأضر من هذا بالشعر على الإطلاق إن يتهاون الشاعر بلغة الضاد والقرآن الكريم . فقد نبه من قبل أستاذنا إبرهيم عبد القادر المازني على أن الأديب المهندس يستعمل اللغة جزافا . والمنظومة الجديدة تشهد بشيء من هـذا سواء في النظم أو النثر . ونحن لا نرى دعوى التجديد مسوّغة مثل ذلك . ولا بدّ لنـا من الوقوف والتنبيه على هذا : « يقبّلان بعضهما » ص ٢٩، والصواب يقبل أحدهما الآخر — « اكتراث بالجميع » ص ٣٠، والأولى: للجميع — « واضطرح توافه العقائد » والصواب : واطرح — « عقداً مصاغاً » ص ٥٢، والصواب : مصوغاً — « يتفرّجن على سفينة »ص ٦٣ ، والمراد : يشاهدنها، وليس تفرج بهذا المعنى منقولاً عن الفصيح ، — «وهلاّ نزلت الآن» ص ٧٦ ، والصواب : هلاّ تنزلين، لأن المقصود هنا الحض لا اللوم — « أنا التي أعير» ص ٧٣ والصواب : التي تعير — «دماؤكم اول ما تباح» ص ١٢٨ ، والوجه : يباح، لعودتها على« ما »— «منشغلات» ص ١٠٣، والأقوم : مشغولات — « ما عدت أعي » ص ١٤٤، وعليه أن يقول : عدت لا أعي

ولا أريد أن أنبه على الأخطاء الطبعية وهي غير قليلة ، فلعل لصاحب الديوان عذرا .

وبعد فربما أهمل الاستاذ الشاعر بعض التشويق المسرحي . ففاته مثلاً أن يترك الخطابة في التعبير وينصرف الى بعد الفكرة التي في الأغنية الفرعونيـة ، المأخوذ عنهـا ، ثم الى تجاوب أطوار الحركة على المسرح ، وفاته أيضاً أن يرسم الشخصيات بقوة ووضوح ويكشف ملامحهم حتى لا يمل الناظر ويضيق بمتابعة الناظم الى آخر الفصول . أقول هذا وأنا أتذكر ما أحس به حين أطالع المسرحيات الرفيعة التي توجها شاعرنا خليل بك مطران وغيره من روّاد الأدب المسرحي .

وعندي أن الشاعر المهندس برع في نظم المقطوعات وقصيد المناسبات براعة تستحق التقدير . وما أظن ذلك شأنه في معالجة القصة شعراً وليس هذا بضائر له ، كلاّ ! فله الثناء على جهوده في سعيه الذي نظم به قصةً رائعة مقتبسةً قضيت في قراءتها وقتاً لا آسف عليه .

كامل محمد عجلان

• الجيش والبحرية في مصر من الفتح العربي إلى بداية العصر الطولوني •

بقلم سيدة اسماعيل كاشف

١٤ × ١٩ ½ ٤٠ ص وزارة الدفاع الوطني القاهرة ١٩٤٤

تنطوي هذه الرسالة على مقدمة وبابين : المقدمة إجمال لفصول جاءت في الكتاب الذي تقدمت بهِ الآنسة سيدة كاشف الى كلية الآداب بجامعة فؤاد الاول فحصلت على درجة « الماجستير » . والباب الأول في الجيش والثاني في البحرية .

وقد وفقت الآنسة في عرض نظام الجيش العربي وطبيعته وتطوره بمصر في فجر الاسلام . وتحدثت عن حرص الخليفة عمر بن الخطاب على منع الجند العرب من الاشتغال بالزراعة أو التجارة ، وأحسنت في تفنيد رأي المستشرق لين بول Lane-Poole في تعليل تلك السياسة بأن الاستعمار المنظم كان بعيداً كل البعد عن تفكير عمر ، وان غزوات المسلمين في البداءة كانت حملات عابرة . وردّت الآنسة بأن ملك الجند للارض ليس شرطاً للاستعمار المنظم ، وبأن تلك السياسة كانت سياسة موضوعة ترمي الى نشر الدين وسلطان المسلمين بدون التعرض لشؤون الشعوب المغلوبة على أمرها . واعتمدت الآنسة في بعض أطراف الموضوع على ما جاء في أوراق البردي من وثائق تشير الى أعطية الجند وأرزاقهم ، وعنيت بشرح ما كان لوادي النيل من شأن بوصفه قاعدة للفتوحات وما كان لحاميته من فضل في غزو شمالي افريقية وبلاد النوبة .

أما الباب الثاني فقد عرضت فيهِ الآنسة جهود مصر في بناء الأساطيل الاسلامية الأولى وما كان لخبرة الملاحين والعمال المصريين من أثر في انتقال السيادة البحرية من الروم الى العرب في ذلك العصر . وأشارت الى ان نشاط المصريين لم يقف عند اعداد الأسطول المصري ، فان والي مصر كان يرسل بعض الملاحين المصريين للعمل في أسطول المغرب او اسطول المشرق فكانوا يساهمون في الاعمال البحرية العامة للدولة الاسلامية

ولما تحدثت الآنسة عن الانتصارات الاسلامية الاولى في البحر المتوسط عرضت لوقعة «ذي الصواري» وذكرت أنها سميت بهذا الاسم لكثرة صواري السفن التي التحمت في في القتال فيها ، وقالت انها تسمى في الكتب الاوربية واقعة فونيكة لوقوعها بالقرب من ثغر فونيكة Phoenicus غربي الاسكندرية . وهكذا نرى ان الكاتبة قد رجحت في هذا الصدد الرأي القائل بأن واقعة ذي الصواري حدثت على مقربة من الاسكندرية . وهو الرأي الذي يستنبط من النصوص العربية ، ونفضله على الرأي الذي يراه معظم المستشرقين

تأثراً لقول قاله أحدهم في القرن الماضي ، وخلاصته ان وقعة ذي الصواري حدثت جنوبي آسية الصغرى بجوار ثغر فونيكس Phœnix . وآخر من فصل هذه المسألة الاستاذ ماريوس كانار في مقال بالمجلة الاسيوية الفرنسية (يناير — مارس سنة ١٩٢٦)
Les Expéditions des Arabes contre Constantinople dans l'Histoire et dans la Légende

ولا ريب في أن أساس هذا القول نجده في ما كتبه المؤرخ اليوناني تيوفانس Théophane غير ان الحق ان هذا المؤلف كان يخلط كثيراً في ذكر الوقائع البحرية ، فقد ذكر مثلاً ان اسم قائد المسلمين في الوقعة التي يظنونها وقعة ذي الصواري هو أبو الأعور على حين المعروف أن هذا القائد كان عبد الله بن أبي السرح . ومع ان الاستاذ كانار نفسه لم يخرج في هذه المسألة عن رأي معظم من سبقه من المستشرقين، فانه أشار الى احتمال الخلط في ذكر هذه الوقائع عند المؤلفين المسيحيين ، لأن الغزوات البحرية كانت على استئناف مستمر .

فنحن نقر الآنسة على قولها بأن وقعة ذي الصواري نشبت على مقربة من الاسكندرية ولكن المقام لم يمكنها في رسالتها ولا يمكننا في هذا الباب من سرد الأسباب التي ترجح هذا الرأي ، فحسبنا أن نوجه القارئ المستزيد الى ما جاء في كتب التاريخ العربية عن هذه الوقعة، والى مقال الاستاذ الفرنسي كانار ومقال المستشرق الالماني ڤلهوزن Wellhausen في حروب العرب والروم في العصر الاموي ، والى ما جاء في Annali حوليات المستشرق الايطالي كائيتاني Caetani .

هذا وكان في المأمول أن تعرض الآنسة ببعض التفصيل لما كان من التعاون في الجيش بين العرب والمصريين الذين دخلوا في الاسلام ، فكنا نود أن تجلي لنا على الخصوص نوع الخدمة التي كان يؤذن للمصريين في القيام بها في الحرب والسلم للرجالة من الجيش العربي .

زكي محمد حسن

• نظرة عامة في تاريخ الفقه الاسلامي • بقلم علي حسن عبد القادر

١٧½ × ٢٥ · ٣١٢ ص · مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٤٢

من الدراسات التي يجب أن نعنى بها عناية كبيرة تواريخ العلوم الاسلامية ، ومن أجلّها الفقه والتشريع الاسلامي ، ذلك لنعرف في باب الفقه كيف نشأ ، وكيف استوى على ساقه ، وكيف تطوّر حتى صار ما نعرف اليوم من أحكام — في مختلف ضروب الحياة وواقعاتها —

تختلف في قبولها والاعتداد بهما باختلاف ما بُنيت عليه من الأسس ، من القرآن والسنة النبوية . . . والأعراف المتعددة بتعدد الأقطار الاسلامية المختلفة . بذلك نعرف ، كما يقول الأستاذ مؤلف الكتاب موضوع البحث والذي جعلنا اسمه عنواناً له ، ما كان منهُ عملياً نافذاً ، وما كان جدلياً أو مثالياً نظرياً . وبذلك نستطيع ، فيما أرى ، أن نختار منهُ في غير حرج ما بهِ يكون الخير في هذا العصر الذي نحن فيه والعصور التي تتلوه .

وقد غبر الأزهر دهراً طويلاً لا يعنى بهذه الناحية من الدراسات ، اللهم إلاَّ نفر قليل وجهوا قدراً من جهودهم الى هذه الدراسة من بعض جنباتها ، وأمثلهم فيما نعرف المغفور له الشيخ حسين والي بما أرخ للتوحيد والتفسير والحديث بكتابات علمية قيّمة ، بعضها لا يزال مخطوطاً ينتظر أن تعود الحياة دافقة قوية الى الأزهر فينشر تراث رجاله الأعلام !

والمشروع الذي وضعهُ زميلنا هو تأريخ الفقه بالمعنى الكامل ، فيتناول القوانين المتصلة بالشريعة اتصالاً مباشراً ، سواء أكان ذلك باندماج هذه القوانين في الشريعة أم بتأثير الشريعة في هذه القوانين ، ويقصد بهذا قوانين العرب أيام الجاهلية وقوانين الشعوب التي دخلت في الاسلام ، كما يمتد بحثه الى الأعراف التي كانت قائمة بين الشعوب الاسلامية نفسها (ص ٤) . ولهذا حصر الأدوار التي مرَّ بها الفقه في خمسة ، وتحدث في هذا الجزء الأول عن الثلاثة الاولى منها ، وهي التي تنتهي بتأسيس المذاهب الفقهية المعروفة .

لقد ظهر قبل هـذا الكتاب بحوث وكتب في تاريخ التشريع ، منها القديم ومنهـا الحديث ، ولـكن هذا الـكتاب يعتبر نوعاً طريفاً من البحث ، ففيه الافادة الى حد كبير من بحوث العلماء المستشرقين ، وفيه العمق والتحليل ، وفيه رد الظواهر الى أسبابها وعناصرها الأولى ، وفيه المقارنة التي يتم بها بيان الفكرة وفضلها . وذلك ما يجعلنا نوقن أن الاخوان الذين جمعوا بين ثقافة الأزهر وثقافة أوربة حريون أن يحققوا ما أنيط بهم من آمال الى حد كبير نغتبط بهِ ، وبأنهُ ينتظر منهم خير كثير للدراسات العلمية العالية — الاسلامية والفلسفية والتاريخية — في الأزهر وغير الأزهر .

لقد عرض المؤلف في عمق وشجاعة لمشكلات كثيرة ففتح آفاقاً واسعة لإجالة الرأي :

عرض للتشريع بمكة وخصائصه ، وإلى أهم ما دار عليهِ الوحي في المدينة من عقائد وتعاليم وتشاريع (٧ — ٢٥) . وخص القرآن بعد هذا ، باعتبـاره المصدر الرئيسي للتشريع ، بكلمة تاريخية عن نزوله والأحرف السبعة التي نزل بهـا ، والنسخ وأنواعه (٢٥ — ٤٧) . وعرض بعد ذلك لصفات الرسول في التشريع ، والى مصادر التشريع في

العصر النبوي . ثم انتقل الى عصر الصحابة والى فقه عمر والتشريع في عهده وأثره الكبير فيه ، والى اختلافات الصحابة وقد انتشروا في البلدان ، مبيّناً ان ذلك كان بدء تطور الفقه (٥٣ـ٨٣) . وعرض بعد هذا في توسع لمسألة حفظ القرآن وجمعه (٨٤ ـ ١٠٠)

ثم انتقل الى الدور الثاني وهو دور تأسيس الفقـه ، مستعرضاً ما كان للاحداث السياسية من أثر كبير في الفقه والتشريع . وكان من هذا أن اخذ التشريع — في رأيه — ينفصل عن الحياة ، واخذ الفقه ينحو اتجاهاً نظريـاً بعيداً عن الحياة العملية ، ملتمساً اسباب هذه الظاهرة من الهوة التي حدثت بين العلماء الاتقياء والحكام من الخلفاء الأمويين (١٠٠ — ١١٠) . وقد وقف هنا وقفة حسنة عند المصدر الثاني للفقه وهو السنة ، مبيناً في وضوح وروية العوامل التي كانت سبب ظهور مدرسة الحجاز ومدرسة العراق ، منتهياً إلى تحديد العمل الفقهي في هذا الدور بأن العناية بالروايات فيه كانت أقل من العناية بالرأي والفتوى (١١٠ — ١٥٨) . ولاتصال التفسير بالفقه ، أتى بكلمة موجزة مركزة عن مدى هذا الاتصال ، مبيناً أن من أسباب اختلاف الآراء في التفسير ما كان من اختلاف المصاحف وأن ذلك كان له طبعاً أثره في الفقه . وختم الحديث عن هذا الدور الثاني بالكلام على فرقتين كان لكل منهما فقه خاص له أصوله ومقاصده ، وهما الخوارج والشيعة (١٥٩ — ١٨٧) .

ونقل البحث بعد هذا الى الدور الثالث ، بادئاً ببيان ما كان لانتقـال الخلافة الى العباسيين « من أثر هام جاوز السياسة الى الدين » ، ومن ذلك أن الحكومة في هذا العهد العباسي «كانت ملائمة لتطور الفقه وللاعتناء بالحياة القانونية على الوجه الديني» ، مستشهداً بما وضعه كل من أبي يوسف بطلب الرشيد والخصاف بطلب المهتدي في كتاب الخراج من نُظُـم الحكومة وادارة الدولة على أساس من الفقه القائم على السنة (١٨٧ — ٢٠٠) .
وكـذلك أخذت الاختلافات تظهر واضحة بين مدرسة الحجاز ومدرسـة العراق (٢٠٥ — ٢١٧) .

أخذ بعد هذا في الكلام على الامام أبي حنيفة « الذي استقرت عنده وعند اصحابه مذاهب العراق » ففحص المحيط العلمي الذي نشأ فيه ، ثم ابان فضل اصحابه في بنـاء شخصيته (٢١٨ — ٢٢٨) . والـكلام على ابي حنيفة ومذهبه جرّ الى مسألة « الحيل » الشرعية ، والى حكم الاسلام فيها بصفة عامة (٢٢٨ـ٢٣٥) . وبعد كلمة على أشهر تلاميذ الامام وأصحابه ، انتقل الى الكلام على الامام مالك ومذهبه الذي يقوم على الحديث وعمل اهل المدينة والرأي احياناً (٢٤٣ — ٢٥٠) . ثم ساق الحديث الى الشافعي واصوله الفقهية وطريقته

التي تجعل مذهبه وسطاً بين أهل الرأي واهل الحديث ، كما كانت « رسالته » نقطة الانتقال التاريخية للفقه الاسلامي (٢٥٦—٢٦١).

ثم انتقل بعد ذلك الى الكلام على ابي سليمان داود الظاهري ومدرسته التي كان « اهم ما تخالف فيه المدارس الاخرى هو استعمال مصادر الراي والقياس » وعلى تطور هذا المذهب على أيدي تلاميذ مؤسسه (٢٦٥—٢٧٢) . واخيراً ، جاء الحديث عن الامام ابن حنبل ومكانه في الفقه في كلمة قصيرة ، وعن مدى انتشار كل من المذاهب الفقهية الأربعة المعروفة وغيرها في القرن الرابع ، واسباب هذا الانتشار (٢٧٤ —٢٨٥). ثم تحدث عن اثر الفقه بصفة عامة في العناية بالحديث وجمعه وتصنيفه مع طرق ذلك (٢٨٦—٢٩٦) .

وتكلم بعد هذا في ما كان من نقد الحديث وطريقته « وهو يقوم على النظر الى الرجال في الاسناد وعدالتهم وضبطهم وغير ذلك » ، دون اهتمام كبير بمتن الحديث ، ولذلك نقدها نقداً حقًّا (٣٠٢— ٣٠٥) . وانتهى الكتاب باشارة عابرة الى خمود التأليف وقفل باب الاجتهاد في القرن الرابع ، والرجوع الى التقليد بعد ما استقرت المذاهب الأربعة المعروفة .

• • •

ذلك جماع ما حواه الكتاب الذي بأيدينا ، ومنهُ نعلم كم كان مؤلفهُ متواضعاً حين أكد في مقدمته أن ما وصلت اليه أعماله في هذه الناحية لا يمكن بحال أن يتعدى المحاولات العلمية في هذا الصدد ! لقد حوى الكتاب مسائل كثيرة لكل منها خطرها ، وأثار مشكلات شتى أمكنهُ أن يعالج ما عالج منها بمقدرة وجدارة حريتين بالتقدير .

هذا ، وكنا نود أن نقف عند هذا الحد ، لولا حق العلم والنقد الحق ، لذلك نرى أن نتقدم بهذه الملاحظات التي لا تنقص من قيمة هذا العمل الكبير :

١ — في بعض المسائل التي تحتمل وجوهاً مختلفة من الرأي ، يرى القارئ أحياناً الميل الى بعض الآراء التي قد تخالف ما اجتمعت عليه الروايات الاسلامية ، وقد يكون هذا الميل صريحاً ، وقد يكون بعرض الآراء بلا ترجيح ما اتفق عليه أكثر الروايات الاسلامية في حالات لا يوجب الحق — في رأيي — الميل عنها . ونجد مصداق هذا في مسألة الصلاة وأنها كما يرى بعض المستشرقين فرضت في أول الأمر مرتين : بالغداة والعشي ، مخالفاً بذلك بلا ضرورة الروايات الاسلامية التي تقرر أنها فرضت خمساً مرة واحدة (ص ١٤). وكذلك أمية الرسول ، فقد أثبت أولاً أن معناها عدم معرفته القراءة والكتابة على ما حققهُ جمهور العلماء قديماً واعتمده كثير من الباحثين في هذا العصر ، ثم جاء بعد سطور وفسر الأمية بعدم معرفة الكتب القديمة ، لا بعدم معرفة القراءة والكتابة (٢٥—٢٦) .

٢ — يشعر القارىء أحياناً بشيء من العسر في التوفيق بين ما يذهب اليه في مواضع مختلفة في المسألة الواحدة . من ذلك ما قرره ص ١٠٨ من أنهُ بدأ في العهد الأموي تأسيس علم الفقه الذي يقوم على منهاج نظري مثالي لا يمت إلاّ بسبب ضعيف للحياة العملية ، ثم تأكيده بعد هذا أن عمل الفقهاء في هذا العصر كان ادخال مبادئ الدين في العادات المعمول بها إذ ذاك ، ومعنى هذا ـ في ما أرى ـ أن الفقه كان عملياً لا نظرياً مثالياً . ومن ذلك أنهُ يقرر أن أبا حنيفة لم يوجد لنا حقيقة طريقة فقهية ، بل انهُ لا يوجد في الفقه الاسلامي طريقة بالمعنى الحقيقي (٢٢٦) ، على حين أنه قد قرر قبل هذا (٢٢٣) أنهُ ظهرت على يدي أبي حنيفة لأول مرة طريقة منظمة للفقه على أساس القياس ، كما أنهُ يقرر بعد هذا (٢٥٦) أنه إلى الشافعي يرجع الفضل في أنه أوجد طريقة وأقام اصلاحاً فقهياً . ومن ذلك ما يراه (٢٣٠) من أن الحيل في نتيجتها احتيال على الخروج من سلطان الفقه والقانون الاسلامي ، فهي لهذا أعمال إذا استعملت على وجهها الصحيح ظهرت غير مأذون فيها ، على حين يقرر بعد هذا (٢٣٥) أن فكرة الحيل لا تنافي الأخلاق ، فهي في الحقيقة ليست مركباً للذين يريدون أن يتخطوا الشريعة ويتركوا العمل بها . ولابن القيم في كتابه « إعلام الموقعين » بالجزء الثالث بحث حسن في الحيل وأنواعها والأحكام الشرعية التي تتعاورها ، ومنه يتبين الباحث انها كلها ليست حراماً ويراد بها التفلت من سلطان الفقه وأحكامه .

وعناية المؤلف بالحديث عن « الحيل » عند الحنفية جعلته يروي عن الخطيب صاحب « تاريخ بغداد » أن هناك لأبي حنيفة كتاباً في الحيل لا يتفق مطلقاً والدين ، ثم يترك هذه الفرية بلا تكذيب قاطع صريح ، مع أن ذلك كان واجباً وميسوراً كما ورد بكتاب « تأنيب الخطيب على ما ساقه في ترجمة أبي حنيفة من الأكاذيب » ص ١٢١ — ١٢٢ للعلامة الشيخ الكوثري .

وبعد ، فهذا العمل ، الذي حاولنا وصفه للقارئ عمل حري بالتقدير من الذين يعنون بالدراسات الفقهية في الأزهر وغير الأزهر . هو حري بهذا ، بما حوى من مسائل ، وبما عالج من مشاكل ، وبالنهج القويم الذي قام عليه ، وبالمراجع الكثيرة الأصيلة العربية والألمانية التي رجع اليها المؤلف . لذلك ندعو أن يديم الله الانتفاع به ، وأن يعين صاحبه على السير به الى ما يرجو له من كمال .

محمد يوسف موسى

المدرس بكلية أصول الدين بالازهر

◆

• بلزاك •(١) بقلم أحمد الصاوي محمد

١٤ × ١٩½ ١٤١ ص مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ١٩٤٤

هي سيرة الكاتب الفرنسي بلزاك من قصاص المائة التاسعة عشرة ، ساقها المؤلف في أسلوب القصص المسلّي فأدناها إلى عامة الجمهور .

*

• تلاقي الأكفاء • بقلم علي أدهم

١٣½ × ١٩½ ١٥١ ص مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ١٩٤٤

مشاهد من التاريخ مقتطفة من هنا وهنالك ، ويبدو للقارئ أنها على هامش التاريخ ، وأنها قصص وأحاديث تبعث التسلية بما فيها من طرائف . ولكنها ، مع ذلك ، لا تخلو من شأن ، إذ تكشف بعض النواحي المجهولة من الشخصيات البارزة ، وتعين الباحث في هذه الشخصيات على اكتناه أسرارها . وفي هذا الكتاب ما يؤانس القارئ . وفصوله التي تنتقل به بين التاريخ الشرقي والغربي وتصور له من شخصياته ، تبعث النفس الى الاستزادة والاستقصاء في المراجع التاريخية الحافلة . ومن أمثلة ما في الكتاب : « لغز تاريخي حول وفاة القيصر الأكبر » و « بين نابليون وتاليران » و « صفحات من حياة الحكم أمير الأندلس » . وقد صاغ المؤلف هذه الأحاديث التاريخية في أسلوب متخيَّر.

*

• ثبت ما قبل التاريخ المصري • بقلم شارل بشتلي

Bibliographie de la préhistoire égyptienne

١٦ × ٢٥ ٧٧ ص الجمعية الجغرافية الملكية المصرية ١٩٤٢

هذا مسرد كامل باللغة الفرنسية لجميع ما نشر في شأن ما قبل التاريخ المصري المعروف . وهو جمع ضاف لكتب ورسائل ومقالات ، جلها في وصف الحفريات ونتائجها من سنة ١٨٦٩ الى سنة ١٩٣٨ . وهي مكتوبة بلغات أوربية مختلفة ، وبالعربية في الندرة . وفضل هذا المسرد المرتب على حروف الهجاء الأوربي أنه يقرب المراجع ويلم تفاريقها ، فيمهد للباحث في ذلك التاريخ الوعر السالك خطط التنقيب ، ويدني اليه اسباب المراجعة.

*

(١) النجم يرمز الى اسم من أسماء المتعاونين على الانشاء في هذا الباب

• شيكسبير • بقلم محمد فريد أبو حديد ، زكي نجيب محمود ، أحمد خاكي

١١½ × ١٦½ ١٧٦ ص مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ١٩٤٤ سلسلة « اقرأ »

• مباحث في الفلسفة والاخلاق • بقلم محمد يوسف موسى

١٣½ × ١٩ ١٧٠ ص مطبعة الازهر ١٩٤٣

ليس صاحب هذا الكتاب أجنبيًّا عن الفن الذي يؤلف فيه، بل هو من رجاله وأركانه فلهُ « فلسفة الأخلاق في الاسلام وصلاتها بالفلسفة الاغريقية » ، ثم له «تاريخ الاخلاق». وقد روجع هذان الكتابان في المقتطف من قبل ، وقال فيهما واحد من أهل النظر في الفلسفة قولاً حسنا .

وهذا الكتاب الخارج اليوم جد مفيد من حيث إنه يضم فصولاً مشبعة في غير إطالة مستدعاة ، تدور على تعريف الأخلاق وتبيين صلتها بالحكمة ، بل قل بالفلسفة . والفصول موزعة بين الأخلاق والعلم وما فيهما من النظريات، ثم مكانة الأخلاق من الفلسفة إذ هي فرع من فروعها على صلتها بغيرها من العلوم ، ثم الخلق وتكوينهُ مع تعرف المؤثرات فيه الى جنب الفطرة والوراثة ، ثم السلوك وما بينه وبين القصد ، والضمير وما مهمته ومظاهره وماهيته وتربيته ودرجاته ، ثم المثل الأعلى وكيف يختلف ويتكوّن ، ثم القياس الخلقي وانقسامه قسمين : عملي ونظري ، ومن هذا : العرف ، فما أصله وسلطانه ؟ وكيف يصلح لأن يكون مقياسا ؟ ومن هذا ايضاً : القانون ، فما أنواعه وفيه الطبيعي والوضعي والالهي والاخلاقي؟ ثم ما بين كل هذه من الفرق وما يترتب عليه من الحاجة الى البحث الأخلاقي مع وجود القانون الالهي .

ذلك مجمل موضوعات هذا السفر المتواضع من جهة العرض ، القويم من جهة السرد . فانهُ وان كان كتبهُ صاحبه لطلبة الجامعة الأزهرية ليضم فوائد دانية كثيرة . فهو ينقل بفهم ويسر إلى قراء العربية ما رآه علماء الغرب في الموضوع الذي يعالجه ، ويردف ذلك بما يوائمه أو يعارضه في مؤلفات السلف من حكمائنا ، مع استقلال في النظر . فهذا تقريب لطيف .

وليت الكتاب ضمّ في آخره معرداً للاعلام العربية والافرنجية ، وآخر للمصطلحات وما ينظر اليها في إحدى اللغات الاوربية .

٣ — الاستدراك

• الحيوان • الجزء الخامس للجاحظ

بتحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون

١٧ × ٢٤ ٦٣٩ ص مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٩٤٣

١ — تمهيد : أبو عثمان عمرو بن بحر المشهور بالجاحظ ، هو أكتب كتّاب العرب على الاطلاق ، منذ أن وجدوا على الارض الى عهدنا هذا . ولعلّ القارئ يعجب من هذا الكلام ، ويعزوه الى جهلنا لتاريخ الآداب العربيـة ، أو لا أقلّ من أن ينسبنا الى الغلوّ الفاحش ، لـكن الحقيقة أننا لا ننطق عن غرض ، ولا عن هوى ، إنما ننطق بالحقيقة مجردة عن كل غاية ، أو فكرة ملتوية .

نعم ، لقد قام في بني مُضر كتّاب نوابغ بلغاء فصحاء أبدعوا في ما نمّقوا ووشوا من رفيع القول ، ومسجّعه ، ومن مختار الالفاظ وأدقها تعبيراً عن المراد ، ومنهم من أغربوا فيها إغراباً فاقوا من تقدمهم في النطق ، واتخذوا من الـكلم أعوصها وأغمضها ، لـكن ذلك كلهُ ليس بشيء يذكر بجانب ما أبدعهُ الجاحظ وصنفهُ ورصفهُ من متقن العبارة ومحكمها ، فانهُ يستحق وحده أن ينعت بـ«وصّاف الدقائق[1]» من بين كل من قبض على اليراعة العربية .

٢ — نظرة عامة في تصانيف الجاحظ : للجاحظ تصانيف ورسـائل عدة مختلفـة المواضيع ، بلغت ١٢٥ على قول ياقوت الحمويّ ، في معجمه المعروف بمعجم الأدباء ، لـكن

---

(١) المراد بوصاف الدقائق من يكتب على الاشياء ويصورها تصويراً دقيقاً يمثلها بين يديك تمثيلاً كأنك تراها رأي العين ، وتلمسها لمس اليد ، حتى كأنه ينطقها نطقاً حياً ، تغنيك عن مقابلتها ومشاهدتها بوسيلة أخرى ، لأنك ترى محاسنها ومعايبها جميعاً على حد سواء .

ويسمي الافرنج « وصاف الدقائق » : Réaliste وقد حاول بعضهم نقلهـا الى لساننا بقولهم « كاتباً واقعياً » وآخـرون بقولهم : « مصور الاشخاص والاشياء كما هي بدون تجميلها » وبعضهم قالوا : هو « الـكاتب الواقعي » . وفريق « القائل بحقيقة الاشياء » وجماعة : « القائل بالمذهب الحسي والواقعي » . وآخرون غيرها مر بك من الالفاظ والتعابير ، وكلها لا تفي بالمطلوب من الحرف الافرنجي . هذا ويقابلها عندنا : « وصاف الخياليات » وعندهم : Idéaliste .

لم ينشر منها الى الآن ـ على ما نعهد ـ إلا ٢١ ، بينهما كتاب البيان والتبيين ، وكتاب الحيوان . وأحسن مؤلفاته : البيان والتبيين ، وأثمن منهُ وأبدع كتاب : الحيوان . إلاَّ أنَّ إخراج هذه الدرة من مغاصها بسبع لآلئ (سبع مجلدات) على نفقة الحاج محمد السّاسي ، حط من ثمنها ومن شرف ثِينِها [1] ، إذ أزال كثيراً من محسنات الكتاب ، وروائعهِ ، ومبتكرات أقواله ، فيعثر القارئ في كل صفحة من صفحاتهِ على أوهام ، وتصحيفات ، وتحريفات ، ونواقص ، ومحذوفاتٍ ، تخل بسياق المعنى ، كما ان ثمَّ دواخل ومفأَماتٍ [2] مما يشجي ويبكي وينكي ، ويحول دون القارئ من المضي في وجههِ قدما .

٣ — إعادة طبع كتاب الحيوان : فلما رأى أولاد مصطفى البابي الحلبي الدركة التي انحط اليها هذا الأثر النفيس الذي يعدّ من أفخر مفاخر الناطقين بالضاد ، انتدبوا لابرازه الى عالم البعث والنشور والخلود ، شابًّا مصريًّا جمع الى توغلهِ في الآداب والعلوم العربية وقوفَهُ أحسن وقوف على تصانيف الجاحظ ، وآرائهِ وأفكاره ، ومعارفهِ ، فأبرز الى نور النشور أربع مجلدات منهُ . وبين يدينا الجزء الخامس الذي يعدّ أوسع المجلدات ، وأصعبها فهماً لما حوى صدره من الآراء الفلسفية الغامضة ، وما وقع فيهِ من التصحيف والتحريف .

وفي هذا المجلد يبحث الجاحظ عن الطير التي تألف الدور وعن الفئران والجرذان ، والسنانير ، والعقارب ، وعن بعض الهوام كالبراغيث والقمل والصئبان ، والبق ، والجرجس والشران ، والفراش ، والأذى ، والعناكب ، والنحل ، والقراد ، ثم تبدلو له بادرة فجأة ، كأنهُ فاتهُ شيء ، فيرجع القهقرى ويتكلم على الحبارى من الطير ، وعلى الضأن والمعز من الحيوان ، وعلى الضفادع من دويبات الماء ، ثم يعود ثانيةً فيكلمنا على الفرق بين الإنسان والبهيمة ، وعلى الانسان والسبع ، ثم يؤوب أوبة ثالثة كأنهُ يصحو من غيبةٍ او ذهول ، فيعقد فصلاً في القطا ، ويختم هذا الجزء بنوادر وأشعار وأحاديث .

٤ — محتويات كتاب الحيوان : وقد وسم المؤلف كتابهُ بالحيوان . أما الحقيقة فهي أنهُ مَعْلَمَة ، « قائمة برأسها » ومشتملة على جميع العلوم والفنون المعروفة عهدئذٍ . فاذا القارئ يصيب فيها أنواع المباحث والموضوعات ، كالتفسير والحديث ، وعلم الكلام ،

---

(١) الثين بكسر الثاء المثلثة : مستخرج الدرة من البحر .

(٢) مفأمات : جمع مفأم ، اسم مفعول من أفأمه ، أي وسعه وزاد فيه .

والفلسفة ، والمنطق ، وأنواع المذاهب ، والأديان ، واللغة، والأدب ، والتاريخ ، والبلدان ، والتراجم ، والشعر ، والحكم ، والأشعار ، والأمثال ، وعلم الحيوان ، والنبات ، والمعادن، وكل ما وصل اليه العرب من علم الفلك والظواهر الجوية ، والقصص والروايات ، والأخلاق ، فضلاً عما وضعهُ هو من تفسهِ من الأقوال ومن فكره الخاص به من الآراء . وهذا ليس بقليل.

فالمطالع يرى عظم نفع هذا التصنيف ، فهو يغني عن خزانة كتب مختلفة المباحث والمواضيع . ووجوب تسليمه الى أديب يتمكن من اخراجه بجميع ألوانه المتموجة المتألقة ، وإلباسه أثمن حلة وأبدع وشي . وهذا ما فعله الاستاذ عبد السلام محمد هارون .

٥ — حسناتِ هذه الطبعة : ان المعتني بطبعه لم يضنّ بالحواشي على اختلاف أبوابهـا ومعانيها ، ومواضيعها . وقد وجّـه الأنظار مراراً لا تحصى الى الأصول التي ورد مناهلها ليعيد صحة الرواية الى نصابها الذي كانت وضعت فيهِ في باديء الأمر ، من آيات قرآنية ، وأحاديث نبوية ، وأخبار تاريخية ، وتصحيحات علمية ، وخرافات دخيلة ، وموضوعة ، ومأثورة عن السلف . ففاز المحرّر بالسهم الأوفى وبالنصيب الأعلى مما توخى .

فلقد رأيناه صحح آيات قرآنية لم يوردها المؤلف على وجهها ،كما هي في السور ، وهذا عجيب من مسلم علامة مثل الجاحظ صاحب الفرقة الجاحظية(١) . فلقد صحح عبد السلام ما ورد منها في هذا الجزء في الصفحات ٣٢ و ٩٣ و ١٣٧ و ٥٤٤ و٥٤٧ .

ومن مزايا هذه النسخة أن المحرر ضبط جميع الحروف التي تحتاج الى تشكيل وتدوين وضبط ، وربما زاد على الضبط بالعلامات ، الضبط بالـكلام ، كل مرة مست الحاجة الى هذا الأمر .

ومن مزاياها أنهُ طبع الحواشي متميزة عن النص بحرف دقيق بديع الرسم ، وعرّض تلك الحواشي ، حتى شغلت موطناً غير يسير من الكتاب ، ثم أخرج كل رقم من أرقام ترتيبها

(١) قال في شرح المواقف : الجاحظية : فرقة من المعتزلة ، وهم أصحاب الجاحظ ، قالوا : المعارف كلها ضرورية ، ولا ارادة في الشاهد ، أي في الواحـد منا ، انما هي ارادته لفعله : عدم السهو ، أي كونه عالماً به ، غير ساه عنه . وارادته لفعل الغير ، هي : ميل النفس اليـه . وقالوا : ان للاجسام طبائع مختلفة لها آثار مخصوصة ، ويمتنع انعدام الجواهر ، وانما تتبدل الإعراض ، والجواهر باقية على حالها ، كما قيل في الهيولى ، والنار تجذب الى نفسها أهلها ، لا ان الله يدخلهم فيها . والخير والشر من فعل العبد . والقرآن جسد ينقلب تارة رجلاً ، وتارة امرأة» . اهـ

بحيث تبدو للناظر ، من غير أن يبحث عن موطنها وموقعها من الصفحة .

ومن خصائصها أن المحقق استعمل التنقيط في جميع الأوجه ، من أنف الديوان إلى أخمصه ، ولم يخالف قواعده في عبارة واحدة ، حتى في الحواشي ، وحتى في أمر زهيد . ذلك ما لم نره في أي تأليف طبع في الغرب ، فضلاً عن الشرق في لغة الضاد .

وأعاد طائفة من الكلم إلى مواطنها ، تلك الحروف التي يخل حذفها بالمعنى إخلالاً لا يخلو من معرة وسوء عقبى ، وقد أسقطها النساخ ، والورّاقون ، وسيئو النيات ، وأرباب الغايات والأهواء . فبذل كل ما في وفاضه من السهام ، لكي يصمي صيده ، ولا يخفق ، فكان ما أراد .

وبذل كل ما في كنانته في تقطيع الموضوعات ، وإقامة الدبار (1) ، ليريح القارئ من تسلسل السطور وتتابع الكلم ، حتى يبقى المطالع مستريح البصر ، ومستجم القوى الفكرية ، بأن جعل لتلك الدبار عناوين مختلفة من وضعه ، عدا ما كان وضعه المؤلف من نفسه ، لوجوب هذا الأمر لمن يريد أن يجعل كتابه غذاء للفكر ، وراحة للبصر .

وكان بعض كتبة العصر يحذفون من عبارات الجاحظ كلمة « أيضاً » (2) ، زاعمين أنه لم يستعملها . أما الأستاذ هارون ، فانهُ أبقاها في موطنها كل مرة وردت ، ولم يحفل باعتراضات المعترضين ، لأنها من أفصح الكلام وأقومه وأقدمه ، لورودها في جميع النسخ التي اعتمدها ، على اختلاف ناسخيها ووراقيها ، وقد عددت منها ثلاثين مرة ثم وقفت .

هذا بعض ما أردنا أن نشير اليه من باب المرعة ضنـًا بوقت القارئ وطلباً للايجاز .

* * *

---

(1) الدبار بالكسر جمع دبرة ، بفتح الدال المهملة ، وسكون الباء الموحدة التحتية ، يليهما راء فهاء في الآخر ، وهي البقعة تزرع كالمشارة ، ويريد بهما الكتاب وأرباب المطابع : جملة من الكلام تبتدئ برأس سطر بارز عن سائر السطور ، وتنتهي بعد طائفة من السطور ، اراحة للبصر وهي التي يسميها الفرنسيون Alinea والانكليز Break وتجمع المشارة على مشاور ومشائر كمنارة ومناور ومنائر .

(2) فقد قال الجاحظ مثلا في ص ٢٣ : « وقد يقولون ذلك أيضاً على المثل » ـ وفي ص ٢٣ : « وهذه أيضاً فضيلة أخرى » ـ وفي تلك الصفحة نفسها : « جوزوا أيضاً أن يقولوا » ـ وفي ص ٤٥ : « ولو كان أيضاً التهافت ... » وفي ص ٤٨ : «وقد غلط أيضاً كثير منهم» ـ وفي ص ٦٥ : « ويدل أيضاً على ما قلنا » الى صفحات لا تحصى . وقد جرى المحرر ـ وهو تلميذ الجاحظ النبيه ـ جري أستاذه ، فلم يعمل بما قاله بعضهم في هذا الصدد ، بل تأثر معلمه عن كثب .

٦ — ما كنا نتمنى أن يكون في هذا الكتاب: كنا نتمنى ما يأتي :

— أن ترقم كل خمسة أسطر برقم ، حتى يسهل على القارئ الرجوع الى عددها من غير أن يعدها كل مرة وفي كل صفحة على حد ما يفعل اليوم جميع من يتولى نشر الكتب العلمية ولا سيما القديمة منها ، حين يضطر القارئ الى مراجعة بعض الألفاظ ، فلا يزحم نفسه لعدّ السطور لوجودها .

— نقل المحرر بعض عبارات افرنجية تفسيراً لبعض الكلم العربية ، نقلاً عن الاجانب . وكان يحسن به أن يترجمها الى العربية ، ليستفيد منها من لا يفهم الافرنجية كما جاء في الحاشية «١» من ص ٣٥١ وح ٧ ص ٤٦٨ .

— كان يحسن به أن يضع بجانب كل حرف يدل على حيوان أو نبات أو معدن ما يقابله عند الافرنج ، ليسهل على الباحث إتمام البحث عنه بحثاً علمياً عند أولئك الأعاجم . لأنهم قتلوا تلك المواد خبراً ، فنحن نحتاج إلى عرفانهم لأننا عالة عليهم .

— كثيراً ما استعمل المحرر ألفاظاً كنا نتمنى ان يعدل عنها الى ما اشتهر اتخاذها عند الأدباء ، فانهُ استعمل (التنبيه) في مكان (الحاشية) ، كما في ص ٦ ح ٤ ، و٥٤٦ ح ١ و ٥٥٢ ح ٣ — وهي أكثر من أن تحصى . وقد اجتزأنا بهذه الاشارة الطفيفة .

— ورد في ص ٦٨ س ١٢ : « والثلج قد يداوى بهِ بعض المرضى ، ويتولد فيهِ الدود . . . » — قال المحرر في الحاشية « سبقت اشارة الجاحظ الى ديدان الثلج في (٣ : ٣٩٦ س ٦). — ولم يذكر المؤلف اسمهُ عند العرب ، ولا المحرر في موطن من مواطن الديوان . والذي نعلمهُ أن اسمهُ (الزُّلال) وزان غراب . وراجع تاج العروس في مستدركه (زلل)

— ذكر المحرر في ٤٧ ح ٦ : « العفص ، بفتح الغين بعدها فاء ساكنة : ثمر شجر جبلي يقارب البلوط » — والذي نعرفهُ ان العفص زيادة مرضية تجيء على بعض الأنبتة هي نتيجة وخز تخزه حشرة أو هامة ، وتضع في الوخز بيضها ، فيلتج من هذا العمل ، ضرب من العقد أو الغدد هو هذا العفص ، فهو ليس بثمر كما يظن . أو كما كان يتصوره الأقدمون واسمهُ العلمي المشهور Quercus Infectoria ودونهُ Quercus Lusitanica وبالفرنسية Chêne à galles أو Ch. des Teinturiers وبالانكليزية الشائعة Dyer's oak ودونها Gall Qak أو Nut Gall Oak . ويُنقل مقادير لا تحصى من عفص العراق إلى

ديار الغرب لدخوله في الأصباغ وبعض الأدوية وفي عمل الحبر الأسود الذي لا يمحى والشديد السواد .

— نقل المحرّر الى الحرف اليوناني بعض الكلم العربية الهلنية الاصل فجاءت مخطوءًا فيها ، كما في أصل الهيولى في ص ٥٠ ح ٤ وص ٢٣٧ ح ١ الى غيرها ، وهي ليست بكثيرة .

— جاء في ح ٤ ص ٥٢ « الأرز بالفتح وبضم : شجر الصنوبر » — والمحققون يقولون : إن الأرز بفتح الهمزة وانهُ ليس بالعرعر ولا بالصنوبر ، بل إنهُ شجر قائم بنفسه اسمهُ العلمي Cedrus Libani وبالانكليزية Cedar of Lebanon وبالفرنسية Cèdre, Cèdre du Liban, Pin du Liban .

— وفي نص ص ٦١ : « وضروب الضباب والانداء ، فتراها إما صفراء وإما حمراء » . والصواب إما صفراً وإما حمراً : أي إن كلاًّ من صفراً وحمراً بالجمع المنصوب غير الممدود . والمدّ من جهل النساخ .

— ورد في ح ص ٨٤ : (الطلق) « بالاوربية العلمية » Talc أو Talcum متعادل مركب من (سليكات المغنيسيوم) اهـ . ولو قال المحشّي : وبالاوربية Talc أو Talcus لكان أضمن للصحة . ويحسن أن تكتب سليكاة بالهاء لا بالتاء المغنيسيا . راجع المقتطف ١٠٤ : ١٩٩

— وفي ح ٩ ، ص ٨٤ « والبركان عامية مأخوذة من : Volcano » . والذي عندنا أنها معربة وقد وردت في شعر ابن حمديس .

— وفي ح ٥ ص ٨٨ : « والعقيق هنا : البرق ، ولم تذكر المعاجم في هذه المادة بهذا المعنى الا العقيقة والعقق بضم ففتح » — قلنا : لم تذكر المعاجم العقيق لانها جمع قياسي لعقيقة ، كما قالوا سحاب وسحابة وأرز وأرزة وبقر وبقرة ، فهي قياسية . وقد نبه أرباب المعاجم أنهم غير مقيدين بذكر المقيسات من الحروف .

— وفي ح ٢ من ص ٩٥ : « فذا توفي حوالي سنة ٣٣٧ » . وقد استعمل المحرّر « حوالى » بمعنى نحو . وقد اكثر ارباب الصحف في هذا العهد من استعمال هذا اللفظ بهذا المعنى . وقد قلنا مراراً ان الفصحاء من الكتبة لم يعرفوها . وربما قالوا في مكانها : في حدود سنة كذا .

— في ح ٢ من ص ١٤٥ : « والبشام : نبت طيب الريح والطعم » . فهذا تعريف عام لا يفيد فائدة علمية واضحة . ولو نقل عبارة لسان العرب لكان أجلى ، فقد قال بعد ان ذكر هذه العبارة : « شجر طيب الريح والطعم يستاك بهِ . قال أبو حنيفة : البشام ، يدق ورقهُ ويخلط بالحناء للتسويد ... والبشام : شجر ذو ساق وأفنان .وورق صغار أكبر من ورق الصمتر ولا ثمر لهُ واذا قطعت ورقتهُ أو قصف غصنهُ هُريق لبناً أبيض واحدهُ بشامة » .

— وفي ح ٩ من ص ١٥٢ تصحيح لما ورد في النص : « إذ مرّ العقعق والسخاب في منقاره : « فيما عدا ل : « في فهِ . وأنـى يكون لهُ فم ؟ ! » قلنا : ورواية الفم أصح من رواية المنقار، فقد ذكر اللغويون : فم السمكة ، وفم الطريق ، وفم الوادي ، وفم النهر من باب المجاز والتوسع . فلماذا لا يقال : فم الطائر ، وقد قالوا : فم الحيوان (المصباح) ولماذا لا يدخل الطائر في جماعة الحيوان ؟ وقد كرر المحرر هذا الانكار في ح ١ ص ٣٣٨ .

— وفي ح ٥ ص ١٥٨ في تعليقهِ على هذا البيت : « معي كل فضفاض القميص كأنهُ» ط فقط : فضفاض الثياب ، ولم أجدها في مرجع . قلنا : وهذه النسخة نفسها كافية لأن تكون مرجعاً يعتمد عليه ، إذا اتفق المعنى والمبنى معا . (١)

— ذكر المحرر في ح ٥ من ص ٢٠٩ التدرج والدُرَّاج ، فالتدرّج على الأصح هو Pheasant بالانكليزية وبالفرنسية Faisan وأما الدراج وزان رمان فهو Francolin بالفرنسية والانكليزية معاً . وأما ذكر الدُرَّاج فهو الحيقُطان بالعربية و A cock pheasant بالانكليزية و Le mâle du francolin بالفرنسية ، وقد أخطأ استينكاس بتسميته بالانكليزية Black partridge.

« للكلام بقية »

الاب أنستاس ماري الكرملي
من أحفياء مجمع فؤاد الاول للغة العربية

(١) على ان الفضفاض وردت في جميع المعاجم . قال في اللسان : « وقميص فضفاض : واسع . وفي حديث سطيح : أبيض فضفاض الرداء والبدن . أراد واسع الصدر والذراع . فكنى عنه بالرداء والبدن . وقيل : اراد كثرة العطاء ، ومنه حديث ابن سيرين . قال : كنت مع أنس في يوم مطر والارض فضفاض ، أي قد علاها الماء من كثرة المطر . وقد تفضفض الثوب والدرع : وسعهما . قال كثير :

فنبذت ثم تحية فأعادها غمر الرداء مفضفض السربال

والفضفاض : الكثير الواسع ... الى آخر ما جاء هناك . وراجع أساس البلاغة ، فقد جاء فيه : « درع فضفاضة : واسعة . وبطن فضفاض . . . وعيش فضفاض واسع ».

٤ — التعقيب

في اللغـــة الشـــاردة

اتفق لي من ثلاثة أشهر أن تدبرت هنا كتاباً خرج لقراء العربية[1]. فالى جنب الوصف الحسن اذا حقّ هـذا الوصف ذكرت طائفة من العيوب التي تقصي الكتاب عن حلقة العلم وتلصقهُ بأدب الصحف ، ثم أضفت الى تلك العيوب ما أصبت من زلات في جانب اللغـة ، وقد هوّنت الأمر إذ قلت : « وقفتني أشياء طفيفة معدودة ممـا يجري ، فيما أعلم ، على أقلام المولدين — وكلنا على تلك الحال » . دوّنت ذلك ثم قيدت تلك الزلات نخفّضتها الى ست . ومما تركته مثلاً ما جاء في صفحة ١١٩ من الكتاب : « الوفود عثرت في طريقها بغلام »، والوجه الصحيح : « عثرت على غلام » ، لأن عثر بالشيء يكون للعثار والسقوط على جهة الحقيقة ، وأما عثر عليه فأصابه نَبَهاً (عن غير طلب) أو اطلع عليه ، وهو المعنى المقصود من العبارة . وفيمن نبه على هـذه الزلة من قبل : اليازجي (لغة الجرائد) ، والكرملي (مجلة الرسالة العدد الـ ٤٨٣) ثم فصّـل التنبيه محمود محمد شاكر (الرسالة ٤٩١) .

وانما المقصد من مثل هذا التنبيه على وجه العموم أن تمحض الملكة ويفصح المنطق . وبكلنا حاجة الى ذلك ، فالعربية نأخذها اكتساباً ، لا نملكها بالفطرة . ثم هي غير منقادة في يُسر . حتى أهل اللسان من القدماء البصراء هفَوا فتعقّب المتعقبون هفواتهم . وهيهات أن يكون معنى هذا أن التخلف في الإنشاء مقبول والتسمح في التعبير ميسور . ولَيذهب الأمر في البعد إذا كان الخطأ أولجَ في «ما تغلط فيه العامة»، ثم يعظم اذا اندرج في الطائفة التي نبه عليها أهل اللغة ورفعوها لبصر من يريد أن يتجنب فلتات اللسان .

قيّدت تلك الزلات ، فنَهَدَ المنقود ينافح ، وله هـذا . غير أنهُ خلط الجدل بما شاءت قريحته أن تسمح به ، كأنمـا النقد القويم في باب العلم والأدب إثم . ألا لكلٍ وجهه ونيّته . . . بالله أيروّع المحبكُ من كان للمعرفة عاملاً والى الحق ناظرا ؟ هلك الزمن الذي كانت الغلبة فيه بالمماراة ، ولن يَبعث باعث ذلك العهد الأغبر ما دام نظرائي بقيد الحياة ، وما دمت .

---

(١) « الصديقة بنت الصديق » ، راجع مقتطف فبراير ص ١٨٩.

هذا ، وبعد تخلٍ طويلٍ للعبارات التي لفظتها القريحة – وهي غمرة – ارتفعت الينا ، في عناء، ملاجّةٌ تدور على زلـّتين اثلتين، والزلات كنّ ستّا على سبيل التمثيل، كما قد قدّمت .

ووالله لولا أن يكون الكاتب وقع له أن ينتمي الى مجمع دأبهُ حوطُ اللغة العربيـة والذبّ عنها لمضيت عنهُ . فربَّ خاشٍ يخشى أن يتأثره متأثر فيعثر عثاره . والى ذاك يُضاف أنك بجنب السقم الذي يثقل طائفة من عبارات المنقود تَلمس في الجدل الذي يطيب له مكابرة من جهة ومغالطة من جهة، وإني أجري هاتين الكلمتين على حد مدلولاتهما في فنّ المناظرة .

أما المكابرة فهاهنا :

كنت أخذت عليه قوله : «آداب العرب النسائية »، ص ٢٦ من كتابه، وذكّرته بما ورد في كتاب سيبويه (ط بولاق ١٣١٦ ج ٢ ص ٨٩) : « وتقول في الاضافة (أي النسبة) الى نساء : نِسوي ، لأنهُ جماع نسوة وليس نسوة بجمع كسِّر له واحد » .

قال المنقود الى التخريج (الرسالة ٥٥٩) . وجملة حججه : أن نص سيبويه يرجع الى مذهب البصريين وحده ، وأن النساء بمعنى النسوة تحل احدى الكلمتين محل الاخرى ، وأن النساء إن فرض انها لا تقال إلا للكثرة وهو فرض بعيد فما دخل الكثرة في الحكم النحوي (يعني النسبة) ، وأنه يقال النسائي بأنزال الجمع منزلة الجنس الواحد كما يقال الانصاري والاعرابي بأنزال الجمع منزلة القبيلة الواحدة .

ودونك قطع هذه الحجج المجتلَبة :

١ — لم يورد المنقود نصًّا للكوفيين يدفع نص سيبويه أو يخالفهُ أو يضعفهُ ، ولم يأت أيضاً بـ « نسائي » مسموعاً منقولاً عن فصيح .

٢ — ان نساء جمع نسوة ، وهي للكثرة . « قال ابن سيده (المحكم) : و« النساء جمع نسوة إذا كثرن » (لسان العرب ج ٢٠ ص ١٩٣، تاج العروس ج ١٠ ص ٣٦٥) . وفيهما أيضاً : « ولذلك قال سيبويه في الاضافة (النسبة) إلى نساء : نِسوي ، فرده الى واحده » . ففي النسبة تكون الاضافة الى الواحد ، وإذ ليس لنسوة من لفظه واحد ، فسبوا الى نسوة لأنهُ أقرب من نساء الى الافراد .

٣ — قد تكون النسبة الى نساء ، وهو جماع نسوة ، صحيحة بل واجبة اذا تضمن نساء معنىً غير موجود في نسوة . فقد اشترط أبو حيّان في هذا الموضع : « أن لا يكون رد الجمع الى الواحد يغيّر المعنى ، فان كان كذلك نُسب الى لفظ الجمع كأعرابي ، إذ لو قيل فيه عربي رُدَّ الى الفرد لتبادر الأعمّ ، والقصدُ الأخصّ لاختصاص الأعراب بسكان

البوادي...»[١]. هذا وأنت تعلم أن الذي في نسوة من المعنى هو الذي في نساء، ولولا أن يكون الأمر كذلك ما حلت إحداهما محل الأخرى بحسب ما يقرّ بهِ المنقود نفسه. ثم إنك ترى أن حكم نساء ونسوة هنا غير حكم أعراب وعرب، فلكل من هذين اللفظين الآخرين معنًى خاص بهِ كما قد مرّ بك. ومثل هذا قل في «أنصاري» فانما الانصاري مما «غلب فجرى مجرى الاسم العلم»[٢]، ولم يرد النسائي تحت قلم الكاتب اسمَ علم.

٤ — وأما تكلّف المنقود الرغبةَ في انزال النساء منزلة الجنس الواحد فأمر يبطله ما ورد في خاتمة «المصباح المنير» (فصل النسبة): «وان كانت النسبة الى جمع فان كان مسمًّى بهِ نسب اليهِ على لفظه نحو كلابي وأنصاري، لأنهُ نازل منزلة المفرد فلم يغيَّر. وان لم يكن مسمى به، فان كان له واحد من لفظه نسبتَ الى ذلك الواحد فرقاً بين الجمع المسمى به وغير المسمى به، وقلت: مسجدي في النسبة إلى المساجد.. ، لأنك ترده الى واحده. وقيل إنما رُدَّ إلى الواحد لأن الغرض الدلالة على الجنس، وفي الواحد الدلالة عليهِ فأغنى عن الجمع. وكذلك لو جمعت شيئاً من الجموع التي لا واحد لها من لفظها، نحو نَبَط تجمع على أنباط، إذا نسبتَ اليهِ رددته الى ما كان عليهِ، وقلتَ نبطي في النسبة الى الأنباط، ونسوي في النسبة الى النساء».

٥ — والخلاصة ان المنقود في تخريجه حكم برأي نفسه[٣] وقد فرت من بين يديه قواعد النسبة وشرائطها، وغابت عنه نصوص الثقات والأثبات. ولذلك أراني مضطرًّا إلى أن أحملهُ لأتبع سيبويه، وقد تبعـهُ في «نِسوي»: ابن سيده في مخصصهِ ج ٣ ص ١٥٤، والفيروزابادي في قاموسهِ، وابن مكرَّم في لسانهِ، والزبيدي في تاجهِ، والفيومي في مصباحه[٤].

(١) حاشية الصبان على شرح ألفية ابن مالك للأشموني، ط مصر ١٢٨٠ ج٣ ص٢٣٧.

(٢) حاشية الصبان ص ٢٣٩

(٣) arbitrarily, arbitrairement

(٤) ويتصل بحكم الكاتب برأي نفسه مجازفة وباجترائه على المروي الصحيح ما فرط منه في قصة «سن السيدة عائشة» في كتابه ثم في نقاشه. ولقد اطلع القارئ في «المراسلة والمناظرة» من العدد الماضي على الفصل الفاصل الذي عقده أحمد محمد شاكر:

ثم انه يلحق بمثل تلك المجازفة أن المنقود حسب ان «النقد الداخلي critique interne» عند علماء التاريخ منصرف الى تعرف طبائع الخلق (الرسالة العدد ٥٥٥ ص ١٩٤). والوجه الصحيح أن النقد الداخلي (أو الباطني) عند القوم موقوف على تبيين النصوص، وتحري الاخبار، الى ما يندرج تحت ذلك. وكتب مناهج العلوم باللغات الاوربية زاخرة بأصول هذا الفن. ومن الميسور الآن أن يقف عليها المستطلع في كتابين خرجا بالعربية: الاول «مصطلح التاريخ» لاسد رستم، بيروت ١٩٣٩ (ص ٦٦ — ١٣٠)، والثاني «منهج البحث التاريخي» لحسن عثمان، القاهرة ١٩٤٣ (ص ١١٣ — ١٨٠)

وأما المغالطة فهنا :

كنت أخذت على الكاتب قوله : « الاختلاف يتراوح بين السنة الرابعة والسنة السادسة وما بعدها » ص ٩٣ من كتابه . وأشرت الى ان التراوح خلاف هذا ، كما قد بيّن من قبل الامام اليازجي ، واليوم الكرملي في مجلة المجمع العلمي العربي ، والعوامري في مجلة مجمع اللغة العربية الملكي . فانما غرض المؤلف : « يترجح » أو « يتذبذب » أو نحو ذلك .

فاستدرك المنقود على هذا النحو : « لكن المراوحة بين العملين في جميع معجمات اللغة هي أن يعمل الرجل هذا مرة وهذا مرة . والمراوحة بين الرجلين هي أن يقوم على كل مرة . فاذا قلنا على هذا ان الاختلاف يتراوح بين السنة الرابعة وبين السنة السادسة فذلك صحيح ما دام الاختلاف هنا هو الفاعل الذي يقول مرة بسنة من السنين ومرة بسنة أخرى ، فهو يتراوح بين القولين تارة الى هذا وتارة الى ذاك . »

ويزيّف هذا أن الكاتب أجرى تراوح مُجرى راوح . وهما على اختلاف : راوح رباعي ، غير معتدٍ بنفسه ، فاعله فرد وهو يكون بين أمرين : يُعمل ذا مرة وذا مرة : راوح فلان بين كذا وكذا . وأما تراوح نخماسي ، له أن يتعدى بنفسه ، فاعله غير واحد ، وهو أن يتعاور عاملان أو أكثر أمراً واحداً ، : هما يتراوحان عملاً ، « وان يديه لتتراوحان بالمعروف » . فكيف تقول : « الاختلاف يتراوح بين كيت وكيت » ؟ في ذلك كله راجع ما سطره العوامري في مجلة المجمع ج ٢ ص ٢٨٣ — ٢٨٤ .

• • •

ذلك تفصيل رد الكاتب المنقود مع دفعي له .

وما دمت في معرض التنبيه على سبيل التمثيل فلا بدّ من تتبع طائفة من الأوهام المبثوثة في كتاب أخرجه الكاتب من أيام ، وعنوانهُ « عمرو بن العاص » . وليكن التنبيه في غير اطالة . وقد يكون الوهم من جهتي ، فإن كان ذلك كذلك ففي المرجوّ أن أُرَدّ الى الصواب . فانما الغاية التي أجري اليها ويجري غيري من الغُيُر بقاء لغتنا الكريمة على نقائها :

١ — الخلط — في ثنايا الكتاب (خاصة ص٨٢—٩٥) استعمل المؤلف كلمة « الروم » تارة و « الرومان » أخرى ، من غير تمييز ، وإنما مقصده هنا وهنا : روم « بزنطية » وهم « الطبقة الثانية من ملوك الروم » على ما جاء مثلاً في « التنبيه والاشراف » للمسعودي ، لا « الطبقة الاولى » ومركزها رومية (« الرومان » اليوم) .

٢ — اضطراب التعدية — ص ١٠ :« وهو الذي قال عن النبي عليه السلام حين مات ابناه : ان صاحبكم هذا الأبتر . فنزلت فيا الآية : ان شانئك هو الأبتر » . واستعمال « عن » بعد « قال » في هذا الموضع خطأ كريه ، لأنها للنقل والرواية ، فكأن القائل ينقل عن الرسول ، والوجه أن يقول : « قال فيه » أو « عليه » — ص ١١ : « ومن كلامه عنها (عن أم عمرو) أنها سلمى بنت جرولة » . والذي لحق « عن » في المأخذ السابق يلحق بها هنا . والصواب استعمال «على» أو «في» — ص ١١ : « وانجاب هذه ومثيلاتها للنوابغ من البنين » . جعل «أنجب» متعدياً بنفسه (واللام مزيدة للتقوية)وهو لا يتعدى بنفسه، يقال : أنجب الرجل والمرأة إذا ولدا ولداً نجيباً . وورد : أنجب والداه به (أساس البلاغة ، ن ج ب) — ص ٢٨ : « واعده الى مكان منفرد » . والذي في « اللسان » و « التاج » : واعده الوقتَ والموضعَ — ص ٦٢ : « يتأهبون للزحف على المدينة » . والمنقول : (اللسان ، مثلاً) « يزحفون الى العدو » : يمشون . وأما « زحف على » فمن « زحف الصبي على الأرض قبل أن يقوم أو يمشي » . فعلى ، هنا ، تفيد الاستعلاء ، وأما الى فتدل على انتهاء الغاية المكانية — ص ٩٣ : « أهو روماني أو مصري » . والمقصود : أروماني (رومي) هو أم (أو) مصري ؟ إذ هنا طلب التعيين — ص ١٢٥ : « نضاله (أي معاوية) مع علي » . والمقصود : نضاله عليًّا أو لعلي . لأنّ « مع » تفيد هنا الاجتماع والمصاحبة والمشاركة ، وهذا عكس الذي يريده المؤلف .

٣ — العاميّات — ص ٣٥ : « يقدم الرجل الحذور (؟) على شطحات » . يريد « على مخاطرات » . والذي في تاج العروس : « الشطحات ، وهي في اصطلاحهم (يعني المتصوفة) عبارة عن كلمات تصدر منهم في حالة الغيبوبة (divagations) . وذكر الشيخ السنوسي في أثنائه : الشطحات لم أقف عليها فيما رأيت من كتب اللغة كأنها عامية وتستعمل في اصطلاح التصوف » ، اطلب هنا كتب مصطلحات الفلسفة : « التعريفات » للجرجاني ، مثلاً . وللشطحات معانٍ شتى متأخرة تصيبها في « ذيل المعجمات العربية » للمستشرق دوزي — ص ٥٧ : « حاق بها الفشل » . يريد « الاخفاق » ، على حين الفشل : الجبن والفزع والضعف. وقد سبق لبصير في اللغة أن ردّ الكاتب في هذا (الرسالة ٥٤٥ ، ٥٤٨) ففزع الكاتب الى التخريج المجازي . فهل أجعل بين يديه ما قيّده العوامري في مجلة مجمع اللغة العربية (ج ١ ص ١٥٦) قال ، بعد استشهاده بالنصوص العالية على رأسها ما ورد في القرآن : « فالتلميذ الذي يقول مثلاً : فشلت في الامتحان أي أخفقت : لا يدري إلا أن هذا

المعنى لذلك اللفظ ، ولا يفقه وراء ذلك شيئاً . فكيف نبيح له هـذا الاستعمال المجازي ، وهو يجهل حقيقة اللفظ ومجازه ؟ فهذا خطأ يجب اصلاحه ، فان المجاز والاستعارة انما يكونان عن علم وإرادة ودراية ، وإلاّ كانا عبثاً وتخليطاً . » — ص ٧٥ ، ٧٧ : « ثقة الفاروق بكفاءة عمرو ودرايته — ما عرف من كفاية عمرو » . الكفاءة غير الكفاية ، وقد تكلم اللغويون لهذا العهد في هذا المطلب غير مرة . والصواب في الموضعين : الكفاية — ص ٩٥ : « كانت حركات السرايا في الصعيد مناورات للتعمية والاستطلاع » . والمناورات — وهي جمع مناورة — من الألفاظ الدخيلة على أيدي الترك فيما يغلب على الظن ، وهي عامية أيّ عامية وفرنسيتها manœuvres . وعربيَّتها في هذا الموقع : مراوغات ، محاوتات (فعل الحوت في الماء) — ص ١١٣ : « فليس عمرو بالذي يحتمل هذا العزل أو يستكين اليه » . والمراد : يسكن اليه أي يطمئن ويرتاح . وان أردت : استكان ، وهي بمعنى خضع وذلّ (اللسان ، ك ي ن) فالتعدية باللام لا بإلى ، وفي التنزيل : « ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون » — ص ١٣٥ « في السابع عشر من رمضان » . والأعلى : من شهر رمضان . قال ابن درستويه في كتاب الكتّاب (بيروت ١٩٢٧ ، ص ٩٢) : « وأما الربيعان ورمضان فليست بأسماء للشهور ولا صفات لها ، فلا بدّ من اضافة شهر اليها ، كقولك شهر ربيع وشهر رمضان . . » ثم ارجع الى تاج العروس (ر م ض) : « قال الفراء : يقال هذا شهر رمضان وهما شهرا ربيع ، ولا يذكر الشهر مع سائر الشهور العربية ، وشاهده قوله عزّ وجلّ : شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن . »

٤ — من غرائب الصرف — ص ٦٨ : « فجرد جيشاً من ثقاة المسلمين » . والصواب الصواب : ثقات ، بالتاء المبسوطة ، فالمفرد : ثقة ، وحكمها حكم صفة . فكأن المؤلف قاسها على قضاة ، ومفردها قاضٍ .

• • •

وبعد ، فليس للقلم رجعة الى هذا الآن اذا اعتبر النقود ، فكتب لوجه العلم والأدب .

بشر فارس

◆

استدراك : سقطت عبارتان : (١) والمولدات وغير ذلك — ص ٥٠١ س ١٧ ، بعد : — العاميات (٢) وفي المصباح والتاج أيضاً ذكر من يجوّز اسقاط كلمة شهر . ص ٥٠٢ خاتمة س ١٧

رسالة

وردتنا ـ وهذا الباب ماثل للطبع ـ رسالة من مصطفى جواد الدكتور في الآداب من السربون والاستاذ بدار المعلمين العالية ببغداد ، زاخرة بمراجعات لغوية في ما دار على قلم المنقود وإذ كانت الرسالة مطولة وكان المقام محدوداً نعتذر الى كاتبها المتمكن وقارئ هذا الباب من الاجتزاء ببعض ما حوت الرسالة .

تناول صاحب الرسالة في أول حديثه الكلام على الجزازات، فقال في ما قالهُ : « اما علم الجزازات فقد حاول الكاتب أن يتغافل عن ضرورته فما استطاع قط ، ولا يبلغ علم الجزازات إلا من له استعداد لتصنيف العلوم تصنيفاً علميًّا . ولا يجوز أن يستخف بهِ من لن يبلغه... »

وبعد تلك الديباجة عرض للأغلاط اللغوية ، فسرد منها اثنين وعشرين وقع عليها في ثلاث مقالات جرى بها قلم المنقود في مجلة الرسالة (وأرقام الأجزاء : ٥٥٥ ، ٥٥٧ ، ٥٦٩) وهو ينازع في مسائل النقد المنشور في مقتطف فبراير الماضي . ونحن نقتطف من ثمرات السرد ما يأتي :

« الجزء ٥٥٥ — ص ١٦١ « آراء حول الكتابة » . والصواب : في الكتابة ، لأن حول ترجمة about || ص ١٦١ « وفيما يلي طائفة من الآراء » والعرب لا تستعمل الفعل : ولي يلي ، بلا مفعول لأنهُ واجب لتعيين المكان || ص ١٦٢ « تكلمنا عنها » والظاهر انهُ لا يميز بين تكلم عنه وتكلم عليهِ ، والفرق في استعمال حرف الجر لازمة مراعاته كالذي في صبر عنه ، وصبر عليهِ ، وقال عنه ، وقال عليه || ص ١٦٢ « وعلى أية حال لامساس في هذا ولا ذاك » ومعلوم أن خبر « لا » للتبرئة ومعمول خبرها لا يجوز أن يتقدما عليها ، فالصواب : ولا مساس في هذا ولا ذاك على أية حال . وإنا لنعجب من بعد الكاتب عن السليقة العربية... »

« الجزء ٥٥٧ — ص ٢٠١ « كتبنا عن عائشة كتابنا » والصواب : في سيرتها ، في ترجمتها ، أو ما أشبه ذلك . « وكتب عن » تفيد : نقل واستملى واستنشد . والخطأ من غلبة لغة الترجمة على قلم المنقود ولبه || ص ٢٠٢ « دبت بين الرسول وبين إحدى زوجاته » وهذا خطأ لأن « بين » المضافة إلى الظاهر لا تتكرر || ص ٢٠٢ « اذا نحن لم نمحص خلائقها » والتمحيص : الابتلاء والاختبار، فكيف يختبر أخلاقاً ماضية مع صاحبتها . وفي القرآن الكريم : « وليمحص الله الذين آمنوا » أراد تمحيصهم بالجهاد والصبر . فالتمحيص للامر المشاهد ، وهو في التطهير من أعمال

الله تعالى . وفي أساس البلاغة : « محص الله التائب من الذنوب ، ومحصهُ : خلصه من كل عيب ... » فان كان في صاحبة الترجمة عيب فهل يستطيع هو تمحيصها منهُ أي إخلاصها ، وهل هو محترف للتمحيص على طريق الوكالة عن الله تعالى ؟ || ص ٢٠٢ « ثم نقا ل بين الكفتين » ولم يقل عربي فصيح : قابلت بين كفتي الميزان والأمرين والشاعرين ، وانما قالوا وازنت ، فكل استعارة في العربية تستوجب فعل المستعار ، فالمستعار في الحقيقة «الكفة» والفعل الخاص بها : الموازنة والرجحان ، أعني بالفعل الحدث || ص ٢٠٢ « ولكن ما هو البحث الخالص ؟ » وكل يعلم ان الاضمار قبل الذكر لا يجوز ها هنا ، لأن المسئول عنهُ هو البحث ، ولأن « هو » مقدمة إخبار ، ولا يجتمع سؤال ومقدمة إخبار في عبارة واحدة ، لتناقضهما بالنسبة إلى مقتضى الحال || ص ٢٠٣ « وهذا هو التدليل » والتدليل كلمة لم تستعملها العرب فلم يقولوا في القصد : التقصيد ، ولا في الهداية : التهدية . ولعله أراد «الدلالة» وظنها غير كافية فنقل فعلها الى باب المبالغة والتكثير ، مع أن «الدلالة» تدل على المبالغة لأنها على وزن « فعالة » ، وهي من مصادر المبالغة كالعزازة . فالعرب تكتفي بوزن المصدر عن النقل ... »

«الجزء ٥٥٩—ص ٢٤٢ : النسبة إلى « أمّهة » : أمّهي ، كما يقال في النسبة الى « ترّهة » : ترّهي ، لا : أمّوي . فقد قال الكاتب : « فاذا قلبت الهاء (من أمهة) واواً كما قلب في سنة : سنوي ، شفة : شفوي ، عضة : عضوي فليس في ذلك خلاف للمأثور ولا المنصوص عليه » وفي هذا تخليط عجيب ، لأنك إذا عددت أصل « أمّ » أمّهة خرجت الأمهة من باب سنة وشفة وعضة ، وللنسبة أبواب وحساب . وليست سنوي نسبة إلى سنة بسبب قلب الهاء واواً كما ادعى الكاتب ، وإنما ذلك لرجع اللام المحذوفة الى الكلمة وحسبانها واواً || ص ٢٤٢ «يسهل ايجاد الذنب .. ولا يسهل ايجاد العذر » وظاهر قوله أنهُ لا يميز بين الايجاد والوجدان . فالايجاد : إحداث وانشاء وخلق ، والوجدان : عثور . فالصواب : يسهل وجدان الذنب || ص ٢٤٢ « هم اولئك الادعياء الذين يقحمون انفسهم » . وقد استعمل اسم الاشارة قبل تعيين المشار اليهِ بالذكر او بالجهة ، وذلك خطأ قبيح أيضاً . فالصواب : هم الأدعياء أولئك الذين يقحمون || ص ٢٤٢ أيضاً « وهو يقرأ ما أمامه بهذه اللغة فلا يفهمه » ولم أظن قط كاتباً يجهل الفرق بين « أمامه » و « بين يديهِ » و « بإزائهِ » ... فالامام يقتضي أن يكون ظهر الكتابة الى وجه الرائي والقارئ ، ولا فائدة في ذلك . وايضاح ذلك أنك تقول «وقف فلان أمامي » اذا كان ظهره الى وجهك و «وقف بين يدي وبحضرتي»

اذا واجهك . فالمكتوب يكون بين يديه لا أمامهُ لاستحالة قراءته إذا كان أمام...»

وبعد ذلك عرض صاحب الرسالة لكلمة « نسائي » و « تراوح » وهما من زلات المنقود كما تقدم . ونحن نثبت هنا ، على جهة الاختصار ، ما جادت بهِ بصارته باللغة ولم يذكر في ثنايا المقال السابق :

١ — « نسائي » : « ادعى (يريد المنقود) جواز النسبة الى نساء وترك نسوة بخلاف ما نبه عليهِ سيبويه وثقات الصرفيين ، قال نجم الأئمة الاستراباذي (« شرح الشافية» ط مصر ١٩٢٩ ج ٢ ص ٨٠) : « وان كان اللفظ جمعاً واحده اسم جمع نسبت أيضاً الى ذلك الواحد كما تقول في النسبة الى نساء : نسوي، لأن واحده نسوة ، وهو اسم جمع ...» وتجوز النسبة الى الجمع بشروط أولها حصول فائدة في ذلك كدفع التباس أو حفظ أصل أو جهل مفرد أو موازنة مفرد ، فما الفائدة في قولنا : نسائي ، مع نص العلماء على نسوي ؟ ولا دخل للمذهبين البصري والكوفي في هذه المسألة ، فلم يقل أحد من الصرفيين الكوفيين إنهُ يجوز أن يقال : نسائي وأنباطي وأقباطي ورجالي ...»

٢ — « تراوح » : « احتج اولاً بالمراوحة اي المفاعلة من الراحة او الروح ، لا من الرواح ثم وثب الى التراوح ، وفي كليهما كان مسقطاً في القول واهماً ، وهذه عاقبة من يخطيء الصواب ويريد الخلاص من الاقرار بالخطأ . فالمراوحة عملُ فاعل واحد ، والتراوح عمل فاعلين او أكثر منهما . فالاختلاف واحد لايتراوح وحده، وكذلك لايقال هذا الشيء لايتساوى ولا يتماثل ولايتشابه ولايتقابل: ثم إنهم جعلوا تراوح متعديًا بنفسهِ فما الذي أدخل « بين » في الجملة ؟ فانهُ يقال : تراوحا العمل، ويقال : « ان يديه لتتراوحان بالمعروف» بحذف المفعول والاصل : «لتتراوحان الحركة بالمعروف » . وصواب القول : «والاختلاف بين السادسة والرابعة» بحذف يتراوح . واذا أريد الشك قيل : « الرابعة أو السادسة » كقوله تعالى « الى مائة الف أو يزيدون . »

ثم ختم الرسالة بقوله : « وجدنا له هذه الاغلاط في موضوع واحد ولو كان ذا ثلاثة اجزاء (يعني « الاعداد الثلاثة » من مجلة الرسالة) ، فكيف يكون حاله إن قرأنا له كتاباً من كتبهِ ؟ .. وإني أعد السكوت عن هذا جريرة في شرع العلم والأدب...»

بغداد مصطفى جواد

باب الأخبار العلمية

مرصد غرينتش يغير مكانه

أذيع من لندن في أواخر مارس الماضي، نبأ يصح أن يعد نهاية عصر في تاريخ علم الفلك الحديث: ذلك بأن مرصد غرينتش الذي يعتمد عليه في التوقيت، في جميع أنحاء العالم، واليه يرجع ربابنة السفن في حساب مساراتهم في البحار، سينتقل من مكانه التاريخي، جنوبيّ نهر التاميز.

وقد أعلن السر هارولد سبنسر جونز مديره، أن الباعث على هذا الانتقال، هو الدخان الذي يحفل به هواء لندن الآن، في منطقة مباني المرصد، نتيجة لقيام منشآت صناعية كثيرة فيها

وقد زعم الألمان، أن قنابلهم أصابت المرصد في الهجوم الجوي على لندن سنة ١٩٤٠ وفي خلال الغارات الأخيرة، ولكن ذلك لم يؤيد من مصادر رسمية بريطانية.

على أن انتقال مرصد غرينتش من مكانه الى مكان آخر، لا يحدث تغييراً ما في المهمة العظيمة التي طال عهد نهوضه بها وهي تعيين الوقت الاساسي الذي ينسب اليه الوقت في كلّ منطقة أخرى في العالم. فمكانه الجديد، أنّى كان — وهو لم يحدّد بعد على ما يعلم — سيكون على خط الطول « صفر » الذي يحسب كل شرق وكل غرب بالقياس اليه.

وقد أنشىء مرصد غرينتش سنة ١٦٧٥ على عهد الملك تشارلز الثاني ليكون معواناً للاّحي البحار في مستهل العصر الذي أخذت تتسع فيه الملاحة البريطانية اتساعاً عظيماً. والملاحة المحكمة تقتضي معرفة مواقع القمر والنجوم معرفة دقيقة، فأنشىء المرصد لهذا الغرض وعين له الملك تشارلز الثاني مكاناً في أعلى موقع بالحديقة الملكية في غرينتش وعهد الى السر كريستوفر رن المهندس المعماري المشهور في تصميم مبناه، على أن لا تزيد نفقاته على خمسمائة جنيه وعيّن الفلكي المشهور جون فلامستيد مديراً له بمرتب يبلغ مائة جنيه في السنة.

وقد كانت ضاحية غرينتش مثابة لكبار القوم في ذلك العهد، ولكن التوسع الصناعي، كاد يغمر المرصد بالمصانع الجديدة ومحطات توليد الطاقة المحركة فغدا الهواء ملوّثاً، وفرضت على أعمال الرصد قيود حدّت من نفع المرصد على ما قال مديره سبنسر جونز في حديث له نشر في الصندي اكسبرس.

ثم إنَّ مصابيح السيارات الكثيرة ، كانت تشق ظلام الليل في جواره ، بأنوارٍ لامعة قبل الحرب — وكذلك أضواء الاعلانات الضخمة : فاجتمع القتام الناشئ عن الدخان والهباب ، والبهاء المتقلب الناشئ عن أنوار السيارات ، على جعل انتقال الرصد من مكانهِ الحاليّ أمراً لا مفرّ منهُ.

فرؤية المجرَّة بالعين المجرَّدة غدت متعذرة والتصوير الطويل الأمد بالمصوِّرات الضوئية، غدا مستحيلاً .

هل «الريلاكسين» تورٌ جديد يهوّن الولادة على الحوامل ؟

في الأنباء العلمية من أميركة أن أحد أساتذة جامعة هارفرد بيَّن وجود هرمون «تَوْر» جنسيّ جديد للأنثى . وقد قضى في هذا البحث عشرين سنةً فلما ثبت وجوده عنده ، أطلق عليه اسم «ريلاكسين» ومعناه المادة التي تحمل العضلات على الانبساط . فاذا ثبت وجوده عند غيره من العلماء وتأيدت الخواص التي تعزى اليهِ، أصبح عاملاً من أهم العوامل لتهوين الولادة على النساء .

وكاشف هذا « التوْر » هو الاستاذ فردريك لي هيسو Hisau ، وقد كشفهُ بعد بحث طويل مستفيض في دراسة الحياة الجنسية لحيوان يعيش في أنفاق البراري كما يعيش الخلد.

وقد لاحظ انَّ حوض الأنثى في هذا الحيوان ضيق ، وفتحتهُ لا تتسع للولادة ، ولكن اذا حملت الانثى اتسعت الفتحة . فخطر له ان « توراً » معيناً في المبيضين يحدث هذا التغيير في سعة فتحة الحوض ، وامتحن ظنهُ هذا بحقن خلاصة من مبيضي أنثى في ذكر مخصيّ ، فاتسعت فتحة الحوض .

فلما نشر نتيجة مباحثهِ الأولى ، قل من التفت اليها . ولكنَّ علماء الغدد بدأوا يعنون بمباحثه حين تمكن هيسو وغيرهُ من الباحثين من العثور على هذه المادة التي تحمل العضل على الانبساط في الحوامل من خنازير الهند والأرانب والكلاب والهررة والافراس والنساء

ولكن اين هذه المادة ، وما قوامها ، وهل يستطيع عزلها ومعرفة تركيبها الكيميائي؟

فلما روي انَّ بعض الباحثين في اوربة تمكنوا من احداث الانبساط في اوتار عضلات الحوض بحقن التورين المعروفين للمبيض — وهما الإستروجين والبروجستيرون — غلب الرأي أنَّ رأي هيسو لا يستند الى أساس صحيح . ولكن هيسو وصحبهُ مضوا في بحوثهم ، وفي أواخر مارس الماضي، نشروا في مجلة « علم الغدد الصم » بحثاً مسهباً بينوا فيه أن المادة التي دعوها « ريلاكسين » هي

حتماً غير الاستروجين والبروجستيرون ، ذلك بأنهم استخلصوا من المبيضين خلاصة مركّزة ، أزالوا منها كلّ أثر لتوءَري الاستروجين والبروجستيرون (وهما يحلاّن في الكحول) وعلى ذلك أحدثت هذه الخلاصة فعل الانبساط .

التنتالوم : فلزٌّ عجيب

كان التنتالوم منذ أربعين سنة فلزّاً لم تقع عليهِ عين إنسان ، ولكنهُ اليوم يستعمل في جراحات الحرب فيسدي خدمات لا تقوَّم بمال.

والتنتالوم من الفلزات النادرة ،ولا يزال ثمن الرطل الواحد منهُ في حدود ستة عشر جنيهاً ، ولكنهُ متصف بخواص تجعلهُ مادَّة لا غنى عنها تقريباً في علاج جمجمة مكسورة أو أذن مصلومة أو أنف مجدوع . وقد يستعمل كذلك سلكاً دقيقاً لربط طرفي عصب منفصم فيتيح لجرحى الحرب ومصابيها استعمال اذرع وأفخاذ كان استعمالها متعذراً لولاهُ .

وسبب ذلك أن التنتالوم لا يتفاعل إلاَّ مع مواد كيميائية قليلة ، وعصارات الجسم لا تؤثر فيهِ ، ثم ان العظم ينمو عليهِ وحواليهِ وكذلك سائر نُسُج الجسم الرخوة .

ومن اعجب الامثلة على فوائده ، مثل فدائيٍّ أميركي كسرت جمجمته في شمال افريقية ، فاستخرج الاطباء شظايا العظم المحطم واحلوا محله ، لتغطية المخ ، رقعة من التنتالوم مساحتها ١٢ بوصة مربعة وثخانتها جزء من عشرين جزءاً من البوصة . وقد عاد الجندي إلى الخدمة الحربية .

وكسرت جبهة بحَّار فعاد بفضل التنتالوم الى الخدمة في الغوَّاصات . وكان من أثر الحادثة في أول الامر ان ترك في الجبهة منخفضاً ، وكان يشعر بالدوار في الحين بعد الحين ويصاب بصداع متكرر . وقيل له إنهُ لا يصلح للخدمة . فكشط الاطباء الجلد ووضعوا لوحاً من التنتالوم ثم خاطوا الجلد ، وهو الآن لا يشكو إلاَّ ندبةً على الجبهة ، ويستطيع ان يتحمل ضغط الهواء الشديد الذي يتعرَّض له بحَّارة الغواصات . وكذلك نجح الجرَّاحون نجاحاً عجيباً في وصل طرفي عصب مفصوم ، بسلكٍ دقيق من التنتالوم .

ولا تقتصر فوائد التنتالوم على استعماله في الجراحة . فهو يصلح لصنع اسلاك المصابيح الكهربائية ،وان كان التنغستن قد حلَّ محلَّهُ . ويدخل في صنع الزجاج المستعمل في المصورات الضوئية فيمكن الطائرات المستكشفة من تصوير أجسام على الأرض من ارتفاع عظيم . ثم إنهُ عامل كيميائي وسيط في إحدى مراتب صناعة المطاط . وأخيراً إنهُ يتصف بقدرتهِ على امتصاص جزيئات الغاز .ولا يخفى أن الأنابيب الكهيربية المفرغة ليست مفرغة تماماً . بل يبقى فيها بعض الغاز ، فاذا وضع التنتالوم داخل هذه الأنابيب امتص جزيئات الغاز فيطول « عمر » الأنابيب .

« الانسولين » في علاج كلّ شيء !

ورد من مدينة المكسيك خبرٌ طبيٌّ ، إن صحّ ، كان باعثاً على الدهش ، وخطوة أخرى عظيمة في الكفاح بين الانسان والمرض.

ففي مدينة المكسيك طبيبٌ — الدكتور دوناتو بيريز غارسيا — يستعمل الانسولين في علاج كل حالة مرضية من التيفود والزهري الى التهاب البريتون والملاريا والروماتيزم . وهو يحقن المريض بمقدارٍ من الانسولين ، يكفي لاحداث صدمةٍ قويةٍ فيه ، فيتفصّد عرقاً ويزداد نبضهُ وترتفع حموضة دمهِ ويصاب بغيبوبة . وهذه أعراض الصدمة . ثم يحقنهُ في الوريد بمقدار من الغلوكوز ، لمقاومة أعراض الصدمة ، وهو يعتقد أن الصدمة تؤثر في البكتيريا فتجعلها أدنى الى التغلب عليها بالعلاج الخاص بالمرض . وقد مضى على غارسيا خمس عشرة سنة وهو يجري على هذا الضرب من العلاج . وقد عالج بهِ أحد عشر الف حالة — على ما روي — فلم يفض العلاج الى وفاة أحد . وقد شهد فريقٌ من الأطباء بعض ما فعل فأعجبوا ، ولكن المسألة في حاجة الى بحث علمي دقيق وتجارب كثيرة محكمة ، خاضعة لجميع قيود التجريب العلمي .

وقرَّاء المقتطف يعلمون ، ان صدمة الانسولين ، أجدت في علاج بعض الأمراض العصبية . وفي مقتطف يوليو ١٩٣٨ ص ١٥٧ — ١٥٩ مقال عنوانهُ « الصدمة التي تشفي علاج الخبَل بالانسولين وتأثير صدمتهِ في المدمنين ».

أبناء عمومة البنيسيلين

يستخرج « البنيسيلين » من العفن المعروف باسم « بنيسيليوم نوتاتوم » . وثمة عفن آخر يدعى « بنيسيليوم باتيولُم » استخرج منهُ العلماء البريطانيون مادة أطلقوا عليها « باتيولين » . وثمة عفن ثالث يدعى « أسبرجيلوس كلافاتوس » استخرج منهُ العلماء الأميركيون مادة أطلقوا عليها « كلافاكين » . وقد قيل ان « الباتيولين » فعّال في معالجة الزكام ، ولكن التجارب التالية لم تؤيد هذا الرأي تأييداً تامّاً

ثم ثبت ان « الكلافاكين » و « الباتيولين » مادة كيميائية واحدة ، وان استخرجتا من عفنين مختلفين . وهذان العفنان جنسان متقاربان كالتفاح والكمثرى . ولكن « البنيسيليوم باتيولم » أقرب الى « البنيسيليوم نوتاتوم » الذي يستخرج البنيسيلين منهُ[1] .

---

(١) بعد الفراغ من كتابة هذا الخبر طير البرق الينا أن الدكتور هنس اخنوخ الالماني أصلاً ونزيل لندن حالاً استنبط دواء جديداً سماه فيليسلين يحتوي على البنيسلين شكلا ويمتاز عليه بمزايا شافية مدهشة . وكان اكتشاف ذلك عرضاً بعد معالجة ولد مصاب بالزائدة الدودية والتهاب البريتون ، فشفي بهذا الدواء حين كان المرجح انه يموت لو أجريت له العملية الجراحية ، ونحن ننتظر ورود الاخبار المفصلة لهذا الدواء الذي هاج خبره خواطر الاطباء .

النبات وثروة الارض المعدنية

كان معدنو اليونان القدماء يباهون بأنهم يستطيعون أن يعرفوا المعادن التي تنطوي عليها الارض من مراقبة النبات النامي على سطحها . فكان معاصروهم يهزأون منهم أو على الأقل يضربون بكلامهم عرض الحائط . فاذا عمدوا إلى التنقيب وعثروا على المعادن التي قالوا بوجودها استناداً إلى خصائص النبات قال المرتابون أنهم نقّبوا في تلك الارض قبلاً فعرفوا ما فيها ثم حاولوا ان يقنعوا الناس بأنهم يعرفون السبيل إلى سرّها من مراقبة نباتها.

ولكن أحد علماء التعدين المحدثين يقول إن الأدلة متوافرة على أن المعدنين يستطيعون أن يعرفوا طائفة من المعادن المطمورة في الأرض من النبات النامي على سطحها وبوجهٍ خاص اذا كان ذلك النبات كثيف النمو في بقعة ما. فأفضى ذلك الى شروع علماء البلاد المختلفة بدراسة النباتات المختلفة وعلاقتها بالثروة المعدنية المطمورة في جوف الارض .

ومما يروى أن أحد هؤلاء العلماء كان مرة يجول في مقاطعة دربي في انجلترة فرأى أشجاراً من الفصيلة السماقية فقال لصحبه ان في هذه الارض رواسب غنية بالرصاص. قال ذلك دون ان ينكث الارض بعصاه أو يتفرس في حجر من الحجارة التي يدوسها . وأغنى مناجم الرواسب الرصاصية في أميركة ، قائمة في منطقة تزكو فيها الاشجار السماقية .

وهناك نوادر وأمثلة أخر كثيرة من هذا القبيل .

وأحدث ما روي في هذا الصدد أن الدكتور أرثر لتل أحد علماء الكيمياء الاميركيين، ورئيس جمعية الصناعة الكيميائية سابقاً ، اقترح في « النشرة الصناعية » استعمال النباتات لاستخراج معادن شتّى من الأرض . فمن النباتات البحرية ما يختص بطبيعته باستخراج الفناديوم من الارض ، حيث تعدين الفناديوم مستحيل . والفناديوم عنصر تشتدّ الحاجة اليه في صنع صنف خاص من الصلب . ومن النباتات البحرية ما يختص باستخراج المنغنيس، وهكذا.

أصل البلاجرا

البلاجرا مرض ينشأ من نقص المواد المغذية في الطعام . وقد وصفهُ أولاً طبيب اسباني في سنة ١٧٧١ وأصلهُ لفظان إيطاليان يعنيان « البشرة الخشنة »

التلقيح الصناعي في الدجاج

التلقيح الصناعي لكثير من الحيوانات المستخدمة في المزارع بوجه عام ، وللماشية بوجه خاص ، عملية تقدم تطبيقها الى حد كبير . وتم الأخذ بها في معظم الدول . أما التلقيح الصناعي للدجاج فعملية لم يتم الأخذ بها حتى الآن . ولا يعمل بها الا القليل من الاخصائيين . وقد عمل المستر بلاك والمستر مكورجي بجامعة ردنج بانجلترة على تحسين عملية التلقيح الصناعي في الدجاج . وطريقتهم الجديدة هذه تنص على إجراء عملية التلقيح على دورتين : الدورة الاولى جمع المني من الديك والدورة الثانية حقن الدجاجة بالمني .

ويمكن جمع المني من الديك بتدليك بطنه تدليكاً خفيفاً . وذلك لانعاشه حتى يقذف بالمني . ثم يجمع هذا المني في قمع عادي وتختلف كمية المني التي يمكن جمعها من الديك من سنتمتر واحد الى سنتمترين مكعبين في كل مرة ثم يمزج المني بالماء . وذلك بنسبة حجم من المني الى حجم مساو له من الماء ويكفي حقن الدجاجة بعشر سنتمتر مكعب من هذا المزيج . وهذه العملية تستلزم مهارة تامة لضمان نجاحها . لانهُ من الضروري قلب قناة البيض بالضغط وادنائها من فتحة مبرز الدجاجة . وقد وجد أنهُ عند ما تحقن الدجاجة في المبرز فقط لا ينجح التلقيح إلاّ في بعض حالات قليلة . ولذلك كان من الضروري اتباع الطريقة السالفة الذكر . أي حقن الدجاجة في فتحة قناة البيض المقلوبة . والمني الذي يقذفه ديك واحد يكفي لتلقيح ما بين ٥٠ و ٧٠ دجاجة في كل فصل من فصول السنة .

ونعدد الآن المزايا التي يمكن الانتفاع بها في تلقيح الدجاج تلقيحاً صناعياً : —

(١) لا ضرورة لحبس الديك مع الدجاج في مساحة محدودة . وبذلك يمكن تجنب اصابتها بالطفيليات باطلاقها في مساحات واسعة

(٢) بما انهُ يمكن تلقيح عدد كبير من الدجاج من مني ديك واحد في وقت محدد ، يصبح اختبار النسل مسألة سهلة .

(٣) من الظاهر الجلي ان في اتباع عملية التلقيح الصناعي اقتصاداً في مقادير المني المستعملة . حيث ان الحالة الطبيعية تستلزم لنجاح التلقيح وقوع الجماع عدة مرات

هل تعلم ؟

* أن المفرقعات استعملت في التعدين أولاً سنة ١٦٢٧ ؟

* أن الذئب الذي ظهر سنة ١٩٩٨ كان أكبر من القمص ؟

* أن لون الزبدة الصفر يتأثر بما تأكله البقرة أكثر مما يتأثر بسلالتها ؟

* أنهم صنعوا في أميركا ورقاً للسجاير يمكن فيتقيح الجنود التدخين في المطر ؟

فهرس الجزء الخامس

من المجلد الرابع بعد المائة